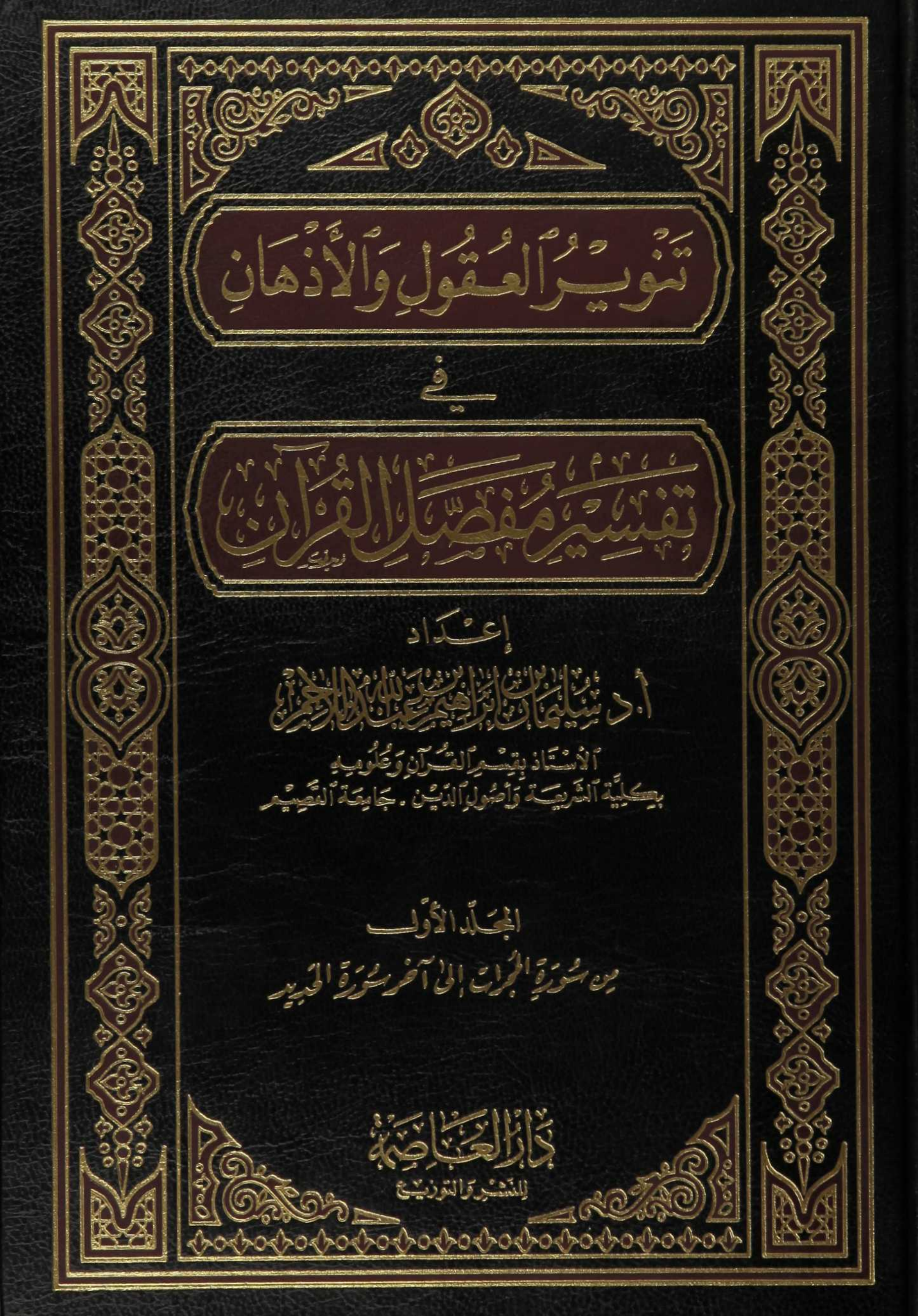
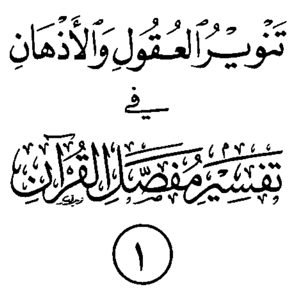

تنوير العقول والأذهان
في
تفسير مفصل القرآن
إعداد
أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم
الأستاذ بقسم القرآن وعلومه
بكلية الشريعة وأصول الدين . جامعة القصيم
المجلد الأول
من سورة الحجرات إلى آخر سورة الحديد
دار العاصمة
للنشر والتوزيع


تنوير العقول والأذهان
في
تفسير مفصل القرآن
١

ح دار العاصمة للنشر والتوزيع ، ١٤٢٨هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية اثناء النشر

اللاحم، سليمان بن إبراهيم بن عبد الله

تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن. /

سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم - الرياض ، ١٤٢٨هـ

٣مج

ردمك ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٣٩-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج١)

١- القرآن - تفسير أ- العنوان

ديوي ٢٢٧،٦ ١٤٢٨/٤٢٣٢

رقم الإيداع: ١٤٢٨/٤٢٣٢

ردمك: ٨-٣٨-٦٩٢-٩٩٦٠ (مجموعة)

٦-٣٩-٦٩٢-٩٩٦٠ (ج١)

الطَّبْعَةُ الأولى

١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م

دارُ العَاصِمَة

المملكة العربية السعودية

الرياض - ص.ب ٤٢٥٠٧ - الرمز البريدي ١١٥٥١

هاتف ٤٩١٥١٥٤-٤٩٣٣٣١٨ - فاكس ٤٩١٥١٥٤

تنوير العقول والأذهان

في

تفسير مفصل القرآن

إعداد

أ.د. سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم

الأستاذ بقسم القرآن وعلومه

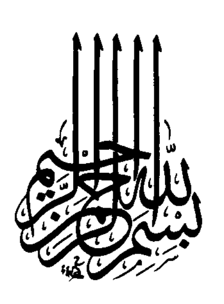
بكلية الشريعة وأصول الدين - جامعة القصيم

المجلد الأول

من سورة الحجرات إلى آخر سورة الحديد

دار العاصمة

للنشر والتوزيع



الإهداء

أهدي هذا التنوير المبارك لجميع المسلمين ، وأخص منهم أهل القرآن الذين هم أهل الله وخاصته ، وكل من ينشد السعادة ويستلهم الرشد والهداية من كتاب الله عز وجل .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أخرجت للناس، أنزل عليها أعظم كتبه وأشرفها، وأرسل إليها أفضل رسله وسيدهم، وأكمل لها الدين، وأتم عليها النعمة، ورضي لها الإسلام دينا.

والصلاة والسلام على البشير النذير، والداعي إلى الله بإذنه والسراج المنير، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ـ أما بعد:

فإن الله ـ عز وجل ـ أنزل القرآن العظيم ليكون نوراً يهتدى به، ونبراساً يقتدى به، ومنهج حياة تسير عليه الأمة، وتتربى به، وتتأدب بآدابه، وتتخلق بأخلاقه؛ بتدبر ألفاظه؛ تلاوة وحفظاً، وتدبر معانيه؛ علماً وفهماً، وتدبر أحكامه؛ امتثالاً لأوامره واجتناباً لنواهيه، وتدبر أخباره؛ تصديقاً لها، ورجاءً لوعده، وخوفاً من وعيده، كما قال ـ عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ مُبَٰرَكٞ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [ص:٢٩].

وقد كان نبينا ﷺ قرآنا يمشي على الأرض، ولهذا وصفه الله ـ عز وجل بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ﴾ [القلم: ٤]. ولما سئلت عائشة – رضي الله عنها – عن خلقه ﷺ قالت: «كان خلقه القرآن»(١).

وقد ضرب صحابته الكرام – رضي الله عنهم – وأتباعهم من سلف هذه الأمة أروع الأمثلة في تدبر القرآن وتعلمه والعمل به، والتخلق بأخلاقه، والوقوف عند حدوده، فعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن».

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يُقْرِئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، فكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يُخَلِّفوها حتى يعملوا بما فيها

---

(١) سيأتي تخريجه.

من العمل، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً»[١].

ولهذا سادوا الدنيا وقادوها، وفتحوا قلوب الناس للإسلام في صدقهم وحسن تعاملهم وأخلاقهم وآدابهم، فانتشر الإسلام في شتى بقاع الأرض وأحب الناس الإسلام وأهله، ودخلوا في دين الله أفواجا

أيام كان المسلمون أعزة في دينهم والعود صلب المكسر
أيام كان الدين ملء نفوسهم وأتوا على كسرى العظيم وقيصر

وما انحصرت رقعة الإسلام وجزر مده إلا بعد أن شوّه كثير من المسلمين صورة الإسلام فصاروا حائلاً بين الناس وبين الدخول فيه، بعد أن أصبح كثير منهم لا يمثلون حقيقة الإسلام، لا علماً، ولا عملاً، ولا سلوكاً، ولا خلقاً، ولا أدباً؛ يتباكون ويتلاومون على واقع الأمة، وهم أصل بلائها، وسبب دائها، بإعراضهم عن تدبر القرآن وتطبيقه في واقع حياتهم، فهجره كثير منهم، فلا يقرؤونه إلا في المآتم، وأصبح كثير منهم يقرؤونه لا يجاوز تراقيهم، فلا يتفهمون معانيه، ولا يطبقون أحكامه، ولا يتخلقون بأخلاقه، بل ربما كانوا أبعد من غيرهم عن أخلاق الإسلام والقرآن، فتفريط في جنب الله وتقصير في القيام بحقوقه – عز وجل، وحقوق الخلق، ومسؤوليات الأمة، وتهالك على الدنيا، وحسد وشحناء، وعداوة وبغضاء، وغلظة وجفاء – وأين هذا من خلق القرآن الكريم.

وما أصاب الأمة ما أصابها من الهوان، والضعف وتسلط الأعداء عليها، وما غزي المسلمون في عقر دارهم إلا بسبب ذلك، مصداقاً لقول الله ـ عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

ولن يُصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها، وذلك بتصحيح مسارها وفق ما رسمه الله – عز وجل – لها في كتابه العظيم، وفي سنة رسوله الكريم، والاهتداء بهديهما، قولاً وعملاً واعتقاداً، منهجاً وسلوكاً، ومحاسبة كل مسلم لنفسه محاسبة

---

(١) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» ١/ ٧٤ وإسناد كل منهما صحيح.

دقيقة، فيما يأتي وفيما يذر، وفيما يقول ويفعل؛ في تعظيم الخالق – عز وجل – والقيام بحقوقه، وفي الإحسان إلى الخلق والقيام بحقوقهم، لأنها من حقوق الله – عز وجل – والقيام بما تحمله وتولاه من مسؤوليات الأمة إذ كل فرد منا على ثغر من ثغور الإسلام فالله الله أن يؤتى الإسلام من قبله.

وهذا ما أردت التنبيه عليه والتوجيه إليه في هذا التفسير، وما توفيقي إلا بالله ولهذا سلكت فيه مسلك البسط والإيضاح، وتسهيل العبارة، لأن هذا المسلك هو الأمثل لتربية المسلمين بالقرآن الكريم وأحكامه وآدابه وأخلاقه، والذي هو الغاية من إنزال القرآن الكريم، وهو حقيقة تدبره وثمرته.

وقد كانت نواة هذا التنوير دروساً في التفسير كنت ألقيها في بعض المساجد منذ سنوات عدة وقد سميته: «تنوير العقول والأذهان في تفسير مفصل القرآن» أسأل الله العظيم – بمنه وكرمه أن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به المسلمين، وأن يجعله خطوة مباركة في سبيل صحوة الأمة وعودتها إلى تدبر كتابه والعمل به والتخلق بأخلاقه - وما ذلك على الله بعزيز وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

المؤلف

تفسير سورة الحجرات

ذهب بعض أهل العلم من المفسرين وغيرهم إلى أن سورة الحجرات هي أول الحزب المفصل.

وذهب أكثرهم إلى أن حزب المفصل يبدأ من سورة ﴿قٓ﴾

لما رواه أوس بن حذيفة قال «سألت أصحاب رسول الله ﷺ -: كيف تحزِّبون القرآن؟ فقالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة، وحزب المفصل وحده»[(١)].

وقد اختار هذا الحافظ ابن كثير رحمه الله فقال في مطلع كلامه على سورة ﴿قٓ﴾[(٢)]: «وهذه السورة هي أول الحزب المفصل على الصحيح» مستدلاً بحديث أوس بن حذيفة ثم قال ابن كثير مفصلاً لما جاء في هذا الحديث:

«فإذا عددت ثمانيًا وأربعين سورة فالتي بعدهن سورة ﴿قٓ﴾، بيانه: ثلاث: البقرة، وآل عمران، والنساء، وخمس: المائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال، وبراءة. وسبع: يونس، وهود، ويوسف، والرعد، وإبراهيم، والحجر، والنحل. وتسع: سبحان، والكهف، ومريم، وطه، والأنبياء، والحج، والمؤمنون، والنور، والفرقان. وإحدى عشرة: الشعراء، والنمل، والقصص، والعنكبوت، والروم، ولقمان، وألم السجدة، والأحزاب، وسبأ، وفاطر، ويس. وثلاث عشرة: الصافات، وص، والزمر، وغافر، وحم السجدة، وحم عسق، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف، والقتال، والفتح، والحجرات. ثم بعد ذلك الحزب المفصل، كما قاله الصحابة رضي الله عنهم. فتعين أن أوله سورة ﴿قٓ﴾ وهو الذي قلناه ولله الحمد والمنة».

وهذا- و الله أعلم – هو الراجح – إلا أنني آثرت إدخال سورة الحجرات في هذا

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة – باب تحزيب القرآن ١٣٩٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ في كم يستحب ختم القرآن ١٣٤٥، وأحمد ٤/ ٩.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٠ – ٣٧١.

التنوير لأمرين: الأول احتمال كونها أول المفصل وإن كان مرجوحًا. الأمر الثاني: وهو الأهم اشتمال سورة الحجرات على كثير من الأحكام والأخلاق والآداب والدروس التربوية.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ «يا» حرف نداء، و«أي» منادى مبني على الضم في محل نصب، إذ أن المنادى في الأصل مفعول به، فمعنى (يا فلان): أدعوك، و«ها» للتنبيه، و«الذين» اسم موصول مبني على الفتح صفة لـ «أي» أو بدل، و«آمنوا» صلة الموصول.

والحكمة من تصدير الكلام والخطاب بالنداء: التنبيه والعناية والاهتمام.

والحكمة من نداء المؤمنين بوصف الإيمان: الحث والإغراء على الاتصاف بهذا الوصف، وتكريم المؤمنين وتشريفهم بهذا الوصف – كما يقال للجواد: يا جواد، وللشجاع: يا شجاع. وبيان أن امتثال ما بعده إن كان أمرًا، والانتهاء عنه إن كان نهيًا، وتصديقه إن كان خبرًا كل ذلك من مقتضيات الإيمان، وأن عدم ذلك يعد نقصًا في الإيمان.

وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ فأرعها سمعك فهو خير يأمر به، أو شر ينهى عنه»[(١)].

والقرآن كله دائر بين أمر ونهي، أو خبر مقتضاه الأمر والنهي كأخبار السابقين وأخبار القيامة فمقتضى ذلك سلوك طريق الأنبياء وأتباعهم، وما فيه النجاة من أهوال يوم القيامة، وهذا معناه الأمر، كما أن من مقتضى هذه الأخبار التحذير من سلوك طرق المكذبين وأعداء الرسل، وما فيه الهلاك في الدنيا والآخرة، وهذا معناه النهي.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال تعالى ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١] وقال إخوة يوسف لأبيهم فيما حكاه الله تعالى عنهم: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ﴾ [يوسف: ١٧] أي : وما أنت بمصدق لنا.

والإيمان: شرعًا: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وهو القلب، وعمل بالأركان وهي الجوارح.

بهذا قال أكثر الأئمة، بل حكى الإجماع عليه عدد من الأئمة منهم الشافعي وأحمد

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ٣/ ٩٠٢ – الأثر ٩٠٢٧.

وأبو عبيد ـ رحمهم الله ـ : فالإيمان: قول وعمل واعتقاد يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية[١].

وقد ذهب شيخ الإسلام ابن تيمية إلى أن من لازم الإيمان اللغوي: الإقرار ولا يكفي مجرد التصديق[٢]

ولهذا لا يقال لأبي طالب عم النبي ﷺ مؤمن، لأنه لم يقر، وإن كان مصدقًا كما قال في شعره:

لقد علموا أن ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعنى بقول الأباطل[٣]

وقال:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا

لو لا الملامة أو حذار مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا[٤]

﴿لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ قرأ يعقوب: (لا تَقَدَّموا) بفتح التاء والقاف والدال، وقرأ الباقون: (لا تُقَدِّموا) بضم التاء وكسر الدال.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة»[٥].

أي: لا تتعجلوا ولا تتسرعوا في الأشياء لا بقول ولا بفعل قبل أن يقول الله ورسوله، فلا تقولوا حتى يقول، ولا تأمروا حتى يأمر، ولا تفتوا حتى يحكم، ولا تفعلوا حتى يفعل رسول الله، ولا تقطعوا أمرًا حتى يحكم الله فيه ورسوله.

كما قال ﷺ: «لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين»[٦] وفي الحديث: «من صام اليوم الذي يشك فيه فقد عصى أبا القاسم ﷺ»[٧].

---

(١) انظر (تفسير ابن كثير) ١/ ٦٢-٦٣، (تفسير آيات الأحكام في سورة النساء)، ١/ ٣٣٥ – ٣٣٩.

(٢) انظر (مجموع الفتاوى) ٧/ ١٢٣، ٢٦٣، ٥٢٩ – ٥٤٣، ٦٣٨.

(٣) انظر (السيرة النبوية) لابن هشام ١/ ٢٩٩.

(٤) انظر (شرح الطحاوية) ٢/ ٤٦١.

(٥) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ١١٦.

(٦) أخرجه البخاري في الصوم ـ لا يتقدم رمضان بصوم يوم أو يومين ١٩١٤، ومسلم في الصيام ـ لا تتقدموا رمضان بصوم يوم أو يومين ١٠٨٢، وأبو داود في الصوم ٢٣٣٥، والنسائي في الصيام ٢١٧٢، والترمذي في الصوم ٦٨٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٥٠ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٧) أخرجه البخاري في الصوم ـ إذا رأيتم الهلال فصوموا ـ معلقًا، وأخرجه موصولاً أبو داود في الصوم ٢٣٣٤، =

قال ابن القيم[(١)]: «والقول الجامع في معنى الآية: لا تعجلوا بقول ولا فعل قبل أن يقول رسول الله ﷺ أو يفعل».

وفي حديث معاذ رضي الله عنه لما بعثه النبي ﷺ قال له: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: بسنة رسول الله. قال: فإن لم تجد؟ قال: أجتهد رأيي: فضرب في صدره. وقال: الحمد لله الذي وفق رسولَ رسولِ الله لما يرضي رسول الله»[(٢)].

فأخّر معاذ رضي الله عنه اجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة.

وقال ﷺ: «إن الله قد فرض عليكم الحج فحجوا» فقال: رجل : أكل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثًا: فقال رسول الله ﷺ:«لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم» ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه»[(٣)].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرما رجل سأل عن شيء لم يحرم على المسلمين فحرم عليهم من أجل مسألته»[(٤)].

فكل من خالف أمر الله ورسوله ﷺ من أهل الكفر والنفاق، وكذا أهل البدع والمعاصي فهو ممن تقدم بين يدي الله ورسوله وكل منهم بحسب عظم مخالفته، قد يخرج بذلك من الملة، وقد لا يخرج.

وقد عطف قوله (ورسوله) على اسم الله بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم، لأن

=

والنسائي في الصيام ٢١٨٨، والترمذي في الصوم ٦٨٦ـ من حديث عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه.

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٧٨.

(٢) أخرجه أبو داود في الأقضية ٣٥٩٢، والترمذي في الأحكام ١٣٢٧.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ١، ٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠.

هذا من باب التشريع والطاعة، فطاعة الرسول ﷺ طاعة لله ـ عز وجل ـ، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠] بخلاف باب المشيئة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام؛ لأن مشيئة الرسول ﷺ ومشيئة جميع الخلق تابعة لمشيئة الله ـ عز وجل ـ ولهذا قال ﷺ للرجل الذي قال له: ما شاء وشئت: «أجعلتني لله نداً ما شاء الله وحده»[(١)]

ويؤخذ من الآية تحريم اتباع الأهواء وآراء الرجال والقوانين الوضعية ووجوب اتباع الكتاب والسنة، والرد على جميع طوائف الضلال.

قال ﷺ: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»[(٢)].

كما يؤخذ من الآية مشروعية الأدب مع الوالد والعالم والأمير والكبير وغيرهم من ذوي المكانة، وعدم التقدم بين يديهم، وفي الحديث: «كبر كبر»[(٣)].

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وكلمة «تقوى» أصلها: «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية.

وهي: مأخوذة من الوقاية، وهي: أن يجعل المرء بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي البرد ويتقي الحر، ويتقي الشوك، وغير ذلك.

رُوي أن عمر رضي الله عنه سأل أبَـيّ بن كعب عن التقوى، فقال: «هل مررت بأرض ذات شوك: أو بوادي كذا؟ قال: نعم. قال: ما صنعت؟ قال: شمرت عن ثيابي».

قال الشاعر:

خـل الـذنوب صـغيرها وكبيرهـا فهـو التقـى
كـن مثـل مـاشٍ فـوق أر ض الشـوك يحـذر مـا يـرى

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٤، ٢٢٤، وابن ماجه في الكفارات ٢١١٧ـ من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ـ لزوم السنة ٤٦٠٧، والترمذي في العلم ـ ما جاء في الأخذ بالسنة واجتناب البدع ٢٦٧٦، وابن ماجه في المقدمة ـ اتباع سنة الخلفاء الراشدين ٤٢ـ من حديث العرباض بن سارية ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣) قاله ﷺ لمحيصة بن سهل لما ذهب يتكلم قبل أخيه حويّصة وكان حويصة أكبر منه، أخرجه البخاري في الأحكام ٧١٩٢، ومسلم في القسامة ١٦٦٩، وأبو داود في الديات ٤٥٢٠، والنسائي في القسامة ٤٧١٤، والترمذي في الديات ١٤٢٢، وابن ماجه في الديات ٢٦٧٧ – من حديث سهل بن أبي حثمة رضي الله عنه.

لا تحقـــــرن صـــــغيرة إن الجبـــال مـــن الحصـــى[١]

وأعظم من يُخاف ويُتقى هو الله ـ عز وجل ـ وعذابه. وتقواه بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال علي رضي الله عنه: «التقوى: الخوف من الجليل، والعمل بالتنزيل، والرضا بالقليل، والاستعداد ليوم الرحيل».

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «حقيقة تقوى الله: أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يُشكر فلا يُكفر».

وقال طلق بن حبيب: «حقيقة تقوى الله: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تجتنب معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله»[٢].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، أي سميع لما تقولون، عليم بما تفعلون.

و«السميع» و «العليم» اسمان من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعيل».

يدل «السميع» على إثبات صفة السمع لله ـ عز وجل ـ وعلى سعة سمعه وإدراكه ـ عز وجل ـ لجميع الأصوات ما خفي منها وما ظهر، كما قالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ: «والذي وسع سمعه الأصوات لقد جاءت المجادلة إلى النبي ﷺ، وأنا في ناحية البيت تشكو زوجها، وما أسمع ما تقول، فأنزل الله ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾»[٣].

وإثبات السمع لله عز وجل يتضمن وعداً ووعيداً، وعداً لمن أحسن كما في قوله تعالى: ﴿لَا تَخَافَآ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [طه: ٤٦]، ففي هذه الآية وعد بالحفظ، وكما في قول إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: ٣٩] ففي هذه الآية وعد بالإجابة، أي: يسمع الدعاء ويجيبه. ومثل هذا قول المصلي:

---

(١) الأبيات لابن المعتز ـ انظر «ديوانه» ٢/ ٣٧٦ ـ تحقيق محمد بديع شريف ـ دار المعارف بمصر.

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) ص ٤٧٣، وأبو نعيم في (الحلية) ٣/ ٦٤، وابن أبي شيبة في (المصنف) الأثران ١٠٤٠٥، ١٧٠٠٩.

(٣) أخرجه النسائي في الطلاق ٣٤٦٠، وابن ماجه في المقدمة ١٨٨.

«سمع الله لمن حمده»[1] أي: سمع واستجاب. ويتضمن وعيداً لمن أساء كما في قوله تعالى: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾ [آل عمران: ١٨١].

ويدل «العليم» على إثبات صفة العلم الواسع لله ـ عز وجل ـ والعلم أشمل وأعم من السمع، لأن السمع يتعلق بالمسموعات، أما العلم فيتعلق بكل شيء؛ لأن الله عز وجل أحاط بكل شيء علماً ومن ذلك أيضاً المسموعات فهو يعلمها. قال تعالى: ﴿وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الأنعام: ٨٠].

فعلمه عز وجل محيط بالأشياء، كلها في أطوارها الثلاثة: قبل الوجود، وبعد الوجود، وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون. ولهذا لما سئل موسى عليه السلام عن القرون الأولى ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى﴾ [طـه:٥٢]، فلا يعتري علمه ـ عز وجل ـ جهل سابق، ولا نسيان لاحق. وفي إثبات سعة علمه ـ عز وجل ـ وعد لمن أطاع الله ورسوله واتقى، ووعيد لمن خالف وعصى.

والعلم: هو إدراك الأشياء على ما هي عليه، إدراكًا جازمًا.

والناس في ذلك أقسام ثلاثة: عالم، وجاهل جهلاً بسيطًا، وجاهل جهلاً مركبًا، فمثلاً من قال: عدد سور القرآن مائة وأربع عشرة سورة، فهذا عالم – يعني بالنسبة لهذه المسألة فهذا يدري ويدري أنه يدري.

ومن قال: لا أدري، فهذا جاهل جهلاً بسيطًا، لا يدري، ويدري أنه لا يدري.

ومن قال: بل عددها مائة وعشرون سورة، فهذا جاهل جهلاً مركبًا، لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري.

وما أكثر هذا الصنف – وهذا أشبه بـ«توما الحكيم» الذي قال عنه حماره:

لو أنصف الناس كنت أركب ... لأنني جاهل بسيط وصاحبي جاهل مركب

وذلك أن صاحبه «توما الحكيم »تصدق ـ فيما يقال عنه ـ ببناته على رجال

---

(١) اخرجه البخاري في الأذان ٦٨٩، ومسلم في الصلاة ٤١١، وأبو داود في الصلاة ٦٠١، والنسائي في الإمامة ٧٩٤، والترمذي في الصلاة ٣٦١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٧٦ ـ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

بطريق الحرام يريد بذلك الجنة كما حكى عنه الشاعر:

ومن رام العلوم بغير شيخ يضل عن الصراط المستقيم
وتلتبس الأمور عليه حتى يصير أضل من توما الحكيم
تصدق بالبنات على رجال يريد بذاك جنات النعيم[(١)(٢)]

الفوائد والعبر:

١ - تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ - تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان.

٣ - الترغيب بالاتصاف بهذا الوصف.

٤ - أن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء يعد من مقتضيات الإيمان، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

٥ - تحريم مخالفة أمر الله ورسوله بقول أو بفعل، ووجوب طاعة الله ورسوله.

٦ - وجوب تقوى الله - بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

٧ - إثبات اسمين من أسماء الله - عز وجل - وهما «السميع» و «العليم» وأنه - عز وجل - ذو السمع الذي وسع جميع الأصوات، وذو العلم الذي وسع كل شيء وفي ذلك وعد لمن لم يتقدم بين يدي الله ورسوله واتقى الله، ووعيد لمن خالف ذلك.

---

(١) الأبيات لأبي حيان الأندلسي.

(٢) انظر الكلام على قوله تعالى: (إن الله كان عليمًا حكيمًا) الآية: ١١ من سورة النساء في كتابنا «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/٢٠٧ - ٢٠٩.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾.

سبب النزول:

عن عبد الله بن أبي مليكة أن عبد الله بن الزبير أخبره: «أنه قدم على النبي ﷺ ركب من بني تميم، فقال أبو بكر: يا رسول الله أمِّر عليهم الأقرع بن حابس، وقال عمر: أمِّر عليهم القعقاع بن معبد، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال عمر: ما أردت خلافك، وارتفعت أصواتهما عند النبي ﷺ، فأنزل الله قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ - إلى قوله - وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾».

قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية - حتى يستفهمه»[1].

ورُويَ أن أبا بكر رضي الله عنه قال: «قلت يا رسول الله، و الله لا أكلمك إلا كأخي السرار»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن النبي ﷺ افتقد ثابت بن قيس، فقال رجل: يا رسول الله أنا أعلم لك علمه، فأتاه فوجده جالسًا في بيته منكسًا رأسه، فقال له: ما شأنك؟ فقال: شر، كان يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، فقد حبط عمله فهو من أهل النار، فأتى الرجل النبي ﷺ - فأخبره أنه قال: كذا وكذا، فقال: اذهب فقل له: إنك لست من أهل النار، ولكنك من أهل الجنة»[3].

وفي رواية: «فكنا نراه يمشي بين أظهرنا، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة، فلما كان يوم اليمامة كان فينا بعض الانكشاف، فجاء ثابت بن قيس بن شماس، وقد تحنط ولبس كفنه،

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٦٥، والترمذي في التفسير ٣٢٦٦.

(٢) أخرجه البزار في مسنده فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٦ من حديث حصين بن عُمر، عن مخارق عن طارق بن شهاب، عن أبي بكر الصديق قال ابن كثير: «حصين بن عمر ـ هذا ضعيف ـ لكن رويناه من حديث عبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة بنحو ذلك».

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٣، وفي تفسير سورة الحجرات ٤٨٤٦، ومسلم في الإيمان ١١٩، وأحمد ٣/ ١٣٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٥.

فقال: بئسما تُعَوِّدون أقرانكم. فقاتلهم حتى قتل»[١].

وفي رواية فقال له النبي ﷺ: «أما ترضى أن تعيش حميدًا وتقتل شهيدًا وتدخل الجنة؟ فقال: رضيت ببشرى الله ورسوله ﷺ، ولا أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله ﷺ...»[٢].

ولهذا يشهد لثابت بن قيس ـ رضي الله عنه بالجنة لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

قوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ سبق الكلام عليه.

﴿لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾ أي: لا تجعلوا أصواتكم عند مخاطبتكم للنبي ﷺ وفي مجلسه أعلى وأجهر من صوت النبي ﷺ، بل لتكن أصواتكم أغض من صوته ﷺ.

﴿وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ كقوله: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور:٦٣]، أي: غضوا أصواتكم عند مخاطبته وخاطبوه بسكينة ووقار، تعظيمًا وتوقيرًا واحترامًا له ﷺ.

وهكذا يكره رفع الصوت عند قبره ﷺ؛ لأنه محترم حيًا وميتًا صلوات الله وسلامه عليه، كما يكره رفع الصوت في مسجده ﷺ، و في سائر المساجد.

﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ أي: لئلا تحبط أعمالكم، أي: إنما نهيناكم عن رفع أصواتكم فوق صوت النبي، وعن الجهر له بالقول، كما يجهر بعضكم لبعض لئلا تحبط أعمالكم أو خشية أن تحبط أعمالكم، أي: يبطل ثوابها فحبوط العمل معناه: بطلان ثوابه، كما قال عز وجل ﴿لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨] أي: بطل.

﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ أي: لا تشعرون بذلك، ولا تعلمون عظم الذنب في رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ وفي الجهر له بالقول، وأنه يحبط العمل.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله لا يلقي لها بالا يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالا يهوي بها في جهنم»[٣].

---

(١) جاءت هذه الزيادة عند أحمد، وبعضها عند مسلم.

(٢) جاءت هذه الزيادة عند الطبري.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق – حفظ اللسان ٦٤٧٨.

وهكذا ينبغي عدم رفع الصوت، وعدم الجهر بالقول مع الوالد والعالم والكبير والأمير وغيرهم من ذوي المكانة في الأمة.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ بعد ما نهى الله عز وجل المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ وعن الجهر له بالقول؛ أثنى على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله، ترغيبًا في ذلك وندباً إليه وحثًا عليه.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ﴾ أي: إن الذين يخفضون أصواتهم عند رسول الله تعظيماً له وتوقيراً واحتراماً وتقديراً ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰۚ﴾ أي: أولئك الذين اختبر الله قلوبهم، وأخلصها وجعلها محلاً للتقوى، فغضوا أصواتهم عند رسول الله ﷺ، وبخاصة بعد نزول هذه الآية، منهم أبو بكر وعمر وثابت بن قيس رضي الله عنهم وغيرهم من صحابة رسول الله ﷺ، ومن المؤمنين المتقين بعدهم.

قال مجاهد: «كُتِبَ إلى عمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، رجل لا يشتهي المعصية ولا يعمل بها أفضل، أم رجل يشتهي المعصية، ولا يعمل بها؟ فكتب عمر رضي الله عنه: إن الذين يشتهون المعصية، ولا يعملون بها ﴿أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم﴾»[1].

والتكاليف الشرعية كلها امتحان واختبار للقلوب قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًاۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قال ﷺ: «يدنى المؤمن يوم القيامة من ربه ـ عز وجل ـ حتى يضع عليه كنفه[2] فيقرره بذنوبه، فيقول:أتعرف ذنب كذا؟ أتعرف ذنب كذا؟، فيقول: أي رب، فيقول الله عز وجل: سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها

(١) اخرجه أحمد في كتاب الزهد – فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٨.
(٢) أي: ستره ورحمته: انظر (النهاية) مادة (كنف).

لك اليوم[١]».

ومنه سمي «المغفر» وهو: البيضة، التي توضع على الرأس، تستره وتقيه السهام ﴿وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ﴾ أي: وثواب عظيم، وقدم المغفرة على الأجر؛ لأن التخلية والتطهير قبل التحلية والتزيين، وسمي ثوابهم أجرًا لأن الله ـ عز وجل ـ تكفل به وأوجبه على نفسه، كما أوجب أجرة الأجير على المستأجر، مع أن الله عز وجل لا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب ذلك على نفسه، تفضلاً منه وكرمًا، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمۡ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَ﴾ [الأنعام:١٢]. وقال عز وجل: ﴿وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وقوله (عظيم) أي: عظيم في كيفيته، وفي كميته، وفي غير ذلك، وإذا كان العظيم سبحانه وصف هذا الأجر بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى، كما قال ـ عز وجل ـ: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة : ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «قال الله أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾»[٢].

الفوائد والعبر:

١- تصدير الكلام بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢- تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان والترغيب بالاتصاف بهذا الوصف، وأن امتثال ما ذكر بعد هذا النداء من مقتضيات الإيمان، وعدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان.

---

(١) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٤١، ومسلم في التوبة ٢٧٦٨، وابن ماجه في المقدمة ١٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

٣- نهي المؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي والجهر له بالقول، ووجوب غض الصوت عنده، والتأدب معه ﷺ واحترامه في حياته وبعد مماته.

٤- جواز رفع الناس أصواتهم فيما بينهم وجهر بعضهم لبعض مالم يكن في ذلك أذى، أو ما يستنكر قال لقمان لابنه فيما ذكر الله عنه ﴿وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ﴾ [لقمان: ١٩].

٥- أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر له بالقول سبب لحبوط العمل وبطلانه.

٦- أن عمل الإنسان قد يحبط من حيث لا يشعر مما يوجب الحذر من محبطات الأعمال.

٧- ينبغي عدم رفع الصوت والجهر بالقول مع ذوي المكانة في الأمة كالوالد والعالم والكبير والأمير، ونحوهم.

٨- تكريم الله ـ عز وجل ـ وتشريفه لنبيه ﷺ ودفاعه عنه.

٩- ثناء الله ـ عز وجل ـ على الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله ﷺ بأن الله أخلص قلوبهم للتقوى وفي مقدمتهم الصحابة ـ رضوان الله عليهم.

١٠- عظم ما أعد الله لمن يغضون أصواتهم عنده ﷺ وخلصت قلوبهم للتقوى من المغفرة الواسعة، والأجر العظيم.

١١- أن التخلية تكون قبل التحلية.

١٢- تأكيد تكفله ـ عز وجل ـ بهذا الجزاء، لهذا سماه أجراً، وأوجبه على نفسه.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

الآيتان مرتبطتان بما سبق من وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ، وعدم رفع الصوت والجهر بالقول عنده، إذ في ندائه ﷺ من وراء الحجرات أذية له في رفع الصوت عنده مع ما في ذلك من عدم مراعاة ظروفه وأحواله.

سبب النزول:

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن عن الأقرع بن حابس : أنه نادى رسول الله ﷺ - فقال: يا محمد ، يا محمد، إن حمدي لزين، وإن ذمي لشين، فقال النبي ﷺ: «ذاك هو الله».[(١)]

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ ، فقال: يا محمد إن حمدي زين، وإن ذمي شين قال النبي ﷺ: «ذاك هو الله عز وجل»[(٢)].

وعن زيد بن أرقم قال: اجتمع أناس من العرب، فقالوا: انطلقوا بنا إلى هذا الرجل، فإن يك نبياً فنحن أسعد الناس به، وإن يك ملكًا نعش بجناحه، قال: فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته بما قالوا. فجاؤوا إلى حجرته، فجعلوا ينادونه وهو في حجرته: يا محمد، يا محمد، فأنزل الله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ قال: فأخذ رسول الله ﷺ - بأذني فمدها فجعل يقول: «لقد صدق الله قولك يا زيد، لقد صدق الله قولك يا زيد»[(٣)].

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾ قرأ أبو جعفر (الحجَرات) بفتح الجيم، وقرأ الباقون بضمها، أي: إن الذين ينادونك ويدعونك من خلف حجرات أزواجك بقولهم: يا محمد، يا محمد، أي: اخرج إلينا.

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٨٨، ٦/ ٣٩٣ - ٣٩٤.
(٢) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٦٧، والطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧ وقال الترمذي (حديث حسن غريب).
(٣) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٧، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٢ - الأثر ١٨٦٠٧، وذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٤٩.

﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: أكثرهم لم ينتفعوا بعقولهم، وذلك بأن تحملهم وتدلهم على الأدب مع رسول الله ﷺ، الذي يجب عليهم احترامه وتوقيره والتأدب معه ﷺ، لما له من المكانة العظيمة عند الله.

ولما لم ينتفعوا بعقولهم نفى عنهم العقل، فكأنهم لا عقول لهم، مع أنهم عندهم العقل الذي هو مناط التكليف قال ﷺ : «رفع القلم عن ثلاثة النائم حتى يستيقظ والصغير حتى يبلغ والمجنون حتى يفيق»[1] فالمجنون والمغمى عليه لا تكليف عليهم؛ لأن الله إذا أخذ ما وهب أسقط ما وجب .

فالعقل المنفي عن أكثرهم في الآية هو العقل الذي هو مناط المدح والذم كما قال عز وجل ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩] .

فالعقل عقلان: عقل هو مناط التكليف، ففاقده لا يكلف، وهو المثبت للكفار والعصاة وغيرهم، ولولاه ما كلفوا.

وعقل هو مناط المدح والذم، وهو الذي يثبته الله عز وجل للمؤمنين كما في قوله ﴿كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الروم: ٢٨] لأنهم انتفعوا بعقولهم، فعرفوا بها الحق واتبعوه، ففازوا الفوز العظيم.

وينفيه عن الكافرين والمجرمين، لأنهم لم ينتفعوا بعقولهم فيما يقربهم إلى الله عز وجل ففاتهم النصيب الأوفر، وخسروا الخسران المبين.

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾ الواو: عاطفة و «لو» حرف امتناع لامتناع وهي شرطية غير جازمة.

أي: ولو أن هؤلاء الذين أخذوا ينادونك من وراء الحجرات (صبروا) فلم ينادوك (حتى تخرج إليهم) ولم يؤذوك بهذا النداء، أو يلجئوك للخروج في وقت أوحال غير مناسب ويشقوا عليك.

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٠٣، والترمذي في الحدود ١٤٢٣، وابن ماجه في الطلاق ٢٠٤٢ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ أي: لكان صبرهم وعدم ندائهم لك من وراء الحجرات خيرًا لهم، لأدبهم مع رسول الله ﷺ في عدم رفع الصوت عنده، ومراعاة ظروفه وأحواله وتقدير مكانته القيادية في الأمة، فيكونوا بهذا ممّن امتحن الله قلوبهم للتقوى، وأعد لهم المغفرة والأجر العظيم.

وأيضًا يكون خيرًا لهم بأن يخرج إليهم ﷺ وقت خروجه المناسب فيجيبهم على ما عنه يسألون، ويعطيهم ما يطلبون، وبهذا يحصلون على خيري الدنيا والآخرة.

وهكذا ينبغي للأمة أن تقدر لأهل المكانة، وذوي المسؤوليات الكبيرة فيها ظروفهم وأحوالهم من العلماء والملوك والرؤساء والأمراء والوزراء ونحوهم فإن بعض الناس قد ينغص على بعض المسؤولين حياتهم، ويضايقهم في مراجعتهم في بيوتهم، وربما في أوقات نومهم وراحتهم، أو في وقت لا يحبون مقابلة أحد فيه ونحو ذلك. وعلى ذوي المسؤوليات في الأمة في المقابل أن يخصصوا من وقت دوامهم وعملهم اليومي وقتًا لمقابلة الناس، وقضاء حوائجهم، والإجابة على أسئلتهم، ومعرفة متطلباتهم، واستماع شكاواهم.

﴿وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل «الغفور» على وزن (فعول)، يدل على إثبات صفة المغفرة الواسعة لله عز وجل. والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة كما جاء في حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - في المناجاة[1].

و«الرحيم» على وزن «فعيل» يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله - عز وجل - رحمة ذاتية ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من خلقه كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج : ٦٥]، ورحمة خاصة بالمؤمنين، كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن

---

(١) سبق قريباً تخريجه.

وقدم «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية، وقرن بينهما؛ لأن بالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

الفوائد والعبر:

١ـ وجوب التأدب مع الرسول ﷺ ومراعاة ظروفه وأحواله، وعدم الجهر في مناداته وتحاشي أذيته.

٢ـ ذم الذين ينادون الرسول ﷺ من وراء الحجرات بنفي العقل عنهم، وأن الخير كل الخير لهم لو صبروا حتى يخرج إليهم.

٣ـ أن من لم ينتفع بعقله كمن لا عقل له.

٤ـ ينبغي للأمة تقدير ظروف ذوي المسؤوليات الكبيرة فيها، وعدم التضييق عليهم في بيوتهم.

٥ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الغفور» و «الرحيم»، وأنه ـ عز وجل ـ ذو المغفرة التامة والرحمة الواسعة.

٦ـ الإشارة إلى أن التخلية قبل التحلية بتقديم المغفرة على الرحمة، فبالمغفرة زوال المرهوب، وبالرحمة حصول المطلوب.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ۝٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾

سبب النزول:

عن الحارث بن ضرار قال: «قدمت على رسول الله ﷺ فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه، وأقررت به، فدعاني إلى الزكاة فأقررت بها، وقلت: يا رسول الله، أرجع إلى قومي فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته. ويرسل إليَّ رسول الله ﷺ رسولاً لإبّان كذا وكذا، ليأتيك ما جمعت من الزكاة، فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبان الذي أراد رسول الله ﷺ - أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسـول فلم يأته، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سَخْطةٌ من الله عز وجل ورسوله، فدعا بسروات قومه [١] فقال لهم: إن رسول الله ـ ﷺ - وقت لي وقتًا يرسل إليَّ رسوله ؛ليقبض ما كان عندي من الزكاة ، وليس من رسول الله ﷺ ـ الخلف، ولا أرى حبس رسوله إلا من سخطة كانت فانطلقوا فنأتي رسول الله ﷺ . وبعث رسول الله ﷺ الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرق، أي: خاف – فرجع فأتى رسول الله ﷺ وقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي.

فضرب[٢] رسول الله ﷺ البعث إلى الحارث، وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعته الزكاة، وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «منعت الزكاة، وأردت قتل رسولي؟» قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما

(١) اي: أشرافهم.
(٢) اي: بعث.

أقبلت إلا حين احتبس عليّ رسول رسول الله ﷺ ـ خشيت أن تكون كانت سخطة من الله عز وجل ورسوله ﷺ. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ إلى هذا المكان ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾»[1].

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ الفاسق: هو الخارج عن طاعة الله عز وجل، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها للإفساد، ويقال فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها فتعرضت للفساد. ويطلق الفسق على الكفر، وعلى ما دونه من المعاصي، والمراد بالفاسق هنا مرتكب المعاصي دون الكفر.

قوله (بنبأ) النبأ: هو الخبر الهام، الذي له شأن قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ –٣].

(فتبينوا) قرأ حمزة والكسائي وخلف (فتثبتوا) من التثبت، وقرأ الباقون (فتبينوا) ومعنى القراءتين واحد أي: فتبينوا وتثبتوا وتأكدوا.

﴿أَن تُصِيبُواْ قَوْمًۢا بِجَهَٰلَةٍ﴾ «أن» والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل نصب مفعول لأجله. أي: خشية أن تصيبوا قوماً بجهالة، أي: أن تقعوا فيهم بأذيتهم بقول أو بفعل بجهل منكم وعدم علم، وإنما بناءً على أخبار كاذبة وإشاعات، مع براءتهم مما نسب إليهم.

﴿فَتُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَٰدِمِينَ﴾ الإصباح في الأصل الدخول في الصباح، وليس مرادًا هنا، وإنما المراد ما هو أعم من ذلك، وهو أن يحصل لهم الندم بعد ذلك الفعل في أي وقت من صباح أو مساء أو ليل أو نهار.

و«ما» في قوله (ما فعلتم) موصولة، أو مصدرية، أي: فتصبحوا على الذين فعلتم، أو على فعلكم (نادمين) أي: متأسفين متحسرين على ما مضى من فعلكم، مما لا يمكن رده، وليس هو في محله بل هو خطأ وظلم وعدوان، فتندموا ولات حين مندم، فإذا وقع الفأس بالرأس – كما يقال ـ لا ينفع الندم.

---

(١) اخرجه أحمد ٤/ ٢٧٩، وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٣ – الأثر ١٨٦٠٨، والطبراني فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥١ واخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢٦/ ٧٨ مختصرًا – بمعناه – من حديث أم سلمة وابن عباس رضي الله عنهما.

ولله ما أعظم هذه التوجيهات الربانية التي بها سعادة المرء في دنياه وأخراه، والتي تحفظه بإذن الله عز وجل من أسباب الشقاء في الدنيا والآخرة، فإن الظلم والتعدي سبب للشقاء والندم والحسرة والأسى في الدنيا والآخرة.

ويؤخذ من الآية وجوب التثبت في قبول خبر الفاسق، فلا نقبله مطلقاً، ولا نرده مطلقاً، بل نتثبت فيه فإن دل قرينة على صدقه قبلناه، وإن دل قرينة على كذبه رددناه. وإلا توقفنا فيه.

قال ابن القيم رحمه الله[1] : «وههنا فائدة لطيفة، وهي أنه سبحانه لم يأمر برد خبر الفاسق وتكذيبه جملة، وإنما أمر بالتبين، فإن قامت قرائن وأدلة من خارج تدل على صدقه عمل بدليل الصدق، ولو أخبر به من أخبر. فهكذا ينبغي الاعتماد في رواية الفاسق وشهادته. وكثير من الفاسقين يصدقون في رواياتهم وشهاداتهم، بل كثير منهم يتحرى الصدق غاية التحري، وفسقه من جهات أخر، فمثل هذا لا يردُّ خبره ولا شهادته، ولو ردت شهادة مثل هذا وروايته لتعطلت أكثر الحقوق، وبطل كثير من الأخبار الصحيحة، ولا سيما فسقه من جهة الاعتقاد والرأي، وهو متحر للصدق، فهذا لا يرد خبره ولا شهادته، وأما من فسقه من جهة الكذب، فإن كثر منه وتكرر بحيث يغلب كذبه على صدقه، فهذا لا يقبل خبره ولا شهادته، وإن ندر منه مرة ومرتين ففي رد شهادته وخبره بذلك قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد رحمه الله».

وإذا وجب التثبت في خبر الفاسق في عهد الرسالة فيجب التثبت والتأكد في قبول خبره في هذا العصر من باب أولى، والذي تعددت وتنوعت فيه وسائل النشر والإعلان مرئية ومسموعة ومقروءة وتسابق الكثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس ـ ممن زين لهم الشيطان سوء أعمالهم ـ على تلفيق الأخبار ونشر الإشاعات في هذه الوسائل وبخاصة في شبكة المعلومات الإنترنت، ورسائل الجوالات، والقنوات الفضائية التي يمول أكثرها اليهود، وخصصت لحرب الإسلام وضرب المسلمين بعضهم ببعض.

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٠.

وكل هذا يوجب علينا تمحيص الأخبار والتثبت فيها والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها، وبخاصة ما ينشر في هذه الوسائل المشبوهة والتي استغلها كثير من ضعاف الإيمان وضعاف النفوس، حتى ممن يحسبون على الإسلام وياللأسف، بل ممّن يزعمون ويدعون تبني قضايا الأمة والدفاع عنها، وهم أعظم بلية بليت بها الأمة، ضربوها في أغلى شيء لديها وهو وحدتها وتضامنها، واجتماع كلمتها، فقدموا أعظم خدمة لأعداء الإسلام بما ينشرون في هذه الوسائل من أخبار كاذبة، وافتراءات باطلة، وإشاعات مغرضة، تحت شعارات مختلفة تارة دينية، وتارة سياسية، وتارة اقتصادية للتفريق بين المسلمين، وإيجاد العداء والضغائن بين الأمة وحكامها وعلمائها وذوي المسؤوليات فيها، بل بين الأولاد ووالديهم.

ويبدو بعض هؤلاء على هذا الشبكات والقنوات، وكأنه المنقذ للأمة والناصح لها والمدافع عن قضاياها دون غيره وهو ـ في الحقيقة ـ من ألد أعدائها.

ويبث بعضهم سمومهم في الخفاء وراء رموز وأسماء مستعارة في السوق السوداء، وفي الحراج العام، لعلمهم أن بضاعتهم مزجاة، وأكثرها سرقات ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

خفافيش أعشاها النهار بضوئه فوافقها من ظلمة الليل غيهب[(١)].

وقد اغتر الكثيرون وانشغلوا بما ينشر في هذه الوسائل من هذه الأخبار الكاذبة، والتحليلات الخاطئة والإشاعات الباطلة فتناقلوها في مجالسهم وكأنها حقائق ومسلمات. فحذار حذار أخي المسلم من وحل هذه المستنقعات؛ شبكة المعلومات وتلك القنوات، وفي الأثر: «على مثلها ـ يعني الشمس ـ فاشهد».

فعليك بالاحتياط لدينك، وإمساك اللسان عما لا يعني قال ﷺ «دع ما يريبك إلى

(١) البيت لابن مشرّف، انظر «ديوانه» ص٣٢.

ما لا يريبك»[١] واعلم أن العافية لا يعدلها شيء، وأن السلامة غنيمة.

واستق ثقافتك ومعلوماتك من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ﷺ وكتب سلف الأمة. واعرض ما يعرض لك من هذه الأخبار والمقولات على الكتاب و السنة ومنهج سلف الأمة تسلم بإذن الله عز وجل من الحيرة والبلبلة الفكرية والتذبذب والاضطراب النفسي . واحفظ وقتك وعمرك من الضياع وراء هذه الشبكة وتلك القنوات، فإن الكثير من المسلمين وللأسف لم يستفيدوا من شبكة المعلومات (الإنترنت)، بل تضرر منها الكثيرون لأنهم يلهثون وراء الجنس، والإشاعات الباطلة في حين أن غير المسلمين استفادوا من هذه الشبكة. ولقد أظهرت الإحصائيات أن أكثر من ثمانين بالمائة من المشاهدين من المسلمين تضرروا بهذه الشبكة بينما أكثر من ثمانين بالمائة من المشاهدين من غير المسلمين استفادوا منها.

وأخيرًا فإذا تحقق أن ضرر هذه الشبكة أكثر من نفعها بالنسبة للشخص نفسه وجب عليه تركها وحرم عليه مشاهدتها. وهكذا أي أمر غلب شره على خيره يجب تركه؛ لأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح في الشريعة الإسلامية الغراء.

ولست بهذا أصدر حكمًا بتحريم هذه الشبكة، إذا أحسن استغلالها واستفيد منها، فهي من أعظم وسائل الدعوة إلى الله عز وجل وتوجيه الناس إلى الخير – أسأل الله أن يصلح أحوال المسلمين ويبصرهم في أمر دينهم ودنياهم.

ويفهم من قوله: ﴿إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ قبول خبر العدل، ولا إشكال في هذا، لكن لابد من اكتمال نصاب الشهود حسب الأمر المشهود عليه ففي الشهادة على رؤية هلال رمضان يكفي خبر الشاهد الواحد العدل، كما في حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما قال: «تراءى الناس الهلال فرأيته فأخبرت النبي ﷺ ـ فصامه وأمر الناس بصيامه»[٢].

ولابد في الشهادة على السرقة والقتل ونحو ذلك من شاهدين لقوله تعالى

---

(١) أخرجه النسائي في الأشربة ٥٧١١، والترمذي في صفة القيامة والرقائق ٢٥١٨ وقال: «حديث حسن صحيح».
(٢) أخرجه أبو داود في الصوم ـ شهادة الواحد على رؤية هلال رمضان ٢٣٤٢، والدارمي في الصوم ١٦٩١.

﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

ولابد في الشهادة على من أصابته جائحة من ثلاثة شهود لحديث قبيصة «حتى يشهد ثلاثة من ذوي الحجا من قومه أن فلاناً قد أصابته جائحة»[١].

ولابد في الشهادة على الزنا من أربعة شهود لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [النساء: ١٥].

قوله ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ أي: واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فعظموه ووقروه وتأدبوا معه وأطيعوه، ولا تتقدموا بين يديه بقول ولا فعل، فإنه أعلم بمصالحكم، وأشفق عليكم منكم، ورأيه فيكم أتم من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٦] .

﴿لَوْ يُطِيعُكُمْ فِى كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ﴾ «لو» حرف امتناع لامتناع، وهي شرطية غير عاملة، (لعنتم) العنت: المشقة، والمعنى: لو يطيعكم في كثير مما تختارونه لأنفسكم وتطلبونه، لأوقعكم ذلك في المشقة والحرج، وفي هذا إشارة إلى ضعف آراء البشر وعدم معرفتهم لوجوه المصالح، ما لم يربطوا بوحي السماء قال تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَن ذِكْرِهِم مُّعْرِضُونَ﴾ [المؤمنون: ٧١] .

ولما قال ﷺ «إن الله كتب عليكم الحج فحجوا» قام الأقرع بن حابس فقال: أفي كل سنة يا رسول الله؟ قال ﷺ: «لو قلتها لوجبت، الحج مرة فما زاد فهو تطوع»، وقال ﷺ : «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»[٢].

وقال ﷺ: «إن من أعظم المسلمين في المسلمين جرمًا رجل سأل عن مسألة لم تحرم فحرمت من أجل مسألته»[٣].

(١) أخرجه مسلم في الزكاة ـ من تحل له المسألة ١٠٤٤، وأبو داود في الزكاة ١٦٤٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٩١ ـ من حديث قبيصة بن مخارق ـ رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه في الموضع السابق.

ولهذا أنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه التبتل والانقطاع للعبادة وقال ﷺ: «أما أنا فأقوم وأنام وأصوم وأفطر وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وكذلك أنكر ﷺ على عبد الله بن عمرو بن العاص قوله: «لأصومن النهار ولأقومن الليل ما عشت»(٢).

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ألقى محبته في قلوبكم، وهذا أمر خاص به عز وجل، فلا أحد يستطيع تحبيب الإيمان إلى القلوب ووضعه فيها، ولا هدايتها هداية التوفيق والقبول سوى الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [القصص: ٥٦].

﴿وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ أي: حسّنه في قلوبكم، بذكر شرف الإيمان وفضله وحسّن صفات أهله وما وعد الله به المؤمنين من الفوز بالجنات والأجر العظيم.

والقلوب: جمع قلب، وهو الذي عليه مدار صلاح العمل قال ﷺ «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»(٣).

وعن أنس: رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «الإسلام علانية، والإيمان في القلب» قال: ثم يشير بيده إلى صدره ثلاث مرات، ثم يقول: «التقوى ههنا، التقوى ههنا»(٤).

وقال ﷺ: «من سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن»(٥).

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧- من حديث أنس- رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٦، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصوم ٢٤٢٧، والنسائي في الصيام ٢٣٩١ - من حديث عبد الله بن عمرو - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤ - من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه أحمد ٣/ ١٣٤ - ١٣٥.

(٥) أخرجه الترمذي في الفتن ٢١٦٥، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٣، وأحمد ١/ ١٨، ٢٦ - من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وقال الترمذي (حسن صحيح غريب). وأخرجه أحمد أيضاً ٣/ ٤٤٦ - من حديث عامر بن ربيعة رضي الله عنه.

ومحل القلب هو الصدر كما قال عز وجل﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦] وهو أداة ومحل العقل مع ارتباط ذلك بالمخ.

﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾ (كرَّه إليكم): أي جعل ذلك مكروهًا ومبغضًا عندكم.

و«الكفر» لغة: الستر، ومنه سمي الزارع كافرًا، لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، وسميت الكفارة كفارة؛ لأنها تستر الذنب وتغطيه، وسمي الليل كافرًا؛ لأنه يستر الكون ويغطيه بظلامه، وسمي وعاء طلع النخل كافورًا أو كفْرًا؛ لأنه يستر الثمر الذي بداخله ويغطيه، إلى غير ذلك.

والكفر شرعاً: هو إنكار وجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته أو شيء من ذلك، وهو ضد الإيمان. والمراد بالكفر هنا: الكفر المخرج من الملة.

وقد يكون الكفر دون المخرج من الملة كما في قوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب، و النياحة على الميت[1]» ومنه كفران النعم.

والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى وعن الإصلاح إلى الإفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد. والفسق والفسوق قد يطلق على الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ﴾ [السجدة: ٢٠].

وقد يطلق على ما دون الكفر كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ﴾ [البقرة: ٩٧]، والمراد به في الآية هنا: الذنوب الكبار خاصة لذكر الكفر قبله، والعصيان بعده.

والعصيان والمعاصي: عدم الطاعة، والمراد بالعصيان هنا: الذنوب الصغار لذكر الكفر والفسوق قبله. وقد يحمل العصيان هنا على ما يشمل الكفر والفسوق وغير ذلك.

قال ابن كثير رحمه الله[2]: «أي: وبغض إليكم الكفر والفسوق، وهي الذنوب الكبار والعصيان وهي جميع المعاصي وهذا تدرج لكمال النعمة».

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٦٧، والترمذي في الجنائز ١٠٠١ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٢.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ الإشارة لمن حبب الله إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأشار إليهم بالإشارة للبعيد إشارة لعظم منزلتهم ورفعة مكانتهم. و«هم»: ضمير منفصل للتوكيد.

فأكد هذه الجملة بثلاثة مؤكدات، وهي: كونها اسمية، وطرفاها معرفين وضمير الفصل؛ لتأكيد أن هؤلاء هم الراشدون حقًا الذين بلغوا من الرشد غايته.

والرشد: هو الاهتداء إلى طرق الخير عامة، وهو بالنسبة لكل شيء بحسبه، فالرشد في الدين: الاستقامة عليه، والرشد في المال: حسن التصرف فيه، والرشد في الولاية: حسن التصرف فيما ولي عليه، وهكذا.

فالمراد بـ (الراشدون) هنا الذين بلغوا من الرشد غايته في أمور دينهم ودنياهم وأخراهم ولهذا جاء في الدعاء في حديث عبيد الله بن عبد الله الزرقي عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه في قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان واجعلنا من الراشدين»[1].

﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ الفضل: الزيادة والتفضل.

«ونعمة» أي: ونعمة منه عز وجل أي: ما حصل لكم من تحبيب الإيمان وتزيينه في قلوبكم، وتكريه الكفر والفسوق والعصيان إليكم، وجعلكم من الراشدين هو زيادة وتفضل من الله وإنعام منه عليكم، لا باستحقاقكم ذلك، ولا بحولكم وقوتكم، فياله من فضل ويالها من نعمة لمن عرف قدر ذلك. نسأل الله التوفيق.

﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ «عليم» و «حكيم» اسمان من أسماء الله ـ عز وجل ـ كل منهما على وزن «فعيل» يدل «العليم»، على أنه عز وجل ذو العلم التام، الذي هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا في أطوارها الثلاثة قبل الوجود، وبعد الوجود وبعد العدم، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون.

ويدل «الحكيم» على إثبات صفة الحكم والحكمة له ـ عز وجل ـ، وأنه ذو

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٢٤.

الحكم التام النافذ بأقسامه الثلاثة:

الحكم الكوني، وهو: كل ما يقع في الكون من حركة أو سكون، ومنه قول أكبر أولاد يعقوب فيما حكى الله عنه أنه قال: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِىٓ أَبِىٓ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِى ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [يوسف: ٨٠]، أي: أو يحكم الله لي حكمًا كونيًا.

والحكم الشرعي: هو ما شرعه الله من أحكام شرعية كأحكام الصلاة والزكاة والصيام وغير ذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ حُكْمُ ٱللَّهِ ۖ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [الممتحنة: ١٠]، أي: حكمه الشرعي.

والحكم الجزائي وهي أحكامه الجزائية في الآخرة، حيث يجازي كلاً بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ويجمع الأحكام الثلاثة قوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ﴾ [يوسف: ٤٠] أي: بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي. وكقوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَحْكَمِ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [التين: ٨].

وهو عز وجل ذو الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، والحكمة الصورية. فالحكمة الغائية: هي الغاية من حدوث حكم ما من الأحكام الكونية، أو من مشروعية حكم من الأحكام الشرعية أو الجزائية.

والحكمة الصورية هي: الحكمة من مجيء الحكم سواء الحكم الكوني أو الشرعي أو الجزائي على هذه الصورة، إذ لكل حكم من الأحكام حكمة غائية وحكمة صورية.

فهو عز وجل عليم بمن يستحق الهداية ممن يستحق الغواية، حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره.

ويؤخذ من اجتماع «العليم» و«الحكيم» كما له عز وجل، وكمال صفاته، فإنه عز وجل مع كمال علمه وكمال حكمه وحكمته يزداد باجتماع هذين الاسمين «العليم» و«الحكيم» كمالاً إلى كمال؛ لأن العلم يحتاج إلى الحكمة وإلى الحكم أيضًا، كما أن الحكمة والحكم يحتاج كل منهما إلى العلم؛ولهذا كثيرًا ما يقرن عز وجل بين هذين الاسمين؛ لأن اجتماعهما – مع كمالهما في حقه عز وجل يزيد كماله إلى كمال.

ولهذا نشاهد – ولله المثل الأعلى – أن من توفيق الله للعالم أن يجمع الله له بين العلم والحكمة، فتأتي أحكامه وفتاواه وتوجيهاته بإذن الله وتوفيقه أسد وأصوب، ويكون لها قبول عند الناس لما عرفوا عنه من العلم والحكمة ويحبونه ويشهدون له بذلك وأحسب أن ممن جمع الله له بين هتين الصفتين في هذا العصر، فأحبه الناس، وشهدوا له بالفضل ولقيت فتاواه قبولاً عندهم سماحة شيخنا الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء، فأوصي جميع المسلمين بالاستفادة من آثاره العلمية وفتاويه – ولا أزكي على الله أحدًا.

أما من كان عنده علم وليس عنده حكمة، فتجده يتسرع في الأحكام والفتاوى، وربما كان ضرره أكثر من نفعه، وما أكثر هؤلاء، وهذا ليس من آداب أهل العلم وليس من الورع في الفتوى، ولقد كان الصحابة رضي الله عنهم يتدافعون الفتوى، وهؤلاء يقولون: بل نحن المفتون ـ وإن خالفوا جماهير العلماء، ومع أن هؤلاء لم يأتوا ولن يأتوا بجديد، فالخلاف في المسائل موجود منذ القدم ـ لكن الورع كل الورع والخوف من الله أن لا يتسرع الإنسان في الفتوى، وأن لا يحرص عليها ما وجد مندوحة عنها وأن لا يتجرأ على مخالفة ما عليه جمهور أهل العلم وما عليه علماء عصره ويعمل على إشهار ذلك مما يسبب ضرب أقوال أهل العلم بعضها ببعض، وتشكيك العامة في دينهم وعلمائهم، وأن يربي طلابه على احترام أقوال أهل العلم ويبصرهم بالخلاف وأسبابه، وأن لا يعتقدوا أن الحق ما قاله شيخهم فقط. والله المستعان.

كما أن الواجب عليهم أن يحرصوا على ما فيه جمع كلمة الأمة على علمائها فإن الخلاف شر كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين أتم الصلاة وراء عثمان رضي الله عنه وكان عبد الله لا يرى الإتمام في السفر فقيل له في ذلك فقال: «الخلاف شر». رحمك الله يا أبا عبد الرحمن، صدقت بأبي أنت وأمي إن الخلاف شر.

وإن من توفيق الله ـ عز وجل ـ لطالب العلم ـ أن يترسم خطى الأئمة المجتهدين والعلماء المحققين، ويقتفي آثارهم وأن يبتدئ من حيث انتهوا، فيجمع إلى علمه علوم من سبقوه وحكمتهم وأناتهم فيسلم ـ بإذن الله عز وجل ـ من عثرات البدايات والتصدر المبكر، وخفة وعجلة الشباب، فلا يقول اليوم قولاً يندم عليه غداً وقد قال عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه: «من كان مستناً فليستن بمن قد مات فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ ـ تشريف المؤمنين وتكريمهم بندائهم بوصف الإيمان، والترغيب بهذا الوصف وأن امتثال ما بعد هذا النداء من أمر وتوجيهات من مقتضيات الإيمان.

٣ـ وجوب التثبت في خبر الفاسق.

٤ ـ وجوب تمحيص الأخبار والتثبت فيها، والتأكد من صحتها، وعرضها على الكتاب والسنة، ومنهج سلف الأمة، ورد الشائعات ورفضها واطراحها وتنزيه الأسماع والأبصار مما تبثّه وسائل الإعلام المشبوهة.

٥ ـ التحذير الشديد من أذية الآخرين والوقوع فيهم بقول أو فعل بغير جرم منهم، وإنما بناء على وشايات فيهم وإشاعات كاذبة مغرضة.

٦ ـ التثبت في الأمور وعدم التسرع لئلا يندم الإنسان حين لا ينفع الندم.

٧ـ حفظ الإسلام لحقوق الآخرين، وحرصه على إبعاد المسلم عمّا يضره ويندم عليه.

٨ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على المؤمنين بوجود الرسول ﷺ في حياته بينهم يدلهم على الخير ويحذرهم من الشر، وما يشق عليهم.

٩ ـ لو ترك الناس لأنفسهم، أو أطاعهم الرسول ﷺ في كثير من الأمر لشقوا على أنفسهم ولما عرفوا مصالحهم.

١٠ ـ حرصه ﷺ على أمته وشفقته عليهم ونصحه لهم وعلمه بما يصلحهم.

١١ ـ فضل الله ـ عز وجل ـ ونعمته على المؤمنين حيث حبب إليهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين.

١٢ ـ أن هداية القلوب بيد الله ـ عز وجل ـ.

١٣ ـ امتداح الله ـ عز وجل ـ للراشدين وثناؤه عليهم، والإشارة لرفعة منزلتهم.

١٤ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العليم» و«الحكيم» وأنه ـ عز وجل ـ ذو العلم الواسع، والحكم التام، والحكمة البالغة.

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أبيّ؟ فانطلق إليه النبي ﷺ - وركب حمارًا، وانطلق المسلمون يمشون معه وهي أرض سبخة، فلما أتاه النبي ﷺ - قال: إليك عني، فوالله قد آذاني ريح حمارك، فقال رجل من الأنصار: و الله لحمار رسول الله ﷺ - أطيب ريحًا منك. قال: فغضب لعبد الله رجال من قومه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، قال: فكان بينهم ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنه أنزلت فيهم: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾»[(١)].

قوله ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ﴾

الطائفة: المجموعة من الناس قليلة كانت أو كثيرة.

(اقتتلوا) أي: حصل بينهم اقتتال، والاقتتال: ما كان بين طرفين.

وإن مما يحز في قلب كل مسلم ويندى له الجبين أن الاقتتال اليوم بين المسلمين أنفسهم أكثر من الاقتتال مع أعدائهم الكفار، وأن دماء المسلمين التي تراق على أيدٍ مسلمة أضعاف أضعاف الدماء التي تراق منهم على أيدي الكفار وكما قيل:

ما يبلغ الأعداء من جاهل ... ما يبلغ الجاهل من نفسه[(٢)]

نسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، ويجمع كلمتهم على الحق.

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا﴾ أي: أصلحوا بين الطائفتين المقتتلتين من المؤمنين بالأخذ بالطرق التي يكون بها الصلح، والتوسط للقضاء على أسباب هذا الاقتتال، وما ينتج

---

(١) أخرجه البخاري في الصلح ٢٦٩١، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٩، وأحمد ٣/ ١٥٧، ٢١٩.

(٢) البيت لصالح عبد القدوس.

عنه من الاختلاف، وفساد ذات البين التي لا تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين كما قال ﷺ: «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة»؟ قالوا: بلى. قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة»(١) قال الترمذي ويروى عن النبي ﷺ أنه قال: «هي الحالقة، لا أقول: تحلق الشعر، ولكن تحلق الدين».

﴿فَإِنۢ بَغَتۡ إِحۡدَىٰهُمَا عَلَى ٱلۡأُخۡرَىٰ﴾ أي: فإن لم تستطيعوا الإصلاح بينهما، أو بغت إحداهما على الأخرى بعد الصلح. ومعنى بغت: تعدت وتطاولت على الأخرى وظلمتها. والبغي: العدوان والتطاول والظلم.

﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾ أي: فقاتلوا الطائفة الباغية التي تبغي على الأخرى. والأمر للوجوب.

﴿حَتَّىٰ تَفِيٓءَ إِلَىٰٓ أَمۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ أي: حتى ترجع الفئة الباغية إلى أمر الله وحكمه الشرعي فتكف عن البغي والعدوان.

ويؤخذ من الآية قتال الفئة الباغية وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا. قال يا رسول الله هذا أنصره مظلومًا فكيف أنصره ظالمًا؟ قال: تكفه عن الظلم، فذاك نصرك إياه»(٢).

﴿فَإِن فَآءَتۡ﴾ أي: فإن رجعت الطائفة الباغية عن البغي ولزمت حكم الله وشرعه.

﴿فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَا بِٱلۡعَدۡلِ﴾ فيما تقولون لهما وفيما تطالبون به كلا منهما من التنازل عن شيء من حقه للطائفة الأخرى وغير ذلك.

فالإصلاح الأول لوقف القتال بينهما، والإصلاح الثاني للتسوية بينهما فيما لكل منهما على الأخرى من حقوق أو متلفات.

﴿وَأَقۡسِطُوٓاْۖ﴾: أي: اعدلوا، مأخوذ من «أقسط» الرباعي الذي معناه: عدل وأنصف،

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥٠٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٩ ـ من حديث أبي الدرداء ـ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب – أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا ٢٤٤٣، والترمذي في الفتن ٢٢٥٥ – من حديث أنس رضي الله عنه وأخرجه البخاري أيضًا من حديث جابر رضي الله عنه في المناقب ٣٥١٨، ومسلم في البر والصلة – نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا ٢٥٨٤، والترمذي ٣٣١٥.

واسم الفاعل منه مقسط وليس من «قسط» الثلاثي الذي معناه: جار وظلم، واسم الفاعل منه «قاسط» ومنه قوله تعالى ﴿وَأَمَّا ٱلْقَـٰسِطُونَ فَكَانُوا۟ لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾ [الجن: ١٥].

فإن لم يكن الإصلاح بالعدل والقسط بل كان بالجور والظلم فلا يعد ذلك من الإصلاح، بل هو من الإفساد، كما في بعض الإصلاحات بين الأطراف التي لا تقوم على العدل بل على الضغط على أحد الخصمين، أو إماتة القضية حتى يرضى صاحب الحق ببعض حقه ليأسه من وصول حقه إليه، فهذا صلح حرم حلالاً أو أحل حرامًا، وفي حديث عمرو بن عوف المزني أن رسول الله ﷺ قال:« **الصلح جائز بين المسلمين إلا صلحًا حرم حلالاً أو أحل حرامًا**»[١].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[٢] أي: الذين يعدلون في أنفسهم وأهليهم وما ولوا، كما جاء في الحديث.

وفي الآية إثبات صفة المحبة لله عز وجل على ما يليق بجلاله وعظمته، فهو عز وجل يحب المؤمنين العادلين، وإذا كان عز وجل يحبهم فلا تسأل عما أعد لهم من الفضل، ولهذا قال ﷺ:« المقسطون على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا »[٣].

ويفهم من قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾، عدم محبته للظالمين الجائرين، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧، ١٤٠].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا كالتعليل لقوله ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾ الآية (إنما) أداة حصر، وهي كافة ومكفوفة، أي: إنما المؤمنون إخوة في الدين تربطهم أخوة الإيمان وفي الحديث: «وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٤].

---

(١) أخرجه الترمذي في الأحكام ١٣٥٢، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٥٣.

(٢) كما قال تعالى (إن الله يحب المقسطين) [المائدة: ٤٢، الممتحنة: ٨].

(٣) أخرجه مسلم في الإمارة – فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة – فضل الحاكم العادل ٥٣٧٩ – من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر ـ تحريم الظلم ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ـ الستر على

=

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه»[1].

وعن صفوان بن عبد الله عن أم الدرداء رضي الله عنها أنها قالت له: أتريد الحج العام فقلت: نعم: قالت: فادع الله لنا بخير، فإن النبي ﷺ كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكل كلما دعا لأخيه، قال الملك الموكل: آمين، ولك بمثله، قال صفوان: فخرجت إلى السوق، فلقيت أبا الدرداء، فقال لي مثل ذلك يرويه عن النبي ﷺ[2]».

وقال ﷺ: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر»[3].

وقال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه»[4].

وعن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان كما يألم الجسد لما في الرأس»[5].

﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ قرأ يعقوب ﴿بَيْنَ إِخْوَتِكم﴾ بكسر الهمزة وإسكان الخاء

=

المسلم ٤٩١٠. والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في الذكر ـ فضل الاجتماع على تلاوة القرآن والذكر ٢٦٩٩، وأبو داود في الصلاة ١٤٥٥ وفي الأدب ٤٩٤٦، والترمذي في الحدود ـ ما جاء في الستر على المسلم ١٤٢٥، وابن ماجه في المقدمة ـ فضل العلماء والحث على طلب العلم ٢٢٥ وأحمد ٢/ ٢٥٢، ٢٧٤.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٧٣٣، وأبو داود في الوتر ـ الدعاء بظهر الغيب ١٥٣٤.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب – رحمة الناس والبهائم ٦٠١١، ومسلم في البر – تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٦٨ – من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الصلاة – تشبيك الأصابع في المسجد وغيره ٤٨١، ومسلم في البر – تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم ٢٥٨٥، والنسائي في الزكاة – أجر الخازن إذا تصدق بإذن مولاه ٢٥٦٥، والترمذي في البر – ما جاء في شفقة المسلم على المسلم ١٩٢٨، وأحمد ٤/ ٤٠٤ – ٤٠٥ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٣٤٠ وقال ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٣٥٥ : «تفرد به، ولا بأس بإسناده».

وتاء مكسورة على الجمع، وقرأ الباقون ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ بفتح الهمزة والخاء، وياء ساكنة على التثنية.

أي: فأصلحوا بين أخويكم المتقاتلين وجوبًا، فلا يجوز أن يقف المسلمون من الفئات المتقاتلة من إخوانهم المسلمين موقف المتفرج كما هو حال كثير من المسلمين اليوم، أو ربما يعمد بعضهم ويعمل على إشعال تلك الفتنة - نسأل الله العافية - ولا شك أن الاستعمار جنى ثمار تمزيقه للمسلمين وتفريقهم إلى دويلات بل وإيجاده روح العداء بين الدول الإسلامية فأصبح حال المسلمين اليوم كما قال الشاعر:

فتفرقوا شيعًا فكل مدينة فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولكن هذا لا يعفي المسلمين من التبعة والمسؤولية أمام الله - عز وجل - فإنهم - وهم أكثر من مليار مسلم - لو صدقوا الله لنصرهم الله، ولما استطاع أن ينال منهم العدو مهما كان. نسأل الله أن يصلح أحوالنا وأحوال المسلمين في كل مكان.

﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ أي: لأجل أن يرحمكم الله برحمته الواسعة التي بها سعادة الدنيا والآخرة، وهذا وعد من الله، ووعده حق وصدق فبالقيام بحقوق المؤمنين والإصلاح بينهم وتقوى الله تحصل لنا الرحمة من الله عز وجل.

ويؤخذ من الآية أن الإيمان والأخوة الإيمانية لا يزولان مع وجود الاقتتال كغيره من كبائر الذنوب التي هي دون الشرك، وعلى هذا مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوراج والمعتزلة.

ومن هذا قوله ﷺ: «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[1] أي: كفر دون كفر، وقوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في الأنساب والنياحة على الميت»[2].

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان - خوف المؤمن أن يحبط عمله وهو لا يشعر ٤٨، ومسلم في الإيمان - قول النبي ﷺ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر ٦٤، والنسائي في تحريم الدم ٤١٠٥، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٣، وابن ماجه في المقدمة ٦٩ - من حديث عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان - إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب والنياحة ٩٣٤ - من حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه.

قال ابن كثير:[١] «فسماهم مؤمنين مع الاقتتال، وبهذا استدل البخاري على أنه لا يخرج من الإيمان بالمعصية وإن عظمت، لا كما يقوله الخوارج ومن تابعهم من المعتزلة ونحوهم، ثم ذكر حديث أبي بكرة أن رسول الله ﷺ خطب يومًا، ومعه على المنبر الحسن بن علي، فجعل ينظر إليه مرة وإلى الناس أخرى ويقول: «إن ابني هذا سيد، ولعل الله أن يصلح به بين فئتين عظيمتين من المسلمين[٢]» فكان كما قال صلوات الله وسلامه عليه، أصلح الله به بين أهل الشام وأهل العراق بعد الحروب الطويلة والواقعات المهولة».

الفوائد والعبر:

١ـ وجوب الإصلاح بين الطوائف المتقاتلة من المؤمنين ولا يجوز للمسلمين الوقوف منها موقف المتفرج كما هو حال المسلمين اليوم.

٢ـ أن التقاتل بين المؤمنين لا يخرجهم من الإيمان.

٣ـ وجوب قتال الطائفة الباغية حتى ترجع إلى الحق.

٤ـ تأكيد أمر الصلح بين المسلمين وأهميته، وأنه يجب كونه بالعدل والقسط.

٥ـ إثبات صفة المحبة لله ـ عز وجل.

٦ـ فضل المقسطين ويكفيهم شرفاً أن الله يحبهم. ويفهم من ذلك ذم الظالمين وعدم محبة الله لهم.

٧ـ إثبات الأخوة بين المؤمنين، وأنها لا تزول بالتقاتل بينهم لكن يجب إصلاح ذات بينهم.

٨ـ وجوب تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وأنها سبب لرحمة أرحم الراحمين.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٥٣.

(٢) أخرجه البخاري في الصلح – باب قول النبي ﷺ للحسن: إن ابني هذا سيد ٢٧٠٤، وأبو داود في السنة ٤٦٦٢ والنسائي في الجمعة ١٤١٠، والترمذي في المناقب ٣٧٧٣.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ (١١)﴾.

صلة الآية بما قبلها:

أمر الله عز وجل في الآيتين السابقتين بالإصلاح بين المؤمنين والمحافظة على الأخوة بينهم ثم نهى عمّا يكون سبباً في العداوة بينهم من السخرية واللمز والتنابز بالألقاب والظن السيء والتجسس والغيبة في هذه الآية وما بعدها إلى قوله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾.

قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ السخرية: هي الاستهزاء والازدراء والاحتقار للآخرين واستصغارهم وهو من الإعجاب بالنفس والكبر الذي هو من أعظم الكبائر والمحرمات. عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**»، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا ونعله حسنة. قال: «**إن الله جميل يحب الجمال. الكبر: بَطَر الحق وغمط الناس**[(١)]»[(٢)]

والقوم: هم الجماعة من الناس الذكور والإناث في الأصل، لكن المراد بقوله هنا ﴿قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ الرجال خاصة لذكر النساء بعدهم منفردات فالمعنى هنا: لا يسخر رجال من رجال.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُواْ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ أي: عسى أن يكون القوم المسخور منهم خيرًا وأفضل من القوم الساخرين بهم - كما هو الواقع غالبًا؛ لأن السخرية بالناس تدل على نقص في الساخر فهو بسخريته من الآخرين يريد تكميل ما فيه من نقص، كما تدل على أنه بلغ من الشر نهايته، كما قال ﷺ: «**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[(٣)].

---

(١) بطر الحق: رده. وغمط الناس: احتقارهم.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، وأبو داود في اللباس ٤٠٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩، وابن ماجه في المقدمة ٥٩.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٦٤. من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

﴿وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ أي: ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون النساء المسخور منهن خيرًا وأفضل من النساء الساخرات بهن. وخص النساء بالذكر بعد قوله: ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ والذي إذا أطلق وحده يشمل الجنسين إشارة – و الله أعلم – إلى كثرة السخرية بين النساء – كما هو واقع – لضعف عقولهن ودينهن.

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين، وأن المسخور منه حري أن يكون خيرًا وأفضل من الساخر؛ لأن الله عز وجل قال: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ وعسى من الله واجبة كما قال ابن عباس وغيره. وهذا يؤكد أن المسخور منه خير من الساخر غالبًا.

﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ اللمز: هو التنقص للآخرين بالقول. والهمز هو التنقص للآخرين وعيبهم بالفعل بالإشارة باليد والحواجب ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، وقال تعالى ﴿هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١١]، أي: همّاز للناس يحتقرهم ويزدريهم وينتقصهم بفعله، ومشاء بالنميمة بينهم بقوله.

ومعنى قوله ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ أي: لا يلمز بعضكم بعضًا. ولمز المؤمن لأخيه المؤمن بمثابة لمزه لنفسه لهذا قال: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ كما قال تعالى ﴿فَسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ [النور: ٦١]، أي ليسلم بعضكم على بعضكم، وقال تعالى ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، أي: لا يقتل بعضكم بعضًا. وأيضاً فإن لمز الإنسان لأخيه سبب لأن يلمزه أخوه، كما في الحديث: «لعن الله من لعن والديه. قيل كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه، فيسب أمه»[1].

واللمّاز الهمّاز مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب، لأن الله توعده بالعذاب فقال ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]، واللمز والتنقص إن كان لعيب خِلْقي فهذا فيه تنقص للخالق سبحانه وتعالى، وإن كان لعيب خُلُقي فقد يعافيه الله ويبتليك، والواجب على المؤمن عون أخيه المؤمن والدفاع عنه ونصحه إذا وقع في مخالفة قال

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٥٩٧٣، ومسلم في الإيمان ٩٠، وأبو داود في الأدب ٥١٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٠٢ـ من حديث عبد الله بن عمرو ـ رضي الله عنهما.

ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا»[١].

وقال ﷺ: «من نفس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة، ومن يسر على معسر يسر الله عليه في الدنيا والآخرة، و الله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه[٢]».

وقال ﷺ:«من رد عن عرض أخيه رد الله عن وجهه النار يوم القيامة»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تحاسدوا و لا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولايبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخواناً، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه»[٤].

وإذا كان هذا هو واجب المسلم على المسلم بل الواجب عليه ما هو أعظم من ذلك وهو أن يحب له ما يحب لنفسه، الأمر الذي لا يتم إيمان العبد إلا به كما قال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[٥] فكيف يليق به أن يسخر منه أو يلمزه و يتنقصه؛ ولهذا سمى الله الأخ المسلم نفسًا لأخيه المسلم لأن المؤمنين ينبغي أن يكون هذا حالهم. قال ﷺ فيما رواه النعمان بن بشير رضي الله عنه : «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[٦].

فيا لها من مبادئ سامية وآداب عظمية وأخلاق كريمة – لو أخذنا بها لكان لنا شأن– فالله المستعان.

---

(١) سبق تخريجه قريبًا.

(٢) سبق تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٣١ – من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٤) سبق تخريجه قريباً.

(٥) أخرجه مسلم في الإيمان ٤٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠١٦، والترمذي في صفة القيامة ٢٥١٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٦ – من حديث أنس رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١١، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٦، وأحمد ٤/ ٢٦٠.

﴿وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾ التنابز: التداعي والتنادي على وجه يشعر بالكراهة. والألقاب: جمع لقب، واللقب: اسم لما يسمى به المرء غير اسمه الأول - مشعرًا بمدح أو ذم. والمراد به هنا ما أشعر بذم.

والمعنى: لا يُعيِّر أحدكم أخاه ويلقبه بلقب يكرهه ويسوؤه سماعه فهذا محرم ولا يجوز، بل يجب أن يدعو المسلم أخاه بأحب الأسماء إليه.

قيل: إنهم كانوا يقولون لمن أسلم من أهل الكتاب: يا يهودي أو يا نصراني، وروي أن الآية نزلت في بني سلمة.

لكن إن كان اللقب غير مذموم، بل مما يميزه عن غيره ونحو ذلك على سبيل التعريف لا على سبيل التنقص والاحتقار فهذا لا بأس به كما جاء في ذكر بعض رواة الحديث : «الأعمش» و «الأعرج» ونحو ذلك.

﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ بئس: أي : قبح، والفسوق: الخروج عن طاعة الله تعالى بالسخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب ونحو ذلك.

﴿بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ أي: بعد الإيمان الذي حرم عليكم هذه الأشياء، وأوجب عليكم الأخوّة في الله.

أي: قبح وساء أن تنتقلوا من وصف الإيمان إلى وصف الفسق بارتكابكم هذه الأعمال.

﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ «من» شرطية، و«لم» حرف نفي وجزم وقلب، و«يتب» فعل الشرط. وجوابه جملة: ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ اقترنت بالفاء لأنها جملة اسمية. أي: ومن لم يتب من تلك الأعمال التي هي من الفسوق (فأولئك هم الظالمون). الذين بلغوا مبلغًا عظيمًا في الظلم، وأكد هذا المعنى بكون الجملة اسمية، معرفة الطرفين وبضمير الفصل «هم».

والتوبة: هي الرجوع من المعصية إلى الطاعة. قال ابن القيم[1]: «والتائب: هو الراجع إلى أمر الله من نهيه، وإلى طاعته من معصيته».

وشروطها خمسة: الأول: الإخلاص لله عز وجل، فلا تكون خوفاً من الخلق أو

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨١، ١٨٢.

طمعاً فيما عندهم.

الثاني: الإقلاع عن المعصية وتركها فإن كان فيها حق لآدمي رده؛ لأنه لا يُعد مقلعاً عن المعصية في هذه الحال حتى يرد حقوق الآدميين إليهم، إن أمكن ردها، وإن لم يمكن ردها كالسخرية واللمز والتنابز بالألقاب والغيبة والنميمة استحل منها إن أمكن من غير مفسدة كأن يكونوا قد علموا بذلك، فإن لم يمكن أو خاف ترتب مفسدة على ذلك كما في حال إذا لم يعلموا بذلك استغفر الله لهم وأثنى عليهم في المجالس التي نال منهم فيها. قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [هود: ١١٤]، وفي الحديث: «كفارة من اغتبته أن تستغفر له»[١].

الثالث: الندم على فعل المعصية والتحسر، والحياء من الله ـ عز وجل.

الرابع: العزم على عدم العودة إلى المعصية، فإن لم يعزم على تركها لم تصح توبته، وإن عزم على تركها لكنه وقع فيها مرة أخرى فعليه تجديد التوبة.

الخامس: أن تكون في وقتها، قبل طلوع الشمس من مغربها، وقبل بلوغ الروح الحلقوم[٢].

والظالمون: جمع ظالم. والظلم وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وهو النقص قال تعالى: ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾[الكهف: ٣٣].

وأظلم الظلم الشرك بالله كما قال تعالى عن لقمان أنه قال لابنه ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[لقمان: ١٣]. وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله أعظم الحقوق وأوضحها؛ فإنه تعالى خلق ورزق وأنعم على الخلق بسائر النعم وأعظمها نعمة الإسلام.

أي: من لم يتب ويرجع عما اقترفه من المعاصي من ترك واجب أو ارتكاب محرم ومن السخرية بالآخرين ولمزهم والتنابز بالألقاب والفسوق بعد الإيمان وغير ذلك فأولئك الذين بلغوا الغاية في الظلم، فالناس قسمان: تائب وظالم. قال ابن القيم[٣]: «وأوقع اسم

---

(١) أخرجه ابن أبي الدنيا في «الصمت» ٢٩٣، والبيهقي في «شعب الإيمان» ٦٧٨٦.

(٢) انظر تفصيل الكلام على التوبة في «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» في الكلام على قول الله تعالى: ﴿إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة﴾ [الآيتين: ١٧، ١٨].

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨١.

الظالم على من لم يتب، ولا أظلم منه لجهله بربه وبحقه وبعيب نفسه وآفات أعماله».

ويؤخذ من الآية تحريم السخرية بالآخرين ولمزهم، وتحريم التنابز بالألقاب، وأنواع الفسوق وأن ذلك من الظلم، ووجوب التوبة والإنابة إلى الله عز وجل فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله، فوالله إني لأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[1] وفي حديث ابن عمر رضي الله عنهما «**فإني أتوب في اليوم مائة مرة**»[2] وكان يقول: «**سبحانك اللهم ربنا وبحمدك اللهم اغفر لي**»[3].

الفوائد والعبر:

١ـ تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ مناداة المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً وتكريماً لهم، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف وعلى اجتناب ما بعده من نواهٍ.

٣ـ تحريم السخرية بين المؤمنين رجالاً ونساءً، وتأكيد ذلك في حق النساء، لكثرة السخرية بينهن.

٤ـ أن المسخور منه غالباً خير من الساخر، لأن الساخر لولا نقصه ما سخر بالآخرين، فهو يريد تكميل نقصه بهذه السخرية.

٥ـ النهي عن تنقص المؤمنين بعضهم بعضاً، وأن تنقص المؤمن لأخيه بمثابة تنقصه لنفسه.

٦ـ تحريم التنابز بالألقاب.

٧ـ التنفير من السخرية بالمؤمنين وتنقصهم ونبز بعضهم بعضاً بالألقاب وتقبيح ذلك وأنه من الفسوق بعد الإيمان.

٨ـ وجوب شكر نعمة الإيمان والابتعاد عما يشينها ويدنسها.

٩ـ وجوب التوبة من هذه الأعمال السيئة، ومن جميع الذنوب.

١٠ـ من لم يتب من هذه الذنوب وغيرها فهو الظالم لنفسه ولغيره غاية الظلم.

١١ـ حرص الدين الإسلامي على صفاء القلوب والتأليف بين المؤمنين، وتجنيبهم كل ما يسبب الفرقة والاختلاف.

---

(١) أخرجه البخاري في الدعوات. ـ استغفار ـ النبي ﷺ في اليوم والليلة ٦٣٠٧، والترمذي في التفسير ٣٢٥٩، وابن ماجه في الأدب ٣٨١٦ - من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٧٠٢، وأبو داود في الصلاة ١٥١٥.

(٣) أخرجه البخاري في الأذان ٧٩٤، ومسلم في الصلاة ٤٨٤، وأبو داود في الصلاة ٨٧٧، والنسائي في التطبيق ١٠٤٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٨٩ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا فَكَرِهۡتُمُوهُۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ ﴿١٢﴾﴾.

قوله: ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ : أي: ابتعدوا عن كثير من الظن، وهو الاتهام للآخرين بلا علم ولا دليل بل بمجرد الظن؛ وإذا جب اجتناب كثير من الظن ـ مع أن الظن هو الاحتمال الراجح فمن باب أولى يجب الابتعاد عن الشك وهو ما كان متردد الطرفين لا رجحان فيه.

قال ابن كثير[1]: «هو الاتهام والتخون للأهل والأقارب والناس في غير محله».

﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ أي: ذنب محض - وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك. وإذا كان بعض الظن إثمًا فليجتنب كثير منه احتياطًا لئلا يقع المؤمن في هذا البعض الذي هو إثم وذنب وهو الظن السيء بمن ليس محلاً لذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[2].

وعن حارثة بن النعمان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد وسوء الظن**». **فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال: «إذا حسدت فاستغفر الله، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»**[3].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «**ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يُخرج من ذلك: إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض**»[4].

وقد رُوي: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خرج يعس ومعه عبد الرحمن بن

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.
(٢) أخرجه البخاري في الأدب باب ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ ٦٠٦٤ ومسلم في البر – تحريم الظن والتجسس ٢٥٦٣، والترمذي في البر ١٩٨٨.
(٣) أخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٥٧.
(٤) أخرجه ابن أبي الدنيا ـ انظر «الجامع الصغير» ٢٤٦٦.

عوف رضي الله عنه، وبينما هما يطوفان في شوارع المدينة وجدا باباً مجافا على قوم ولهم أصوات مختلطة وشرب فقال عمر لعبد الرحمن: «أتدري بيت من هذا؟ قال: لا. قال: هذا بيت ربيعة بن أمية بن خلف، فقال عبد الرحمن: يا أمير المؤمنين قد كفينا ما نهانا الله عنه فقال: (ولا تجسسوا) ثم انصرفا».

فيجب على المؤمن اجتناب كثير من الظن، وهو الظن السيء بمن هم ليسوا محلاً لذلك، فإن سوء الظن بهم من الإثم والذنب، بل يجب حسن الظن بمن هم كذلك من المؤمنين وغيرهم، وحمل ما يصدر منهم على أحسن محمل ما أمكن ذلك. عن عبد الله ابن عمر رضي الله عنهما قال: **رأيت النبي ﷺ وهو يطوف بالكعبة ويقول: «ما أطيبك وأطيب ريحك، ما أعظمك وأعظم حرمتك، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند الله حرمة منك، ماله ودمه، وأن نظن به إلا خيرًا»**[(١)].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **«لا تظنَّنَّ بكلمة خرجت من أخيك المسلم إلا خيرًا، وأنت تجد لها في الخير محملاً»**[(٢)].

ويفهم من قوله:﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ أن ما عدا الكثير منه لا يؤمر باجتنابه، وهو ما لا يكون إثما بدليل قوله ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ﴾ فالبعض الآخر وهو ما عدا الكثير منه ليس بإثم فالظن الذي في محله، كأن يوجد له قرائن ودلائل ممن هم أهل لذلك من أهل الشر والسوء ممن ليسوا محلاً لحسن الظن بهم جائز، والاحتياط الاحتراز منهم ومن شرورهم، وإذا كان الحال وصل بالبعض إلى تهريب المخدرات في أحشائهم وفروجهم فليس هناك محل لحسن الظن بمثل هؤلاء، و الله المستعان.

(ولا تجسسوا) التجسس غالبًا يطلق في الشر، والتحسس في الخير، كما في قوله تعالى: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ [يوسف: ٨٧] وقد يطلق التحسس في الشر كما في الحديث : «لا تجسسوا ولا تحسسوا»[(٣)] ومن التحسس: الاستماع إلى حديث قوم

---

(١) أخرجه ابن ماجه في الفتن ـ حرمة دم المؤمن وماله ٣٩٣٢، قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧: «تفرد به ابن ماجه من هذا الوجه».

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٣٥٧.

(٣) سبق تخريجه قريبا.

وهم له كارهون كأن يستمع على أبوابهم ونحو ذلك.

والتجسس: هو تتبع عورات المسلمين والتنقيب والتفتيش عنها[١] قال ﷺ: «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته»[٢].

فيجب حمل الناس على ما يظهر منهم، والحكم عليهم ومعاملتهم بذلك. عن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «فمن أبدى لنا صفحته أقمنا عليه كتاب الله»[٣].

أما ما خفي من أحوال الناس فلا ينبغي البحث عنه، بل ينبغي التغافل ما أمكن عن زلاتهم التي إذا فتشت ظهر منها ما لا ينبغي.

عن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم» فقال أبو الدرداء رضي الله عنه: كلمة سمعها معاوية من رسول الله ﷺ نفعه الله بها»[٤].

وعن جبير بن نفير وكثير بن مرة وعمرو بن الأسود والمقدام بن معد يكرب وأبي أمامة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة في الناس أفسدهم»[٥].

وعن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: لا يخبرني أحد عن أحد شيئاً فإني أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر»[٦].

وروي أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أُتي برجل، فقيل له: هذا فلان تقطر لحيته خمرًا، فقال عبد الله :« إنما نهينا عن التجسس، ولكن إن يظهر لنا شيء نأخذ

---

(١) وقيل التجسس بالجيم أن يطلب العيب بنفسه، والتحسس بالحاء أن يلتمسه من غيره، وقيل التجسس أن يطلبه لغيره، والتحسس أن يطلبه لنفسه. وقيل معناهما واحد. انظر «النهاية» مادة «جسس».

(٢) سياتي تخريجه قريباً.

(٣) أخرجه الحاكم ٤/ ٢٤٤، ٣٨٣، والبيهقي ٨/ ٣٣٠. وقال الحاكم : «صحيح على شرط الشيخين» ووافقه الذهبي.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ـ النهي عن التجسس ٤٨٨٨.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب – النهي عن التجسس ٤٨٨٩.

(٦) أخرجه أبو داود في الأدب ـ رفع الحديث من المجلس ٤٨٦٠، والترمذي في المناقب ـ فضل أزواج النبي ﷺ ٣٨٩٦ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث غريب».

به»[١].

لكن من كان يتعدى ضرره مباشرة إلى الآخرين ويعظم خطره كمروجي المخدرات والمتفجرات فتجب متابعته والتجسس والتحسس عليه، لأنه من المفسدين في الأرض، بخلاف من يعمل معصية في بيته فيما لا يتعدى ضرره مباشرة إلى غيره فلا يجوز التجسس عليه.

﴿وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ الغيبة: ذكرك أخاك بما يكره كما قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: «**أتدرون ما الغيبة؟**» **قالوا الله ورسوله أعلم**. قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**» قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته**»[٢].

﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾: الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتعجب، أي: هل يحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتًا، والجواب: لا (فكرهتموه) أي: بل أنتم تكرهون ذلك غاية الكراهة فلا يمكن أن يأكل الإنسان لحم أخيه الميت، والمراد بهذا أن اغتياب المسلم لأخيه بمثابة أكله للحمه ميتًا، فكيف يقع ذلك من الكثيرين.

وفي قوله (ميتًا) ـ إضافة إلى دلالته على شدة الكراهة ـ إشارة إلى أن الذي اغتيب ـ لكونه غائبًا لا يستطيع الدفاع عن نفسه ـ أشبه بالميت فاقد الروح.

وقد بلغ القرآن الكريم الغاية في التنفير عن الغيبة بهذا التشبيه، إذ لا يتصور منظر أبشع من أكل المسلم للحم أخيه الميت.

ويؤخذ من الآية شدة تحريم الغيبة وبشاعتها وشناعتها وقبحها، وأنها من أكبر الكبائر، وبلوغ القرآن الغاية في التنفير مما يريد التنفير منه.

قال ابن كثير[٣]: «والغيبة محرمة بالإجماع. وقد ورد فيها الزجر الأكيد، ولهذا شبهها تعالى بأكل اللحم من الإنسان الميت» كما قال تعالى: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن

---

(١) أخرجه أبو داود في الموضع السابق ٤٨٩٠.

(٢) أخرجه مسلم في البر ٢٥٨٩، وأبو داود في الأدب ٤٨٧٤، والترمذي في البر والصلة ـ ما جاء في الغيبة ١٩٣٤.

(٣) في (تفسيره) ٧/ ٣٥٩ – ٣٦٠.

﴿يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ أي: كما تكرهون هذا طبعًا؛ فاكرهوا ذاك شرعًا، فإن عقوبته أشد من هذا، وهذا من التنفير عنها، والتحذير منها، كما قال ﷺ في العائد في هبته: «ليس لنا مثل السوء، الذي يعود في هبته كالكلب يقيء، ثم يعود في قيئه[(١)]».

وعن أبي بكرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا**»[(٢)]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**لا تحاسدوا ولا تناجشوا، ولا تباغضوا ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا، المسلم أخو المسلم ، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره، التقوى ههنا ويشير إلى صدره ثلاث مرات، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه، إن الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم، وأشار بأصابعه إلى صدره**»[(٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ «**حسبك من صفية أنها كذا وكذا - تعني أنها قصيرة -** فقال ﷺ: «**لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته**»[(٤)].

ومر ﷺ بقبرين فقال: «**إنهما ليعذبان وما يعذبان في كبير، أما أحدهما فكان لا يستتر من البول، وأما الآخر فكان يمشي بالنميمة....**»[(٥)].

بل إن تتبع عورات المسلمين واغتيابهم من أعظم الدلائل على ضعف الإيمان، فعن أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : «**يا معشر من آمن بلسانه**

---

(١) اخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٦٢٢ ومسلم في الهبات ١٦٢٢، والنسائي في الهبة ٣٦٩٨. والترمذي في البيوع ١٢٩٨ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) اخرجه البخاري في العلم ٦٧، ومسلم في القسامة ١٦٧٩، وابن ماجه في المقدمة ٢٣٣، وأخرجه البخاري أيضًا في الحج ١٧٤١ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٤، وأبو داود في البيوع ٣٤٣٨، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩، والترمذي في النكاح ١١٣٤، وابن ماجه في التجارات ٢١٧٢، وفي الزهد ٤١٤٣.

(٤) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨٧٥، والترمذي في صفة القيامة ٢٥٢، والطبري في (جامع البيان) ٨٧/٢٦.

(٥) أخرجه البخاري في الوضوء ٢١٨، ومسلم في الطهارة، ٢٩٢، وأبو داود في ا لطهارة ٢٠، والنسائي في الطهارة ٣١، والترمذي في الطهارة ٧٠، وابن ماجه في الطهارة ٣٤٧ - من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ولمّا يدخل الإيمان في قلبه لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من اتبع عورة أخيه المسلم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ :« لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس يخمشون وجوههم وصدورهم، قلت: من هؤلاء يا جبريل، قال: هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ويقعون في أعراضهم»[٢].

ونظر ابن عمر رضي الله عنهما يومًا إلى الكعبة فقال: «ما أعظمك، وأعظم حرمتك، والمؤمن أعظم حرمة عند الله منك»[٣].

ولا يستثنى من تحريم الغيبة إلا ما كان لمصلحة، كما إذا كان ذلك لرفع الظلم، قال تعالى: ﴿۞لَّا يُحِبُّ ٱللَّهُ ٱلۡجَهۡرَ بِٱلسُّوٓءِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ إِلَّا مَن ظُلِمَۚ﴾ [النساء: ١٤٨]، كما في قول هند امرأة أبي سفيان: «إن أبا سفيان رجل شحيح لا يعطيني ما يكفيني وولدي، فقال لها رسول الله ﷺ: «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف»[٤].

وكما إذا كان ذلك لمشورة في زواج أو غير ذلك، كما في قوله ﷺ لفاطمة بنت قيس لما جاءت تستشيره فيمن تتزوج قال لها ﷺ: «أما معاوية فصعلوك لا مال له، وأما أبو جهم فلا يضع عصاه عن عاتقه انكحي أسامة بن زيد»[٥].

وكما إذا كان ذلك بغرض دراسة الأسانيد والحكم على الأحاديث، كقولهم: فلا كذاب، فلان سيء الحفظ، ونحو ذلك.

﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ﴾ أي: بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٞ رَّحِيمٞ﴾: «التواب» اسم من أسماء الله على وزن «فعّال» يدل على أنه عز وجل ذو التوبة الكثيرة الواسعة بقسميها، وهما: توفيقه عز وجل للعبد أن

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب – باب في الغيبة ٤٨٨٠، وأخرجه أبو يعلى في مسنده من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. انظر (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٠.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٣٥، وأحمد ٣/ ٢٢٤.

(٣) أخرجه الترمذي في البر – عظم حرمة المؤمن ٢٠٣٢ وقال: (حسن غريب).

(٤) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٦٤، ومسلم في الأقضية ـ قضية هند ١٧١٤، وأبو داود في البيوع ٣٥٣٢، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٢٠، وابن ماجه في التجارات ٢٢٩٣ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٥) أخرجه مسلم في الطلاق ـ المطلقة ثلاثاً لا نفقة لها ١٤٨٠، وأبو داود في الطلاق ٢٢٨٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٢، والترمذي في النكاح ١١٣٥ من حديث فاطمة بنت قيس ـ رضي الله عنها.

يتوب كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ [التوبة: ١١٨] أي: وفقهم للتوبة ليتوبوا.

والقسم الثاني: قبولها منه كما قال ـ عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

و «الرحيم» أيضًا: اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» يدل على أنه عز وجل ذو الرحمة الواسعة الرحمة الذاتية التي هي صفة من صفاته الثابتة له عز وجل، كما قال ـ عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

والرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال ـ عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١]، رحمة عامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥] ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

فإذا انفرد «الرحيم» أو «الرحمن» دل كل منهما على إثبات صفة الرحمة الذاتية والرحمة الفعلية لله عز وجل، وإثبات صفة الرحمة العامة والخاصة له عز وجل أما إذا اجتمعا فيدل «الرحمن» على إثبات صفة الرحمة الذاتية، ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الفعلية، ويدل «الرحمن» على إثبات صفة الرحمة العامة. ويدل «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الخاصة له عز وجل.

ومن رحمته عز وجل أن شرع التوبة، ووفق لها من شاء من عباده، وقبلها منهم ممن تتوفر فيهم شروط التوبة، وهي: الإقلاع عن المعصية، والندم على فعلها، والعزم على أن لا يعود إليها، وأن تكون في وقتها قبل بلوغ الروح الحلقوم وحضور الأجل، وقبل طلوع الشمس من مغربها وغلق باب التوبة، وأن تكون خالصة لله عز وجل لا خوفًا من أحد ونحو ذلك.

وإذا كانت المعصية تتعلق بحقوق الآدميين فمن شرط صحة الإقلاع عن المعصية رد حقوق الآدميين إليهم كالدماء والأموال ونحو ذلك فإن كان غيبة ونميمة وغير ذلك وجب أن يتحللهم منها إن أمكن ذلك بلا ضرر، فإن لم يمكن ذلك أو خيف أن يؤدي ذلك إلى زيادة الشر وبخاصة إذا علم أنهم لم يعلموا بذلك، ونحو ذلك، فإنه يثني عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تُكُلِّم فيهم، فتكون هذه

عليهم في المجالس التي اغتابهم فيها، ويدفع عن أعراضهم إذا تُكُلِّم فيهم، فتكون هذه بتلك. ففي حديث جابر بن عبد الله وأبي طلحة بن سهل الأنصاري أن رسول الله ﷺ قال: **«ما من امرئ يخذل امرأ مسلمًا في موضع تنتهك فيه حرمته، وينتقص فيه من عرضه إلا خذله الله في موطن يحب فيه نصرته، وما من امرئ ينصر امرأ مسلمًا في موضع ينتقص فيه من عرضه، وينتهك فيه من حرمته، إلا نصره الله في مواطن يحب فيها نصرته»**[1].

الفوائد والعبر:

١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.
٢- نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريفاً لهم وتكريماً، وحثاً على الاتصاف بهذا الوصف، وامتثال ما بعده من أوامر ونواهٍ.
٣- وجوب اجتناب كثير من الظن، لأن بعض الظن إثم، وهو الظن السيء في غير محله.
٤- تحريم الظن السيء بالمؤمنين، ووجوب حسن الظن بهم.
٥- تحريم التجسس والتحسس.
٦- جواز الظن بمن ليسوا محلاً لحسن الظن والاحتراز منهم والتجسس عليهم لدرء شرورهم عن المسلمين.
٧- تحريم الغيبة بين المؤمنين والتنفير منها.
٨- بلوغ القرآن الغاية في التنفير فيما يراد التنفير منه.
٩- حرص الدين الإسلامي على سلامة الصدور بين المؤمنين والحفاظ على أسرارهم وأحوالهم وصيانة أعراضهم.
١٠-وجوب تقوى الله، باجتناب ما نهى عنه في الآية، وبفعل أوامره واجتناب نواهيه.
١١-إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «التواب» وأن من صفته ـ عز وجل ـ توفيق عباده للتوبة وقبولها منهم.
١٢-إثبات اسم الله «الرحيم» وصفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ.

---

(١) أخرجه أبو داود في الأدب – باب من رد عن مسلم غيبته ٤٨٩٣.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣﴾.

صلة الآية بما قبلها:

نهى الله عز وجل في الآيات السابقة المؤمنين أن يسخر بعضهم من بعض أو يلمز بعضهم بعضًا، وعن التنابز بالألقاب، وأمرهم باجتناب كثير من الظن، ونهاهم عن التجسس وعن أن يغتاب بعضهم بعضًا، ثم أتبع ذلك ببيان أنهم خلقوا من أصل واحد وأن أكرمهم عند الله أتقاهم.

قوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ يقال في إعرابه كما قيل في إعراب (يا أيها الذين آمنوا) وقد سبق. والناس: هم بنو آدم الموجودون وقت نزول الآيات، ومن سيوجد إلى قيام الساعة. وعمومات الكتاب والسنة كما يدخل فيها عموم الإنس يدخل فيها أيضاً عموم الجن للإجماع على أنهم مكلفون كما كلف الإنس من حيث أصول الشرائع، أما في الفروع فقد قال بعض أهل العلم: إنه لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بما كلف به الإنس في جميع الفروع على حد سواء.

والناس: يقال: أصله «أناس» كما قيل:

إن المنايـــا يطَّلِعْـــ ... ـــن علـى الأنـاس الآمنينـا[1]

وهو مشتق من النوس، وهو الحركة؛ لأن الناس يتحركون في قضاء حوائجهم، أو من الأُنس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، أو من الإيناس، وهو الرؤية والمشاهدة؛ لأنهم يُرون ويُشاهدون بخلاف «الجن» فهم مستترون، ومنه قوله تعالى ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارٗا﴾ [القصص: ٢٩]، أي: أبصر ورأى، وقوله ﴿فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ [النساء: ٦]، أي: أبصرتم ورأيتم. وقيل مشتق من النسيان كما قيل:

وما سمي الإنسان إلا لنسيه ... ولا القلــب إلا أنــه يتقلــب

ورد هذا ابن القيم رحمه الله، وقال[2]:«لو كان الإنسان مشتقاً من النسيان لقيل:

(١) البيت لذي جرن الحميري. انظر (اشتقاق أسماء الله الحسنى) للزجاجي ٣٢، (لسان العرب) مادة (نوس).
(٢) انظر (بدائع الفوائد) ٢/ ٢٦٤ ـ ٢٦٥.

نسيان ولم يقل إنسان».

﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ المتكلم بضمير العظمة (إنا) هو العظيم سبحانه الذي له العظمة التامة، كما قال عز وجل عن نفسه: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾[البقرة: ٢٥٥]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:قال الله تعالى «الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري»[1].

(خلقناكم) أي: أوجدناكم وأنشأناكم، وأصل الخلق التقدير.

كما قال الشاعر[2]:

ولأنت تفري ما خلقت وبعض الـ قوم يخلق ثم لا يفري

فالمتفرد بالخلق هو الله عز وجل الذي له تمام القدرة وتمام العلم، قال عز وجل: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

وقد يطلق الخلق بمعنى تحويل الشيء إلى شيء آخر كتحويل الحديد أو الخشب الذي أوجده الله عز وجل إلى مصنوعات حديدية وخشبية. ولهذا جمع الله كلمة (الخالق) في قوله تعالى : ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٤]، إذ لا خالق في الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ أي: من آدم وحواء، أو من جنس ذكر وأنثى أب وأم، فهم من أصل واحد وجنس واحد مما يوجب على كل منهم أداء حق الآخر عليه ذكورهم وإناثهم، الأزواج، والوالدين والأولاد والإخوة والأخوات وسائر القرابات، ويوجب على كل منهم أداء حقوق إخوانه المسلمين، وكذا أداء حقوق غير المسلمين ممن ليسوا بمحاربين.

وقدم (الذكر)؛ لأنه من حيث العموم أفضل من الأنثى، كما قال عز وجل:

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤، وأخرجه مسلم أيضًا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) البيت لزهير وانظر (الكشاف) ١/ ٤٥، (مجموع الفتاوى) ١٦/ ٦٠.

﴿وَلِلرِّجَالِ عَلَيۡهِنَّ دَرَجَةٞۗ﴾ [البقرة: ٢٢٨] قال ابن القيم[1]: «ولأنه هو الأصل فمنه البذر والسقي، والأنثى وعاء ومستودع للولد تربيه في بطنها كما تربيه في حجرها، ولهذا كان الولد للأب حكمًا ونسبًا، وأما تبعيته للأم في الحرية والرق فلأنه إنما تكوَّن وصار ولدًا في بطنها، وغذته بلبانها، مع الجزء الذي فيه منها. وكان الأب أحق بنسبه وتعصيبه؛ لأنه أصله ومادته ونسخته، وكان أشرفهما ديناً أولى به، تغليبًا لدين الله وشرعه».

على أن التفضيل إنما هو لجنس الرجال على جنس النساء، و إلا فإن من بين النساء من تكون أفضل من زوجها، بل ومن عشرات الرجال، ويكفي النساء أن منهن أمهات المؤمنين رضي الله عنهن وفاطمة و مريم وآسية امرأة فرعون رضي الله عنهن.

ولهذا ينبغي أن يقدم في الخطابات والمكاتبات من قدم الله عز وجل، وهم الذكور، خلاف ما يفعله بعض المستغربين والمنهزمين من قولهم: آنساتي سيداتي سادتي.

﴿وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ﴾

الشعوب: جمع شعب، سموا شعوبًا لأنهم تشعبوا عمن قبلهم، كما يتشعب عنهم من بعدهم كما قال عز وجل: ﴿وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ﴾[النساء: ١]، أي: فرّق ونشر وذرأ من آدم وحواء رجالاً كثيرًا ونساءً.

والقبائل: جمع قبيلة، والقبيلة دون الشعب.

ويتفرع عن القبائل: الفصائل والعشائر والعمائر والأفخاذ وغير ذلك.

(لتعارفوا) أي: لأجل أن تتعارفوا فيما بينكم، فيُدْعى الإنسان باسمه واسم أبيه وجده، فيقال فلان بن فلان بن فلان، ولتعرفوا أنسابكم، ليؤدي بعضكم حقوق بعض من صلة الأرحام والتوارث وغير ذلك، فمعرفة الأنساب أمرٌ مطلوب شرعًا، لأن الله جعل الناس شعوبًا وقبائل لأجل ذلك، لما يلزم عليه من أداء حقوق بعضهم على بعض. عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**تعلموا من أنسابكم ما**

---

(١) في (التبيان في احكام القرآن) صـ ٣٥٢ – ٣٥٣.

تصلون به أرحامكم، فإن صلة الرحم محبة في الأهل، مثراة في المال، منسأة في الأثر»[١].

﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ أي: إنما جعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا ليؤدي بعضكم حقوق بعض، لا لتتفاخروا بالأحساب والأنساب وكثرة العدد ، فإن أكرمكم عند الله وأرفعكم منزلة عنده (أتقاكم) لله عز وجل؛ بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وفي الحديث: «فمن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سئل رسول الله ﷺ أي الناس أكرم؟ قال: «أكرمهم عند الله أتقاهم» قالوا: ليس عن هذا نسألك. قال: «فأكرم الناس يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله» قالوا ليس عن هذا نسألك. قال: «فعن معادن العرب تسألوني»؟ قالوا: نعم. قال: «فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا»[٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم» وأشار إلى صدره، وفي رواية: «ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[٤].

وعن أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ﷺ قال: «انظر فإنك لست بخير من أحمر، ولا أسود، إلا أن تفضله بتقوى الله»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه عن النبي ﷺ قال : «لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم الذين ماتوا إنما هم فحم من فحم جهنم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجعل الذي يدهده الخراء بأنفه. إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية[٦]، وفخرها بالآباء، إنما هو مؤمن تقي وفاجر شقي ، الناس كلهم بنو آدم، وآدم خلق من تراب»[٧].

---

(١) أخرجه الترمذي في البر – ما جاء في تعليم النسب ١٩٧٩ – وقال : (حديث غريب).
(٢) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٩، والترمذي في القراءات ٢٩٤٥، وابن ماجه في المقدمة ٢٢٥ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٧٨.
(٤) سبق تخريجه قريباً.
(٥) أخرجه أحمد ٥/ ١٥٨.
(٦) عُبِّيَّة الجاهلية: أي: تكبرها.
(٧) أخرجه أبو داود في الأدب ٥١١٦، والترمذي في المناقب ٣٩٥٥.

وعن حذيفة رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «**كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، ولينتهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونن أهون على الله من الجعلان**»[١].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: «طاف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته القصواء يستلم الأركان بمحجن في يده، فما وجد لها مناخًا في المسجد حتى نزل ﷺ على أيدي الرجال فخرج بها إلى بطن المسيل، فأنيخت، ثم إن رسول الله ﷺ - خطبهم على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال: «يا أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عُبِّيَّة الجاهلية، وتعاظمها بآبائها، فالناس رجلان: رجل برتقي كريم على الله، وفاجر شقي هين على الله، والناس بنو آدم، وخلق الله آدم من تراب قال الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ ثم قال: أقول قولي هذا واستغفر الله لي ولكم»[٢].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: « ما أعجب رسول الله ﷺ - شيء من الدنيا، ولا أعجبه أحد قط إلا ذو تُقى»[٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية[٤] ـ رحمه الله تعالى ـ:«أعظم الكرامة لزوم الاستقامة».

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ «العليم» و«الخبير»: اسمان من أسماء الله عز وجل على وزن (فعيل) يدلان على أنه عز وجل ـ ذو العلم الواسع، وذو الخبرة التامة.

و«العليم» و«الخبير» من الأسماء التي إذا اجتمعت افترقت، وإذا افترقت اجتمعت. فالعليم هنا بمعنى المطلع على ظواهر الأمور وجلائلها وجلياتها، والخبير: المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها.

أما إذا انفرد «العليم» فمعناه المطلع على الظواهر والبواطن على حد سواء.

---

(١) اخرجه البزار في مسنده – فيما ذكر ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٦٦.
(٢) اخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٧، وقال : (حديث غريب). وابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣٠٦ – الأثر ١٨٦٢٢.
(٣) اخرجه احمد ٦/ ٦٩.
(٤) في «مجموع الفتاوى» ١١/ ٢٩٨.

وكذا «الخبير» إذا انفرد فمعناه المطلع على البواطن، وإذا كان مطلعًا على البواطن فاطلاعه على الظواهر من باب أولى.

فبعلمه ـ عز وجل ـ وخبرته خلق الناس وجعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا وجعل التفاضل بينهم بالتقوى، وبعلمه وخبرته يهدي من يشاء ويضل من يشاء ويرحم من يشاء ويعذب من يشاء، ويفضل من يشاء على من يشاء، وهو الحكيم العليم الخبير في ذلك كله.

ويؤخذ من الآية أنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، فالناس كلهم من آدم وآدم من تراب. عن عقبة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الناس لآدم وحواء طف الصاع[1] لم يملؤوه، إن الله لا يسألكم عن أحسابكم ولا عن أنسابكم يوم القيامة إن أكرمكم عند الله أتقاكم**[2]».

قال علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه:

الناس من جهة التمثيل أكفاء ... أبوهُمُ آدمٌ والأم حواء
فإن يكن لهمُ من أصلهم نسب ... يفاخرون به فالطين والماء

فالفضل إنما هو بالتقوى فمن اتقى الله فهو الأكرم عند الله ولو كان عبدًا حبشيًا كبلال وسلمان رضي الله عنهما، ومن لم يتق الله فهو الأذل المهان عند الله ولو كان حرًا قرشيًا كأبي جهل وأبي لهب وغيرهما.

وقد أحسن القائل:

أبي الإسلام لا أب لي سواه ... إذا افتخروا بقيس أو تميم

وقد قيل:

لعمرك ما الإنسان إلا بدينه ... فلا تترك التقوى اعتماداً على النسبْ
فقد رفع الإسلام سلمانَ فارسٍ ... وقد وضع الشرك النسيب أبا لهبْ

---

(١) طفّ الصاع: أي: قريب بعضهم من بعض وبمنزلة واحدة في النقص والتقاصر عن غاية التمام.
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٨، والطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ٨٩.

وقد استدل بهذه الآية على عدم اشتراط الكفاءة في النكاح، قالوا: فلا يشترط سوى الدين لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

الفوائد والعبر:

١ـ تصدير الخطاب للناس بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

٢ـ عموم شريعة محمد ﷺ لجميع الناس.

٣ـ تذكير الناس بأصل خلقهم وأنهم خلقوا من ذكر وأنثى ليؤدي بعضهم حقوق بعض، وليعلموا حاجة بعضهم إلى بعض، ولا يفخر بعضهم على بعض.

٤ـ فضل الذكر على الأنثى من حيث العموم لا من حيث الأفراد، فكم من امرأة خير من كثير من الرجال.

٥ـ الهدف من جعل الناس شعوباً وقبائل ليتعارفوا بينهم ويعرفوا أنسابهم ليتواصلوا ويتوارثوا، لا ليتفاخروا بالأحساب والأنساب.

٦ـ أن معرفة الأنساب أمر مطلوب شرعاً.

٧ـ أن أكرم الناس عند الله أتقاهم لله ـ عز وجل ـ، فلا فضل لعربي على أعجمي، ولا لأبيض على أسود، ولا لغني على فقير إلا بالتقوى.

٨ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «العليم» و «الخبير» وما يدلان عليه من سعة علمه ـ عز وجل ـ وكمال خبرته.

﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾ قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسْلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

قوله: ﴿۞قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ﴾

قال السعدي رحمه الله[1]: «يخبر تعالى عن مقالة بعض الأعراب الذين دخلوا في الإسلام على عهد رسول الله ﷺ دخولاً من غير بصيرة ولا قيام بما يجب ويقتضيه الإيمان، أنهم مع هذا ادعوا وقالوا: آمنا، أي إيمانًا كاملاً مستوفيًا لجميع أموره».

والأعراب: هم سكان البادية، وهم أقرب إلى الجهل والجفاء كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ﴾ [التوبة: ٩٧].

(آمنا): أي: آمنا الإيمان الكامل المطلق، ظاهرًا وباطنًا.

﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُواْ﴾ أي: قل لهم يا محمد لم تؤمنوا بعد - يعني الإيمان القوي، أو الإيمان الكامل الذي يحمل صاحبه على الإخلاص ومتابعة الرسول ﷺ في فعل الواجبات والبعد عن المنهيات، كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا ينتهب نهبة يرفع إليه فيها الناس أعناقهم وهو مؤمن[2]».

وكقوله ﷺ: «و الله لا يؤمن، و الله لا يؤمن، و الله لا يؤمن» قيل: من يا رسول

---

(١) في (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٣٩.

(٢) أخرجه البخاري في المظالم والغصب ٢٤٧٥، ومسلم في الإيمان ٥٧، وأبو داود في السنة ٤٦٨٩، والنسائي في قطع السارق ٤٨٧٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٥٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٣٦ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

الله؟ قال: «الذي لا يأمن جاره بوائقه»[1].

﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا﴾ أي: دخلنا في الإسلام، بمعنى استسلمنا وانقدنا ظاهرًا. وأَمْرُهم بهذا وعدم وصفهم بالنفاق والكذب، كما وصف الله المنافقين في آيات عدة كقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] وكذا قوله بعد ذلك ﴿وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ﴾ وقوله ﴿قُلۡ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ وقوله ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾ كل هذا وغيره يدل على أن المذكورين ليسوا بمنافقين.

﴿وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ﴾ أي: ولمّا يباشر الإيمان قلوبكم فتذوقوا طعمه وحلاوته وتسعدوا به ويهون عليكم بَذْلُ كل غال ورخيص في سبيله من المال والنفس، والوقت، وغير ذلك.

قال الحسن البصري : «ليس الإيمان بالتحلي، ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[2].

وفي قوله: (ولما يدخل) دون أن يقول: «ولم يدخل» إشارة إلى قرب دخول الإيمان في قلوبهم.

فالإيمان المنفي عنهم هو الإيمان الكامل، والإسلام المثبت لهم هو الإسلام الشرعي الذي يثابون عليه وبهذا فسر الآية كثير من السلف واختاره جمع من المحققين منهم الطبري، وابن تيمية، وابن القيم، وابن كثير وغيرهم.

وذهب طائفة من المفسرين من السلف وغيرهم إلى أن المنفي عنهم هو الإيمان الشرعي الصحيح، والمثبت لهم هو الإسلام اللغوي، وهو الاستسلام خوف السبي والقتل، فعل المنافقين، واختار هذا بعض أهل العلم منهم البخاري، والصحيح

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٦ - من حديث أبي شريح رضي الله عنه.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

الأول[١]

قال ابن القيم[٢]:« ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟﴾ نفيًا للإيمان المطلق لا مطلق الإيمان لوجوه منها:

أنه أمرهم وأذن لهم أن يقولوا: أسلمنا والمنافق لا يقال له ذلك.

ومنها أن هؤلاء الجفاة الذين نادوا رسول الله ﷺ من وراء الحجرات ورفعوا أصواتهم فوق صوته غلظة منهم وجفاءً لا نفاقًا وكفرًا.

ومنها أنه قال: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾ ولم ينف دخول الإسلام في قلوبهم ولو كانوا منافقين لنفى عنهم الإسلام كما نفى عنهم الإيمان.

ومنها أن الله تعالى قال: ﴿وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي لا ينقصكم، والمنافق لا طاعة له.

ومنها أنه قال: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم﴾ فأثبت لهم إسلامًا، ونهاهم أن يمنوا على رسول الله ﷺ، ولو لم يكن إسلاماً صحيحاً لقال: لم تسلموا، بل أنتم كاذبون؛ كما كذبهم في قولهم: (نشهد إنك لرسول الله) لما لم تطابق شهادتهم اعتقادهم.

ومنها أنه قال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ ولو كانوا منافقين لما منَّ عليهم.

ومنها أنه قال: (أن هداكم للإيمان)، ولا ينافي هذا قوله (قل لم تؤمنوا) فإنه نفى الإيمان المطلق، ومنّ عليهم بهدايتهم للإسلام الذي هو متضمن لمطلق الإيمان.

ومنها أن النبي ﷺ لما قسم القسم قال له سعد: أعطيت فلانًا، وتركت فلانًا وهو مؤمن. فقال: أو مسلم ثلاث مرات، وأثبت له الإسلام دون الإيمان، والمقصود الفرق بين الإيمان المطلق، ومطلق الإيمان. فالإيمان المطلق يمنع دخول النار، ومطلق الإيمان

---

(١) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٨٩ - ٩٠، (فتح الباري) ١/ ٩٩، (التمهيد) لابن عبد البر ٩/ ٢٤٨، (الوسيط) للواحدي ٤/ ١٦٠، (الجامع لأحكام القرآن) ١٦/ ٣٤٨، (الإيمان) لابن تيمية صـ ٢٢٥ - ٢٣٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٦٨، (تيسير الكريم الرحمن) ٧/ ١٤٠، (أضواء البيان) ٧/ ٦٣٧ - ٦٣٩.

(٢) في (بدائع الفوائد) ٤/ ١٧.

يمنع الخلود فيها».

ويؤخذ من الآية أن الإيمان أخص من الإسلام فكل مؤمن مسلم وليس كل مسلم مؤمناً. كما أن الإحسان أخص من الإيمان - كما دل عليه حديث جبريل عليه السلام حين سأل النبي ﷺ عن الإسلام ثم عن الإيمان ثم عن الإحسان فترقى من الأعم إلى الأخص ثم للأخص منه. وهذا مذهب أهل السنة والجماعة.

ويدل عليه أيضًا حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه «أن رسول الله ﷺ أعطى رهطًا وسعد جالس فترك رسول الله ﷺ رجلاً هو أعجبهم إليّ، فقلت: يا رسول الله مالك عن فلان، والله إني لأراه مؤمنًا، فقال: «أو مسلمًا» فسكتُّ قليلاً، ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، فقلت: مالك عن فلان، فوالله إني لأراه مؤمنًا فقال: «أو مسلمًا» ثم غلبني ما أعلم منه فعدت لمقالتي، وعاد رسول الله ﷺ، ثم قال: «**يا سعد إني لأعطي الرجل وغيره أحب إليَّ منه، خشية أن يكبه الله في النار**»[١].

فقوله ﷺ: «أو مسلمًا» يدل على أن الإيمان أخص من الإسلام.

كما يدل أيضًا على أن هذا الرجل ليس بمنافق، بل هو مسلم لأنه ﷺ تركه من العطاء ووكله إلى إسلامه.

قال ابن كثير[٢]: «فدل هذا على أن هؤلاء الأعراب المذكورين في هذه الآية ليسوا بمنافقين، وإنما هم مسلمون لم يستحكم الإيمان في قلوبهم، فادعوا لأنفسهم مقامًا أعلى مما وصلوا إليه، فأدبوا في ذلك - وهذا معنى قول ابن عباس وإبراهيم النخعي وقتادة واختاره ابن جرير[٣] ـ قال: «وإنما قلنا هذا لأن البخاري ـ رحمه الله - ذهب إلى أن هؤلاء كانوا منافقين يظهرون الإيمان وليسوا كذلك وقد روي عن سعيد بن جبير ومجاهد وابن زيد أنهم قالوا في قوله (ولكن قولوا أسلمنا) أي: استسلمنا خوف القتل والسباء». قال ابن كثير: والصحيح الأول: أنهم قوم ادعوا لأنفسهم مقام الإيمان، ولم يحصل لهم بعد،

(١) أخرجه البخاري في الإيمان - باب إذا لم يكن الإيمان على الحقيقة ٢٧ ، ومسلم في الإيمان - تألف من يخاف على إيمانه لضعفه ١٥٠، وأبو داود في السنة ٤٦٨٣، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٢، وأحمد ١/ ١٧٦.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٦٨.

(٣) انظر (جامع البيان) ٢٦/ ٩٠.

فأُدِّبوا وأُعلموا أن ذلك لم يصلوا إليه بعد، ولو كانوا منافقين لعنفوا وفُضحوا، كما ذكر المنافقون في سورة براءة، وإنما قيل لهؤلاء تأديبًا: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ أي: لم تصلوا إلى حقيقة الإيمان بعد».

والإيمان، لغة: التصديق، وشرعًا قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان. والإسلام: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك. والإسلام والإيمان من الكلمات التي إذا اجتمعت افترقت،وإذا افترقت اجتمعت.

فإذا انفرد أحدهما عن الآخر حمل كل منهما على الأعمال الظاهرة والباطنة، وإذا اجتمعا حمل الإسلام على الأعمال الظاهرة ، وحمل الإيمان على الأعمال الباطنة كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات: ٣٥، ٣٦]،

وكما دل عليه حديث جبريل الذي رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: **«بينما نحن جلوس عند النبي ﷺ إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب، شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد، فجلس إلى النبي ﷺ وأسند ركبتيه إلى ركبتيه، وجعل يديه على فخذيه فسأله عن الإسلام، فقال له: الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة وتصوم رمضان وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً. فقال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإيمان فقال: الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره. قال: صدقت. فعجبنا له يسأله ويصدقه. وسأله عن الإحسان فقال: الإحسان: أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»** الحديث[(١)] .

﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ الطاعة فعل المأمور واجتناب المحذور أي: وإن تطيعوا الله ورسوله بفعل ما أمركم الله به ورسوله، وترك ما نهاكم الله عنه ورسوله. وعطف وصف الرسول ﷺ أو اسمه على اسمه عز وجل بالواو التي تقتضي التشريك في الحكم؛ لأن هذا في باب التشريع؛ وطاعة الرسول ﷺ من طاعة الله تعالى؛ بل طاعة

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٥٩، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان ٢٦١٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

لله كما قال عز وجل ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

بخلاف باب المشيئة والإرادة فلا يجوز العطف فيه بالواو في هذا المقام[١].

﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: لا ينقصكم من أعمالكم وأجورها شيئًا ولو كان مثقال ذرة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨] وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وهذه الآية كقوله تعالى في سورة الطور: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الآية: ٢١].

والمعنى: وإن تطيعوا الله ورسوله لا ينقصكم من أعمالكم وثوابها شيئًا، بل ستجدون ثوابها عند الله كاملاً أوفر ما يكون، بل ومضاعفًا الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، كما قال عز وجل: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٥].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و «الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل، يدل «الغفور» على أنه عز وجل ذو المغفرة التامة، ويدل «الرحيم» على أنه ذو الرحمة الواسعة سبحانه. فهو عز وجل غفور لمن تاب وأناب إليه يستر ذنبه ويتجاوز عن عقوبته. رحيم به حيث وفقه للتوبة وقبلها منه. وقدم عز وجل «الغفور» على «الرحيم» لأن التخلية قبل التحلية.

وفي ختم الآية بقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ إشارة لقرب مغفرة الله منهم.

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾.

«إنما» أداة حصر – والحصر معناه: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه، فاسم المؤمنين ووصفهم محصور بمن اتصفوا بهذه الصفات: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ

---

(١) راجع ص١٢ ـ ١٣.

لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾.

والمعنى: إنما المؤمنون الكُمَّل، الذين يستحقون وصف الإيمان المطلق (الذين آمنوا بالله) أي: آمنوا بالله فشهدوا أن لا إله إلا الله، فآمنوا بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

(ورسوله) أي: وآمنوا برسوله أي: صدقوا برسوله محمد ﷺ فشهدوا أن محمدًا رسول الله، فأطاعوه فيما أمر، وصدقوه فيما أخبر، واجتنبوا ما عنه نهى وزجر، ولم يعبدوا الله إلا بما شرع. فلا يتم الإيمان إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

ومن لازم الإيمان بالله ورسوله الإيمان بكل ما جاء عن الله ورسوله من الأوامر والنواهي وغير ذلك كبقية أركان الإيمان الستة وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والإيمان بالقدر خيره وشره وغير ذلك.

﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا﴾ «ثم» للترتيب والتراخي والمهلة، والريب: الشك، أي: ثم استمروا على الإيمان مع طول المدة، ولم يحصل عندهم ريب ولا شك في إيمانهم بالله ورسوله، وما جاءهم عن الله ورسوله، بل عندهم اليقين والتصديق الجازم في ذلك مع الثبات عليه كما قال تعالى عنهم: ﴿الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾[لقمان: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

﴿وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ الجهاد: بذل الجهد وما يستطيعه الإنسان.

(بأموالهم وأنفسهم) الأموال كل ما يتمول من النقود والأثاث والمراكب وغير ذلك.

(وأنفسهم) أي: بذلوا أنفسهم ومهجهم رخيصة في سبيل الله بعد بذل أموالهم فبذلوا جهدهم بالمال والنفس والنفيس في سبيل الله لإعلاء كلمة الله عز وجل قال ﷺ: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»[1].

وقدم الجهاد بالأموال لأهميته؛ لأن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يقوم إلا بالمال

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

لتمويل المجاهدين بالغذاء والمراكب والسلاح وغير ذلك؛ ولأن الجهاد بالمال يسبق الجهاد بالنفس إذ لا بد من تهيئة المجاهدين وإعدادهم وإمدادهم قبل دخول المعركة؛ ولأن المجاهد بالمال قد يجهز عددًا كبيرًا من المجاهدين إلى غير ذلك.

لهذا نجد القرآن الكريم قدم الجهاد بالأموال على الجهاد بالأنفس في جميع المواضع التي ورد فيها عدا قوله تعالى في سورة التوبة ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [الآية: ١١١].

وجعل كل منهما جهادًا ليأخذ كل نصيبه من الجهاد، فهناك من يستطيع الجهادين، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالنفس لكنه يستطيع الجهاد بالمال، وهناك من لا يستطيع الجهاد بالمال ولكنه يستطيع الجهاد بالنفس.

وذكر الجهاد بالأموال والأنفس – بعد الإيمان بالله ورسوله، لأن الجهاد ذروة سنام الإسلام كما قال ﷺ في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه: «رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد»[1].

فالقيام بالجهاد، من أعظم الأدلة على قوة الإيمان؛ فإن من جاهد غيره على الإسلام والإيمان والقيام بشرائعه فجهاده لنفسه من باب أولى وأحرى.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ أي: الصادقون في إيمانهم، الذي صدقوا مقالهم بفعالهم فجمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح الذي أرسل الله به رسوله كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح، كما قال الحسن رحمه الله: «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[2].

فتجد الكثير من الناس يهمهم ويحوقل، ويقول: يا الله التوبة، وهو غارق في المعاصي مفرّط في جنب الله، ومقصر في حقوق الخلق، وإذا سمعت كلامه قلت ما شاء الله هذا من صفوة الأخيار لكن إذا سبرت أحواله في تعامله سواء في القيام

---

(١) اخرجه الترمذي في الإيمان ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن٣٩٧٣ .

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٤.

بحقوق الله أو حقوق الخلق زهدت فيه.

وما أكثر هؤلاء. وقد قيل:

وكـل يـدعي وصـلاً بليلـى … وليلـى لا تقـر لهـم بـذاكا

وقيل:

والدعاوى إذا لم يقيموا عليها … بينـات أبناؤهـا أدعيـاء

وقيل أيضًا:

لو لا المشقة ساد الناس كلهم … الجود يفقر والإقدام قتال

أسأل الله أن يهدينا ويوفقنا إلى العلم النافع والعمل الصالح، وأن يجعلنا ممن جمعوا بين القول والعمل، لا ممن يقولون ما لا يفعلون، قال الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾: الأمر للنبي ﷺ - وهذا في معرض الرد على الأعراب في دعواهم وقولهم آمنا، وعلى غيرهم ممن يحذو حذوهم في مثل هذه المقالة، أي: أتعلمون الله وتخبرونه بما في قلوبكم وما تنطوي عليه ضمائركم. والاستفهام هنا للتوبيخ والإنكار.

ويؤخذ من هذا الإنكار على من ينطق بالنية، فيقول: اللهم إني أريد أن أتوضأ، اللهم إني أريد أن أصلي، اللهم إني أريد أن أصوم ونحو ذلك.

﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ العلم هو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا و (ما) موصولة – تفيد العموم، أي: يعلم الذي في السموات والذي في الأرض ولهذا قال بعده توكيدًا:

﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ أي: بكل شيء من الأشياء قل أو كثر، صغر أو كبر، خفي أو ظهر، بما في ذلك ما تنطوي عليه القلوب والضمائر كما قال عز وجل: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر : ١٩]، وقال عز وجل ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[الأنعام:

٥٩]، وقال تعالى: ﴿ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ [سبأ: ٣].

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ۖ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾

سبب النزول:

عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال «قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، فتكلموا، فقالوا: قاتلتك مضر ولسنا بأقلهم عدداً، ولا أكلّهم شوكة، وصلنا رحمك، فقال لأبي بكر وعمر ـ رضي الله عنهما تكلموا هكذا، قالوا: لا، قال: «إن فقه هؤلاء قليل وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم» قال عطاء في حديثه: فأنزل الله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟﴾»[1].

قوله: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، أي: يمن عليك يا محمد هؤلاء الأعراب أن أسلموا ويغترون بذلك ويُدِلُّون به.

ومعنى (أن أسلموا): أي: أن دخلوا في الإسلام ظاهرًا؛ لأن قولهم (آمنا) إما من باب التعليم لله - وهذا سوء أدب مع الله الذي لا تخفى عليه خافية من أعمالهم وغيرها.

وإما من باب الإدلال على الله بذلك، والمنة بذلك وأنهم كذا وكذا: تكثرًا بما ليس فيهم، وذلك مذموم؛ لأن المنة تبطِل وتفسد الصنيعة وقد قال الله عز وجل لنبيه ﷺ ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [المدثر: ٦].

﴿ قُل ﴾ يا محمد ردًا عليهم في دعواهم: ﴿ لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم ۖ ﴾.

﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾.

أي: بل المنة والفضل لله عز وجل عليكم بذلك أن هداكم للإيمان الذي هو أعظم نعمة وأكبر منة منه عز وجل كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ

---

(١) أخرجه النسائي في «السنن الكبرى» في التفسير ـ قوله تعالى: (يمنون عليك أن أسلموا) ٦/ ٤٦٧ رقم ١١٥١٩، وأبو يعلى في مسنده ٤/ ٢٥٠ رقم ٢٣٦٣، والضياء المقدسي في «المختارة» ١٠/ ٣٤٥ رقم ٣٧٣.

﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا ۝٦٩ ذَٰلِكَ ٱلۡفَضۡلُ مِنَ ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمٗا﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠].

﴿إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ﴾ أي: في دعواكم الإيمان. و الله بذلك أعلم سبحانه، كما قال النبي ﷺ للأنصار: «**يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي؟ كلما قال شيئًا قالوا: الله ورسوله أمن**»[1].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾.

الغيب في الأصل ما غاب عن الأعين، و الله عز وجل لا يغيب عنه شيء في الأرض ولا في السماء فكل ما غاب في السموات والأرض عن الخلق هو عنده سبحانه ظاهر معلوم، لأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض، ولا في السماء، كما قال عز وجل ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾[إبراهيم: ٣٨].

﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ﴾ قرأ ابن كثير (يعملون) بالغيب، وقرأ الباقون بالخطاب (تعملون).

(ما): مصدرية، أو موصولة، أي: بصير بعملكم، أو بالذي تعملون. و«البصير» من أسمائه ـ عز وجل.

والمعنى: والله بصير بأعمالكم، مطلع عليها يحصيها عليكم، ويجازيكم عليها، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وهذا فيه وعيد وتهديد لمن خالف أمر الله عز وجل، ووعد لمن امتثل أمر لله وأطاعه.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على هؤلاء الأعراب ونفي ما ادعوه لأنفسهم من الإيمان كـأنهم يعلّمـون الله بدينهم وليس معهم في الحقيقة إلا الإسلام الظاهر.

٢ ـ أن الأعراب سكان البادية هم أقرب إلى الجفاء والجهل.

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ـ غزوة الطائف ٤٣٣٠، ومسلم في الزكاة ـ إعطاء المؤلفة قلـوبهم ١٠٦١، وأحمد ٤٢/٤ من حديث زيد بن عاصم رضي الله عنه.

٣ ـ أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً، وأن الإيمان في البواطن والقلوب والإسلام علانية.
٤ ـ أن الحقائق لا تثبت بالدعاوى والأمانيّ.
٥ ـ أن هؤلاء الأعراب لم يكونوا منافقين، إذ لو كانوا منافقين لما أثبت لهم الإسلام ولنفاه عنهم، كما نفى عنهم الإيمان.
٦ ـ الترغيب في طاعة الله ورسوله، وأن من أطاع الله ورسوله سيوفّى أجره تاماً لا ينقص منه شيء وفاءً منه ـ عز وجل ـ وعدلاً.
٧ ـ وجوب طاعة الرسول ﷺ، وأنها من طاعة الله ـ عز وجل.
٨ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ. وهما «الغفور» و «الرحيم»، وأنه ذو المغفرة التامة، والرحمة الواسعة.
٩ ـ أن التخلية قبل التحلية فزوال المرهوب أولاً بالمغفرة، ثم حصول المطلوب بالرحمة.
١٠ ـ أن المؤمنين الصادقين حقاً هم الذين آمنوا بالله ورسوله من غير شك، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله. وفي هذا وصف لهم وثناء من الله ـ عز وجل ـ عليهم، كما أن فيه إشارة لبعد هؤلاء الأعراب عن منزلتهم.
١١ ـ تلازم الإيمان بالله ورسوله، فلا يصح الإيمان بالله دون الإيمان بالرسول، ولا الإيمان بالرسول دون الإيمان بالله.
١٢ ـ عظمة مكانة الجهاد بالأموال والأنفس في الإسلام، لأن الله خصه هنا بالذكر من بين أعمال الإيمان.
١٣ ـ أهمية الجهاد بالأموال، لأن الله قدمه على الجهاد بالأنفس.
١٤ ـ علم الله ـ عز وجل ـ المحيط بما في السموات والأرض وأنه عز وجل بكل شيء عليم.
١٥ ـ منة هؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم جهلاً منهم.
١٦ ـ وجوب الأدب مع الله ـ عز وجل ـ ومع رسوله ﷺ وتحريم المنة والإدلال بالعمل.
١٧ ـ لا منة لهؤلاء الأعراب على الرسول ﷺ بإسلامهم بل المنة لله ـ عز وجل عليهم وعلى الخلق كلهم، وعلى المؤمنين خاصة بهدايتهم للإيمان.
١٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بغيب السموات والأرض واطلاعه على العباد وأعمالهم وإحصاؤها ومجازاتهم عليها وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

تفسير سورة (ق)

تقدم في أول الكلام على سورة الحجرات: أن سورة (ق) أول الحزب المفصل على قول أكثر أهل العلم، وهو الراجح؛ لأنه هو الذي يدل عليه تحزيب الصحابة رضي الله عنهم، وصححه ابن كثير رحمه الله.

وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه سأله: «ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال بـ« ق»، واقتربت»[١].

وعن أم هشام بنت الحارث بن النعمان قالت: «ما حفظت ﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ إلا من (فِي) رسول الله ﷺ يخطب بها كل جمعة»[٢].

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله[٣]: «والقصد أن رسول الله ﷺ - كان يقرأ بهذه السورة في المجامع الكبار كالعيد والجمع، لاشتمالها على ابتداء الخلق والبعث والنشور، والمعاد والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، والترغيب والترهيب» .

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة العيدين - ما يقرأ به في صلاة العيدين ٨٩١، وأبو داود في الصلاة - ما يقرأ في الأضحى والفطر ١١٥٤، والنسائي في العيدين - القراءة في العيدين بـ «ق»، واقتربت ١٥٦٧، والترمذي في الجمعة ٥٣٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها - ما جاء في القراءة في صلاة العيدين ١٢٨٢، وأحمد ٥/ ٢١٧ - ٢١٨.

(٢) أخرجه مسلم في الجمعة - باب تخفيف الصلاة والخطبة ٨٧٣، وأبو داود في الصلاة - باب الرجل يخطب على قوس ١١٠٠، والنسائي في الافتتاح ٩٤٩، وأحمد ٦/ ٤٣٥ - ٤٣٦.

(٣) في (تفسيره) ٧/ ٣٧١.

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١ بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ۝٣ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ ۝٤ بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥ ﴾.

افتتح الله عز وجل تسعًا وعشرين سورة من سور القرآن الكريم بالحروف المقطعة كقوله: «الم، المص، الر، كهيعص، طسم، طس، يس، ص، حم، حم عسق، ق، ن».

واختلفوا هل تعد هذه الحروف آيات أو لا. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله(١): «وهذه الحروف ليست آيات عند جمهور العلماء، وإنما يعدها آيات الكوفيون».

قلت: وعلى قول الكوفيين جاء ترقيم المصحف حيث عدت هذه الحروف آية من السورة التي جاءت فيها عدا قوله «حم، عسق» فعدوها آيتين من السورة وعدا قوله «المر، الر، طس، ص، ق، ن » فعدوها بعض آية من السورة.

كما اختلفوا في إعرابها.

فذهب الخليل وسيبويه وأكثر المعربين إلى أنها حروف هجاء محكية لا محل لها من الإعراب، وذهب بعضهم إلى أنها معربة ومحلها الرفع على الابتداء لخبر مقدر، أو على الخبر لمبتدأ مقدر، وقيل: محلها النصب على المفعول به بتقدير: اقرأ «الم» ونحو ذلك، وقيل: محلها الجر بالقسم. والراجح القول الأول: أنها لا محل لها من الإعراب.

كما اختلف المفسرون سلفًا وخلفًا في المراد بهذه الحروف.

فذهب جمهور المفسرين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى أن هذه الحروف من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه، واختار هذا بعض المفسرين، منهم جلال الدين السيوطي(٢) والشوكاني(٣)، والسعدي، وغيرهم قال السعدي(٤): «وأما الحروف المقطعة في أوائل السور فالأسلم فيها السكوت عن التعرض لمعناها من غير مستند

(١) في (مجموع الفتاوي) ٢٠/ ٤٢٠.
(٢) انظر (الإتقان) ١/ ٣٢.
(٣) انظر (فتح القدير) ١/ ٣٢.
(٤) في (تيسير الكريم الرحمن) ١/ ٣٩.

شرعي، مع الجزم بأن الله تعالى لم ينزلها عبثًا، بل لحكمة لا نعلمها».

وذهب كثير من العلماء إلى أن هذه الحروف ليست من المتشابه لكنهم اختلفوا في المراد بها اختلافًا كثيرًا وحكي في ذلك نحو ثلاثين قولاً.

فقيل: هي حروف يتكون منها اسم الله الأعظم، وقيل: هي أسماء للسور المفتتحة بها، وقيل: هي من أسماء القرآن، وقيل: هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها. وقيل: هي حروف دالة على أسماء أخذت منها وحذفت بقيتها. وقيل: هي فواتح يفتتح الله بها القرآن، وقيل: للدلالة على انتهاء السورة التي قبلها، وافتتاح ما بعدها. وقيل هي حروف يشتمل كل حرف منها على معان شتى مختلفة، وقيل: هي أسماء للرسول ﷺ. وقيل: هي لصرف أسماع المشركين إلى القرآن الكريم لما تواصوا بعدم سماع القرآن، وقيل: هي حروف من حساب الجمل. وقيل: هي تنبيه كـ «يا» النداء.

وأقرب الأقوال في المراد بها: القول بأنها حروف من حروف الهجاء كما قال مجاهد[1]. فهي حروف هجائية لا معنى لها بحد ذاتها لكن لذكرها مغزى وحكمة، وهي بيان إعجاز القرآن الكريم، وبيان أن الخلق عاجزون عن معارضته مع أنه مركب من هذه الحروف الهجائية التي يتخاطبون بها ويؤيد صحة هذا القول أمران:

الأول ـ أن القول بأن لها مغزى وحكمة فيه بيان أن لها فائدة عظيمة ـ وإن كانت في حد ذاتها حروفًا من حروف الهجاء المعروفة ليس لها معنى؛ بخلاف القول بأنها من المتشابه الذي استأثر الله تعالى بعلمه؛ لأن الله عز وجل خاطب العرب بما يعرفون وبذلك قامت عليهم الحجة كما قال سبحانه ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥]، كما أن بقية الأقوال التي قيلت في المراد بها لا دليل عليها، ولا حكمة تظهر منها ولا فائدة.

الثاني – أن جميع السور المفتتحة بالحروف المقطعة يذكر فيها بعد هذه الحروف غالبًا: الثناء على القرآن الكريم وبيان إعجازه، وأنه الحق الذي لا شك فيه كقوله في

---

(١) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ١/ ٢٠٨.

مطلع سورة البقرة ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ وكقوله ﴿صٓ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ وكقوله ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ﴾. وبهذا قال جمع من أهل اللغة واختاره الزمخشري[1]، والرازي[2]، وشيخ الإسلام ابن تيمية، والمزيّ وابن القيم[3] وابن كثير[4]، ومحمد رشيد رضا[5]، والشنقيطي[6] والعثيمين[7] وغيرهم.

قال ابن كثير[8]: «وقال آخرون: بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانًا لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، قال: وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في (كشافه) ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي، وحكاه لي عن ابن تيمية ».

قوله (وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ) الواو حرف قسم وجر، و(القرآن) مقسم به مجرور، والمقسِم بالقرآن هو الله عز وجل.فأقسم عز وجل بالقرآن وهو كلامه وصفة من صفاته.

وسمي القرآن بهذا الاسم لأنه مقروء متلو أخذاً من «قرأ» إذا تلا، ولأنه أيضا مجموع آيات وسور أخذاً من «قَرَى» إذا جمع، ومنه سميت القرية لأنها تجمع أُناساً كثيرين، وسمي مجمع الماء «قَرْواً» لاجتماع الماء فيه. فالقرآن كلام الله ـ عز وجل ـ المنزل على الرسول ﷺ المتعبد بتلاوته والعمل به، المعجز بأقصر سورة منه.

و(المجيد) العظيم الواسع الكريم، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ﴾[البروج:

---

(١) انظر (الكشاف) ١/١٣ – ١٨.
(٢) انظر (التفسير الكبير) ١/٣ – ١٢.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/٤٩٩، «تفسير القرآن الكريم» للشيخ العثيمين ١/٢٣.
(٤) انظر (تفسير ابن كثير) ٧/٥٩ – طبعة دار الشعب.
(٥) انظر (تفسير المنار) ٨/٢٩٦.
(٦) انظر (أضواء البيان) ٣/٥.
(٧) انظر «تفسير القرآن الكريم» للشيخ العثيمين ١/٢٢ـ ٢٣.
(٨) في (تفسيره) ١/٣٨ – الطبعة الحلبية. وانظر الكلام على مطلع سورة «ن».

٢١] والمجد: سعة الأوصاف وعظمتها. فهو الكتاب العظيم الواسع الكريم، واسع الأوصاف، عظيم المعاني، ذو السلطان المطلق، والهيمنة التامة على جميع الكتب يهدي للتي هي أقوم، وفيه البشارة والدعوة إلى كل خير والنذارة والتحذير من كل شر، والأخبار والغيوب السابقة واللاحقة.

قال ابن القيم[1]: «وههنا قد اتحد المقسم به والمقسم عليه، وهو القرآن، فأقسم بالقرآن على ثبوته وصدقه، وأنه حق من عنده، ولذلك حذف الجواب ولم يصرح به، لما في القسم من الدلالة عليه؛ أو لأن المقصود نفس المقسم به».

﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ أي: بل عجب المكذبون للرسول ﷺ، عجب استغراب وإنكار وتكذيب، أن جاءهم رسول منهم ينذرهم عذاب النار لمن كفر وخالف أمر الله ـ مع البشارة بالجنة لمن آمن وأطاع الله؛ لأن مهمة الرسل هي البشارة والنذارة كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النساء: ١٦٥]. وإنما اكتفى ـ هنا ـ بذكر النذارة فقط ـ والله أعلم ـ لأن الكلام مع الكافرين المكذبين.

﴿مِّنْهُمْ﴾ أي: لا من غيرهم، بل منهم وبلسانهم لتقوم الحجة عليهم كما قال عز وجل ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾[إبراهيم: ٤].

وقال عز وجل ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾[الشعراء: ١٩٥]، وقال تعالى ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[فصلت: ٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾ [فصلت: ٤٤]، وقال تعالى : ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَٰهُ عَلَىٰ بَعْضِ ٱلْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُۥ عَلَيْهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾[الشعراء: ١٩٨، ١٩٩].

ولا شك أن من نعمة الله عز وجل عليهم كون القرآن بلغتهم، والرسول بلسانهم ليتبعوه لا لأجل أن يحسدوه ويحتقروه كما قال الله عز وجل عن قوم صالح عليه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٧.

السلام ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٢٤﴾ أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٣ – ٢٥].

وقال تعالى: عن قريش أنهم قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[الزخرف: ٣١].

وجعله منهم لا لأجل أن يطالبوه بما ليس في مقدروه، كما قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾[الأنعام: ٨، ٩].

﴿فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ أي: الجاحدون لتوحيد الله وشريعته جهلاً منهم وظلمًا.

﴿هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ﴾ يشيرون إلى مجيء المنذر لهم بالبعث والحساب بعد الموت أي: هذا الأمر وهو أن نبعث بعد الموت أمر وشيء في غاية العجب، كيف يحصل هذا؟؟

فتعجبوا من غير عجيب، واستغربوا أمرًا غير غريب، كما قال عز وجل ﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١﴾ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ١، ٢].

فكيف يتعجبون من رحمة الله تعالى للخلق بإرسال الرسل وإنزال الكتب لهدايتهم لما فيه سعادتهم في أمر دينهم ودنياهم، وذلك ببيان طريق الخير والأمر باتباعه والبشارة لمن اتبعه وبيان طريق الشر، والنهي عن اتباعه والنذارة لمن اتبعه. فليس في هذا ما يثير العجب، ويجعلهم ينسبون ذلك إلى السحر، لولا كفرهم وعنادهم، بل إن العجب كل العجب هو كفرهم وتكذيبهم بالبعث كما قال عز وجل ﴿۞ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ﴾ [الرعد: ٥].

ثم ذكر عز وجل وجه تعجبهم وهو قولهم:

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ۖ ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾.الاستفهام للإنكار والتكذيب، فهم ينكرون البعث ويرونه ضربًا من المستحيل.

والموت: هو خروج الروح ومفارقتها للجسد.

﴿وَكُنَّا تُرَابًا ۖ﴾ أي: وبلينا وتقطعت الأوصال منا وتحولت أجسامنا إلى تراب.

﴿ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ﴾ الإشارة للبعث الذي يوعدون به وأشاروا إليه بإشارة البعيد «ذلك» استبعاداً له، والمراد بالرجع: الرجوع، أي: رجوع الحياة إلى الأجسام وإلى هذه البنية والتركيب وبعثها بعد الموت وبعد كونها ترابًا.

(بعيد) أي: بعيد الوقوع، مستحيل غير ممكن، لأنهم ينكرون البعث كما حكى الله عنهم ذلك في أكثر من موضع قال تعالى:﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ لَا يَبْعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ ۚ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[النحل: ٣٨].

فرد الله عليهم بقوله:

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ ۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ (قد) للتحقيق، أي تحقيق علمه ـ عز وجل، أي: قد علمنا الذي تأكل الأرض من أجسادهم بعد البلى مدة مقامهم في البرزخ، وأين تفرقت، وإلى أي شيء صارت وتحولت.

وفي قوله: ﴿مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ إشارة إلى أن الأرض لا تأكل كل الأجساد. فالأنبياء ـ عليهم السلام ـ حرم الله على الأرض أكل أجسادهم، كما قال ﷺ: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء»[(١)]

كما يبقى من جميع الأجساد عجب الذنب لا تأكله الأرض منه يركب الإنسان ويعاد خلقه كما قال ﷺ: «كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه خلق وفيه يركب»[(٢)].

﴿وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾ أي: وعندنا كتاب يحفظ ذلك كله، وهو اللوح المحفوظ، و(حفيظ) على وزن (فعيل) صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: حفيظ لكل شيء من أجسادهم وأعمالهم وأحوالهم وغير ذلك، محفوظ عن التغيير والتبديل، فعلمه ـ عز وجل شامل، وكتابه حافظ، وهذا يدل على أنه عز وجل لكمال وسعة علمه وتمام قدرته قادر على بعث الخلق بعد الموت والبلى، وأن البعث أيضًا لهذه الأجساد

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٠٤٧، والنسائي في الجمعة ـ إكثار الصلاة على النبي ﷺ يوم الجمعة ١٣٧٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ فضل الجمعة ١٠٨٥ ـ من حديث أوس بن أوس ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١٤، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٥، وأبو داود في السنة ٤٧٤٣، والنسائي في الجنائز ٢٠٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

والأرواح التي عاشت في الدنيا فأطاعت أو عصت لِتُنَعَّمَ أو تعذب، لا أن البعث خَلْقٌ لأجساد وأرواح أخرى كما زعم بعض منكري البعث.

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ بل: للإضراب الانتقالي، أي: إن الذي حملهم على التعجب مما لا يثير العجب، وإنكار البعث بعد الموت والكفر هو تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ.

﴿فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ﴾ الفاء للتعقيب والسببية، أي: فهم بسبب تكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله في أمر مختلط غاية الاختلاط مختلف مضطرب ملتبس لا يحصلون منه على شيء، بل هم مضطربون مختلفون بسبب ذلك، لا يثبتون على أمر، ولا يستقرون على حال، كما قال ـ عز وجل ـ عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩]. وقال تعالى ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ۝ الَّذِي هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١ – ٣]، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝﴾[الأنعام: ١١٠].

فتارة يقولون عن الرسول الله ﷺ: ساحر، وتارة مجنون، وتارة شاعر.

وكذا قالوا في القرآن فجعلوه (عضين) أي: أجزاء بعضها صدق وبعضها باطل ـ كما زعموا. وكذا اختلفوا في البعث بعد الموت والحساب بعده بين مصدق ومكذب، وهكذا فإن الكفر والبعد عن الحق حيرة واضطراب وتذبذب وشقاء في الدنيا والآخرة. كما أن الإيمان واتباع الحق طمأنينة وثبات وسعادة في الدنيا والآخرة، نسأل الله الهداية والتوفيق.

قال ﷺ: «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم»[1].

---

(١)أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧٠، وأبو داود في الصلاة ٧٦، والنسائي في قيام الليل ١٦٢٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٢٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٥٧ – من حديث عائشة رضي الله عنها.

الفوائد والعبر:

١ـ إعجاز القرآن وبلوغه أعلى درجات الفصاحة والبلاغة وتحدي العرب بذلك.

٢ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالقرآن المجيد ـ تعظيماً له، وبياناً لسعة أوصافه، وما اشتمل عليه من الهدى، وأنه حق وصدق من عند الله ـ عز وجل.

٣ ـ عظم منزلة القرآن الكريم وعلو مكانته عند الله ـ عز وجل ـ مما يوجب على الأمة تعظيمه والاهتداء بهديه واتباعه.

٤ ـ تعجب الكافرين من أمر لا يثير العجب وهو مجيء الرسول ﷺ يخبرهم بالبعث وينذرهم عذاب الله تعالى.

٥ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على العرب بجعل الرسول منهم، ويتكلم بلسانهم، وإنزال القرآن بلغتهم، وهذا أقوم للحجة عليهم.

٦ ـ إنكار الكافرين للبعث بعد الموت واستبعادهم له.

٧ ـ علم الله ـ عز وجل ـ التام بما تنقص الأرض من الأجساد بعد البلى وقدرته التامة على جمعها بعد التفرق وبعثها بعد الموت.

٨ ـ الإشارة إلى أن من الأجساد ما لا تأكله الأرض، وهي أجساد الأنبياء عليهم السلام، وعجب الذنب من كل إنسان.

٩ ـ إثبات اللوح المحفوظ الذي يحفظ كل شيء من أعمال الخلق وأحوالهم، وأين كانت أجزاؤهم، وغير ذلك، والمحفوظ من التبديل والتغيير.

١٠ ـ تكذيب الكفار بالحق الذي جاءهم في القرآن وعلى لسان الرسول ﷺ، واختلافهم واضطرابهم بسبب ذلك، وهذه عقوبة من كذب بالحق.

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

صلة الآيات بما قبلها :

ذكر الله ـ عز وجل ـ استبعاد الكافرين للبعث بعد الموت بعد أن كانوا ترابًا، ثم أتبع ذلك بذكر دلائل قدرته التامة من خلق السموات والأرض والجبال، وإنزال الماء المبارك من السماء، وإنبات النبات بأنواعه وأشكاله المختلفة رزقًا للعباد وإحياءً للبلدة الميتة تبصرة وذكرى ودلالة على صحة آياته الشرعية وصدق رسوله ﷺ وعلى قدرته سبحانه على إحياء الأجساد بعد موتها.

وكثيرًا ما يوجه ـ عز وجل الأنظار للتأمل في آياته الكونية الدالة على صحة آياته الشرعية، وعلى قدرته التامة على البعث وعلى كماله سبحانه في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه العبادة دون ما سواه مما يوجب على الإنسان التأمل في هذه الآيات، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾[يونس: ١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ [الروم: ٢٢]، وقال تعالى ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [فصلت:٣٧]، وقال تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ ۚ بَنَىٰهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ۝٢٨ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ۝٢٩ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۝٣١ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٢٧ – ٣٢].

قوله: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾.
الاستفهام للتوبيخ والتقريع أي: أعموا أو أغفلوا فلم ينظروا إلى السماء نظر بصر بالعين، ونظر تفكر بالقلب، (فوقهم) فيه إشارة إلى علوها وارتفاعها وسعتها وعظمتها (كيف بنيناها) أي: كيف بنيناها بقوة كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ﴾[الذاريات: ٤٧] أي: بقوة، وقال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾[النبأ: ١٢]، وجعلناها قبة مستوية الأرجاء ثابتة البناء (وزيناها) أي: وجملناها بالنجوم والمصابيح. (ومالها من

فروج) الفروج: الشقوق والصدوع والفتوق.

والمعنى: أغفلوا فلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وجملناها بالنجوم والمصابيح، وما لها من فتوق أو صدوع أو شقوق، بل هي على أكمل وأقوى وأجمل خلقة كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٣ - ٥].

﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ تذكر السماء ـ غالباً ـ قبل الأرض لعلو السماء وارتفاعها وصغر الأرض بالنسبة لها. ومعنى (مددناها) أي: جعلناها ممتدة مفروشة مبسوطة واسعة قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ [الرعد: ٣]، وقال تعالى في سورة الحجر ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾[الآية: ١٩]، وقال تعالى في سورة الذاريات ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الآية: ٤٨].

﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جعلنا فيها، أي: في الأرض رواسي وهي الجبال، التي ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بأهلها. كما قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ شَٰمِخَٰتٍ وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

قال ابن كثير[1]: «(وألقينا فيها رواسي) وهي الجبال لئلا تميد بأهلها وتضطرب، فإنها مقرة على تيار الماء المحيط بها من جميع جوانبها».

﴿وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ الزوج: هو الشفع ضد الوتر، أي أنبتنا فيها من كل صنف من أنواع النباتات والزروع والثمار والفواكه وغيرها. كما قال تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الذاريات: ٤٩].

(بهيج): أي: حسن نضر جميل، يبهج القلب والنفس مرآه، من الحدائق ذات

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٤.

الأشجار والأزهار والثمار مما يحار الطرف في حسنه كما قال تعالى: ﴿فَأَنۢبَتۡنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهۡجَةٖ﴾ [النمل: ٦٠]، البهجة حسن اللون وظهور السرور، أي: ذات جمال وحسن يبهج النفوس ويسر القلوب.

﴿تَبۡصِرَةٗ﴾ التبصرة: ما يجعل الإنسان يتبصر باستمرار من عمى الجهل ويتفكر ويتأمل، ويستعمل بصره الظاهر وبصيرته الباطنة، فيتأمل في هذه المخلوقات العظيمة، فهي من آيات الله العظيمة الدالة على عظمته واستحقاقه للعبادة كما قال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم: ٢٢].

﴿وَذِكۡرَىٰ﴾ الذكرى: ما يجعل الإنسان يتذكر ويتعظ، فلا يغفل ولا ينسى، أي: يتذكر بها عظيم حق الله تعالى عليه، وتمام قدرته على البعث ووجوب الإقبال على طاعته ـ عز وجل ـ.

﴿لِكُلِّ عَبۡدٖ مُّنِيبٖ﴾ أي: لكل عبد من عباد الله منيب، أي: خاضع خائف وجل رجَّاع إلى الله عز وجل مقبل على الله تائب إليه، بخلاف المكذب المعرض فلا ينتفع بهذه الآيات.

قال ابن القيم[1]: «تبصرة – إذا تأملها العبد المنيب وتبصر بها – تذكر ما دلت عليه، مما أخبرت به الرسل من التوحيد والمعاد، وأن هذا لا يحصل إلا لعبد منيب إلى الله بقلبه وجوارحه».

والمعنى: أن النظر إلى هذه المخلوقات العظيمة: السموات والأرض والجبال والنبات وما هي عليه من الإحكام فيه أعظم معين على التبصر والتذكر في عظيم خلق الله عز وجل وكمال قدرته وأن ذلك من آكد الأدلة وأقواها على قدرته عز وجل التامة على البعث بعد الموت لمن وفقه الله عز وجل إلى التوبة والإنابة من العباد.

﴿وَنَزَّلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ مُّبَٰرَكٗا﴾ يتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة في (ونزلنا) وكذا ما قبله وما بعده من الضمائر، لأنه عز وجل هو العظيم حقًا كما قال سبحانه

---

(١) انظر: (بدائع التفسير) ٤/ ١٨٨، ١٩٥.

﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥، الشورى: ٤].

وقوله (ونزَّلنا) بتشديد الزاي، لأن المطر ينزل شيئاً فشيئاً لكي تتبلغ به الأرض وترتوي، ولأنه لو انصب بقوة لأضر بما ينزل عليه، ويأتي (أنزلنا) كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا﴾ [الفرقان: ٤٨] وذلك لأن المطر يتكاثر حتى تجري وتسيل منه الوديان.

﴿مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من العلو؛ لأن كل ما علا فهو سماء، والماء ينزل من السحاب الذي يتكون بين السماء والأرض على الأظهر والأشهر كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [البقرة: ١٦٤]. ومن الحكمة في كونه ينزل من السماء أن يشمل ويعم كل شيء؛ التلال وقمم الجبال والسهول والوهاد، وغير ذلك.

﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾ أي: ماءً نافعًا كثيراً خيره. والبركة: كثرة الخير.

﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾ النبات هو ما يخرج من الأرض بعد نزول الماء عليها أي: أخرجنا بهذا الماء المبارك (جنات) والجنات: جمع جنة بفتح الجيم، وهي الحدائق والبساتين المشتملة على أنواع الأشجار التي فيها مختلف الثمار، وسميت جنات لأنها تجن وتستر من بداخلها بسبب أشجارها الكثيرة الملتفة، ومن هنا سميت دار السلام ودار المتقين بالجنة؛ لأنها تجن وتستر من فيها لكثرة ما فيها من أنواع الخضرة والحبرة والنعيم نسأل الله تعالى من فضله وكرمه مع البون الشاسع والفرق الواسع بين بساتين الدنيا وجنان الآخرة.

﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ﴾ أي: وحب الزرع الذي يزرع ثم يحصد ويؤكل منه ويدخر من البر والشعير والذرة والأرز والدخن وغير ذلك.

﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ النخل: هي الأشجار ذات السيقان الطويلة وذات الثمر الذي يعد من أفضل الثمار ومن أهمها وأنفعها والذي يعد قوتًا كاملاً.

وخصها بالذكر لفضلها وشرفها، فهي أشرف الأشجار، شبه بها المؤمن، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾ [إبراهيم: ٢٤ ، ٢٥] قال

ﷺ: «شجرة تشبه أو كالرجل المسلم، لا يتحات ورقها، ولا، ولا، ولا، ﴿تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا﴾، النخلة»[١] . وفي رواية: «إن من الشجر شجرة لا يطرح ورقها، مثل المؤمن، هي النخلة»[٢].

ولهذا جاء في حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أن النبي ﷺ قال «لا يجوع أهل بيت عندهم التمر»[٣]، وعن عروة بن الزبير عنها رضي الله عنها قالت: «إن كنا لننظر إلى الهلال، ثم الهلال، ثلاثة أهلة في شهرين، وما أوقدت في أبيات رسول الله ﷺ نار، فقلت: يا خالة، ما كان يعيشكم؟ قالت الأسودان: التمر والماء، إلا أنه كان لرسول الله ﷺ جيران من الأنصار كانت لهم منائح، وكانوا يمنحون رسول الله ﷺ من ألبانها فيسقينا»[٤].

﴿بَاسِقَاتٍ﴾ طوالاً شاهقات يعجب منظرها الرائي. قال ابن القيم[٥].«وأفرد النخل لما فيه من موضع العبرة والدلالة التي لا تخفى على المتأمل».

﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ الطلع: هو ثمرها الذي يخرج منها. و (نضيد) فعيل بمعنى مفعول. أي: منضود، نضد بعضه على بعض.

﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾: حال، أو مفعول لأجله. والرزق: العطاء، أي: عطاء منه عز وجل للعباد لمعاشهم. والمراد هنا العبودية الكونية العامة التي تعم المؤمن والكافر، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰؤُلَاءِ وَهَٰؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾[الإسراء: ٢٠].

﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا﴾ لما كانت «بلدة» مؤنثة اللفظ مذكرة المعنى صح أن توصف بمذكر (ميتا) أي: بلداً ميتا، أي: أحيينا بهذا الماء المبارك بلدة ميتة، أرضها وما فيها من الحيوانات تكاد تهلك من الجدب والقحط، فأصبحت تهتز خضراء. كما قال عز وجل ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج : ٥].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة إبراهيم ٤٦٩٨، ومسلم في صفات المنافقين ٢٨١١ ـ من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما.
(٢) أخرجها البخاري في العلم ـ قول المحدث: حدثنا ٦١، ومسلم ٢٨١١، والترمذي في الأمثال ٢٨٦٧.
(٢) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦ ، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، وابن ماجه في الأطعمة ٣٣٢٧.
(٣) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد ٢٩٧٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٤٤.
(٤) انظر: بدائع التفسير ٤/ ١٩٥.

﴿كَذَٰلِكَ ٱلۡخُرُوجُ﴾ أي: فكما خلق الله عز وجل هذه المخلوقات العظيمة السموات والأرض والجبال وأنزل الماء من السماء و أحيا به الأرض بعد موتها كذلك يحيي الله الموتى، فتكون الإشارة في قوله (كذلك) لما تقدم من قوله ﴿أَفَلَمۡ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوۡقَهُمۡ﴾ إلى هنا.

وكثيرًا ما يستدل عز وجل بقدرته على خلق السموات والأرض، وإحياء الأرض بعد موتها على قدرته عز وجل التامة على البعث كما قال عز وجل: ﴿لَخَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَكۡبَرُ مِنۡ خَلۡقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر الآية ٥٧]،

وقال عز وجل: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَلَمۡ يَعۡيَ بِخَلۡقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰۚ بَلَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيۡسَ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخۡلُقَ مِثۡلَهُمۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلۡخَلَّٰقُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١]، وقال تعالى: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلۡأَرۡضَ خَٰشِعَةٗ فَإِذَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡهَا ٱلۡمَآءَ ٱهۡتَزَّتۡ وَرَبَتۡۚ إِنَّ ٱلَّذِيٓ أَحۡيَاهَا لَمُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰٓۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ [فصلت: ٣٩].

ويحتمل أن المعنى: مثل هذا الإخراج من الأرض للفواكه والثمار والأقوات والحبوب وإحياء الأرض بعد موتها خروجكم من الأرض إذا غيبتم فيها، فتكون الإشارة في قوله (كذلك) لما تقدم في الآيات من قوله ﴿وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجِۭ بَهِيجٖ﴾ إلى هنا.

الفوائد والعبر:

١ ـ التوبيخ والتقريع للكفار الذين كذبوا بالحق وأنكروا البعث والإنكار عليهم في عدم نظرهم في آيات الله ـ تعالى ـ الكونية ودلائل قدرته على البعث ونعمه.

٢ ـ وجوب التأمل والتبصر في آيات الله الكونية، في السماء وشدة بنائها وتزيينها وحبكها، وفي الأرض وبسطها وتثبيتها بالرواسي، وإخراج النبات منها، وتذكر نعم الله ـ عز وجل ـ وعظم حقه على العباد، وكمال خلقه، وتمام قدرته على البعث.

٣ ـ إثبات عبودية المؤمنين الخاصة لله ـ عز وجل ـ وأنه إنما يتأمل في آيات الله ويتبصر بها ويتذكر من وفقه الله ـ عز وجل ـ لعبوديته ـ عز وجل ـ والإنابة إليه.

٤ ـ التذكير بنعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد، وعظيم قدرته في إنزال المطر وإنبات الجنات وأصناف الحبوب والنخيل رزقاً للعباد وإحياءً للأرض بعد موتها.

٥ ـ الاستدلال بخلق السموات والأرض وإنبات النبات وإحياء الأرض بعد موتها على قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على البعث بعد الموت.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها :

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة تكذيب المشركين لرسول الله ﷺ وإنكارهم البعث، ثم ذكر في هذه الآيات تكذيب الأمم قبلهم وما حل بهم من وعيد الله لهم وعقوباته، وأن من أعظم الدلائل على قدرته عز وجل التامة على البعث خلقهم الأول، فالذي بدأ الخلق قادر على إعادته من باب أولى.

وفي هذا كله تهديد للمشركين، وتسلية للنبي ﷺ ببيان أن التكذيب هو ديدن كثير من الأقوام مع أنبيائهم، كما أن فيه تقرير النبوة والمعاد. قال تعالى: ﴿مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ﴾[**فصلت: ٤٣**]، **وقال تعالى:** ﴿كَذَٰلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾﴾[الذاريات: ٥٢ ، ٥٣].

وقوله ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح نبي الله عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، والذي هو أول رسل الله وأحد أولي العزم فقد دعاهم عليه السلام بشتى الطرق والأساليب، وتحبب إليهم بشتى الوسائل فلم ينجع ذلك فيهم، فبين لهم ما أعده الله لمن أجاب رسل الله من الخير والثواب في الدنيا والآخرة، وما توعد به المكذبين لرسله من العقوبات في الدنيا والآخرة قال تعالى عنه أنه قال: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا﴾ إلى قوله ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح: ٥-١٨] فكذبوه فأهلكهم الله بالغرق.

﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ الرس: الماء الكثير، وقيل الماء القليل، وقيل: البئر غير المطوية.

﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح عليه السلام، فقد كذبوا نبيهم صالحًا عليه السلام فأهلكهم الله بالصيحة الطاغية والصاعقة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم. ومساكنهم هي المعروفة بمدائن صالح في العلا شمال الجزيرة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧].

﴿وَعَادٌ﴾ هم قوم هود عليه السلام كذبوا هودًا عليه السلام فأهلكهم الله - عز وجل - بريح صرصر عاتية سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام متتالية ومساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

قال تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُواْ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

وقد سمى الله عقوبة كل منهما صاعقة قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣].

﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ هو فرعون مصر الذي ادعى الربوبية والألوهية، فأرسل الله إليه نبيه موسى وأخاه هارون عليهما السلام فكذب هو وقومه فأهلكه الله بالغرق.

﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ﴾ وهم قوم لوط عليه السلام كذبوا لوطًا عليه السلام فقلب الله ديارهم عليهم وجعل عاليها سافلها وأمطر عليها حجارة من سجيل منضود ومساكنهم قرب نهر الأردن بنواحي الشام، ويقال: هي المعروفة الآن بالبحر الميت.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ وهم قوم نبي الله شعيب عليه السلام. والأيكة هي: الغيضة والواحة الخضراء الملتفة بالأشجار. حذرهم شعيب عليه السلام من نقص المكيال والميزان ودعاهم إلى الله عز وجل لكنهم كفروا وعاندوا فاهلكهم الله قال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ ٱلظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩].

﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ تبع: أحد ملوك اليمن وكان من أشدهم وأعظمهم ملكًا، وقومه سبأ، وكانوا كلما ملك فيهم رجل سموه تبعًا، كما يقال كسرى لكل من ملك الفرس، وقيصر لمن ملك الروم، وفرعون لمن ملك مصر كافرًا.

أي: وقوم تبع كذبوا رسولهم الذي أرسل إليهم.

﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ أي: كل من هؤلاء الأقوام كذبوا رسلهم.

وفي هذا دلالة على عدم الاغترار بما عليه الأكثرون كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣].

﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ أي: فحق عليهم وعيد الله بالعذاب الدنيوي مع ما ينتظرهم من العذاب الأخروي يوم القيامة قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِ حَاصِبٗا وَمِنۡهُم مَّنۡ أَخَذَتۡهُ ٱلصَّيۡحَةُ وَمِنۡهُم مَّنۡ خَسَفۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ وَمِنۡهُم مَّنۡ أَغۡرَقۡنَاۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظۡلِمَهُمۡ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وفي ذكر تكذيب هؤلاء الأقوام وما حق عليهم من وعيد الله وعقابه تهديد وتخويف وتحذير للمكذبين من أمة محمد ﷺ، وتسلية له ﷺ تجاه تكذيب قومه؛ لأن المصائب إذا عمت خفت، فليس هو فقط الذي كذبه قومه، بل كل الأنبياء قبله كذبهم أقوامهم. وفيه دروس تربوية للدعاة والمصلحين والموجهين والمربين والآباء، فهؤلاء رسل الله وأنبياؤه كذبهم أقوامهم، ولم يستطيعوا هدايتهم، بل لم يستطيعوا هداية أخص الأقربين إليهم، فلم يستطع نوح ـ عليه السلام ـ هداية ابنه ولا هداية امرأته، ولم يستطع إبراهيم ـ عليه السلام ـ هداية أبيه، ولم يستطع لوط هداية امرأته، كما لم يستطع محمد ﷺ هداية عمه.

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلۡخَلۡقِ ٱلۡأَوَّلِۚ بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ الاستفهام بمعنى النفي. أي: لم نعي بالخلق الأول. والعي بمعنى: العجز عن الشيء، يقال: عيي فلان بهذا الأمر، أي عجز عنه، ويقال: أعياه كذا، أي: أعجزه.

والمعنى: أفعجزنا عن ابتداء الخلق الأول، أي: لم يعجزنا ذلك، أولم نعجز عن ذلك مع أنه أعظم وأشد.

والمراد بـ(الخلق الأول) خلق الناس من العدم أول مرة كما قال تعالى: ﴿هَلۡ أَتَىٰ عَلَى ٱلۡإِنسَٰنِ حِينٞ مِّنَ ٱلدَّهۡرِ لَمۡ يَكُن شَيۡـٔٗا مَّذۡكُورًا﴾ [الإنسان: ١].

﴿بَلۡ هُمۡ فِي لَبۡسٖ مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ بل للإضراب، ﴿فِي لَبۡسٖ﴾ أي: في شك واضطراب، ﴿مِّنۡ خَلۡقٖ جَدِيدٖ﴾ أي: من إرجاعهم وبعثهم أحياء بعد الموت، وبعد كونهم ترابًا.

أي: بل هم مقرون بأننا لم يعجزنا الخلق الأول كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَئِن سَأَلۡتَهُم مَّنۡ خَلَقَهُمۡ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۖ﴾[الزخرف: ٨٧] لكنهم في شك من الخلق الثاني، وهذا

عجب من حالهم كيف يقرون بالخلق الأول ثم ينكرون البعث مع أن من قدر على الخلق الأول فهو على الخلق الثاني أقدر من باب أولى كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى:«**كذبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، وشتمني ولم يكن له ذلك، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بداني، وليس أول الخلق بأهون عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولدًا، وأنا الأحد الصمد لم ألد ولم أولد، ولم يكن لي كفئاً أحد**»[1].

قال ابن القيم رحمه الله[2] : «وهو سبحانه يقرر المعاد بذكر كمال علمه وكمال قدرته، وكمال حكمته فإن شُبَه المنكرين كلها تعود إلى ثلاثة أنواع: أحدها: اختلاط أجزائهم بأجزاء الأرض على وجه لا يتميز ولا يحصل معه تميز شخص عن شخص. الثاني: أن القدرة لا تتعلق بذلك. الثالث: أن ذلك أمر لا فائدة فيه ... قال: فجاءت براهين المعاد في القرآن مبينة على ثلاثة أصول:

أحدها: تقرير كمال علم الرب سبحانه كما قال في جواب من قال :﴿مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ۝ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٨، ٧٩]. وقال ﴿وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ۝ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقال: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾ [ق: ٤].

والثاني: تقرير كمال قدرته كقوله: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس: ٨١]، وقوله ﴿بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ﴾ [القيامة: ٤]، وقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الحج: ٦].

ويجمع سبحانه بين الأمرين كما في قوله ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٧٤.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٣ - ١٩٤، ١٩٦ - ١٩٧.

بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّـٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

الثالث: كمال حكمته، كقوله: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَـٰعِبِينَ﴾ [الدخان: ٣٨]. وقوله ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَـٰطِلًا﴾ [ص: ٢٧]، وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، وقوله: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَـٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]، وقوله: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١]».

قال ابن القيم[1]: «ولهذا كان الصواب: أن المعاد معلوم بالعقل مع الشرع، وأن كمال الرب تعالى وكمال أسمائه وصفاته تقتضيه وتوجبه، وأنه منزه عما يقوله منكروه، كما ينزه كماله عن سائر العيوب والنقائص».

الفوائد والعبر:

١ـ ذكر تكذيب قوم نوح ومن بعدهم من الأمم لأنبيائهم، وتحقق وعيد الله لهم بالعقوبات التي أنزلها فيهم في الدنيا، وما ينتظرهم من ذلك في الآخرة ـ وفي ذلك تحذير وتخويف للمكذبين، وتسلية للرسول ـ ﷺ .

٢ـ اجتماع كثير من الأمم على تكذيب الرسل، ولهذا ينبغي عدم الاغترار بما عليه الأكثرون.

٣ـ الرد على المكذبين بالبعث المنكرين له، وبيان قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على ذلك، لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى.

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٩٤.

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها :

دلّل ـ عز وجل ـ فيما سبق بالخلق الأول على قدرته على الخلق الثاني ـ على سبيل الإجمال ـ ،ثم اتبع ذلك بشيء من التفصيل في هذه الآيات.

قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾.

الواو: للاستئناف. واللام: للقسم. و(قد) للتحقيق، أي: و الله ﴿لقد خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ وقد أقسم ـ عز وجل ـ على كثير من الأخبار في القرآن الكريم ـ مع أنه أصدق القائلين وقوله حق وخبره صدق لأن من عادة العرب في مخاطباتهم تأكيد الخبر بالقسم وقد قال ـ عز وجل ـ : ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار، وعدلاً في الأحكام.

ومعنى قوله ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ أي: ونعلم الذي توسوس به نفسه من الوساوس والخواطر والمكنونات والمضمرات خيرها وشرها. وإذا كان عز وجل يعلم ما توسوس به نفس الإنسان من الخواطر ونحوها فعلمه بما عدا ذلك من جميع أحواله وأموره الظاهرة من باب أولى ـ لكنه عز وجل لا يؤاخذ بحديث النفس، ما لم يتكلم الإنسان أو يعمل، لقوله ﷺ «إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به أنفسها، ما لم تعمل أو تتكلم»(١).

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ حبل الوريد: هو حبل العنق وهو عرق بين

---

(١) أخرجه البخاري في الطلاق ٥٢٦٩، ومسلم في الإيمان – باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر ١٢٧، وأبو داود في الطلاق – باب الوسوسة في الطلاق ٢٢٠٩، والنسائي في الطلاق ٣٤٣٣، والترمذي في الطلاق – ما جاء فيمن يحدث نفسه في طلاق امرأته ١١٨٣، وابن ماجه في الطلاق – من طلق في نفسه ولم يتكلم به ٢٠٤٠، وأحمد ٢/ ٢٥٥، ٣٩٣ – من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الحلقوم والودجين إذا قطع مات الإنسان، يضرب به المثل في القرب، وقيل المرادبه الودجان. قال ابن القيم[(١)]:«وأجزاء القلب وهذا الحبل يحجب بعضها بعضًا. وعلم الله بأسرار العبد وما في ضميره لا يحجبه شيء».

قال ابن تيمية[(٢)] في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾، وقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ [الواقعة: ٨٥]: «فالمراد قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة».

وقال أيضاً[(٣)]: «هذا مثل قوله ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]، وقوله ﴿فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٨]، فإن جبريل عليه السلام هو الذي قصه عليه بأمر الله، فنسب تعليمه إليه إذ هو بأمره، وكذلك جبريل هو الذي قرأه عليه..».

وقال ابن كثير[(٤)]: «يعني ملائكته تعالى أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، ومن تأوله على العلم فإنما فر لئلا يلزم حلول أو اتحاد، وهما منفيان بالإجماع – تعالى الله وتقدس ـ ولكن اللفظ لا يقتضيه، فإنه لم يقل: وأنا أقرب إليه من حبل الوريد، وإنما قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾ كما قال في المحتضر ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] يعني: ملائكته، وكما قال ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] فالملائكة نزلت بالذكر ـ وهو القرآن ـ بإذن الله عز وجل. وكذلك الملائكة أقرب إلى الإنسان من حبل وريده إليه، بإقدار الله لهم على ذلك، فللملك لَمَّة في الإنسان كما أن للشيطان لَمَّة[(٥)]. وكذلك «الشيطان يجري من ابن آدم

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٨.

(٢) في «شرح حديث النزول» ص١٢١، وانظر (مجموع الفتاوى) ٥/ ٢٣٢ – ٢٣٦، ٦/ ١٩ – ٢٠.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٨ ـ ١٨٩.

(٤) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٦.

(٥) كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن للشيطان لَمَّة بابن آدم، وللملك لَمَّة، فأما لَمَّة الشيطان، فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق، وأما لمة الملك فإيعاد بالخير، وتصديق بالحق، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من عند الله، فليحمد الله، ومن وجد الأخرى، فليتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم قرأ: ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾» أخرجه الترمذي في تفسير سورة البقرة ٢٩٨. وقال (حديث حسن غريب).

مجرى الدم»[(١)] كما أخبر بذلك الصادق المصدوق.

وقد قال ابن تيمية في «مجموع الفتاوى»[(٢)]: «فقوله: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾: «هو قرب ذوات الملائكة، وقرب علم الله منه».

وقال السعدي[(٣)] في كلامه على قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥] قال: «بعلمنا وملائكتنا».

وهذا كله مما يوجب على العبد مراقبة خالقه المطلع عليه ظاهرًا وباطنًا، القريب إليه، بعلمه وإحاطته وقدرته، وبملائكته الموكلين به، في جميع أحواله.

﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾.

إذ: ظرف متعلق بـ «أقرب»، أو مفعول لـ «اذكر» مقدرًا.

(يتلقى) فعل الشرط. و(المتلقيان) هما الملكان اللذان يكتبان أعمال الإنسان وأقواله.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: عن يمين الإنسان وعن شماله.

﴿قَعِيدٌ﴾ أي: مترصد، فالذي عن اليمين يكتب الحسنات، والذي عن الشمال يكتب السيئات. قال الأحنف بن قيس: «صاحب اليمين يكتب الخير، وهو أمير على صاحب الشمال، وإن أصاب العبد خطيئة، قال له: أمسك، فإن استغفر الله تعالى نهاه أن يكتبها، وإن أبى كتبها»[(٤)].

﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ «ما» نافية، و «من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى للعموم، و «قول» نكرة في سياق النفي تعم كل قول، أي: ما يلفظ الإنسان من أي كلمة خير أو شر، أو غير ذلك.

﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾ أي: عنده ﴿رَقِيبٌ﴾ أي: ملك يراقب ما يصدر منه من كلمة، لا ينفك عنه.

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتكاف ٢٣٨، ومسلم في السلام ٢١٧٥، وأبو داود في الأدب، ٤٩٩٤، وابن ماجه في الصيام – باب في المعتكف يزوره أهله في المسجد ١٧٧٩، وأحمد ٦/ ٣٣٧ – من حديث صفية رضي الله عنها.

(٢) ٥/ ٢٣٦ ـ لكن ابن تيمية ـ رحمه الله ـ ضعف القول بأن المراد بالقرب في الآيتين القرب إليه بالعلم والقدرة والرؤية. انظر: «شرح حديث النزول» ص١٢١.

(٣) انظر «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٧، وانظر ٧/ ١٥١.

(٤) ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٧/ ٣٧٧.

يصدر من الإنسان من قول، وكذلك ما يصدر عنه من فعل. قال ابن القيم[(١)]: «ونبه بإحصاء الأقوال وكتابتها على كتابة الأعمال التي هي أقل وقوعًا وأعظم أثرًا من الأقوال، وهي غايات الأقوال ونهاياتها».

وهذا مما يوجب على الإنسان الاحتراز لدينه، ومحاسبة نفسه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠-١٢]، وقال تعالى ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ۝ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤].

فكل ما يتلفظ به الإنسان من الكلام يتلقاه الملكان ويكتبانه أيا كان هذا الكلام سواء كان مما فيه ثواب وعقاب، أو لا ؛ لقوله ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾.

وقد ذُكر أن الإمام أحمد رحمه الله كان يئن في مرضه، فبلغه عن طاوس أنه قال: «يكتب الملك كل شيء حتى الأنين» فلم يئن رحمه الله حتى مات.

وهذا هو ظاهر الآية، واختاره جمع من المحققين كابن تيمية وابن كثير وغيرهما.

وقال بعض المفسرين من السلف ومن بعدهم: إنما يكتبان ما فيه ثواب وعقاب. قال ابن رجب[(٢)]: «وقد أجمع السلف الصالح على أن الذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات، وهم متفقون على أن المجازاة على ما فيه ثواب وعقاب، وما سوى ذلك: فيمحى إن كتب».

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: **«إن العبد ليتكلم بالكلمة من رضوان الله، لا يلقي لها بالاً يرفعه الله بها درجات، وإن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يلقي لها بالاً يهوي بها في جهنم»**[(٣)].

وعن بلال بن الحارث المزني قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الرجل ليتكلم بالكلمة من رضوان الله تعالى ما يظن أن تبلغ ما بلغت، يكتب الله بها عليه رضوانه إلى يوم يلقاه. وإن الرجل ليتكلم بالكلمة من سخط الله ما يظن أن تبلغ ما بلغت،**

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ١٩٧.

(٢) (جامع العلوم والحكم) ١/ ٣٣٦ وانظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٢٤، (تفسير ابن أبي حاتم) ١٠/ ٣٣٠٨، (مجموع الفتاوى) ٧/ ٤٩، (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٧٦ - ٣٧٧.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٧٨.

يكتب الله عليه بها سخطه إلى يوم يلقاه»[(١)].

وعن معاذ بن جبل ـ رضي الله عنه ـ أن رسول الله ﷺ أخذ بلسانه وقال: «كفّ عليك هذا، فقلت: يا نبي الله وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال له ﷺ: «ثكلتك أمك يا معاذ وهل يكب الناس في النار على وجوههم أو على مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم»[(٢)].

﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ ـ هذا وما بعده إلى قوله ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ تفصيل لحال الاحتضار وما بعده من البعث والحساب والجزاء.

و«سكرة الموت» أي: سكراته وشدته وآلامه، وغمراته التي تغشى الإنسان وتغلب على عقله وتغطيه. عن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أن النبي ﷺ لما تغشاه الموت جعل يدخل يديه في الماء فيمسح بها وجهه، ويقول: «لا إله إلا الله، إن للموت لسكرات»[(٣)].

قال ابن تيمية[(٤)]: «أي: جاءت بما بعد الموت من ثواب وعقاب، وهو الحق الذي أخبرت به الرسل، ليس مراده أنها جاءت بالحق الذي هو الموت، فإن هذا مشهور لم ينازع فيه، ولم يقل أحد إن الموت باطل حتى يقال:جاءت بالحق».

وقال ابن القيم[(٥)]: «وأنها تجيء بالحق وهو لقاؤه سبحانه، والقدوم عليه، وعرض الروح عليه، والثواب والعقاب الذي تعجل لها قبل القيامة الكبرى».

وقال ابن كثير[(٦)]:«أي: كشفت لك عن اليقين الذي كنت تمتري فيه»

وقيل إن المراد بالحق هو الموت والفناء الذي كتبه الله على الخلق[(٧)] قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدْ

---

(١) أخرجه أحمد ٣/ ٤٦٩، والترمذي في الزهد – ما جاء في قلة الكلام ٢٣١٩، وابن ماجه في الفتن – كف اللسان في الفتنة ٣٩٦٩. وقال الترمذي: (حديث حسن صحيح).

(٢) أخرجه الترمذي في الإيمان ـ ما جاء في حرمة الصلاة ٢٦١٦، وابن ماجه في الفتن ٣٩٧٣ ـ وقال الترمذي: «حسن صحيح»

(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٤٤٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٦، وابن ماجه في الجنائز ـ ما جاء في ذكر مرض رسول الله ﷺ ١٦٢٠، وأحمد ٦/ ٦٤، ٧٠.

(٤) في (مجموع الفتاوى) ٤/ ٢٦٥.

(٥) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٧.

(٦) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٧.

(٧) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٢٧ – ٤٢٨.

رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر: ٩٩] فالموت حق ويقين، والجنة حق والنار حق.

ولا مانع من حمل الحق في الآية على الأمرين فالموت حق والوعد والوعيد حق. لكن ما بعد الموت أطم وأعظم.

﴿ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾ الإشارة إلى الموت و(ما) موصولة، والخطاب لعموم الإنسان، أي: ذلك الذي كنت أيها الإنسان منه تحيد، أي تهرب وتفر، قد حل بك ونزل بساحتك، ويحتمل أن (ما) نافية، أي: ذلك ما لا يمكنك الفرار منه.

قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَـٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَـٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨]، وقال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾[النساء: ٧٨]

قال ابن كثير[١]:«أي: هذا هو الذي كنت تفر منه قد جاءك، فلا محيد ولا مناص ولا فكاك ولا خلاص».

قال الشاعر[٢]

لعمرك ما يغني الثراء عن الفتى   إذا حشرجت يومًا وضاق بها الصدر

﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ أي: نفخ إسرافيل - بأمر الله عز وجل - بالصور وهو: «القَرْن» لبعث الخلق بعد موتهم ورد الأرواح إلى أجسادها للقيامة الكبرى، وهي النفخة الثانية المسماة بالرادفة كما قال عز وجل: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ۝٦ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦، ٧]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَىٰ فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كيف أنعم وصاحب القرن قد التقم القرن وحنى جبهته وانتظر أن يؤذن له. قالوا: يا رسول الله كيف

---

(١) في (تفسيره) ٧/ ٣٧٨.
(٢) البيت لحاتم الطائي انظر (ديوانه) صـ ٥٠: وانظر «النهاية»، (اللسان) مادة (حشرج).

نقول؟ قال: قولوا: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال القوم: حسبنا الله ونعم الوكيل»[١].

﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ﴾ أي: يوم القيامة الذي توعد الله به المكذبين لمجازاتهم على أعمالهم بالعذاب الأليم، ووعد به المتقين بالنعيم والثواب العظيم. وأشار إليه بإشارة البعيد «ذلك» تعظيماً له. وخصه بالوعيد ـ هنا ـ لأن السياق من أول السورة مع المكذبين.

﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ﴾ أي: وجاءت كل نفس من الإنس والجن معها سائق وهو ملك يسوقها إلى المحشر، (وشهيد) وهو ملك يشهد عليها بأعمالها.

وقيل المراد بالشهيد: العمل، وقيل المراد به: الإنسان نفسه، يشهد على نفسه بما عمل.

والذي يدل عليه ظاهر سياق الآية هو القول الأول.

قال الفرزدق:

إذا جاءني يوم القيامة قائد عنيف وسوَّاق يسوق الفرزدقا

وأيضًا فقد دلت النصوص من القرآن الكريم على أن الإنسان يشهد على نفسه وتشهد عليه أيضًا جوارحه قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ۝ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٌ﴾ [العاديات: ٦ ، ٧].

وهذا على أظهر وأشهر القولين في مرجع الضمير (إنه) وأن المراد به أن الإنسان يشهد على نفسه بذلك. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [النور:٢٤]، وقال تعالى ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا مَا جَآءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [فصلت: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥].

ويشهد المؤمنون بعضهم على بعض كما في الحديث: أنه مر بالنبي ﷺ جنازة فأثنوا على صاحبها خيرًا – الحديث وفي آخره قال ﷺ : «أنتم شهداء الله في أرضه»[٢].

فيشهد على الإنسان الملك، وتشهد عليه نفسه وجوارحه والمؤمنون، وتشهد الأمة المحمدية

---

(١) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٤٣.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٦٧، ومسلم في الجنائز ٩٤٩، والنسائي في الجنائز ١٩٣٢، والترمذي في الجنائز ١٠٥٨، وابن ماجه في الجنائز ١٤٩١ – من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

على الأمم السابقة، ويشهد محمد ﷺ على أمته كما قال عز وجل ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

ويشهد على الخلق العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية، الرقيب عليهم، وهو خير الشاهدين. قال ابن القيم[١]: «ثم أخبر عن أحوال الخلق في هذا اليوم، وأن كل أحد يأتي الله سبحانه ذلك اليوم ومعه سائق يسوقه وشهيد يشهد عليه وهذا غير شهادة جوارحه وشهادة الأرض التي كان عليها له وعليه، وغير شهادة رسوله والمؤمنين فإن الله سبحانه يستشهد على العبد الحفظة والأنبياء والأمكنة التي عملوا عليها الخير والشر، والجلود التي عصوه بها، ولا يحكم بينهم بمجرد علمه، وهو أعدل العادلين وأحكم الحاكمين».

وإذا كان الإنسان قد وكل به كل هؤلاء الشهود فيجب عليه تقوى الله والاحتراز من المخالفات والمعاصي.

﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ هكذا يقال للمكذب المعرض توبيخًا له ولومًا وتعنيفًا، وفيه التفات من الغيبة إلى الخطاب للتنبيه وشد الذهن.

اللام لام القسم، و(قد) للتحقيق. أي: و الله لقد كنت في غفلة من هذا.

والخطاب للإنسان عمومًا، وقيل المراد به الكافر. وظاهر الآية أن المراد به عموم الإنسان: أي: لقد كنت أيها الإنسان في غفلة من هذا ـ يعني من هذا اليوم وذلك لأن الآخرة بالنسبة للدنيا كاليقظة والدنيا كالمنام وبقدر ما يكون إعراض الإنسان عن الحق تكون غفلته.

﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾ أي: أزلنا ما على بصرك من غطاء وغشاوة وما على قلبك من الختم والران والغفلة.

﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ أي: فبصرك اليوم حاد قوي؛ لأنه في ذلك اليوم تظهر للناس الحقائق بعد ذهاب ما على القلوب والأبصار من الغشاوة والغفلة، ويكون كل إنسان

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٧، ١٩٨.

في ذلك مستبصرًا حتى الكفار في ذلك الوقت يؤمنون لكن لا ينفعهم ذلك كما قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَقَالُوا۟ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

الفوائد والعبر:

١ ـ تأكيد الخبر في القرآن الكريم بالقسم، كما هي عادة العرب الإقسام لتأكيد الخبر.

٢ ـ إثبات خلقه ـ عز وجل ـ للإنسان وعلمه بما تنطوي عليه نفسه وقربه إليه بعلمه وإحاطته وقدرته، وبملائكته، وذلك من أعظم الدلائل على قدرته ـ عز وجل ـ على بعثه.

٣ ـ سعة علم الله ـ عز وجل ـ ودقيق خبرته، لأنه إذا كان يعلم ما توسوس به النفوس فعلمه بما يظهر من باب أولى.

٤ ـ إثبات وجود الملكين الكاتبين لجميع أقوال الإنسان وأفعاله، أحدهما عن اليمين لكتابة الحسنات والثاني عن الشمال لكتابة السيئات.

٥ ـ وجوب مراقبة الله ـ عز وجل ـ وطاعته، والبعد عن معصيته، فكل شيء محصىً ومكتوب قولاً كان أو فعلاً.

٦ ـ أن الموت حق على كل مخلوق لا محيد له عنه، وبه يظهر الحق الذي جاءت به الرسل ونزلت به الكتب من الحساب والجزاء على الأعمال.

٧ ـ إثبات النفخ في الصور لحياة الناس وقيامهم من قبورهم للحساب يوم القيامة، وهي النفخة الثانية.

٨ ـ مجيء كل نفس في ذلك اليوم معها ملك يسوقها إلى أرض المحشر، وملك يشهد على أعمالها.

٩ ـ غفلة الإنسان عن الآخرة حتى ينكشف عنه الغطاء بالموت ومعاينة أهوالها فتظهر له الحقائق، وتزول عنه الغشاوة ويندم حين لا ينفع الندم.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ ۞قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ أي: قرين هذا المكذب المعرض الذي قرن به في الدنيا من الملائكة، ووكل بحفظه وحفظ أعماله وأقواله يشهد عليه يوم القيامة بذلك.

وقال بعضهم: المراد به السائق. واختار ابن جرير أنه يعم السائق والشهيد[(١)].

﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ﴾ أي: يقول الملك لَمَّا يُحضره: هذا الذي كنت وكلتني به في الدنيا قد أحضرته وأتيتك به، وهذا ما كتبته عليه وأحصيته من قوله وعمله حاضر عندي، بلا زيادة ولا نقصان.

﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ﴾ الخطاب في قوله: (ألقيا) للسائق والشهيد، أو للملك الموكل بعذابه وإن كان واحدًا قال ابن كثير[(٢)]: «والظاهر أنها مخاطبة مع السائق والشهيد، فالسائق أحضره إلى عرصة الحساب، فلما أدى الشهيد ما عليه، أمرهما الله تعالى بإلقائه في نار جهنم وبئس المصير».

و(جهنم) اسم من أسماء النار، سميت به لجهمتها وظلمتها وبُعد قعرها وشدة حرها – أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾ (كفار) على وزن «فعّال» صيغة مبالغة، أي: أنه قد جمع أنواع الكفر، وبلغ من الكفر غايته.

والكفر معناه: الجحود، أي: كُلَّ جحود لربه، لربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته ودينه، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره، فالكفر ضد الإيمان، ومنه كفر النعم.

(عنيد) على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: أنه كثير العناد

---

(١) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٣٦.

(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٨٠.

شديده، لا يقبل الحق بحال بأي أسلوب عرض عليه. والعناد: دفع الحق ورده ومعارضته بالباطل وعدم قبوله عن علم ومعرفة، لا عن جهل.

﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ (مناع) على وزن (فعّال) كما سبق في (كفار) يدل على منعه لكل خير، وبلوغه في المنع غايته. والمراد بالخير المال، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨]، أي: لحب المال.

ويحتمل أن المراد ما هو أعم من ذلك، وأن المراد: منع الإحسان القولي، والإحسان الفعلي، والإحسان إلى نفسه بالطاعات وإلى غيره بوجوه الإحسان.

قال ابن القيم[1] «وهذا يعم منعه للخير الذي هو إحسان إلى نفسه من الطاعات والقرب إلى الله، والخير الذي هو إحسان إلى الناس، فليس فيه خير لنفسه، ولا لبني جنسه كما هو حال أكثر الخلق».

﴿مُعْتَدٍ﴾ أي: ظلوم غشوم معتد على الناس بيده ولسانه، فخيره ممنوع عنهم وشره واصل إليهم، معتد على حدود الله، متجاوز الحد في نفقاته.

﴿مُّرِيبٍ﴾ أي: ذو شك وريب في أمره، وفي وعد الله ووعيده مشكك لغيره في ذلك، آت لكل ريبة، مخيف لمن نظر في أمره.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ أي: أشرك مع الله غيره، فلم يخلص العبادة لله، بل عبد معه إلهًا آخر من الأصنام والأوثان، أو انشغل عن طاعة الله تعالى بهوى نفسه أو جمع الدنيا كما قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[الجاثية: ٢٣]، وقال ﷺ: «تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم...»[2].

فوصفه الله عز وجل بست صفات: كفّار، عنيد، منّاع للخير، معتد، مريب، مشرك.

﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ أيها الملكان القرينان ﴿فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ﴾ كمّا وكيفًا وهو عذاب النار.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن نبي الله ﷺ أنه قال: «يخرج عنق من

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ١٩٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

النار يتكلم، يقول: وكلت اليوم بثلاثة: بكل جبار، ومن جعل مع الله إلهًا آخر، ومن قتل نفسًا بغير نفس، فينطوي عليهم، فيعذبهم في غمرات جهنم»[١].

﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾ وهو الشيطان الذي وكل به.

﴿رَبَّنَا مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾ أي: يقول عن الإنسان الذي قد وافى القيامة كافرًا يتبرأ منه شيطانه، فيقول: (ربنا ما أطغيته) والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد كما قال تعالى ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

والمعنى: ليس أنا الذي جعلته طاغيًا متجاوزًا الحد.

﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾ أي: ولكن كان هو في نفسه ضالاً قابلاً للباطل معاندًا للحق كما في قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ ۖ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ ۗ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وهكذا يتبرأ قرين السوء من قرينه والمتبوعون من أتباعهم والأتباع من متبوعيهم كما قال عز وجل: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٦-١٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٧ - ٢٩]، وقال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وقيل: المراد بـ (قرينه) الملك الذي يكتب عمله فيدعي الإنسان أنه زاد عليه فيما كتبه عليه، وأنه أعجله بالكتابة عن التوبة، ولم يمهله حتى يتوب، فيقول الملك: ما زدت في الكتابة على ما عمل، ولا أعجلته عن التوبة ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ﴾.

---

(١) اخرجه احمد ٣ / ٤٠.

﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ يقول الله عز وجل للإنسان وقرينه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: عندي.

وذلك أن الإنسان وقرينه من الشياطين يختصمان بين يدي الحق سبحانه، ويلقي كل منهما التبعة على الآخر، فيقول الإنسان: يا رب هذا أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني، ويقول الشيطان ﴿رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِن كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ أي عن منهج الحق فيقول الرب عز وجل لهما ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ أي: عندي فلا فائدة ولا منفعة في ذلك ولا ثمرة.

﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ﴾ الواو: للحال، أي: والحال أني قد قدمت إليكم بالوعيد لمن خالف أمري، وأقمت عليكم الحجة بما أرسلت من الرسل وبما أنزلت من الكتب، كما قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]. وبذلك قامت عليكم الحجة، وزال العذر، لأن من أنذر فقد أعذر.

﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ (ما) نافية، أي: إن قولي لا يمكن أن يخلف، وخبري لا يمكن أن يتخلف كما قال عز وجل ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وقال عز وجل: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ [النساء: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢]، وقال تعالى: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ [يونس: ٦٤].

والمعنى: أن وعيدي للكافرين بالنار لا يبدل ولا يغير كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

كما أن وعدي للمؤمنين بالجنة لا يبدل ولا يغير قال تعالى: ﴿وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [فصلت:٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَن قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدتُّم مَّا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ﴾ [الأعراف: ٤٤].

وقال عز وجل في الحديث القدسي: «أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء، وأنت النار عذابي أعذب بك من أشاء. ولكل واحدة منكن عليَّ ملؤها»[1].

---

(١) سيأتي تخريجه قريبًا.

ويحتمل أن المعنى: ما يغير القول عندي بالكذب والتلبيس عليَّ كما يغير عند الملوك والحكام والقضاة، فيكون المراد بالقول في قوله (ما يبدل القول لدي) قول المختصمين أي: ما يكذب عندي لعلمي بالغيب، ويؤيد هذا أنه قال: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ (ما يبدل القول لدي) أي: عندي، ولم يقل: (لا يبدل قولي) وينبغي حمل الآية على المعنيين معًا؛ لأن منهج محققي أهل العلم أنه إذا كانت الآية تحتمل أكثر من معنى وجب حمل الآية عليها كلها.

قال ابن القيم[1] بعد أن ذكر القولين: «فعلى القول الأول يكون قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ من تمام قوله ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ في المعنى، أي: ما قلته ووعدت به لابد من فعله. ومع هذا فهو عدل لا ظلم فيه، ولا جور. وعلى الثاني يكون قد وصف نفسه بأمرين: أحدهما: أن كمال علمه واطلاعه يمنع من تبديل القول بين يديه، وترويج الباطل عليه. والثاني: أن كمال عدله وغناه يمنع من ظلمه لعبيده».

﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ الواو: عاطفة و(ما) نافية كسابقتها. (بظلام) الباء داخلة على الخبر أي: لست بذي ظلم، أو لست أظلم أحداً، وهي نكرة في سياق النفي فتعم نفي أي ظلم منه للعبيد، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢، والأنفال: ٥١]، وقال تعالى في سورة فصلت: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [الآية: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [آل عمران: ١٠٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ [غافر: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤].

واللام في قوله ﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ للاستغراق في جميع العبيد، فلا يظلم عز وجل أحداً منهم، مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم، لأن المراد بالعبودية هنا العبودية العامة لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣].

فلا يظلم عز وجل أحدًا من العبيد، ولا يعذب أحدًا بذنب غيره، أو بغير ذنب، ولا يمنع أحدًا أجر ما عمله من عمل صالح، ولا يزاد في سيئاتهم، ولا ينقص من

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٠.

حسناتهم كما قال عز وجل: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

ولا يظلم ـ عز وجل ـ ظلمًا صغيرًا ولا كبيرًا ولا قليلاً ولا كثيراً كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَـٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَـٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس: ٤٤].

بل إنه عز وجل حرم الظلم على نفسه كما حرمه على العباد قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[1].

الفوائد والعبر:

١ـ أن كل إنسان قرن به من الملائكة من يحفظه ويحفظ أعماله ويشهد عليه ويحضره وأعماله لموقف الحساب بلا تأخير.

٢ـ الأمر للملكين الموكلين بالإنسان بإلقاء كل كفَّار في النار والعذاب الشديد، لشدة كفره وعناده ومنعه الخير واعتدائه وشكه وشركه.

٣ـ الجمع لأهل النار من المكذبين والكفار بين العذاب الحسي للأبدان والعذاب المعنوي المنصب على القلوب.

٤ـ بيان صفات أهل النار المستوجبين دخولها للتحذير منها، والاتصاف بضدها.

٥ـ تبرؤ الشيطان من أتباعه وقرين السوء من قرينه، وتخاصمهم يوم القيامة، وأنىَّ ينفعهم ذلك وقد قامت الحجة عليهم.

٦ـ أن الله ـ عز وجل ـ أقام الحجة على الخلق جميعاً وحذرهم وأنذرهم.

٧ـ أن الشيطان والنفس الأمارة بالسوء هما أعظم أسباب الوقوع في الطغيان.

٨ـ أن ما حكم الله ـ عز وجل ـ به وقضى من تعذيب الكافرين في النار لا يبدل ولا يغير، كما أنه ـ عز وجل ـ لا يلبس عليه بالقول، لأنه لا تخفى عليه خافية.

٩ـ تمام وكمال عدل الله ـ عز وجل ونفي الظلم عنه.

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ – من حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

قوله ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ قرأ نافع وأبو بكر عن عاصم (يوم يقول) بالياء وقرأ الباقون (يوم نقول) بالنون.

أي: يوم القيامة نقول لجهنم وهي النار التي أعدها الله عز وجل لتعذيب المكذبين والعصاة. وسميت بجهنم لجهمتها وظلمتها وبعد قعرها وشدة حرارتها.

﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾ استفهام لا يقصد منه الاستعلام فالله عز وجل لا تخفى عليه خافية، وإنما يقصد منه التخويف والتهديد، والتحذير والوعيد، والإشارة إلى عظمة جهنم ومدى سعتها بحيث تتسع لجميع المجرمين والعصاة، فما دام عددهم لم يكتمل فيها فهي لم تمتلئ ولهذا تقول ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾. والله سبحانه وتعالى أعلم بها إذا امتلأت، ومتى تمتلئ وقد وعدها عز وجل بملئها قال تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

وفي الحديث القدسي عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن الله عز وجل قال للجنة: «أنت رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي، وقال للنار: إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي، ولكل واحدة منهما ملؤها، فأما النار فلا تمتلئ حتى يضع رجله، فتقول: قط قط، فهنالك تمتلئ، ويزوى بعضها إلى بعض، ولا يظلم الله من خلقه أحدًا، وأما الجنة فإن الله ينشئ لها خلقًا آخر»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يلقى في النار وتقول هل من مزيد حتى يضع قدمه فيها فتقول: قط قط»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة ق ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٦، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٦١.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة ق ٤٨٤٨، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٤٨، والترمذي في التفسير ٣٢٧٢.

وفي رواية[١]:«لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد؟ حتى يضع رب العزة فيها قدمه فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، وعزتك وكرمك، ولا يزال في الجنة فضل حتى ينشئ الله لها خلقًا آخر، فيسكنهم في فضول الجنة».

فهي بقولها (هل من مزيد) لا تزال تطلب الزيادة من المجرمين والعصاة غضبًا لربها وغيظًا على الكافرين.

وقيل: معنى قولها (هل من مزيد)، وهل بقي فيَّ مكان يزاد فيه، أي: قد امتلأت. وهذا المعنى لا يصح والحديث السابق يرده. والصحيح القول الأول وهو أظهر من حيث السياق، وأقوى في الوعيد والتهديد والزجر والتخويف، وهو قول عامة المفسرين من السلف وغيرهم، واختاره جمع من المحققين، منهم الطبري[٢]، وابن تيمية[٣]، وابن القيم، وابن كثير[٤]، وغيرهم. قال ابن تيمية[٥]: «والصحيح أنها تقول (هل من مزيد) على سبيل الطلب، أي: هل من زيادة تزاد فيَّ، والمزيد ما يزاد فيها من الجن والإنس» وقال ابن القيم[٦]: «وأخطأ من قال: إن ذلك للنفي، أي: ليس فيّ من مزيد. والحديث الصحيح يرد هذا التأويل».

﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر عز وجل حال النار وأهلها أتبع ذلك بذكر حال الجنة وأهلها على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب. ليجمع المسلم في طريقه إلى

---

(١) أخرجها مسلم في الجنة وصفة نعيمها– باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء ٢٨٤٨، وأحمد ٣/ ٢٣٤.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ٤٤٣ _ ٤٤٩.

(٣)انظر (مجموع الفتاوى) ١٦/ ٤٦، ١٨/ ١٤١ (منهاج السنة) ٥/ ١٠٠.

(٤) انظر: (تفسير ابن كثير) ٧/ ٣٨١.

(٥) انظر: «دقائق التفسير» ٤/ ٥٢٦.

(٦) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٠.

الله عز وجل في هذه الحياة بين الخوف والرجاء، فلا يأمن من مكر الله، ولا ييأس من رحمة الله. وأن يكون الخوف والرجاء له كجناحي الطائر لا يغلب أحدهما على الآخر - كما قال الإمام أحمد رحمه الله[١].

قوله ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ الواو: استئنافية (أزلفت) أدنيت وقربت، والجنة في الأصل هي البستان، وسمي البستان جنة لأنه يجن، أي: يستر من بداخله بكثرة أشجاره قال تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ﴾ [ق: ٩، ١٠] والمراد بالجنة هنا الدار التي أعدها الله لأوليائه في الآخرة، والتي لا يقدر قدر ما فيها من ألوان الخضرة والحبرة والنعيم إلا الله عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: للذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ وذلك يوم القيامة وليس ببعيد لأنه آت لا محالة وكل آت قريب.

ويحتمل أن المعنى: مكانًا غير بعيد. أي: أدنيت الجنة وقربت مكانًا قريبًا غير بعيد تشاهد وينظر ما فيها، من النعيم المقيم، والحبرة والسرور.

ومن عظيم كرامة المتقين عند الله أن تقرب الجنة لهم لا أنهم يقربون إليها، وهذا يدل على أن من إكرام الضيف أن يقرب الطعام إليه، لا أن يوضع الطعام ويؤمر الضيف بالقرب إليه.

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين، قرب الزمان، وقرب المكان.

﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾ الإشارة للجنة وما فيها من النعيم يقال لهم هذا على وجه التهنئة لهم والتكريم والتعظيم لذلك الموعود به و (ما) موصولة، أي: هذا الذي توعدون. أو مصدرية، أي: هذا وعدنا.

---

(١) وقال بعض أهل العلم: يغلّب جانب الرجاء عند فعل الطاعة، ويغلّب جانب الخوف عندما تزين له النفس الأمارة بالسوء والشيطان فعل معصية. وقال بعض أهل العلم: يغلب الخوف حال الصحة ويغلب الرجاء حال المرض.

والوعد غالبًا في الخير، والوعيد في الشر و(وعد) - غالبًا في الخير، و(أوعد) غالبًا في الشر. قال الشاعر:

وإنـــي وإن أوعدتـــه أو وعدتـــه لمخلف إيعادي ومنجز موعـدي

﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾ أي: لكل رجاع تائب إلى الله عز وجل مقلع عن المعاصي نادم على فعلها عازم على عدم العودة إليها، إخلاصًا لله تعالى وخوفًا منه.

وهذا يدل على أن الإنسان لا يكاد يسلم من الوقوع في الذنب وأنه بعد التوبة الصادقة أفضل منه قبل المعصية.

والتوبة: الرجوع من المعصية إلى الطاعة قال ابن القيم[1]:«أي: رجاع إلى الله من معصيته إلى طاعته، ومن الغفلة عنه إلى ذكره».

(حفيظ) أي: يحفظ الله في أوامره ونواهيه فلا يخالف أمر الله ولا يرتكب نهيه، كما قال ﷺ لابن عباس: «احفظ الله يحفظك»[2] وقال تعالى: ﴿حَـٰفِظَـٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ [النساء: ٣٤].

فيحفظ العهود والعقود التي بينه وبين الله والتي بينه وبين الخلق، فلا ينقض عهده ولا ينكثه.

﴿مَّنْ خَشِىَ ٱلرَّحْمَـٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾ (من) بدل من قوله ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ﴾، وهي: موصولة، أي: الذي خشي الرحمن بالغيب و﴿خَشِىَ﴾ بمعنى خاف، بل إن الخشية أشد وأخص من الخوف؛ لأن من شرطها – كما يقول بعض أهل العلم –: عظم المخشي وعلم الخاشي، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَـٰٓؤُا۟﴾ [فاطر: ٢٨].

و «الرحمن»: اسم من أسماء الله، بل هو الاسم الثاني من أسماء الله عز وجل كما قال تعالى ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] ويؤيد هذا قوله ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.
(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٥١٦، وقال (حديث حسن صحيح) وأحمد ٤/ ٢٨٦، ٢٨٨.

وعبدالرحمن»[١].

وهو على وزن (فعلان) صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة رحمته عز وجل وعظمتها وكثرتها، ويؤخذ منه إثبات صفة الرحمة الذاتية لله عز وجل القائمة به، كما قال سبحانه ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨]، وإثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها من شاء من عباده كما قال عز وجل : ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

كما يدل على إثبات الرحمة العامة له سبحانه التي تعم جميع المخلوقات، والرحمة الخاصة بالمؤمنين. هذا في حال انفراده عن (الرحيم) ، وكذلك اسمه (الرحيم) إذا انفرد عن (الرحمن) دل على كل ما سبق. أما إذا اجتمعا فإن (الرحمن) يدل على الصفة الذاتية ويدل (الرحيم) على الصفة الفعلية، كما يدل (الرحمن) على الرحمة العامة، ويدل (الرحيم) على الرحمة الخاصة.

قوله (بالغيب) أي: وهو غيب لم يره سبحانه. والغيب ما غاب عن الحواس. ولهذا كان الإحسان أعلى درجات الإيمان وهو: «أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢].

والمعنى: من خشي الله وخافه في سره حيث لا يراه، وهذا من أخص صفات المؤمنين المتقين أنهم يؤمنون بالغيب كما قال عز وجل ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [البقرة: ٣] أي: بكل ما أخبر الله به من الأمور الغيبية السابقة واللاحقة، ومن ذلك الإيمان بأركان الإيمان الستة، وهي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، والإيمان بالقدر خيره وشره.

وهذا من أعظم ما يحمل المرء على تقوى الله ومراقبته والاحتياط لدينه والورع بأداء حقوق الله وحقوق الخلق والبعد عما نهى الله عنه قال ابن القيم[٣]:«قوله ﴿مَّنْ

---

(١) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤. وأخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

﴿خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ يتضمن الإقرار بوجوده وربوبيته وقدرته وعلمه واطلاعه على تفاصيل أحوال العبد ويتضمن الإقرار بكتبه ورسله وأمره ونهيه، ويتضمن الإقرار بوعده ووعيده ولقائه، فلا تصح خشية الرحمن بالغيب إلا بعد هذا كله».

و(خشي الرحمن بالغيب) أيضًا في حال غيبته عن أعين الناس، فهو يراقب ربه ويخشاه في الغيب والشهادة، كما في حديث السبعة الذين يظلهم الله في ظله: «ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه»[1].

وقد كان الإمام أحمد رحمه الله كثيرًا ما يتمثل بهذين البيتين:

إذا ما خلوت الدهر يومًا فلا تقل … خلوت ولكن قل عليّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة … ولا أن ما يُخفى لديه يغيب[2]

﴿وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ أي: وجاء إلى الله بأن مات ولقي الله بقلب سليم منيب إليه خاضع لديه راجع عن المعاصي مقبل على طاعة الله عز وجل: كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ ، آل عمران: ١٠٢].

قال ابن القيم[3]: «وحقيقة الإنابة عكوف القلب على طاعة الله ومحبته والإقبال عليه».

﴿ٱدۡخُلُوهَا بِسَلَٰمٖ﴾ أي يقال لهم أمر إكرام: ادخلوا الجنة (بسلام) والباء للمصاحبة، أي: دخولاً مصحوباً بسلام من عذاب الله ومن الآلام والأحزان والمخاوف، والأكدار والمنغصات، كما قال تعالى حكاية لقول أهل الجنة: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٞ شَكُورٌ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِيٓ أَحَلَّنَا دَارَ ٱلۡمُقَامَةِ مِن فَضۡلِهِۦ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٞ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٞ ﴿٣٥﴾﴾[فاطر: ٣٤ ، ٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَعۡنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنۡ غِلّٖ﴾ [الأعراف: ٤٣]. وقال تعالى في الحديث القدسي:

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ـ من جلس في المسجد ينتظر الصلاة ٦٥٩، ومسلم في الزكاة ـ باب إخفاء الصدقة ١٠٣١، والنسائي في آداب القضاة ٥٣٨٠، والترمذي في الزهد ٢٣٩١ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) البيتان لصالح بن عبد القدوس انظر (ديوانه) ص ١٣٣.

(٣) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠١.

«إن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدا، وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبداً».

وبسلام من الله عليهم ومن الملائكة، ومن بعضهم على بعض. كما قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤].

وقال تعالى: ﴿لَا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوٗا وَلَا تَأۡثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلٗا سَلَٰمٗا سَلَٰمٗا﴾ [الواقعة:٢٥، ٢٦]. وفي هذا من النعيم المعنوي ما لا يدرك كنهه إضافة إلى النعيم الحسي نسأل الله تعالى من فضله.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُلُودِ﴾ ذلك: الإشارة ليوم القيامة.

أي: يوم الخلود في الجنة فلا يموتون أبدًا ولا يظعنون أبدًا ولا يبغون عنها حولا كما جاء في حديث أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «ينادي مناد إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبدًا وإن لكم أن تنعموا فلا تبأسوا أبدًا، فذلك قوله عز وجل ﴿وَنُودُوٓاْ أَن تِلۡكُمُ ٱلۡجَنَّةُ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾[الأعراف: ٤٣]»[١].

﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ لهم: أي للمتقين ﴿مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾ أي: الذي يختارون ويريدون ويشتهون في الجنة كما قال عز وجل: ﴿وَهُمۡ فِي مَا ٱشۡتَهَتۡ أَنفُسُهُمۡ خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وقال عز وجل: ﴿وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الزخرف:٧٠].

﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ يقول عز وجل: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ أي: وعندنا زيادة على ذلك المذكور من ألوان النعيم لأهل الجنة، كما قال عز وجل: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] وقد فسر ﷺ «الحسنى بالجنة والزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم»[٢].

وهكذا فسر أنس بن مالك رضي الله عنه قوله: ﴿وَلَدَيۡنَا مَزِيدٞ﴾ بأن الرب عز

---

(١) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٣٧، والترمذي في التفسير ٣٢٤٦.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ١٨١، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٢، وابن ماجه في المقدمة ١٨٧ – من حديث صهيب رضي الله عنه.

وجل يظهر لهم في كل جمعة[١].

ولا مانع من حمل الآية على المزيد من ألوان النعيم من زيارة الرب عز وجل وتجليه لهم سبحانه ومن الحور العين وغير ذلك من النعيم كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ «قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر» فاقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[٢] نسأل الله تعالى من فضله وكرمه أن يجعلنا ممن تزلف لهم الجنة غير بعيد، ومن أهل الخلود فيها والمزيد.

الفوائد والعبر:

١ـ إثبات الكلام لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته.
٢ـ شدة ظلمة النار، وبعد قعرها، وتناهي حرارتها، ولهذا سميت جهنم.
٣ـ سؤال الله ـ عز وجل ـ النار وهو أعلم بها (هل امتلأت) على سبيل التخويف والوعيد والتهديد للمجرمين.
٤ـ إثبات القول لجهنم والله أعلم بكيفية ذلك.
٥ـ سعة جهنم، وشدة تلهفها إلى المزيد من المجرمين، وغضبها لغضب رب العالمين.
٦ـ تقريب الجنة للمتقين تكريماً لهم، والترحيب بهم، والثناء عليهم بالتوبة وحفظ حقوق الله وخشيته والإنابة إليه، وتهنئتهم بالسلامة والخلود في الجنة.
٧ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الرحمن» وصفة الرحمة الواسعة له ـ عز وجل ـ رحمة ذاتية، ورحمة فعلية، عامة وخاصة.
٨ـ الوعد لأهل الجنة بأن لهم فيها ما يشاؤون، ووعد الله ـ عز وجل ـ لهم بالمزيد من عنده، وأعظم ذلك تمكينهم من النظر إليه ـ عز وجل.
٩ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في (تفسيره) ١٠/ ٣٣١٠ – الأثر ١٨٦٤٥.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤ ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ – من حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها :

أكدّ عز وجل في هذه الآيات وعيد المكذبين بذكر إهلاك المكذبين قبلهم تذكيراً وتحذيراً وبياناً لكمال قدرته وتسلية لنبيه ﷺ آمراً له بالاستعانة على آذاهم بالتسبيح والصلاة.

قوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ الواو استئنافية و (كم) خبرية بمعنى: كثير. (أهلكنا) أي: أمتنا وأفنينا بإنزال العقوبات فيهم، كما قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾[طه: ١٢٨].

والهلاك نوعان: هلاك حسي بالموت والفناء، كما في هذه الآية، وكما في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولًا﴾ [غافر: ٣٤].

والنوع الثاني: هلاك معنوي بالكفر والمعاصي وهو أشد بل هو الهلاك الحقيقي، كما في قوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن سلمة بن صخر رضي الله عنه لما وقع على امرأته في نهار رمضان وهو صائم جاء فزعًا مرعوبًا يقول: «يا رسول الله هلكت وأهلكت»(١).

وهؤلاء جمعوا بين الهلاكين.

(قبلهم) أي: قبل كفار مكة المنكرين للحق والبعث (من قرن) القرن في الأصل: هو المدة التي يعيش فيه جيل وأمة من الناس وتقدر بمائة سنة، والمراد به هنا الجيل

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٣٦، ومسلم في الصيام ١١١١، وأبو داود في الصوم ٢٣٩٠، والترمذي في الصوم ٧٢٤، وابن ماجه ١٦٧١.

والأمة أي: كم أهلكنا من أمة.

قال ﷺ: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[١] والمراد بقوله (قرني) القرن الذي عاش فيه ﷺ وأصحابه، ثم قرن التابعين، ثم قرن تابعي التابعين.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ذات ليلة، صلاة العشاء في آخر حياته، فلما سلم قام، فقال: «أرأيتم ليلتكم هذه فإن على رأس مائة سنة منها لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد»[٢].

ومعنى الآية: وكثيراً من القرون أهلكنا قبلهم.

﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾ أي: هذه القرون الكثيرة، الذين أهلكهم الله (هم أشد منهم بطشًا). أي: أشد قوة من كفار مكة كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا﴾ [الروم: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَـٰهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ [محمد: ١٣]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِى ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣ إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ٦ – ١٤]، وقال تعالى عن قارون: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ [القصص: ٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَأَهْلَكْنَآ أَشَدَّ مِنْهُم بَطْشًا وَمَضَىٰ مَثَلُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ [الزخرف: ٨].

﴿فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ﴾.

التنقيب: البحث عن الشيء وطلبه وابتغاؤه، أي: فضربوا في الأرض وساروا فيها طولاً وعرضاً وهنا وهناك يبحثون عن الرزق ويطلبونه أو يبحثون عن النجاة من الهلاك ويطلبونها.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٩، وابن ماجه في الأحكام ٢٣٦٢ – من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٧، والترمذي في الفتن ٢٢٥١ – من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

قال امرؤ القيس[١]:

لقد نَقَّبْتُ في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب

﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ﴾ الاستفهام معناه النفي، والمحيص: المفر والمهرب.

والمعنى: هل من مفر أو مهرب كان لهم من قضاء الله وقدره وعقابه وهل نفعهم أو دفع عنهم ما عندهم من قوة، وما كان منهم من تطواف في البلاد وعمران لها وطلب للمفر والمهرب من الهلاك أي: أن ذلك لم ينفعهم ولم يدفع عنهم الهلاك وعقاب الله لما كذبوا رسله، فكذلك أنتم يا كفار مكة أيضًا لا مفر لكم من قضاء الله وعقابه ولا محيد ولا مناص ولا محيص. قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[سبأ: ٥١]، وقال تعالى: ﴿۞ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَـٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ۖ وَلِلْكَـٰفِرِينَ أَمْثَـٰلُهَا﴾[محمد: ١٠]

وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

ولهذا جاء في الأثر: «بشر القاتل بالقتل، والزاني بالفقر، ولو بعد حين» .

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ الإشارة لإهلاك كثير من القرون مع ما هم عليه من شدة وبطش وقوة، وما كانوا عليه من تنقيب في البلاد.

والذكرى: العظة، والعبرة، أي: إن في إهلاك تلك القرون تذكرة وموعظة وعبرة، والسعيد من وُعظ بغيره.

﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾ أي: لمن كان له لبُ وعقل واع، يعي ويعقل به، وهو القلب والعقل الذي ينتفع به صاحبه، والذي هو مناط المدح، لا القلب والعقل الذي هو مناط التكليف فقط، ولا ينتفع به صاحبه، كما قال عز وجل عن الكفار ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَـٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ

(١) انظر (ديوانه) ص ٧٣ طبعة بيروت والرواية فيها (وقد طوفت).

﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

وقال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ «أو» بمعنى الواو، أي: وألقى السمع، وإلقاء السمع هو الإصغاء أي: ألقى سمعه وأصغى واستمع الذكرى، وهو شهيد، أي: حاضر بجسمه وعقله، فسمعه بأذنيه، ووعاه وعقله وفهمه بعقله وقلبه وفطنته وكان لذلك أثره على جوارحه.

فاجتمع عنده القلب الذي هو مناط التكليف، فكان ذا قلب وعقل، وأنصت وألقى سمعه بشهود قلبه وعقله الذي يستفيد به، والذي هو مناط المدح والذم؛ لأن وجود القلب والعقل ليس بكاف، ما لم يكن القلب والعقل شاهدًا حاضرًا منتفعًا مستفيدًا يظهر أثر ذلك على الجوارح؛ لهذا نجد القرآن الكريم يثبت العقل للمؤمنين المتقين لانتفاعهم به، وينفيه عن الكفار المكذبين ـ كما في الآيات السابقة وغيرها ـ لعدم انتفاعهم به، وهذا مما يوجب على الإنسان أن يحضر قلبه وعقله عند قراءة أو سماع الآيات القرآنية ويتدبر فيها كما قال عز وجل: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [ص: ٢٩]. وقال عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ﴾ [محمد: ٢٤].

فبالتدبر في آيات الله الشرعية والتأمل والتفكر في آياته الكونية يحصل الانتفاع والفائدة، وبدونه لا يحصل شيء من ذلك، ولهذا قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه فيما ينبغي أن يكون عليه الداعي: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يستجيب دعاءً من قلب غافلٍ لاهٍ»[1].

---

(١) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٧٩ وقال: «حديث غريب».

وقال ابن القيم[١] في كلامه على قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾: «فتأمل ما تحت هذه الألفاظ من كنوز العلم، وكيف تفتح مراعاتها للعبد أبواب العلم والهدى، وكيف ينغلق باب العلم عنه من إهمالها وعدم مراعاتها، فإنه سبحانه أمر عباده أن يتدبروا آياته المتلوَّة المسموعة، والمرئية المشهودة بما تكون تذكرة لمن كان له قلب، فإن من عدم القلب الواعي عن الله لم ينتفع بكل آية تمر عليه، ولو مرت به كل آية، ومرور الآيات عليه كطلوع الشمس والقمر والنجوم ومرورها على من لا بصر له، فإذا كان له قلب كان بمنزلة البصير إذا مرت به المرئيات فإنه يراها ولكن صاحب القلب لا ينتفع بقلبه إلا بأمرين:

أحدهما: أن يحضره ويشهد لما يلقى إليه، فإن كان غائبًا عنه مسافرًا في الأماني والشهوات والخيالات لا ينتفع به، فإذا أحضره وأشهده لم ينتفع إلا بأن يلقي سمعه ويصغي بكليته إلى ما يوعظ به ويرشد إليه، وههنا ثلاثة أمور:

أحدها سلامة القلب وصحته وقبوله.

الثاني: إحضاره وجمعه، ومنعه من الشرود والتفرق.

الثالث: إلقاء السمع وإصغاؤه والإقبال على الذكر.

فذكر الله تعالى الأمور الثلاثة في هذه الآية».

وقال أيضا[٢]:

«وجاء العطف بـ «أو» – و الله أعلم – دون الواو للإشارة إلى أن المنتفع بالآيات من الناس نوعان:

أحدهما: ذو القلب الواعي الذكي الذي يكتفي بهدايته بأدنى تنبيه؛ لأن قلبه واع ذكي وهذه حال أكمل الخلق، كما قال تعالى في وصفهم: ﴿وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ﴾[سبأ: ٦]، وقال تعالى: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥]. فهؤلاء يدعون بالحكمة، تَرَقَّوا من علم اليقين إلى عين اليقين، ومن مقام الإيمان

---

(١) انظر (بدائع التفسير) ٤/٢٠٣.
(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/١٩١، ١٩٢، ٢٠٦، ٢٠٩.

إلى مقام الإحسان.

والثاني: من ليس له هذا الاستعداد والقبول فإذا ورد عليه الهدى أصغى إليه بسمعه وأحضر قلبه وجمع فكرته عليه وعلم صحته وحسنه بنظره واستدلاله وهذه طريقة أكثر المستجيبين، فهؤلاء يدعون بالموعظة الحسنة، وهم في مقام الإيمان ولم يصلوا إلى مقام الإحسان، عندهم علم اليقين ولم يصلوا إلى عين اليقين. فمن كان ذا قلب واع، وأصغى بسمعه وأماله كله نحو المخاطب، وأحضر قلبه وذهنه عند المتكلم انتفع بالذكرى، فإن فقد واحدًا من هذه الثلاثة لم ينتفع».

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: و الله لقد خلقنا وأوجدنا السموات السبع والأرضين السبع، وما بينهما من سائر المخلوقات.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي: في مدة ستة أيام من مثل أيام الدنيا على الصحيح من أقوال أهل العلم لأن الله خاطب البشر بما يعرفون.

وهو عز وجل: قادر على خلقها في لمح البصر أو أقل كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥]، وبقوله كن كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. لكنه عز وجل جعل لخلق الأشياء أسباباً ومقدمات تتكامل شيئاً فشيئاً حتى تتم كما جعل عز وجل خلق الإنسان أطواراً، كما قال نوح عليه السلام لقومه ـ فيما حكاه الله عنه: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ﴿١٣﴾ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا ﴿١٤﴾﴾[نوح: ١٣ ، ١٤]. وقد قيل: إن من الحكمة في ذلك أن يعلم عباده الأناة في الأمور، وأن المهم فيها الإتقان لا الاستعجال.

﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾ عن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ قال: «جاء اليهود إلى النبي ﷺ فقالوا: يا محمد، أخبرنا ما خلق الله من الخلق في هذه الأيام الستة؟ فقال: «خلق الله الأرض يوم الأحد والاثنين، وخلق الجبال يوم الثلاثاء، وخلق المدائن والأقوات والأنهار وعمرانها وخرابها يوم الأربعاء، وخلق السموات والملائكة يوم الخميس إلى ثلاث ساعات؛ يعني من يوم الجمعة، وخلق في أول الثلاث الساعات الآجال، وفي الثانية الآفة، وفي الثالثة آدم، قالوا: صدقت إن أتممت. فعرف النبي ﷺ ما يريدون،

فأنزل الله: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ۝ فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾».

وقال قتادة: «قالت اليهود - عليهم لعائن الله - خلق الله السموات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾»[١].

والمعنى: وما أصابنا من لغوب، وهو الإعياء والنصب والتعب. وفي هذا تقرير كمال قدرته عز وجل، والرد على اليهود في زعمهم الباطل، وتقرير المعاد وأن من قدر على خلق السموات والأرض وما بينهما قادر على بعث الناس بعد الموت بطريق الأولى والأحرى، كما قال عز وجل: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف:٣٣]، وقال تعالى: ﴿لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ ۚ بَنَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ أي: اصبر يا محمد على ما يقوله المكذبون من قومك من الذم لك، من قولهم: ساحر شاعر كاهن مجنون، ونحو ذلك، ومن التكذيب لما جئت به من الحق، وإنكار البعث. و(ما) موصولة أو مصدرية، أي اصبر على الذي يقولون، أو على قولهم وهذا كما قال في الآية الأخرى ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل: ١٠]، وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

قال ابن القيم[٢]:«أمر نبيه بالتأسي به سبحانه بالصبر على ما يقوله أعداؤه فيه، كما أنه سبحانه صبر على قول اليهود أنه استراح. ولا أحد أصبر على أذى يسمعه منه».

وفي الحديث: «لا أحد أصبر على أذى يسمعه من الله، إنهم يجعلون لله ندًا، ويجعلون له ولدًا، وهو يرزقهم ويعافيهم»[٣].

وفي أمره ﷺ بالصبر على المعاندين تثبيت لقلبه وترويض له، فإن الصبر نصف

---

(١) أخرجهما الطبري في (جامع البيان) ٢١/ ٤٦٥ ـ ٤٦٧.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢، ٢١٠.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٩٩، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٤ – من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

الإيمان، وهو من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، وهو يتضمن أمرين، عدم التضجر مما يقوله المكذبون من قومه، والمضي قدماً في سبيل الدعوة وعدم المبالاة بما يقولون.

وهكذا ينبغي أن يعي الدعاة والمصلحون هذا المعنى، فإن طريق الدعوة ليس مفروشًا بالورود والرياحين، بل هو طريق شاق يحتاج إلى الصبر والمصابرة والمرابطة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

ونيل الإمامة يحتاج إلى صبر وجهد وتضحية قال تعالى ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

ثم أمره ـ عز وجل ـ بما يعينه على الصبر على قولهم وهو الإقبال على الله ـ عز وجل ـ وتسبيحه وعبادته، فقال:

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ التسبيح: معناه تنزيه الله عن النقائص والعيوب، وعن مشابهة المخلوقين. و(الحمد) وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم.

ومعنى الآية: سبح ربك ونزهه متلبسًا بحمده، أي قارنا بين تسبيحه وحمده، كما في دعاء الركوع والسجود: (سبحانك ربنا وبحمدك) وكما في الأذكار بعد الصلوات: (سبحان الله والحمد لله والله أكبر).

ومن تسبيح الله عز وجل بالمعنى العام وحمده عبادته بأنواع العبادة كلها، ومن ذلك: صلاة الفجر قبل طلوع الشمس، وصلاة العصر قبل غروبها. عن جرير بن عبد الله قال: كنا جلوسًا عند رسول الله ﷺ إذ نظر إلى القمر ليلة البدر، فقال: «أما إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تضامون في رؤيته، فإن استطعتم ألا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها – يعني صلاة العصر والفجر ـ ثم قرأ ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَاۖ﴾ [طه: ١٣٠]»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٤، ومسلم في المساجد – فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما ٦٣٣، وأبو داود في السنة – باب في الرؤية ٤٧٢٩، والترمذي في أبواب صفة الجنة – ما جاء في رؤية الرب تبارك وتعالى ٢٥٥١، وابن ماجه في المقدمة – باب فيما أنكرت الجهمية ١٧٧، وأحمد ٤/ ٣٦٥، ٣٦٦.

وقال ﷺ: «من صلى البردين دخل الجنة»[١].

﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ وَأَدۡبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن كثير وحمزة وخلف (وإدبار السجود) بكسر الهمزة، وقرأ الباقون (وأدبار السجود) بفتحها.

ومعنى ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَسَبِّحۡهُ﴾ أي صل له ويدخل فيه صلاة المغرب والعشاء والتهجد، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةٗ لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾. [الإسراء: ٧٩].

وأطلق على الصلاة التسبيح؛ لأن التسبيح من أهم ما يقال فيها.

وأيضًا فإن التسبيح يطلق على ما هو أعم من ذلك وهو تنزيهه سبحانه عن النقائص والعيوب، والعبودية والانقياد له عز وجل، كما قال تعالى ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [مريم: ٩٣].

وقيام الليل من أفضل الأعمال وقد أثنى الله عز وجل على أهل قيام الليل في آيات عدة قال تعالى في مدح المتقين ﴿كَانُواْ قَلِيلٗا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال تعالى ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦ فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿۞لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٣] وقال تعالى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَۗ﴾ [الزمر: ٩].

وقال ﷺ لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل» فكان ابن عمر بعد هذا لا ينام من الليل إلا قليلاً»[٢].

---

(١) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٧٤، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٦٣٥ - من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في التعبير ٦٥١٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٥٢٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩ - من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله ﷺ: «يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم الليل فترك قيام الليل»[(١)].

وقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه[(٢)].

وسئلت عائشة رضي الله عنها كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان؟ فقالت: «ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره، على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا، فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا»[(٣)].

ولم يترك ﷺ قيام الليل لا حضرًا ولا سفرًا، وكان إذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة[(٤)].

(وأدبار السجود) أدبار الشيء ما يأتي بعده، أي: وسبحه أدبار السجود، أي: بعده. واختلف في المراد بذلك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: «التسبيح بعد الصلاة»[(٥)] فحمل السجود على الصلاة. ويؤيد هذا ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: «وما ذاك؟» قالوا: يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم، ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق. فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئًا تدركون به من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم، إلا من صنع مثل ما صنعتم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثًا وثلاثين مرة». فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ، فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا ففعلوا مثله:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٢، ومسلم في الصيام ١١٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦ من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه ـ، ومن حديث عائشة ـ رضي الله عنها ٤٨٣٧.

(٣) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٤١، والنسائي في قيام الليل ١٦٩٧، والترمذي في الصلاة ٤٣٩.

(٤) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٣٢٤.

(٥) أخرجه الطبري في (جامع البيان) ٢١/ ٤٧٣.

فقال رسول الله ﷺ: «ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[(١)].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بـ (أدبار السجود): الوتر[(٢)].

وروي عن جمع من الصحابة والتابعين أن المراد بـ (أدبار السجود): الركعتان بعد المغرب[(٣)].

وهذان القولان فيهما نظر؛ لأن الوتر وصلاة الليل كلها تدخل تحت قوله (ومن الليل فسبحه)؛ ولأن القول بأن المراد به الركعتان بعد المغرب تخصيص بلا دليل.

والذي يدل عليه ظاهر الآية هو القول الأول، وأن المراد بقوله (وأدبار السجود) التسبيح والذكر بعد الصلوات الخمس، ويشمل ذلك ـ والله أعلم ـ الرواتب بعد الصلوات ـ مع الأذكار، قال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقد جاءت السنة النبوية ببيان هذه الأذكار المشروعة عقب الصلوات الخمس. فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «من سبح الله في دبر كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، وحمد الله ثلاثًا وثلاثين، وكبر الله ثلاثًا وثلاثين، فتلك تسعة وتسعون. وقال تمام المائة : لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، غفرت خطاياه، وإن كانت مثل زبد البحر»[(٤)].

وعن ثوبان رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ: إذا انصرف من صلاته، استغفر ثلاثًا، وقال: اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت ذا الجلال والإكرام» قال الوليد – أحد الرواة عن الأوزاعي، فقلت للأوزاعي: كيف الاستغفار؟ قال: تقول: أستغفر الله، أستغفر الله»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان – باب الذكر بعد الصلاة ٨٤٣، ومسلم في المساجد ـ باب استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٥، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٤.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢.

(٣) انظر (جامع البيان) ٢١/ ٤٦٩ ـ ٤٧٣.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٩٧.

(٥) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٣، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨.

وعن المغيرة بن شعبة أنه أملى في كتاب إلى معاوية رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان يقول دبر كل صلاة مكتوبة «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد»[1].

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه: «أنه كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إياه، له النعمة، وله الفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله، مخلصين له الدين، ولو كره الكافرون». وقال: كان رسول الله ﷺ يهلل بهن دبر كل صلاة»[2].

وعن أم سلمة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لفاطمة رضي الله عنها: «إذا لزمت مضجعك فسبحي الله ثلاثًا وثلاثين، وكبري ثلاثًا وثلاثين، واحمدي أربعًا وثلاثين، فذلك مائة، فهو خير لك من الخادم. وإذا صليت الصبح فقولي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد ، يحيي ويميت بيده الخير، وهو على كل شيء قدير. عشر مرات، بعد صلاة الصبح، وعشر مرات بعد صلاة المغرب» الحديث[3].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «أوصيك يا معاذ لا تدعنَّ دبر كل صلاة تقول: اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك»[4].

وعن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: «أمرني رسول الله ﷺ أن أقرأ بالمعوذات دبر كل صلاة»[5].

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال «من قرأ آية الكرسي دبر

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٥، والنسائي في السهو ١٣٤١.

(٢) أخرجه مسلم في المساجد ومواضع الصلاة ٥٩٤، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٦، والنسائي في السهو ١٣٣٩.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٢٧.

(٤) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٢، والنسائي في الافتتاح ١٣٠٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٥٢٣، والنسائي في السهو ١٣٣٦، والترمذي في فضائل القرآن ٢٩٠٣، وقال (حديث غريب) وأحمد ٤/ ١٥٥.

كل صلاة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت»[١].

إلى غير ذلك من الأذكار الخاصة والعامة. قال تعالى:﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ﴾ [النساء: ١٠٣].

وقد أثنى الله عز وجل على الذاكرين الله كثيرًا والذاكرات عمومًا في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وعن عبد الله بن بسر رضي الله عنه أن رجلاً قال: يا رسول الله: إن شرائع الإسلام قد كثرت عليّ فأخبرني بشيء أتشبث به قال: «لا يزال لسانك رطبًا من ذكر الله»[٢].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال «كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم»[٣].

وعن سمرة بن جندب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «أحب الكلام إلى الله: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٤].

وقال ﷺ: «الباقيات الصالحات: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله والله أكبر»[٥] وقد قال الله ـ عز وجل ـ ﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ [الكهف: ٦٤].

وقال ﷺ: «أفضل الكلام أو خير الكلام سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»[٦].

وقال ﷺ: «**لأن أقول سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، و الله أكبر،**

---

(١) أخرجه النسائي، وصححه الألباني في (تخريج المشكاة) ٩٧٤.
(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٣٧٥ وابن ماجه في الأدب ٣٧٩٣.
(٣) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٦، ومسلم في الذكر والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ٣٩٠٦.
(٤) أخرجه مسلم في الآداب ٢١٣٧.
(٥) أخرجه أحمد ١/ ٧١ ـ من حديث عثمان رضي الله عنه، ومن حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه ٤/ ٢٦٨.
(٦) أخرجه البخاري معلقاً بصيغة الجزم في الأيمان والنذور ـ باب إذا قال: والله لا أتكلم اليوم ـ قال: قال النبي ﷺ (افضل الكلام أربع: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر) (فتح الباري) ١١/ ٥٦٦.

أحب إليَّ مما طلعت عليه الشمس»[1].

ولما كان ذكر الله عز وجل وشكره وتسبيحه وحمده أكبر معين على ثبات القلب وطمأنينته ورباطة الجأش، وانشراح الصدر، أمر الله عز وجل رسوله ﷺ بذلك بعد ما أمره بالصبر على ما يقوله المكذبون من قومه فقال عز وجل. ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ ۝ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ السُّجُودِ﴾.

فانتبه أخي الكريم لهذا المعنى قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

الفوائد والعبر:

١ـ تخويف المكذبين بإهلاك كثير من القرون قبلهم مع قوتهم وشدة بطشهم وضربهم في الأرض، فلم ينفعهم ذلك، ولم يفلتوا من عذاب الله.

٢ـ أن في التأمل فيما أوقع الله في المكذبين من الأمم السابقة من العقوبات ـ مع شدة بطشهم ـ أعظم الموعظة لمن استمع بحضور قلب.

٣ـ يجب إحضار القلب عند قراءة القرآن وسماع مواعظه، والتدبر في ذلك لتحصل الذكرى والمنفعة.

٤ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وتقرير المعاد والرد على اليهود في زعمهم الباطل لعنهم الله.

٥ـ تقوية قلب الرسول ﷺ وعزيمته بأمره بالصبر على ما يقول المكذبون من ذمه وتكذيبه فيما جاء به، وأمر الله ـ عز وجل ـ له بتسبيحه وحمده.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٧ـ وجوب تسبيح الله ـ عز وجل ـ بأداء الصلوات المفروضة، واستحباب الإكثار من النوافل وقيام الليل والأذكار العامة، والذكر بعد الصلوات، وأن ذلك أعظم معين على الصبر على أذى الأعداء.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٦٩٥ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أكد عز وجل في الآيات السابقة وعيد المكذبين بذكر ما حل بمن كان قبلهم من العقوبات الدنيوية ثم أتبع ذلك بذكر ما ينتظرهم من العقوبات الأخروية تخويفاً وتحذيراً لهم، وتسلية للنبي ﷺ، آمراً له بالاستمرار بالتذكير بالقرآن لمن يخاف وعيد الله وعذابه.

قوله: ﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ أي: واستمع يا محمد، يوم ينادي المنادي: وهو إسرافيل عليه السلام بالنفخ في الصور يوم القيامة للبعث، وهي النفخة الثانية.

وفي قوله: (واستمع) إشارة إلى قرب الساعة لأنها آتية وكل آت قريب، وقد قال ﷺ «بعثت أنا والساعة كهاتين. وأشار بإصبعيه السبابة والتي تليها»[1].

﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ لأنه يُسمِع الخلق كلَّهم؛ فيَسْمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قرب.

﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ الصيحة الصوت الشديد المرتفع، وهي النفخة الثانية في الصور وهي الرادفة كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا ٱلرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧].

فالراجفة النفخة الأولى في الصور ليموت كل حي من المخلوقات، والرادفة: النفخة الثانية للبعث بعد الموت وعود الأرواح إلى أجسادها.

(بالحق) أي الصيحة المحققة الوقوع، والتي تأتي بالحق الذي وعدوا به وهو

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٥، وابن ماجه في الفتن ٤٠٤٠ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

البعث الذي كان أكثرهم فيه يمترون.

﴿ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡخُرُوجِ﴾ ذلك: أي يوم نداء المنادي بالبعث هو يوم الخروج من القبور والأجداث كما قال عز وجل ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُۖ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخۡرَىٰ فَإِذَا هُمۡ قِيَامٞ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ﴾ [القمر: ٧]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ سِرَاعٗا كَأَنَّهُمۡ إِلَىٰ نُصُبٖ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]. وقال تعالى ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَجَمَعۡنَٰهُمۡ جَمۡعٗا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ فَتَأۡتُونَ أَفۡوَاجٗا﴾ [النبأ: ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِۚ وَنَحۡشُرُ ٱلۡمُجۡرِمِينَ يَوۡمَئِذٖ زُرۡقٗا﴾[طه: ١٠٢].

﴿إِنَّا نَحۡنُ نُحۡيِۦ وَنُمِيتُ﴾ يقول عز وجل عن نفسه بضمير العظمة إنه عز وجل هو الذي يحيي ويميت فهو الذي بدأ الخلق وهو الذي يعيده سبحانه وتعالى، وهو الذي ينفخ الحياة في الأجسام، وهو الذي يميتها كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِيٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٖ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسۡلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن مَّآءٖ مَّهِينٖ ۝٨ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦۖ﴾ [السجدة: ٧ – ٩]، وقال تعالى ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وقال تعالى ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمۡۚ﴾ [النحل: ٧٠].

﴿وَإِلَيۡنَا ٱلۡمَصِيرُ﴾ أي: إليه عز وجل مصير الخلائق ومرجعهم ومردهم فيحاسبهم على أعمالهم، ويجازي كلاً منهم بما عمل، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر.

فمهما طال عمر الإنسان في هذه الحياة فإن الله له بالمرصاد، ومرده ومرجعه إليه، ولن يفوته، ولن يعجزه هربًا، فالطريق إليه وحده، والطرق إلى غيره مسدودة قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدۡحٗا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، وقال تعالى ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلۡمِرۡصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

﴿يَوۡمَ تَشَقَّقُ ٱلۡأَرۡضُ عَنۡهُمۡ سِرَاعٗاۚ﴾ أي: يوم تشقق الأرض عن أجسادهم للخروج من الأجداث يوم القيامة كما تتشقق عن الحب والنبات قال ﷺ فيما رواه أبو هريرة

رضي الله تعالى عنه: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة، وأول من ينشق عنه القبر، وأول شافع وأول مشفع»(١).

قال ابن كثير(٢): «وذلك أن الله تعالى ينزل مطرًا من السماء تنبت به أجساد الخلائق في قبورها كما ينبت الحب في الثرى بالماء فإذا تكاملت الأجساد أمر الله إسرافيل فينفخ في الصور».

﴿سِرَاعًا﴾ أي: فيقومون مسرعين إلى موقف الحساب استجابة لأمر الله عز وجل قال تعالى: ﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِ يَقُولُ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ [سورة القمر: ٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ ٱلْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَىٰ نُصُبٍ يُوفِضُونَ﴾ [المعارج: ٤٣]، وقال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٥٢].

﴿ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ الحشر: هو الجمع للحساب أي: إخراجهم من القبور وجمعهم للحساب أمر يسير علينا؛ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء، كما قال عز وجل: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ ﴿٥٣﴾﴾ [يس: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا هِىَ زَجْرَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ فَإِذَا هُم بِٱلسَّاهِرَةِ ﴿١٤﴾﴾ [النازعات: ١٣، ١٤]، وقال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾[لقمان: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]

﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ يقول الله عز وجل مخاطبًا نبيه ﷺ ومسليًا له ومطمئنًا له ومؤيدًا، ومتوعداً المكذبين: نحن أعلم بما يقول لك المشركون المعاندون من التكذيب والمعاندة، وما يقولون فيك من المزاعم الباطلة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾ [الحجر:٩٧ ـ ٩٩].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ـ باب تفضيل نبينا ﷺ على جميع الخلائق ٢٢٧٨.
(٢) في (تفسيره) ٧/ ٣٨٨.

فقد كذبه ـ بأبي هو وأمي ـ كثير من قومه بل الكثير من كبارهم وأهل الرأي فيهم، بل من أقاربه وأعمامه كأبي جهل وأبي لهب، ورمي ﷺ بالسحر والشعر والكهانة والجنون وما ثناه ذلك ﷺ عن دعوته، بل صبر وصابر وكان يقول ﷺ: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون»[(١)].

قال ابن القيم[(٢)]: «أخبر سبحانه أنه عالم بما يقول أعداؤه، وذلك يتضمن مجازاته لهم بقولهم إذ لم يخف عليه، وهو سبحانه يذكر علمه وقدرته لتحقيق الجزاء».

﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ﴾ أي: وما أنت عليهم بجبار تجبرهم على الهدى وتلزمهم به وإنما مهمتك البلاغ فقط كما قال عز وجل: ﴿أَفَأَنتَ تُكْرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾[يونس: ٩٩]،وقال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة: ٩٩]، وقال تعالى ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال عز وجل ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ﴾ [الغاشية: ٢١-٢٢]، وقال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢]، وقال عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾. [القصص: ٥٦].

فمهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام هي البلاغ وليس عليهم هداية الخلق وإجبارهم على الدخول في دين الله، فإن هداية القلوب بيد علام الغيوب.

ولهذا لم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه، ولا هداية زوجته، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع لوط عليه السلام هداية زوجته، ولم يستطع سيد الخلق محمد ﷺ هداية عمه أبي طالب.

وينبغي أن يأخذ المصلحون والدعاة إلى الله تعالى من هذا دروسًا وعبرًا في طريق دعوتهم إلى الله.

﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ﴾ أي: فعظ بالقرآن بتلاوته على الناس ليتذكروا ويتعظوا بما فيه

---

(١) أخرجه البخاري في استتابة المرتدين ٦٩٢٩، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر (بدائع التفسير) ٤/ ٢٠٢.

من الوعد والوعيد والزجر والتهديد ﴿مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (من) موصولة بمعنى الذي أي: فذكر بالقرآن الذي يخاف وعيدي بالعذاب، أي: ويرجو وعدي بالثواب، وهم المؤمنون لأنهم هم الذين ينتفعون بالذكرى، كما قال عز وجل: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الذاريات: ٥٥]، وقال عز وجل: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩].

وإنما خص عز وجل بالأمر بالتذكير من يخاف وعيده؛ لأنه هو الذي ينتفع بالتذكير، أما من لا يؤمن بلقائه ولا يخاف وعيده ولا يرجو وعده فلا ينتفع بالتذكير.

ومهمة الرسل عليهم السلام هي التذكير بالوعيد والتخويف والإنذار من عذاب الله، والتبشير بوعد الله بالنعيم المقيم قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

الفوائد والعبر:

١ـ الإشارة إلى قرب الساعة والنفخ في الصور لخروج الناس من قبورهم وقيامهم لرب العالمين، وتحقق ذلك.

٢ـ قدرة الله ـ عز وجل التامة على إحياء الخلق وإماتتهم وبعثهم وردهم إليه سبحانه، وثناؤه ـ عز وجل على نفسه بذلك.

٣ـ تشقق الأرض يوم القيامة عمَّن فيها من الموتى وخروجهم منها مسرعين إلى موقف الحشر والحساب.

٤ـ يسر أمر حشر الناس وجمعهم على الله ـ عز وجل ـ لأنه عز وجل لا يعجزه شيء ولا يتعسر عليه أمر.

٥ـ تسلية النبي ﷺ وتطمينه والوعيد للمكذبين بإحاطة علم الله بما يقولون ومجازاتهم على ذلك.

٦ـ أن مهمة الرسول ﷺ التذكير والدعوة إلى الله ـ عز وجل ـ وتبليغ الرسالة، وليس عليه هداية الخلق وإجبارهم على اتباع الحق.

٧ـ إنما يتذكر بالقرآن من يخاف وعيد الله ويرجو وعده.

تفسير سورة الذاريات

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)﴾.

قوله تعالى: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«الذاريات» مقسم به وهي: الرياح. أقسم الله عز وجل بها لكثرة منافعها للإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك، تثير السحاب وتنشره وتلقحه وتسوقه وتبشر بالمطر وتقم الأرض وتسوق السفن إلى غير ذلك، تأتي بأمر الله رحمة، وتأتي بأمره عذاباً.

وسميت الرياح بالذاريات؛ لأنها تذرو المطر والتراب والنبات إذا يبس، أي: تنشر ذلك وتفرقه قال تعالى: ﴿فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ﴾ [الكهف: ٤٥].

«ذروا» مصدر أي : نشرًا وتفريقًا تارة بشدة وقوة وتارة بلين ولطف وتارة بين ذلك.

﴿فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣) فَالْمُقَسِّمَاتِ أَمْرًا﴾ الفاء عاطفة، و«الحاملات» وما بعدها معطوف على «الذاريات» داخل ضمن المقسم به.

و«الحاملات»: السحاب «وقرًا» أي: ثقلاً من الماء الكثير الذي ينفع الله به العباد والبلاد، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ [الرعد: ١٢].

قال ابن القيم[1]: «وهي روايا الأرض يسوقها الله سبحانه على متون السحاب بالرياح».

قال زيد بن عمرو بن نفيل[2]:

وأسلمتُ نفسي لمن أَسلَمَتْ ... له المزن تحمل عذبًا زلالا

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٣.

(٢) انظر «سيرة ابن هشام» ١/ ٢٣١.

و«الجاريات»: السفن التي تجري في البحار، وتمخر عبابها بقدرة الله عز وجل، تحمل الناس والأرزاق وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ [الشورى: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [الحج: ٦٥] وبهذا قال جمهور المفسرين من السلف ومن بعدهم.

وقال بعض أهل العلم: المراد بالجاريات النجوم، التي تسير وتجري كما قال تعالى ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ﴾ [التكوير: ١٥، ١٦].

واختار هذا شيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال: «وهو أحسن في الترتيب والانتقال من السافل إلى العالي، فإنه بدأ بالرياح، وفوقها السحاب، وفوقه النجوم، وفوقها الملائكة»[1].

﴿يُسْرًا﴾ أي: جريًا بيسر وسهولة، مسخرة مذللة منقادة.

(فالمقسمات): الملائكة، «أمرًا» أي: تقسم ما أمرها الله عز وجل بتقسيمه، كما قال عز وجل ﴿فَٱلْمُدَبِّرَٰتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: ٥]، أي: الملائكة تدبر ما أمرها الله عز وجل بتدبيره.

فجبريل يقسم بأمر الله الوحي والعذاب وأنواع العقوبات على من خالف الرسل، وميكائيل يقسم بأمر الله القطر والبرد والثلج والنبات، وملك الموت يقسم بأمر الله المنايا بين الخلق، وإسرافيل يقسم بأمر الله الأرواح على أبدانها عند النفخ في الصور، وهكذا غيرهم من الملائكة كل منهم قد جعله الله على تدبير أمر من أمور الدنيا والآخرة لا يتعداه ولا ينقص منه.

فأقسم ـ عز وجل بالذاريات وهي الرياح، وبالحاملات وهي السحاب، وبالجاريات وهي السفن على قول عامة المفسرين، وبالمقسمات وهي الملائكة.

قال ابن القيم رحمه الله[2]: «وأقسم سبحانه بهذه الأمور الأربعة لمكان العبرة

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٣، ٢١٤.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢١٤-٢١٥.

والآية والدلالة الباهرة على ربوبيته ووحدانيته وعظم قدرته، ففي الرياح من العبر هبوبها وسكونها، ولينها وشدتها، واختلاف طبائعها وصفاتها ومهابها وتصريفها، وتنوع منافعها، وشدة الحاجة إليها، فللمطر خمسة رياح: ريح، ينشر السحاب، وريح يؤلف بينه، وريح تلقحه، وريح تسوقه حيث يريد الله، وريح تذرو أمامه وتفرقه، وللنبات ريح وللسفن ريح وللرحمة ريح، وللعذاب ريح، إلى غير ذلك من أنواع الرياح، وذلك يقضي بوجود خالق مصرف لها مدبر لها يصرفها كيف يشاء، ويجعلها رخاءً تارة، وعاصفة تارة، ورحمة تارة، وعذابًا تارة، فتارة يحيي بها الزرع والثمار، وتارة يغطيها بها، وتارة ينجي بها السفن، وتارة يهلكها بها، وتارة ترطب الأبدان، وتارة تذيبها، وتارة عقيما، وتارة لاقحة، وتارة جنوبًا، وتارة دبوراً، وتارة صبًا، وتارة شمالا، وتارة حارة، وتارة باردة، وهي مع غاية قوتها ألطف شيء، وأقبل المخلوقات لكل كيفية، سريعة التأثر والتأثير لطيفة المسارق بين السماء والأرض. إذا قطع عن الحيوان الذي على وجه الأرض هلك، كبحر الماء الذي إذا فارقه حيوان الماء هلك، يحبسها الله سبحانه إذا شاء، ويرسلها إذا شاء، تحمل الأصوات إلى الآذان، والرائحة إلى الأنف، والسحاب إلى الأرض الجرز، وهي من روح الله تأتي بالرحمة، ومن عقوبته تأتي بالعذاب، وهي أقوى خلق الله... إلى أن قال: «والمقصود أن الرياح من أعظم آيات الرب الدالة على عظمته وربوبيته وقدرته...».

قال: «ثم أقسم بالسحاب، وهو من أعظم آيات الله في الجو في غاية الخفة ثم يحمل الماء والبرد، فيصير أثقل شيء، فيأمر الرياح فتحمله على متونها، وتسير به حيث أمرت، فهو مسخر بين السماء والأرض حامل لأرزاق العباد والحيوان فإذا أفرغه حيث أمر به اضمحل وتلاشى بقدرة الله، فإنه لو بقي لأضر النبات والحيوان فأنشأه سبحانه في زمن يصلح إنشاؤه فيه، وحمله من الماء ما يحمله، وساقه إلى بلد شديد الحاجة إليه...

إلى أن قال: فسل السحاب من أنشأه بعد عدمه، وحمله الماء والثلج والبرد؟ ومن حمله على ظهور الرياح؟ ومن أمسكه بين السماء والأرض بغير عماد، ومن أغاث بقطره العباد، و أحيا به البلاد، وصرفه بين خلقه كما أراد.

وسل الرياح من أنشأها بقدرته؟ وصرفها بحكمته، وسخرها بمشيئته، وأرسلها

بُشرًا بين يدي رحمته...

وسل الجاريات يسرًا من السفن من أمسكها على وجه الماء، وسخر لها البحر؟ ومن أرسل لها الرياح التي تسوقها على الماء سوق السحاب على متون الرياح؟ ومن حفظها في مجراها ومرساها من طغيان الماء وطغيان الريح؟ قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا۟ وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٢-٣٤].

وسل الجاريات يسرًا من الكواكب والشمس والقمر من الذي خلقها وأحسن خلقها، ورفع مكانها وزين بها قبة العالم...

إلى أن قال: وأنت إذا تأملت أحوال هذه الكواكب وجدتها تدل على المعاد كما تدل على المبدأ، وتدل على وجود الخالق، وصفات كماله، وربوبيته وحكمته، ووحدانيته أعظم دلالة، وكل ما دل على صفات جلاله ونعوت كماله دل على صدق رسله، فكما جعل الله النجوم هداية في طريق البر والبحر فهي هداية في طريق العلم بالخالق سبحانه وقدرته وعلمه، وحكمته، والمبدأ والمعاد والنبوة ودلالتها على هذه المطالب لا تقصر عن دلالتها على طرق البر والبحر، بل دلالتها للعقول على ذلك أظهر من دلالتها على الطرق الحسية فهي هداية في هذا وهذا».

ثم قال: «وأما دلالة (المقسمات أمرا) وهم الملائكة فلأن ما يشاهد من تدبير العالم العلوي والسفلي وما لا يشاهد إنما هو على أيدي الملائكة فالرب تعالى يدبر بهم أمر العالم وقد وكل بكل عمل من الأعمال طائفة منهم فوكل بالشمس والقمر والنجوم والأفلاك طائفة منهم، ووكل بالقطر والسحاب طائفة، ووكل بالنبات طائفة، وبحفظ بني آدم طائفة، ووكل بالأجنة والحيوان طائفة، ووكل بالموت طائفة، وبإحصاء أعمالهم وكتابتها طائفة، وبالوحي طائفة، وبالجبال طائفة، وبكل شأن من شؤون العالم طائفة، هذا مع ما في خلق الملائكة من البهاء والحسن، وما فيهم من القوة والشدة ولطافة الجسم، وحسن الخلقة، وكمال الانقياد لأمره، والقيام بخدمته، وتنفيذ أوامره في أقطار العالم».

قوله: ﴿إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ ۝ وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾.

جملة جواب القسم، فأقسم عز وجل بالرياح والسحاب والسفن والكواكب والملائكة على أن ما يوعد به الخلق لصادق وأن الدين لواقع.

(إنما) «إن» حرف توكيد ونصب و«ما» موصولة أو مصدرية، والتقدير: إن الذي توعدونه أو إن وعدكم لصادق. واللام في قوله (لصادق) وفي قوله (لواقع) للتوكيد.

والمعنى: إنما توعدون من أمر القيامة والبعث والثواب والعقاب لوعد صادق، كما قال عز وجل ﴿۞ وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [يونس: ٥٣].

و «الدين» هو الجزاء على الأعمال فيجازى كلا بما عمل إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فوعده عز وجل صدق ومجازاته العباد واقعة لا محالة.

الفوائد والعبر:

١ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ على أن البعث والمعاد حق وصدق، وأن الحساب والجزاء واقع لا محالة ـ تأكيداً لذلك وتعظيماً له.

٢ـ في إقسام الله ـ عز وجل ـ بهذه المخلوقات العظيمة تنبيه على كمال قدرته، وعظيم نعمه. فأقسم عز وجل بالرياح والسحاب، والسفن أو النجوم، والملائكة لما في خلقها من العظمة ولما لها من الفوائد والمنافع التي لا تحصى.

٣ـ أن لله ـ عز وجل ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته لما في ذلك من الدلالة على عظمته ـ عز وجل.

٤ـ إثبات وجود الملائكة وأنهم مكلفون بأعمال مختلفة.

﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ ﴿٧﴾ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴿٨﴾ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ ﴿٩﴾ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ ﴿١١﴾ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ ﴿١٢﴾ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم عز وجل بالآيات السابقة على أن ما وعد الله به حق وصدق، وأن الجزاء على الأعمال كائن وواقع لا محالة، ثم أقسم في هذه الآيات بالسماء على اختلافهم في ذلك.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ﴾ الواو: حرف قسم وجر، و«السماء» مقسم به مجرور، والمراد أجرام السموات السبع التي هي من أعظم المخلوقات. وإقسامه عز وجل بها وبغيرها من المخلوقات ليدل على عظمته هو فهو الخالق العظيم لذلك كله.

﴿ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ ذات بمعنى: صاحبة، ومعنى الحبك في الأصل: إجادة عمل الشيء وإتقان صنعه، يقال: ثوب محبوك إذا أجيد نسجه، وحبل محبوك: إذا كان شديد الفتل.

والمعنى: والسماء ذات الصنع المستوي الحسن البديع، والخلق القوي الشديد، والبنيان المتقن الرفيع، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ﴾ [الملك: ٣-٥].

قال ابن عباس رضي الله عنهما وغيره: «ذات البهاء والجمال والحسن والاستواء»[(١)].

وقال ابن كثير[(٢)] رحمه الله بعد أن ذكر عدة أقوال عن السلف في معنى الحبك: «وكل هذه الأقوال ترجع إلى شيء واحد، هو الحسن والبهاء، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما-فإنها من حسنها مرتفعة شفافة صفيقة شديدة البناء متسعة الأرجاء أنيقة البهاء مكللة

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٤٨٨ ـ ٤٨٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٢.

بالنجوم الثوابت والسيارات، موشحة بالشمس والقمر والكواكب الزاهرات، كما قال تعالى: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]».

﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ هذا هو المقسم عليه والخطاب للمشركين من أهل مكة واللام في قوله: ﴿لَفِى﴾ للتوكيد.

والمراد بالقول المختلف: أقوالهم في القرآن الكريم، وفي النبي ﷺ، وفي البعث، المختلفة المتضاربة، والتي مبناها على التخمين والتخرص والحيرة بسبب تكذيبهم بالحق، فإنهم لما كذبوا بالحق التبس الأمر عليهم، فاختلفت أقوالهم ومذاهبهم وطرائقهم وآراؤهم فلم يستقر لهم رأي، ولم يثبتوا على حال، كما قال عز وجل: ﴿بَلْ كَذَّبُواْ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [ق:٥]، وقال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝ ٱلَّذِى هُمْ فِيهِ مُخْتَلِفُونَ﴾ [النبأ: ١-٣]. فقالوا عن القرآن سحر، ومن قول البشر وأساطير الأولين ونحو ذلك، وقالوا عن الرسول ﷺ ساحر أو شاعر أو كاهن أو مجنون، وأنكروا البعث فهم فيه بين مكذب ومشكك.

قال ابن القيم[1]: «وفي ضمن هذا الجواب أنكم في أقوال باطلة متناقضة يكذب بعضها بعضا بسبب تكذيبهم بالحق»

﴿يُؤْفَكُ عَنْهُ﴾ **يؤفك**: بمعنى يصرف (عنه) أي: عن الإيمان بالحق الذي جاء من عند الله تعالى: القرآن الكريم، والرسول، والبعث والجزاء على الأعمال وغير ذلك.

﴿مَنْ أُفِكَ﴾ من صرف ممن سبق في علم الله أنه من أهل الضلال، كما قال تعالى: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾:[الأعراف: ١٤٦].

ويحتمل أن تكون «عن» هنا فيها معنى السببية وضمير الهاء عائد إلى القول المختلف فيكون المعنى: يصرف بسببه أي بسبب هذا الاختلاف في القول من صرف وقضي عليه بالخذلان.

وهذا وذاك مما يوجب على العبد الإقبال على الله، وطلب مرضاته والتقرب إليه

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٠، ٢٣٣.

بطاعته فهذا هو السبب الوحيد للتوفيق، وليحذر الإنسان كل الحذر من المعاصي التي تبعده عن الله، وتكون سببًا لصرفه عن الحق والقضاء عليه بالخذلان قال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف:٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى﴾ [الليل : ٥-١٠].

وقال ﷺ: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، فأهل السعادة سوف ييسرون لعمل أهل السعادة، وأهل الشقاوة سوف ييسرون لعمل أهل الشقاوة ثم قرأ قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى﴾ [الليل:٥]»(١).

﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ﴾ قتل: أي: لعن وأهلك، كما قال تعالى: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ﴾ [عبس:١٧] أي: لعن وأهلك.

و ﴿الْخَرَّاصُونَ﴾ الكذّابون المرتابون المخمّنون الذين اختلفت أقوالهم فيما جاءهم من الحق من عند الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ﴾ الغمرة: الغفلة والجهالة، أي الذين هم في غفلة وجهالة قد غمرت قلوبهم فغطتها وغشيتها كغمرة الماء وغمرة الموت قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا﴾ [المؤمنون:٦٣] أي: في غفلة وجهالة وشك وشرك.

﴿سَاهُونَ﴾ أي: غافلون، والسهو هو الغفلة عن الشيء وذهاب القلب عنه.

﴿يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ أي: يسألون استبعادًا للوقوع وجحدًا وشكًا وعنادًا وتكذيبًا. كما حكى الله عنهم قولهم: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ [ق: ٣]، وقال تعالى: ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا﴾ [الشورى: ١٨].

«أيانَ» أي: متى «يَوْمُ الدِّينِ». و «الدين»: هو الجزاء على الأعمال.

---

(١) أخرجه البخاري في «التفسير» ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٢١٣٦، وابن ماجه في المقدمة ٧٨- من حديث علي رضي الله عنه.

أي: متى يوم الدين الذي نجازى فيه بأعمالنا، يقولون هذا استبعادًا وتكذيبًا كما قال تعالى ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ﴾ [الانفطار: ٩].

وسُمي يوم القيامة بيوم الدين؛ لأن المرء فيه يدان ويجازى بما عمل من خير وشر كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

ثم أخبر تعالى أن ذلك ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ﴾.

أي: يوم هم على النار يوقفون ويعرضون، وفيها يعذبون ويحرقون، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠] أي: أحرقوهم بالنار.

﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ أي: يقال لهم هذا إهانة وتوبيخًا لهم وتقريعًا، والذوق هو أحد الحواس الخمس، والمعنى: تجرعوا وكابدوا وأحسوا بالعذاب في النار واحتراقكم فيها كما قال تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْكَرِيمُ﴾ [الدخان:٤٩].

قال ابن القيم[1]: «وحقيقة الأمر أن الفتنة تطلق على العذاب وسببه، ولهذا سمى الله الكفر فتنة، فهم لما أتوا بالفتنة التي هي أسباب العذاب في الدنيا سمى جزاءهم فتنة؛ ولهذا قال: ﴿ذُوقُوا۟ فِتْنَتَكُمْ﴾ وكان وقوفهم على النار وعرضهم عليها من أعظم فتنتهم، وآخر هذه الفتنة دخول النار والتعذيب بها ففتنوا أولا بأسباب الدنيا وزينتها، ثم فتنوا بإرسال الرسل إليهم، ثم فتنوا بمخالفتهم وتكذيبهم ثم فتنوا بعذاب الدنيا، ثم فتنوا بعذاب الموت، ثم يفتنون في موقف القيامة، ثم إذا حشروا إلى النار ووقفوا عليها وعرضوا عليها وذلك من أعظم فتنتهم، ثم الفتنة الكبرى التي أنستهم جميع الفتن قبلها».

وقريب من هذا -والله أعلم- قوله تعالى :﴿وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى:٤٠] فأطلق على المجازاة على السيئة سيئة من باب المشاكلة، وأن الأولى سبب الثانية.

﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ﴾ هذا إشارة إلى تعذيبهم في النار، أي هذا الجزاء

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢١.

والتعذيب في النار الذي كنتم تستعجلونه بقولكم وسؤالكم ﴿أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ﴾ وهذا على سبيل التقريع والتوبيخ والتحقير والتصغير لهم.

وهذا من العذاب المعنوي الذي لا يقل عن العذاب الحسي. نسأل الله السلامة والعافية.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالسماء العظيمة الخلق الرفيعة البناء، المتقنة الصنع للدلالة على عظمته وكمال قدرته.

٢ ـ اختلاف المشركين في صدق رسالته ﷺ وما جاء به من الوحي والإخبار بالبعث على أقوال كلها باطلة متناقصة.

٣ ـ لا يصرف عن الحق إلا من قضي عليه بالخذلان، فلا سبيل إلى هدايته.

٤ ـ أن الاختلاف ورد الحق سبب للخذلان.

٥ ـ لعن الله ـ عز وجل وإهلاكه لأهل التخرص والغفلة والجهل المنكرين للبعث والمعاد والجزاء على الأعمال، وطردهم من رحمته.

٦ ـ الوعيد للمكذبين بالبعث والجزاء بالعذاب الحسي بالنار والعذاب المعنوي للقلوب بالتوبيخ والتقريع.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾ وَفِى ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر ـ عز وجل ـ ما أعده من العذاب في النار للمكذبين، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده للمتقين على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب؛ ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله في هذه الحياة بين الخوف والرجاء كما قال عز وجل: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تعالى ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ «إن» حرف توكيد ونصب، والمتقين الذين اتقوا الله ، واتقوا عقابه بفعل ما أمرهم الله به واجتناب ما نهاهم عنه. فهذه حقيقة تقوى الله.

والتقوى في الأصل: مأخوذة من الوقاية، وهي أن يجعل الإنسان بينه وبين الشيء المخوف وقاية، فيتقي البرد بالملابس ويتقي الحر بالبعد عن الشمس، ويتقي الشوك بلبس النعلين ونحو ذلك، ويتقي عذاب الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

قال ابن المعتز[1]:

خل الذنوب صغيرها	وكبيرها ذاك التقى
واعمل كماش فوق أر	ض الشوك يحذر ما يرى
لا تحقرن صغيرة	إن الجبال من الحصى

وأصلها «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية فقيل: «تقوى».

﴿فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ﴾ الجنات: جمع جَنَّة وهي المنازل التي أعدها الله لأوليائه

---

(١) انظر: «ديوانه» ٢/ ٣٧٦- تحقيق محمد بديع شريف.

المتقين وحزبه المفلحين، فيها من الكرامة وأنواع النعيم ما لا يقدر قدره إلا الكريم العظيم. كما قال عز وجل: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧].

وأصل الجنة: البستان، سُمي جنة؛ لأنه يجنّ ويستر من بداخله بأشجاره وثماره الكثيرة الملتفة. والجيم والنون بمعنى الستر، ومنه سُمي الجن «جنًا»؛ لأنهم مستترون، وسُمي القلب (جنانا)؛ لأنه مستتر، وهكذا.

والعيون: جمع عين، وهي ينبوع الماء الذي ينبع من الأرض ويجري.

والمراد بالعيون في قوله (وعيون) عيون الجنة التي تنبع من أرضها وتجرى في وسطها، ومنها التسنيم والسلسبيل كما قال عز وجل: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ۝١٧ عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٧-١٨]، وقال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦].

فالمتقون في جنات يسكنونها ويتمتعون بما فيها من المآكل والمشارب والمناكح وغير ذلك من ألوان النعيم، وفي عيون يشربون منها ويتمتعون برؤيتها.

﴿ءَاخِذِينَ مَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ آخذين: حال من «المتقين» أي: حال كونهم آخذين ما آتاهم ربهم. كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ [الطور: ١٨].

والأخذ: هو تناول الشيء باليد وغيرها.

و«ما» موصولة تفيد العموم بمعنى «الذي»، أي: آخذين الذي أعطاهم ربهم من ألوان النعيم وأنواع الكرامة، والخير والثواب، والأجر العظيم، والسرور والغبطة.

قال ابن القيم[١]: «وفي ذلك دليل على أمور، منها: قبولهم له، ومنها: رضاهم به، ومنها: وصولهم إليه بلا مانع و عائق، ومنها: أن جزاءهم من جنس أعمالهم. فكما أخذوا ما أمرهم به في الدنيا وقابلوه بالرضا والتسليم وانشراح الصدر، أخذوا ما آتاهم من الجزاء كذلك».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٢.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُحْسِنِينَ﴾ الإشارة في قوله ﴿قَبْلَ ذَٰلِكَ﴾ إلى ما قبل مجازاتهم أي: إلى حالهم في الدنيا وأنهم كانوا في حياتهم الدنيا محسنين، أي بسبب إحسانهم في الدنيا كما قال تعالى: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

أي: إنهم كانوا في الدنيا محسنين في عبادة الله تعالى، ومحسنين إلى عباد الله، فالإحسان في عبادة الله تعالى بالإخلاص لله عز وجل والمتابعة للرسول ﷺ كما قال عز وجل ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥]، وقال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:١١٢].

وقال ﷺ وقد سئل عن الإحسان: «**الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١].

والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم الواجبة والمستحبة من الوالدين والأولاد والأزواج والأقارب وسائر الناس، وذلك بنوعي الإحسان: القولي والفعلي، من حسن الخلق وطلاقة الوجه وكف الأذى وبذل الندى وغير ذلك قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[٢].

وقال الشاعر:

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم   فطالما استعبد الإنسان إحسان
وإن أساء مسيء فليكن لك في   عروض زلته صفح وغفران[٣]

---

(١) كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه في قصة مجيء جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ وسؤاله عن الإسلام والإيمان والإحسان والساعة وأماراتها ـ أخرجه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ وكما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عند البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان٩، والنسائي في الإيمان ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤.

(٢) أخرجه مسلم في الإمارة ـ وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول ١٨٤٤، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦ ـ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما.

(٣) البيتان لأبي الفتح البستي.

وما أسعد من وفقه الله ـ عز وجل ـ إلى الجمع بين الإحسانين: الإحسان في عبادة الله، والإحسان إلى عباد الله قولا وفعلا.

والقرآن الكريم كله، بل التشريع كله في الكتاب والسنة دائر بين الأمر بالإحسانين والنهي عن ضدهما، وبيان حال المحسنين ومآلهم، وحال المسيئين ومآلهم، ولا يطلب من العبد في هذه الحياة إلا أن يكون محسنًا؛ محسنًا في عبادة الله ومحسنًا إلى عباد الله فكن أخي الكريم جامعًا بين الإحسانين وكن في هذه الحياة دائرًا بينهما وأحسن ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾.

﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿١٨﴾ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ هذا تفصيل لما وصفهم الله به من الإحسان في الآية السابقة.

قوله: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ «قليلا» ظرف منصوب بيهجعون، أوصفة للمصدر أي: كانوا يهجعون هجوعًا قليلا، و«ما» صلة للتأكيد، والمعنى: كانوا يهجعون قليلا من الليل أو يهجعون في طائفة قليلة من الليل.

ويجوز كون «ما» مصدرية، والمعنى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم.

ويجوز أن تكون «ما» موصولة والمعنى: كانوا قليلا ما يهجعونه، أي الذي يهجعونه.

وقيل «ما» نافيه، والتقدير: كانوا قليلا من الليل ما يهجعونه، بمعنى أن لهم وقتًا قليلا من الليل يقومونه ولا ينامونه أي: أنهم يقومون من الليل شيئًا يسيرًا فقيل: يصلون بين المغرب والعشاء، وقيل: لا ينامون حتى يصلوا العتمة.

وحمل الآية على هذا فيه نظر؛ لأن القيام التام المحمود الذي يستحق أهله الثناء عليهم هو ما كان مثل قيامه ﷺ ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه ـ كما سيأتي بيانه .

وقيل المعنى: أنهم ما يهجعون قليلاً من الليل، فكيف بالكثير منه، بمعنى أنهم يقومون الليل كله. وهذا ضعيف؛ لأن الله عز وجل لم يأمر بقيام الليل كله، وإنما أمر رسوله ﷺ بقيام نصف الليل، أو النقص منه، أو الزيادة عليه قال تعالى:﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ﴿١﴾ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢﴾ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ﴿٣﴾ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا﴾ [المزمل: ١-٤]، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء:٧٩]

«ومن» للتبعيض، ولم يقل: فتهجد الليل كله، بل لا يشرع قيام الليل كله ولهذا لما بلغ النبي ﷺ، أن عبد الله بن عمرو كان يقوم الليل كله قال له ﷺ: **«إن لنفسك عليك حقًا، ولزوجك عليك حقًا»**[1].

وأنكر ﷺ على عثمان بن مظعون وأصحابه الذين قالوا: نقوم ولا ننام[2].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل، ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يومًا، ويفطر يومًا»**[3].

وهذا كله يدل على ضعف قول من حمل معنى الآية ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ على قيام الليل كله وقد رد ابن القيم هذا من عدة أوجه[4].

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم رضي الله عنه قال: قال رجل من بني تميم لأبي: يا أبا أسامة صفة لا أجدها فينا، ذكر الله قومًا، فقال: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ونحن والله قليلا من الليل ما نقوم، فقال له أبي: «طوبى لمن رقد إذا نعس، واتقى الله إذا استيقظ»[5].

وفي الآية دلالة على فضل قيام الليل وأنه من أعظم الإحسان؛ لأن الله وصف المتقين بأنهم محسنون، ثم ذكر من أول صفاتهم قيام الليل فدل على أنه من أفضل وأعظم الإحسان، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان، نسأل الله التوفيق.

وقد قام ﷺ حتى تفطرت قدماه[6]، وكان لا يزيد في رمضان، ولا في غيره على

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٧٤، ومسلم في الصيام ١١٥٩، والنسائي في الصيام ٢٣٩١.
(٢) سيأتي تخريجه قريبًا.
(٣) أخرجه البخاري في الصوم ـ حق الأهل في الصوم ١٩٧٧، ومسلم في الصيام ـ النهي عن صيام الدهر ١١٥٩ وأبو داود في الصوم ٢٤٤٨، والنسائي في قيام الليل ١٦٣٠، والترمذي في الصوم ٧٧٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٧١٢
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٢-٢٢٤.
(٥) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٦/ ١٢٣.
(٦) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨٣٦ من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه، ومن حديث عائشة رضي الله عنها ٤٨٣٧.

إحدى عشرة ركعة[١]، وكان لا يترك قيام الليل لا حضرًا ولا سفرًا، وإذا غلبه نوم أو وجع صلى من النهار اثنتي عشرة ركعة[٢].

وقال ﷺ لابن عمر: «نعم الرجل عبد الله لو كان يقوم من الليل» فكان ابن عمر بعد هذا ما ينام من الليل إلا قليلًا[٣].

وقال ﷺ لعبد الله بن عمرو: **«يا عبد الله لا تكن مثل فلان كان يقوم من الليل فترك قيام الليل»**[٤].

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«أيها الناس أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا الأرحام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»**[٥].

وجاء في الأثر أن أهل قيام الليل يسبقون الناس إلى الجنة على أجاود خيل.

قال بعض السلف: «كابدنا قيام الليل عشرين سنة، وتلذذنا به عشرين سنة».

وقد أحسن القائل:

ولم أجد الإنسان إلا ابن سعيه ... فمن كان أسعى كان بالمجد أجدرا

فلم يتأخر من أراد تقدمًا ... ولم يتقدم من أراد تأخرا[٦]

وقال الآخر:

سوف ترى إذا انجلى الغبار ... أفرس تحتك أم حمار

فاحرص أخي بارك الله فيك أن يكون لك حظ مع هؤلاء المتقين المحسنين من قيام الليل ما أمكنك ولو بالتشبه بهم كما قيل:

فتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم ... إن التشبه بالكرام فلاح

---

(١) أخرجه البخاري في صلاة التراويح ٢٠١٣، وأبو داود في الصلاة ١٣٤١، والنسائي في قيام الليل ١٦٩٧، والترمذي في الصلاة ٤٩٣ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) انظر: «زاد المعاد» ١/ ٣٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في التعبير ٦٥١٠، ومسلم في فضائل الصحابة ٤٥٢٧، وابن ماجه في تعبير الرؤيا ٣٩٠٩ ـ من حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٢، ومسلم في الصيام ١١٥٩ ـ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أحمد ٥/ ٤٥١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٨٥، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٣٤.

(٦) البيتان لابن هاني انظر (ديوانه) ص ١٤٠.

قال عز وجل في الحديث القدسي : «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»[١].

وعلى الأقل فلا تغلب على الوتر بثلاث ركعات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أوصاني خليلي ﷺ بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام»[٢].

وفي الآية رد على الذين يتبتلون فيقومون ولا ينامون قال ﷺ لما بلغه عن عثمان ابن مظعون أنه لا ينام من الليل بعث إليه فجاء، فقال: «يا عثمان أرغبت عن سنتي؟» قال: لا والله يا رسول الله، ولكن سنتك أطلب، قال: «فإني أنام وأصلي، وأصوم وأفطر، وأنكح النساء، فاتق الله يا عثمان، فإن لأهلك عليك حقًا، وإن لضيفك عليك حقًا، وإن لنفسك عليك حقًا، فصم وأفطر، وصل ونم»[٣].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: دخل رسول الله ﷺ فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل»؟ قالوا: هذا حبل لزينب، فإذا فترت تعلقت به. فقال النبي ﷺ: «لا حلّوه، ليصل أحدكم نشاطه فإذا فتر، فليرقد»[٤].

قوله: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران:١٧] والأسحار: جمع سحر، وهو آخر الليل، ما قبل طلوع الفجر، وهو وقت إجابة الدعاء كما ورد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٨١، ومسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٢١، وأبو داود في الصلاة ١٤٣٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٧٧ والترمذي في الصوم ٧٦٠.

(٣) أخرجه أحمد ٦/ ٢٦٨ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٠، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٨٤، وأبو داود في الصلاة ١٣١٢، والنسائي في قيام الليل ١٦٤٣، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٧١.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٤٥ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الدعوات ٣٤٩٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦، وأخرجه أحمد ١/ ٣٨٨ بنحوه من حديث ابن مسعود

وعن جابر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «**إن في الليل ساعة لا يوافقها رجل مسلم يسأل الله خيرًا من أمر الدنيا والآخرة إلا أعطاه إياه، وذلك كل ليلة**»[(١)]

وهكذا قال أكثر المفسرين في قول يعقوب عليه السلام ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّيٓ﴾ [يوسف:٩٨] أنه أخّرهم إلى وقت السحر لأنه وقت إجابة الدعاء.

قال الناظم[(٢)]:

فسوّفهم فيها وأوعدهم بها   لوقت إجابات الدعا ساعة السحر

(يستغفرون) أي: يطلبون من الله عز وجل المغفرة لذنوبهم.

والمغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة[(٣)].

والمعنى: أنهم يختمون صلاتهم بالليل بالاستغفار بالأسحار والتوبة فباتوا لربهم سجدًا وقيامًا، ثم تابوا إليه واستغفروه عقيب ذلك، فانتقلوا من عبادة إلى عبادة، ومن ذل وخضوع لله عز وجل إلى ذل وخضوع واعتراف بالتقصير وخوف من الذنوب وذلك بالاستغفار والتوبة ولم يُدِلُّوا على الله بعبادتهم، فجمعوا بين الإحسان والخوف، بخلاف من جمع بين الإساءة والأمن من مكر الله ـ والعياذ بالله ـ كما هو حال كثير من الناس ـ والله المستعان.

والاستغفار من أفضل الأعمال وبه تحط الذنوب والأوزار، وهو لا يحتاج إلى كلفة وتعب مع أنه عظيم المقدار وهو ختام الأعمال والأعمار.

فعن ثوبان رضي الله عنه قال: «**كان رسول الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثًا وقال: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**»[(٤)].

وأمر الله رسوله ﷺ أن يختم عمره بالاستغفار في قوله ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ

=

رضي الله عنه.

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٥٧.

(٢) يحيى الصرصري في قصيدته المسماة «القصيدة الصرصرية» ص٤٥.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ٥٩١، وأبو داود في الصلاة ١٥١٢، والترمذي في الصلاة ٣٠٠، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٩٢٨.

﴿ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا﴾ [النصر: ١ - ٣]. وفي هذا أمر لكل مسلم أن يختم عمره بالاستغفار.

كما أمر الله - عز وجل - المؤمنين أن يختموا إفاضتهم من عرفات بالاستغفار في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا۟ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [البقرة:١٩٩].

وشرع للمتوضئ أن يختم وضوءه بالتوبة لما رواه عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**من توضأ فأحسن الوضوء، ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين فتحت له أبواب الجنة الثمانية يدخل من أيها شاء**»[1].

قال ابن القيم[2]: «**فأحسن ما ختمت به الأعمال التوبة والاستغفار**».

﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ بعدما وصف الله عز وجل المتقين المحسنين بالصلاة والاستغفار وهذا إحسان فيما بينهم وبين الله - عز وجل - ثنى بوصفهم بالزكاة والصدقة والبر والصلة، وفي هذا إحسان إلى عباد الله، فقال:﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ أي: نصيب واجب مقدر مقسوم قد أفرزوه للسائل والمحروم. والسائل: هو الذي يبتدئ بالسؤال وله حق، كما جاء في الحديث: «**للسائل حق وإن جاء على فرس**»[3].

والمحروم: المتعفف الذي لا يسأل الناس كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**ليس المسكين الذي ترده التمرة والتمرتان، ولا اللقمة ولا اللقمتان، إنما المسكين الذي لا يسأل الناس، ولا يُفطن له فيُتصدق عليه**».

وفي بعض الروايات: «إنما المسكين الذي يتعفف، واقرؤوا إن شئتم يعني قوله: ﴿لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا﴾»[4].

---

(١) أخرجه النسائي في الطهارة ١٤٨، والترمذي في الطهارة ٥٥، وابن ماجه في الطهارة ٤٧٠.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٥.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٢٠١ وأبو داود في الزكاة - باب حق السائل ١٦٦٥، من حديث علي وابنه الحسين رضي الله عنهما.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٣٩، ومسلم في الزكاة - باب المسكين الذي لا يجد غنى ولا يفطن له فيتصدق عليه ١٠٣٩، وأبو داود في الزكاة ١٦٣١، والنسائي في الزكاة ٢٥٧١.

فالمحروم الذي لا يسأل الناس وليس له سهم في بيت المال ولم تتيسر له أسباب الكسب وهو المحارف الذي قُتِّر عليه رزقه، وتعسرت في وجهه سبل الرزق.

وسمي بـ«المحروم»؛ لأنه حرم الرزق كونًا وقدرًا كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ﴾ [الفجر:١٦]، أي: ضيق عليه رزقه.

قال ابن القيم[1]: «ثم أخبر سبحانه عن إحسانهم إلى الخلق مع إخلاصهم لربهم فجمع لهم بين الإخلاص والإحسان ضد ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٥، ٦] وأكد إخلاصهم في هذا الإحسان بأن مصرفه للسائل الذي لا يقصد بإعطائه الجزاء منه ولا الشكور، والمحروم المتعفف الذي لا يسأل. وتأمل حكمة الرب تعالى في كونه حرمه بقضائه، وشرع لأصحاب الجِدَة إعطاءه، وهو أغنى الأغنياء، وأجود الأجودين، فلم يجمع له بين الحرمان بالقدر وبالشرع، شرع إعطاءه بأمره وحرمه بقدره، فلم يجمع عليه حرمانين»[2].

وفي قوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ﴾ إضافة إلى كونه ثناءً على المحسنين ببذل الزكاة والصدقة والنفقات ترغيب وحث على هذا العمل لما فيه من الإحسان إلى عباد الله، وأن هذا العمل من صفات المحسنين الذين جمعوا بين الإحسانين الإحسان في عبادة الله والإحسان إلى عباد الله.

وفي قوله: ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ﴾ ما يدل على مشروعية الإنفاق من جميع ما يتموله الإنسان من أي أصناف المال كان لكن الزكاة إنما تجب في الأموال الزكوية، كما دلت على ذلك السنة، وهي: النقدان وعروض التجارة، والسائمة من بهيمة الأنعام، والخارج من الأرض من الحبوب ونحوها.

وفي قوله «حق» دليل على وجوب الزكاة. وتحديد أنصبتها ومقدارها كما دلت على ذلك السنة. وفي مقابلة السائل بالمحروم ما يدل على جواز السؤال عند الحاجة.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٢٥.

(٢) كما يقال للبخيل «محروم» لأنه حُرِم قدرًا وكونًا بحرمانه لنفسه بخلا، وما أمر شرعًا بذلك بل نهي شرعًا عن البخل.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾.

في هتين الآيتين الكريمتين تذكير الخلق بآيات الله الكونية في الأرض وفي الأنفس الدالة على كماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة دون من سواه، وأن ما جاء به الرسول ﷺ والمرسلون قبله من الوحي والوعد والوعيد وتقرير المعاد كل ذلك حق من عند الله عز وجل.

وآيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين آيات شرعية، وهو ما أنزله من الوحي على أنبيائه ورسله، وآيات كونية في الكون والأنفس وسائر المخلوقات، والمراد بالآيات هنا الآيات الكونية أي: تأملوا وتفكروا وانظروا واعتبروا بهذه الآيات العظيمة في الأرض وفي الأنفس الدالة على وجود الخالق وعظمته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته وربوبيته وألوهيته كما قال عز وجل ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٨٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓاْ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٦-٨].

قال الشاعر:

فوا عجبًا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

والموقنون: هم أهل الإيمان واليقين، واليقين أعلى درجات الإيمان، وهو التصديق الجازم.

وهي آيات لجميع الخلق فيها إقامة الحجة عليهم ـ مع إرسال الرسل وإنزال الكتب. وإنما خص الموقنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يتفكرون ويتأملون في آيات الله ويتعظون ويعتبرون كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الجاثية:٣] بخلاف من لا يقين عنده ولا إيمان فلا ينتفع بالآيات كما قال عز وجل ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِي ٱلْأَيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥].

وآيات الله في الأرض أنواع كثيرة لا تحصى منها: خلقها وما فيه من العظمة كما قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران:١٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [الشورى: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [العنكبوت:٤٤].

ومنها تعددها كما قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

ومنها تثبيتها بالجبال لئلا تميد بأهلها، كما قال عز وجل: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل:١٥]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِهِمْ﴾ [الأنبياء: ٣١].

ومنها: سعتها كما قال عز وجل ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ﴾ [الزمر:١٠]، وقال تعالى ﴿إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت:٥٦]، وقال تعالى:﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ [الحجر:١٩، ق: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد: ٣].

ومنها كونها مسطحة مع أنها في الحقيقة كروية الشكل قال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [الغاشية:٢٠].

ومنها كونها مهادًا وفراشًا وبساطًا وقرارًا كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه:٥٣]، [الزخرف:١٠]، وقال تعالى ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ مِهَٰدًا﴾ [النبأ:٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ فَرَشْنَٰهَا فَنِعْمَ ٱلْمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات:٤٨]، وقال تعالى ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُواْ مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ [الشمس:٦]، وقال تعالى: ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [النمل:٦١]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا﴾ [غافر:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [الرحمن:١٠]،

وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة:٣٦]، [الأعراف:٢٤].

ومنها كونها ذلولاً كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك: ١٥].

ومنها إنشاء الخلق وإنباتهم منها وإعادتهم فيها وإخراجهم منها كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود:٦١]، وقال تعالى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [طه:٥٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ﴿١٧﴾ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [نوح: ١٧، ١٨] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ ٱلْأَرْضَ كِفَاتًا ﴿٢٥﴾ أَحْيَآءً وَأَمْوَٰتًا﴾ [المرسلات: ٢٥، ٢٦].

ومنها ما أودعه الله ودحاه فيها كما قال عز وجل: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ﴿٣١﴾ وَٱلْجِبَالَ أَرْسَىٰهَا﴾ [النازعات:٣٠-٣٢].

ومنها: إسكان الماء فيها لمصالح الإنسان والحيوان والنبات كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءًۢ بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّٰهُ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍۭ بِهِۦ لَقَٰدِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١٨].

ومنها: إحياؤها بعد موتها وما أخرجه الله منها من النبات والجنات والماء والمرعى، كما قال عز وجل: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّٰتٍ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَٰبٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ ٱلْعُيُونِ ﴿٣٤﴾ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ۖ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس:٣٣-٣٥]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ إِلَى ٱلْأَرْضِ كَمْ أَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ [الشعراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ﴾ [ق:٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد:٤]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ﴾ [ق:٩-١١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً

فَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوۡجٖ كَرِيمٍ﴾ [لقمان:١٠].

ومن آياتها أنها تسبح لله عز وجل كما قال سبحانه ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

إلى غير ذلك من آيات الله ـ عز وجل ـ في الأرض والتي لا تحصى كثرة ولا نوعًا، من ذلك ما يحصل لها يوم القيامة من الارتجاج والارتجاف والدك والزلزلة والبروز والتبديل وغير ذلك.

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله أنواعًا كثيرة من آيات الأرض منها: «بروز هذا الجانب فيها عن الماء مع كون مقتضى الطبيعة أن يكون مغمورًا به.

قال:

فيالك من آيات حق لو اهتدى ... بهن مُـريدُ الحق كنَّ هواديـــا

ولكن على تلك القلوب أكنـةٌ ... فليست وإن أصغت تجيب المناديا»

إلى آخر ما قال رحمه الله في كلام طويل يحسن الوقوف عليه[(١)]

قوله تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي: وفي أنفسكم آيات ﴿أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ الاستفهام معناه الأمر، وفيه أيضًا معنى التوبيخ والتقريع، أي: لم لا تبصرون، أي: تبصروا وتفكروا في أنفسكم وما فيها من دقيق الخلقة وبديع الصنع، وعظيم التدبير، وما ركبت منه من الأعضاء والعظام والأعصاب والعروق واللحم والدم والحواس من السمع والبصر والعقول وغير ذلك قال تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ﴾ [الملك:٢٣]،

وقال تعالى: ﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمۡعَكُمۡ وَأَبۡصَٰرَكُمۡ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنۡ إِلَٰهٌ غَيۡرُ ٱللَّهِ يَأۡتِيكُم بِهِۗ﴾ [الأنعام:٤٦].

وأيضًا تبصروا وتفكروا فيما بين الناس من الاختلاف العظيم في ألسنتهم وألوانهم وطبائعهم وما جبلوا عليه، وما بينهم من التفاوت في العقول والفهوم والحركات، وما في تركيبهم من الحكم في وضع كل عضو في المكان الذي هو محتاج إليه فيه قال قتادة: «من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٠.

تفكر في خلق نفسه عرف أنه إنما خلق ولينت مفاصله للعبادة»[١].

﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ السماء هي: التي في العلو.

والرزق: هو العطاء، والمراد به عطاء الدنيا من المطر الذي هو رحمة من الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ [الروم: ٥٠]، وكذا غيره من أنواع الرزق المقدرة لهم بقدر الله الكوني النازل من السماء من الأموال والأولاد والصحة وغير ذلك؛ كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وقيل: إن الرزق يشمل عطاء الآخرة والذي هو أعظم عطاء، وهو نعيم الجنة التي هي رحمة الله تعالى كما قال عز وجل في الحديث القدسي للجنة «**أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء من عبادي**»[٢].

قال ابن القيم[٣] بعد ما ذكر أن الرزق فسر بالمطر، وفسر بالجنة، وفسر برزق الدنيا والآخرة قال: «ولا ريب أن المطر من الرحمة، وأن الجنة مستقر الرحمة، فرزق الدارين في السماء التي هي في العلو».

﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ «ما» موصولة، أي: والذي توعدون من أمر الساعة والقيامة والجنة وما فيها من الخير والنعيم والثواب، والنار وما فيها من الشر والعذاب والعقاب وغير ذلك.

قال ابن القيم[٤]: «كون الجنة والخير في السماء لا إشكال فيه، وكون النار في السماء وما يوعد به أهلها يحتاج إلى تبيين، فإذا نظرت إلى أسباب الخير والشر، وأسباب دخول الجنة والنار وافتراق الناس، وانقسامهم إلى شقي وسعيد، وجدت ذلك كله بقضاء الله وقدره، النازل من السماء، وذلك كله مثبت في السماء في صحف الملائكة وفي اللوح المحفوظ قبل العمل وبعده، فالأمر كله من السماء».

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣٩٦.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٥٨٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٦ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٤.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٤.

وقال أيضًا[1] بعدما ذكر قول مجاهد في قوله ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ وَمَا تُوعَدُونَ﴾: «الجنة والنار» قال: وهذا يحتاج إلى تفسير فإن النار في أسفل السافلين ليست في السماء، ومعنى هذا ما قاله في رواية ابن أبي نجيح عنه، وقاله أبو صالح عن ابن عباس «الخير والشر كلاهما يأتي من السماء»[2].

﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ الفاء: عاطفة، والواو للقسم والمقسم به رب السماء، فأقسم عز وجل بنفسه. والمراد بالسماء والأرض السموات السبع والأرضون السبع وهكذا إذا ذكرا معًا فالغالب أن يراد بذلك أجرام السموات والأرض قال عز وجل: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق:١٢].

وجواب القسم قوله: ﴿إِنَّهُۥ لَحَقّٞ مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ ومرجع الضمير في قوله: (إِنَّهُ) إلى ما وعدوا به من القيامة والبعث والجزاء على الأعمال.

﴿لَحَقّٞ﴾ أي: إنه كائن لا محالة وحق وصدق لا مرية فيه ولا شك، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدۡقٗا وَعَدۡلٗاۚ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي صدقًا في الأخبار وعدلا في الأحكام.

﴿مِّثۡلَ مَآ أَنَّكُمۡ تَنطِقُونَ﴾ مثل: شبه و(ما) مصدرية، أي: مثل نطقكم، والنطق: الكلام.

أي: لصدق وحق واقع مثل كونكم تنطقون وتتكلمون، فكما لا يخالج الإنسان أدنى شك في نطقه، فكذلك ما أخبر الله عنه من أمر التوحيد والنبوة والمعاد والجزاء على الأعمال حق ثابت وواقع لا شك فيه، كما يقال: هذا حق مثل الشمس.

قال الشاعر:

وليس يصح في الأفهام شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليل

وما أحسن قول المتنبي في مدح الحسين بن إسحاق التنوخي، وكان أحد الوشاة قد هجاه في قصيدة ونسبها للمتنبي؛ فكتب إليه أبو الطيب قصيدة منها قوله:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢١/ ٥٢٢.

وهبني قلت هذا الصبح ليل أيعمى العالمون عن الضياء[١]

قال ابن القيم[٢]:«وههنا أمر ينبغي التفطن له، وهو أن الرب تعالى شهد بصحة ما أخبر به، وهو أصدق الصادقين، وأقسم عليه، وهو أبر المقسمين، وأكده بتشبيهه بالواقع الذي لا يقبل الشك بوجه، وأقام عليه من الأدلة العيانية والبرهانية ما جعله معاينًا مشاهدًا بالبصائر، وإن لم يعاين بالأبصار، ومع ذلك فأكثر النفوس في غفلة عنه لا تستعد له، ولا تأخذ له أهبة، والمستعد له الآخذ له أهبة لا يعطيه حقه منهم إلا الفرد بعد الفرد، فأكثر الخلق لا ينظرون في المراد من إيجادهم وإخراجهم إلى هذه الدار، ولا يتفكرون في قلة مقامهم في دارِ الغرور ولا في رحيلهم وانتقالهم عنها، ولا إلى أين يرحلون؟ وأين يستقرون؟ قد ملكهم الحس، وقل نصيبهم من العقل، وشملتهم الغفلة، وغرتهم الأماني، التي هي كالسراب، وخدعهم طول الأمل..

والعجب كل العجب من غفلة من تعد عليه لحظاته، وتحصى عليه أنفاسه، ومطايا الليل والنهار تسرع به، ولا يتفكر إلى أين يحمل، ولا إلى أي منزل ينقل

وكيف تنام العين وهي قريرة ولم تدر في أي المحلين تنزل؟».

وصدق ابن القيم -رحمه الله- في نظرته لواقع الناس، وهذا مصداق قول الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقوله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ:١٣]، وقوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٞ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص:٢٤].

وأَمَر الله عز وجل آدم لما استخرج ذريته أن يأمر من كل ألف بواحد للجنة والبقية إلى النار[٣]. وفي الحديث «الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة»[٤] وقد قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من

---

(١) انظر «ديوان المتنبي» ص ٩ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٥-٢٣٦.

(٣) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان٢٢٢ ـ من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠ ـ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

الحق لقلة السالكين».

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحـد ... وواحد كالألف إن أمر عنى[(١)]

الفوائد والعبر:

١ ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

٢ ـ عظم ما أعده الله للمتقين في الجنات والعيون من جزيل العطاء والنعيم.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمتقين.

٤ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على المتقين، الذين جمعوا بين تقوى الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، والإحسان في عبادته وإلى عباده.

٥ ـ الترغيب في الإحسان في عبادة الله وإلى عباد الله، وفي قيام الليل والاستغفار بالأسحار، والسنة في ذلك أن ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه.

٦ ـ وجوب إخراج زكاة الأموال وإعطائها لمستحقيها، واستحباب الصدقة والإحسان إلى المحتاجين من سائل ومتعفف.

٧ ـ الإشارة إلى جواز السؤال عند الحاجة.

٨ ـ الحث على التأمل في آيات الله ـ عز وجل ـ في الكون؛ في الأرض، وفي الأنفس.

٩ ـ إنما يتأمل في آيات الله في الأرض وفي غيرها ويتفكر فيها أهل اليقين.

١٠ ـ أن رزق الخلائق كلهم من السماء من عند الله ـ عز وجل ـ بالمطر وغيره.

١١ ـ أن الجنة في السماء، وأن كل ما يوعد به الخلق من خير أو شر بقضاء الله ـ عز وجل ـ النازل من السماء.

١٢ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بنفسه وهو رب السماء والأرض للخلائق على أن البعث والحساب والجزاء على الأعمال حق، وأن ذلك حق كنطقهم.

---

(١) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ ۝٢٤ إِذْ دَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَقَالُوا۟ سَلَٰمًا ۖ قَالَ سَلَٰمٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ۝٢٥ فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝٢٦ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝٢٧ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ۝٢٨ فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ فِى صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ ۝٢٩ قَالُوا۟ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْعَلِيمُ ۝٣٠﴾.

ذكر الله عز وجل قصة ضيف إبراهيم عليه السلام في سورة «هود» و«الحجر» وفي هذه السورة.

قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ «هل» للاستفهام ومعناه التشويق، أو التقرير، أي: ألم يأتك. وقيل: «هل» هنا بمعنى «قد» التي تقتضي التحقيق والتوكيد كما في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان:١]، أي: قد أتى على الإنسان. وإنما صدر الكلام بالاستفهام للعناية والاهتمام والتشويق، والتقرير، وتنبيه المخاطب للتدبر والتفكر فيما سيخاطب به لما له من الأهمية، أو لما فيه من الموعظة أو العجب ونحو ذلك كما قال تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ﴾ [طه:٩] وقوله: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص:٢١]، وقوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ ٱلْغَٰشِيَةِ﴾ [الغاشية:١].

كما أن في تصدير الخطاب له ﷺ بقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ التنبيه على أن إتيان هذا إليه ﷺ علم من أعلام نبوته أي: إن هذا من الغيب الذي لا تعلمه أنت ولا قومك فهل أتاك من غير إعلامنا وإرسالنا وتعريفنا لك؟ أي: إنه لم يأتك إلا من قبلنا، كما قال عز وجل: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ ۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا ۖ﴾ [هود: ٤٩].

﴿حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ أي: خبر وقصة ونبأ ضيوف نبي الله ورسوله إبراهيم عليه السلام من الملائكة وإبراهيم هو خليل الرحمن، وأبو الأنبياء عليهم السلام، فكل من جاء بعده من الأنبياء من ذريته، أولهم بكره إسماعيل بن إبراهيم من سريته هاجر، وهو أبو العرب، ومن ذريته نبينا محمد ﷺ. ومنهم إسحاق بن إبراهيم من زوجته سارة. وهو أبو بني إسرائيل.

﴿ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ أي ذوي الكرامة عند الله عز وجل كما قال عز وجل: ﴿بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء:٢٦].

ويحتمل المكرمين عند إبراهيم عليه السلام. ولا تنافي بين القولين، فضيوفه عليه السلام مكرمون عند الله، ومكرمون عنده، وهذا وذاك يدل على فضله عليه السلام.

﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ إذ: ظرف بمعنى حين، أي: حين دخلوا عليه. ولم يذكر استئذانهم وطرقهم للأبواب مما يدل على كرم إبراهيم عليه السلام، وأن أبواب بيته مفتوحة للضيفان وليس عليها حراس ولا حجاب.

قال ابن القيم[1]: «قوله تعالى: ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ﴾ فلم يذكر استئذانهم، ففي هذا دليل على أنه عليه السلام كان قد عرف بإكرام الضيفان واعتياد قِراهم، فبقي منزله مضيفة مطروقًا لمن ورده، ولا يحتاج إلى استئذان، بل استئذان الداخل دخوله، وهذا غاية ما يكون من الكرم».

﴿فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمنا عليك سلامًا.

﴿قَالَ سَلَامٌ﴾ أي: سلام عليكم. ورده عليهم أبلغ وأكمل وأحسن وأفضل من سلامهم عليه، فقوله: (سَلامٌ) بالرفع، والتقدير: سلام عليكم، أي سلام دائم أو ثابت لأن الجملة الاسمية تقتضي الثبوت والدوام واللزوم بينما سلامهم عليه بقولهم: (سَلامًا) أي: نسلم عليك سلامًا، أو سلمنا عليك سلامًا جملة فعلية والجملة الفعلية تقتضي التجدد والحدوث فقط ولا تدل على الثبوت والدوام واللزوم كالجملة الاسمية.

﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ قال ابن كثير[2]: «وذلك أن الملائكة وهم: جبريل وإسرافيل وميكائيل قدموا عليه في صور شباب حسان عليهم مهابة عظيمة».

وذكر ابن القيم أن مما يدل على كرم إبراهيم عليه السلام أنه حذف المبتدأ من قوله: ﴿قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ فإنه لما أنكرهم ولم يعرفهم احتشم من مواجهتهم بلفظ ينفر الضيف لو قال: أنتم قوم منكرون، فحذف المبتدأ هنا من ألطف الكلام. وكان رسولنا محمد ﷺ لا يواجه أحدًا بما يكرهه بل يقول **«ما بال أقوام يقولون كذا ويفعلون**

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٧.

كذا[١]».

وقال «منكرون» بالبناء للمفعول وحذف الفاعل، ولم يقل إني أنكركم.

قال ابن القيم[٢]: «وهو أحسن في هذا المقام وأبعد من التنفير والمواجهة بالخشونة» وهو الذي أنكرهم كما قال في سورة هود (نكرهم) [الآية:٧٠].

وعدم مواجهة المخاطبين بما يكرهون تعبير جاء به القرآن والسنة ينبغي للمسلم الأخذ به في مخاطباته، وفرق بين قول القائل:

فأقســـم أن لـــو التقينا وأنتُمُ لكان لكم يوم من الشر مظلم[٣]

وبين أن يقول: لكان لكم يوم من الخير نيِّر.

﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ ذهب وانسل مسرعًا خفية بحيث لا يكاد يشعر به، وهذا من كرم الضيافة أن يذهب المُضيف خفية بحيث لا يشعر به الضيف فيشق عليه ويستحي، فلا يشعر الضيف إلا وقد جاءه رب المنزل بالطعام، بخلاف من ينادي بالإتيان بالطعام وضيفه يسمع أو يستشير الضيف فيما يأتي به من الطعام مما يجعل الضيف يستحي ويخجل ويحتشم وربما تعذر عن الأكل، وأبدى أنه لا حاجة له في الطعام حياءً وقد قالوا في المثل «**من شاور ما أعطى**».

وقوله: ﴿إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ﴾ يدل على أنه مستعد متهيء للضيفان فلم يحتج إلى الذهاب إلى السوق أو إلى الجيران أو غيرهم ليشتري أو يستقرض ونحو ذلك.

---

(١) أخرج البخاري في الأيمان والنذور ـ عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ يقول: «فما بال العامل نستعمله فيأتينا فيقول هذا من عملكم وهذا أهدي إلي.....» ٦٦٣٦. وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: «قام النبي ﷺ خطيباً فقال: «بلغني أن أقواماً يقولون كذا وكذا....» أخرجه البخاري في الشركة ٢٥٠٦. وعن أنس ـ رضي الله عنه في قصة الذين أرادوا التبتل أنه ﷺ قال «ما بال أقوام يقولون كذا وكذا، لكني أصلي وأنام وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٨، ٢٤٢.

(٣) دخل أحد الأساتذة الزوار على الطلاب في إحدى القاعات في كلية الشريعة فكتب هذا البيت على السبورة ليختبر فطنة وذكاء الطلاب، وطلب منهم من يقرؤه قراءة صحيحة، فقام عدد من الطلاب الواحد تلو الآخر كل منهم يقرؤه كما كتب، ويرد عليهم الزائر بعدم صحة القراءة، حتى قام أحد الطلاب الأذكياء فقال:

فاقسم أن لو التقينا وأنتم لكان لكم يوم من الخير نيّر

فشكره الزائر على فطنته وذكائه.

وقوله: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ فَجَآءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ﴾ يدل على خدمته عليه السلام لضيوفه بنفسه فلم يأمر من يأتي بالطعام من خادم أو غيره، وهذا أبلغ في الإكرام.

والعجل: هو ولد البقر، والذي يعد لحمه من ألذ وأنفع اللحوم، ومن كرمه عليه السلام أنه جاءهم بالعجل كاملا لا ببعضه.

واختار لهم العجل السمين الذي هو من خيار ماله، كثير اللحم والشحم، ولذيذ الطعم، ولم يُبْق هذا له ويختار لهم الهزيل.

وفي سورة هود: ﴿فَمَا لَبِثَ أَن جَآءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ [الآية:٦٩] أي: مشوي على الرضف، وهي الحجارة المحماة بالنار.

﴿فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ أي: أدنى لهم هذا العجل المشوي هو بنفسه ولم يأمر من يقدمه لهم من خادم أو غيره، ولم يأمرهم أن يقوموا ويقربوا إليه وهذا كرم منه وتلطف مع ضيوفه، وهذا لاشك أبلغ في الإكرام.

ونرى المدنية الحديثة عكست الأمر إيثارًا للراحة ونحو ذلك، بل ربما يعد من العيب عند البعض أن يقدم الطعام للضيف في مكان جلوسه، فهذا مجلس للقهوة، وللطعام مكان خاص، بل ربما ترك الضيف يخدم نفسه كما يفعله المنخدعون بالمدنية الزائفة، ويقولون للضيف: اخدم نفسك بنفسك.

﴿قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ﴾ عَرْض حسن وتلطف بالقول ليأكلوا ولم يقل لهم «كلوا» تلطفًا معهم في القول، ولم يكن ضيوفه يحتاجون إلى الإذن في الأكل، بل كان إذا قدم لهم الطعام أكلوا، ولما امتنع هؤلاء الضيوف من الأكل لأن الملائكة لا يأكلون ولا يشربون، لأنهم من صمد ليس لهم أجواف، قال لهم: ﴿أَلَا تَأْكُلُونَ﴾.

واستدل بالآية على مشروعية إكرام الضيف وقد ذهب الإمام أحمد وطائفة من العلماء إلى وجوب الضيافة للنزيل[1]، وعلى ذلك دلت السنة.

قال ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه»[2].

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٣٩٧.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠١٨، ومسلم في الإيمان ٤٧ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

﴿فَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۖ﴾ أي: لما لم يأكلوا أوجس في نفسه منهم خيفة، كما قال عز وجل في سورة هود: ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيۡدِيَهُمۡ لَا تَصِلُ إِلَيۡهِ نَكِرَهُمۡ وَأَوۡجَسَ مِنۡهُمۡ خِيفَةٗۚ﴾ [الآية:٧]، أي: أحس وأضمر في نفسه منهم تخوفًا، كما هي عادة العرب إذا نزل بهم ضيف وأبى أن يمالح، أي: أبى أن يأكل من طعامهم خافوا أنه إنما جاء لشرٍ، فإذا أكل من طعامهم اطمأنوا إليه وأمنوا من أن يغدر بهم.

قال ابن القيم[1]: «لما رآهم لا يأكلون من طعامه أضمر منهم خوفًا أن يكون معهم شر، فإن الضيف إذا أكل من طعام رب المنزل اطمأن إليه وأنس به».

لكن عندما يضعف وازع الدين، ويتجرد البعض من الشيم والعادات والتقاليد والأخلاق الكريمة الطيبة فإنه قد يأكل من طعام القوم ويغدر بهم وهذا في منتهى الخسة والدناءة.

﴿قَالُواْ لَا تَخَفۡۖ﴾ أي: قال ضيوفه من الملائكة لما عرفوا ما وقع في نفسه من الخوف لما امتنعوا من الأكل ﴿ لَا تَخَفۡۖ﴾.

﴿وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٖ﴾ البشارة: الإخبار بما يسر ويفرح مأخوذ من البشرة، لأن الإنسان عندما يسمع بخبر سار تنبسط بشرته ويظهر ذلك على وجهه.

والغلام هو المولود الذكر (عليم) أي: يكون ذا علم بما يمنحه الله من النبوة والمراد به إسحاق عليه السلام، كما صرح به في بشارة زوج إبراهيم عليه السلام سارة عليها السلام؛ لأن هذا الولد منها فكل منهما مبشر به، قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ﴾ [هود:٧١]، كما بُشر إبراهيم عليه السلام قبل ذلك بإسماعيل عليه السلام من سريته هاجر استجابة لدعائه عليه السلام حين قال: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ قال تعالى: ﴿فَبَشَّرۡنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٖ﴾ [الصافات: ١٠٠، ١٠١].

قال ابن القيم[2]: «وهذا الغلام إسحاق لا إسماعيل؛ لأن امرأته عجبت من ذلك فقالت: عجوز عقيم لا يولد لمثلي، فأنى لي بالولد وأما إسماعيل فإنه من سريته

---

(١) انظر «الرسالة التبوكية» ص٧٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٣.
(٢) انظر «الرسالة التبوكية» ص٨٠، «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

هاجر، وكان بكره وأول ولده».

وقد استدل ابن القيم[١] بهذه الآيات على عظيم كرم إبراهيم عليه السلام من خمسة عشر وجهاً ثم قال: «فقد جمعت هذه الآية آداب الضيافة التي هي أشرف الآداب، وما عداها من التكلفات التي هي تخلف وتكلف إنما هي من أوضاع الناس وعوائدهم وكفى بهذه الآداب شرفًا وفخرًا».

وقال ابن كثير[٢]: «وهذه الآية انتظمت آداب الضيافة، فإنه جاء بطعامه من حيث لا يشعرون بسرعة ولم يمتن عليهم أولاً، فقال: نأتيكم بطعام؟ بل جاء به بسرعة وخفاء، وأتى بأفضل ما وجد من ماله، وهو عجل فتيّ سمين مشوي، فقربه إليهم، لم يضعه وقال: اقتربوا، بل وضعه بين أيديهم، ولم يأمرهم أمرًا يشق على سامعه بصيغة الجزم، بل قال: (ألا تأكلون)؟ على سبيل العرض والتلطف، كما يقول القائل اليوم: إن رأيت أن تتفضل وتحسن وتتصدق فافعل».

﴿فَأَقْبَلَتِ ٱمْرَأَتُهُۥ﴾: سارة ﴿فِى صَرَّةٍ﴾ في صرخة عظيمة ورنة شديدة وهي قولها: يا ويلتي.

﴿فَصَكَّتْ وَجْهَهَا﴾ ضربت وجهها ندبة عند سماع هذا الخبر. ولطمته تعجبًا كما تتعجب النساء من الأمر الغريب.

قال ابن القيم[٣]: «فيه بيان ضعف عقل المرأة وعدم ثباتها، إذ بادرت إلى الندبة فصكت الوجه عند هذا الإخبار».

﴿وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ﴾ أي: كيف ألد وأنا الآن عجوز، وقد كنت قبل ذلك في شبابي وفي صباي عقيمًا.

فذكرت لتعجبها من الولادة سببين: الأول أنها عجوز، أي كبيرة السن، بلغت سن الإياس فلا تحبل، والسبب الثاني أنها كانت قبل ذلك عقيما، ومن حسن الأدب اقتصرت في خطابها على ما تدعو الحاجة إليه بقولها: «عجوز عقيم» مع حذف المبتدأ

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٣٧-٢٣٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٧-٣٩٨.

(٣) في «الرسالة التبوكية» ص٨٠، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

فلم تقل: أنا عجوز عقيم.

وقال في سورة هود: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٞ فَضَحِكَتۡ فَبَشَّرۡنَٰهَا بِإِسۡحَٰقَ وَمِن وَرَآءِ إِسۡحَٰقَ يَعۡقُوبَ ۝٧١ قَالَتۡ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٞ وَهَٰذَا بَعۡلِي شَيۡخًاۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَيۡءٌ عَجِيبٞ ۝٧٢ قَالُوٓاْ أَتَعۡجَبِينَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۖ رَحۡمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٞ مَّجِيدٞ﴾ [الآيتان:٧٢، ٧٣].

فذكرت السبب المانع منها ومن إبراهيم وصرحت بالعجب.

﴿قَالُواْ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِۖ﴾ أي: قالت لها الملائكة: كذلك قال ربك، بأنه سيولد لكما غلام عليم. وفي هذا إثبات صفة القول لله عز وجل. وفي إضافة «رب» إلى ضميرها في قوله (ربك) تشريف وتكريم لها وعناية بها، لأن المراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصة.

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡحَكِيمُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ «الحكيم» و«العليم» اسمان من أسماء الله عز وجل، كل منهما على وزن «فعيل» و«الحكيم»: مأخوذ من الحكم بأقسامه الثلاثة: الكوني والشرعي والجزائي، ومن الحكمة بقسميها: الحكمة الغائية والحكمة الصورية، يدل على أنه عز وجل ذو الحكم التام النافذ، والحكمة البالغة.

و«العليم» مأخوذ من العلم وهو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكًا جازمًا.

يدل على أنه عز وجل ذو العلم الواسع كما قال عز وجل: ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ [طه:٩٨] فهو عز وجل ذو الحكم والحكمة والعلم فيما خلق وفيما أمر وشرع.

وقدّم في هذه الآية «الحكيم» على «العليم» مع أن الغالب في القرآن العكس، وذلك ـ والله أعلم ـ للتأمل في حكمة الله ـ عز وجل ـ في عدم ولادة سارة في شبابها، ومن ثم ولادتها بعد أن صارت عجوزاً واعتقدت أنها عقيم.

قال ابن القيم[1]: «والعلم والحكمة متضمنان لجميع صفات الكمال فالعلم يتضمن الحياة ولوازم كمالها من القيومية والقدرة والبقاء والسمع والبصر، وسائر الصفات التي يستلزمها العلم التام، والحكمة تتضمن كمال الإرادة والعدل والرحمة

---

(١) في «الرسالة التبوكية» ص٨٠-٨١، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٤.

والإحسان والجود والبر، ووضع الأشياء على أحسن وجوهها، وتتضمن إرسال الرسل وإثبات الثواب والعقاب».

الفوائد والعبر:

١ ـ تصدير الخطاب بالاستفهام للعناية والتنبيه والاهتمام.

٢ ـ تشريف النبي ﷺ وتكريمه بتوجيه الخطاب له.

٣ ـ تحقيق وإثبات مجيء ضيوف إبراهيم عليه السلام من الملائكة وهم جبريل وإسرافيل وميكائيل على صورة شباب حسان من بني آدم، وما جرى بينهم وبين إبراهيم عليه السلام.

٤ ـ عظم منزلة هؤلاء الملائكة، وأنهم مكرمون عند الله ـ عز وجل ـ، ومكرمون عند نبيه إبراهيم عليه السلام.

٥ ـ مشروعية السلام ورده، وأن رد إبراهيم أبلغ من سلام الملائكة.

٦ ـ كرم إبراهيم عليه السلام وأن منزله كان موئلاً للضيفان بلا استئذان.

٧ ـ جواز أن يبين صاحب المنزل للضيف أنه لم يعرفه تدرجاً معه في الكلام وإيناساً له.

٨ ـ شدة كرم إبراهيم عليه السلام، وخدمته لضيوفه بنفسه، وتلطفه معهم في القول.

٩ ـ أن من كرم الضيافة مبادرة الضيف بما يستحقه من الضيافة، والتلطف معه في الحديث وتقريب أجود الطعام له، وخدمته.

١٠ ـ ينبغي للضيف طمأنة المضيف بالأكل مما يقدم له إزالة للوحشة ولئلا يظن أنه إنما جاء لشر.

١١ ـ طمأنة ضيوف إبراهيم عليه السلام له وبيان أنهم ملائكة من عند الله، وبشارتهم له بإسحاق نبيا من الصالحين.

١٢ ـ تعجب امرأة إبراهيم عليه السلام «سارة» من كونها تلد وهي عجوز كبيرة وقد كانت في صباها عقيما.

١٣ ـ ضعف عقل المرأة إذ سارعت إلى الندبة ولطم وجهها.

١٤ ـ إثبات القول لله ـ عز وجل ـ. وإثبات ربوبيته الخاصة لأوليائه.

١٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الحكيم» و «العليم» وإثبات صفة الحكم النافذ والحكمة البالغة والعلم الواسع له ـ عز وجل ـ.

١٦ ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ على إيجاد مولود على خلاف الأسباب المعتادة.

﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٦﴾ وَتَرَكْنَا فِيهَآ ءَايَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٣٧﴾﴾.

قوله: ﴿۞ قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا ٱلْمُرْسَلُونَ﴾ أي: قال إبراهيم عليه السلام لضيوفه من الملائكة ـ بعد أن طمأنوه وبشروه بغلام عليم ـ وعرف أنهم ملائكة مرسلون من عند الله قال لهم: فما خطبكم أيها المرسلون أي: ما شأنكم، وما الأمر الذي جئتم من أجله؟

وكان من أدبه عليه وعلى نبينا وجميع المرسلين الصلاة والسلام، أنه لم يلاطف ضيوفه ويبادرهم بالسؤال عن شأنهم، وسبب مجيئهم، بل بادرهم بالحفاوة والإكرام، ليأنسوا وتنشرح صدورهم، وهكذا ينبغي أن يفعل مع الضيف.

﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ أي: بينوا له الهدف الذي جاؤوا من أجله فقالوا: ﴿إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾، يعنون قوم لوط الذين عصوا نبي الله لوطًا عليه السلام، وارتكبوا الجريمة العظمى والفاحشة الكبرى: اللواط قال عز وجل حكاية عن قول لوط لقومه: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥، ١٦٦]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠، ٨١].

ولم يصرحوا بالمرسِل لهم ـ وهو الله عز وجل ـ تأدبًا مع الله سبحانه وتعالى، لأنهم مرسلون بالعذاب وهذا كما في قوله ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]. وقولهﷺ «والشر ليس إليك»[1].

و«مجرمين»: جمع مجرم، وهو مرتكب الجرائم، ووصفوا بذلك لارتكابهم الجريمة العظمى والفاحشة الكبرى وهي إتيان الذكران من العالمين، والتي هي أشد وأعظم من

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين وقصرها ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧ ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

الزنا؛ لأن إتيان الذكر الذكر لا يجوز بأي حال من الأحوال، أما إتيان الذكر الأنثى فيجوز في بعض الأحوال وهي حال كون المرأة زوجة للرجل أو سرية له، كما أن اللواط يصعب التحرز منه؛ لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر بخلاف وجوده مع الأنثى.

﴿لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ وهي حجارة السجيل، وهو الطين الذي أوقد عليه حتى تحجر، كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾ [هود: ٨٢].

﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ وقال في الآية الأخرى: ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٣] ومعنى ﴿مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ﴾ معلمة، أي: مكتتبة عنده بأسمائهم، كل حجر عليه اسم صاحبه.

﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: أخرجنا ونجينا من العذاب والعقوبة من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين المصدقين، وهم لوط وأهل بيته ما عدا امرأته، وذلك بأن أمرناهم أمراً قدرياً بالخروج فخرجوا ونجوا بإذن الله، كما قال تعالى: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ﴾ [هود: ٨١]، وقال عز وجل: ﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ﴾ [العنكبوت:٣٢].

وهذه سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا ينجي أولياءه المؤمنين وحزبه المفلحين وينتقم من أعدائه وأعدائهم المكذبين، ويجعل العاقبة للمتقين، والخزي والندامة والحسرة على الكافرين.

﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ أي: فما وجدنا في هذه القرية سوى بيت واحد من المسلمين، وهم بيت لوط عليه السلام وهم المؤمنون وهم المخرجون الناجون من العقوبة والعذاب، أطلق عليهم مؤمنين ومسلمين لاجتماع هذين الوصفين فيهم: الإيمان وهو صلاح الباطن، والإسلام وهو صلاح الظاهر.

قال ابن كثير[١]: «احتج بهذه الآية من ذهب إلى رأي المعتزلة، ممن لا يفرق بين مسمى الإيمان و الإسلام؛ لأنه أطلق عليهم المؤمنين والمسلمين، وهذا الاستدلال ضعيف؛ لأن هؤلاء كانوا قومًا مؤمنين، وعندنا أن كل مؤمن مسلم ولا ينعكس، فاتفق الاسمان هنا لخصوصية الحال، ولا يلزم ذلك في كل حال».

فقيل للمخرجين منهم الناجين من العذاب مؤمنين مسلمين لاجتماع الوصفين فيهم لأن كل مؤمن مسلم، وقيل للموجودين منهم مسلمين لأن المسلم لا يلزم أن يكون مؤمنًا ولهذا سماهم مسلمين؛ لأن منهم امرأة لوط وهي مسلمة ظاهراً لكنها غير مؤمنة.

قال ابن القيم[٢] في كلامه على قوله تعالى: ﴿فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ قال: «ففرق بين الإسلام والإيمان هنا لسر اقتضاه الكلام، فإن الإخراج هنا عبارة عن النجاة، فهو إخراج نجاة من العذاب ولا ريب أن هذا مختص بالمؤمنين المتبعين للرسل ظاهرًا وباطنًا.

وقوله تعالى: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ لما كان الموجودون من المخرجين أوقع اسم الإسلام عليهم؛ لأن امرأة لوط كانت من أهل هذا البيت، وهي مسلمة في الظاهر، فكانت في القوم الموجودين، لا في القوم الناجين، وقد أخبر سبحانه عن خيانة امرأة لوط، وخيانتها أنها كانت تدل قومها على أضيافه وقلبها معهم، وليست خيانة فاحشة، فكانت من أهل البيت المسلمين ظاهرًا وليست من المؤمنين الناجين».

قال: «وبهذا خرج الجواب عن السؤال المشهور وهو: أن الإسلام أعم من الإيمان، فكيف استثنى الأعم من الأخص، وقاعدة الاستثناء تقتضي العكس؟ وتبين أن المسلمين المستثنين مما وقع عليه فعل الوجود والمؤمنين غير مستثنين منه، بل هم المخرجون الناجون».

ويؤخذ من قوله: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ عدم الاغترار بما عليه

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٩.

(٢) في «الرسالة التبوكية» ص ٨٢ ـ ٨٣، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٦.

الكثير من الناس فهذا نبي الله لوط عليه السلام لم يؤمن من قومه إلا أهل بيته فقط ما عدا امرأته وقد قالﷺ فيما أراه الله: «ورأيت النبي ومعه الرجل والرجلان والنبي وليس معه أحد» الحديث[١]؛ وذلك لحكمة بالغة قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾ [يوسف:١٠٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمۡۗ﴾ [ص:٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٩] وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعۡ أَكۡثَرَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ هُمۡ إِلَّا يَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١١٦].

فالعبرة بالكيف، لا بالكم، وبَعْثُ النار من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون وواحد إلى الجنة كما جاء في الحديث[٢].

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: « لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين».

وقال ابن دريد[٣]:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى

﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةً﴾ الضمير «فيها، للعقوبة التي أوقعها الله في قوم لوط، أو لقريتهم (آية) عبرة وعظة، وعلامة على كمال قدرته عز وجل وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته، واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه، وعلى صدق رسله، وعقوباته للمكذبين. ومكان قريتهم لا زال موجوداً وهو البحيرة المسماة «البحر الميت» ولهذا قال تعالى مخاطباً هذه الأمة: ﴿وَإِنَّكُمۡ لَتَمُرُّونَ عَلَيۡهِم مُّصۡبِحِينَ ۝١٣٧ وَبِٱلَّيۡلِۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨].

﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ وهم المؤمنون المتقون الذي يرجون رحمة الله

---

(١) أخرجه البخاري في الطب، ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد...» الحديث.

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٣) انظر: «ديوانه» ص١٣٢.

ويخافون عذابه؛ لأنهم هم الذين ينتفعون بالآيات كما قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ﴾ [الأعلى:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات:٥٥].

وأما من لا إيمان عنده فلا تنفعه الآيات والنذر، كما قال عز وجل ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس:١٠١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أُمْطِرَتْ مَطَرَ السَّوْءِ ۚ أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا ۚ بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا﴾ [الفرقان: ٤٠].

قال ابن كثير[١]: «أي: جعلناها عبرة لما أنزلنا بهم من العذاب والنكال وحجارة السجيل، وجعلنا محلتهم بحيرة منتنة خبيثة[٢] ففي ذلك عبرة للمؤمنين الذين: ﴿يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾».

كما قال عز وجل:

﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا ۖ فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنذَرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، ١٧٤].

وقوله ﴿الْأَلِيمُ﴾ أي: المؤلم الموجع حسا ومعنى، فهو «فعيل» بمعنى «مفعل».

فعاقب الله عز وجل قوم لوط بعقوبة لم يعاقب بمثلها أحدًا من العالمين لعظم جرمهم وهو إتيان الذكران من العالمين بأن جعل أعلى قريتهم سافلها وأمطر عليهم حجارة من سجيل، كما جعل عز وجل عقوبة من يفعل مثل فعلهم من هذه الأمة القتل قال ﷺ «من وجد تموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[٣].

فيقتلان مطلقًا سواء كانا محصنين أو غير محصنين بخلاف الحكم في الزنا، وذلك لأن إتيان الذكر للذكر شذوذ وخروج عن الفطرة السوية وهو لا يحل بحال من

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٣٩٩.

(٢) وهي المعروفة بالبحر الميت ـ قرب نهر الأردن.

(٣) أخرجه من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، وقال: «حديث حسن»، وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٥ ـ وصححه ووافقه الذهبي. قال ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٤٠ـ٤١: «وإسناده صحيح»، وأخرجه أيضًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ابن ماجه ٢٥٦٢، والحاكم ٤/ ٣٥٥ وسنده ضعيف، لكنه يصلح في الشواهد.

الأحوال أما إتيان الذكر للأنثي فهو يحل إذا كانت زوجة أو مملوكة له كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥ - ٧، المعارج: ٢٩ - ٣١] ومع أن الله عز وجل أباح للرجل أن يتمتع من زوجته ومملوكته بما شاء من جسدها إلا أنه حرم أن يأتيها من دبرها، وسمي هذا العمل اللوطية الصغرى وهي إتيان المرأة في دبرها كما جاء في الحديث «أن إتيان المرأة في دبرها اللوطية الصغرى»[(١)].

الفوائد والعبر:

١ ـ جواز سؤال الضيف عن مقصده وحاجته.

٢ ـ تزامن عهد إبراهيم مع عهد لوط ـ عليهما السلام.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٤ ـ شدة إسراف قوم لوط، وعظم جرمهم وهو فعل اللواط مع تكذيبهم للوط عليه السلام، ولهذا كانت عقوبتهم أعظم العقوبات حيث أرسل الله عليهم حجارة من طين، وجعل عالي ديارهم سافلها.

٥ ـ إنجاء الله ـ عز وجل ـ من كان في قرية قوم لوط من المؤمنين قبل نزول العذاب عليهم وهم لوط وأهله عدا امرأته.

٦ ـ سنة الله ـ عز وجل ـ في إنجاء أوليائه وحزبه المفلحين، وإهلاك المكذبين ولن تجد لسنة الله تبديلا.

٧ ـ أن الإيمان أخص من الإسلام، فكل مؤمن مسلم، وليس كل مسلم مؤمناً.

٨ ـ قلة السالكين لطريق الحق، وكثرة السالكين لطرق الباطل، فلا ينبغي الاغترار بذلك.

٩ ـ في قصة إهلاك قوم لوط، وما أوقع الله بهم وبقريتهم من العقوبة دلالة على عظيم قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن بعدهم، ممن يخافون عذاب الله، وأليم عقابه.

---

(١) اخرجه احمد ٢/ ١٨٢، ٢١٠ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده رضي الله عنه وقد ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤/ ٢٩٨ وقال« «رواه أحمد والبزار والطبراني في الأوسط، ورجال أحمد والبزار رجال الصحيح» وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» ٣/ ٢٠٠، وقال: «رواه أحمد والبزار، ورجالهما رجال الصحيح».

﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ (٣٨) فَتَوَلَّىٰ بِرُكۡنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوۡ مَجۡنُونٞ (٣٩) فَأَخَذۡنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٞ (٤٠) وَفِي عَادٍ إِذۡ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلۡعَقِيمَ (٤١) مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ (٤٢) وَفِي ثَمُودَ إِذۡ قِيلَ لَهُمۡ تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٖ (٤٣) فَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمۡ يَنظُرُونَ (٤٤) فَمَا ٱسۡتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٖ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ (٤٥) وَقَوۡمَ نُوحٖ مِّن قَبۡلُۖ إِنَّهُمۡ كَانُواْ قَوۡمٗا فَٰسِقِينَ (٤٦)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ معطوف على قوله في الآية السابقة في قصة إهلاك قوم لوط ﴿وَتَرَكۡنَا فِيهَآ ءَايَةٗ لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾ أي: وتركنا فيها عبرة وعظة ودلالة على قدرة الله تعالى وشدة عقابه ﴿لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ﴾وكذا في قصة موسى إذ أرسله الله إلى فرعون بسلطان مبين، وأخْذِه لما تولى بجنوده وإغراقهم في اليم، وكذا في قصص إهلاك المكذبين من الأمم قبلهم، عاد وثمود وقوم نوح عبرة وعظة ودلالة، وكذا في بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج عبرة وعلامة ودلالة على كمال قدرته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة وحده دون من سواه.

قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ الواو: عاطفة ـ هنا ـ وكذا فيما بعده، وقد تكون استئنافية، ويكون قوله ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ وما بعده متعلقاً بفعل محذوف دل عليه المذكور، أي تركنا في ذلك آية.

ومعنى قوله: ﴿وَفِي مُوسَىٰٓ﴾ أي: وفي نبي الله موسى بن عمران عليه السلام أفضل أنبياء بني إسرائيل، وثالث أولي العزم بعد محمد وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، آية وعبرة وعظة ﴿إِذۡ أَرۡسَلۡنَٰهُ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى حين، أي حين أرسلناه إلى فرعون، وفرعون هو ملك مصر آنذاك الذي تعالى على الله وادعى الربوبية والألوهية لنفسه، وصار اسم فرعون بعد ذلك علمًا على كل من حكم مصر من الكفار.

﴿بِسُلۡطَٰنٖ مُّبِينٖ﴾ أي: بحجة ظاهرة ودليل بيِّن قاطع، وهي الآيات التي أعطاها الله عز وجل لنبيه موسى عليه السلام وهي تسع آيات كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ تِسۡعَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ [الإسراء:١٠١]، منها العصا واليد كما قال عز وجل: ﴿وَأَلۡقِ عَصَاكَۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهۡتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنّٞ وَلَّىٰ مُدۡبِرٗا وَلَمۡ يُعَقِّبۡۚ يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفۡ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ ٱلۡمُرۡسَلُونَ (١٠)

إِلَّا مَن ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلَ حُسْنًا بَعْدَ سُوٓءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ فِي تِسْعِ ءَايَٰتٍ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ﴾ [النمل: ١٠-١٢]، ومنها ما ذكره الله عز وجل في سورة الأعراف في قوله ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ﴾ [الآية:١٣٣] ومنها السنون ونقص الثمرات وانفلاق البحر، وغير ذلك من الآيات كانفجار العيون من الحجر وغير ذلك[1].

﴿فَتَوَلَّىٰ﴾ أي: أعرض عما جاء به موسى من الحق استكبارًا وعنادًا.

(بركنه) أي: بما يركن إليه من جموع وجنود متعززًا ومغترًا بهم ومغررًا لهم.

﴿وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: وقال فرعون عن موسى عليه السلام أنت إما ساحر تلبس على الناس بسحرك، لأن الله أعطاه من الآيات ما يفوق عمل السحرة المنتشر في عهده كانقلاب العصا حية، وإدخال يده في جيبه وخروجها بيضاء من غير سوء.

(أو مجنون) مختل العقل، لأنه قال: إن الله هو الرب الخالق، والإله المعبود، لا فرعون. وهذه طريقة المكذبين للرسل يرمون من دعاهم إلى الله من الرسل وغيرهم بأقبح التهم؛ ليصدوا الناس عن اتّباعهم، وهكذا قيل لسيد الخلق نبينا محمد ﷺ ساحر وشاعر ومجنون وكاهن، وما ثناه ذلك عن دعوته صلوات الله وسلامه عليه.

وينبغي أن يستلهم الدعاة إلى الله والمصلحون والمربون من هذا أعظم الدروس فإن طريق الدعوة وطريق الجنة شاق ليس مفروشًا بالورود والرياحين، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] وقال تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت:١-٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «حُفت الجنة بالمكاره وحُفت النار بالشهوات»[2].

---

(١) الطوفان: الغرق أو المطر وقيل غير ذلك، والقمّل: السوس الذي يخرج من الحنطة، وقيل دواب سود صغار، وقيل غير ذلك، والدم الرعاف، أو انقلاب مياههم دمًا، وقيل غير ذلك، والجراد هو المعروف، وكذا الضفادع ملأت بيوتهم وآنيتهم وأطعمتهم انظر: «جامع البيان» ١٥/ ١١٤، «تفسير ابن كثير» ٣/ ٤٥٨-٤٦٣، ٥/ ١٢٢-١٢٣.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٥٩.

قال الشاعر:

فدرب الصاعدين كما علمتم به الأشواك تكثر لا الورود[1]

﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ﴾ أي: طرحناهم وألقيناهم ﴿فِى ٱلْيَمِّ﴾، وهو البحر الأحمر الفاصل بين آسيا وأفريقيا، أغرقهم الله فيه ﴿وَهُوَ مُلِيمٌ﴾ أي: ملوم، فهو «فعيل» بمعنى «مفعول» أي: آتٍ بما يلام عليه من الكفر والجحود والفجور والعناد، ودعوى الربوبية والألوهية.

﴿وَفِى عَادٍ﴾ أي: وفي عاد عبرة وعظة وعلامة ودلالة على قدرة الله عز وجل وكماله، في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

و«عاد» هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد إرم الذين قال الله عنهم في سورة الفجر ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [٦-٨].

ومساكنهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن.

﴿إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ «إذ» ظرف بمعنى حين، أي: حين أرسلنا عليهم الريح العقيم، وهي الريح المفسدة المهلكة المدمرة التي لا تنتج شيئا، العاتية شديدة البرودة، وشديدة الهبوب، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ﴿٦﴾ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ﴿٧﴾ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة:٦-٨].

وهي الريح الغربية «الدبور» كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ: **«نُصرت بالصَّبا وأهلكت عاد بالدَّبور»**[2].

﴿مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ أي: ما تترك من شيء أتت عليه مما أراد الله إهلاكه إلا جعلته كالرميم، وهو الهشيم الهالك البالي.

﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ

---

(١) البيت لوليد الأعظمي الشاعر العراقي ضمن قصيدة له بعنوان: «شباب الجيل» في كتابه «الزوابع».

(٢) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في صلاة الاستسقاء ٩٠٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨.

يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾ فَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ مِن قِيَامٍ وَمَا كَانُواْ مُنتَصِرِينَ﴾.

﴿وَفِي ثَمُودَ﴾ معطوف على ما قبله، أي: وفي ثمود عبرة وعظة ودلالة وعلامة.

وثمود هم قوم صالح عليه السلام مساكنهم في الحجر شمال الجزيرة في العلا، وهي المعروفة بمدائن صالح.

﴿إِذْ قِيلَ لَهُمْ﴾ أي: حين قيل لهم، والقائل لهم هو الله عز وجل على لسان رسولهم صالح عليه السلام، وذكر بالبناء للمفعول؛ لأنه عز وجل معلوم؛ ولأن الشر لا ينسب إليه مباشرة، كما قال ﷺ: «والشر ليس إليك»[(١)].

﴿تَمَتَّعُواْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: تمتعوا في الحياة. والتمتع: استعمال المتاع من مأكل ومشرب وغير ذلك.

﴿حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي: إلى مجيء وقت نزول نقمة الله عليهم، والتي بها حلول آجالهم، وهو ثلاثة أيام كما قال تعالى: ﴿فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُواْ فِي دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ﴾ [هود: ٦٥].

﴿فَعَتَوْاْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ﴾ العتو: العصيان والتمرد والعناد والاستكبار ومجاوزة الحد.

﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ أي: صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة صعقوا بسببها فتقطعت قلوبهم في أجوافهم كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت:١٧]، وقال تعالى متوعدًا كفار قريش: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت:١٣].

وهي الصيحة كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦، ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَٰبُ ٱلْحِجْرِ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَءَاتَيْنَٰهُمْ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَٰحِدَةً فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلْمُحْتَظِرِ﴾ [القمر: ٣١].

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والنسائي في الافتتاح ٨٩٧، والترمذي في الصلاة ٢٦٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها ٨٦٤- من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وهي الرجفة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٨].

﴿وَهُمْ يَنظُرُونَ﴾ أي: وهم ينظرون في وضح النهار، وكانوا خُوِّفوا بالعذاب وينتظرونه.

قال ابن كثير[1]: «وذلك أنهم انتظروا العذاب ثلاثة أيام وجاءهم في صبيحة اليوم الرابع بُكرَةَ النهار».

فسمى الله عذابهم بالصاعقة والصيحة والرجفة، كما سمى عذاب عاد بالريح بالصاعقة والصيحة، قال تعالى: ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ [فصلت: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ بِٱلْحَقِّ فَجَعَلْنَٰهُمْ غُثَآءً﴾ [المؤمنون: ٤١]. والمراد بهم عاد، وقيل ثمود. وسمى عذاب قوم لوط عليه السلام بالصيحة، قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٣﴾ فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر:٧٣-٧٤]، وسمى عذاب قوم شعيب عليه السلام بالصيحة والرجفة، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دِيَٰرِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا۟ فِيهَآ أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ كَمَا بَعِدَتْ ثَمُودُ﴾ [هود: ٩٤-٩٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٩١، العنكبوت: ٣٧]. وقال تعالى عن السبعين رجلاً الذين اختارهم موسى من قومه ﴿فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

فالصاعقة والصيحة والرجفة تطلق على جنس العذاب أيا كان ولهذا قال عن المنافقين ﴿يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ﴾

﴿فَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ مِن قِيَامٍ﴾ أي: فما استطاعوا أن يقوموا، أي: ما استطاع القاعد منهم أن يقوم من مكانه.

﴿وَمَا كَانُوا۟ مُنتَصِرِينَ﴾ أي: وما كانوا قادرين على الانتصار لدفع ما حل بهم من العقوبة لا بأنفسهم ولا بانتصارهم بغيرهم.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٠.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ الواو عاطفة، أي: وقوم نوح من قبل هؤلاء أهلكناهم بالغرق بالطوفان، وفي إهلاكهم عبرة وعظة وعلامة وآية ودلالة على قدرة الله عز وجل، وكماله، واستحقاقه للعبادة وحده لا شريك له.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: بسبب أنهم ﴿كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ﴾ أي: خارجين عن طاعة الله عز وجل بالكفر والمعاصي.

والفسق في الأصل: الخروج للفساد، ومنه سميت الفأرة فويسقة لخروجها من جحرها للإفساد.

ويؤخذ من إهلاك الله عز وجل لقوم لوط ولفرعون وقومه وعاد وثمود وقوم نوح وغيرهم من المكذبين سنة الله الكونية في إهلاك المكذبين لرسله ولن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن في قصة موسى عليه السلام في إرساله إلى فرعون ـ وما جرى بينهما دلالة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن يعتبر.

٢ ـ تأييد الله ـ عز وجل ـ لموسى عليه السلام بالحجج والآيات العظيمة، ومع ذلك أعرض فرعون وجنوده عن الحق ورمى موسى بالسحر والجنون.

٣ ـ عقوبة الله ـ عز وجل ـ لفرعون وجنوده بإغراقهم في اليم، فأجسادهم للغرق وأرواحهم للنار والحرق.

٤ ـ إتيان فرعون بأعظم ما يلام عليه من الكفر والفجور والعناد، إذ لا كفر أعظم من دعواه الربوبية والألوهية.

٥ ـ أن في إهلاك المكذبين من عاد وثمود وقوم نوح أيضا دلالة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن بعدهم.

٦ ـ إهلاك الله ـ عز وجل ـ لعاد بالريح العقيم «الدبور» المفسدة المدمّرة لكل شيء أتت عليه مما أراد الله إهلاكه.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

٨ ـ إهلاك الله ـ عز وجل ـ لثمود لما تمردوا وعتوا عن أمر الله ـ عز وجل ـ بالصاعقة التي قطعت قلوبهم في أجوافهم فلم يستطيعوا الفرار ولا الانتصار.

٩ ـ إهلاك قوم نوح ـ عليه السلام ـ بالغرق بسبب فسقهم.

١٠ ـ وجوب أخذ العظة والعبرة مما حل بالمكذبين من العقوبات.

﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٧﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٤٩﴾ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥١﴾﴾.

أي: وفي هذا كله عبرة وآية وعلامة ودلالة على عظيم قدرة الله عز وجل واستحقاقه للعبادة دون ما سواه، وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قوله: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا﴾ المراد بالسماء السموات السبع، ﴿بَنَيْنَاهَا﴾ أي: خلقناها ورفعناها وجعلناها سقفًا رفيعًا كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢].

وعن على بن أبي طلحة عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْيدٍ﴾ يقول: «بقوة»[1]، كما قال تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [النبأ: ١٢].

وهكذا فسره جمع من السلف وعليه عامة المفسرين.

وتفسير «الأيد» هنا بالقوة ليس فيه منافاة لإثبات اليدين لله عز وجل كما دل على ذلك قوله عز وجل: ﴿يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ﴾ [ص:٧٥].

﴿وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ أي: وإنا في بنائنا لها لموسعون لها، جعلناها واسعة الأرجاء رفيعة البناء، وبغير عمد، لأن العمد قد تقلل من سعتها قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [لقمان:١٠].

﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا﴾ أي: بسطناها وجعلناها فراشًا وذلولا للمخلوقات ومهدناها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ [البقرة:٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿١٩﴾ لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾ [نوح:١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ﴾ [الملك:١٥]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ [طه: ٥٣]، [الزخرف:١٠] وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:٦].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/٥٤٥، وابن أبي حاتم «في تفسيره»، ١٠/٣٣١٣، الأثر ١٨٦٦٦.

﴿فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ ثناء من الله عز وجل وامتداح لنفسه ـ وهو سبحانه أهل الثناء والمجد ـ في مهده الأرض وفرشها وتذليلها وتوسعتها، فلم يجعلها صعبة قاسية لا يمكن الانتفاع بها، ولا لينة رخوة لا يمكن الاستقرار والعيش عليها بل جعلها وسطاً مناسبة على أكمل الحالات لمصالح جميع المخلوقات فوقها.

والمهد بمعنى: البسط والفرش والتوطئة.

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: ومن جميع المخلوقات خلقنا وأوجدنا زوجين، أي صنفين ونوعين متقابلين، ليلتئم الحال بين الذكر والأنثى من الإنسان والحيوان والنبات وتصلح الحياة، فأرض وسماء، وليل ونهار، وشمس وقمر وبر وبحر، وضياء وظلام، وإيمان وكفر، وحياة وموت وسعادة وشقاء وجنة ونار، وذكر وأنثى وحلو ومر، وحر وبرد إلى غير ذلك من أنواع المخلوقات، من الحيوانات والنباتات والجمادات.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ أي: أوجدنا هذه المخلوقات أزواجاً لأجل أن تذكروا، أي: من أجل أن تتعظوا وتتفكروا في عظمة الخالق ووحدانيته عز وجل لا شريك له.

﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أمر من الله عز وجل للناس جميعًا بالفرار إليه سبحانه. والفرار هو الهروب من شيء إلى شيء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «**فروا منه إليه واعملوا بطاعته**».

وقال سهل بن عبد الله: «**فروا مما سوى الله إلى الله**».

وقال بعضهم: «**اهربوا من عذاب الله إلى رحمته وثوابه بالإيمان والطاعة**»(١).

قال ابن القيم(٢): «وهو نوعان فرار السعداء، وفرار الأشقياء، ففرار السعداء: الفرار إلى الله عز وجل، وفرار الأشقياء: الفرار منه لا إليه. قال: وأما الفرار منه إليه ففرار أوليائه».

والمعنى: توجهوا إلى الله في عبادتكم، والجؤوا إليه واستعينوا به في جميع أموركم

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧، وانظر: «جامع البيان» ٢١/ ٥٤٩.

(٢) انظر: «مدارج السالكين» ١/ ٤٦٩، «بدائع التفسير» ٤/ ٢٤٧.

كما قال عز وجل: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة:٤] وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود:١٢٣].

وفي الحديث: «**لا ملجأ ولا منجى منك إلاَّ إليك**»[1].

﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: قل لهم يا محمد إني لكم أيها الناس من الله نذير، أي: مخوف ومحذر من عذاب الله.

«**مبين**» بيّن النذارة والتخويف لمن كذب وخالف أمر الله بما جئتكم به من الدلائل والحجج القاطعة والبراهين الساطعة من عند الله عز وجل بما أوحاه الله إليَّ في القرآن والسنة النبوية وغير ذلك من الآيات والمعجزات كما قال ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني وإني أنا النذير العُريان، فالنجاء، النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة، فصبحهم الجيش فاجتاحهم»[2].

ومهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام وسيدهم رسولنا ونبينا محمد ﷺ هي البشارة والإنذار كما قال عز وجل: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

واكتفى في هذا الموضع بذكر الإنذار فقط لأن الكلام ـ والله أعلم ـ مع المكذبين للرسل عليهم الصلاة والسلام ومنهم كفار قريش المخاطبون بهذه الآيات وما بعدها.

﴿وَلَا تَجْعَلُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أمر الله عز وجل في الآية السابقة بالفرار إليه سبحانه وذلك باللجوء إليه والاعتماد عليه والتوجه إليه وعبادته وتوحيده، ثم أتبع ذلك بالنهي عن أن يجعل مع الله إلهاً آخر، وأكد الطلبين: الأمر باللجوء والتوجه إليه وعبادته، والنهي عن الإشراك به بقوله ﴿إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ إقامة للحجة على الخلق، وأنه مرسل من عند الله عز وجل بالنذارة والتخويف لهم

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٧، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ٢٧١٠، وأبو داود في الأدب ٥٠٤٦، والترمذي في الدعوات ٣٣٩٤، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٧٦ ـ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ـ الانتهاء عن المعاصي ٦٤٨٢ ـ من حديث أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه.

من عقاب الله إن أشركوا مع الله غيره، وهو بين النذارة بما جاء به من عند الله من الآيات والحجج والمعجزات.

قوله: ﴿وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ﴾ جعل بمعنى صير، أي: لا تصيروا مع الله إلهًا آخر، أي: شريكًا له في العبادة، أو الطاعة، أو المحبة من المناصب والرياسات وحب الظهور، والأولاد والأزواج، والهوى والدنيا، قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال ﷺ: «**تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**»[(١)].

الفوائد والعبر:

١ ـ التنبيه على كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وتمام قوته، وعظيم نعمه، في بناء السماء بقوة وتوسيعها وفرش الأرض ومهدها، وخلق الزوجين من كل شيء لأجل أن يتذكر الخلق ويعتبروا.

٢ ـ وجوب الفرار إلى الله ـ عز وجل ـ بعبادته وحده لا شريك له واللجوء إليه والاستعانة به في جميع الأمور وسائر الأحوال.

٣ ـ وجوب الحذر من الشرك قليله وكثيره، كبيره وصغيره، جليه وخفيه.

٤ ـ تأكيد بيان ووضوح ما جاء به ﷺ من الإنذار بالآيات العظيمة والحجج والمعجزات.

٥ ـ أن مهمة الرسول ﷺ هي الإنذار للمكذبين والبشارة للمؤمنين.

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٥٢﴾ أَتَوَاصَوْاْ بِهِۦۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٥٣﴾ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ ﴿٥٤﴾ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَٰبِهِمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ ﴿٥٩﴾ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ ﴿٦٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بيّن عز وجل في الآيات السابقة أن في إهلاك المكذبين عظة وعبرة، كما أن في ذلك وفي خلق السموات والأرض والأزواج دلالة على عظيم قدرة الله ـ عز وجل مما يوجب إخلاص العبادة له وحده، ثم أتبع ذلك بتسلية النبي ﷺ ببيان أن ما حصل من قومه من التكذيب له ورميه بالسحر والجنون هو ديدن المكذبين للرسل قبله آمراً له بالإعراض عنهم ومذكراً للمؤمنين، ومبيناً أنه عز وجل إنما خلق الخلق ليعبدوه، وأنه الغني عن خلقه، ومتوعداً المكذبين له ﷺ بالعذاب في الدنيا والآخرة كسابقيهم.

قوله: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ هذا فيه تسلية للنبي ﷺ وبيان أن ما حصل له من التكذيب والرمي بالسحر والجنون من قومه حصل لغيره من الأنبياء قبله من أممهم.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ما حصل لك من قومك، فمرجع الإشارة إلى ما حصل له من قومه، من رميهم له بالسحر أو الجنون.

﴿مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ أي: ما أتى الذين من قبل قومك من الأمم من رسول من عند الله.

﴿إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ أي: إلاّ قالوا عن رسولهم هو ساحر، أو مجنون.

والساحر: هو الذي يعمل السحر ويعقد العقد بالخفاء وينفث فيها ويؤثر في العقول والأبدان والأبصار بإذن الله الكوني، كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة:١٠٢].

﴿أَوْ مَجْنُونٌ﴾ «أو» مانعة خلو، أي لا يخلو حاله إما أن يكون ساحرًا، أو يكون مجنوناً وليست مانعة اجتماع، أي: قد يجتمع فيه الوصفان كما يقال: جالس الحسن أو

ابن سيرين أي: لا يخلو حالك من مجالسة أحدهما، ولا يمتنع أن تجالسها معًا، ومانعة الاجتماع مثل قولهم: تزوج هندًا أو أختها، أي: إما هذه وإما هذه، أما أن تتزوجهما معًا فلا.

والمجنون: مختل العقل.

وإنما رموه ﷺ بالسحر لقوة تأثير ما جاء به من الوحي وبلاغته. ورموه بالجنون لدعوته إلى توحيد الله وتقرير البعث ومخالفة ما هم عليه وآباؤهم من الشرك والضلال المبين، وهم في هذا يتخبطون هدفهم تنفير الناس منه ﷺ وإلا ففرق بين الساحر والمجنون، والشاعر والكاهن.

وهكذا قال فرعون لموسى عليه السلام قال تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ وَقَالَ سَٰحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٣٩]، وقال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَٰحِرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس:٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [ص: ٤]، وقال تعالى: ﴿۞كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ﴾ [القمر:٩].

﴿أَتَوَاصَوْا۟ بِهِۦ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أوَصّى بعضهم بعضا بهذه المقالة؟.

﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ «بل» للإضراب الإبطالي، و(طاغون): جمع طاغٍ، والطغيان هو الزيادة ومجاوزة الحد ومنه قوله: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١].

ومنه سُمي الطاغوت: وهو ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله.

أي: والحقيقة والواقع أنهم لم يوص بعضهم بعضًا بذلك، بل جمعهم على ذلك توافقهم على الطغيان.

قال ابن كثير[١]: «أي: لكنهم قوم طغاة، تشابهت قلوبهم، فقال متأخرهم كما قال متقدمهم».

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ أمر من الله عز وجل لرسوله ﷺ بالإعراض عنهم، وأنه لا لوم عليه ولا تبعة في كفرهم وطغيانهم بعد أن بلغهم رسالة ربه وأدى الأمانة،

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠١.

ونصح للأمة وجاهد في الله حق جهاده، وهذا فيه تسلية ثانية له ﷺ ببيان أنه لا يُلام على إعراضه عنهم وعدم إيمانهم.

وذلك أن مهمة الرسول ﷺ هي البلاغ فقط، كما قال تعالى: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران:٢٠]، وقال تعالى: ﴿مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ [المائدة:٩٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل:٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤، العنكبوت: ١٨] إلى غير ذلك من الآيات في هذا المعنى.

أما هداية القلوب فهي بيد علام الغيوب، كما قال عز وجل: ﴿۞ لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [البقرة:٢٧٢].

وفي هذا وذاك تسلية للدعاة إلى الله عز وجل والمصلحين والمرشدين والموجهين من الآباء والأمهات وغيرهم فليس عليهم إلاَّ النصح والإرشاد والتوجيه وأما هداية القلوب فبيد الله عز وجل.

كما أن في قوله: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَآ أَنتَ بِمَلُومٍ﴾ تهديداً ووعيداً وتخويفاً وتحذيراً للمكذبين.

﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ وهذا فيه أيضًا تسلية وطمأنة له ﷺ وأمر له بالتذكير والوعظ والاستمرار على ذلك، وإعلام له بأن دعوته ﷺ وجهاده في الأمة وتذكيره لن يخيب، بل سيكون له أعظم النتيجة والأثر وينتفع بذلك المؤمنون، وإن أعرض عنه الطغاة المعرضون؛ لأجل أن يستمر في تذكيره ودعوته، ولا يبالي بالطغاة المعاندين، وهكذا ينبغي للدعاة إلى الله والمصلحين والموجهين من الآباء والأمهات وغيرهم أن لا يستبطئوا النتائج ويستعجلوا في جني الثمار، فإن من تعجل شيئا قبل أوانه عوقب بحرمانه، فها هو نبي الله نوح عليه السلام مكث في قومه ألف سنة إلاَّ خمسين عامًا ومع ذلك ما آمن معه إلاَّ قليل، ولكن لابد لكل مجتهد من نصيب، ولابد بإذن الله عز وجل من الثمرة والنتيجة، وأقل الأحوال براءة الذمة.

والذكرى: هي الموعظة بذكر الأحكام مقرونة بالترغيب والترهيب والثواب والعقاب وبيان آيات الله الشرعية والكونية الدالة على عظمته عز وجل وقدرته

واستحقاقه العبادة دون من سواه.

﴿نَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: ينتفع بها المؤمنون المصدقون بوعد الله ووعيده دون من سواهم، فلا ينتفع بالذكرى إلاَّ المؤمنون كما قال عز وجل:

﴿فَذَكِّرْ إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ ۝٩ سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ۝١٠ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ۝١١ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾ [الأعلى:٩-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا۟ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ الواو: استئنافية و«ما» نافية، «خلقت» أي: أوجدت، و(الجن والإنس) هما الثقلان، والإنس ذرية آدم عليه السلام، والجن ذرية إبليس لعنه الله.

خلق الله الإنس من الطين، وخلق الله الجن من مارج من نار.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ [الرحمن:١٤-١٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۝٢٦ وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧].

وفي الحديث: «**خلق الله الملائكة من نور، وخلق الجن من مارج من نار، وخلق آدم مما ذكر لكم**»[١] يعني من التراب والطين.

﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ «إلاَّ» أداة حصر واللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ لام التعليل، أي: إنما خلقتهم لأجل عبادتي، لا لغير ذلك.

قال ابن تيمية[٢]: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ قال: إلاَّ لآمرهم بعبادتي».

وقال ابن كثير[٣]: «أي: إنما خلقتهم لآمرهم بعبادتي، لا لاحتياجي إليهم».

ورُويَ في الأثر: «خلقتك من أجلي فلا تلعب وخلقت كل شيء من أجلك فلا تتعب».

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٩٦ ـ من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٢) في «مجموع الفتاوى» ٨/ ٣٩-٥٧، ١٨٦.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠١.

والعبادة لغة: التذلل والخضوع لله عز وجل، يقال بعير معبد، أي: مذلل بالركوب عليه، وطريق معبد، أي: ذللته الأقدام.

وهي اصطلاحًا: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

وتطلق العبادة على فعل التعبد، وتطلق على نفس العبادة كالصلاة والزكاة والصوم والحج وغير ذلك.

والعبادة تشمل فعل الواجبات والمستحبات والمباحات مع النية الحسنة، وترك المحرمات والمكروهات، فالموفقون عاداتهم عبادات يؤجرون على أكلهم وشربهم ونومهم ونزهتهم وراحتهم، والمخذولون عباداتهم عادات، وفتش نفسك، وفَرْقٌ بين موفق يأكل ليعيش ويتعبد لله، وبين مخذول يعيش ليأكل أشبه حالاً بالبهيمة.

فالهدف الذي أوجد الخلق من أجله هو عبادة الله عز وجل وتوحيده، وهو الأمانة التي أشفقت من حملها السموات والأرض والجبال كما قال عز وجل: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

وكثير من الناس لا يفهم هذه الحقيقة وإن ادعى أنه يفهمها، وكيف فهمها من يعيش ليأكل، لا يأكل ليعيش. وإنَّ كل ما يحصل من تقصير وبرود في القيام بحقوق الله وحقوق الخلق، وضعف في المنافسة والمسارعة إلى الخير هو بسبب عدم فهم هذه الحقيقة تماماً. فوأسفا على أعمار وأوقات وصحة وفراغ تضيع سدى، وتذهب بلا فائدة ولا عمل ـ والله المستعان.

ولقد أحس القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح ... فاعمل لنفسك صالحًا يا صاح

﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ «ما» نافية في الموضعين، و«من» زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، والرزق: العطاء.

﴿وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ﴾ أي: وما أريد منهم أن يطعموني فهو عز وجل الغني ليس بحاجة أن يطعموه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ [الأنعام: ١٤].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ (الرزاق): اسم من أسماء الله ـ عز وجل ـ على وزن «فعّال» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة رزقه وكثرته باعتبار كثرة المرزوقين وباعتبار كثرة رزقه لكل فرد منهم. فالرزاق: هو المعطي العطاء الجزيل لجميع خلقه أموالاً وأولاداً وصحة وأمناً وغير ذلك، كما قال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠].

وفي الحديث «**لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت**»[(١)].

أي: أنه عز وجل إنما أراد شرعًا بخلقه أن يعبدوه، ولم يرد منهم كونًا أن ينفعوه.

﴿ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ (ذو) بمعنى صاحب، أي: صاحب القوة والقدرة التامة.

«المتين» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» أي: الشديد القوة العزيز، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَوِيُّ ٱلْعَزِيزُ﴾.

فهو عز وجل لم يخلق الخلق إلاّ لعبادته فقط لم يخلقهم ليتقوى بهم من ضعف أو يستكثر بهم من قلة، فهو سبحانه القوي المتين، ولا ليرزقوه ويطعموه، فهو ـ عز وجل ـ الرزاق المطعم للخلق كلهم، وهو سبحانه الغني عن الطعام والشراب، الغني عما سواه، كما قال عز وجل: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع شمله وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلاّ ما قدر له**»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى يقول: يا ابن آدم تفرغ لعبادتي أملأ صدرك غنى، وأسد فقرك، و إلاّ تفعل ملأت يديك شغلا ولم أسد فقرك**»[(٣)].

قال ابن القيم رحمه الله[(٤)]: «فأخبر أنه لم يخلق الجن والإنس لحاجة منه إليهم، ولا

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٤، ومسلم في المساجد ٥٩٣، وابو داود في الصلاة ١٥٠٥، والنسائي في السهو ١٣٤١، من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٥.

(٣) أخرجه أحمد ٢/٣٥٨، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٦، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٧ وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٤) انظر: «طريق الهجرتين» ص١٢٥-١٢٦، ٢٢٢، «بدائع التفسير» ٤/٢٤٧، ٢٤٨.

ليربح عليهم، لكن خلقهم جودًا وإحسانًا ليعبدوه فيربحوا هم عليه كل الأرباح، كقوله: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء:٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ [الروم:٤٤]».

وقال ابن القيم أيضًا: «فأخبر سبحانه أن الغاية المطلوبة من خلقه هي عبادته التي أصلها كمال محبته، وهو سبحانه كما أنه يحب أن يعبد، يحب أن يحمد ويثنى عليه، ويذكر بأوصافه العُلى وأسمائه الحسنى».

﴿فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا﴾الظلم: النقص ووضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الكفر والإشراك بالله كما قال عز وجل ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والمراد بـ ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا﴾ كفار مكة وغيرهم ممن جحدوا رسالته ﷺ وما جاء به من عند الله ـ عز وجل .

﴿ذَنُوبًا﴾ الذنوب: النصيب، أي: نصيبًا من العذاب.

﴿مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ﴾ أي: مثل نصيب أصحابهم في الظلم والتكذيب من الظالمين والمكذبين من الأمم قبلهم كما قال عز وجل: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

وعن أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله ليملي للظالم، حتى إذا أخذه لم يفلته، ثم قرأ** ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]»[1].

﴿فَلَا يَسْتَعْجِلُونِ﴾ أي: فلا يستعجلون بطلب العذاب والعقوبة فهو واقع بهم لا محالة، كما في قولهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:١٦].

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٦٨٦، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٣، والترمذي في التفسير ٣١١٠، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٨.

وقد جاءهم نصيبهم من العذاب الدنيوي في بدر الكبرى التي قتل فيها سبعون من صناديدهم، وفي الغزوات بعدها التي تتابعت عليهم فيها الهزائم وأظهر الله الهدى ودين الحق على الدين كله، وينتظرهم العذاب الأخروي يوم القيامة كما قال عز وجل: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ «ويل» كلمة تهديد ووعيد وعذاب، ويقال: هو اسم واد في جهنم.

«الذين كفروا»: أي: الذين جحدوا ربوبية الله وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته أو شيئًا من ذلك، وضده الإيمان.

﴿مِن يَوْمِهِمُ ٱلَّذِى يُوعَدُونَ﴾ أي: يوم القيامة الذي يوعدون بالبعث فيه والعذاب الأليم في النار لكفرهم وعنادهم واستكبارهم وصدهم عن دين الله عز وجل.

الفوائد والعبر:

١ ـ بيان أن ديدن المكذبين وعادتهم رمي رسل الله عليهم السلام بالسحر والجنون.

٢ ـ تسلية النبي ﷺ وتقوية عزيمته تجاه تكذيب قومه له.

٣ ـ الإنكار والتوبيخ للمكذبين، وأن الذي حملهم على التكذيب ورمي الرسل عليهم السلام بهذه المقالات هو الطغيان.

٤ ـ لا لوم عليه ﷺ بالإعراض عنهم بعد إقامة الحجة عليهم وليس عليه هداهم.

٥ ـ أمره ﷺ بالاستمرار بالتذكير وطمأنته على تحقق المنفعة بإذنه ـ عز وجل ـ، وفيه طمأنة وبشارة للدعاة بعده.

٦ ـ أن الذين يستفيدون من الذكرى وتنفعهم هم المؤمنون دون من عداهم.

٧ ـ أن الهدف من خلق الإنس والجن هو أن يعبدوا الله ـ عز وجل ـ.

٨ ـ استغناء الله ـ عز وجل ـ التام عن الخلق.

٩ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «الرزاق» و «المتين» وأنه ـ عز وجل الرزاق المطعم للخلق ذو القوة الشديدة والعزة التامة.

١٠ ـ الوعيد والتهديد للظالمين المكذبين للرسول ﷺ بما ينتظرهم من العذاب الدنيوي في بدر الكبرى وغيرها، والعذاب الأخروي في النار.

١١ ـ كما اجتمع المكذبون للرسل على رميهم بالسحر والجنون ونحو ذلك وتكذيبهم جمع الله بينهم بالعقوبات المختلفة في الدنيا، والعذاب في الآخرة بالنار.

تفسير سورة الطور

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «سمعت النبي ﷺ - يقرأ في المغرب بالطور، فما سمعت أحدًا أحسن صوتًا، أو قراءة منه»[١].

وعن أم سلمة رضي الله عنها قالت: «شكوت إلى رسول الله ﷺ - أني أشتكي، فقال: «طوفي من وراء الناس وأنت راكبة» فطفت ورسول الله ﷺ يصلي إلى جنب البيت يقرأ بالطور وكتاب مسطور»[٢].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالطُّورِ ﴿١﴾ وَكِتَابٍ مَّسْطُورٍ ﴿٢﴾ فِي رَقٍّ مَّنشُورٍ ﴿٣﴾ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ ﴿٤﴾ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ ﴿٥﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ﴿٦﴾ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ﴿٧﴾ مَّا لَهُ مِن دَافِعٍ ﴿٨﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿٩﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا ﴿١٠﴾ فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ﴿١٣﴾ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٤﴾ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ﴿١٥﴾ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾.

قوله ﴿وَالطُّورِ﴾ الواو حرف قسم وجر، والطور: مقسم به مجرور، وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام، بين فلسطين ومصر قال تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم:٥٥].

وهو طور سيناء، وطور سينين، كما قال تعالى: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [المؤمنون:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ﴾ [التين:١، ٢].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠٥٠، ومسلم في الصلاة - القراءة في الصبح ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح ٩٨٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٢.

(٢) أخرجه البخاري في الصلاة ٤٦٤، ومسلم في الحج ١٢٧٦، وأبو داود في المناسك ١٨٨٢، والنسائي في مناسك الحج ٢٩٢٥، وابن ماجه في المناسك ٢٩٦١.

وهو الجبل الذي رفعه الله عز وجل على بني إسرائيل لتخويفهم من عقاب الله تعالى كما قال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:٦٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟﴾ [البقرة: ٩٣]، وقال تعالى في سورة الأعراف: ﴿۞ وَإِذْ نَتَقْنَا ٱلْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُۥ ظُلَّةٌ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُۥ وَاقِعٌۢ بِهِمْ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱذْكُرُوا۟ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الآية: ١٧١].

وهذا ما عليه جمهور المفسرين من أن المراد بالطور الجبل الذي كلم الله عليه موسى عليه السلام. قال ابن القيم[1]: «فالطور هو الجبل الذي كلم الله عليه نبيه وكليمه موسى بن عمران عند جمهور المفسرين من السلف والخلف، وعرفه ههنا باللام، وعرفه في موضع آخر بالإضافة، فقال: ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾».

وقال ابن كثير[2]: «فالطور هو الجبل الذي تكون فيه أشجار، مثل الذي كلم الله عليه موسى، وأرسل منه عيسى، وما لم يكن فيه شجر لا يسمى طورًا، إنما يقال له جبل».

﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ الواو عاطفة، وقوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ وما بعده إلى قوله ﴿وَٱلْبَحْرِ ٱلْمَسْجُورِ﴾ معطوف على قوله: (والطور) داخل ضمن المقسم به.

والمراد بالكتاب في قوله: ﴿وَكِتَٰبٍ مَّسْطُورٍ﴾ القرآن الكريم، وقيل: المراد به التوراة لاقترانه بذكر «الطور».

وقيل: المراد به عموم الكتب السماوية المنزلة من عند الله تعالى.

وقيل: المراد به اللوح المحفوظ ورد هذا ابن القيم.

وقيل المراد به: الكتاب الذي يتضمن أعمال بني آدم، ويؤيده قوله تعالى ﴿وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [الإسراء: ١٣].

قال ابن القيم[3]: «وهذا وإن كان أقوى وأصح من القول الأول واختاره جماعة

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٣.

(٣) انظر« بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١ ـ ٢٥٢.

من المفسرين، ومنهم من لم يذكر غيره فالظاهر أن المراد به الكتاب المنزل من عند الله وأقسم الله به لعظمته وجلالته، وما تضمنه من آيات ربوبيته، وأدلة توحيده وهداية خلقه، ثم قيل هو التوراة التي أنزل الله على موسى، وكأن صاحب هذا القول رأى اقتران الكتاب بالطور فقال: هو التوراة ولكن التوراة إنما أنزلت في ألواح لا في رق، إلا أن يقال: هي في رق في السماء وأنزلت في ألواح وقيل: هو القرآن، ولعل هذا أرجح الأقوال؛ لأنه سبحانه وصف القرآن بأنه في صحف مطهرة بأيدي سفرة كرام بررة، فالصحف هي الرق، وكونه بأيدي سفرة هو كونه منشورًا، وعلى هذا يكون قد أقسم بسيد الجبال وسيد الكتب، ويكون ذلك متضمنًا للنبوتين المعظمتين، نبوة موسى ونبوة محمد، وكثيرًا ما يقرن بينهما وبين محلهما كما في سورة التين والزيتون».

﴿مَّسْطُورٍ﴾ بمعنى مكتوب مفروغ من كتابته، وهذا يضعف أن يكون المراد به كتب الأعمال التي بأيدي الملائكة.

﴿فِى رَقٍّ مَّنشُورٍ﴾ الرق: الصحف البيضاء، كما قال عز وجل ﴿فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣-١٥].

وأصل «الرق» الجلد الرقيق الذي يكتب فيه، ومن هنا سميت خرازة الجلود: كتابة. قال الشاعر ملغزًا:

وكاتبون وما خطت أناملهم ... حرفًا وما قرؤوا ما خط في الكتب

ومعنى ﴿مَّنشُورٍ﴾ أي: منشور في الصحف، معروض لمن يقرؤه، لم يمنع أحد من قراءته والاطلاع عليه بشرط الطهارة المعنوية من الشرك والطهارة الحسية من الأحداث.

﴿وَٱلْبَيْتِ ٱلْمَعْمُورِ﴾ هو البيت الذي في السماء السابعة حذاء الكعبة المسمى بالضُّراح، وهو سيد البيوت.

﴿ٱلْمَعْمُورِ﴾ صفة للبيت، أي: الذي تعمره الملائكة بالعبادة يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه آخر ما عليهم، والذي رفع للنبي ﷺ ليلة الإسراء، كما جاء في حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما في قصة الإسراء، والذي جاء فيه: «فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما

عليهم»[١].

قال ابن كثير[٢]: «يعني يتعبدون فيه ويطوفون به كما يطوف أهل الأرض بكعبتهم كذلك البيت المعمور هو كعبة أهل السماء السابعة، ولهذا وجد إبراهيم الخليل ـ عليه السلام ـ مسنداً ظهره إلى البيت المعمور، لأنه باني الكعبة الأرضية والجزاء من جنس العمل، وهو بحيال الكعبة، وفي كل سماء بيت يتعبد فيه أهلها و يصلون إليه، والذي في السماء الدنيا يقال له: بيت العزة».

وقيل إن المراد بالبيت المعمور: البيت الحرام قال ابن القيم[٣]: «ولا ريب أن كلاً منهما معمور: فهذا معمور بالملائكة وعبادتهم، وهذا معمور بالطائفين والقائمين والركع السجود، وعلى كلا القولين فكل منهما سيد البيوت».

﴿وَٱلسَّقۡفِ ٱلۡمَرۡفُوعِ﴾ السقف في الأصل: ما يسقف به البناء قال تعالى: ﴿فَخَرَّ عَلَيۡهِمُ ٱلسَّقۡفُ مِن فَوۡقِهِمۡ﴾ [النحل:٢٦].

والمراد بالسقف المرفوع: السماء؛ لأنها سقف الأرض، وهي كالقبة عليها، وسقف العالم، قال تعالى: ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلسَّمَآءَ سَقۡفًا مَّحۡفُوظًاۖ وَهُمۡ عَنۡ ءَايَٰتِهَا مُعۡرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢].

ويحتمل أن المراد به العرش؛ لأنه سقف لجميع المخلوقات قال ابن كثير[٤]: «وله اتجاه وهو يراد مع غيره، كما قاله الجمهور».

﴿وَٱلۡبَحۡرِ ٱلۡمَسۡجُورِ﴾ البحر في الأصل: هو الشق والمراد به الماء الكثير كمياه البحار والأنهار والغدران، وسمي بذلك؛ لعمقه واتساعه وكونه في شق من الأرض.

والمراد بالبحر بحر الأرض الذي نشاهده، وقيل المراد به: البحر الذي فوق السموات وعليه العرش.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ ذكر الملائكة ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ـ باب الإسراء ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨، والترمذي في التفسير ٣٣٤٦، وأحمد ٣/١٤٨-١٤٩.

(٢) في «تفسيره» ٧/٤٠٣-٤٠٤.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/٢٥٢.

(٤) في «تفسيره» ٧/٤٠٥.

﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾ المؤجج والموقد والمملوء نارًا يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] أي: أوقدت فصارت نارًا تتأجج.

وقيل ﴿ٱلْمَسْجُورِ﴾: المملوء ماءً.

وقيل المراد بالمسجور: الممنوع المكفوف عن الأرض لئلا يغمرها فيغرق أهلها، مع أنه يغطي أكثر من ثلاثة أرباع الأرض، وقيل المراد بالمسجور: المرسل، وقيل: اليابس الذي نضب ماؤه، وقيل غير ذلك.

قال ابن القيم[(١)]: «وأقوى الأقوال في المسجور أنه الموقد، وهذا هو المعروف في اللغة من المسجور ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ [التكوير:٦] قال علي وابن عباس: أوقدت فصارت نارًا، ومن قال: يبست وذهب ماؤها فلا يناقض كونها نارًا موقدة، وكذا من قال ملئت، فإنها تملأ نارًا وإذا اعتبرت أسلوب القرآن ونظمه ومفرداته رأيت اللفظة تدل على ذلك كله، فإن البحر محبوس بقدرة الله، ومملوء ماء، ويذهب ماؤه يوم القيامة، ويصير نارًا، فكل واحد من المفسرين أخذ معنى من هذه المعاني».

وفي كون البحر مملوءً بالماء، محيطًا بالأرض مع أنه ليس في الطبيعة ما يقتضي حبس الماء عن بعض جوانب الأرض، بل إن مقتضى الطبيعة أن يكون الماء غامرًا للأرض؛ لأن كرة الماء عالية على كرة الأرض بالذات في ذلك؛ دلالة على وجود الخالق وكمال قدرته فهو الذي أمسك الماء بقدرته أن يفيض على الأرض فيغرقها، وفي هذا أعظم الرد على أصول الملاحدة والدهرية الذين ينكرون الصانع وينسبون الأمر إلى الطبيعة[(٢)].

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَٰقِعٌ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: جواب القسم، أي: لواقع على الكافرين فأقسم عز وجل بخمسة أشياء من أعظم مظاهر آياته وقدرته وحكمته الدالة على ربوبيته ووحدانيته على أن عذابه واقع على الكافرين والمكذبين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٥.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥١-٢٥٥.

﴿مَا لَهُۥ مِن دَافِعٍ﴾ أي: ما له من أحد يدفعه ويمنعه قبل أن يقع، ولا يدفعه ويرفعه إذا وقع، بخلاف عذاب المؤمن العاصي فقد يدفع قبل وقوعه أو بعد وقوعه، إما بعفو الله ـ عز وجل ـ أو بشفاعة صالح المؤمنين، وغير ذلك.

﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا﴾ أي: أن وقوع العذاب بالمكذبين يوم القيامة الذي من علاماته وأهواله أن تمور السماء فيه موراً، أي: تتحرك وتدور وتموج وتضطرب وتتكفأ قال الجوهري في الصحاح[1]: «مار الشيء يمور موراً: تَرَهْيَأَ، أي: تحرك وجاء وذهب، كما تتكفأ النخلة العَيْدانة».

قال الأعشى[2]:

كأن مشيتها من بيت جارتها مور السحابة لا ريث ولا عجل

قال ابن القيم[3]: «والمور قد فسر بالحركة وفسر بالدوران وفسر بالتموج والاضطراب والتحقيق أنه حركة في تموج وتكفؤ وذهاب ومجيء، ولهذا فرق بين حركة السماء وحركة الجبال فقال: ﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ وقال: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾ [التكوير: ٣٠] من مكان إلى مكان، وأما السماء فإنها تتكفأ وتموج وتذهب وتجيء».

﴿وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا﴾ كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل:٨٨]، وقال تعالى: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ﴾ [القارعة:٥]، وتنسف نسفًا وتصير هباء، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾ [طه:١٠٥-١٠٧].

قال ابن القيم[3]: «ثم ذكر وعيد المكذبين بالمعاد والنبوة، وذكر أعمالهم وعلومهم التي كانوا عليها وهي الخوض الذي هو كلام باطل، واللعب الذي هو سعي ضائع، فلا علم نافع ولا عمل صالح، بل علومهم خوض بالباطل وأعمالهم لعب...»

---

(١) مادة «مور» وانظر «لسان العرب» مادة «مور».

(٢) انظر «ديوانه» ص١٤٤ طبعة بيروت وفيه «مر السحابة» و لا شاهد فيه والبيت في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة ٢/ ٢٣١، و«جامع البيان» ٢٧/ ١٣، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٦.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٦.

﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ﴾ ويل كلمة وعيد وتهديد، ويقال: اسم واد في جهنم والمعنى: فويل لهم ذلك اليوم من عذاب الله ونكاله بهم وعقابه لهم.

﴿الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ﴾ أي: يخوضون في الباطل، ويتخذون دينهم هزوًا ولعبا فأعمالهم وأقوالهم وأعمارهم كلها لعب ولهو لا جد فيها، بل هي وبال عليهم، كما قال الله تعالى فيما حكاه عنهم أنهم يقولون: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [المدثر: ٤٥]، وكما قال تعالى عن المنافقين أنهم قالوا ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ﴾ [التوبة:٦٥]، وقال تعالى عن الكافرين: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وإذا كان هذا الوصف للمكذبين، فما حال مجالس المؤمنين المصدقين، وماذا فيها من الخوض فيما لا يعني من القيل والقال والغيبة والنميمة وضياع الأعمار، ولا شك أن من كانت هذه حاله فله نصيب من الوصف المذكور في الآية. وما أكثر هذا الصنف وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له ... فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ﴾ يدعون: يساقون ويدفعون في أقفيتهم وأكتافهم (دعا) دفعًا بعد دفع بشدة وعنف.

﴿إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ وهي الدار التي أعدها الله لتعذيب الكفرة والعصاة، وسميت جهنم لجهمتها وظلمتها و بعد قعرها وشدة حرها أعاذنا الله وجميع المسلمين منها.

﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ۝ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ۝ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ أي: يقال لهم هذا، وقد يكون القائل هو الله عز وجل، أو ملائكته وزبانية النار، ويقال لهم هذا على وجه التقريع والتوبيخ لهم.

وفي توجيه الخطاب لهم مباشرة بهذا التقريع والتوبيخ من العذاب المعنوي الذي لا يقل شدة ووقعًا على قلوبهم من العذاب الحسي.

قوله: ﴿هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾ يقال لهم هذا عندما يعاينون النار

ويوقفون عليها.

أي: هذه النار التي كنتم بها في الدنيا تكذبون، وتقولون لا حقيقة لها بتكذيبكم للرسل والوحي من عند الله ـ عز وجل ـ فها هي النار، وليس الخبر كالعيان؛ ولهذا قال الله عنهم: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُوا۟ يَـٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ٢٧].

﴿أَفَسِحْرٌ هَـٰذَآ﴾ الاستفهام للتقريع والتوبيخ، أي: أهذه النار التي أوقفتم عليها، مجرد سحر وتخييل كما كنتم في الدنيا ترمون رسل الله عز وجل وما جاؤوا به من الوحي بالسحر. كما قال الله تعالى عنهم: ﴿وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [سبأ: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢].

وهكذا قال فرعون وقومه للحق الذي جاءهم به موسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوٓا۟ إِنَّ هَـٰذَا لَسِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [يونس: ٧٦]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْهُمْ ءَايَـٰتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا۟ هَـٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [النمل: ١٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِـَٔايَـٰتِنَا بَيِّنَـٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى﴾ [القصص:٣٦].

وهكذا قال النصارى لعيسى عليه السلام كما قال تعالى: ﴿فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَـٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١١٠].

وهكذا قال المكذبون من سائر الأمم لرسلهم، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا۟ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢].

﴿أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ﴾ الاستفهام كسابقه للتقريع والتوبيخ، أي: أم على أبصاركم غشاوة فلا تبصرونها كما كان عليها غشاوة في الدنيا فلا تبصرون الحق. والحقيقة أن هذه المزاعم قد زالت، والغشاوة قد انقشعت كما قال تعالى: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَـٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق:٢٢] أي: حاد جدًا.

﴿ٱصْلَوْهَا﴾ أمر إهانة وتحقير، أي: ادخلوها وانغمروا فيها، وقاسوا حرها وتقلبوا فيها لتصيبكم من جميع جهاتكم وجوانبكم.

﴿فَٱصْبِرُوٓاْ أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ أي: فاصبروا على حرها ولهيبها وحميمها وزقومها وألوان عذابها ﴿أَوْ لَا تَصْبِرُواْ﴾ «أو» عاطفة.

﴿سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ﴾: أي: سواء عليكم أصبرتم على عذابها أو لم تصبروا، فلا الصبر ـ مع استحالته ـ يخفف عنكم عذابها، ولا الجزع يعطف عليكم قلوب الخزنة، ولا يستنزل لكم الرحمة، فعذابها ملازم لكم، لا محيد لكم عنها، ولا خلاص لكم منها كما قال عز وجل: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة:١٦٧]، وقال عزل وجل ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخْرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [المائدة:٣٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿وَنَادَوْاْ يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾ [الزخرف:٧٧].

﴿إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ «إنما» كافة ومكفوفة[1]، تفيد الحصر، أي: ما تجزون إلا ما كنتم تعملون و«ما» موصولة أو مصدرية والتقدير: إنما تجزون الذي كنتم تعملون، أو إنما تجزون عملكم. فدفعهم إلى النار وغمرهم فيها جزاء كفرهم. فالله عز وجل لا يظلم أحدًا بل يجازي كلا بما عمل إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

وينبغي للإنسان أن يتأمل فيما ذكر الله عز وجل من أهوال يوم القيامة وما توعد الله عز وجل به المكذبين من العذاب والتقريع والتوبيخ فيحذر من سلوك طريقهم فإن السعيد من وعظ بغيره.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالطور وما بعده على وقوع العذاب على الكافرين فلا مانع يمنعه، ولا رافع يرفعه.

٢ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ للطور وهو مكان نبوة موسى عليه السلام التي هي من

---

(١) أي: دخلت «ما» على «إن» فكفتها عن العمل.

أعظم النبوات.

٣ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ للقرآن الكريم الذي هو أعظم كتبه ـ عز وجل ـ، أنزل على فضل رسله محمد ﷺ.

٤ ـ إثبات البيت المعمور وعظمته في السماء السابعة حذاء الكعبة والذي تعمره الملائكة بالعبادة.

٥ ـ الإشارة لعظم قدرة الله ـ عز وجل ـ في رفع السماء وبنائها، وفي خلق البحر وملئه بالماء ثم بالنار.

٦ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٧ ـ شدة أهوال القيامة ففيه تموج السماء وتضطرب تمهيداً لذوبانها وتبديلها، وتسير الجبال تمهيداً لنسفها وكونها كثيباً مهيلاً.

٨ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين الخائضين في الباطل.

٩ ـ أنه يجمع للمكذبين العذاب الحسي بدفعهم بشدة إلى النار والعذاب المعنوي بتقريعهم وتوبيخهم على تكذيبهم بها في الدنيا وزعمهم أنما جاءت به الرسل سحر.

١٠ ـ تبكيت المكذبين وتعنيفهم بشدة، وتحديهم بقوة، وبيان أن هذا العذاب جزاء عملهم.

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَعِيمٍ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أقسم الله عز وجل في الآيات السابقة على وقوع العذاب على المكذبين، وذكر أنهم يوم القيامة يدفعون إليها دفعًا ويغمرون فيها جزاء تكذيبيهم وخوضهم بالباطل، ثم أتبع ذلك بذكر ما أعده سبحانه للمتقين جزاء تقواهم وعملهم الصالح على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء، فلا يقنط من رحمة الله ولا يأمن مكر الله.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»[1].

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: (إن) حرف توكيد ونصب، (المتقين) جمع متقٍ، وهم الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فجعلوا بذلك بينهم وبين عذاب الله وقاية.

﴿فِى جَنَّٰتٍ﴾ جنات: جمع جنة، وهي ما أعده الله عز وجل لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين، وسميت (جنات)؛ لأنها تجن، أي: تستر من بداخلها لكثرة أشجارها والتفافها ونكّرت للتعظيم.

﴿وَنَعِيمٍ﴾ أي: ونعيم عظيم، والنعيم: ما يتنعمون به ويتلذذون من نعيم البدن ونعيم القلب، من أنواع المآكل والمشارب والمناكح والملابس والمراكب والحبرة والسرور وغير ذلك. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ هذا وما بعده تفصيل للنعيم الذي أعده الله للمتقين في الجنات.

﴿فَٰكِهِينَ﴾ حال، أي: حال كونهم فاكهين بما آتاهم ربهم من أصناف الملاذ

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

وأنواع النعيم، والتفكه: التلذذ بالشيء والإعجاب به والسرور وطيب النفس والبال والمرح والفرح كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ ٱلْيَوْمَ فِى شُغُلٍ فَٰكِهُونَ ۝٥٥ هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ﴾ [يس:٥٥-٥٦] والتفكه من أعظم النعيم المعنوي، وهو نعيم القلب.

﴿بِمَآ ءَاتَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي آتاهم ربهم.

وأسند الإيتاء إليه عز وجل باسم الربوبية تذكيرًا بأن النعم الدنيوية والأخروية كلها منه سبحانه وأنه المربي المنعم كما قال عز وجل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل:٥٣].

﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ ٱلْجَحِيمِ﴾ أي: نجاهم من عذاب الجحيم، وهي النار التي أعدت للكافرين والعصاة، وسميت بالجحيم لعظمها وشدة توقدها وتأججها وبعد قعرها، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ لَهُۥ بُنْيَٰنًا فَأَلْقُوهُ فِى ٱلْجَحِيمِ﴾ [الصافات: ٩٧].

وهذه نعمة مستقلة، فجمع الله لهم بين حصول المطلوب والنجاة من المرهوب، وذلك غاية الفوز والفلاح.

وفي الإظهار في مقام الإضمار في قوله ﴿وَوَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ﴾ وإضافة «رب» إلى ضميرهم في الموضعين امتنان من الله ـ عز وجل عليهم وإشارة لعنايته بهم وتكريمه وحفظه لهم.

قال ابن القيم[1]: «والمقصود أنه سبحانه جمع لهم بين النعيمين: نعيم القلب بالتفكه، ونعيم البدن بالأكل والشرب والنكاح، ووقاهم عذاب الجحيم، فوقاهم مما يكرهون، وأعطاهم ما يحبون جزاء وفاقًا..»

﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤] أي: يقال لهم هذا تكريمًا لهم، وقد يكون القائل لهم هذا هو الله عز وجل أو ملائكته، وأطلقه كأن كل قائل يقول لهم هذا ويهنئهم به.

وإنما أتى الأمر بالأكل والشرب دون سائر أنواع التمتع؛ لأن الأكل والشرب من

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٢٥٧

أهم وأخص أنواع التمتع، ومما لا غنى للإنسان عنهما وهما كسوة الباطن، بخلاف ما عداهما من أنواع التمتع.

﴿هَنِيٓـٔٗا﴾ أي: طيبًا لذيذًا مستساغًا حال الأكل، ونافعًا مفيدًا محمود العاقبة بعد الأكل، مع الأمن من انقطاع هذا النعيم، وهذه الأوصاف الثلاثة لا تتحقق إلا في طعام وشراب أهل الجنة. نسأل الله تعالى من فضله.

﴿بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ الباء سببية و«ما» موصولة أو مصدرية، أي: بسبب الذي كنتم تعملون، أو بسبب عملكم، وهذا يقرر مذهب أهل السنة والجماعة أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة، وليس عوضًا عن دخول الجنة كما تقوله المعتزلة، وإنما دخول الجنة برحمة أرحم الراحمين.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«لن يُدْخِل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل، فسددوا وقاربوا، ولا يتمنين أحدكم الموت، إما محسنًا فلعله أن يزداد خيرًا وإما مسيئاً فلعله أن يستعتب»**[1].

وكما في قصة الإسرائيلي الذي عبد الله خمسمائة سنة وأخرج الله له الرمانة كل يوم ينزل ويأكل منها، ولما قال الله ـ عز وجل ـ: «أدخلوا عبدي الجنة برحمتي. قال: بل بعملي. فقال الله ـ عز وجل ـ: رد واعبدي فحاسبوه، فوجدوا أن أعماله كلها خلال خمسمائة سنة لا تكافئ نعمة البصر، فقال الله ـ عز وجل ـ: أدخلوا عبدي النار بعدلي. فقال: لا يا رب أدخلني الجنة برحمتك»[2].

قال ابن كثير[3]: «وقوله ﴿كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾ أي: هذا بذلك تفضلا منه وإحسانًا».

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ﴾ الاتكاء: الجلوس.

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٢) أخرجه الحاكم في التوبة ٤/ ٢٥٠ ـ من حديث جابر ـ رضي الله عنه ـ وقال: «صحيح الإسناد» وضعفه الذهبي. وقال ابن القيم في «شفاء العليل» ١/ ١١٤: «إسناده صحيح، ومعناه صحيح لا ريب فيه».

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧.

والسرر: جمع سرير، وهو موضع الجلوس والاضطجاع والاتكاء، قال ابن عباس رضي الله عنهما: «السرر في الحجال»[١]. قال تعالى: ﴿وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وَسُرُرًا عَلَيْهَا يَتَّكِـُٔونَ﴾ [الزخرف: ٣٤].

وعن الهيثم بن مالك الطائي أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرجل ليتكئ المتكأ مقدار أربعين سنة ما يتحول عنه، ولا يمله، يأتيه ما اشتهت نفسه، ولذت عينه**»[٢].

﴿مَّصْفُوفَةٍ﴾ أي: وجوه بعضها إلى بعض كما قال عز وجل ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧، الصافات:٤٤]، وقال تعالى: ﴿عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ۝ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ﴾ [الواقعة: ١٥ ـ ١٦]، ومعنى ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة بالذهب بإحكام، وقال تعالى: ﴿فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ﴾ [الغاشية:١٣].

﴿وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ كقوله تعالى في سورة الدخان ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ [الآية:٥٤]، والمعنى: قرناهم، وأنكحناهم إياهن.

والحور: النساء الجميلات اللاتي يحار الطرف في جمالهن وحسنهن، وبياض وجوههن وأجسادهن.

و«العين» حسان الأعين، اللاتي جمعن بين سعة العيون، مع شدة سواد العين وشدة بياضها، قال ابن كثير[٣]: «وهي النجلاء العيناء»، كما قال عز وجل ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢، ٢٣]، وقال عز وجل: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩]، وقال عز وجل: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ [الرحمن: ٧٠]

قال ابن القيم[٤]: «فالبياض في ألوانهن، والحسن في وجوههن، والملاحة في عيونهن».

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٨، ٢٦٢، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٠٧.
(٣) في «تفسيره» ٧/ ١١.
(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٥٩.

الفوائد والعبر:

١ ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب.

٢ ـ عظم ما أعد الله عز وجل ـ للمتقين من الجنات والنعيم.

٣ ـ تفكه المتقين وتلذذهم بما آتاهم ربهم من ألوان النعيم، ووقايتهم من عذاب الجحيم، فحصلوا على المطلوب، ونجوا من المرهوب.

٤ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة للمتقين.

٥ ـ تهنئة أهل الجنة بما أعد الله لهم من الأكل والشرب جمعاً لهم بين النعيم الحسي والنعيم المعنوي، الذي لا يقل عن النعيم الحسي.

٦ ـ أن طعام أهل الجنة أبلغ ما يكون طيباً ولذة وطعماً ونفعاً وحسن عاقبة بلا انقطاع.

٧ ـ أن الإيمان والعمل الصالح سبب لدخول الجنة والتنعم فيها.

٨ ـ أن من نعيم أهل الجنة جلوسهم على السرر المصفوفة يقابل بعضهم بعضا ولا يتدابرون، وتزويجهم بالحور العين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ ۚ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ وَأَمْدَدْنَٰهُم بِفَٰكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٨﴾﴾.

هذه الآيات في تفصيل أنواع النعيم الذي أعده الله للمتقين في الجنات.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ﴾ الواو استئنافية قرأ أبو عمرو (**وأتبعناهم ذرياتِهم**) فالفاعل ضمير المتكلم و(**ذرياتهم**) بالألف وكسر التاء مفعول به أي: أن الله أتبعهم ذرياتهم بإيمان، وقرأ ابن عامر (**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّاتُهُم**) وقرأ الباقون (**وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم**).

أي: والذين آمنوا من الوالدين واتبعتهم ذريتهم من أولادهم وأحفادهم بإيمان، أي: فاجتمعوا على الإيمان، لا على النسب والحسب والحرية أو الرق، بل على الإيمان.

﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ أي: اتبعناهم ذريتهم فجمعنا بينهم في المنزلة في الجنة وإن لم تبلغ الذرية مبلغ الآباء في العمل لتقرّ أعين الوالدين بأولادهم وأحفادهم، وليحصل للجميع لذة الاجتماع بعد الفرقة، وهذا من فضل الله عز وجل وكرمه وامتنانه وإحسانه إلى عباده، وهذا من أفضل ألوان النعيم، فإن في اجتماع الوالدين بذريتهم، أولادهم وأحفادهم كمال الأنس والسرور. نسأل الله تعالى من فضله. ولا سرور مع الفرقة، ولهذا فإن الموت قد فضح الدنيا فلم يدع لذي لب فيها فرحًا

﴿وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَىْءٍ﴾ قرأ ابن كثير بكسر اللام من (أَلِتناهم) وقرأ الباقون بفتحها.

أي: وما نقصناهم من عملهم من شيء، فلم نحط من درجة الوالدين مقابل رفع ذريتهم معهم قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إن الله ليرفع ذرية المؤمن في درجته، وإن كانوا دونه في العمل لتقر بهم عينه، ثم قرأ هذه الآية»[1].

(١) اخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢١/ ٥٧٩ ـ ٥٨٠، والنحاس في «الناسخ والمنسوخ» ٣/ ٣٦-٣٨ـ الآثار ٨٤٧-٨٤٩، والطحاوي في «مشكل الآثار» ٢/ ١٤. وإسناده صحيح.

وقال ابن كثير[١] في كلامه على الآية: « يخبر تعالى عن فضله وكرمه، وامتنانه ولطفه بخلقه وإحسانه أن المؤمنين إذا اتبعتهم ذرياتهم في الإيمان يلحقهم بآبائهم في المنزلة وإن لم يبلغوا عملهم، لتقرّ أعين الآباء بالأبناء عندهم في منازلهم، فيجمع الله بينهم على أحسن الوجوه، بأن يرفع الناقص العمل بكامل العمل ولا ينقص ذاك من عمله ومنزلته، للتساوي بينه وبين ذاك، ولهذا قال: ﴿أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾.

وقد اختلف المفسرون هل هذا الإلحاق يراد به الذرية الصغار، أو الكبار الذين عملوا، أو أنه يشمل الصغار والكبار على أقوال ثلاثة، واختار ابن القيم أنه يختص بالصغار قال: «واختصاص الذرية ههنا بالصغار أظهر لئلا يلزم استواء المتأخرين والسابقين في الدرجات، ولا يلزم هذا في الصغار فإن أطفال كل رجل وذريته معه في درجته»[٢].

قال ابن كثير[٣] بعد كلامه على قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَآ أَلَتْنَٰهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ قال: «**هذا فضله تعالى على الأبناء؛ ببركة عمل الآباء، وأما فضله على الآباء؛ ببركة دعاء الأبناء**....» ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله ليرفع الدرجة للعبد الصالح في الجنة، فيقول: يا رب، أنى لي هذه؟ فيقول: باستغفار ولدك لك**»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له»[٥].

ودل على الأمرين جميعًا ـ شفاعة الآباء بالذرية، والذرية بالآباء ـ قوله تعالى:

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٧-٤٠٨.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٦٥ ـ ٢٦٦.
(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩.
(٤) أخرجه أحمد في «المسند» ٢/ ٥٠٩. قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩ «إسناده صحيح»، وأخرجه ابن ماجه في الأدب ـ بر الوالدين ٣٦٦٠.
(٥) أخرجه مسلم في الوصية ـ ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ [الرعد:٢٣]، وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَأَدۡخِلۡهُمۡ جَنَّٰتِ عَدۡنٍ ٱلَّتِي وَعَدتَّهُمۡ وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [غافر:٨]

﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ قال ابن كثير[1]: «لما أخبر عن مقام الفضل، وهو رفع درجة الذرية إلى منزلة الآباء من غير عمل يقتضي ذلك، أخبر عن مقام العدل، وهو أنه لا يؤاخذ أحدًا بذنب أحد».

ومعنى قوله: ﴿كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ﴾ أي: كل إنسان مرتهن بعمله، هذا في مقام العدل فلا يؤاخذ أحد بذنب غيره، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۚ وَإِن تَدۡعُ مُثۡقَلَةٌ إِلَىٰ حِمۡلِهَا لَا يُحۡمَلۡ مِنۡهُ شَيۡءٞ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰٓۗ﴾ [فاطر: ١٨] فلا يؤخذ أحد بجريرة غيره حتى أولاد الكفار لا يلحقون بالعذاب تبعًا لآبائهم ما لم يعملوا أعمال الآباء.

ففي مقام الفضل منه عز وجل والإحسان إلى عباده يشفع بعضهم في بعض، ويزيد في أجور من شاء منهم ويضاعفها لهم أضعافًا كثيرة بلا حد ولا عد ولا حساب تفضلا منه عز وجل وكرمًا وامتنانًا، كما أنه قد يعفو عمن يشاء من أهل المعاصي مما هو دون الشرك كما قال عز وجل : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦].

أما في مقام العدل فإنه يجازي كلاً بما عمل، فلا يؤاخذ أحدًا بجرم غيره من الناس أبًا كان أو ابنًا أو غيره، ويجازي المسيء على قدر إساءته، ولا يظلم أحدًا من خلقه سبحانه كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٨] وقال عز وجل ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]، وقال عز وجل: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [آل عمران: ١٨٢، الأنفال:٥١، الحج:١٠].

وفي قوله تعالى في سورة المدثر: ﴿كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ رَهِينَةٌ ۝٣٨ إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ ۝٣٩ فِي جَنَّٰتٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٤٠ عَنِ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٤١ مَا سَلَكَكُمۡ فِي سَقَرَ﴾ [الآيات:٣٨-٤٢] ما يشير

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٠٩.

إلى الأمرين جميعًا: مقام العدل، ومقام الفضل، ففي مقام العدل كل نفس مرتهنة بعملها تجازى به من غير زيادة أو نقصان، وفي مقام الفضل يزيد سبحانه من شاء من خلقه ويضاعف لهم أكثر مما عملوه، فلم يجازوا بأعمالهم فقط، بل ضوعف لهم الأجر، وجوزوا بأكثر منها، ولهذا قال ﴿إِلَّآ أَصۡحَٰبَ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: فلا يجازون بعملهم فقط، بل يزاد لهم الأجر على عملهم، ويضاعف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

وليس في الآية ما ينفي أنهم يجازون بما كسبوا؛ لأن كل إنسان مرتهن ومجازى بعمله إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧ ـ ٨].

وإنما فيها الإشارة لما سبق وهو أن أصحاب اليمين لا يكون جزاؤهم بقدر أعمالهم فقط بل يضاعف الله لهم الأجور بفضله ومنّه وكرمه.

﴿وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ﴾ أي: أعطيناهم عطاءً مستمر الأمد إلى الأبد وزودناهم بفاكهة، وهي جنس ما يتفكه به ويحصل به التلذذ والتنعم والسرور وطيب النفس والبال والمرح والفرح من أنواع ما يتفكه به كما قال تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ﴾ [يس:٥٧]، وقال تعالى: ﴿مُتَّكِـِٔينَ فِيهَا يَدۡعُونَ فِيهَا بِفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ وَشَرَابٖ﴾ [ص:٥١]، وقال تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ كَثِيرَةٞ مِّنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿يَدۡعُونَ فِيهَا بِكُلِّ فَٰكِهَةٍ ءَامِنِينَ﴾ [الدخان:٥٥]، وقال تعالى: ﴿لَكُمۡ فِيهَا فَوَٰكِهُ كَثِيرَةٞ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ [المؤمنون: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ رِزۡقٞ مَّعۡلُومٞ ۝٤١ فَوَٰكِهُۖ وَهُم مُّكۡرَمُونَ﴾ [الصافات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي ظِلَٰلٖ وَعُيُونٖ ۝٤١ وَفَوَٰكِهَ مِمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ [المرسلات: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ [الرحمن:١١]، وقال تعالى في وصف جنتي المقربين﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٖ زَوۡجَانِ﴾ [الرحمن:٥٢]، وقال تعالى في وصف جنتي أصحاب اليمين: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٞ وَنَخۡلٞ وَرُمَّانٞ﴾ [الرحمن:٦٨]، كما قال تعالى: ﴿فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ﴾ [الطور:١٨]. وهذا يدل على أنهم يتفكهون بكل ما آتاهم ربهم من أنواع النعيم، وذلك أن كل مأكول أهل الجنة مما يتفكه به؛ لأنهم لا يجوعون أبدًا.

﴿وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: وأمددناهم بجنس اللحم، أي: بأنواع اللحوم ﴿مِّمَّا يَشۡتَهُونَ﴾ أي: مما يستطاب ويستلذ وتشتهيه نفوسهم.

وقدم الفاكهة على اللحم كما في قوله تعالى: ﴿وَفَٰكِهَةٖ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝٢٠ وَلَحۡمِ

طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ﴾ [الواقعة:٢٠، ٢١]. مما يدل على أن الفاكهة تؤكل قبل اللحم، وأن ذلك هو الأنفع للجسم، وهذا خلاف ما عليه كثير من الناس اليوم.

﴿يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا﴾ أي: يتعاطون فيها كأسًا وهي كأس الخمر على سبيل الأنس والانشراح والمداعبة.

﴿لَّا لَغْوٌ فِيهَا﴾ أي: لا يحصل بسبب شربها لغو، وهو الكلام اللغو من الهذيان والباطل؛ لأن خمر الجنة لا يحصل بسببها ذهاب العقل كخمر الدنيا كما قال تعالى: ﴿بَيْضَاءَ لَذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ ﴿٤٦﴾ لَا فِيهَا غَوْلٌ وَلَا هُمْ عَنْهَا يُنزَفُونَ﴾ [الصافات: ٤٦، ٤٧]، وقال تعالى: ﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ [الواقعة:١٩].

فهي بيضاء حسنة المنظر لذيذة الطعم، لا تغتال العقول فتذهبها، ولا يحصل بسببها نزيف بسبب الصداع وألم البطن، بخلاف خمر الدنيا، فإن من شربها حصل له الصداع والنزيف، ووقع منه اللغو والهذيان والباطل لإذهابها للعقول.

﴿وَلَا تَأْثِيمٌ﴾ أي: لا يأثم شاربها، ولا يقع بسبب شربها في الإثم بخلاف خمر الدنيا فإن من شربها أثم لما فيها من المضار والمفاسد العظيمة، ووقع فيما يؤثم من الموبقات والجرائم بسبب ذهاب العقل.

قال ابن القيم[1]: «فنفى باللغو: التخاصم والهجر والفحش في المقال والعربدة، ونفى بالتأثيم جميع الصفات المذمومة التي أثمت شارب الخمر».

﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: ويدور عليهم لقضاء حوائجهم ﴿غِلْمَانٌ لَّهُمْ﴾ أي: خدم وحشم لهم أعطاهم الله إياهم في الجنة.

﴿كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ أي:كأنهم في جمالهم وبياضهم وجمال أبدانهم وحسن هيئاتهم، ولباسهم ونظافتهم ونضارتهم (لؤلؤ) وهو من أحسن أنواع الجواهر (مكنون) أي: مصون في أصدافه، لم تدنسه الأيدي، ولم يتغير، ولم يتبدل بسبب الاستعمال أو عوامل البيئة، فهم مع انتصابهم لخدمتهم لم تُذهب الخدمة منهم تلك المحاسن.

وهؤلاء الغلمان باقون على هيئاتهم كما قال عز وجل: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٦٠

﴿١٧ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ [الواقعة:١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ إِذَا رَأَيْتَهُمْ حَسِبْتَهُمْ لُؤْلُؤًا مَّنثُورًا﴾ [الإنسان:١٩].

ومع الفرق الشاسع والبون الواسع بين نعيم الدنيا ونعيم الجنة، ترى الفرق بين من سخر الله له أولاده وأهله وأصلحهم فكانوا في طاعته وقضاء حوائجه يرسل أحد أبنائه لشراء حاجة من السوق، فيذهب ويأتي بها، ويرسل الآخر بهدية إلى أحد الأقارب، ويرسل الثالث بمهمة ثالثة وهكذا فما أعظم غبطة هذا الوالد وما ألذ حياته وما أطيب عيشه، بخلاف من سلط عليه أهله وأولاده فخرجوا عن طاعته فهو يخدم نفسه بنفسه، ولا يجد من أهله وولده من يقوم بجانبه ويعينه على قضاء حوائجه فلا تسأل عن حاله ونكد عيشه، وقد يكون هذا أتي من قبل نفسه بسبب تقصيره في حق الله تعالى وفي حق أهله وولده، وقد يكون ذلك ابتلاء من الله له لتكفير سيئاته ورفعة درجاته.

﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ من تمام نعمة الله عليهم والتحدث بها وسرورهم أنهم يقبل بعضهم على بعض يتساءلون، ويتوجه بعضهم إلى بعض في الحديث والتساؤل عن أعمالهم وأحوالهم في الدنيا.

﴿قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ أي: يقول بعضهم لبعض: إنا كنا قبل، أي في الدار الدنيا في محل الأمن بين أهلنا خائفين من الله عز وجل، ومن عذابه وعقابه كما قال الله عنهم ﴿وَالَّذِينَ هُم مِّنْ عَذَابِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المعارج: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢].

﴿فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ﴾ أي: تفضل عز وجل علينا فأجارنا مما كنا نخاف، ووقانا عذاب السموم وهي النار الحامية فهؤلاء كانوا خائفين مع إحسانهم، فأبدلهم الله بذلك أمنا في دار المقامة لا خوف بعده، نسأل الله تعالى من فضله، بخلاف من جمعوا بين الإساءة والأمن والسرور، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُ كَانَ فِي أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق:١٣].

وقد قال بعض السلف: لأن تصحب أناساً يخوفونك حتى تدرك الأمن خير من أن تصحب أناساً يؤمنونك حتى تدركك المخاوف.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ قرأ نافع المدني والكسائي **(أنا كنا)** بفتح الهمزة، وقرأ الباقون بكسرها ﴿إِنَّا كُنَّا﴾ (ندعوه) أي: نعبده ونتضرع إليه رغبة ورهبة،

والدعاء هو العبادة كما قال عز وجل: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وعن النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ قال: «الدعاء هو العبادة» وقرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ إلى قوله (داخرين)[١].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ أي: هو البر الرحيم بعباده لهذا استجاب لنا وأعطانا سؤلنا و«البر» و «الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل و«البر» معناه ذو البر، وسعة الإحسان والجود والكرم، الذي من صفته عز وجل البر بعباده المتقين.

كما يدل الرحيم على إثبات صفة الرحمة لله عز وجل صفة ثابتة له عز وجل، كما قال عز وجل: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، وصفة فعلية له يوصلها من شاء من عباده، كما قال عز وجل:﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت:٢١]، كما يدل على إثبات صفة الرحمة العامة له عز وجل لجميع المخلوقات، والرحمة الخاصة لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين.

وفي قولهم: ﴿إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِىٓ أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ﴾ وقولهم ﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ﴾ ما يفيد أنهم جمعوا بين الخوف والرجاء، فحصلوا على المطلوب وهو دخول الجنة، ونجوا من المرهوب وهو دخول النار، وهذا مما ينبغي أن يسير عليه المؤمن في طريقه إلى الله، بأن يكون بين الخوف والرجاء وأن يكونا له كجناحي الطائر ففي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: **«لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع في جنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد»**[٢].

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ **دخل على شاب وهو في الموت، فقال: «كيف تجدك»؟ قال: والله يا رسول الله، إني لأرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسول الله ﷺ: «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف»**[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير القرآن ٢٩٦٩، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٢٨ وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢.

(٣) أخرجه الترمذي في الجنائز٩٨٣، وابن ماجه في الزهد- ذكر الموت والاستعداد له ٤٢٦١.

وفي قولهم: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا ﴾ وقولهم: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾ دلالة على أن دخولهم الجنة ووقايتهم من النار إنما هو بفضل الله عز وجل وبره ورحمته بعباده كما قال ﷺ: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

فبسبب خوفهم في الدنيا منه عز وجل ومن عقابه، وبسبب عبادتهم له أدخلهم عز وجل الجنات وآمنهم من المخاوف ووقاهم من النار، وذلك كله برحمته وبره سبحانه وتعالى.

الفوائد والعبر:

١ ـ فضل الله ـ عز وجل ـ وكرمه في إلحاق الذرية بآبائهم من المؤمنين في الآخرة وإن كانوا دونهم في العمل من غير نقص في درجة الآباء لتقرَّ أعين الآباء، ويحصل للجميع لذة الاجتماع والسرور.

٢ ـ أن كل إنسان مرتهن بعمله وسيجازى عليه، وهذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله يزيد من يشاء ويعفو عن من يشاء.

٣ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لأهل الجنة من ألوان النعيم، ففاكهة، ولحم مما يشتهون، وكأس، وغلمان حسان عليهم يطوفون.

٤ ـ الإشارة إلى أن الأحسن تقديم الفاكهة على اللحم في الأكل.

٥ ـ سلامة خمر الجنة من اللغو والتأثيم مما يحصل في خمر الدنيا.

٦ ـ المؤانسة بين أهل الجنة وإقبال بعضهم على بعض وتساؤلهم فيما بينهم متذكرين نعمة الله عليهم وحالهم في الدنيا.

٧ ـ اغتباط أهل الجنة وسرورهم أن وفقهم الله في الدنيا إلى خوفه وعبادته ودعائه ببره ورحمته، فأبدل الله خوفهم أمناً ووقاهم في الآخرة عذاب النار وسمومها.

٨ ـ وجوب الجمع بين خوف الله عز وجل وعبادته ودعائه، ورجائه، وأن ذلك هو السبب بإذن الله ـ للوقاية من الجحيم، ودخول جنات النعيم. والحذر من الجمع بين الأمن والإساءة.

٩ ـ أن الأمن الحقيقي في الدنيا والآخرة للمؤمنين الذين خافوا الله واتقوه.

١٠ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «البر» و «الرحيم» وإثبات صفة البر والرحمة له ـ عز وجل.

---

(١) سبق تخريجه.

﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ ﴿٢٩﴾ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ﴿٣٠﴾ قُلْ تَرَبَّصُوا۟ فَإِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ ﴿٣١﴾ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ ﴿٣٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ بَل لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٣﴾ فَلْيَأْتُوا۟ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ إِن كَانُوا۟ صَٰدِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل ما أعده للمكذبين من العذاب الأليم وما أعده للمتقين من النعيم المقيم أمر الرسول ﷺ بالثبات على التذكير وعدم الالتفات لما يرميه به المكذبون من قولهم: كاهن أو مجنون أو شاعر، وقولهم: إنه تقول القرآن من عند نفسه، والرد عليهم في هذه المزاعم الباطلة، التي حملهم عليها الطغيان وعدم الإيمان.

قوله:﴿فَذَكِّرْ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر،والتقدير: إن وصفك الكافرون بالكهانة والجنون، فذكرهم بالله وبما أنزله عليك من الوحي والذكر العظيم، واستمر في تذكيرهم.

﴿فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ الفاء تعليلية، «وما» نافية، أي: ولا تبال بما يقول عنك المكذبون من قولهم: كاهن أو مجنون فما أنت بحمد الله بما أنعم به عليك ربك من النبوة بكاهن ولا مجنون كما قال عز وجل ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى:١١]، أي: بإنعامه عليك بالنبوة.

والباء في قوله (بكاهن) زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة من حيث المعنى للنفي.

قال ابن كثير[(١)]: «والكاهن الذي يأتيه الرَّئِيُّ من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء».

والمجنون: هو المعتوه فاقد العقل، الذي يتخبطه الشيطان من المس، أي: لست بإنعام الله عليك بالنعمة الكبرى نعمة النبوة والرسالة بكاهن ولا مجنون، وكيف تكون بهذه النعمة كاهنًا ومجنونًا؟! فدع عنك أقاويلهم الباطلة وافتراءاتهم الكاذبة واستمر على تذكير الناس بالله ولا تبال بهذه القواطع.

وينبغي أن يستلهم هذا المعنى الدعاة إلى الله والمربون والموجهون فلا يثني

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١١.

عزائمهم نعيق الناعقين ولا تشكيك المبطلين.

فهذه عادة المكذبين للرسل قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات:٥٢]، وقال تعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوْهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ﴾ [المطففين: ٢٩ - ٣٢].

﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ أم في هذه الآية والآيات بعدها إلي قوله: ﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ هي «أم» المنقطعة التي بمعنى «بل»[1] التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكاري والتوبيخي، والتقدير: بل أيقولون عنك يا محمد شاعر.

﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ﴾ أي: ننتظر به، ونصبر عليه حتى يحل به ﴿رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ أي: قوارع الدهر وفجائعه، و﴿ٱلْمَنُونِ﴾ الموت، أي: حتى يأتيه الموت فنستريح منه، ومن شأنه.

فرد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ﴾ «قل» الأمر للنبي ﷺ ﴿تَرَبَّصُواْ﴾ أمر تهديد وتحدٍ للمكذبين، أي: انتظروا (فإني) الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: انتظروا فإني معكم من المنتظرين لمن تكون العاقبة والنصر في الدنيا والآخرة، فالعاقبة للمتقين.

وقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ﴾ يدل على مكانة الشاعر عندهم وأثر الشعر فيهم وهذا هو الواقع فلقد كان الشعر في أول الإسلام من أعظم وسائل الدعوة.

﴿أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلَٰمُهُم بِهَٰذَآ﴾ الاستفهام كسابقه للتوبيخ والإنكار أي: بل أتأمرهم عقولهم بهذا، أي: بما يقولونه عنك من المزاعم الباطلة.

﴿أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ أي: بل هم قوم طاغون متجاوزن للحد في الكفر والعناد فهذا هو الذي حملهم على تلك المقالات، التي لا يقولها عاقل وهم يعلمون أنها محض افتراء وكذب وزور.

---

(١) «أم» تسمى متصلة وتسمى منقطعة، والمتصلة تأتي بعد همزة الاستفهام كقوله تعالى: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦]، وقوله: ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦]، والمنقطعة بمعنى «بل» التي للإضراب الانتقالي، أو بمعناها مع همزة الاستفهام.

﴿أَمۡ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُۥ﴾ أي: بل أيقولون تقوله يعنون القرآن، أي: افتراه من عند نفسه كما قال عنهم ﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ﴾ [يونس: ٣٨، هود: ١٣، ٣٥، السجدة: ٣، الأحقاف: ٨].

﴿بَل لَّا يُؤۡمِنُونَ﴾ «بل» للإضراب، و«لا» نافية أي: بل الذي حملهم على هذه المقالة الكفر وعدم الإيمان، مع أنهم في حقيقة أنفسهم يعلمون أنه لا يمكن أن يأتي بمثله البشر.

﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن صدقوا في دعواهم وقولهم: «تقوله» ﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ﴾.

وهذه الآية كقوله: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨]، وقوله: ﴿فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ﴾ [هود:١٣]، وقال تعالى ﴿قُل لَّئِنِ ٱجۡتَمَعَتِ ٱلۡإِنسُ وَٱلۡجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأۡتُواْ بِمِثۡلِ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ لَا يَأۡتُونَ بِمِثۡلِهِۦ وَلَوۡ كَانَ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٖ ظَهِيرٗا﴾ [الإسراء: ٨٨].

الفوائد والعبر:

١ ـ تقوية قلب النبي ﷺ وأمره بالاستمرار على التذكير ودفاع الله ـ عز وجل ـ عنه.

٢ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على نبيه ﷺ بنعمة النبوة، وإبطال مزاعم المشركين ورميهم له ﷺ بالكهانة والجنون والشعر.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٤ ـ شدة عداوة المشركين للنبي ﷺ ورميهم له بأسوأ الألقاب وانتظارهم موته. وهكذا شأن المكذبين للرسل عليهم السلام، وفي هذا درس للدعاة إلى الله والمصلحين، أن لا يفتّ في عضدهم مثل هذا.

٥ ـ أن الموت غاية كل مخلوق، وأن النصر والعاقبة للمتقين، والخسران والبوار للمكذبين.

٦ ـ الإنكار على المشركين فيما يقولون عن النبي ﷺ من المزاعم الباطلة، وأنه تقوَّل القرآن من عند نفسه، وبيان أن الذي حملهم على هذا هو الطغيان وعدم الإيمان فهذا لا يقوله عاقل.

٧ ـ تحدي المشركين المكذبين للقرآن الزاعمين أنه سحراً وشعراً وكهانة أو أن الرسول ﷺ اختلقه من عند نفسه أن يأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين في زعمهم - وهيهات لهم ذلك.

﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿٣٩﴾ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ﴿٤٠﴾ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ﴿٤١﴾ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًاۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٣﴾﴾.

قال ابن كثير[1]: «هذا المقام في إثبات الربوبية وتوحيد الألوهية».

قوله: ﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أم في هذين الموضعين وما بعدهما هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام الذي بمعنى النفي والإنكار والتوبيخ والوعيد، أي: «بل» أوجدوا من غير خالق، «بل» أهم أوجدوا أنفسهم، وكلا الأمرين مستحيل فمستحيل وجودهم بدون خالق، ومستحيل أن يخلق المرء نفسه، وإذا بطل الأمران تعين أن يكون لهم خالق خلقهم وفاطر فطرهم، وهو الله وحده المستحق للعبادة دون ما سواه.

قال ابن كثير[1]: «﴿أَمْ خُلِقُواْ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ أي: لا هذا ولا هذا، بل الله هو الذي خلقهم وأنشأهم بعد أن لم يكونوا شيئًا مذكورًا».

وقال ابن القيم[2]: «تأمل هذا الترديد والحصر المتضمن لإقامة الحجة بأقرب طريق، وأفصح عبارة بقوله تعالى هؤلاء مخلوقون بعد أن لم يكونوا، فهل خُلقوا من غير خالق خلقهم، فهذا من المحال الممتنع عند كل من له فهم وعقل أن يكون مصنوع من غير صانع، ومخلوق من غير خالق... ثم قال: ﴿أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ وهذا أيضًا من المستحيل أن يكون العبد موجدًا وخالقًا لنفسه وإذا بطل القسمان تعين أن لهم خالقًا خلقهم، وفاطراً فطرهم، فهو الإله الحق الذي يستحق عليهم العبادة والشكر، فكيف يشركون به إلهًا غيره، وهو وحده الخالق لهم».

﴿أَمْ خَلَقُواْ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَۚ﴾ أي: «بل» أهم خلقوا السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة، والجواب كذلك بـ«لا» فإنهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١٢.

(٢) في «الصواعق المرسلة» ٢/ ٤٩٣.

السموات والأرض فكيف يشركون بمن خلقهم وخلقها سبحانه لا شريك له.

﴿بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾ (بل) للإضراب الانتقالي، و«لا» نافية أي: إنما حملهم على ذلك عدم تصديقهم ويقينهم.

﴿أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ﴾ أي: «بل» أبيدهم مفاتيح خزائن ربك، خزائن السموات والأرض.

﴿أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ أي: «بل» أهم الذين لهم السيطرة والغلبة والسلطان والملك والتدبير كلا! بل كل ذلك لله عز وجل، فلماذا يشركون معه غيره. و«المصيطرون» تقرأ بالصاد والسين والصاد أشهر.

عن جبير بن مطعم قال: «سمعت النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَـٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير»[1].

﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ﴾ أي: «بل» ألهم مرقاة ومصعد إلى الملأ الأعلى (يستمعون فيه) أي: بواسطته خبر السماء، فالفعل «يستمعون» مضمن معنى «يصعدون» ولهذا قال فيه، ولم يقل يستمعون منه.

﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَـٰنٍ مُّبِينٍ﴾ أي: بحجة بينة واضحة ظاهرة على أن ما هم عليه حق، وأنى لهم ذلك، بل ما هم عليه عين الضلال والباطل.

أي: إن ادعوا أن لهم سلمًا يستمعون فيه فليأت مستمعهم بسلطان مبين.

﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَـٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ أي: «بل» أله البنات ولكم البنون كما تزعمون فتجعلون لله الإناث اللاتي تكرهون ولكم ما تشتهون، وهم الذكور.

كما قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَـٰتِ سُبْحَـٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل:٥٧]، يعني الذكور، وقال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ [النحل:٦٢]، أي: الإناث، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ﴾ [الزخرف:١٩]، وقال

---

(١) اخرجه البخاري في تفسير سورة الطور ٤٨٥٤، ومسلم في الصلاة ٤٦٣، وأبو داود في الصلاة ٨١١، والنسائي في الافتتاح٩٨٧، وابن ماجه في إقامة الصلاة ٨٣٢.

تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا﴾ [الزخرف:١٥].

والله عز وجل منزه عن الشريك وعن الصاحبة والولد قال تعالى: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ﴾ [الأنعام:١٠١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ﴿٤﴾﴾.

وقد أنكر الله عز وجل على العرب كراهتهم للأنثى فقال: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [النحل:٥٨-٥٩].

وبيّن عز وجل رفعة منزلة المرأة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وقال عز وجل: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا﴾ [النساء: ١٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر:٤٠]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ﴾ [الحجرات:١٣].

وقال ﷺ: «**إنما النساء شقائق الرجال**»(١).

ويكفي النساء فخرًا أن منهن فاطمة بنت محمد ﷺ، ومنهن أمهات المؤمنين، أزواجه ﷺ، ومنهن مريم ابنة عمران، التي أحصنت فرجها وصدّقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين، ومنهن آسية بنت مزاحم امرأة فرعون التي اختارت الجار قبل الدار فقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِن فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِۦ وَنَجِّنِى

---

(١) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٣٦، والترمذي في الطهارة ١١٣، وابن ماجه في الطهارة ٦١٢، وأحمد ٦/ ٢٥٦، ٣٧٧ من حديث عائشة رضي الله عنها.

مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التحريم:١١].

ومنهن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنه وعنها ذات النطاقين، ومنهن أم سليم، وغيرهن كثير، ولقد كان جل الأنبياء عليهم السلام آباء بنات، منهم نبينا محمد ﷺ، فالذي عاش من أولاده ﷺ هن البنات.

﴿أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ وهكذا جاء في [سورة القلم:٤٦] أي: «بل» أتسألهم أجرًا على إبلاغك إياهم رسالة الله ودعوتك لهم ﴿فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ﴾ الفاء عاطفة لربط السبب بالمسبب أي: فهم يتبرمون من ثقل الغرامة ومشقتها عليهم، ويتعللون بذلك في مخالفتهم لك.

أي: لست تسألهم على إبلاغك إياهم ودعوتك لهم أجرًا، لا مما يثقلهم ولا ما دونه، ولو كان أدنى شيء، وأقل القليل، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ﴾ [ص:٨٦]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى:٢٣].

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنعام:٩٠] بل إنه ﷺ يبذل المال الكثير ليؤلف القلوب جاءه رجل فأعطاه غنماً بين جبلين فذهب إلى قومه فقال: يا قوم أسلموا فإن محمداً يعطي عطاء من لا يخشى الفقر»[1].

وليس في الآية دليل ظاهر لمن قال بعدم جواز أخذ الأجرة على تعليم القرآن، وقد قال ﷺ: «إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله»[2].

﴿أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي: «بل» أعندهم علم ما غاب عن الحواس من أخبار السموات والأرض والأخبار السابقة واللاحقة ونحو ذلك فهم يكتبون لأنفسهم ما يريدون.

والمعنى ليس عندهم علم الغيب؛ كما قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل:٦٥].

---

(١) أخرجه مسلم في الفضائل ٢٣١٢ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في الطب ـ الشرط في الرقية بقطيع من الغنم ٥٧٣٧ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وبهذا يرد على من يتلاعبون بعقائد الناس وعقولهم من المنجمين والرمَّالين والسحرة والكهنة والمنجمين وغيرهم من أدعياء علم الغيب وصدق الله العظيم ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦٓ إِلَّا دَآبَّةُ ٱلْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ ٱلْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ٱلْغَيْبَ مَا لَبِثُوا۟ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلْمُهِينِ﴾ [سبأ: ١٤]، ولقد أحسن القائل:

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى ... ولا زاجرات الطير ما الله صانع

وقال الآخر:

أطلاب النجوم أحلتمونا ... على علم أدق من الهباء

كنوز الأرض لم تصلوا إليها ... فكيف وصلتمو علم السماء

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا﴾ أي: «بل» أيريدون في تكذيبهم الحق ورميهم النبي ﷺ بالكهانة والجنون والشعر، وأنه تقوّل القرآن من عند نفسه كيدًا للحق ولرسول الحق، والكيد هو المكر بخفية، كما قال تعالى عنه: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ أي: أن عاقبه كيدهم ومكرهم ووباله على أنفسهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق:١٥، ١٦]، وأظهر في مقام الإضمار فقال: ﴿فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ﴾ ولم يقل (أم يريدون كيداً فهم المكيدون) للنص على أنهم كفار، وأنهم المكيدون، وأن كل كافر فهو المكيد.

وقال عز وجل: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام:١٢٣].

﴿أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ﴾ أي «بل» ألهم معبود غير الله، والاستفهام للإنكار الشديد والنفي الأكيد أن يكون مع الله شريك في العبادة.

أي: ليس لهم معبود غير الله فكيف أشركوا معه غيره من الأصنام والأنداد وغير ذلك

﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تنزيه لنفسه عز وجل عما يدعيه المشركون من الشركاء من الأصنام والأنداد التي يعبدونها مع الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله والاستدلال على وجوب توحيد الألوهية بتوحيد الربوبية الذي يقرون به.

٢ ـ أن المخلوق يدل على وجود الخالق، ولا أحد يخلق نفسه فثبت أن لا خالق إلا الله خلق الناس والسموات والأرض وجميع المخلوقات، ولا معبود بحق سواه.

٣ ـ أن خزائن السموات والأرض وتدبير الكون كله وتصريفه بيد الله ـ عز وجل ـ.

٤ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٥ ـ تحدي المشركين وبيان عدم يقينهم، وضعفهم وفقرهم وانقطاع حجتهم، والحيلولة بينهم وبين خبر السماء.

٦ ـ الإنكار على المشركين في نسبة الولد إلى الله ـ عز وجل ـ، بل نسبوا له البنات واختصوا أنفسهم بالبنين.

٧ ـ أن الرسول ﷺ لم يسال الناس أجراً على تبليغه الرسالة فيدعي المشركون المكذبون ثقل الغرامة عليهم، وليس عندهم علم الغيب فيكتبون لأنفسهم ما يريدون.

٨ ـ إرادة الكفار الكيد للرسول ﷺ ولما جاء به من الحق، وبيان أنهم هم المكيدون، وأن وبال ذلك عليهم.

٩ ـ الإنكار على المشركين في عبادتهم غير الله، ونفي ما ادعوه من الآلهة سواه، وتنزيه نفسه ـ عز وجل ـ عن الشركاء.

﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ ﴿٤٤﴾ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ ﴿٤٥﴾ يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ۖ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٤٨﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَـٰرَ ٱلنُّجُومِ ﴿٤٩﴾﴾.

قوله: ﴿وَإِن يَرَوْا۟ كِسْفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ سَاقِطًا﴾ الواو استئنافية و«الكسف»: القطعة من الشيء. أي: وإن يروا قطعة من السماء ساقطة عليهم لتعذيبهم ﴿يَقُولُوا۟ سَحَابٌ مَّرْكُومٌ﴾ أي: يقولون هذا سحاب متراكم بعضه على بعض، أي: أنه شيء عادي، لأنهم يرون أنهم على حق وأنهم غير مستحقين للعذاب، كما قال تعالى عن عاد: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤ -٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّوا۟ فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓا۟ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَـٰرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٤-١٥]

فكما أنكروا الآيات الشرعية في القرآن الكريم، وزعموا أن النبي ﷺ تقوّله من عند نفسه أنكروا أيضًا الآيات والنذر الكونية المحسوسة لإغراقهم في الضلال وتماديهم في الكفر.

﴿فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ في هذه الآية والآيات بعدها وعيد شديد للمكذبين وتهديد لهم بما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، وتسلية للنبي ﷺ.

قوله: ﴿فَذَرْهُمْ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إذا بلغوا هذا الحد من الكفر والعناد فذرهم أي: اترك هؤلاء المكذبين المعاندين ﴿حَتَّىٰ يُلَـٰقُوا۟ يَوْمَهُمُ ٱلَّذِى فِيهِ يُصْعَقُونَ﴾ وهو يوم القيامة. قرأ عاصم وابن عامر (يُصعقون) بضم الياء، وقرأ الباقون (يَصعقون) بفتحها، أي: يموتون ويهلكون ويعذبون، حينذاك يعرفون أنهم على الباطل وأن محمداً ﷺ على الحق، ويندمون ولات ساعة مندم.

﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا﴾ أي: في ذلك اليوم لا يدفع عنهم ولا ينفعهم مكرهم في الدنيا شيئا، حتى ولو كان شيئًا قليلاً؛ لأن «شيئًا» نكرة في سياق النفي تعم القليل والكثير.

﴿وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ﴾ أي: ولا أحد ينصرهم، فليس عندهم ما يدفع عنهم أو ينفعهم من ذات أنفسهم، ولا من جهة خارجة عنهم، وبهذا يتحقق خسرانهم وهلاكهم.

﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾ الواو استئنافية و«إن» حرف توكيد ونصب، والمراد بالذين ظلموا المشركون. والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل العدوان، أو على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الشرك بالله، كما ذكر الله عز وجل عن لقمان أنه قال لابنه: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤] وقال تعالى ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢] أي: لم يلبسوا إيمانهم بشرك، وإنما كان الشرك أظلم الظلم؛ لأن حق الله عز وجل هو أوضح الحقوق وأبينها، فمن صرفه لغير الله فقد وقع في أعظم الظلم وأشده وأظلمه.

﴿عَذَابًا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ أي: قبل ذلك، أي: لهم عذاب في الدنيا وعذاب في البرزخ قبل عذاب الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة:٢١]

وعذاب الدنيا كما أنه قبل عذاب الآخرة هو أيضًا دون عذاب الآخرة في الشدة، لأن عذاب الدنيا مهما كان وآلامها ومصائبها تنتهي ولا يقاس ذلك بعذاب الآخرة وآلامها ومصائبها كما قال عز وجل ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه:١٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾ [الرعد:٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ﴾ [البقرة:٨٥]

والمراد بالعذاب الدنيوي قتلهم وقتالهم على أيدي المؤمنين، ومن ذلك ما يبتليهم الله به من المصائب والآلام الحسية، وكذا المعنوية من الحيرة والتذبذب والخوف والقلق وضيق الصدر بسبب فقدان الإيمان كما قال عز وجل: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الزمر:٢٢]، فإن ما يعانيه فاقد الإيمان من ضيق الصدر أضعاف أضعاف جميع المصائب الحسية لو انصبت عليه، ولهذا جمع الله للكفار والمكذبين في الآخرة بين العذابين العذاب الحسي

والعذاب المعنوي.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أي: لا يعلمون علمًا ينفعهم ويدلهم على ما فيه نجاتهم في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون حقيقة ما ينتظرهم من العذاب في الدنيا والآخرة، ولا يعلمون أن ما يصيبهم من ذلك هو من العذاب بسبب ذنوبهم.

قال ابن كثير[1]: «أي: نعذبهم في الدنيا، ونبتليهم فيها بالمصائب لعلهم يرجعون وينيبون، فلا يفهمون ما يراد بهم، بل إذا جَلَّى عنهم مما كانوا فيه عادوا إلى أسوأ ما كانوا عليه، كما روي في الحديث: «إن المنافق إذا مرض ثم عوفي كان كالبعير عقله أهله، ثم أرسلوه، فلم يدر لم عقلوه، ولم يدر لم أرسلوه»[2].

وروي في الأثر: «كم أعصيك ولا تعاقبني؟ قال الله: يا عبدي كم أعاقبك وأنت لا تدري».

فالمؤمن إذا أصابته مصيبة تذكر واتعظ ورجع وأناب إلى الله عز وجل وعرف أن ما أصابه بسبب ذنوبه كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

أما الكافر والمنافق فإنه إذا أصابه ما أصابه يقول كما قال قائلهم: أسقط وأقوم وأنا أبو فلان.

ولما قيل لأحدهم وهو مريض: «طهور إن شاء الله»،رد قائلا: تقوله يا أبا فلان ـ يعني ـ ماذا عملت أنا حتى يكون ما أصابني طهورًا. نسأل الله الهداية والسلامة.

﴿وَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ الواو: استئنافية، والصبر: حبس النفس عما لا ينبغي فعله، ولا قوله، أي: واصبر لحكم ربك وقضائه الشرعي بإيجابه عليك تبليغ الرسالة، والقيام بأمره، واصبر لحكم ربك الكوني بما يقدره عليك من أذى قومك وغير ذلك مما يصيبك وقد صبر ﷺ على تبليغ الرسالة، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده حتى ترك أمته على المحجة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك، وصبر على ما لاقى من أذى قومه في سبيل ذلك فقد وضع سلا

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤١٣.

(٢) أخرجه أبو داود في الجنائز ٣٠٨٩ من حديث عامر الرّام رضي الله عنه.

الجزور على ظهره وهو ساجد [١]، وأغرى به أهل الطائف سفهاءهم يسبونه ويرمونه بالحجارة [٢] وشج وجهه وكسرت رباعيته يوم أحد [٣]، وهو ﷺ صابر محتسب يقول: «رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون» [٤].

﴿فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الفاء تعليلية، أي: لأنك بمرأى منا وتحت كلاءتنا وحفظنا، كما قال عز وجل: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧].

ولهذا قال ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه وهما في الغار يوم الهجرة ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ ولما قال أبو بكر رضي الله عنه للنبي ﷺ وهما في الغار: «والله يا رسول الله لو أن أحدهم نظر تحت قدميه لأبصرنا أجابه ﷺ بقوله: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما» [٥].

وإذا كان ﷺ مأمورًا بالصبر على ما يلاقيه في سبيل تبليغ رسالة ربه، فللدعاة والمصلحين والمربين فيه أعظم الأسوة في وجوب الصبر عليهم في طريق دعوتهم إلى الله كي تؤتي الدعوة ثمارها بإذن الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤].

﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: اقرن بين تسبيحه عز وجل وحمده بقولك: «سبحانك ربنا وبحمدك».

﴿حِينَ تَقُومُ﴾ قال بعض أهل العلم: حين تقوم إلى الصلاة فتقول: «سبحانك اللهم وبحمدك وتبارك اسمك وتعالى جدك ولا إله غيرك» [٦].

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ٢٤٠، ومسلم في الجهاد ١٧٩٤، والنسائي في الطهارة ٣٠٧ـ من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣١، ومسلم في الجهاد ١٧٩٥ـ من حديث عائشة رضي الله عنها. وانظر «السيرة النبوية» لابن هشام ٢/ ٦٠، ٦١.

(٣) أخرجه مسلم في الجهاد والسير ١٧٩١، والترمذي في التفسير ٣٠٠٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٧ـ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٧٧، ومسلم في الجهاد والسير ١٧٩٢، وابن ماجه في الفتن ٤٠٢٥ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٥٣، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٣٨١، والترمذي ٣٠٩٦، وأحمد ١/ ٤ ـ من حديث أبي بكر رضي الله عنه.

(٦) انظر «جامع البيان» ٢١/ ٦٠٦.

وفي حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة بالليل كبّر ثم يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، وتبارك اسمك وتعالى جدّك، ولا إله غيرك» ثم يقول: «الله أكبر كبيرًا، ثم يقول: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم من همزه ونفخه ونفثه»[١].

وهكذا روى الأوزاعي عن عبدة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يجهر بهؤلاء الكلمات يقول: «سبحانك اللهم وبحمدك، تبارك اسمك وتعالى جدك، ولا إله غيرك»[٢].

قال الإمام أحمد رحمه الله: «فأنا أذهب إلى ما رُويَ عن عمر، ولو أن رجلاً استفتح ببعض ما رُويَ عن النبي ﷺ كان حسنًا».

وذكر ابن القيم في «زاد المعاد»[٣] عدة أوجه لسبب اختيار الإمام أحمد لهذا.

وقال بعض المفسرين ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: حين تقوم من نومك[٤].

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: **«من تَعَارّ من الليل فقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ثم قال: اللهم اغفر لي، أو دعا ـ استجيب له، فإن توضأ وصلى قبلت صلاته»**[٥].

وفي حديث أنس في قصة الأنصاري الذي بشره الرسول ﷺ بالجنة: أنه إذا تعارّ وانقلب على فراشه ذكر الله عز وجل وكبر حتى يقوم إلى صلاة الفجر[٦].

---

(١) أخرجه أبو داود في الصلاة ٧٧٥، والنسائي في الافتتاح ـ نوع آخر من الذكر بين افتتاح الصلاة والقراءة ٨٩٩، والترمذي في الصلاة ـ ما يقول عند افتتاح الصلاة ٢٤٢، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ افتتاح الصلاة ٨٠٤، وأحمد ٣/ ٥٠، ٦٩، وأخرجه من حديث عائشة رضي الله عنها أبو داود ٧٧٦، والترمذي ٢٤٣، وابن ماجه ٨٠٦، والدار قطني ١/ ١١٢، والحاكم ١/ ٢٣٥. ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه مسلم في الصلاة ـ حجة من قال لا يجهر بالبسملة ٣٩٩ وأخرجه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» ١/ ١١١ من حديث عمرو بن ميمون قال: صلى بنا عمر بذي الحليفة فقال: «الله أكبر سبحانك اللهم وبحمدك....».

(٣) ١/ ٢٠٥ ـ ٢٠٦.

(٤) انظر «جامع البيان» ٢١/ ٦٠٥ ـ ٦٠٦.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٥٤، وأبو داود في الأدب ٥٠٦٠، والترمذي في الدعوات ـ ما جاء في الدعاء إذا انتبه من الليل ٣٤١٤، وابن ماجه في الدعاء ـ ما يدعو به إذا انتبه من الليل ٣٨٧٨، وأحمد ٥/ ٣١٣.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ١٦٦ بتمامه وفيه قصة لعبد الله بن عمرو بن العاص مع الأنصاري المذكور رضي الله عنهما.

وقال بعض أهل العلم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ﴾ من مجلسك تقول سبحانك اللهم وبحمدك[(١)].

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**من جلس في مجلس فكثر فيه لغطه فقال قبل أن يقوم من مجلسه ذلك: سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك إلا غفر له ما كان في مجلسه ذلك**»[(٢)].

وحيث لا دليل على المراد بالآية فلا مانع من حملها على كل ما ذكر.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ الواو: عاطفة، والفاء زائدة من حيث الإعراب مؤكدة من حيث المعنى، أي: ومن الليل ووقته فسبح ربك بتنزيهه عن النقائص والعيوب وعن مشابهة المخلوقين، وبذكره وعبادته والصلاة له كما قال عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩][(٣)].

﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ الواو عاطفة، و (إدبار النجوم): جنوحها للمغيب. وقد جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بقوله ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ «الركعتان قبل الفجر»[(٤)].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «**لم يكن النبي ﷺ على شيء من النوافل أشد منه تعاهدًا على ركعتي الفجر**»[(٥)].

وقد يحمل على السحر آخر الليل لفضله فيكون قوله ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ﴾ من عطف الخاص على العام قال تعالى: ﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران:١٧].

وقال تعالى: في صفات المتقين ﴿وَبِٱلْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨] وهو الوقت الذي نجّى الله فيه آل لوط عليه السلام قال تعالى: ﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ﴾ [القمر: ٣٤].

وهو وقت النزول الإلهي في الثلث الأخير من الليل كما في الحديث: «ينزل ربنا

---

(١) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤١٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ـ كفارة المجلس ٤٨٥٨، والترمذي في الدعوات ٣٤٣٣، وقال: «حديث حسن صحيح».

(٣) انظر ما سبق في الكلام على قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ﴾ [ق:٤٠]

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣١٧- الأثر ١٨٦٩٢.

(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٦٣، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٢٤، وأبو داود في الصلاة ١٢٥٤.

كل ليلة حين يبقى ثلث الليل الأخير»[١].

ويحتمل أن يكون المراد بـ «إدبار النجوم» ما هو أعم من ذلك فيشمل وقت السحر الذي هو آخر وقت النزول الإلهي وهو وقت إجابة الدعاء، ووقت الوتر، كما يشمل ذلك ما بعد طلوع الفجر وهي سنة الفجر، وصلاة الفجر.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**ركعتا الفجر خير من الدنيا وما فيها**»[٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ إغراق المشركين بالكفر حتى إنهم أنكروا الآيات والنذر الكونية المحسوسة.

٢ ـ تسلية النبي ﷺ تجاه تكذيب قومه.

٣ ـ الوعيد الشديد والتهديد الأكيد للمكذبين بما ينتظرهم من العذاب الآجل يوم القيامة، مما لا يستطيعون له دفعاً لا بأنفسهم ولا بغيرهم.

٤ ـ أن الله ـ عز وجل ـ يمهل ولا يهمل.

٥ ـ الوعيد للظالمين المكذبين بما ينتظرهم من العذاب العاجل في الدنيا، وفي البرزخ قبل العذاب الأكبر يوم القيامة.

٦ ـ جهل الظالمين المكذبين بحقيقة ما ينفعهم، وبما ينتظرهم من العذاب العاجل والآجل.

٧ ـ تقوية قلب النبي ﷺ بأمره بالصبر لحكم الله الشرعي والكوني ووعد الله ـ عز وجل ـ له بحفظه وكلاءته ورعايته بعينه التي لا تنام، وهذا الأمر والوعد له ﷺ ولمن سلك طريقه واتبع سنته من أمته.

٨ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ وعنايته به.

٩ ـ مشروعية تسبيح الله وحمده عند القيام إلى الصلاة، وعند القيام من المجلس، وعند القيام من النوم ومشروعية قيام الليل، وتأكيد ركعتي سنة الفجر ـ حيث أمر الله عز وجل نبيه بهذا، وهو أمر له ﷺ ولأمته، وذلك من أعظم العون على الصبر.

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٤٥، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وابو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الصلاة ٤٤٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٢٥، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار١٧٥٩، والترمذي في الصلاة ٤١٦.

تفسير سورة النجم

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «أول سورة أنزلت فيها سجدة (والنجم) قال: فسجد رسول الله ﷺ، وسجد من خلفه إلا رجلاً رأيته أخذ كفًا من تراب فسجد عليه، فرأيته بعد ذلك قتل كافرًا، وهو أمية بن خلف»[١].

قال ابن كثير[٢]: «وقوله في الممتنع: إنه أمية بن خلف في هذه الرواية مشكل، فإنه جاء من غير هذه الطريق أنه عتبة بن ربيعة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾.

روي في سبب نزول هذه الآيات وما بعدها أن المشركين زعموا أن رسول الله ﷺ فيما جاءهم به من الحق ضال وغاو، مختلق ينطق عن هواه فأنزل الله هذه الآيات[٣].

قوله: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ الواو حرف قسم وجر، ﴿وَالنَّجْمِ﴾ مقسَم به مجرور والمقسِم هو الله عز وجل، وله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه بما خلق يدل على عظمته عز وجل، أما المخلوق فلا يجوز أن يقسم بغير الله.

قال ابن كثير[٤]: «قال الشعبي وغيره: الخالق يقسم بما شاء من خلقه، والمخلوق لا ينبغي أن يقسم إلا بالخالق. رواه ابن أبي حاتم».

و(النجم) اسم جنس يراد به جميع النجوم.

﴿إِذَا هَوَىٰ﴾ إذا سقط وغرب مع الفجر وقبله، وعندما ترمى به الشياطين.

وقيل: المراد بـ(النجم إذا هوى) القرآن إذا نزل، وسمي القرآن بـ(النجم)، لأنه

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة «والنجم» ٤٨٦٣، ومسلم في المساجد ٥٧٦، وأبو داود في الصلاة ١٤٠٦، والنسائي في الافتتاح ٩٥٩، وأحمد ١/ ٣٨٨، ٤٣٧. وفي حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما قال: سجد النبي ﷺ بالنجم، وسجد معه المسلمون والمشركون والجن والإنس» أخرجه البخاري ٤٨٦٢، وغيره.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤١٧.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٣.

(٤) «في تفسيره» ٧/ ٤١٧.

نزل منجمًا، أي: مفرقًا في ثلاث وعشرين سنة.

والأظهر القول الأول وهو دال على عظمة القرآن وصدق ما جاء به الرسول ﷺ، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الواقعة: ٨٠].

واختار ابن القيم رحمه الله أن المراد بقوله ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ النجوم التي ترمى بها الشياطين إذا سقطت عند استراق السمع.

قال ابن القيم[1]: «وهو أظهر الأقوال، ويكون سبحانه قد أقسم بهذه الآية الظاهرة المشاهدة التي نصبها الله سبحانه آية وحفظًا للوحي من استراق الشياطين له، على أن ما أتى به رسوله حق وصدق لا سبيل للشيطان ولا طريق له إليه، بل قد أحرس بالنجم إذا هوى رصدًا بين يدي الوحي وحرسًا له، وعلى هذا: فالارتباط بين المقسم به والمقسم عليه في غاية الظهور وفي المقسم به دليل على المقسم عليه».

﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ هذا هو المقسم عليه، أي: جواب القسم في قوله ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ﴾، و(ما) نافية، والضلال: التيه عن الطريق الحق جهلاً وبغير علم، وضده الهدى، فهو ﷺ لم يضل عن طريق الحق، بل هو هاد مهدي، وهذا دليل على كمال علمه ومعرفته، وأنه على الحق المبين ﷺ.

وقال عز وجل: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ كما قال عز وجل ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾﴾ ولم يقل ما ضل رسول الله، أو ما ضل محمد ونحو ذلك تأكيدًا لإقامة الحجة عليهم، وليشهدهم على أنفسهم، فهو صاحبهم وهم أعلم الناس به، وبحاله وأقواله وأعماله، ولم يعرفوه بكذب ولا ضلال ولاغي، ومقتضى ذلك أن يصدقوه لا أن يكذبوه لو صدقوا مع أنفسهم، ولكن الهوى يعمي ويصم كما قال عز وجل ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا۟ رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

والغواية: ترك الحق والعدول عنه عمدًا وعناداً عن علم، وضده الرشاد. قال تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّ ۚ﴾[البقرة: ٢٥٦].

---

(١) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٢٧٤-٢٧٥.

فأقسم عز وجل بالنجم إذا هوى بأنه ﷺ ما ضل وماتاه عن الطريق الحق والمسلك الصحيح عن جهل، وما غوى وترك الطريق الحق والمسلك الصحيح عن عمد وعن علم، بل هو ﷺ على الطريق الحق والمسلك الصحيح وعلى الهدى والرشاد على الهدى في علمه، وعلى الرشاد في عمله كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح: ٢٨، الصف: ٩] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

قال ابن القيم[(١)]: «ولا يشتبه الراشد المهدي بالضال الغاوي إلا على أجهل خلق الله، وأعماهم قلباً، وأبعدهم عن حقيقة الإنسانية، ولله در القائل:

وما انتفاع أخي الدنيا بناظره إذا استوت عنده الأنوار والظلم

فالناس أربعة أقسام: ضال في علمه، غاوٍ في قصده وعمله، وهؤلاء شرار الخلق، وهم مخالفو الرسل، الثاني: مهتد في علمه غاوٍ في قصده وعمله وهؤلاء هم الأمة الغضبية ومن تشبه بهم، وهو حال كل من عرف الحق ولم يعمل به، الثالث: ضال في علمه، ولكن قصده الخير، وهو لا يشعر ، الرابع: مهتد في علمه راشد في قصده، وهؤلاء ورثة الأنبياء، وهم وإن كانوا الأقلين عددًا فهم الأكثر ون عند الله قدرًا،وهم صفوة الله من عباده وحزبه من خلقه».

﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ أي: وما ينطق ﷺ فيما أتى به من الشرع عن هوى نفسه.

قال ابن القيم[(٢)]: «ولم يقل: وما ينطق بالهوى، لأن نطقه عن الهوى أبلغ فإنه يتضمن أن نطقه لا يصدر عن هوى، وإذا لم يصدر عن هوى فكيف ينطق به، فتضمن نفي الأمرين: نفي الهوى عن مصدر النطق ونفيه عن النطق نفسه، فنطقه بالحق ومصدره الهدى والرشاد، لا الغي والضلال».

﴿إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ﴾ «إن» حرف نفي، بمعنى «ما»، ومرجع الضمير «هو» إلى مصدر الفعل «ينطق» أي: ما نطقه إلا وحي يوحى، ويشمل هذا نطقه بالقرآن والسنة، وأن كليهما وحي يوحى، وقيل: الضمير يعود إلى القرآن.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٥- ٢٧٦، ٢٩٨.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٦.

والأول أولى، قال الله عز وجل ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء:١١٣]، والحكمة: السنة عند جمهور المفسرين، فالقرآن والسنة كل منهما من وحي الله عز وجل، ومما أنزله على رسوله ﷺ.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله ﷺ أريد حفظه، فنهتني قريش، فقالوا: إنك تكتب كل شيء تسمعه من رسول الله، ورسول الله ﷺ ـ بشر، يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكت عن الكتاب، فذكرت ذلك لرسول الله ﷺ ـ فقال: «اكتب فو الذي نفسي بيده ما خرج مني إلا حق»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إني لا أقول إلا حقًا» فقال بعض أصحابه فإنك تداعبنا يا رسول الله؟ قال: «إني لا أقول إلا حقًا»[(٢)].

وعن يعلي بن أمية أنه كان يقول لعمر بن الخطاب رضي الله عنه ليتني أرى نبي الله ﷺ حين ينزل عليه الوحي فلما كان ﷺ بالجعرانة وعلى النبي ﷺ ثوب قد أظل به عليه، معه ناس من أصحابه، فيهم عمر، إذ جاءه رجل عليه جبة صوف متضمخ بطيب فقال: يا رسول الله كيف ترى في رجل أحرم بعمرة في جبة بعد ما تضمخ بطيب؟. فنظر إليه النبي ﷺ ساعة، ثم سكت، فجاءه الوحي، فأشار عمر بيده إلى يعلى بن أمية تعال، فأدخل رأسه، فإذا النبي ﷺ محمر الوجه يغط ساعة، ثم سُرِّيَ عنه فقال: «أين السائل آنفًا؟ فجيء به، فقال: انزع عنك الجبة، واغسل أثر الطيب، واصنع في عمرتك ما تصنع في حجك»[(٣)].

وعن أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنهما أنهما قالا: إن رجلاً من الأعراب أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله أنشدك الله إلا قضيت بيننا بكتاب الله، فقال الخصم الآخر، وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وائذن لي، فقال رسول الله ﷺ: «قل»قال: إن ابني كان عسيفًا على هذا ، فزنى بامرأته، وإني أخبرت

---

(١) أخرجه أبو داود في العلم ـ باب في كتاب العلم ٣٦٤٦، وأحمد ٢/ ١٦٢، ١٩٢، والدارمي في المقدمة ٤٨٤.
(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٣٤٠، والترمذي في أبواب البر ـ ما جاء في المزاح ١٩٩٠ـ ورمز له السيوطي في «الجامع الصغير» بالحسن.
(٣) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٤٩٨٥، ومسلم في الحج ـ ما يباح لبسه للمحرم بحج أو عمرة ١١٨٠، وأبو داود في المناسك ١٨١٩، والنسائي في مناسك الحج ٢٦٦٨، والترمذي في الحج ٨٣٥، وابن ماجه في الديات ٢٦٥٦.

أن على ابني الرجم فافتديت منه بمائة شاة ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أنما على ابني جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم فقال رسول الله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لأقضين بينكما بكتاب الله، الوليدة والغنم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام واغد يا أنيس إلى امرأة هذا، فإن اعترفت فارجمها فغدا عليها فاعترفت فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمت**»[(١)].

وفي حديث المقدام بن معد يكرب أن رسول الله ﷺ قال: «**ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه**، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه»[(٢)].

وجاء بالفعل «يوحى» بالبناء لما لم يسم فاعله، لأن الوحي بالمعنى الشرعي إنما هو من عند الله تعالى وحده، فالموحي معلوم، أي: إن هو إلا وحي من عند الله، أو يوحيه الله عز وجل.

والوحي: هو الإعلام الخفي السريع، ومنه الحديث «الوحا الوحا» أي الإسراع الإسراع[(٣)].

وشرعا: هو كلام الله عز وجل المنزل على نبي من أنبيائه عليهم الصلاة والسلام.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بالنجم حال سقوطه على أن النبي ﷺ ما ضل وما غوى بل هو على الحق والهدى.

٢ ـ أن لله ـ عز وجل ـ أن يقسم بما شاء من مخلوقاته إظهاراً لعظمته وكمال قدرته.

٣ ـ دفاع الله ـ عز وجل ـ عن نبيه محمد ﷺ وإثبات أنه على الحق والهدى.

٤ ـ إشعار المكذبين بأنهم في قرارة أنفسهم يعرفون صدق النبي ﷺ تأكيداً لإقامة الحجة عليهم من أنفسهم لقوله ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ ولم يقل محمد أو رسول الله.

٥ ـ أن الرسول ﷺ لا ينطق ـ فيما جاء به من الكتاب والسنة ـ عن هوى نفسه بل كل ذلك وحي من عند الله ـ عز وجل.

---

(١) أخرجه البخاري في الحدود ـ الاعتراف بالزنا ٢٧٢٥، ومسلم في الحدود ـ حد الزنا ١٦٩٨، وأبو داود في الحدود ٤٤٤٥، والنسائي في آداب القضاة ٥٤١٠، والترمذي في الحدود ٢٥٤٩.

(٢) أخرجه أبو داود في السنة ـ باب لزوم السنة ٤٦٠٤، والترمذي في العلم ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ١٢.

(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩٥.

﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ۝ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ۝ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

لما ذكر عز وجل أن ما جاء به الرسول ﷺ من الشرع ليس عن هواه وإنما هو وحي يوحيه الله عز وجل إليه ذكر عز وجل طريق وصول هذا الوحي إليه ﷺ وأنه حق وصدق.

قوله ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: علم النبي ﷺ هذا الوحي ﴿شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ أي: ملَكَ شديد القوى، وهو: جبريل عليه السلام، كما قال عز وجل ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ۝ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير: ١٩-٢١].

﴿ذُو مِرَّةٍ﴾ أي: ذو جلالة ومنظر جميل وصورة حسنة، وقوة وشدة وفي الحديث: «لا تحل الصدقة لغني، ولا لذي مرة سوي»[1] أي: ولا لذي قوة سوي الخلقة والجسم، ذي قدرة على العمل.

قال ابن القيم[2]: «والمرة: المنظر البهي الجميل فأعطاه كمال القوة في باطنه، وجمال المنظر في ظاهره».

﴿فَٱسْتَوَىٰ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فاستوى: جبريل عليه السلام، أي: فَعَلا، أو كمل.

﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ الواو: حالية، أي: حال كونه عليه السلام في أفق السماء الأعلى، قال المفسرون: وهو الأفق الذي يأتي منه الصبح.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ـ من يعطى من الصدقة، وحد الغنى ١٦٣٤، والترمذي في الزكاة ٦٥٢ ـ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه، وأخرجه النسائي في الزكاة ـ باب إذا لم يكن له دراهم وكان له عدلها ٢٥٩٧، وابن ماجه في الزكاة ـ من سأل عن ظهر غنى ١٨٣٩ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وأخرجه أحمد ٤/ ٦٢، ٥/ ٣٧٥ عن رجل من بني هلال.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٧٩، ٢٩٠.

صورته[١] إلا مرتين، أما واحدة فإنه سأله أن يراه في صورته فسد الأفق، وأما الثانية فإنه كان معه حيث صعد، فذلك قوله: ﴿وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ﴾»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «سأل النبي ﷺ جبريل بأن يراه في صورته، فقال: ادع ربك فدعا ربه عز وجل، فطلع عليه سواد من قبل المشرق، فجعل يرتفع وينتشر، فلما رآه النبي ﷺ صعق فأتاه، فنعشه [أي: رفعه] ومسح البزاق عن شدقه»[٣].

وقد ذكر ابن جرير أن المراد بقوله ﴿ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧﴾ هو محمد ﷺ أي: استوى هو وجبريل عليه السلام بالأفق الأعلى، وذلك ليلة الإسراء ووجه ذلك من جهة اللغة[٤].

وقد رد ابن كثير هذا القول، فقال[٥]: «وهذا الذي قاله من جهة العربية متجه، ولكن لا يساعده المعنى على ذلك، فإن هذه الرؤية لجبريل لم تكن ليلة الإسراء، بل قبلها ورسول الله ﷺ في الأرض، فهبط إليه جبريل ـ عليه السلام ـ وتدلى إليه، فاقترب منه، وهو على الصورة التي خلقه الله عليها، له ستمائة جناح، ثم رآه بعد ذلك نزلة أخرى عند سدرة المنتهى، يعني ليلة الإسراء، وكانت هذه الرؤية الأولى في أوائل البعثة، بعد ما جاءه جبريل عليه السلام أول مرة، فأوحى الله إليه صدر «سورة اقرأ» ثم فتر الوحي فترة، ذهب النبي ـ ﷺ ـ فيها مراراً ليتردى من رؤوس الجبال، فكلما هم بذلك ناداه جبريل من الهواء: يا محمد أنت رسول الله حقًا، وأنا جبريل فيسكن لذلك جأشه، وتقر عينه، وكلما طال عليه الأمر عاد لمثلها، حتى تبدى له جبريل ورسول الله ﷺ في الأبطح في صورته التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح قد سد عظم خلقه الأفق، فاقترب منه وأوحى إليه عن الله ـ عز وجل ـ ما أمره به».

﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ﴾ (دنا): قرب (فتدلى) زاد في القرب والمراد: بذلك جبريل ـ عليه السلام ـ قرب من النبي ﷺ، وازداد في القرب منه ﷺ.

---

(١) أما رؤيته على غير صورته فهي التي كان يراه عليها عند مجيئه بالوحي على صورة الرجال، ومن ذلك مجيئه على صورة الصحابي الجليل دحية الكلبي رضي الله عنه.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣١٨ ـ الأثر ١٨٦٩٦.

(٣) أخرجه أحمد ١/ ٣٢٢.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ١١.

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٢٠.

عن عائشة رضي الله عنها: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝﴾ قالت: «إنما ذاك جبريل كان يأتيه في صورة الرجل وأنه أتاه في هذه المرة في صورته التي هي صورته، فسد الأفق»[1].

﴿فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: فكان جبريل لشدة قربه من النبي ﷺ على قدر قوسين (أو أدنى) أي: أو أقرب من ذلك قال في «اللسان»[2]: «وقاب الرجل إذا قرب، وقاب قوس، أي: قدر قوس، والقاب ما بين المقبض والسِّيَة، ولكل قوس قابان».

فقوله ﴿أَوْ أَدْنَىٰ﴾ أي: أو أقرب، و(أو) هنا ليست للشك، وإنما هي لتحقيق قدر المسافة وقربها، وأنها إن لم تنقص عن قدر القوسين لم تزد عليهما، كما قال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ۝﴾ [الصافات: ١٤٧]، والمعنى: أنهم إن لم يزيدوا على مائة ألف لم ينقصوا عنها.

وقيل: أو بمعنى «بل» أي: بل أدنى، والأول أحسن.

واختلف في المراد بذلك ومقداره: فقيل المراد بذلك: بُعْد ما بين وتر القوس إلى كبدها، وقيل: كان بينهما ذراعان وقال بعضهم: القاب نصف الإصبع.

﴿فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ﴾ أي: فأوحى الله عز وجل إلى عبده محمد ﷺ.

﴿مَا أَوْحَىٰ﴾ أي: الذي أوحاه، بواسطة جبريل عليه السلام، أو فأوحى جبريل عليه السلام إلى عبد الله محمد ﷺ الذي أوحاه.

و(ما) موصولة، تدل على الإبهام لقصد التعظيم والتفخيم، كما في قوله تعالى ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، أي: أمر عظيم فوق الصفة.

﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ﴾ (ما) نافية، (كذب) قرأ أبو جعفر بتشديد الذال (كَذَّب) وقرأ الباقون بتخفيفها (كَذَبَ) و (الفؤاد) فؤاد النبي ﷺ وقلبه.

﴿مَا رَأَىٰ﴾ «ما» مصدرية، أي: ما كذب فؤاد النبي ﷺ رؤيته، أو موصولة، أي: ما كذب فؤاده الذي رأته عيناه. فلم يكذب فؤاده و قلبه ما رآته وأبصرته عيناه، ولم يوهمه فؤاده أنه رأى و لم ير، بل صدَّق فؤاده ما رأته عيناه، وصَدَقه فؤاده فلم ير إلا

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٥، ومسلم في الإيمان ١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨، وأحمد ٦/ ٢٣٦، ٢٤١.

(٢) مادة «قوب».

ما رآه حقيقة.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رسول الله ﷺ جبريل له ستمائة جناح»[(١)].

وفي رواية: «عليه حلتا رفرف قد ملأ ما بين السماء والأرض»[(٢)].

وقال البخاري[(٣)]: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «رأى رفرفًا أخضر قد سدّ الأفق».

﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ﴾ قرأ حمزة (أفتَمرونه) بفتح التاء بغير الألف، وقرأ الباقون (أفتمارونه) بضم التاء وألف، والاستفهام للإنكار والتعجب، والمماراة: المجادلة والمحاجة بالباطل والمكابرة، جحدًا منهم وعنادًا، ودفعًا للحق، كما قال عز وجل: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَمَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال:٦].

وعُدي الفعل «أفتمارونه» بـ «على» دون «في» لأنه ضمن معنى المغالبة. وعبر بالمضارع «يرى» دون الماضي إشارة إلى استحضار هذا المرئي، وأنه حين أَخبَر به كأنه يراه عيانا.

و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: أتجادلونه على رؤيته، أو على الذي يراه.

﴿وَلَقَدۡ رَءَاهُ نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد رآه نزلة أخرى: والضمير «الهاء» يعود إلى جبريل عليه السلام ﴿نَزۡلَةً أُخۡرَىٰ﴾ أي: مرة أخرى، والمعنى: والله لقد رأى محمد ﷺ جبريل عليه السلام على صورته الحقيقية مرة أخرى.

فقد رآه مرة دون السماء بالأفق الأعلى، كما قال تعالى: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٖ فَٱسۡتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلۡأُفُقِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ۝٧﴾ وهذه الرؤية وهو في الأرض، في مكة، في أجياد.

والمرة الثانية فوق السماء ليلة الإسراء عند سدرة المنتهى.

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٢، ومسلم في الإيمان ١٧٤، والترمذي في التفسير ٣٢٧٧.

(٢) أخرجها الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٥.

(٣) في تفسير سورة النجم ـ باب (لقد رأى من آيات ربه الكبرى). انظر «فتح الباري» ٨/ ٦١١.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في هذه الآية ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝﴾ قال: قال رسول الله ﷺ: «**رأيت جبريل له ستمائة جناح ينتثر من ريشه التهاويل الدر والياقوت**»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه (ولقد رآه نزلة أخرى) قال: «رأى جبريل عليه السلام»[٢].

وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه الطويل في قصة الإسراء «ثم علا به فوق ذلك بما لا يعلمه إلا الله عز وجل، حتى جاء سدرة المنتهى، ودنا الجبار رب العزة فتدلى حتى كان منه قاب قوسين أو أدنى».

هكذا جاء في رواية البخاري[٣] من طريق شريك بن عبد الله عن أنس رضي الله عنه، وقد أخرجه مسلم[٤] من طريق ثابت البناني ولم يذكر هذه الزيادة، وأشار إلى رواية شريك بن عبد الله قال مسلم عن شريك: «وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص».

وهكذا تعقب جمع من أهل العلم هذه الزيادة من شريك بالتضعيف منهم البيهقي وابن حزم والخطابي وعبد الحق وابن كثير وغيرهم، قال الخطابي: «إن الذي وقع في هذه الرواية من نسبة التدلي للجبار عز وجل مخالف لعامة السلف والعلماء وأهل التفسير من تقدم منهم ومن تأخر».

وقال عبد الحق في الجمع بين الصحيحين: «زاد فيه شريك زيادة مجهولة، وأتى فيه بألفاظ غير معروفة، وقد روى الإسراء جماعة من الحفاظ فلم يأت أحد منهم بما أتى به شريك، وشريك ليس بالحافظ»، وقال ابن حزم: «فيه ألفاظ معجمة، والآفة من شريك»[٥].

وقال ابن كثير[٦] بعد ذكر مقالة مسلم «وقدم فيه شيئًا وأخر، وزاد ونقص» قال: «وهو كما قال مسلم رحمه الله فإن شريك بن عبد الله بن أبي نمر اضطرب في

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٩٥، ٣٩٨، ٤٠٧، ٤٦٠ قال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٢٧: وهذا إسناد جيد قوي.
(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ـ إثبات رؤية الله تعالى ١٧٥.
(٣) في كتاب التوحيد باب قوله (وكلم الله موسى تكليمًا) ٧٥١٧.
(٤) في الإيمان – الإسراء برسول الله ﷺ ١٦٢.
(٥) انظر «فتح الباري» ١٣/ ٤٨٤-٤٨٥.
(٦) في «تفسيره» ٥/ ٥-٦ وانظر ٧/ ٤٢٢.

هذا الحديث وساء حفظه ولم يضبطه» ثم نقل كلام البيهقي في ذكر تفرد شريك بهذه الزيادة.

والصحيح أن الذي (دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى) هو جبريل عليه السلام دنا من النبي ﷺ إذ أن قرب الله عز وجل ودنوه لا يجوز أن يمثل بشيء.

وأيضًا فإنه لو صحت هذه الزيادة وحمل قوله: «ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى» على أن المراد به الرب عز وجل قرب من النبي ﷺ فليس فيه دلالة على إثبات رؤية النبي ﷺ لربه، كما أنه لا يلزم عليه تمثيل صفاته عز وجل بغيره، وإنما هذا من باب بيان قرب المسافة؛ كما في قوله عز وجل: «ومن تقرب إلي شبرًا تقربت منه ذراعًا».(١)

وقد ذهب جماعة إلى أن المراد أن محمدًا ﷺ رأى ربه، منهم من قال رآه بفؤاده، ومنهم من قال: رآه بعينه.

والصحيح أن المراد بالآية أنه رأى جبريل على صورته مرتين كما ثبت في تفسير الآية عن جمع من الصحابة منهم عائشة وابن مسعود وأبو هريرة رضي الله عنهم، ولا مخالف لهم من الصحابة رضي الله عنهم(٢) وقد بين ابن القيم هذا من ستة عشر وجهًا(٣).

والصحيح الذي دل عليه الكتاب والسنة وأجمعت عليه الأمة أن الرسول ﷺ ما رأى ربه، وأن رؤيته عز وجل في الدنيا غير ممكنة كما قال تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ﴾ [الأنعام:١٠٣].

وعن مسروق قال: دخلت على عائشة رضي الله عنها، فقلت: «هل رأى محمد ربه؟ فقالت: لقد تكلمت بشيء قفّ له شعري فقلت: رويدًا، ثم قرأت ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ فقالت: أين يُذهب بك؟ إنما هو جبريل، من أخبرك أن محمدًا رأى ربه، أو كتم شيئًا مما أُمر به، أو يعلم الخمس التي قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]، فقد أعظم الفرية، ولكنه رأى جبريل، لم يره

---

(١) أخرجه البخاري في التوحيد ٧٥٣٦، ومسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٢٦٧٥ ـ من حديث أنس رضي الله عنه، وأخرجه البخاري أيضا في التوحيد ٧٤٠٥ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. وانظر «فتح الباري» الموضع السابق.

(٢) انظر «تفسير ابن كثير» ٦/٥.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩١-٢٩٣.

في صورته إلا مرتين، مرة عند سدرة المنتهى، ومرة في أجياد، وله ستمائة جناح قد سد الأفق»[١].

وعن مسروق قال: كنت متكئًا عند عائشة رضي الله عنها فقالت: «ثلاث من تكلم بواحدة منهن فقد أعظم على الله الفرية، قلت: ما هن؟ قالت: من زعم أن محمدًا رأى ربه فقد أعظم على الله الفرية، قال: وكنت متكئًا فجلست، فقلت: يا أم المؤمنين انظريني ولا تعجليني، ألم يقل الله عز وجل ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ فقالت: أنا أول هذه الأمة سأل عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «إنما هو جبريل لم أره على صورته التي خُلق عليها غير هتين المرتين، رأيته منهبطًا من السماء سادًا عظم خلقه ما بين السماء والأرض» فقالت: أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣]، أو لم تسمع أن الله عز وجل يقول: ﴿۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١]. قالت: ومن زعم أن محمدًا كتم شيئًا من كتاب الله فقد أعظم على الله الفرية والله عز وجل يقول: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٦٧]. قالت: ومن زعم أنه يخبر بما يكون في غد فقد أعظم على الله الفرية، والله عز وجل يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ﴾ [النمل: ٦٥]. ولو كان محمد كاتمًا شيئًا مما أنزل عليه لكتم هذه الآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ﴾ [الأحزاب: ٢٧]».

وفي بعض الروايات عن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: «هل رأى محمد ربه؟ فقالت: سبحان الله لقد قفّ شعري مما قلت»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النجم، ٢٣٣٢، وأحمد ٦/ ٤٩-٥٠.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٣٤، ومسلم في الإيمان - باب إثبات رؤية الله سبحانه وتعالى١٧٧، والترمذي في التفسير ٣٠٦٨.

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: هل رأيت ربك؟ فقال ﷺ: «نور أنّى أراه» وفي رواية «رأيت نورًا»[١].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات، فقال: «إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام، يخفض القسط ويرفعه، يُرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».[٢]

وقال ﷺ في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه: «لن تروا ربكم حتى تموتوا».[٣]

قال ابن القيم[٤]: «وقد حكى عثمان بن سعيد الدارمي الإجماع على ما قالته عائشة.... قال الدارمي: «وأجمع المسلمون على ذلك مع قوله: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ﴾ يعني أبصار أهل الدنيا».

وأما ما رُويَ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني ربي الليلة في أحسن صورة أ حسبه يعني في النوم فقال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: لا. فوضع يده بين كتفي حتى وجدت بردها بين ثديي، أو قال نحري ـ فعلمت ما في السموات وما في الأرض، ثم قال: يا محمد هل تدري فيم يختصم الملأ الأعلى؟ قال: قلت: نعم، يختصمون في الكفارات والدرجات. قال: وما الكفارات والدرجات؟ قلت المكث في المساجد بعد الصلوات والمشي على الأقدام إلى الجماعات، وإبلاغ الوضوء على المكارة. من فعل ذلك عاش بخير ومات بخير، وكان من خطيئته كيوم ولدته أمه. وقال: قل يا محمد إذا صليت: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة أن تقبضني إليك غير مفتون. قال: والدرجات: بذل الطعام، وإفشاء السلام والصلاة بالليل والناس نيام»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان – باب قوله ﷺ : «نور أنّى أراه» ١٧٨، والترمذي في التفسير ٣٢٨٢، وأحمد ٥/ ١٤٧.

(٢) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤٤، ومسلم في الإيمان ١٧٩، وابن ماجه في الطهارة ٣١٨.

(٣) أخرجه الترمذي في الفتن ٢٢٣٥، وقال: «حديث حسن صحيح»، وأحمد ٥/ ٣٢٤.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٢٨٥ ـ ٢٨٦.

(٥) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٣٣، ٣٢٣٤، وقال: «حديث حسن غريب»، وأحمد ١/ ٣٦٨، ورُوي من حديث أبي ذر ومعاذ ـ رضي الله عنهما ـ، وفيه: «رأيت ربي البارحة في أحسن صورة» وأخرجه الطبراني في الكبير ٩٣٨. وقال الهيثمي: «فيه عبد الله بن إبراهيم بن الحسين عن أبيه، ولم أر من ترجم له».

فهذا الحديث وما في معناه يدل على أنه إنما رآه رؤية منام، وعلى هذا يحمل ما جاء عن بعض السلف من إطلاقهم الرؤية، أو قولهم: رآه بقلبه ـ والله أعلم ـ كما قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ قال: «رآه بفؤاده مرتين»[1].

قال ابن القيم[2]: «وأما قول ابن عباس: «رأى محمد ربه بفوائده مرتين فالظاهر أن مستنده هذه الآية وقد تبين أن المرئي فيها جبريل، فلا دلالة فيها على ما قاله ابن عباس».

وأما ما روي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «لقيني رسول الله ﷺ فقال لي: «يا جابر ما لي أراك منكسرًا؟» قلت: يا رسول الله استشهد أبي قتل يوم أحد، وترك عيالاً ودينًا، قال: «أفلا أبشرك بما لقي الله به أباك؟» قال: قلت: بلى يا رسول الله، قال: «ما كلم الله أحداً قط إلا من وراء حجاب، وأحيا أباك فكلمه كفاحًا، فقال: يا عبدي تمنّ عليّ أعطك، قال: يا رب تحييني، فأقتل فيك ثانية، قال الرب عز وجل: إنه قد سبق مني أنهم إليها لا يُرجعون» قال: وأنزلت هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ﴾»[3] فهذا ـ إن صح ـ إنما هو بعد الموت، وهذا من خصائص والد جابر رضي الله عنهما. وأما في القيامة فلا يحجب عن رؤيته عز وجل ومخاطبته إلا من مات على الكفر.

﴿عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ سدرة المنتهى في السماء السابعة، وسميت بذلك لأنها ينتهي إليها ما ينزل من عند الله فيقبض منها وما يصعد إليه فيقبض منها.

﴿عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ﴾ أي الجنة التي يأوي ويصير إليها الرسل وأتباعهم من الشهداء والصالحين، ويخلدون فيها، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] يقال: أوى إلى كذا، أي: صار إليه، واستقر فيه.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ـ باب قول الله ـ عز وجل: (ولقد رآه نزلة أخرى) ١٧٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤ / ٢٨٥ ـ ٢٨٨.

(٣) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٠١٠، وابن ماجه في المقدمة ١٩٠، وقال الترمذي: (حديث حسن غريب).

﴿إِذۡ يَغۡشَى ٱلسِّدۡرَةَ مَا يَغۡشَىٰ﴾ «إذ» بمعنى «حين».

و«السدرة» هي سدرة المنتهى و(ما) موصولة بمعنى الذي، تفيد العموم.

ومعنى (يغشى السدرة) أي يلتف حولها ويغطيها أي: حين يلتف حول السدرة ويغطيها الذي يغطيها من الملائكة والنور والألوان وغير ذلك، كما دلت على ذلك الأحاديث.

فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما أُسري برسول الله ﷺ - **انتهي به إلى سدرة المنتهى، وهي في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها ينتهي ما يهبط به من فوقها فيقبض منها (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال: فراش من ذهب، قال: وأعطي رسول الله ﷺ ثلاثًا: أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله شيئًا من أمته المقحمات»**[1].

﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ﴾ (ما) نافية، ومعنى (ما زاغ البصر) أي: ما ذهب وما مال يمينًا ولا شمالاً (وما طغى) أي: ما جاوز ما أمر به، والطغيان: الزيادة، وتجاوز الشيء حده، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١] أي: لما زاد الماء عن حده.

قال ابن القيم[2]: «وزيغ البصر: التفاته جانبًا، وطغيانه: مده أمامه إلى حيث ينتهي».

فهذا من كمال أدبه ﷺ، فما مال بصره يمينًا ولا شمالاً، ولا جاوز ما أمر به، وهذا من كمال الأدب، ومن كمال إقبال الناظر على المنظور أن يقصر بصره عليه، وأن لا يصرفه عنه يمنة ولا يسرة، ولا يتجاوزه.

قال ابن كثير[3]: «وهذه صفة عظيمة في الثبات والطاعة، فإنه ما فعل إلا ما أمر به، ولا سأل فوق ما أعطي، وما أحسن ما قال الناظم:

رأى جنة المأوى وما فوقها ولو رأى غيره ما قد رآه لتاها»

وهذا يدل على كمال أدبه ﷺ مع ربه، مما فاق به سائر الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام، وبه صار أفضل أولي العزم، فإن من عادة النفوس إذا تم لها مقام أن تتطلع إلى ما هو أعلى منه، ولهذا نرى موسى عليه السلام لما أقيم مقام التكليم طلب

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان - باب ذكر سدرة المنتهى ١٧٣، والترمذي في التفسير ٣٢٧٦، وأحمد ١/ ٤٢٢.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٨٩، ٢٩٦.
(٣) في تفسيره ٧/ ٤٢٩.

الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرۡ إِلَيۡكَۚ﴾ أما نبينا ﷺ فإنه من كمال أدبه وخلقه لم يلتفت ببصره، ولا بقلبه إلى غير المقام الذي أقيم فيه، ولهذا كان ﷺ سيد الأولين والآخرين.

ولهذا جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن مالك بن صعصعة رضي الله عنه: «أن موسى عليه السلام لما مر به النبي ﷺ ليلة الإسراء وجاوزه بكى، فقيل له : ما يبكيك؟ قال: أبكي أن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»[(١)].

﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ كما قال تعالى: ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [طه: ٢٣] واللام في قوله (لقد) واقعة في جواب قسم مقدر، أي: والله لقد رأى من آيات ربه الكبرى.

و«الكبرى» اسم تفضيل، لأن آيات الله إما كبيرة وإما كبرى، وليس فيها صغرى.

أي: رأى وشاهد (من آيات ربه الكبرى) أي: من آيات ربه الكبيرة العظيمة، وهي العلامات الدالة على كماله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وكمال قدرته وعظمته، والمراد بالآيات هنا الآيات الكونية.

قال ابن كثير[(٢)]: «وبهتين الآيتين ـ يعني: قوله ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ وقوله في سورة طه ﴿لِنُرِيَكَ مِنۡ ءَايَٰتِنَا ٱلۡكُبۡرَى﴾ [الآية: ٢٣]، استدل من ذهب من أهل السنة أن الرؤية تلك الليلة لم تقع، لأنه قال: ﴿لَقَدۡ رَأَىٰ مِنۡ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلۡكُبۡرَىٰٓ﴾ ولو كان رأى ربه لأخبر بذلك ولقال ذلك للناس».

الفوائد والعبر:

١ ـ وصول القرآن إلى النبي ﷺ بأقوى إسناد وأصحه وآمنه.

٢ ـ قوة جبريل عليه السلام، وعظم خلقه، وجمال منظره.

٣ ـ إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل على هيئته التي خلق عليها وذلك بالأفق الأعلى

---

(١) أخرجه البخاري: في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ ـ وانظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٢٩٧ـ ٢٩٨، «تفسير ابن كثير» ٥/ ١٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٠.

وقربه من النبي ﷺ قدر قوسين أو أدنى.

٤ ـ أن الله ـ عز وجل ـ أوحى القرآن إلى عبده محمد ﷺ بواسطة جبريل عليه السلام، أي: أوحاه إلى جبريل وبلغه جبريل عليه السلام لمحمد ﷺ.

٥ـ تشريف النبي ﷺ بعبوديته لربه لقوله ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾.

٦ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لوحيه وكتابه الكريم.

٧ ـ إثبات صدق النبي ﷺ فيما رآه من الآيات العظيمة، ونفي كذبه.

٨ ـ الإنكار على المشركين في مجادلتهم الرسول ﷺ بالباطل عناداً منهم وجحداً لما رآه من الآيات.

٩ ـ إثبات رؤية النبي ﷺ لجبريل على صورته التي خلق عليها مرة أخرى عند سدرة المنتهى في السماء السابعة.

١٠ ـ إثبات سدرة المنتهى التي عندها جنة المأوى والتي ينتهي إليها ما يعرج إلى السماء وما ينزل منها، وعظمة ما يغشاها.

١١ ـ ثبات بصر النبي ﷺ على رؤية ما أمر برؤيته من غير زيغ يميناً أو شمالاً ولا امتداد لرؤية غير ما أمر به.

١٢ ـ رؤيته ﷺ حين أسري به من آيات ربه الكبرى الدالة على كماله ـ عز وجل ـ وكمال قدرته.

١٣ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ لقوله ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ ۞ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ ﴿٢٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أكد عز وجل في الآيات السابقة صدق الرسول ﷺ فيما جاء به من الوحي وأنه من عند الله حقًا، وصل إلى النبي ﷺ من أسلم طريق وآمنه وأقربه وأصحه، ثم أتبع ذلك بتوبيخ المشركين وتقريعهم في عبادتهم الأصنام والأنداد والأوثان، واتخاذهم الأبنية عليها وتعظيمها من دون الله، وعدولهم عما جاءهم من الحق والهدى من عند الله عز وجل على لسان الرسول ﷺ إلى ما لم ينزل الله به من سلطان اتباعًا للظن والهوى.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ الهمزة للاستفهام، ومعناه الإنكار والتوبيخ والتقريع والتحقير، ومعنى (أفرأيتم): أخبروني.

قال ابن كثير[1]: «وكانت اللات صخرة بيضاء منقوشة، وعليها بيت بالطائف له أستار وسدنة، وحوله فناء معظم عند أهل الطائف، وهم ثقيف ومن تابعها يفتخرون بها على من عداهم من أحياء العرب بعد قريش، وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب، فهدماها وجعلا مكانها مسجد الطائف»

وقد اشتقوا اسمها «اللات» من اسم الله. وقيل: إن «اللات» اسم رجل كان يلت السويق للحجاج فلما مات عكفوا على قبره فعبدوه.

والعزى: شجرة عليها بناء وأستار بنخلة بين مكة والطائف، كانت قريش وبنو كنانة يعظمونها وقد اشتقوا اسمها من اسم الله «العزيز».

ومن شدة تعظيم قريش لها قول أبي سفيان يوم أحد مفتخراً: لنا العزى، ولا عزى لكم. فقال النبي ﷺ: «أجيبوه» قالوا: ما نقول؟ قال: «قولوا: الله مولانا ولا

---

(١) في تفسيره ٧/ ٤٣٠، وانظر سيرة ابن هشام ١/ ٨٥.

مولى لكم»[١].

وقد بعث النبي ﷺ إليها خالد بن الوليد رضي الله عنه فقطعها[٢].

ومن شدة تعظيمهم لها أنه بعد قطعها وبعد مرور أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان تجد في تعبيرات بعض الناس وبخاصة العامة كلمات يقولونها من غير قصد تناقلها الناس بعضهم عن بعض كقولهم: «واعزتا لك» يقصدون بها التحسر أو التخويف وقولهم: «واعزي لك» يقصدون بها التخويف، وقولهم «واعزاه»يقصدون بها التحسر والندب والتأوه، وقول بعضهم لبعض: «جاءك أبو العزين» يخوفون بهذا، ونحو ذلك من التعبيرات التي قد توجد في بعض الجهات مما هو في الأصل مشتق من هذه التسمية.

وهذه الألفاظ ـ وإن كانت لا يقصد بها شيء ـ ولله الحمد ـ لأن الشرك قد اجتث من جذوره في هذه البلاد بفضل الله عز وجل ثم بفضل دعوة الشيخ المجدد محمد بن عبد الوهاب ومؤازرة محمد بن سعود له رحمهما الله وجزاهما عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء ـ إلا أن الأولى البعد عن هذه الألفاظ.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حلف فقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله ومن قال لصاحبه: تعال أقامرك فليتصدق»[٣].

قال ابن كثير[٤] بعد سياقه هذا الحديث: «وهذا محمول على من سبق لسانه في ذلك كما كانت ألسنتهم قد اعتادته في زمن الجاهلية».

ثم ساق ابن كثير عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: كنا نذكر بعض الأمر، وأنا حديث عهد بالجاهلية، فحلفت باللات والعزى فقال لي أصحاب رسول الله ﷺ: بئس ما قلت ائت رسول الله ﷺ فإنا لا نراك إلا قد كفرت فأتيته، فأخبرته، فقال لي: «قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠٤٣، وأبو داود في الجهاد ٢٦٦٢ ـ من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣١.

(٣) أخرجه البخاري في تفسير سورة النجم ٤٨٦٠، ومسلم في الأيمان ١٦٤٧، وأبو داود في الأيمان والنذور ٣٢٤٧، والنسائي في الأيمان والنذور ٣٧٧٥، والترمذي في النذور والأيمان ١٥٤٥ وابن ماجه في الكفارات ٢٠٩٦.

(٤) في تفسيره ٧/ ٤٣١.

شئ قدير، وانفث عن شمالك ثلاثًا، وتعوذ بالله من الشيطان الرجيم، ثم لا تعد»[1].

﴿وَمَنَوٰةَ﴾ أي: «ومناة» التي كانت تعبد وتعظم من دون الله، وكانت على ساحل البحر بالمُشَلَّل ـ عند قُدَيد بين مكة والمدينة تعظمها خزاعة والأوس والخزرج ومن دان دينهم من أهل يثرب يُهلّون منها للحج إلى الكعبة.

بعث إليها رسول الله ﷺ أبا سفيان صخر بن حرب رضي الله عنه فهدمها، ويقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه[2].

﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ بعد الاثنتين قبلها، أي: بعد اللات والعزى أي: التي تعبد كما تعبد اللات والعزى، وفي قوله (الأخرى) إشارة ـ والله أعلم ـ إلى تأخرها في الرتبة عن اللات والعزى عند المشركين. فهذه الأصنام الثلاثة أشهر معبودات العرب التي كانوا يعظمونها في جاهليتهم ولهذا خصها بالذكر.

وهناك معبودات أخرى كثيرة يعظمونها ويهدون لها كما يهدون للكعبة ويطوفون حولها وينحرون عندها.

ومعنى قوله: ﴿أَفَرَءَيۡتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلۡعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلۡأُخۡرَىٰٓ﴾ أي: أخبروني عن هذه المعبودات والآلهة التي تعبدونها من دون الله، مما لا ينفع ولا يضر، ومما لا حجة ولا سلطان لكم في عبادته، ولماذا تعبدونها من دون الله، وكيف تعبدون ما لا يملك لكم نفعًا ولا ضرًا، وما تضركم عبادته، فأين دليلكم، وأين عقولكم؟.

وليست عبادة غير الله مقصورة على هذه المعبودات اللات والعزى ومناة بل كل ما عظم من دون الله من الأعيان أو الأشخاص الأحياء أو الأموات، أو المناصب، أو الرياضة، أو الدرهم والدينار وغير ذلك فكل ذلك مما عبد من دون الله قال ﷺ «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار»[3] وذلك لأن غاية التعظيم والمحبة والطاعة ينبغي أن تكون لله عز وجل وحده.

---

(١) أخرجه النسائي في الأيمان والنذور ـ الحلف باللات والعزى ٣٧٧٦، وابن ماجه في الكفارات ٣٠٩٧.

(٢) انظر: «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٨٥-٨٦ ، «صحيح البخاري» مع الفتح ٦/ ١٧٦-١٧٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣١-٤٣٢.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

فمن أشرك مع الله غيره، أو قدم تعظيم غيره عليه فقد عبد غير الله.

وقد خلق الله الخلق لعبادته كما قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، فلم يخلقهم ليعبدوا غيره، ويعظموا سواه، ولم يخلقهم لحاجته إليهم، فهو الغني عما سواه، كما قال عز وجل ﴿مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٧-٥٨].

فلينتبه العاقل اللبيب لهذا، وليعلم أن الشرك في آخر هذه الأمة أعظم من شرك الجاهلية الأولى، وأن الشرك أخفى من دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء ما جاهدتها على الإخلاص». وقد يقع الإنسان في الشرك وهو لا يعلم، فعليه أن يقول كما قال النبي ﷺ: «اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»[(١)].

﴿أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع للمشركين على نسبتهم الولد لله عز وجل وهو منزه عنه، وتخصيصهم أنفسهم بالذكور، وزعمهم أن له الإناث، كما قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ﴾ [الطور: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ ٱلْبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثًا وَهُمْ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنْ إِفْكِهِمْ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصْطَفَى ٱلْبَنَاتِ عَلَى ٱلْبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ [الصافات: ١٤٩-١٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦]، وذلك أنهم زعموا أن الملائكة بنات الله تعالى الله عن قولهم قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ [النجم: ٢٧].

﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ أي: جائرة باطلة.

قال ابن كثير[(٢)]: «أي: أتجعلون له ولدًا، وتجعلون ولده أنثى، وتختارون لأنفسكم الذكور، فلو اقتسمتم أنتم ومخلوق مثلكم هذه القسمة لكانت (قسمة ضيزى) أي:

---

(١) أخرجه أحمد ٤/٤٠٣ ـ من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٢) في «تفسيره» ٧/٤٣٣.

جورًا باطلة، فكيف تقاسمون ربكم هذه القسمة التي لو كانت بين مخلوقين كانت جورًا وسفهًا».

﴿إِنْ هِيَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾ «إن» نافية بمعنى «ما»، و«إلا» للحصر، أي: ما هذه المعبودات والآلهة التي جعلتموها شريكة لله «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى» وغيرها إلا مجرد أسماء سميتموها أيها المشركون، أنتم وآباؤكم من قبلكم.

﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ أي: ما أنزل الله بها من حجة ولا دليل ولا برهان.

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ «إن» نافية ـ كسابقتها، و «إلا» كذلك للحصر، أي: ما يتبعون هم وآباؤهم فيما سلكوه من عبادة غير الله إلا الظن والوهم الذي لا دليل عليه، ولا يقين معه ولا حقيقة له كما قال تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ [النجم: ٢٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[1].

قال ابن كثير[2]: «(إن يتبعون إلا الظن) أي: ليس لهم مستند إلا حسن ظنهم بآبائهم الذين سلكوا هذا المسلك الباطل قبلهم».

﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾ الواو: عاطفة، وما موصولة أي: والذي تهواه وتميل إليه نفوسهم من الباطل، من الشهوات، وحب الرياسة، وتعظيم آبائهم الأقدمين وغير ذلك.

والهوى مُرْدٍ ومهلك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الجاثية:٢٣].

وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم﴾ [محمد: ١٤].

وقد قيل:

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في النكاح ١٤١٣ وفي البر والصلة ٢٥٦٣، وأبو داود في النكاح ٢٠٨٠، والنسائي في النكاح ٣٢٣٩-٣٢٤١، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨، وابن ماجه في النكاح ١٧٦٧.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٣.

وآفة العقل الهوى فمن علا ... عَلَى هواه عقله فقد نجا[١]

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ الواو: حالية، واللام: للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد جاءهم من ربهم الهدى، وهو الحق البين الواضح في كتابه ـ عز وجل ـ وعلى لسان رسوله ﷺ، كما قال عز وجل ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣، الفتح:٢٨] أي: بالعلم النافع والعمل الصالح.

لكنهم مع هذا ما انقادوا لما جاءهم من ربهم من الحق والهدى بل اتبعوا الظن وما تهواه أنفسهم.

قال ابن القيم[٢]: «فالظن: الشبهة، وما تهوى الأنفس: الشهوة، والهدى الذي جاءنا من ربنا مخالف لهذا وهذا».

﴿أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ﴾ «أم» هي المنقطعة التي بمعنى «بل» وهمزة الاستفهام، أي: «بل» أللإنسان ما تمنى، ومعناه الإنكار والنفي، و«ما» موصولة، أي: ليس يحصل الإنسان كل ما تمنى، ولا كل من ود شيئًا وأحبه حصل له، وليس كل من زعم أنه مهتد يكون كما قال، قال عز وجل: ﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِىِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء:١٢٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا تمنى أحدكم فلينظر ما يتمنى، فإنه لا يدري ما يكتب من أمنيته»[٣].

بمعنى: أن عليه أن يتمنى الخير ويعمل على تحقيقه، ولا يعتمد على التمني فإن مجرد التمني لا يحقق شيئاً، كما أن عليه أن يحذر من تمني الشر.

وكم من مدع أمرًا لم يحققه وفي الأثر: «ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال»[٤].

وقد أحسن القائل:

---

(١) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

(٢) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٢٩٩.

(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٣٥٧، ٣٨٧.

(٤) روي هذا عن الحسن البصري رحمه الله وقد سبق تخريجه.

لولا المشقة ساد النـاس كلهم الجود يفقر والإقدام قتّال

وقال الآخر:

وكل يدعي وصلاً بليلى وليلـى لا تقر لهم بذاكا

وقد قيل: «التمني رأس مال المفاليس».

﴿فَلِلَّهِ ٱلۡأٓخِرَةُ وَٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: إنما الأمر كله لله، فهو مالك الآخرة والأولى، والأولى هي الدنيا لأنها قبل الآخرة زمنًا وقدّم الآخرة لظهور كمال وتمام ملكه فيها أكثر من الدنيا، ومراعاة للفواصل فهو عز وجل مالك الدارين وخالقهما والمتصرف فيهما، فهو الذي ما شاء كان ومالم يشأ لم يكن، فلا يمكن مع هذا أن يكون للإنسان ما تمنى مع أن الملك والخلق والأمر كله لله كما قال عز وجل ﴿أَلَا لَهُ ٱلۡخَلۡقُ وَٱلۡأَمۡرُۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال عز وجل: ﴿لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ﴾ [الروم:٤].

ولو عرف الإنسان هذا الأمر حقيقة المعرفة، وقدر الله حق قدره ما خالف أمره ولا ارتكب نهيه.

﴿۞وَكَم مِّن مَّلَكٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ الواو: استئنافية، و«كم» هنا خبرية بمعنى «كثير» أي: وكثير من الملائكة في السموات.

﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ أي: لا تنفع شفاعتهم شيئًا، فلا تجلب خيرًا، ولا تدفع ضرًا.

﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ إلا: أداة استثناء، (من بعد) جار ومجرور متعلق بنعت هو المستثنى المقدر، أي: إلا شفاعة من بعد أن يأذن الله.

وقوله (أن يأذن) أن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل جر بالإضافة، أي: إلا من بعد إذن الله لمن يشاء من عباده بالشفاعة ورضاه عن المشفوع له وهذان هما شرطا الشفاعة كما قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ إِذۡنِهِۦۚ﴾ [يونس:٣]، وقال تعالى: ﴿يَوۡمَئِذٖ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنۡ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحۡمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوۡلٗا ١٠٩﴾ [طه: ١٠٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَشۡفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرۡتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨].

وإذا كان الملائكة وهم العباد المكرمون عند الله عز وجل، والذين لا يعصون الله

ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لا تغني شفاعتهم شيئًا، لا نفعًا ولا دفعًا إلا بعد إذن الله عز وجل للشافع ورضاه عن المشفوع له فكيف يقال أو يظن أن للإنسان ما تمنى، أو أن هذه المعبودات تشفع لعابديها من دون الله، إذ لو كان ذلك لأحد من الخلق لكان من أولى الناس بذلك الملائكة الكرام البررة، وفي هذا تيئيس للمشركين من أن يحصل لهم ما تمنوا أو أن تشفع لهم معبوداتهم، ولا يعني هذا أن الملائكة أفضل من الأنبياء والرسل، بل ولا أفضل من المؤمنين كما هو الصحيح من أقوال أهل العلم ومذهب أهل السنة والجماعة.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المشركين وتوبيخهم وتقريعهم في عبادتهم الأصنام والأوثان من دون الله، ونسبتهم الإناث لله ـ تعالى الله وتقدس.

٢ ـ عظم جهل المشركين وإغراقهم في الضلال حيث عبدوا ما لا ينفع ولا يضر، وعظم افترائهم وجورهم حيث نسبوا لله الولد بل خصوه بالإناث واستأثروا بالذكور تعالى الله عن قولهم علواً كبيرا.

٣ ـ أن اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى من أشهر وأكبر معبودات المشركين العرب وبحكمها في الإنكار والنهي كل ما عبد من دون الله.

٤ ـ وجوب توخي العدل والحذر من الجور في كل شيء.

٥ ـ النعي على المشركين وآبائهم في تسميتهم هذه المعبودات، وجعلها آلهة وما أنزل الله بها من سلطان، وإنما بمجرد اتباع الظن وهوى الأنفس.

٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد أقام الحجة على الخلق، وأبان طريق الهدى في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ فلا عذر لمن تنكب الجادة وسلك طريق الردى.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق.

٨ ـ ليس الإيمان بالتمني، ولا من زعم أنه مهتد يكون كذلك، ولا من تمنى شيئاً حصل له.

٩ ـ أن لله ملك الآخرة والدنيا فالخلق خلقه والأمر أمره.

١٠ ـ كثرة الملائكة في السموات وعظم مكانتهم عند الله ـ عز وجل ـ وإن لم تبلغ مكانة الرسل، بل ولا مكانة صالح المؤمنين على الصحيح.

١١ ـ لا أحد يشفع عند الله لا ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا بعد إذن الله للشافع ورضاه عن المشفوع له.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢٧﴾ وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ﴿٢٨﴾ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أنكر الله عز وجل في الآيات السابقة على المشركين نسبتهم الولد لله عز وجل، وزعمهم أن لهم الذكور وله الإناث، ثم أتبع ذلك بالإنكار عليهم في تسميتهم الملائكة بالإناث، وزعمهم أن الملائكة بنات الله، والرد عليهم ـ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قوله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ أي: إن الذين لا يصدقون بالدار الآخرة والبعث والحساب والجزاء على الأعمال، وهم الكفار.

وسميت الدار الآخرة بهذا الاسم، لأنها متأخرة من حيث الزمن بعد الدار الدنيا، وهي آخر الدور وآخر مراحل الإنسان وهي الدار التي فيها الحياة الحقيقية كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿لَيُسَمُّونَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ﴾ الملائكة: جمع ملك، وهم خلق من خلق الله عز وجل خلقهم الله من نور ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦] ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٠] ﴿عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [الأنبياء: ٢٦-٢٧].

﴿تَسْمِيَةَ ٱلْأُنثَىٰ﴾ أي: يسمونهم بالإناث، فيقولون: الملائكة بنات الله تعالى الله عن ذلك قال عز وجل: ﴿وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَـٰدُ ٱلرَّحْمَـٰنِ إِنَـٰثًا ۚ أَشَهِدُوا۟ خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَـٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَمْ خَلَقْنَا ٱلْمَلَـٰٓئِكَةَ إِنَـٰثًا وَهُمْ شَـٰهِدُونَ﴾ [الصافات: ١٥٠]، وقال تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ﴾ [الزخرف: ١٦].

﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ﴾ الواو حالية، و«ما» نافية، «به»: أي: بالمذكور، وهو تسميتهم الملائكة إناثًا.

﴿مِنْ عِلْمٍ﴾ «من» زائدة من حيث الإعراب، مؤكدة للنفي من حيث المعنى، أي:

والحال أنهم ليس لهم بما قالوه من هذه التسمية من علم يصدق ما قالوه، لا قليل ولا كثير، فليس لديهم أي علم وإن قل - بما قالوه، بل هو محض كذب وافتراء.

قال ابن كثير[(١)]: «أي: ليس لهم علم صحيح يصدق ما قالوه، بل هو كذب وزور وافتراء، وكفر شنيع».

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ﴾ «إن» نافية بمعنى «ما» أي: ما يتبعون فيما قالوه إلا الظن والوهم الكاذب.

﴿وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ أي: لا يجدي شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق فالحق ثابت وأحق أن يتبع، والظن باطل زائل، ولهذا ذمه الله عز وجل ونهى عنه.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾ [الحجرات: ١٢]،

وقال ﷺ: **«إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث»**[(٢)].

وفي الحديث: **«ثلاث لا ينجو منهن أحد: الحسد والظن والطيرة، وسأحدثكم بما يخرج من ذلك إذا حسدت فلا تبغ، وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض»**[(٣)].

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾﴾.

في هذه الآيات الكريمة تسلية للنبي ﷺ، ووعيد للمكذبين بما جاءهم به من عند الله عز وجل.

قوله: ﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن كانوا يتبعون الظن وقد جاءهم من ربهم الهدى فأعرض عنهم أي: فأعرض عن الذي تولى وأعرض عن ذكرنا القرآن الكريم كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ ۖ وَسَوْفَ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٣٤.

(٢) أخرجه البخاري في النكاح ٥١٤٤، ومسلم في البر والصلة ٢٥٦٣، والترمذي في البر والصلة ١٩٨٨، وأحمد ٢/ ٢٤٥، ٢٨٧ من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٣) أخرجه ابن أبي الدنيا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه الأصبهاني في الإيمان عن الحسن البصري مرسلاً انظر: الجامع الصغير ٣٤٦٦، وأخرجه الطبراني فيما ذكره ابن كثير في تفسيره ٧/ ٣٥٧ من حديث حارثة بن النعمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاث لازمات لأمتي: الطيرة والحسد، وسوء الظن، فقال رجل: ما يذهبهن يا رسول الله ممن هن فيه؟ قال إذا حسدت فاستغفر الله وإذا ظننت فلا تحقق، وإذا تطيرت فامض».

تُشۡـَٔلُونَ﴾ [الزخرف: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِى ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩].

والمعنى: فأعرض عمن تولى وأعرض عن القرآن الكريم، وعن تذكيرنا بعد إقامة الحجة عليه، واتركه واهجره ولا تباله، ولا يثن من عزمك وتصميمك، ولا تبتئس به واستمر في طريق دعوتك، وهكذا ينبغي أن يكون الدعاة إلى الله والموجهون إلى الخير، بحيث لا يثني عزائمهم أو يفت في عضدهم تولي المعرضين.

وفي هذا من الإشارة للوعيد ما فيه كما قال تعالى: ﴿وَمَنۡ أَعۡرَضَ عَن ذِكۡرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحۡشُرُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَعۡمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرۡتَنِىٓ أَعۡمَىٰ وَقَدۡ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتۡكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَاۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلۡيَوۡمَ تُنسَىٰ﴾ [طه: ١٢٤-١٢٦].

وقال تعالى: ﴿فَوَيۡلٌ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر:٢٢].

﴿وَلَمۡ يُرِدۡ إِلَّا ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: ولم يطلب إلا الحياة الدنيا، وسميت بالدنيا لأنها قبل الآخرة زمنًا، ولدناءة رتبتها وحقارتها، كما وصفها الله عز وجل في القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهۡوٌۖ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٌ وَلَعِبٌۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌۚ﴾ [محمد:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٌ وَلَهۡوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ﴾ [الحديد:٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥، الحديد: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِى ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٌ وَٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى فيما حكاه عن مؤمن آل فرعون أنه قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلۡأٓخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلۡقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩]، وقال تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ﴾ [آل عمران: ١٩٧، النحل:١١٧].

وكما وصفها رسوله المصطفى الكريم فقال ﷺ فيما رواه سهل بن سعد رضي الله عنه: «لو كانت الدنيا تساوي عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء»(١).

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠، وقال الترمذي: «حديث صحيح غريب».

وقال ﷺ: «وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما فيها»[١].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام، وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله، لو اتخذنا لك وطاءً، فقال: «مالي وللدنيا إنما أنا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٢].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي، فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل».

وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: «إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح، وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك، ومن حياتك لموتك»[٣].

فيالله ما أعظم بركة عمر من وفقه الله ونظر للدنيا هذه النظرة كما وصفها الله في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ، وما أقل بركة عمر من غفل عن هذه النظرة فعاش ساهياً لاهياً حتى أتاه الموت وهو على غرة.

ويا لله ما أسعد حياة من عرف حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة، فلم يأس على ما فاته من الدنيا، ولم يبطره ما حصل له منها، وصدق الله العظيم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ [الحديد: ٢٣].

وما أسعد من عرف حقيقة الآخرة فاستعد لها بجزم وعزم وتصميم وقلب منشرح ومعنوية مرتفعة، أداءً لما أوجب الله وانتهاءً عما نهى الله عنه وسرته حسنته وساءته سيئته.

ويا لله ما أحسن حال من عرف حقيقة الدارين، ما أحرصه وأسرعه لأداء الواجبات والبعد عن المنهيات، وما أسرعه إلى العفو عمن ظلمه والصفح عمن أساء إليه، والمسارعة في أعمال البر والخير، قال تعالى ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ـ فضل رباط يوم في سبيل الله ٢٨٩٢، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٨ ـ وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٠ ـ من حديث سهل بن سعد الساعدي ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٧٧، وابن ماجه في الزهد ٤١٠٩، وقال الترمذي: «حديث حسن غريب».

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ أي: غاية علمهم ونهاية ما وصلوا إليه من العلم إرادة الحياة الدنيا وطلبها والسعي إليها، فهي أكبر همهم ومبلغ علمهم ـ نسأل الله العافية ـ فيا للصفقة الخاسرة لمن آثر ما يفنى على ما يبقى.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: **«الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»** (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له»** (٢).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قلَّما كان رسول الله ﷺ يقوم من مجلس حتى يدعو بهؤلاء الدعوات لأصحابه: **«اللهم اقسم لنا من خشيتك ما يحول بيننا وبين معاصيك، ومن طاعتك ما تبلغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوّن به علينا مصائب الدنيا، ومتعنا بأسماعنا وأبصارنا وقواتنا ما أحييتنا، واجعله الوارث منا واجعل ثأرنا على من ظلمنا، وانصرنا على من عادانا ولا تجعل مصيبتنا في ديننا، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا، ولا مبلغ علمنا ولا تسلط علينا من لا يرحمنا»** (٣).

وإن التولي عن الحق وإرادة الحياة الدنيا وحدها خروج عن الفطرة التي فطر الله الناس عليها وعن الهدف الذي خلق الله الخلق من أجله وهو عبادته وحده كما قال عز وجل ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٦-٥٨].

وفي قوله ﴿ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ﴾ إشارة إلى قلة علمهم وضآلته، وإلى نظرهم القاصر الذي لا يتجاوز ما تحت أقدامهم حيث قدموا العاجل الفاني على الآجل الباقي، ولو كان عندهم علم وبعد نظر ما آثروا الفاني على الباقي.

فليتأمل هذا من يلهثون وراء جمع المال من أي طريق، ولو كان ذلك بالمعاملات

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ٧١.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٦٥.

(٣) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٠٢ وقال: «حديث حسن غريب» وقال في «تحفه الأحوذي»: «أخرجه النسائي والحاكم، وقال: صحيح على شرط البخاري».

الربوية، والشركات المختلطة، والأسهم المشتبهة، حتى صار أكبر همهم متابعة الأسهم ارتفاعاً وانخفاضاً في ليلهم ونهارهم، ويقظتهم ومنامهم حتى في صلاتهم وانشغلوا بذلك عن أمور دينهم، وعن أهليهم وأولادهم وأعمالهم، وأصيب كثير منهم بسبب ذلك بأنواع من الأمراض النفسية وارتفاع ضغط الدم أو انخفاضه والسكري وغير ذلك.

وأقول لهؤلاء وأمثالهم: على هونكم فقد قال ﷺ «فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها وتهلككم كما أهلكتهم»[(١)].

وعن النعمان بن بشير ـ رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الحلال بيّن وإن الحرام بيّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ألا وإن حمى الله محارمه»[(٢)]

اللهم اكفنا بحلالك عن حرامك وبفضلك عمن سواك، ولا تجعل الدنيا أكبر همنا ولا مبلغ علمنا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ أي: إن ربك ـ يا محمد ـ خالقك ومالكك ومتوليك ومدبر أمرك.

(هو أعلم) «أعلم»: على وزن «أفعل» صيغة تفضيل، أي: إن مرد العلم كله إليه عز وجل، وهو العليم الخبير الذي لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم السر وأخفى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال تعالى: ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

و«من» في الموضعين موصولة، أي: إن ربك هو أعلم بالذي ضل وتاه عن سبيله

---

(١) أخرجه البخاري في المغازي ٤٠١٥، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٦١، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٦٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٧ ـ من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٢، ومسلم في المساقاة ١٥٩٩، وأبو داود في البيوع ٣٣٢٩، والنسائي في البيوع ٤٤٥٣، والترمذي في البيوع ١٢٠٥، وابن ماجه في الفتن ٣٩٨٤.

سبيل الحق، وتركه (وهو) سبحانه أعلم بالذي اهتدى إلى الحق.

وفي هذا كله ـ كما سبق ـ تسلية للنبي ﷺ، وتقوية له، ووعيد للضالين، ووعد للمهتدين.

وهكذا ينبغي أن يستلهم هذه الدروس الدعاة إلى الله من الآباء والمربين والموجهين وسائر الدعاة إلى الخير والحق، فلا يملوا، أو يقفوا في وسط الطريق.

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على المشركين المكذبين بالآخرة في تسميتهم الملائكة بنات الله بلا علم وإنما بمجرد الظن الباطل.

٢ ـ أن الظن لا يجدي ولا يغني من الحق شيئاً، ولا يثبت أمام الحق.

٣ ـ تسلية الرسول ﷺ ووعيد المكذبين من قومه وأمره بالإعراض عنهم، وفي هذا درس للدعاة إلى الله ـ عز وجل ـ فلا يثني عزائمهم إعراض المعرضين ونعيق الجاهلين.

٤ ـ أن مراد المكذبين المعرضين عن ذكر الله مجرد الحياة الدنيا فهي غاية همهم ومبلغ علمهم، نظرة مادية، وحياة بهيمية.

٥ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع بمن ضل عن سبيله، وبمن اهتدى إليه، وفي هذا وعد للمهتدين ووعيد للضالين المكذبين.

٦ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى ﴿٣١﴾ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلۡمَغۡفِرَةِۚ هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾.

قوله: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الواو: استئنافية واللام حرف جر، ولفظ الجلالة مجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم لإفادة التخصيص والحصر.

و«ما» موصولة تفيد العموم، أي: كل ما في السموات وما في الأرض لله وحده دون سواه، فهو ـ عز وجل ـ خالق ذلك كله، ومالكه، والمتصرف فيه، مما يوجب الإيمان به والانقياد لشرعه والرضا بقضائه وقدره.

﴿لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ اللام للتعليل، وفي الآية دلالة على أن الجزاء من جنس العمل، أي: لأجل أن يجزي ﴿ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ﴾ أي: الذين عملوا الأعمال السيئة، التي تسوء صاحبها في الحال والمآل، وقد تسوء غيره، لأن المعاصي كلها لها أثرها السيء على العباد والبلاد، كما قال عز وجل: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

﴿بِمَا عَمِلُواْ﴾ (ما) موصولة أو مصدرية، أي: بالذي عملوه، أو بعملهم.

وفي قوله (بما علموا) دون أن يقول ليجزي الذين أساؤوا بالإساءة، أو بالعذاب أو بالنار إشارة إلى تمام عدله عز وجل، أي: بما عملوا من غير زيادة ولا نقصان، كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٍ خَيۡرٗا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعۡمَلۡ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ شَرّٗا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

﴿وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ﴾ أي: ويجزى الذين أحسنوا قولاً وعملاً واعتقادًا في أفعالهم وأقوالهم واعتقادهم.

﴿بِٱلۡحُسۡنَى﴾ «الحسنى»: صيغة تفضيل على وزن «فعلى» تأنيث «أحسن» أي: التي لا أحس منها ولا أفضل ولا أكمل.

والمراد بـ(الحسنى): الجنة، كما قال عز وجل ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] ويحتمل أن يراد بـ (الحسنى): المثوبة الحسنى.

والمعنى واحد فالمثوبة الحسنى: يراد بها الجنة وما فيها من ألوان النعيم. وهذه الآية كقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [الرحمن: ٦٠].

وقال عز وجل: ﴿وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى﴾ ولم يقل (بما عملوا) إشارة لفضله عز وجل، لأن الحسنى «فعلى» من الإحسان.

فهو سبحانه يجزى الحسنة بعشر أمثالها بل يضاعفها إلى سبعمائة ضعف وإلى أضعاف كثيرة، ويزيد من فضله كما قال عز وجل ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**كل عمل ابن آدم يضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، قال الله عز وجل: «إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به»**»[1].

وفي هذا إشارة إلى عظيم فضل الصوم حيث أضافه عز وجل إليه، وأضاف جزاءه إليه أيضًا إضافة تقتضي أن للصوم وجزائه مزية وخصوصية، وإلا فإن جزاء الأعمال كلها إليه عز وجل قال تعالى ﴿وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ [إبراهيم:٥١].

﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ﴾ هذا تفسير ووصف للمحسنين وقوله: ﴿يَجْتَنِبُونَ﴾ أي: يبتعدون عن كبائر الإثم ويتركونها جانباً ولا يرتكبونها. والمراد بـ(كبائر الإثم) كبائر الذنوب والموبقات.

(والفواحش) معطوف على (كبائر الإثم) من عطف الخاص على العام لأن الفواحش من أعظم الكبائر، وهي ما فحش من الأعمال والأقوال في الشرع وعرف المسلمين كالزنا واللواط، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾ [الأعراف: ٨٠-٨١].

---

(١) أخرجه البخاري في الصوم١٩٠٤، ومسلم في الصيام ١١٥١، وأبو داود في الصوم ٢٣٦٣، والنسائي في الصيام ٢٢١٥، والترمذي في الصوم ٧٦٤، وابن ماجه في الصيام ١٦٣٨.

وقد اختلف أهل العلم في تحديد الكبيرة على أقوال عدة، أظهرها: أن الكبيرة ما رتب عليه حد في الدنيا، أو وعيد في الآخرة، من غضب أو لعنة أو نار أو عذاب ونحو ذلك. وهي كثيرة غير محصورة بعدد معين على الصحيح، فهي محدودة لا معدودة[(١)].

عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: «قال النبي ﷺ: «**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثًا**» قالوا: بلى يا رسول الله قال: «**الإشراك بالله وعقوق الوالدين، وكان متكئًا فجلس، فقال: ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور**» قال: فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت»[(٢)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**اجتنبوا السبع الموبقات**» قالوا يا رسول الله وما هن؟، قال: «**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات**»[(٣)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[(٤)].

﴿إِلَّا ٱللَّمَمَۚ﴾ استثناء منقطع، لأن اللمم ليست من كبائر الذنوب والفواحش، بل المراد باللمم صغائر الذنوب التي قد يلم بها الإنسان، ولا يسلم منها غالبًا قال ﷺ: «**إن تغفر اللهم تغفر جمًا وأي عبد لك لا ألمّا**»[(٥)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: «**إن الله تعالى كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تتمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**»[(٦)].

---

(١) راجع «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» الكلام على قوله تعالى: إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ [الآية: ٣١] ١/ ٥٢٨-٥٣٣.

(٢) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٤، ومسلم في الإيمان ٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١٩.

(٣) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦٧، ومسلم في الإيمان ٨٩، وأبو داود في الوصايا ٢٨٧٤.

(٤) أخرجه الطبري في جامع البيان ٦/ ٦٥١.

(٥) أخرجه الترمذي في تفسير سورة النجم ٣٢٨٤ ـ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما وقال: «حسن صحيح غريب».

(٦) أخرجه البخاري في الاستئذان ـ زنا الجوارح دون الفرج ٦٢٤٣، ومسلم في القدر ـ باب قدر على ابن آدم حظه من الزنا ٢٦٥٧، وأبو داود في النكاح ٢١٥٢، وأحمد ٢/ ٢٧٦.

قال ابن كثير[١]: «اللمم صغائر الذنوب ومحقرات الأعمال».

وليس المعنى أنهم لا يجتنبون اللمم ويتعمدونه، فقد قال ﷺ فيما رواه عبدالله بن مسعود رضي الله عنه: «إياكم ومحقرات الذنوب، فإنهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه، وإن رسول الله ﷺ ضرب لهن مثلاً، كمثل قوم نزلوا أرض فلاة، فحضر صنيع القوم، فجعل الرجل ينطلق فيجيء بالعود، والرجل يجيء بالعود، حتى جمعوا سوادًا، فأججوا نارًا وأنضجوا ما قذفوا فيها»[٢].

والمعنى: أنهم يجتنبون كبائر الإثم والفواحش، ولكن قد يقع منهم اللمم، وصغائر الذنوب مما لا يسلم منه أحد غالبًا.

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ أي: لمن وقع في شيء من هذه الصغائر، إذا اجتنب الكبائر والفواحش، كما قال عز وجل: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن، ما لم تغش الكبائر**»[٣].

وقيل المراد باللمم الذي يلم بالذنب مرة ثم يدعه ويتوب منه. والأظهر القول الأول، وهو قول الجمهور، لأن الذنوب الكبائر والفواحش وما دونها كلها وإن تكررت تقبل التوبة منها إذا كانت التوبة نصوحا حتى الشرك بالله.

قال ابن القيم[٤]: «والصحيح قول الجمهور: أن اللمم صغائر الذنوب كالنظرة والغمزة والقبلة ونحو ذلك هذا قول جمهور الصحابة ومن بعدهم».

---

(١) في تفسيره ٧/ ٤٣٥.

(٢) أخرجه أحمد ١/ ٤٠٢، والطبراني في الكبير ١٠/ ٢٦١ وأخرجه أحمد أيضًا ٥/ ٣٣١، والطبراني في الكبير من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ١٩٠: «رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن الحكم وهو ثقة»، وقال ابن حجر في «فتح الباري» ١١/ ٣٣٧: «إسناده حسن».

وأخرجه أحمد أيضا ٦/ ٧٠، ١٥١ من حديث عائشة رضي الله عنها، وكذا ابن ماجه في الزهد ـ باب ذكر الذنوب ٤٢٤٣.

(٣) أخرجه مسلم في الطهارة ـ فضل الوضوء والصلاة عقبه ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦.

(٤) انظر: بدائع التفسير ٤/ ٣٠٢.

وقد حكي عن أبي إسحاق الاسفراييني قوله: الذنوب كلها كبائر وليس فيها صغائر قال ابن القيم[١]: «فليس مراده أنها مستوية في الإثم، بحيث يكون إثم النظر المحرم كإثم الوطء من الحرام، وإنما المراد أنها بالنسبة إلى عظمة من عُصيَ بها كلها كبائر، ومع هذا فبعضها أكبر من بعض، ومع هذا فالأمر في ذلك لفظي لا يرجع إلى معنى ـ إلى أن قال: ولكن النصوص وإجماع السلف على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر».

على أنه قد يتناول اللمم الصغائر، ومن ألم بالكبيرة، ثم لم يعد إليها فيتناول اللمم هذا وهذا، لأن من ارتكب الكبيرة مرة واحدة، ولم يصر عليها، ولم يعد إليها فهو حري بالمغفرة، ولهذا اعتبر بعض المفسرين اللمم أن يلم بالذنب مرة ثم لا يعود إليه، وذلك أن الذنوب وفي مقدمتها الكبائر إنما تتغلظ وتعظم في حق من تكررت منه أو أصر عليها قال ابن القيم[٢] بعد أن ذكر نحو هذا:

«فأول ذنب إن لم يكن هذا اللمم فهو من جنسه ونظيره فالقولان متفقان غير مختلفين».

﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ﴾ المغفرة: ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة كما جاء في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: **«إن الله عز وجل يدني يوم القيامة المؤمن حتى يضع عليه كنفه ـ أي: ستره ورحمته ـ ويقرره بذنوبه فيقول: يا فلان أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: أي رب نعم فيقول الله عز وجل أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»**[٣].

فهو عز وجل واسع المغفرة، أي: أن مغفرته تسع الذنوب كلها لمن تاب منها كما قال عز وجل: ﴿۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الكهف: ٥٨].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٠ ـ ٣٠٢.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٣.
(٣) سبق تخريجه.

ولما قال رجل: والله لا يغفر لفلان متعاظماً ذنوبه. قال الله عز وجل «من ذا الذي يتألى عليّ أن لا أغفر لفلان فإني قد غفرت له وأحبطت عملك»[1].

بل إنه عز وجل من فضله وجوده وكرمه يبدل سيئات من تاب إليه حسنات كما قال عز وجل: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدۡعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقۡتُلُونَ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَا يَزۡنُونَۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ يَلۡقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفۡ لَهُ ٱلۡعَذَابُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَيَخۡلُدۡ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمۡ حَسَنَٰتٍۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَن تَابَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَإِنَّهُۥ يَتُوبُ إِلَى ٱللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: ٦٨-٧١].

ومغفرته عز وجل أثر من آثار رحمته فهو عز وجل أكرم الأكرمين وأجود الأجودين وأرحم الراحمين، وخير الغافرين، لا يهلك عليه عز وجل إلا هالك فكيف لا يُطمع بفضله وكرمه، بل كيف يُعصى أمره، ويُفرط في جنبه، وهو عز وجل يغفر الذنوب جميعًا، بل يبدلها حسنات. وإن من ضعف البصيرة ومن الحيرة والخذلان أن يغفل الكثيرون عن هذه المعاني في صفاته عز وجل مما يجعلهم يقعون في معصية الله ويقصرون في طاعته.

ولئلا تجانب الحق والصواب قف أخي الكريم وتأمل عظمة الخالق وفضله وجوده وكرمه، وانظر كيف يتعامل الخلق الضعاف مع بعضهم البعض (ولله المثل الأعلى) ترى الكثير من الناس إذا حصل له من أخيه هفوة يعظم عليه العفو عنها، وإن عفا عنها رأيته يمن بذلك ويكرر ذكره، فتعالى وتقدس الكريم الجواد ـ سبحانه الذي يغفر الذنوب جميعاً، ويعفو عن السيئات، بل ويبدلها حسنات.

وبالمقابل ترى من أحسن إليه أحد الخلق بشيء من الإحسان يكرر ذلك ويقول: يا أبا فلان والله ما أنسى فضلك ومعروفك حتى أوارى في قبري. فيا للعجب أليس الإحسان والفضل والمعروف كله من الله عز وجل، وإنما المخلوق قد يكون سببًا في حصول شيء من ذلك، والمحسن والمتفضل وصاحب المعروف كله هو الله عز وجل فتأمل أخي هذا المعنى قال تعالى ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ﴾ [الأنعام:٩١].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢١ ـ من حديث جندب ـ رضي الله عنه ـ.

ولكن ينبغي أن يعلم أن الله عز وجل وإن كان واسع المغفرة وأن رحمته سبقت غضبه إلا أنه شديد العقاب.

وإنك لترى النصوص من الكتاب والسنة تذود الناس وتحاصرهم بين هذين الأمرين المغفرة والعقاب لكي تستقيم حال المؤمن في طريقه إلى الله بين الخوف والرجاء ولهذا قال ﷺ: «**لو يعلم المؤمن ما عند الله من العقوبة ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة ما قنط من جنته أحد**»[١].

قوله تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ أي: هو سبحانه وتعالى أعلم بكم وبأحوالكم جميعًا وأطوار خلقكم حين أوجدكم وخلقكم من الأرض بخلق أبيكم آدم من التراب، وحين كنتم أجنة في بطون أمهاتكم كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: حدثنا رسول الله ﷺ، وهو الصادق المصدوق، قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم علقة مثل ذلك ثم مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فيكتب رزقه وأجله، وشقي أو سعيد**»[٢].

والأجنة: جمع جنين وسمي الطفل في بطن أمه جنينًا لاستتاره في الظلمات الثلاث، كما قال عز وجل ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] ظلمة الرحم، وظلمة البطن، وظلمة المشيمة.

وهذه المادة (جنّ) معناها: استتر، ومنه سمي العقل «جنانًا» لاستتاره، وسمي الجن (جنًا)؛ لاستتارهم، ويقال: جن الليل، إذا غطى الكون بظلامه، وسمي (المجن) مجنًا؛ لأنه يستتر به من ضرب السهام ونحو ذلك.

والمعنى: أنه عز وجل أعلم بهم وبما قد يُمْكنهم اجتنابه، وبما قد يُلمُّون به مما لا يكاد يُسلم منه غالبًا، لأنه سبحانه العليم بحقيقة أحوالهم وأطوارهم، كما قال عز وجل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤]، ولهذا قال هنا:

---

(١) أخرجه مسلم في التوبة ٢٧٥٥، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٢ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في القدر ٦٥٩٤، ومسلم في القدر ٢٦٤٣، وأبو داود في السنة ٤٧٠٨، والترمذي في القدر ٢١٣٧، وابن ماجه في المقدمة ٧٦.

﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ أي: فلا تزكوا أنفسكم بزعم طهارتها، وسلامتها من اللمم، ومدحها بما ليس فيها، والمَن بعملها والمراءاة والسمعة في ذلك، وقد قيل:

ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها كفى المرء نبلاً أن تعد معايبه

وأيضاً لا يزك بعضكم بعضًا ويمدح بعضكم بعضاً بما ليس فيه.

وعلى هذا فيكون قوله ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡ﴾ كقوله تعالى: ﴿فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ [النور:٦١]، أي: ليسلم بعضكم على بعض.

فالنهي في الآية عن تزكية النفس، وعن تزكية الغير، لما يترتب على تزكية النفس من بطلان العمل وحبوطه، لأن معنى العبادة، بل لبها هو الخضوع والذل والافتقار إلى الله، والانكسار بين يديه، رجاء رحمته، وخوف عقابه والمزكي لنفسه بمقام المعجب بعمله، المدلّ على الله فيه، والله عز وجل غني عن مثل هذا العمل.

وقد قال ﷺ يومًا لأصحابه: «لن يُدخل أحدًا عملُه الجنة، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1].

وتزكية النفس إضافة إلى ما سبق صفة مذمومة ممقوتة عند الناس ذوي الفطر السليمة، لا يقبلونها بل يكرهون صاحبها، ولهذا تجدهم ينفرون من المجالس التي يكون فيها من هذه صفته. يتصدر أحدهم المجلس، ويقول: أنا فعلت كذا، وأنا قلت كذا، وأنا، وأنا.

والناس في هذا بين مستقل ومستكثر، وقل من يسلم من ذلك؛ لأن النفوس جبلت على حب الظهور، والانتصار للنفس، ولو كان ذلك بالباطل إلا من رحم الله فوفقه لمعرفة قدر نفسه ومنتهى ضعفه والاستكانة لربه.

ففتش أخي في جوانب نفسك واحذر من غلوائها وكبريائها وتعاظمها، وألزمها طريق الاستقامة بالذل والخضوع والانكسار بين يدي الله عسى أن تسلم من شرها وما إخالك سالمًا.

أما تزكية الآخرين فقد نهى الله عنها لما قد يتسبب عنها من اغترار المزكَّى بعمله،

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وقد سبق بتمامه.

فيكون ذلك سببًا لهلاكه ولهذا جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه قال: مدح رجل رجلاً عند النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «**ويلك قطعت عنق صاحبك ـ مرارًا ـ إذا كان أحدكم مادحًا صاحبه، لا محالة، فليقل: أحسب فلانًا ـ والله حسيبه، ولا أزكي على الله أحدًا ـ أحسبه كذا وكذا، إن كان يعلم ذلك منه**»(١).

وعن المقداد بن الأسود رضي الله عنه قال: «أمرنا رسول الله ﷺ أن نحثي في وجوه المداحين التراب»(٢).

وتعظم حرمة المدح كلما كان في الوجه، وفيه مبالغة وخيفت منه الفتنة على الممدوح، ويهون الأمر ويسهل إذا كان من باب الثناء العام وبحق، لأجل شكره، والدعاء له، أو تشجيعه على الخير، ونحو ذلك، فقد يكون ذلك من عاجل بشرى المؤمن كما جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: قيل لرسول الله ﷺ: أرأيت الرجل يعمل العمل من الخير ويحمده الناس عليه، أو ويحبه الناس عليه؟ قال: «ذلك عاجل بشرى المؤمن»(٣).

﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ أي: هو سبحانه أعلم بالذي اتقاه منكم من غيره لأن التقوى محلها القلب وهو العليم بذات الصدور، فهو عز وجل الذي يزكي من يشاء ويعلم المتقي من غيره قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُم ۚ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [الآية: ٤٩]. وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

وفي حديث زينب بنت أبي سلمة رضي الله عنها أنها سُميت (برة) فقال رسول الله ﷺ: «**لا تزكوا أنفسكم، الله أعلم بأهل البر منكم**» **فقالوا بم نسميها؟ قال: «سموها زينب»**(٤).

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٦٢، ومسلم في الزهد ـ النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط وخيف منه الفتنة على الممدوح ٣٠٠٠، وأبو داود في الأدب ـ كراهية التمادح ٤٨٠٥، وابن ماجه في الأدب ـ باب المدح ٣٧٤٤.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد ـ النهي عن المدح ٣٠٠٢، وأبو داود في الأدب ـ كراهية التمادح ٤٨٠٤، وابن ماجه في الأدب ٣٧٤٢، وأحمد ٦/ ٥.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٦٤٢، وابن ماجه في الزهد ٤٢٢٥.

(٤) أخرجه مسلم في الأدب ـ استحباب تغيير الاسم القبيح إلى حسن، وتغيير برة إلى زينب وجويرية ٢١٤٢، وأبو داود في الأدب ٤٩٥٣.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن لله ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وتدبيراً.

٢ ـ أن الله ـ عز وجل خلق الخلق ليعبدوه وليجزي المحسن بالحسنى والمسيء بما عمل.

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل، وبقدره، هذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله ـ عز وجل ـ يزيد ويضاعف لمن يشاء بفضله.

٤ ـ الوعيد لمن أساؤوا بالعقوبة، والوعد لمن أحسنوا بالجنة والمثوبة.

٥ ـ الثناء على الذين يجتنبون كبائر الذنوب والفواحش، وأن هذا من الإحسان.

٦ ـ عفو الله ـ عز وجل ـ عن صغائر الذنوب ومغفرته لها إذا اجتنبت الكبائر والفواحش.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ.

٨ ـ سعة مغفرة الله ـ عز وجل ـ وعلمه الواسع بأحوال الخلق وأطوارهم وقدراتهم وأن الإنسان لا يسلم غالباً من الوقوع في بعض الصغائر.

٩ ـ النهي عن تزكية النفوس بإطرائها، ومدحها فإن الله ـ عز وجل ـ أعلم بمن اتقى.

١٠ ـ أن تزكية النفس حقيقة إنما تكون بتقوى الله ـ عز وجل.

١١- علم الله ـ عز وجل بأعمال العباد، وبمن اتقى، مما يدل على عدم مشروعية النطق بالنية.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ ﴿٣٣﴾ وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾ أَعِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ ﴿٣٥﴾ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾.

رُويَ عن مجاهد وابن زيد أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن المغيرة، وكان اتبع رسول الله ﷺ فعيره بعض المشركين وقال: لم تركت دين الأشياخ وضللتهم وزعمت أنهم في النار؟ قال إني خشيت عذاب الله، فضمن له إن هو أعطاه شيئًا من ماله ورجع إلى شركه أن يتحمل عنه عذاب الله، فأعطى الذي عاتبه بعض ما كان ضمن له، ثم بخل ومنعه، فأنزل الله تعالى هذه الآيات. وقيل نزلت في عبد الله بن أبي السرح[١].

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى تَوَلَّىٰ﴾ الاستفهام للإنكار المشرب بالتعجب ممن هذه حاله، والخطاب للنبي ﷺ، ولكل من يصلح له.

والمعنى: انظر إلى من هذه حاله منكرًا عليه ومتعجبًا منه حامدًا ربك على ما من به عليك من الهداية.

فالواجب على من هداه الله ووفقه أن ينكر على العصاة، وأن يناصحهم ويبين لهم الحق ويأمرهم بالرجوع إليه، وأن يحمد الله عز وجل على ما منّ به عليه من الهداية، وأن لا يتعاظم أو يتعالى بعمله، فقد يهديهم الله ويضله.

عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «من رأى صاحب بلاء، فقال: الحمد لله الذي عافاني مما ابتلاك به، وفضلني على كثير ممن خلق تفضيلاً، إلا عوفي من ذلك البلاء كائنًا ما كان ما عاش»[٢].

ولما قال رجل: «والله لا يغفر الله لفلان قال الله عز وجل: «من ذا الذي يتألى عليّ ألا أغفر لفلان إني قد غفرت له وأحبطت عملك»[٣].

وقد قيل:

---

(١) أخرجه عنهما الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٧٢، وانظر: «أسباب النزول» للواحدي ص٢٦٧.

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٤٣١، وقال «حديث غريب» ورُويَ أنه يقول ذلك في نفسه ولا يسمع صاحب البلاء.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢١ـ من حديث جندب رضي الله عنه.

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى إن البلاء موكل بالمنطق[١]

ومعنى (الذي تولى) أي: الذي أعرض عن الحق وتركه بقلبه وجوارحه.

﴿وَأَعۡطَىٰ قَلِيلٗا﴾ أي: أعطى قليلاً من الطاعة والإنفاق.

﴿وَأَكۡدَىٰٓ﴾ أي: ترك وقطع ومنع الخير، يقال: أكدى الرجل، أي: قلّ خيره. قالت الخنساء في أخيها صخر:

فتى الفتيان ما بلغوا مداه ولا يَكدي إذا بلغت كداها[٢]

أي: لا يقطع عطاءه، ولا يمسك عنه إذا قطع غيره وأمسك، والكدية في الأصل الأرض المرتفعة الصلبة الغليظة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «أطاع قليلاً ثم قطعه»[٣].

﴿أَعِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡغَيۡبِ فَهُوَ يَرَىٰٓ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي. و(علم الغيب): علم ما غاب عن الحواس مما لا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

والمعنى: أعند هذا الذي تولى وأعرض عن الحق وقطع عمل الخير والمعروف والإنفاق علم ما غاب عن الحواس فهو يرى أن توليه وإعراضه وتركه عمل الخير والإنفاق خير له وأصلح، أو أنه سينفد ما عنده ويفتقر لو أنفق، أو أن أحدًا سيتحمل عنه عذاب الله عز وجل، أو أنه سيجازى بسعي غيره، أي: ليس الأمر كذلك وإنما حمله على التولي والإعراض الكبر والعناد، ومنعه من الإنفاق الشح والبخل

وقد قال عز وجل ﴿وَمَآ أَنفَقۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَهُوَ يُخۡلِفُهُۥۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾ [سبأ: ٣٩].

وقال ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[٤] **وفي رواية «ما نقص مال من صدقة، بل تزده بل تزده»**[٥].

---

(١) البيت لصالح بن عبد القدوس انظر «ديوانه» ص ١٤٧.

(٢) انظر «ديوان الخنساء» ص٩٦ شرح وتحقيق عبد السلام الجوفي دار الكتب العلمية بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٧٢.

(٤) أخرجه مسلم في البر والصلة ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البزار والطبراني في المعجم الكبير، وأبو يعلى انظر: الكنز الثمين لعبد الله بن الصديق حديث ١٢٣٩، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٣٩.

وقال ﷺ: «أنفق يا ابن آدم ينفق عليك»(١).

﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ الاستفهام للإنكار، والتقدير: بل ألم ينبأ بما في صحف موسى، أي: ألم يخبر، والنبأ الخبر العظيم.

﴿بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ﴾ «ما» موصولة، أي: بالذي في صحف موسى، وهي التوراة، وقيل غيرها

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ أي: وبما في صحف إبراهيم الخليل عليه السلام التي أنزلها الله تعالى عليه كما قال عز وجل ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۝ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ﴾ [الأعلى: ١٨-١٩].

وإبراهيم أقدم زمناً من موسى عليهما الصلاة والسلام وأفضل منه، فهو ثاني أولي العزم من الرسل بعد محمد ﷺ، وموسى ثالثهم وإنما قدم موسى في هذه الآيات - والله أعلم - مراعاة للفواصل، ولمناسبة ختم الآيتين بالثناء على إبراهيم بقوله: ﴿الَّذِي وَفَّىٰ﴾ أي: الذي تمم وبلغ جميع ما أمر به، ووفى في طاعة الله عز وجل، كما قال عز وجل ﴿۞ وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٢٤]. ووفى بامتثال أمر الله - عز وجل له بذبح ابنه إسماعيل عليهما السلام.

ولهذا وصفه الله عز وجل بقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ۚ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ۝ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠-١٢٣].

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ هذه الآية وما بعدها مما أوحاه الله عز وجل في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام.

ومعنى (ألا تزر) ألا تحمل، وجاء التعبير بقوله (ألا تزر) من باب المشاكلة لما بعده - والله أعلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠]، وقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ [النحل: ١٢٦].

---

(١) أخرجه البخاري في النفقات ٥٣٥٢، ومسلم في الزكاة ٩٩٣، والترمذي في التفسير ٣٠٤٥، وابن ماجه في المقدمة ١٩٧ - من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

والمعنى: أن لا تحمل نفس وازرة، أي: مذنبة، (وزر أخرى) أي: ذنب نفس أخرى كما قال عز وجل: ﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ﴾ [فاطر:١٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ [المدثر: ٣٨].

فمن تمام وكمال عدله عز وجل أن لا يؤخذ ويعاقب أحد بجريرة غيره، حتى مع الكفار ولهذا قال تعالى للمؤمنين ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة: ٦]، أي: ولا يحملنكم بغض قوم بسبب صدهم لكم عن المسجد الحرام على الاعتداء على غيرهم.

وهذا يدل على سفه قول الذين كفروا للذين آمنوا: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَـٰيَـٰكُمْ﴾ ولهذا رد الله عليهم بقوله:﴿وَمَا هُم بِحَـٰمِلِينَ مِنْ خَطَـٰيَـٰهُم مِّن شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَـٰذِبُونَ﴾[العنكبوت: ١٢]

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ أي: وأن مما جاء في صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام أنه ليس للإنسان إلا ما سعى، و«ما» مصدرية، أو موصولة، أي: إلا سعيه أو إلا الذي سعاه.

فليس يحصل للإنسان إلا ثواب سعيه وعمله في هذه الحياة كما قال عز وجل ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وقال تعالى في الحديث القدسي: «**يا عبادي إنما هي أعمالكم أحصيها لكم ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومَنَّ إلا نفسه**»[١].

ومن سعي الإنسان وعمله ما كان هو سببًا فيه، فإن ثوابه يصل إليه ولهذا قال ﷺ «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له**»[٢].

فهذه الأعمال الثلاثة كلها من عمل الإنسان وكسبه، ولهذا قال ﷺ في الولد: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن ولده من كسبه**»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة ـ باب تحريم الظلم ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧ ـ من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الوصية ـ ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته ١٦٣١، وأبو داود في الوصايا ٢٨٨٠، والنسائي في الوصايا ٣٦٥١، والترمذي في الأحكام ١٣٧٦ ـ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود في البيوع ٣٥٢٨، والنسائي في البيوع ـ ٤٤٤٩، والترمذي في الأحكام ١٣٥٨، وابن ماجه في التجارات ـ

=

و من ذلك الدعوة إلى الله عز وجل، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإصلاح بين الناس، ونحو ذلك قال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**»[١].

وهكذا كل ما كان الإنسان سبباً فيه فهو داخل ضمن سعيه ويصله ثوابه، فدعاء المؤمنين له يصل إليه ثوابه؛ لأنه بإيمانه سعى في هذه الأخوة بينه وبينهم وانتظم في عدادهم فشمله دعاؤهم، وكذا دعاء من أحسن إليهم بقوله أو فعله أو ماله أو جاهه أو غير ذلك فإنه يصل إليه ثوابه، لأنه بإحسانه إليهم تسبب لنفسه بهذا الدعاء، فصار من سعيه.

وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه ـ أن العاص بن وائل نذر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة ، وأن هشام بن العاص نحر حصته خمسين بدنة وأن عمرًا سأل النبي ﷺ عن ذلك؟ فقال: «أما أبوك فلو كان أقر بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك»[٢].

فلو أتى بالسبب وهو الإيمان والتوحيد لكان قد سعى في عمل يوصل إليه ثواب الصوم والصدقة عنه.

وهكذا كل ما دل الدليل على وصول ثوابه للغير كالصدقة والصوم والحج ونحو ذلك، مما هو مخصص لعموم الآية.

عن عائشة رضي الله عنها أن رجلاً قال: يا رسول الله إن أمي افتلتت نفسها[٣] فماتت ولم توص، أفأتصدق عنها؟ قال: «نعم»[٤].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان الفضل بن عباس رديف رسول الله ﷺ فجاءته امرأة من خثعم تستفتيه؛ فجعل الفضل بن عباس ينظر إليها وتنظر إليه،

=

٢١٣٧، وأحمد ٦/ ٣١ ـ من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ وقال الترمذي «حسن صحيح».

(١) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٤، وأبو داود في السنة ـ لزوم السنة ٤٦٠٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٤، وأحمد ٢/ ٣٨٠، ٣٩٧-٥٠٤-٥٠٥.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ١٨٢ وقال في «مجمع الزوائد» ٤/ ١٩٢: «رواه أحمد،، وفيه الحجاج بن أرطاة وهو مدلس».

(٣) افتلتت: ماتت فجأة.

(٤) أخرجه البخاري في الجنائز – موت الفجاة ١٣٨٨، ومسلم في الزكاة – وصول ثواب الصدقة عن الميت إليه ١٠٠٤. وابن ماجه في الوصايا – من مات ولم يوص هل يتصدق عنه ٢٧١٧. وأخرجه أبو داود في الوصايا – ما جاء فيمن مات من غير وصية يتصدق عنه ٢٨٨١ بنحوه إلا أنه قال: «إن امرأة قالت: يا رسول الله» .

فجعل رسول الله ﷺ يصرف وجه العباس إلى الشق الآخر، فقالت: يا رسول الله، إن فريضة الله على عباده بالحج أدركت أبي شيخًا كبيرًا، لا يستطيع أن يثبت على الراحلة، أفأحج عنه؟ قال: «نعم»، وذلك في حجة الوداع»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبي ﷺ، فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فلم تحج حتى ماتت، أفأحج عنها؟ قال: «نعم، حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته؟ اقضوا الله، فالله أحق بالوفاء»[٢].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً قال يا رسول الله إن أمي توفيت وعليها صيام، قال: «فصم عنها»[٣].

وعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: أن سعد بن عبادة استفتى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله إن أمي ماتت وعليها نذر قال: «فاقضه عنها»[٤].

قال ابن القيم[٥]: «فقوله تعالى: ﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ وقوله: ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾: «آيتان محكمتان يقتضيهما عدل الرب تعالى وحكمته وكماله المقدس، والعقل والفطرة شاهدان بهما، فالأولى: تقتضي أنه لا يعاقب بجرم غيره، والثانية تقتضي أنه لا يفلح إلا بعمله وسعيه، فالأولى تؤمن العبد من أخذه بجريرة غيره، كما يفعله ملوك الدنيا، والثانية: تقطع طمعه من نجاته بعمل آبائه وسلفه ومشايخه كما عليه أصحاب الطمع الكاذب، فتأمل حسن اجتماع هتين الآيتين ونظيره قوله تعالى: ﴿مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥].

قال: فحكم سبحانه لأعدائه بأربعة أحكام هي غاية العدل والحكمة، أحدها: أن هدى العبد بالإيمان والعمل الصالح لنفسه لا لغيره. الثاني: أن ضلاله بفوات

---

(١) أخرجه البخاري في الحج – وجوب الحج وفضله ١٥١٣، ومسلم في الحج ـ العاجز لزمانة أو لهرم ونحوه أو للموت ١٣٣٤، وأبو داود في المناسك ١٨٠٩، والنسائي في المناسك ٢٦٣٥، والترمذي في الحج ٩٢٨، وابن ماجه في المناسك ٢٩٠٧.

(٢) أخرجه البخاري في الحج ١٨٥٢، والنسائي في المناسك ٢٦٣٣، والبيهقي في النيابة في الحج – الحج عن المعضوب والميت، وفيه: «أن الحج حج الفريضة» ٥/ ١٧٩.

(٣) أخرجه البخاري في الصوم ١٩٥٣، ومسلم في الصيام ١١٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في الوصايا ٢٧٦١، ومسلم في النذور ٣٣٠٧.

(٥) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٠٧ – ٣٠٨.

ذلك وتخلفه على نفسه لا على غيره. الثالث: أن أحداً لا يؤخذ بجريرة غيره. الرابع: أنه لا يعذب أحداً إلا بعد إقامة الحجة عليه برسله. فتأمل ما في ضمن هذه الأحكام الأربعة من حكمته تعالى وعدله وفضله، والرد على أهل الغرور والأطماع الكاذبة وعلى أهل الجهل بالله وأسمائه وصفاته».

﴿وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ﴾ أي: سوف يرى في الدنيا والآخرة كما قال عز وجل ﴿وَقُلِ ٱعْمَلُوا۟ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُۥ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥]، وقال عز وجل: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

﴿ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ﴾ أي: ثم بعد عرض عمله ورؤيته له يجازى عليه الجزاء الأوفى أي: الأوفر والأكمل بحيث لا يزاد فيه ولا ينقص منه كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧-٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا في مقام العدل، أما في مقام الفضل فإن الله عز وجل قد يزيد في حسنات العبد ويعفو عن سيئاته مما هو دون الشرك، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨، ١١٦]، وقال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ﴾ [النور: ٣٨].

الفوائد والعبر:

١ ـ الإنكار على من تولى عن الحق، وأعطى قليلاً ثم منع والتعجيب من حاله.

٢ ـ اختصاص الله ـ عز وجل ـ بعلم الغيب دون جميع الخلق.

٣ ـ أن ذنب كل نفس عليها لا يحمله غيرها، وليس للإنسان إلا جزاء سعيه.

٤ ـ أن كل إنسان سيرى عمله يوم القيامة ويجزى عليه الجزاء الأوفى.

٥ ـ إثبات صحف إبراهيم وموسى عليهما السلام، وتوافقها مع القرآن الكريم في هذه الوصايا.

٦ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على نبيه وخليله إبراهيم عليه السلام بإتمامه وإكماله ما أمر به.

﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا ۝ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ۝ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ۝ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعْرَىٰ ۝ وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ ۝ وَثَمُودَا فَمَآ أَبْقَىٰ ۝ وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ ۝ وَٱلْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ ۝ فَغَشَّىٰهَا مَا غَشَّىٰ ۝ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ ۝﴾.

قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ هذا وما بعده معطوف على ما قبله، داخل ضمن ما جاء في صحف إبراهيم وموسى، أي: وأن إلى ربك يا محمد ورب جميع الخلائق منتهى جميع الأمور والأحكام في الدنيا والآخرة، ومصير جميع الخلق، ومرجع جميع الأشياء، كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨، النور: ٤٢، فاطر: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿إِلَيَّ ٱلْمَصِيرُ﴾ [لقمان: ١٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ﴾ [ق: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر:٣]، وقال تعالى: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة:٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾ [مريم: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ [الرعد: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَآ إِيَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤].

فإليه عز وجل المنتهى والمعاد والمصير والمرجع والمآب، وهو عز وجل لجميع الخلق بالمرصاد، وهذا مما يوجب تقوى الله عز وجل، ومراقبته في السر والعلن إذ مصير الخلائق ومرجعهم إليه، وطريقهم عليه، فيجازيهم بأعمالهم، وفي هذا وعد للمحسنين، ووعيد للمسيئين.

قال ابن القيم[1]: «قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾: متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يرد لأجله ويتصل به فهو مضمحل منقطع فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه فهو غاية كل مطلوب، وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه، فاجتمع ما يراد منه كله في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ﴾ [الحجر: ٢١]. واجتمع ما يراد له في قوله ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢]، فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى».

فكل حركات الإنسان وسكناته ينبغي أن تكون في ذات الله ولله.

كما أن الأفكار والعقول تقف عنده ـ كما قال عز وجل: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَـٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٠٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يأتي الشيطان أحدكم فيقول: من خلق كذا، من خلق كذا؟ حتى يقول: من خلق ربك؟، فإذا وجد أحدكم ذلك فليستعذ بالله ولينته»[2].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ﴾ ضمير الفصل «هو» للتوكيد، وهو كذلك في الجمل الآتية أي: وأنه هو لا غيره خلق المتضادات، وأوجد المختلفات، وأضحك وأبكى، أي: خلق في عباده الضحك وسببه وهو السرور والبكاء وسَبَبَه وهو الحزن. وقدم الضحك ـ والله أعلم ـ لأنه يدل على السرور وضده البكاء، ولهذا أخره.

وفي الآية تقرير لجواز الضحك والبكاء عند وجود سببهما، وقد كان النبي ﷺ ضحكه التبسم[3].

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٠.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ صفة إبليس وجنوده ٣٢٧٦، ومسلم في الإيمان ـ بيان الوسوسة في الإيمان وما يقوله من وجدها ١٣٤، وأبو داود في السنة ٤٧٢١.

(٣) أخرجه الترمذي في المناقب ٣٦٤٢ من حديث عبد الله بن الحارث بن جزء ـ رضي الله عنه ـ قال: «ما كان ضحك =

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السموات على إصبع والأرض على إصبع والشجر على إصبع والماء والثرى على إصبع وسائر الخلائق على إصبع، فيقول: أنا الملك، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه تصديقاً لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾[1].

وفي حديث أسامة بن زيد ـ رضي الله عنه ـ أن ابنة للنبي ﷺ أرسلت إليه أن ابنا لها قبض فرفع إلى رسول الله ﷺ الصبي ونفسه تتقعقع، ففاضت عيناه صلوات الله وسلامه عليه، فقال له سعد: يا رسول الله ما هذا؟ فقال: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[2].

وقال ﷺ لما توفي ابنه إبراهيم: «إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون»[3].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا﴾ أي: أوجد الموت والحياة، كما قال ـ عز وجل: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ [الملك: ٢]، والموت: عبارة عن خروج الروح من البدن، ومفارقتها له، والحياة سر من أسرار الله ـ عز وجل ـ في خلقه، كلهم عاجزون عن معرفة كنهها، لا يعرف منها إلا أن الحي يأكل ويشرب ويتحرك وينمو، فإذا مات انقطع ذلك كله، وقدم الموت لأنه هو الأصل، فإن الله ـ عز وجل ـ أوجد الإنسان من العدم، قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى عليه حين من الدهر لا ذكر له.

﴿وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ﴾ لم يؤكد هذه الجملة بالضمير «هو» لأن الخلق

=

رسول الله ﷺ إلا تبسماً» وقال الترمذي «حديث صحيح غريب».

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٨١١، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار ٢٧٨٦، والترمذي في التفسير ٣٢٣٨.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٨٤، ومسلم في الجنائز ٩٢٣، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٥، والنسائي في الجنائز ١٨٦٨.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣٠٣، ومسلم في الفضائل ٢٣١٥، وأبو داود في الجنائز ٣١٢٦ من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

كلهم مفطورون على الإقرار بالخالق، كما قال تعالى عن المشركين: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [الزخرف: ٨٧] والمعنى: أنه أوجد الصنفين الذكر والأنثى من بني آدم، وسائر الحيوانات، وفاوت بين الذكر والأنثى، في الخُلُق والخلقة والقدرات والأحكام وغير ذلك، وقدّم الذكر على الأنثى لأن جنس الذكر أفضل من حيث العموم.

﴿مِن نُّطْفَةٍ﴾ النطفة الماء القليل، أي: من مني الرجل والمرأة، كما قال عز وجل: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ﴾ [القيامة: ٣٦-٣٩].

وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يَخْرُجُ مِنۢ بَيْنِ ٱلصُّلْبِ وَٱلتَّرَآئِبِ﴾ [الطارق: ٥-٧]، أي: من بين صلب الرجل وترائب المرأة. وقال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ [المرسلات: ٢٠].

ومعنى: ﴿إِذَا تُمْنَىٰ﴾ أي: إذا تراق وتصب في الأرحام.

﴿وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ﴾ أي: وأن عليه ـ عز وجل ـ إعادة الخلق مرة أخرى بعد موتهم، وذلك يوم القيامة، أوجب ذلك على نفسه لمجازاتهم والمقاصة بينهم، ولئلا تكون الحياة عبثاً. وذلك أهون عليه من خلقهم أول مرة، كما قال عز وجل ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ [يس: ٧٩].

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ﴾ أي: أغنى الخلق وملّكهم المال، ﴿وَأَقْنَىٰ﴾ أي: جعل لهم من الأموال ما يتخذونه قنية، أي: يدخرونه عندهم يتمتعون به في الحال وفي المستقبل. حتى إن النملة لتدخر قوت الشتاء في أيام الصيف، وصدق الله العظيم ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [هود:٦] فتبارك الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى وتكفل بأرزاق الخلق وكفى.

وقيل: معنى (أقنى) أفقر، فيكون بمقابلة (أغنى).

﴿وَأَنَّهُۥ هُوَ رَبُّ ٱلشِّعۡرَىٰ﴾ أي: رب الكوكب المعروف المسمى بالشعرى، قال السعدي[١]: «وهو النجم المعروف العبور، المسماة بالمرزم».

وقد كانت طائفة من العرب يعبدونه، فكيف يعبدون المربوب من دون الرب، أو يشركونه مع الرب الخالق سبحانه وخص «الشعرى» بالذكر مع أنهم يعبدون غيرها من الكواكب لاشتهار أمرها.

﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهۡلَكَ عَادًا ٱلۡأُولَىٰ﴾ أي: أهلك عاداً الأولى وهم عاد إرم، قوم هود ـ عليه السلام ـ منازلهم بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن. قال ـ عز وجل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلۡعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمۡ يُخۡلَقۡ مِثۡلُهَا فِي ٱلۡبِلَٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨]. وسميت «عاداً الأولى» لتقدمها في الزمن على «عاد الثانية» وهم ثمود قوم صالح عليه السلام.

وقد أهلكهم الله عز وجل بالريح الباردة الشديدة كما قال ـ عز وجل: ﴿فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ رِيحٗا صَرۡصَرٗا فِيٓ أَيَّامٖ نَّحِسَاتٖ لِّنُذِيقَهُمۡ عَذَابَ ٱلۡخِزۡيِ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَخۡزَىٰۖ وَهُمۡ لَا يُنصَرُونَ ۝١٦﴾ [فصلت: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٞ فَأُهۡلِكُواْ بِرِيحٖ صَرۡصَرٍ عَاتِيَةٖ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيۡهِمۡ سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗاۖ فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ كَأَنَّهُمۡ أَعۡجَازُ نَخۡلٍ خَاوِيَةٖ ۝٧ فَهَلۡ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٖ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

﴿وَثَمُودَاْ﴾ ثمود: هم قوم صالح ـ عليه السلام ـ مساكنهم شمال الجزيرة في «العلا»، وهي المعروفة الآن بـ «مدائن صالح».

﴿فَمَآ أَبۡقَىٰ﴾ أي: أهلكهم ودمرهم فلم يبق منهم أحداً بالصيحة والصاعقة قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡحِجۡرِ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٨٠ وَءَاتَيۡنَٰهُمۡ ءَايَٰتِنَا فَكَانُواْ عَنۡهَا مُعۡرِضِينَ ۝٨١ وَكَانُواْ يَنۡحِتُونَ مِنَ ٱلۡجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ ۝٨٢ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾ [الحجر: ٨٠-٨٣]، وقال عز وجل: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٢٠.

ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [فصلت: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا۟ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٤٣﴾ فَعَتَوْا۟ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الذاريات: ٤٣-٤٤]، صاح بهم جبريل عليه السلام صيحة صعقوا منهم فتقطعت قلوبهم في أجوافهم.

﴿وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ﴾ أي: وقوم نوح ـ عليه السلام ـ أهلكهم الله ولم يبق منهم أحداً من قبل هؤلاء.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ﴾ ضمير الفصل «هم» للتوكيد، و«أظلم» و«أطغى» كل منهما اسم تفضيل، أي: إنهم كانوا هم أشد ظلماً وطغياناً.

والظلم: وضع الشيء في غير موضعه على سبيل التعدي، وأظلم الظلم الشرك بالله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]، أي: لما علا الماء وارتفع وزاد عن حده.

والمعنى: إنهم كانوا أشد ظلماً وطغياناً من عاد وثمود، حيث أشركوا مع الله غيره، وتجاوزوا حدود الله في أمره ونهيه، وعصوا وتمردوا مع طول المدة التي مكثها نوح عليه السلام في دعوتهم وتنويع أساليب الدعوة لهم، وهي ألف سنة إلا خمسين عاما كما قال عز وجل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ١٤].

وقد عدد لهم ونوع في طرق الدعوة وأساليبها، ورغبهم ورهبهم كما حكى الله ذلك عنه في سورة نوح، وغيرها، ومع ذلك كله لم ينجع ذلك فيهم: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِىٓ إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّى دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: ٥-١٢].

وقيل: إن الضمير في قوله (إنهم كانوا هم أظلم وأطغى) يعود إلى قوم نوح ومن ذكر قبلهم في الآيات وهما عاد وثمود وعليه يكون المعنى: أن هؤلاء الأقوام

أظلم وأطغى من قريش، فيكون فيه تسلية النبي ﷺ.

﴿وَٱلۡمُؤۡتَفِكَةَ﴾ المؤتفكة قرى قوم لوط ـ عليه السلام ـ، ومكانها غور الأردن، وهي المسماة بالبحر الميت.

﴿أَهۡوَىٰ﴾ أي: أسقطها عليهم كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [هود: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَغَشَّىٰهَا﴾ أي: فغطاها ﴿مَا غَشَّىٰ﴾ «ما» موصولة بمعنى «الذي» للتهويل والتعظيم، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلۡيَمِّ مَا غَشِيَهُمۡ﴾[طه: ٧٨] أي: غشيها وغطاها من العذاب الأليم والعقاب الوخيم ما لا يمكن وصفه من الحجارة التي أرسلها الله ـ عز وجل ـ عليهم وأمطرهم بها كما قال عز وجل: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِم مَّطَرٗاۖ فَسَآءَ مَطَرُ ٱلۡمُنذَرِينَ﴾ [الشعراء: ١٧٣، النمل: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٖ مَّنضُودٖ﴾ [هود: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةٗ مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، «بأي» اسم استفهام ـ للتوبيخ ﴿ءَالَآءِ رَبِّكَ﴾ أي: نعم ربك. كما قال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَٱذۡكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في مواضع عدة في سورة الرحمن، ولهذا كانت الجن تقول كلما سمعت هذه الآية من النبي ﷺ: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1].

والخطاب لعموم الإنسان، أي: بأي نعم ربك أيها الإنسان وخالقك ومالك أمرك ومدبرك ﴿تَتَمَارَىٰ﴾ أي: تتشكك. فهو الذي خلق المتضادات كالضحك والبكاء، والموت والحياة، والذكر والأنثى من الإنسان والحيوان، وعليه بعث الخلق بعد موتهم وهو الذي أغنى الخلق بالمال والرزق ووفر لهم من ذلك ما يتخذونه قنية يدخرونه، وهو رب الشعرى التي يعبدونها من دون الله، وهو الذي أهلك المكذبين من الأمم السابقة عاد وثمود وقوم لوط.

---

(١) سيأتي تخريجه في تفسير سورة «الرحمن».

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ، وأن المرجع والمصير والمنتهى إلى الله ـ عز وجل ـ فيجازي كلاً بما عمل.

٢ ـ عظمة قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلقه، وفي إيجاده المتضادات الضحك والبكاء، والموت والحياة والذكر والأنثى وغير ذلك.

٣ ـ جواز الضحك والبكاء عند وجود سببهما.

٤ ـ أن أصل خلق الإنسان من نطفة من مني الرجل والمرأة.

٥ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على إعادة الخلق وبعثهم نشأة أخرى.

٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ هو المعطي المغني للخلق بالمال والرزق يتخذونه غنية وقنية.

٧ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق بما في ذلك الشعرى، وفي هذا رد على من يعبدونها من دون الرب سبحانه وتعالى.

٨ ـ الوعيد والتهديد للمكذبين وتخويفهم بذكر إهلاك الله ـ عز وجل ـ للمكذبين قبلهم عاد وثمود وقوم نوح وقوم لوط، وما حل بهم من العقوبات العظيمة الدالة على كمال قدرة الله تعالى، وأخذه الشديد للظالمين.

٩ ـ إثبات كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وتمام نعمه على الخلق ـ بما لا يدع مجالاً للشك في ذلك.

﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾ أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ ﴿٥٩﴾ وَتَضْحَكُونَ وَلَا تَبْكُونَ ﴿٦٠﴾ وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ ﴿٦١﴾ فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩ ﴿٦٢﴾﴾.

قوله: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ الإشارة في قوله ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ﴾ إلى النبي محمد ﷺ والإنذار: الإعلام بتخويف، والنذير: هو المنذر المحذر مما يعاين من الشر، الذي يخشى وقوعه فيمن أنذرهم[1] قال تعالى: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦].

وقيل المراد بالنذير القرآن الكريم، ولا مانع من حمله على الرسول ﷺ وما جاء به من الوحي من عند الله ـ عز وجل.

فعن أبي موسى الأشعري ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل أتى قوماً، فقال: رأيت الجيش بعيني، وإني أنا النذير العريان، فالنجاء النجاء، فأطاعته طائفة، فأدلجوا على مهلهم، فنجوا، وكذبته طائفة فصبحهم الجيش فاجتاحهم»[2].

ومعنى «النذير العريان» أي: الذي أعجله شدة ما يعاين من الشر، عن أن يلبس على جسده شيئاً، بل بادر إلى إنذار قومه قبل ذلك، فجاءهم عرياناً مسرعاً.

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: كان رسول الله ﷺ إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته، واشتد غضبه، حتى كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول: «بعثت أنا والساعة كهاتين، ويقرن بين إصبعيه، السبابة والوسطى»[3].

وعن سهل بن سعد ـ رضي الله ـ عنه قال: «قال رسول الله ﷺ: «مثلي ومثل الساعة كهاتين» وفرق بين إصبعيه الوسطى والتي تلي الإبهام»[4]، وفي رواية: «مثلي

---

(١) كما قال القيط الإيادي منذراً ومحذراً قومه غزو كسرى من قصيدة بعنوان «صرخة غيور».

أبلغ إياداً وخلل في سراتهم	أني أرى الرأي إن لم يعص قد نصعا
يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً	على نسائكم كسرى وما جمعا
هذا كتابي إليكم والنذير معاً	لمن رأى رأيه منكم ومن سمعا
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل	فاستيقظوا إن خير العلم ما نفعا

(٢) أخرجه البخاري في الرقاق ـ الانتهاء من المعاصي ٦٤٨٢، ومسلم في الفضائل ـ شفقته ﷺ على أمته ومبالغته في تحذيرهم مما يضرهم ٢٢٨٣.

(٣) أخرجه مسلم في الجمعة ٨٦٧، وأبو داود في الخراج ٢٩٥٦، والنسائي في العيدين ١٥٧٨، وابن ماجه في المقدمة ٤٥.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٣٦، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ٢٩٥٠.

ومثل الساعة كفرسي رهان. ومثلي ومثل الساعة كمثل رجل بعثه قومه طليعة، فلما خشي أن يُسبق، ألاح بثوبه، أُتيتم أُتيتم، ثم يقول رسول الله ﷺ: أنا ذلك»[1].

﴿مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ أي: من جنسهم، أي: ما هو إلا نذير كغيره من النذر السابقين، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

﴿أَزِفَتِ ٱلْـَٔازِفَةُ﴾ أي: قربت القيامة، وسميت القيامة بالآزفة لقرب وقوعها وتحققه، كما قال تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ [القمر: ١]، ومعنى (أزف) قرب، كما يقال: أزف الرحيل، أي: قرب الرحيل. فالقيامة آتية وكل آت قريب.

فما أقرب الآتي وأبعد ما مضى وهذا غراب البين في الدار ينعب[2]

فعمر الإنسان في هذه الدنيا قصير، ومن مات قامت قيامته، وما بقي من الدنيا بالنسبة لما مضى منها وبالنسبة للآخرة قصير.

﴿لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾ أي: ليس لها من دون الله نفس تكشف متى وقوعها، أو تمنعه، أو تزيلها إذا وقعت، سوى الله ـ عز وجل، أي: لا يدفع وقوعها ولا يزيله ولا يمنعه من دون الله أحد، ولا يطلع على علمها سواه، كما قال عز وجل: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ﴾ [الأعراف: ١٨٧]، وقال تعالى: ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٤٤]، أي: إلى ربك منتهى علم وقوعها، وأمر وقوعها.

﴿أَفَمِنْ هَٰذَا ٱلْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتعجب والتقريع والتوبيخ للمشركين في تعجبهم تعجب إنكار واستبعاد من أن يكون القرآن صحيحاً وتكذيبهم له، وإعراضهم عنه كما قالوا فيما حكى الله عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥﴾ [ص: ٥]، وقال تعالى عنهم: ﴿بَلْ عَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾[ق: ٢].

ويحتمل أن يكون المراد تعجبهم من بلاغته وفصاحته كما هو الواقع الحاصل

---

(١) أخرجها أحمد ٥/ ٣٣١ - من حديث سهل بن سعد - رضي الله عنه وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٤٤ وقال: «وله شواهد من وجوه أخر من صحاح وحسان».

(٢) البيت للشاعر محمد بن عثيمين.

منهم، ومع ذلك كذبوا وأعرضوا استكباراً وعناداً.

﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ أي: وتضحكون منه استهزاء وسخرية منه ومن أتباعه، كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضْحَكُونَ﴾ [المطففين: ٢٩].

﴿وَلَا تَبْكُونَ﴾ أي: ولا تبكون عند سماعه، وسماع قوارعه ووعده ووعيده، كما هو حال المؤمنين الموقنين، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ۝١٠٧ وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ۝١٠٨ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا۩﴾ [الإسراء: ١٠٧-١٠٩]، وقال تعالى: ﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّواْ سُجَّدًا وَبُكِيًّا۩﴾ [مريم: ٥٨]، وقال عنهم أيضاً: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّواْ عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ [الفرقان: ٧٣].

ونفي بكائهم بعد قوله ﴿وَتَضْحَكُونَ﴾ يدل على أنهم قد بلغوا من الضحك من القرآن والسخرية والاستهزاء به، وقساوة القلوب الغاية في ذلك. وهذا بخلاف من رزقه الله قوة الإيمان واليقين وأنار بصيرته فإنه إذا سمع آيات الله ووعده ووعيده، ورحمته، وعذابه لا يملك نفسه عن البكاء لكن ينبغي خفض الصوت ما استطاع وقد كان - ﷺ - يسمع لجوفه عند القراءة أزيز كأزيز المرجل، أما رفع الصوت بالبكاء أو التباكي وافتعال البكاء فلا يجوز وخاصة في الصلاة كما يفعله كثير من الناس في القنوت وعند ختم القرآن، بينما لا تتحرك مشاعرهم عند سماع القرآن وما فيه من الوعد والوعيد.

﴿وَأَنتُمْ سَٰمِدُونَ﴾ أي: ساهون لاهون غافلون معرضون مستكبرون أشرون بطرون، منشغلون بما لا فائدة فيه من الغناء ونحوه. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ﴾ [فصلت: ٢٦].

وهذه حال كثير من الناس هم في لهو وسهو وغفلة إلا من رحم ربك قال تعالى: ﴿وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [الأنعام: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فَٱلْيَوْمَ نَنسَىٰهُمْ كَمَا نَسُواْ لِقَآءَ يَوْمِهِمْ هَٰذَا وَمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف: ٥١].

وقد أحسن القائل:

والناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في بيت جزار

﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾

بعد ما أنكر على المشركين تعجبهم من القرآن تكذيباً له، وضحكهم سخرية واستهزاءً به، وما هم عليه من الاستكبار والإعراض والغفلة والأشر والبطر والانشغال بما يضرهم ولا ينفعهم أمرهم بالسجود له وحده وعبادته والخضوع والإخلاص له إعذاراً وإنذاراً.

قوله: ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، أي: إن أردتم الخلاص من العذاب فاسجدوا لله واعبدوا.

والسجود لغة: بمعنى الخضوع والتذلل لله ـ عز وجل ـ ويطلق على السجود على الأعضاء السبعة، ويطلق على الصلاة كلها لأنه من أهم أركانها وهو المراد هنا والله أعلم لأنه يشمل ما قبله.

﴿وَٱعْبُدُواْ﴾ الواو عاطفة، أي: واعبدوه بأنواع العبادة كلها وهذا من عطف العام على الخاص لأن السجود من العبادة، بل من أعظمها، ولهذا خصه بالذكر من بين أنواع العبادة كلها لمزيته وفضله وفي الحديث: «أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد فأكثروا من الدعاء فإنه قَمِنٌ أن يستجاب لكم»[1].

والعبادة لغة: التذلل والخضوع لله ـ عز وجل ـ وشرعاً: اسم جامع لما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، كالصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد وبر الوالدين والدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتوكل على الله وخوفه ورجائه وتعظيمه والذبح والنذر له والإخلاص له في سائر العبادات.

ويشرع سجود التلاوة عند قراءة هذه الآية ﴿فَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ وَٱعْبُدُواْ﴾ وهي من السجدات المجمع عليها.

وسجود التلاوة يقال فيه ما يقال في سجود الصلاة ومثلهما سجود الشكر فيقال فيه: «سبحان ربي الأعلى» مرة أو مرتين أو ثلاثاً، وهو أفضل ويقال: «اللهم لك سجدت وبك آمنت ولك أسلمت، سجد وجهي للذي خلقه وصوره وشق سمعه

---

(١) أخرجه مسلم في الصلاة ٤٨٢، وأبو داود في الصلاة ٨٧٥، والنسائي في التطبيق ١١٣٧ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

وبصره، تبارك الله أحسن الخالقين»[١].

واستحسن بعض السلف أن يقول: «اللهم اكتب لي بها أجرا وضع عني بها وزرا، وارفع لي بها عندك ذكرا، واقبلها مني، كما قبلتها من عبدك ونبيك داود ـ عليه السلام».

وفي الآيات إشارة إلى أن الحياة جد وليست بهزل فلم يخلق الإنسان لأجل اللهو والغفلة ونحو ذلك، ولن يترك سدى، بل خلق لأمر عظيم وهو الخضوع لله عز وجل والسجود له، وعبادته ومجازاته على ذلك، كما قال عز وجل: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦].

وقد أحسن القائل:

قد رشحوك لأمر لو فطنت له فاربأ بنفسك أن ترعى مع الهمل

وقال الآخر:

الأمر جد وهو غير مزاح فاعمل لنفسك صالحاً يا صاح

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الرسول ـ ﷺ ـ نذير كغيره من النذر قبله، كما أن القرآن نذير كغيره من الكتب قبله.

٢ ـ التحذير من القيامة وأهوالها وإثبات قربها واستئثار الله بها وبعلمها فلا أحد يستطيع معرفة متى وقوعها ولا منعه أو رفعه إلا الله ـ عز وجل ـ.

٣ ـ الإنكار على المشركين في تعجبهم من القرآن الكريم وضحكهم منه سخرية واستهزاء وعدم بكائهم عند سماعه، وسهوهم وغفلتهم وانشغالهم بما لا ينفع، وتكذيبهم له وإعراضهم عنه.

٤ ـ الترغيب في البكاء عند سماع القرآن خشية لله ـ عز وجل ـ دون تكلف أو رفع صوت.

٥ ـ وجوب السجود لله ـ عز وجل ـ وعبادته والخضوع له.

٦ ـ مشروعية السجود للتلاوة عند قراءة قوله: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟﴾.

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين ٧٧١، وأبو داود في الصلاة ٧٦٠، والترمذي في الدعوات ٣٤٢١، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٥٤، من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه.

تفسير سورة القمر

عن عبيد الله بن عبد الله أن عمر بن الخطاب سأل أبا واقد الليثي: «ما كان رسول الله ﷺ يقرأ في العيد؟ قال: بقاف، واقتربت»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)]: «وكان يقرأ بهما في المحافل الكبار، لاشتمالهما على ذكر الوعد والوعيد، وبدء الخلق، وإعادته والتوحيد، وإثبات النبوات، وغير ذلك من المقاصد العظيمة».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ۝٢ وَكَذَّبُواْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُمۡۚ وَكُلُّ أَمۡرٖ مُّسۡتَقِرّٞ ۝٣ وَلَقَدۡ جَآءَهُم مِّنَ ٱلۡأَنۢبَآءِ مَا فِيهِ مُزۡدَجَرٌ ۝٤ حِكۡمَةُۢ بَٰلِغَةٞۖ فَمَا تُغۡنِ ٱلنُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنۡهُمۡۘ يَوۡمَ يَدۡعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَيۡءٖ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبۡصَٰرُهُمۡ يَخۡرُجُونَ مِنَ ٱلۡأَجۡدَاثِ كَأَنَّهُمۡ جَرَادٞ مُّنتَشِرٞ ۝٧ مُّهۡطِعِينَ إِلَى ٱلدَّاعِۖ يَقُولُ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا يَوۡمٌ عَسِرٞ ۝٨﴾.

قوله ﴿ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ﴾ أي: قربت الساعة، قربا شديداً، و(اقتربت) أبلغ من (قربت) لأن زيادة المبنى ـ تدل غالبًا ـ على زيادة المعنى، والساعة هي القيامة قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ﴾» [الحج:١].

وسميت القيامة بالساعة – والله أعلم – لقربها وتحقق وقوعها، وتوقيته وتحديده، كما سميت بالآزفة، والحاقة ونحو ذلك. والمعنى: اقتربت القيامة، وأزفت وازداد قربها، وانقضاء هذه الحياة الدنيا وقدوم الخلق على ربهم للحساب، كما قال عز وجل ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُۚ﴾ [النحل: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱقۡتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمۡ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ مُّعۡرِضُونَ ۝١﴾ [الأنبياء: ١]، وقال تعالى: ﴿أَزِفَتِ ٱلۡأٓزِفَةُ ۝٥٧﴾ [النجم: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾ [سبأ: ٣٠].

وهكذا تواترت نصوص الكتاب والسنة على اقتراب القيامة، وتحديد وقت

(١) أخرجه مسلم في صلاة العيدين – ما يقرأ به في صلاة العيدين ٨٩١، وأبو داود في الصلاة ـ ما يقرأ في الأضحى والفطر ١١٥٤، والنسائي في العيدين – القراءة في العيدين بقاف واقتربت ١٥٦٧، والترمذي في الجمعة ٥٣٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة والسنة فيها – ما جاء في القراءة في صلاة العيدين ١٢٨٢، وأحمد ٥/ ٢١٧-٢١٨.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٤٥.

وقوعها وقصر عمر الدنيا بالنسبة للآخرة، وتحقق وقوع القيامة، وأنهـا آتيـة لا محالـة، وكل آت قريب.

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾[محمد: ١٨].

وعن أنس رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ - خطب أصحابه ذات يوم، وقد كادت الشمس أن تغرب فلم يبق منها إلا شف[1] يسير، فقال ﷺ: **«والذي نفسي بيده، ما بقي من الدنيا فيما مضى منها إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه، وما نرى من الشمس إلا يسيرًا»**[2].

وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: كنا جلوسًا عند النبي ﷺ والشمس على قعيقعان[3] بعد العصر، فقال: «أيها الناس إنه لم يبق من دنياكم فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه»[4].

وعن سهل بن سعد رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«بعثت أنا والساعة كهذه من هذه، أو كهتين، وقرن بين السبابة والوسطى»**[5].

وعن وهب السُّوَائي قال: **«قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهذه من هذه إن كادت لتسبقها» وجمع الأعمش – يعنى أحد رواة الحديث ـ بين السبابة والوسطى»**[6].

وعن أنس رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أنتم والساعة كهتين»**[7].

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«لي خمسة أسماء: أنا محمد وأحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»**[8].

---

(١) الشف: بقية الشيء، أي: لم يبق من الشمس إلا جزء يسير لم يغب، أي: لم يبق من النهار إلا جزء يسير. انظر «النهاية»، «لسان العرب» مادة «شف».

(٢) أخرجه أبو بكر البزار – فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٤٥.

(٣) قعيقعان: جبل بمكة.

(٤) أخرجه أحمد ٢/ ١٥٥-١١٦.

(٥) أخرجه البخاري في الرقاق – قول النبي ﷺ «بعثت أنا والساعة كهتين» ٥٣٠١، ومسلم في الفتن وأشراط الساعة ـ قرب الساعة ٢٩٥٠، وأحمد ٥/ ٣٨٨.

(٦) أخرجه أحمد ٤/ ٣٠٩.

(٧) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢٣.

(٨) أخرجه البخاري في المناقب – ما جاء في أسمائه ﷺ ٣٥٣٢، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٤، والترمذي في الأدب ٢٨٤٠.

وعن عتبة بن غزوان رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:«أما بعد فإن الدنيا قد آذنت بصَرْم، وولت حذاء، ولم يبق منها إلا صبابة كصُبابة الإناء يتصابُّها[1] صاحبها، وإنكم منتقلون منها إلى دار لا زوال لها، فانتقلوا بخير ما بحضرتكم، فإنه قد ذكر لنا أن الحجر يُلقى من شفير جهنم فيهوي فيها سبعين عامًا لا يدرك لها قعرًا، والله لتُملأنَّ، أفعجبتم، ولقد ذكر لنا أن ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيظ من الزحام. ولقد رأيتني سابع سبعة مع رسول الله ﷺ، ما لنا طعام إلا ورق الشجر، حتى قَرحت أشداقنا، فالتقطت بردة فشققتها بيني وبين سعد بن مالك، فاتزرت بنصفها، واتزر سعد بنصفها، فما أصبح اليوم منا أحد إلا أصبح أميرًا على مصر من الأمصار، وإني أعوذ بالله أن أكون في نفسي عظيمًا وعند الله صغيراً، وإنها لم تكن نبوة قط إلا تناسخت حتى يكون آخر عاقبتها ملكًا، فَسَتَخْبَرون وتجربون الأمراء بعدنا»[2].

﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾.

سبب النزول:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه: «أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقين، حتى رأوا حراء بينهما»[3].

ومعنى قوله ﴿وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ﴾ أي: انفلق قطعتين، حتى رأوا جبل حراء بينهما واحدة دون الجبل، والأخرى من خلفه، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقعان، أي: فلقة على الصفا وفلقة على المروة، وذلك آية من آيات الله عز وجل، وعلامة على قرب القيامة، ومعجزة للنبي ﷺ، كما جاء في سبب النزول، وكما دلت عليه الأحاديث المتضافرة.

---

(١) بصَرْم أي: بانقطاع. حذاء: مسرعة. صبابة: بقية قليلة. يتصابها: يشربها.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد ٢٩٦٧، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٥٦، وأحمد ٤/ ١٧٤، وانظر ٥/ ٦١.

(٣) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار – انشقاق القمر ٣٦٣٧، ومسلم في صفات المنافقين – انشقاق القمر ٢٨٠٢، والترمذي في التفسير ٣٢٨٦، وأحمد ٣/ ١٦٥.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «انشق القمر في زمان رسول الله ﷺ»[١].

و في رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: «قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ قال: قد مضى ذلك، كان قبل الهجرة، انشق القمر حتى رأوا شقيه»[٢].

و عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قال: «وقد كان ذلك على عهد رسول الله ﷺ انشق فلقتين: فلقة من دون الجبل، وفلقة من خلف الجبل، فقال النبي ﷺ «اللهم اشهد»[٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: **انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقين** حتى نظروا إليه فقال رسول الله ﷺ: «اشهدوا» وفي رواية: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فلقتين، فستر الجبل فلقة، وكانت فلقة فوق الجبل، فقال رسول الله ﷺ «**اللهم اشهد**».

وفي رواية قال ابن مسعود: «حتى رأيت الجبل من بين فرجتي القمر»[٤].

وفي رواية عنه: «فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة[٥]. انظروا ما يأتيكم به السُّفَّار[٦] فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، قال: فجاء السُّفَّار، فقالوا ذلك»[٧].

وفي رواية عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «انشق القمر بمكة حتى صار فرقتين، فقال: كفار قريش أهل مكة: هذا سحر سحركم به ابن أبي كبشة انظروا السفار، فإن كانوا رأوا ما رأيتم فقد صدق، وإن كانوا لم يروا مثل ما رأيتم فهو سحر سحركم به. قال: فسئل السُّفَّار، قال: وقدموا من كل جهة، فقالوا رأيناه»[٨].

---

(١) أخرجه البخاري في الموضع السابق.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٩-١١٠.

(٣) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٦، ومسلم في صفة القيامة والجنة والنار – انشقاق القمر ٢٨٠١، والترمذي في تفسير سورة القمر ٣٢٨٥.

(٤) أخرجه البخاري في مناقب الأنصار – انشقاق القمر ٣٦٣٦، ومسلم في صفة القيامة ٢٨٠٠، ٢٨٠١، والترمذي في التفسير ٣٢٨٥، وأحمد ١/ ٣٧٧، ٤١٣.

(٥) يعنون بذلك الرسول ﷺ، وقد كان المشركون ينسبون النبي ﷺ لأبي كبشة، وهو رجل من خزاعة خالف قريشاً في عبادة الأوثان وعبد الشعرى، فلما خالفهم النبي ﷺ في عبادة الأوثان وعبد الله وحده شبهوه بأبي كبشة، وقيل إن أبا كبشة جد النبي ﷺ لأمه فأرادوا أنه نزع في الشبه إليه.

(٦) أي: المسافرون.

(٧) أخرجه الترمذي في التفسير ٣٢٨٩.

(٨) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٥- ١٠٧.

وعن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: «انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين، فرقة على هذا الجبل، وفرقة على هذا الجبل، فقالوا: سحرنا محمد. فقالوا: إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم»(١).

وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: نزلنا المدائن، فكنا منها على فرسخ، فجاءت الجمعة، فحضر أبي وحضرت معه، فخطبنا حذيفة فقال: «ألا إن الله يقول: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ ألا وإن الساعة قد اقتربت، ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا إن اليوم مضمار وغدًا السباق، ألا إن الغاية النار، والسابق من سبق إلى الجنة»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس مضين: الدخان والقمر والروم والبطشة(٣) واللزام(٤) ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝٧٧﴾»(٥).

قال ابن كثير رحمه الله(٦): «**وقوله** ﴿وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ﴾ قد كان هذا في زمان رسول الله ﷺ، كما ثبت ذلك في الأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة. وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ، وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات».

﴿وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً﴾ أي: وإن ير المشركون آية، أي: علامة ودلالة وحجة وبرهانًا على صدق الرسول ﷺ وصدق ما جاء به من عند الله عز وجل. و «آية» نكرة في سياق الشرط، أي: أيَّ آية.

وآيات الله تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي القرآن الكريم، وآيات كونية وهي ما بثه الله عز وجل وخلقه في هذا الكون من المخلوقات، ومن ذلك انشقاق القمر، ومن ذلك تسبيح الحصى في يده ﷺ، وحنين الجذع إليه ﷺ، وغير ذلك.

والمراد بالآية هنا ما يشمل الآيات الشرعية والكونية؛ لأنهم قالوا عن القرآن إنه سحر، وقالوا عن انشقاق القمر إنه سحر أيضًا.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ٨١-٨٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٩.
(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٠٨.
(٣) وهي أخذهم وقتل صناديدهم يوم بدر قال تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ﴾ [الدخان: ١٦].
(٤) فسر اللزام بيوم بدر. انظر «النهاية» مادة «لزم».
(٥) أخرجه البخاري في الجمعة ٩٥٢، وفي التفسير ٤٣٩٥، ومسلم في صفة القيامة ٥٠٠٦، ٥٠٠٨، والترمذي في التفسير ٣١٧٧
(٦) في «تفسيره» ٧/ ٤٤٧.

﴿يُعْرِضُواْ﴾ أي: يعرضوا عن التأمل فيها، وعن الطاعة والانقياد، أي: يتولوا بقلوبهم وأبدانهم.

﴿وَيَقُولُواْ﴾ بألسنتهم ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: هذا الذي جاءنا به ﴿سِحْرٌ﴾ سحرنا به، وهو مجرد تخييل لا حقيقة له ﴿مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: ذاهب زائل، باطل مضمحل، لا دوام له، وقيل: شديد محكم.

وقيل إنهم لما رأوا القمر فلقتين، أخذوا يسألون كل من قدم عليهم، فكانوا يخبرونهم بأنهم رأوا ذلك ـ كما جاء في الآثار السابقة، فقالوا ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ أي: إن محمداً سحرنا كما سحر غيرنا.

وقد يحمل قولهم ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ﴾ على أن ما جاءهم به الرسول ﷺ منذ أنزل عليه الوحي وكل ما جاء به بعد ذلك من الآيات والحجج والبراهين الشرعية والكونية كل ذلك استمرار لما جاء به من السحر أي: إن كل ما جاء به من هذا الباب، أي: من باب السحر، كما قال الوليد بن المغيرة فيما ذكر الله عز وجل عنه عن القرآن: ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: ٢٤]، وهكذا قال فرعون لموسى ـ عليه السلام: ﴿أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٥٧].

وهكذا دأب المكذبين للرسل، قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢]، فهم لا يقفون عند التكذيب فقط ويكتفون به، بل إنهم يعملون جاهدين لرد الحق وإبطاله بتلفيق التهم والأكاذيب بالحق وبمن جاء به.

وهكذا كل من رد الحق حتى ولو كان دون الكفر، فإن الغالب في الخلق الظلم والغشم وعدم الإنصاف إلا من رحم الله، ولهذا فإن كثيرًا من الناس حتى في الخصومات ومسائل الخلاف لا يرضى أن يكون الحق مع غيره، وربما جادل بالباطل لا لشيء إلا لتكون الغلبة له، وربما نال من خصمه ومخالفه لأجل ذلك.

﴿وَكَذَّبُواْ﴾ أي: كذبوا بالحق الذي جاءهم من عند الله عز وجل على لسان رسوله ﷺ.

﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ أي: واتبعوا ما تهواه نفوسهم من الأقوال والأفعال والآراء المردية الصادة عن الحق، كما قال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص:٥٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال

تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣].

﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ﴾ أي: وكل أمر من الأمور كائن وواقع بأهله من خير أو شر، فكل يجني ثمرة ما زرع ويجازى بما عمل، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، في الدنيا والآخرة، وسينتهي الخير بأهله إلى السعادة في الدنيا والآخرة ودخول الجنة، وسينتهي الشر بأهله إلى الشقاء في الدنيا والآخرة ودخول النار.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-١٠].

وقال ﷺ: «كل الناس يغدو فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها»[(١)].

وسيبلغ كل أمر غايته ومنتهاه، وسيصير كل ذلك إلى الله والدار الآخرة كما قال عز وجل: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣].

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّنَ ٱلْأَنۢبَآءِ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم و«قد» للتحقيق، والأنباء: جمع نبأ، والنبأ: هو الخبر العظيم، قال تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النبأ: ١-٢] أي: والله لقد جاءهم في كتاب الله عز وجل، وعلى لسان رسوله ﷺ من الأخبار العظيمة السابقة واللاحقة.

﴿مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ﴾ «ما» موصولة، أي: الذي فيه أعظم زاجر وواعظ ورادع لهم عن الشرك والتكذيب، وعن التمادي في الاستكبار والعناد، ورد الحق، وذلك مما قصه الله عليهم من أخبار المكذبين للرسل، وما حل بهم من المثلات والعقوبات والنكال والعذاب العاجل في الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ﴾ [الأنعام: ١١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩].

فماذا كانت عاقبة المكذبين كعاد قوم هود، وثمود قوم صالح، وقوم لوط، وقارون وهامان وفرعون وقومه، كانت عاقبتهم الهلاك والخسار والبوار ومصيرهم إلى

---

(١) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٢٣، والترمذي في الدعوات ٣٥١٧، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٢٨٠ ـ من حديث أبي مالك الأشعري ـ رضي الله عنه.

النار وبئس القرار، قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِۦ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

كما جاءهم من الأخبار في كتب الله عز وجل وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام بيان ما ينتظرهم من العذاب الآجل الذي أعده الله لهم في نار جهنم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦-١٩٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾ مَتَٰعٌ فِى ٱلدُّنْيَا ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ نُذِيقُهُمُ ٱلْعَذَابَ ٱلشَّدِيدَ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٦٩-٧٠]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَمَتَّعُوا۟ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦].

﴿حِكْمَةٌۢ بَٰلِغَةٌ ۖ﴾ أي: أن لله عز وجل الحكمة البالغة التامة الواضحة في هدايته من كان أهلاً للهداية، وإضلاله من كان أهلاً للضلال. أو أن الآيات التي جاءتهم حكمة (بالغة) أي: تامة واصلة إلى الغرض المقصود منها لمن وفقه الله قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾[النساء: ١١٣].

﴿فَمَا تُغْنِ ٱلنُّذُرُ﴾. [ما] نافية، أي: فما تنفع فيهم النذر وقد كتب الله عليهم الضلال، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦-٩٧].

وقد تكون «ما» استفهامية للإنكار، فيكون المعنى: أي شيء تغني النذر من كتب الله عليهم الضلال والشقاء.

ومعنى «تغني»: تنفع وتدفع: و«النذر» جمع نذير، وهو المخوِّف المحذِّر من عذاب الله ـ عز وجل، أي؛ النذر المخوفة من عذاب الله ـ عز وجل، من الرسل عليهم السلام، وما جاؤوا به من أخبار المكذبين وما حل بهم من العقوبات في الدنيا، وما ينتظرهم من الوعيد والعذاب في الآخرة، قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [النساء:١٦٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ﴾ [البقرة:١١٩].

وسواء كانت «ما» نافية أو استفهامية فالمراد أن هؤلاء الكفار لا تنفع فيهم النذر وصدق الله العظيم: ﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ

فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ۝٦ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة: ٦-٧].

قال ابن كثير[1]: «يعني أي شيء تغني النذر من كتب الله عليه الشقاوة، وختم على قلبه؟ فمن الذى يهديه من بعد الله؟ وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ۝١٤٩﴾ [الأنعام: ١٤٩]، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِى ٱلْءَايَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]».

فتأمل أخي الكريم وفقك الله هذا المعنى، فـلله عز وجل الحكمة البالغة التامة في هدايته من هدى وإضلاله من ضل، ولا يغب هذا المعنى عن ذهنك فتقلق وتذهب نفسك حسرات، وتصاب بخيبة أمل وتنحط معنويتك بسبب ضلال من ضل ممن تدعوهم وتود هدايتهم. فقد قال الله ـ عز وجل ـ للهادي البشير والسراج المنير أعظم وأفضل داع إلى الله عز وجل: ﴿لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٣].

وقال تعالى: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ۝٨﴾ [فاطر: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٥]، كما قال تعالى له ولغيره ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦].

وأمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين[2].

وقال ﷺ: «**الناس كإبل مائة لا يوجد فيها راحلة**»[3].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥١.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ – من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤٩٨، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٤٧، والترمذي في الأمثال ٢٨٧٢، وابن ماجه في الفتن ٣٩٩٠، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

وقد قيل:

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى[١]

فلله الحكمة البالغة في ذلك كله، ولهذا لم يستطع محمد ﷺ أفضل الرسل وسيد ولد آدم هداية عمه أبي طالب مع الأيادي البيضاء التي قدمها للرسول ﷺ، وحرصه ﷺ على هدايته، ولم يستطع نوح عليه السلام هداية ابنه وفلذة كبده، ولا هداية زوجته، ولم يستطع إبراهيم عليه السلام هداية أبيه، ولم يستطع لوط عليه السلام هداية زوجته.

فلا تعجب بعد هذا أن يكون أكثر الخلق أبغض الناس إليه من ينصحه ويدعوه إلى الله عز وجل كما قال نبي الله صالح عليه السلام لقومه ـ فيما حكى الله عنه: ﴿وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[الأعراف: ٧٩].

وانظر كثرة أعداء الرسل عليهم السلام وقلة أتباعهم فما ذاك إلا لأنهم قدموا لأممهم وأقوامهم محض النصح، وهكذا كثرة أعداء الدعاة إلى الله من أتباع الرسل،مما يجعل كثيرًا من ضعاف الإيمان يتخلى عن دعوة و مناصحة من يحتاجون إلى ذلك حتى من أقاربه وجيرانه وإخوانه وزملائه ومن يجالسهم أو يلتقي بهم في العمل، أو في السوق ونحو ذلك خوفًا من عداوتهم له. وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت:١٠].

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ الفاء: للسببية، والخطاب للنبي ﷺ، والتقدير: فإن استمروا في الإعراض، ودعوى أن ما جاءهم من الآيات سحر مستمر، وفي التكذيب واتباع أهوائهم فتول عنهم، أي: أعرض عنهم وانتظر عقاب الله عز جل لهم ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾. و «يوم» متعلق بيخرجون.

ويحتمل أن يكون المعنى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ﴾ أي: أعرض عنهم، مخوفًا لهم بعقاب الله لهم ﴿ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾ الآية.

ومعنى قوله ﴿يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ﴾ أي: يوم ينفخ إسرافيل عليه السلام في الصور النفخة الثانية الرادفة ﴿إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ﴾ أي: إلى شيء منكر فظيع عظيم يشيب من هوله الوليد، وهو القيامة وأهوالها العظام الجسام.

---

(١) البيت لابن دريد انظر «ديوانه» ص١٣٢.

قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ ﴿٦﴾ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ﴾ [النازعات: ٦-٧]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: ١-٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الْإِنسَانُ مَا سَعَى ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَن يَرَى ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٤-٣٦].

وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ ﴿٣٣﴾ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ﴿٣٥﴾ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ﴿٣٦﴾ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: ٣٣-٣٧]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ [الزلزلة: ١]، وقال تعالى: ﴿الْقَارِعَةُ ﴿١﴾ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴿٣﴾ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ﴿٤﴾ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ [القارعة: ١-٥].

﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ أي: خاشعة ذليلة خائفة أبصارهم من شدة الهول والفزع.

﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ﴾ أي: من القبور.

﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي: كأنهم بعد خروجهم، في ذهولهم وتفرقهم ﴿جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ أي متفرق متكاثر في الأرض هنا وهناك لا يدري أين وجهه يذهب يميناً وشمالاً كما قال عز وجل ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ [القارعة: ٤].

﴿مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ﴾ أي: مسرعين إلى إجابة الداعي مادي أعناقهم خاضعي رؤوسهم من شدة الهول والفزع بلا تأخر ولا تخلف، استجابة لأمر الله عز وجل الكوني كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ [الكهف: ٩٩]، وقال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الْأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ [يس: ٥١]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾ [النمل: ٨٧]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨].

﴿يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾ أي: يقول الكافرون، الذين جحدوا ربوبية الله عز وجل وألوهيته وأسماءه وصفاته وشريعته، وجحدوا نعمه: (هذا يوم عسر) أي: هذا

يوم ذو عسر، أي: شديد عسره، والعسر: هو المشقة والتعب، وضده اليسر والمعنى: أنه صعب شديد، لا يُسر فيه بوجه من الوجوه، قال تعالى: ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ عَسِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝ فَذَٰلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ۝ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ﴾ [المدثر: ٨-١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

وبالمقابل فهذا اليوم يسير على من يسره الله عليهم، وهم المؤمنون، وذلك بقدر إيمانهم ويقينهم، فهم آمنون وغيرهم خائفون قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢].

الفوائد والعبر:

١ ـ قرب القيامة وأهوالها وظهور بعض علاماتها.

٢ ـ إثبات انشقاق القمر، وذلك آية من آيات الله ـ عز وجل ـ الدالة على صدق نبينا محمد ﷺ، وعلامة على قرب القيامة.

٣ ـ إعراض المشركين عن آيات الله ـ عز وجل ـ الكونية والشرعية واعتبارها من السحر، وتكذيبهم الحق واتباع أهوائهم.

٤ ـ الوعيد والتهديد للمشركين.

٥ ـ أن لكل أمر نهاية وغاية وعاقبة.

٦ ـ إقامة الحجة على المشركين بما جاءهم من أخبار المكذبين قبلهم من العقوبات العاجلة، وما ينتظرهم من العذاب الآجل، وفي ذلك أعظم زاجر.

٧ ـ حكمة الله ـ عز وجل ـ التامة في هدايته من كان أهلا للهداية وإضلاله من كان أهلاً للضلالة والغواية.

٨ ـ من يضلل الله فلا هادي له.

٩ ـ تسلية النبي ﷺ والوعيد للمكذبين بما ينتظرهم من العذاب يوم القيامة.

١٠ ـ إثبات النفخ في الصور والبعث، وشدة أهوال يوم القيامة

١١ ـ عظم ذل المشركين والمكذبين يوم القيامة وشدة حيرتهم وذهولهم، وسرعتهم إلى إجابة الداعي، وشدة عسر ذلك اليوم عليهم.

﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَى ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِمَنْ كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَدْ تَرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أمر الله عز وجل رسوله ﷺ في الآيات السابقة بالإعراض عن المشركين المكذبين وذكر ما أعد لهم من العذاب الشديد يوم القيامة، تسلية له ﷺ، ووعيداً وتهديداً للمكذبين من قومه، ثم ذكر الله عز وجل في هذه الآيات وما بعدها تكذيب عدد من الأقوام لأنبيائهم، وما حل بهم من العقوبات العاجلة في الدنيا، وتأييد الله عز وجل لأنبيائه، وإنجاءه لهم ونصرهم على المكذبين من أقوامهم، قوم نوح عليه السلام ومن بعدهم، والغرض من ذلك - أيضاً - تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه ﷺ تجاه تكذيب قومه ووعده بأن العاقبة له، فالعاقبة للمتقين، وتخويف وتحذير المكذبين من قومه.

ويتكرر في القرآن الكريم في عدد من السور ذكر قصص الرسل وأقوامهم، وذكر إنجاء الله عز وجل للمؤمنين منهم، وإهلاكه للمكذبين؛ لأن القرآن العظيم مثاني، تثنّى فيه القصص والمواعظ، والأوامر والنواهي، والأحكام، لأجل ترسيخ منهج الحق وغرسه في النفوس فليس القرآن مجرد كتاب أخبار وقصص روائية بل هو كتاب منهج حياة وسلوك أمة.

قوله: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ﴾ أي: كذبت قبل قومك يا محمد قوم نوح أول رسل الله عز وجل إلى أهل الأرض[1]، فليس بجديد تكذيب قومك لك، وليس ببدع فهذا دأب المكذبين وديدنهم مع رسلهم من لدن نوح ـ عليه السلام ـ ومع جميع الأنبياء.

﴿فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا﴾ الفاء: عاطفة، أي: فكذبوا عبدنا نوحاً ـ عليه السلام. والعبودية هي التذلل والخضوع لله بالطاعة، والمراد بها هنا عبودية خاصة الخاصة وهي عبودية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، تليها عبودية الخاصة، وهي عبودية سائر المؤمنين كما

---

(١) ما قيل إن أول الرسل إدريس عليه السلام ليس بصحيح، وقد ردَّ ذلك ابن تيمية رحمه الله وبيّن أن إدريس الذي ذكر في نسب نوح عليه السلام ليس بنبي.

في قوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾[الفرقان: ٦٣] ثم العبودية العامة، وهي عبودية جميع الخلق بمعنى انقيادهم لأمر الله الكوني، كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾﴾[مريم: ٩٣].

وأطلق على نوح ـ عليه السلام ـ وصف العبودية وهو من أفضل رسل الله وأحد أولي العزم من الرسل لأن العبودية لله أفضل وصف يتصف به البشر، وقد وصف الله بها أفضل الرسل وسيد الخلق نبينا محمداً ﷺ في أعلى المقامات وأفضلها وأقربها من الله عز وجل، وهو مقام العبادة، قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا﴾ [الجن:١٩]، وفي مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ [الإسراء: ١]، ولم يقل: وأنه لما قام رسول الله أو نبيه، أو سبحان الذي أسرى برسوله أو بنبيه.

﴿وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ﴾ كما قالوا ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا۟ بِهِۦ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٢٥].

أي: اتهموه بأنه معتوه فاقد العقل، قلبًا للحقائق وزعمًا منهم أن ما هم عليه من الشرك والضلال هو الذي يدل عليه العقل، وأن ما جاء به نوح عليه السلام جهل وضلال لا يصدر إلا من المجانين. والعكس هو الصحيح.

﴿وَٱزْدُجِرَ﴾ أي: وزجر بمعنى: نُهر وتُوعِّد، و«ازدجر» أبلغ من زجر، لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى ـ غالبًا ـ أي: زجر زجرًا شديداً بليغًا.

والمعنى: مع كونه مجنونًا – زجر وتُوعِّد، فاستطار جنونًا. والمجنون إذا زُجر ونُهر أو ضُرب أو اعتدى عليه استطار جنونه وزاد شره، كما يقال «**مجنون وضرب بعصا**» فالمجنون أحسن حاله أن يترك، وأن يهادى، ولا يستثار. ويدل على هذا القول قول مجاهد: «ازدجر» أي: «استطير جنونًا»[(١)].

ويحتمل أن المراد بالآية أن قومه زجروه ونهروه عن تبليغ رسالة ربه، وتوعدوه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ﴾ [الشعراء: ١١٦].

وهكذا دأب المكذبين للرسل يرمونهم بالجنون، كما ذكر الله عز وجل عن فرعون أنه قال لموسى عليه السلام: ﴿قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِيٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ [الشعراء: ٢٧].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٢١.

وهكذا قال المشركون لمحمد ﷺ سيد الرسل وأفضلهم قال تعالى: ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْاْ عَنْهُ وَقَالُواْ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ﴾ [الدخان: ١٤].

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ مَآ أَتَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُواْ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾ [الذاريات: ٥٢].

كما يهددون ويتوعدون رسلهم بالإخراج والرجم ونحو ذلك كما قال أصحاب القرية لرسلهم: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يس: ١٨]، وقال آزر لإبراهيم ـ عليه السلام: ﴿أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ [مريم: ٤٦] وقال قوم لوط للوط عليه السلام: ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُخْرَجِينَ﴾ [الشعراء: ١٦٧].

﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ﴾ أي: فتوجه نوح عليه السلام إلى ربه عز وجل بالدعاء قائلاً ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ﴾ المغلوب: المقهور الضعيف العاجز عن المقاومة. أي: رب إني ضعيف عاجز عن مقاومة قومي، لأنه لم يؤمن من قومه إلا القليل كما قال تعالى ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

﴿فَٱنتَصِرْ﴾ أي: فانتصر أنت يا رب لدينك منهم وقال في الآية الأخرى ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦].

فلجأ عليه السلام إلى من يجيب المضطر إذا دعاه، وإلى من هو نعم المولى ونعم النصير، فاستجاب عز وجل دعاءه.

﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ﴾ قرأ ابن عامر وبعضهم بتشديد التاء «ففتَّحنا» وقرأ الأكثرون بتخفيفها، أي: ففتحنا أبواب السماء بالمطر. ومعنى ﴿مُّنْهَمِرٍ﴾ أي: منصب ومتتابع بكثرة وغزارة.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «كثير لم تمطر السماء قبل ذلك اليوم ولا بعده ولا من السحاب»[1].

﴿وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا﴾ أي: شققنا الأرض كلها عيونًا ينبع منها الماء، حتى التنور الذي توقد فيه النار، كما قال عز وجل: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود:٤٠] أي: حتى إذا جاء أمرنا الكوني بإغراقهم، وفار التنور، أي: نبع بالماء.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٠- الأثر ١٨٧٠٥.

﴿فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ﴾ أي: فالتقى الماء النازل من السماء، والنابع من الأرض على أمر كوني وقدري، قدره الله عز وجل وقضاه أزلاً، وجعل له حدًا ينتهي إليه حتى غطى الماء رؤوس الجبال من غير زيادة ولا نقصان.

﴿وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ﴾ ذات بمعنى: صاحبة، والألواح: هي الأخشاب، والدسر: المسامير وما تربط به الأخشاب، أي: وحملنا نوحًا عليه السلام ومن أراد الله ـ عز وجل ـ إنجاءهم معه على سفينة من الخشب والمسامير قال تعالى: ﴿قُلْنَا ٱحْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ وَمَنْ ءَامَنَ ۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: ٤٠].

وقال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ﴾ [المؤمنون:٢٧].

﴿تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا﴾ أي: تجرى هذه السفينة وسط لجج البحار بأمرنا وبمرأى منا وتحت عنايتنا وحفظنا وكلاءتنا وحراستنا. كما قال عز وجل ﴿وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ﴾ [هود:٤٢].

﴿جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ﴾ أي: مجازاة وعقوبة لقوم نوح على كفرهم بالله وتكذيبهم، وانتصاراً لنوح عليه السلام الذي كفر به قومه، وإجابة لدعائه وقوله ﴿أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ﴾.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا عَمِينَ﴾ [الأعراف: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَٰهُمْ خَلَٰٓئِفَ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ﴾ [يونس: ٧٣]، وقال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ فِى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ (١١٩) ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ ٱلْبَاقِينَ﴾ [الشعراء: ١١٩، ١٢٠].

وهكذا سنن الله عز وجل الكونية التي لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول أن العاقبة للتقوى وللمتقين، وأن العدوان والخسران والعقاب على الكافرين.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَٰهَآ ءَايَةً﴾ الواو: استئنافية واللام للقسم، و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد تركناها آية. و«تركناها» أي: أبقيناها، وضمير الهاء يعود إلى العقوبة التي عاقب الله بها قوم نوح وهي إغراقهم بالطوفان، وإنجاء الله ـ عز وجل نوحاً ومن معه في السفينة، ففي ذلك آية عظيمة، أي: علامة دالة على كمال قدرة الله ـ عز وجل وفيها عظة وعبرة قال تعالى: ﴿وَقَوْمَ نُوحٍ لَّمَّا كَذَّبُوا۟ ٱلرُّسُلَ أَغْرَقْنَٰهُمْ وَجَعَلْنَٰهُمْ لِلنَّاسِ ءَايَةً ۖ﴾

[الفرقان:٣٧]، أي: دلالة على قدرة الله عز وجل التامة وعظمته ووحدانيته وكماله في ذاته وأسمائه وصفاته واستحقاقه للعبادة دون من سواه.

كما أن في ذلك أعظم عبرة وعظة لمن يتعظ ويعتبر، فيحذر من تكذيب الرسل والكفر بالله لئلا يحل به ما حل بالمكذبين والكافرين من قوم نوح وغيرهم.

ويحتمل أن المراد بقوله ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً﴾ جنس السفن، وأن كونها تجرى على ظهر الماء وتمخر عباب البحر من أعظم الآيات الدالة على عظمة الله تعالى.

قال تعالى: ﴿فَأَنجَيۡنَٰهُ وَأَصۡحَٰبَ ٱلسَّفِينَةِ وَجَعَلۡنَٰهَآ ءَايَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [العنكبوت: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمۡ أَنَّا حَمَلۡنَا ذُرِّيَّتَهُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ ٱلۡمَشۡحُونِ ۝ وَخَلَقۡنَا لَهُم مِّن مِّثۡلِهِۦ مَا يَرۡكَبُونَ﴾ [يس: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلۡمَآءُ حَمَلۡنَٰكُمۡ فِي ٱلۡجَارِيَةِ ۝ لِنَجۡعَلَهَا لَكُمۡ تَذۡكِرَةً وَتَعِيَهَآ أُذُنٞ وَٰعِيَةٞ﴾ [الحاقة: ١١- ١٢].

ولا مانع من حمل الآية على الأمرين، ففي إهلاك قوم نوح وإنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة آية، وفي جريان السفن على ظهر الماء آية.

وعلى ذلك كله دل القرآن الكريم. فسبحان الخالق البصير العليم الخبير.

وقد قيل: إن المراد بقوله ﴿وَلَقَد تَّرَكۡنَٰهَآ ءَايَةً﴾ أن الله عز وجل أبقى سفينة نوح حتى أدركها أول هذه الأمة.

وهذا بعيد من وجوه: منها عدم الدليل الواضح عليه، ومنها طول المدة، إضافة إلى أن عموم الآية ومعناها يأباه فإن الله تركها آية لمن جاء بعد نوح وقومه إلى قيام الساعة هذا ما يدل عليه ظاهر الآية وعمومها فكيف يخص ذلك بأول هذه الأمة؟.

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾.

عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: «قرأت على النبي ﷺ «فهل من مُذَّكر» فقال النبي ﷺ: «فهل من مُدّكر»»(١).

الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والتقدير: إذا كانت قصة إنجاء نوح عليه السلام ومن معه في السفينة وإغراق المكذبين له آية فهل من مدكر.

و«هل» للاستفهام، وفيه معنى التشويق والحث والأمر، و«مدكر» بمعنى: متعظ

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة (اقتربت الساعة) ٤٨٧٤، ومسلم في صلاة المسافرين ٨٢٣، وأبو داود في الحروف والقراءات ٣٩٩٤، والترمذي في القراءات ٢٩٣٧، وأحمد ١/ ٣٩٥.

معتبر متذكر. والمعنى: فهل من متذكر ومعتبر ومتعظ بهذه الآية العظيمة في إهلاك الكفرة والمكذبين من قوم نوح بالغرق، وإنقاذ نوح عليه السلام ومن معه في السفينة.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الفاء: استئنافية و«كيف» أداة استفهام للتعظيم والتفخيم والتعجب، والتقرير (ونذر) أي: وإنذاري الذي لا يبقى لأحد عليّ بعده حجة.

أي ما أعظم عذابي وعقوبتي لقوم نوح الذين كفروا وكذبوا نوحًا عليه السلام ولغيرهم من المكذبين في الدنيا والآخرة، مما فيه أعظم رادع وزاجر عن فعلهم، وما أعظم إنذاري للمكذبين وتحذيري لهم على ألسنة الرسل بما لا يبقى بعده لأحد حجة، كما قال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد يسرنا القرآن للذكر، أي: سهلنا حفظ ألفاظه وفهم معانيه وتطبيق أحكامه، أي: جعلنا ذلك كله سهلاً هينًا ميسرًا لمن أراد أن يتذكر ويتدبر كما قال عز وجل ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء:٤١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾﴾ [ص: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الدخان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وكان ﷺ يتعجل جبريل بالقرآن مخافة أن يفوته منه شيء فقال الله عز وجل: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩].

وفي حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا منه ما تيسر**»[1].

فمن فضل الله على هذه الأمة أن اختار لها أفضل الرسل محمداً ﷺ وأنزل عليها أفضل الكتب القرآن الكريم، وجعل لفظه ومعناه وأحكامه سهلة ميسرة، ووضع عن

---

(١) أخرجه البخاري في الخصومات ٢٤١٩، ومسلم في صلاة المسافرين - بيان أن القرآن أنزل على سبعة أحرف ٨١٨، وأبو داود في الصلاة - الوتر - أنزل القرآن على سبعة أحرف ١٤٧٥، والنسائي في الافتتاح - جامع ما جاء في القرآن ٩٣٦، والترمذي في القراءات ٢٩٤٣. وأخرجه أحمد أيضا من حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه ٥/ ١١٤، وسليمان بن صرد - رضي الله عنه ٥/ ١٢٤ وأبي ابن كعب - رضي الله عنه ٥/ ١٢٧-١٢٨، ١٣٢.

هذه الأمة الآصار والأغلال التي كانت على من كان قبلهم فلله الحمد والمنة، ولهذا قال بعد ذلك:

﴿فَهَلۡ مِن مُّدَّكِرٖ﴾ والكلام فيه كما سبق، والمعنى: فهل بعد هذا التيسير والتسهيل للقرآن الكريم من متذكر ومتدبر لألفاظه ومعانيه وأحكامه، وما فيه من العلم النافع والحث على العمل الصالح، وعلى امتثال ما فيه من الأوامر، وهل من متعظ ومنزجر بما فيه من التحذير والنواهي. وهذا هو معنى وحقيقة تذكر القرآن وتدبره، أما حفظ ألفاظه فقط دون تدبر لمعانيه وأحكامه وتأدب بآدابه فإنه حجة على من حفظه، وربما كان طريقاً للغرور والرياء والسمعة، ولهذا قال ﷺ: «إن أكثر منافقي أمتي قراؤها»[1] ورُوي عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما أنه لما كثر القراء في زمانه من أحداث الأسنان لم يعجبه ذلك بل كرهه، وخاف عاقبة ذلك، وقد وقع ما خاف منه رضي الله عنه ـ حيث خرج جملة من هؤلاء القراء مع الخوارج الذين خرجوا على علي رضي الله عنه، وعلى صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.

وهذا مصداق قوله ﷺ: «يقرأ أناس من أمتي القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية»[2].

الفوائد والعبر:

١ ـ تسلية النبي ﷺ وتقوية قلبه، ووعيد وتهديد المكذبين من قومه بذكر تكذيب قوم نوح ومن بعدهم من الأمم لأنبيائهم وما حل بهم من العقوبات، والسعيد من وعظ بغيره.

٢ ـ أن العبودية لله ـ عز وجل ـ أشرف ما يوصف به البشر، ولهذا وصف الله بها نبيه «نوحاً» عليه السلام.

٣ ـ شدة ما لاقى نوح ـ عليه السلام ـ من قومه من التكذيب والرمي بالجنون

---

(١) أخرجه أحمد ٢/ ١٧٥ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنهما ـ ومن حديث عقبة بن عامر ـ رضي الله عنه ٤/ ١٥١، ١٥٥.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل القرآن ٥٠٥٨، ومسلم في الزكاة ١٠٦٤، وأبوداود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ـ من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

المستطير، والزجر.

٤ ـ أن من تحقيق العبودية لله ـ عز وجل وأسباب النصر على الأعداء ـ اللجوء إلى الله ـ عز وجل ـ بدعائه وطلب النصر منه، وإقرار الإنسان بضعفه وحاجته إلى الله ـ عز وجل، كما فعل نوح ـ عليه السلام.

٥ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنوح ـ عليه السلام.

٦ ـ استجابة الله ـ عز وجل ـ لدعاء نوح ـ عليه السلام ـ ونصره له وإغراق قومه وإنجاؤه ومن معه على السفينة.

٧ ـ عظم قدرة الله ـ عز وجل ـ، وعنايته التامة بأوليائه، وشدة انتقامه ممن كفر به.

٨ ـ في إغراق قوم نوح وإنجائه ومن معه على السفينة آية عظيمة دالة على قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظة وعبرة لمن يعتبر.

٩ ـ شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ وعقابه للمكذبين من قوم نوح ـ عليه السلام ـ.

١٠ ـ إقامة الحجة على الخلق وإنذارهم والإعذار منهم.

١١ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد بتيسير القرآن للذكر ترغيباً وحضاً على التذكر والاتعاظ.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

أخبر عز وجل عن تكذيب وكفر قوم نوح عليه السلام في الآيات السابقة وما جازاهم الله به من إغراقهم بالطوفان وإنجاء نوح عليه السلام ومن كان معه في السفينة، وما في ذلك من الدلالة العظيمة على قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة، والعظة والعبرة لمن يتذكر ويعتبر – ثم أتبع ذلك بالإخبار عما أوقعه عز وجل من العقوبات والنكال بالمكذبين بعد قوم نوح منهم عاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون تحذيراً وتخويفاً للمكذبين من هذه الأمة وتسلية للرسول ﷺ تجاه تكذيب قومه له.

﴿كَذَّبَتْ عَادٌ﴾ عاد: هم قوم نبي الله هود عليه السلام، وهم عاد إرم، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ﴿٧﴾ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ﴾ [الفجر: ٦-٨] وهم عاد الأولى، كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ [النجم: ٥٠].

ومساكنهم؛ بالأحقاف جنوب الجزيرة في اليمن كما قال تعالى: ﴿۞ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ﴾ [الأحقاف: ٢١]، والأحقاف: الجبال من الرمل.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أي: فكيف كان عذابي وعقوبتي لهم، أي: ما أشد ذلك وما أعظمه، وكيف كان إنذاري لهم، أي: ما أعظم إنذاري وتحذيري لهم على لسان نبيهم هود عليه السلام، مما لا تبقى معه لهم حجة.

وقد كرر هذا هنا وفيما بعد لتوكيد الوعيد والتهديد للمكذبين والكافرين، وتوكيد شدة عذاب الله عز وجل وانتقامه ممن كفر به وكذب رسله، ولتوكيد إقامة الحجة على الخلق بحيث لا يبقى لأحد منهم حجة ولا عذر.

﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا﴾، أي: إنا أرسلنا عليهم عقوبة لهم لإهلاكهم وتعذيبهم ﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ أي: ريحًا باردة، شديدة البرودة، شديدة الصوت، وهي الريح العقيم التي لا نفع فيها بل هي ضرر محض قال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ

﴿ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ ۝ مَا تَذَرُ مِن شَىْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وهي الدبور قال ﷺ: «**نصرت بالصبا وأهلكت عاد بالدبور**»[1].

والصبا: الريح الشرقية، والدبور: الريح الغربية.

﴿فِى يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾ أي: في يوم شؤم وشقاء (مستمر) أي: دائم عليهم نحسه و شؤمه، حيث استمر عليهم نحسه وشؤمه من ذلك اليوم وطيلة الأيام الحسوم كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَـٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة: ٦-٨]. قيل ابتدأت يوم الأربعاء وانتهت يوم الأربعاء، وذلك مستمر موصول بعذاب البرزخ، وعذاب الآخرة في النار أبد الآباد.

قال تعالى: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَقَالُوا۟ مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ۖ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَجْحَدُونَ ۝ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِىٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ لِّنُذِيقَهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَخْزَىٰ ۖ وَهُمْ لَا يُنصَرُونَ ۝﴾ [فصلت: ١٥-١٦].

﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: تقتلع الناس وترفعهم من أماكنهم ثم تلقيهم على الأرض هلكى هامدين ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ أي: كأنهم أصول وجذوع نخل بلا رؤوس (منقعر) منقلع من قعره ومغرسه، كما قال عز وجل: ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝﴾ [الحاقة: ٧].

قال ابن كثير[2]: «وذلك أن الريح كانت تأتي أحدهم فترفعه حتى تغيبه عن الأبصار ثم تنكسه على أم رأسه، فيسقط إلى الأرض، فتثلغ رأسه، فيبقى جثة بلا رأس».

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَـٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَـٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝﴾ [الأحقاف:٢٤-٢٥]. وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الجمعة ١٠٣٥، ومسلم في الاستسقاء ٩٠٠، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَقَطَعْنَا دَابِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۖ وَمَا كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الأعراف: ٧٢].

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِى وَنُذُرِ﴾ سبق الكلام عليه.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ الكلام فيه كما سبق، وكرر هنا وفيما بعد للامتنان والحث على التذكر والتدبر للقرآن، ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب عاد نبيهم هوداً عليه السلام وعقوبة الله لهم بإهلاكهم بالريح الصرصر التي فصلت رؤوسهم عن أبدانهم. وفي هذا تخويف للمكذبين، وتسلية للرسول ﷺ.

٢ ـ شدة عقوبة الله ـ عز وجل ـ لعاد وإنذاره لهم ولغيرهم.

٣ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة حيث أهلك عاداً بألطف الأشياء وأخفها وهي الريح، وقد كانوا أقوى الخلق وأعتاهم.

٤ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قد يجعل الشؤم والنحس في بعض الأعيان والأيام.

٥ ـ تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين، وإنذارهم والإعذار منهم.

٦ ـ توكيد نعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد بتيسير القرآن للذكر حثاً وحضاً على التذكر والاتعاظ به.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِن بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) إِنَّا مُرْسِلُو النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل قصة ثمود وتكذيبهم بالنذر بعد ذكره قصة تكذيب عاد، لأن ثمود بعد عاد في الزمن، وكل منهما في جزيرة العرب فـ«عاد» في جنوبها، وثمود في شمالها وبينهما والله أعلم ارتباط من وجوه عدة، ولهذا كانت «ثمود» تسمى عادًا الثانية، أو الأخرى، كما تسمى «عاد»: «عاداً الأولى». والهدف من ذكر هذه القصص كما سبق التحذير والتخويف للمكذبين وتسلية الرسول ﷺ.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ﴾ أي: كذبت قبيلة ثمود بالنذر المرسلة إليهم من الله عز وجل، فكذبوا رسولهم صالحاً عليه السلام، وما جاءهم به من النذر والآيات من عند الله عز وجل. وكانت مساكنهم في العلا شمال الجزيرة، وهي المعروفة الآن بمدائن صالح.

﴿فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: فقالوا احتقاراً منهم لصالح عليه السلام «أبشرًا » الاستفهام للتعجب والإنكار والنفي والاحتقار. (منا) أي: لا من غيرنا، ولم يتميز عنا بشيء، وهكذا يزدري الكثيرون من كان منهم ويتكبرون عليه ويتنقصونه ولو كان خيرًا، بل ويُعجبون بمن ليس منهم، وإن كان دونه على حد قولهم: «من عرفك صغيرًا حقرك كبيرًا» وقد قال ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»[1].

(واحداً) أي: شخصًا واحدًا ليس معه شخص ثان، أو جماعة تؤيده.

أي: إننا لا يمكن أن نتبع بشرًا منا واحداً، ولا يعقل أن يكون ذلك، وهذا اعتراض منهم ـ كغيرهم من المكذبين ـ على الله عز وجل، يردون به دعوة الرسل عليهم السلام، قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا تُرِيدُونَ أَن تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ٩١، والترمذي في البر والصلة ١٩٩٩ ـ من حديث عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه .

يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾ [إبراهيم:١٠-١١]، وهكذا قالت قريش لمحمد ﷺ ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وقالوا: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِى يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، حتى إنه رُويَ أن أحد المشركين وقف أمام النبي ﷺ وقال له: «أما وجد ربك من يرسله غيرك». وصدق الله العظيم ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

ولهذا قال تعالى لإفحام المشركين: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[الأنعام: ٨ ، ٩] أي: لو أرسلنا ملكاً لجعلناه على صورة رجل من البشر يخالطهم ويتكلم بلسانهم ليفهموا عنه ما يدعوهم إليه، وعلى هذا فلابد من كون الرسل من البشر.

وأيضا فإنه لو أرسل إليهم أكثر من واحد لم ينجع ذلك فيهم كما قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾﴾[يس: ١٣ ـ ١٥]

﴿إِنَّآ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ﴾ أي: إنا إذًا إن اتبعناه ﴿لَّفِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: بُعد وتيه عن الحق والهدى (وسعر) جمع سعير، أي: في نار مسعورة مشتعلة متوقدة، وقيل (سعر) أي: جنون، وقيل عناء وعذاب.

فعكسوا ما قاله لهم صالح من أنهم إن اتبعوه اهتدوا ونجوا من السعير فقالوا: إنا إذا إن اتبعناك لفي ضلال وسعر ـ وذلك لشدة عنادهم ومكابرتهم.

قال ابن كثير[1]: «يقولون لقد خبنا وخسرنا إن سلمنا كلنا قيادنا لواحد منا».

﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾.

الاستفهام أيضًا للتعجب والإنكار والنفي والاحتقار.

أي: يقولون أيضًا تعجبًا منهم وحسدًا وإنكارًا واحتقاراً ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ أي: كيف يخص بإلقاء الذكر عليه من بيننا، وأي مزية وأي فضل له علينا حتى

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

يخص بذلك من بيننا، وهذا حسد منهم واعتراض على حكم الله عز وجل واحتقار لصالح عليه السلام.

﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ «بل» للإضراب، أي: لم يلق عليه الذكر من دوننا خاصة لكنه كذاب في دعواه و(كذّاب) صيغة مبالغة على وزن «فعّال» أي: إنه كثير الكذب، وليس له صفة إلا الكذب.

(أشر) أي: بطر متكبر متعالٍ متعاظم، متجاوز الحد في الكذب.

وهكذا حملهم الحسد والكبر على أن ردوا دعوة صالح عليه السلام، وكذبوه كما حمل الحسد اليهود على إنكار رسالة محمد ﷺ أفضل الرسل وخاتم النبيين قال تعالى: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ ۖ﴾ [البقرة:١٠٩].

ولا عجب في هذا فقد كان الحسد والكبر من أسباب إخراج إبليس من الجنة ولعنه وطرده قال تعالى عنه أنه قال ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾ قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الأعراف: ١٢-١٣].

وقد أحسن القائل:

حسدوا الفتى إذ لم ينالوا سعيه ... فالقوم أعداء له وخصوم
كضرائر الحسناء قلن لوجهها ... حسداً وبغياً إنه لدميم
وترى اللبيب محسداً لم يجترم ... شتم الرجال وعرضه مشتوم
وكذاك من عظمت عليه نعمة ... حساده سيف عليه صروم[1]

فتأمل أخي الكريم كيف حمل الكبر والحسد هؤلاء الأقوام على رد الحق وتكذيبه. ففتش في جوانب نفسك واحذر من أن يحول الكبر والحسد بينك وبين قبول الحق فقد قيل: «ما خلا جسد من حسد لكن الكريم يخفيه واللئيم يبديه» وقيل

---

(١) الأبيات لأبي الأسود الدؤلي.

للحسن ـ رحمه الله: أيحسد المؤمن؟ فقال: «ما أنساك لإخوة يوسف لا أبا لك»[١].

فاقبل الحق ممن جاء به أياً كان وكن ذا قلب سليم مخلص العبادة لله، سليم على عباد الله، واعلم أن الناس لو ملكوا الدنيا كلها ما ضرك ذلك، ولو افتقروا ما نفعك ذلك، ولو دخلوا بأجمعهم الجنة ما ضرك ذلك، ولو دخلوا النار ما نفعك ذلك. فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك تعش بإذن الله ـ سعيدًا، وتمت حميدًا.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ السين للاستقبال والتحقيق والتقريب. والغد: اليوم الذي بعد يومك، ويحمل على ما يستقبل من الأيام مطلقًا، إشارة إلى تحقق مجيئه، وأن كل آت قريب. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ [الأنعام:١٣٤].

قال الشاعر:

فإن يك بعض هذا اليوم ولى ... فإن غداً لناظره قريب

والمراد بـ«غداً» يوم وقوع العذاب الدنيوي عليهم وإهلاكهم بالصيحة والصاعقة. ولهذا قال: ﴿فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ﴾.

ويحتمل أن المراد ب«غداً» يوم القيامة وتعذيبهم بالنار. كما قال تعالى: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾[الشعراء: ٢٢٧].

ولا مانع من حمل الآية على هذا وهذا.

﴿مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ﴾ أي: من هو الكذاب الأشر، أهو صالح عليه السلام أو أنهم هم الكذّابون الأفّاكون الأشرون. وفي الآية تهديد لهم شديد ووعيد أكيد.

﴿إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ﴾ أي: التي سألوها (فتنة لهم) أي: امتحانًا وابتلاءً لهم كما قال عز وجل ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. ومن الفتنه والابتلاء تيسير أسباب المعصية.

قال الطبري[٢]: «إنا باعثو الناقة التي سألتها ثمود صالحًا من الهضبة التي سألوه بعثتها لهم منها، آية لهم، وحجة لصالح على حقيقة نبوته وصدق قوله».

---

(٢) انظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٥٦٠-٥٦٥. وقد ذكرت هناك عشر مفاسد من أسباب تحريم الحسد.

(٢) في «جامع البيان» ٢٢/ ١٤١.

وقال ابن كثير[1]: «أخرج الله لهم ناقة عظيمة عشراء من صخرة صماء، طبق ما سألوا، لتكون حجة الله عليهم في تصديق صالح عليه السلام فيما جاءهم به».

﴿فَٱرْتَقِبْهُمْ وَٱصْطَبِرْ﴾ أمر من الله عز وجل لنبيه ورسوله صالح عليه السلام، أي: انتظر ما يؤول إليه أمرهم، وما يعملون، وهل تكون هذه الآية التي سألوها سببًا لهدايتهم، أو تكون سببًا لضلالهم وعذابهم وهو ما حصل فعلاً.

(واصطبر) أي: واصبر على أذاهم، وازدد صبرًا، لأن «اصطبر» أبلغ وآكد من «اصبر» لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى غالبًا.

والمعنى: اصبر على ما تلقاه منهم من الأذى فعلاً كان أو قولاً، ومن التعنت والمكابرة والعناد والتحدي بطلب الآيات والمعجزات كسؤالهم الناقة، واعلم أن الغلبة والنصر لله ورسله وأن العاقبة للمتقين كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ ۖ إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩].

﴿وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ ٱلْمَآءَ قِسْمَةٌۢ بَيْنَهُمْ﴾ أي: أخبرهم. والأمر لصالح عليه السلام أن الماء مشترك ومقسوم بينهم وبين الناقة، فيوم لها ويوم لهم، كما قال عز وجل: ﴿هَـٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥].

وهذا من الابتلاء لهم أن حُرِّم عليهم الماء يوم ورد الناقة، مع أنهم في يوم وردها يشربون من لبنها، لكنهم ملّوا هذه القسمة.

﴿كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ﴾ أي: كل نصيب من الماء يحضره صاحبه في نوبته ويُحْظَر على من ليست نوبته، فيوم شربهم يحضرون ويشربون من الماء، ويوم شرب الناقة ووردها تحضره الناقة وتشرب.

وقال مجاهد: «إذا غابت يعني الناقة حضروا الماء، وإذا جاءت حضروا اللبن»[2].

فعلى هذا فهم في يوم وردها لا يشربون من الماء، وإنما يشربون من لبنها.

﴿فَنَادَوْا۟ صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ الفاء: عاطفة أي: فنادى القوم صاحبهم واسمه: قُدار ابن سالف، كما ذكر المفسرون، وكان أشقى ثمود، كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٤.

(٢) أخرجه الطبري ٢٢/ ١٤٣.

أَشۡقَىٰهَا﴾ [الشمس: ١٢].

﴿فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ﴾ الفاء في الموضعين: عاطفة، والمعنى: بذل نفسه ووافق بسرعة وتناول السيف وانقاد لما أمروه به وتقدم فعقر الناقة. قطع أطرافها أولاً ثم نحرها ثانياً.

﴿فَكَيۡفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾. أي: فعاقبتهم، فما أعظم عذابي وعقوبتي لهم على كفرهم، وتكذيبهم لرسولي، مما فيه أعظم رادع لهم، وزجر وتخويف لغيرهم، وكيف كان إنذاري لهم أي: ما أشده وأوضحه وأبينه بما لا حجة لهم بعده.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ صَيۡحَةً وَٰحِدَةً﴾ أي: إنا أرسلنا عليهم جميعًا لما تمالؤوا على عقر الناقة فعقروها عذابًا أهلكهم جميعًا عن آخرهم، صاح بهم جبريل - عليه السلام - صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم. فما تواعن آخرهم في اليوم الرابع من عقرها. وهي الرجفة والصاعقة.

﴿فَكَانُواْ كَهَشِيمِ ٱلۡمُحۡتَظِرِ﴾ أي: فكانوا بعد هذه الصيحة (كهشيم المحتظر).

والهشيم: هو اليابس الهامد المتفتت من الزرع والنبات، وشجر الحظيرة، تنسفه الريح، وتفرقه يمينًا وشمالاً، وهنا وهناك قال تعالى: ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ﴾ [الكهف:٤٥].

و(المحتظر) صانع الحظيرة لمواشيه من الشجر.

والمعنى: أنهم هلكوا وما توا وبادوا عن آخرهم فلم يبق منهم باقية، وخمدوا وهمدوا، كما يخمد ويهمد يابس الزرع والنبات والشجر.

قال تعالى: ﴿فَعَقَرُواْ ٱلنَّاقَةَ وَعَتَوۡاْ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِمۡ وَقَالُواْ يَٰصَٰلِحُ ٱئۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٧٧ فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دَارِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [الأعراف: ٧٧-٧٨]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا صَٰلِحٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا وَمِنۡ خِزۡيِ يَوۡمِئِذٍۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡعَزِيزُ ۝٦٦ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ٱلصَّيۡحَةُ فَأَصۡبَحُواْ فِي دِيَٰرِهِمۡ جَٰثِمِينَ﴾ [هود: ٦٦-٦٧]، وقال تعالى: ﴿فَأَخَذَتۡهُمُ ٱلصَّيۡحَةُ مُصۡبِحِينَ﴾[الحجر: ٨٣]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيۡنَٰهُمۡ فَٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡعَمَىٰ عَلَى ٱلۡهُدَىٰ فَأَخَذَتۡهُمۡ صَٰعِقَةُ ٱلۡعَذَابِ ٱلۡهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٧ وَنَجَّيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ [فصلت: ١٧-١٨].

وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَآ ۝ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ۝ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا ۝ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ۝ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا﴾ [الشمس: ١١-١٥].

وهكذا كان طلب ثمود وسؤالهم الناقة فتنة وابتلاءً لهم، كما كان طلب النصارى وسؤالهم المائدة فتنة وابتلاءً لهم.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال خطبنا رسول الله ﷺ، فقال: «**يا أيها الناس قد فرض عليكم الحج فحجوا**» **فقام رجل فقال: أفي كل عام يا رسول الله؟ فقال: «أما إني لو قلت نعم لوجبت، ولو وجبت ثم تركتم لضللتم اسكتوا عني ما سكت عنكم، فإنما أهلك من كان قبلكم بسؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»**[1].

وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أعظم المسلمين في المسلين جرمًا من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته**»[2].

وعن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله فرض فرائض فلا تضيعوها، وحد حدودًا فلا تعتدوها، وحرم أشياء فلا تنتهكوها، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تسألوا عنها**»[3].

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ توكيد وتذكير وتشويق وحث على تذكر القرآن وتدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه.

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب ثمود نبيهم صالحاً عليه السلام وما جاءهم به من النذر من عذاب الله ـ عز وجل.

٢ ـ احتقار ثمود لنبيهم صالح عليه السلام وازدراؤهم له لا لشيء إلا لأنه بشر واحد منهم ولذلك لم يتبعوه.

٣ ـ حسد ثمود لنبيهم صالح عليه السلام حيث خص بالرسالة دونهم وتكذيبهم له

---

(١) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٨، ومسلم في الحج ١٣٣٧، والنسائي في مناسك الحج ٢٦١٩، والترمذي في العلم ٢٦٧٩.

(٢) أخرجه البخاري في الاعتصام ٧٢٨٩، ومسلم في الفضائل ٢٣٥٨، وأبو داود في السنة ٤٦١٠، وأحمد ١/ ١٧٦، ١٧٩.

(٣) أخرجه الدارقطني ٤/ ٢٩٧-٢٩٨، وصححه ابن كثير في «تفسيره» ٣/ ٢٥٢.

بسبب ذلك.

٤ ـ وجوب الحذر من الكبر والحسد فإنهما من أعظم أسباب رد الحق.

٥ ـ الوعيد والتهديد لثمود بالعذاب العاجل والآجل.

٦ ـ إرسال الله ـ عز وجل ـ الناقة لثمود إجابة لسؤالهم إياها وتصديقاً لصالح عليه السلام وفتنة لهم.

٧ ـ أمر الله ـ عز وجل ـ لنبيه صالح عليه السلام بالانتظار بقومه والصبر على أذاهم، وإمهالهم.

٨ ـ أن مما ابتلى الله ـ عز وجل ـ به ثمود حين أرسل الناقة فتنة لهم أن جعل الماء قسمة بينهم وبينها لها شرب ولهم شرب يوم معلوم.

٩ ـ جرأة ثمود وإقدامهم على عقر الناقة ومخالفة أمر الله وارتكاب نهيه.

١٠ ـ شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ لثمود حيث أرسل عليهم صيحة قطعت قلوبهم في أجوافهم بعد إقامة الحجة عليهم والإعذار منهم.

١١ ـ تأكيد نعمة الله ـ عز وجل ـ على العباد بتيسير القرآن للذكر حضاً على تذكره والاتعاظ به.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٣﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۢ نَّجَّيْنَٰهُم بِسَحَرٍ ﴿٣٤﴾ نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا۟ بِٱلنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ رَٰوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِۦ فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ فَذُوقُوا۟ عَذَابِى وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَٰهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما أخبر الله عز وجل عن تكذيب قوم نوح، وعاد وثمود وتعذيبهم وإنجاء الله عز وجل لأنبيائه ونصره لهم أخبر عن تكذيب قوم لوط وعقوبته لهم وإنجائه لوطاً ـ عليه السلام، ومن آمن معه من أهله وقومه.

﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍۭ بِٱلنُّذُرِ﴾ أي: كذبت قوم لوط رسول الله إليهم لوطاً ـ عليه السلام، وما جاءهم به من النذر من عند الله عز وجل فكذبوه وخالفوه وكفروا بما جاءهم به، وارتكبوا الفاحشة العظمى إتيان الذكران كما قال عز وجل عنهم: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾﴾ [الأعراف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ﴾ [الشعراء: ١٦٥-١٦٦].

فلم يسبقهم أحد إلى فعل هذه الفاحشة التي هي أعظم الفواحش، ولهذا ذكرها الله عز وجل معرفة بـ «ال» (الفاحشة) بينما ذكر الزنا بأنه فاحشة قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وإنما كان اللواط أشد فحشًا وجرمًا من الزنا لأن إتيان الذكر للذكر لا يحل بحال من الأحوال بخلاف إتيان الذكر للأنثى فهو يحل بطريق الزواج الشرعي وطريق الملك كما قال عز وجل ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ﴾ [المؤمنون: ٥-٧، المعارج: ٢٩-٣١].

وأيضًا: فإن اللواط قد يصعب التحرز منه، لأن وجود الذكر مع الذكر لا يستنكر، بخلاف ما إذا وجد رجل وامرأة فإن ذلك يستنكر ما لم تكن من محارمه.

وقد رُويَ أن عبد الملك بن مروان رحمه الله قال: «لولا أن الله ذكر اللواط في القرآن ما صدقت أن ذكرًا يعلو ذكرًا».

ولهذا كله جعل الله عز وجل عقوبة اللواط أشد العقوبات، سواء كان الفاعل والمفعول به محصنين أم لا، قال ﷺ فيما رواه ابن عباس رضي الله عنهما: «من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط فاقتلوا الفاعل والمفعول به»[١].

وعاقب الله عز وجل قوم لوط على هذه الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين بعقوبة لم يعاقب بها أحدًا من العالمين، وهي أشد العقوبات فجعل عالي قريتهم سافلها وأمطرها بحجارة من سجيل منضود.

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾ أي: أمطر الله عليهم حجارة من سجيل فجعل عالي قريتهم سافلها، كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا جَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ﴾[هود: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلۡنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمۡطَرۡنَا عَلَيۡهِمۡ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾[الحجر: ٧٤].

قال ابن كثير[٢]: «(إنا أرسلنا عليهم حاصبًا) وهي الحجارة».

﴿إِلَّآ ءَالَ لُوطٍۖ نَّجَّيۡنَٰهُم بِسَحَرٖ﴾ «إلا» أداة استثناء و«آل لوط» هم لوط وبناته، وقال ابن القيم[٣]: «المراد به أتباعه المؤمنون به، من أقاربه وغيرهم».

(نجيناهم) من العذاب والعقوبة (بسحر) أي: وقت السحر آخر الليل، وقبيل انصداع الفجر، وهو أفضل أوقات الدعاء، ووقت النزول الإلهي إلى السماء الدنيا في الثلث الأخير من الليل، كما صح الحديث بذلك[٤].

قال ابن كثير[٥]: «أي: خرجوا من آخر الليل، فنجوا مما أصاب قومهم، ولم يؤمن بلوط من قومه أحد، ولا رجل واحد، حتى ولا امرأته، أصابها ما أصاب قومها وخرج نبي الله لوط وبنات له من بين أظهرهم سالماً لم يمسسه سوء».

---

(١) أخرجه أبو داود في الحدود ٤٤٦٢، والترمذي في الحدود ١٤٥٦، ـ وقال: «حديث حسن» وابن ماجه في الحدود ٢٥٦١، والحاكم في المستدرك ٤/ ٣٥٥ ـ وصححه ووافقه الذهبي. وقال ابن القيم في «زاد المعاد» ٥/ ٤٠ ، ٤١ «وإسناده صحيح».

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥. وقد ذكر بعض المفسرين: أن الله رفع ديارهم حتى سمع الملائكة صياح الديكة ونباح كلابهم ثم قلبها عليهم ـ وهذا بناء على صحة الحديث الوارد في هذا ولكن هذا الحديث ضعيف عند أهل العلم.

(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٥.

(٤) كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا، حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له». أخرجه البخاري في التوحيد ٧٤٩٤، ومسلم في صلاة المسافرين ٧٥٨، وأبو داود في الصلاة ١٣١٥، والترمذي في الصلاة ٤٤٦، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٣٦٦.

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥.

﴿نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ أي: نعمة من عند الله عز وجل ومنة منه على لوط وأهله في إنجائهم من العذاب، وإهلاك عدوهم.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾، أي: مثل ذلك الإنجاء والنعمة نجزي من شكر نعمة الله بطاعته ـ عز وجل، وطاعة رسله فننجيه من العذاب وننصره ونجعل العاقبة له، ونهلك عدوه.

وفي قوله ﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ﴾ دون أن يقول: لشكرهم تنبيه على أن هذه سنة الله عز وجل مع أوليائه الشاكرين أن ينجيهم ويحفظهم ويؤيدهم بنصره ويمكنهم ويجعل العاقبة لهم كما قال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: ٤٩]، وقال سبحانه: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

﴿وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم أي: والله لقد أنذرهم، أي: خوفهم نبي الله لوط عليه السلام وحذرهم (بطشتنا) أي: أخذتنا الشديدة بالعذاب، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ بَطْشَ رَبِّكَ لَشَدِيدٌ﴾ [البروج: ١٢]، وقال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾: الفاء: عاطفة أي: فكذبوا وشككوا فيما أنذرهم به ولم يصغوا إليه ولم يصدقوه.

﴿وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ﴾ الكلام فيه – كما سبق – أي: والله لقد راودوه عن ضيفه أي: حاولوا معه وطلبوا منه أن يمكنهم من فعل الفاحشة بأضيافه من الملائكة.

قال ابن كثير[1]: «وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم السلام، جاؤوا إليه في صورة شباب مرد حسان محنة من الله بهم، فأضافهم لوط، وبعثت امرأته العجوز السوءُ إلى قومها، فأعلمتهم بأضياف لوط فأقبلوا يهرعون إليه من كل مكان، فأغلق لوط دونهم الباب، فجعلوا يحاولون كسر الباب، وذلك عشية، ولوط ـ عليه السلام يدافعهم ويمانعهم دون أضيافه، ويقول لهم: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ يعني نساءهم ﴿إِن كُنتُمْ

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٥ ـ ٤٥٦.

فَٰعِلِينَ﴾ [الحجر: ٧١]، ﴿قَالُواْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ أي ليس لنا فيهن إرب ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]. فلما اشتد الحال، وأبوا إلا الدخول خرج عليهم جبريل ـ عليه السلام ـ فضرب أعينهم بطرف جناحه فانطمست أعينهم، يقال: إنها غارت من وجوههم، وقيل: إنه لم تبق لهم عيون بالكلية فرجعوا على أدبارهم يتحسسون بالحيطان، ويتوعدون لوطًا عليه السلام إلى الصباح».

﴿فَطَمَسْنَآ أَعْيُنَهُمْ﴾ أعميناهم.

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ أمر إهانة، أي: فتجرعوا وأحسوا، وقاسوا شدة عذابي للمكذبين، وعقوبة تكذيبهم لنذري.

﴿وَلَقَدْ صَبَّحَهُم﴾ أي: والله لقد صحبهم (بكرة) أول النهار (عذاب مستقر)، أي: مستقر وواقع بهم لا محيد لهم عنه ولا انفاك لهم منه، لا يرحل عنهم متصل فيه عذاب الدنيا بعذاب الآخرة. وهو ما ذكره الله عز وجل من جعل عالي قريتهم أسفلها وإتباعها بالحجارة – كما تقدم قال تعالى: ﴿فَأَنجَيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٨٣﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِم مَّطَرًا فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٣-٨٤]، وقال تعالى: ﴿فَجَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ﴾ [الحجر: ٧٤].

﴿فَذُوقُواْ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ الكلام فيه كما سبق، وكرر لتأكيد التهديد والوعيد.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ كرر للامتنان والحث على تذكر القرآن وتدبره ـ كما تقدم بيانه.

﴿وَلَقَدْ جَآءَ ءَالَ فِرْعَوْنَ ٱلنُّذُرُ﴾.

أي: والله لقد جاء آل فرعون النذر، والنذر: جمع نذير و(آل فرعون) هم أهله وقومه، و (فرعون) ملك مصر الذي في عهد موسى عليه السلام وهو أشد الفراعنة طغيانًا وكفرًا، وصل به الحال إلى أن ادعى الألوهية والربوبية، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]، وقال ﴿أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النازعات: ٢٤].

و«فرعون» علم على كل من ملك مصر من الكفرة.

والمعنى: والله لقد جاء فرعون وقومه النذر من عند الله عز وجل فأرسل الله إليهم نبيه موسى عليه السلام كليم الرحمن، وأخاه هارون، وأيدهما بالنذر والمعجزات والآيات العظيمة الشرعية والكونية.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا كُلِّهَا﴾ أي: كذبوا وكفروا بآيات الله كلها الشرعية والكونية، الدالة على صدق رسالة موسى عليه السلام، ورموه بالسحر والجنون.

﴿فَأَخَذْنَٰهُمْ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فأخذناهم بالعذاب والعقوبة، وذلك بإغراق فرعون وجنوده، كما قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ وَجُنُودَهُۥ فَنَبَذْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ﴾[الذاريات: ٤٠]. **فأهلكه الله وجنوده بمثل ما يفتخر به وهو الماء كما في قوله:** ﴿أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ﴾[الزخرف: ٥١].

﴿أَخْذَ عَزِيزٍ﴾ أي: أخذ قوي قاهر غالب له العزة بأقسامها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

(مقتدر) أي: له القدرة التامة على كل شيء، كما قال عز وجل:﴿ لِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌۢ﴾ [المائدة: ١٢٠].

الفوائد والعبر:

١ ـ تكذيب قوم لوط له ـ عليه السلام ـ ولما جاءهم به من النذر من عند الله ـ عز وجل.

٢ ـ إهلاك الله ـ عز وجل ـ لقوم لوط بإرسال الحاصب والحجارة عليهم وجعل عالي قريتهم أسفلها، بعد إنجاء لوط وآله وإخراجهم منها.

٣ ـ الإشارة لفضل وقت السحر، لأنه وقت النزول الإلهي.

٤ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على لوط وآله في إنجائهم من العذاب مجازاة لهم على شكرهم لله ـ عز وجل.

٥ـ وعد الله ـ عز وجل ـ لجميع الشاكرين بالإنعام عليهم وإنجائهم من العذاب.

٦ـ إنذار لوط عليه السلام لقومه وتحذيره من أخذ الله لهم وعقابه وتشكيكهم في ذلك.

٧ ـ طمس أعين قوم لوط عن ضيوفه لما راودوه عنهم دفاعاً عنه عليه السلام وحفظاً له ولضيوفه وعقوبة لقومه المجرمين.

٨ ـ وقوع العذاب بالمكذبين من قوم لوط أول النهار واتصاله بعذاب الآخرة.

٩ ـ شدة عذاب الله ـ عز وجل ـ للمكذبين من قوم لوط وإنذاره لهم ولغيرهم.

١٠ ـ تأكيد الوعيد والتهديد للمكذبين.

١١ ـ تأكيد تيسير القرآن للذكر حضاً على التذكرة والاتعاظ.

١٢ ـ إقامة الحجة على فرعون وقومه بإرسال الرسل والنذر إليهم.

١٣ ـ تكذيب آل فرعون بآيات الله كلها الكونية والشرعية وإهلاك الله لهم بالغرق.

١٤ ـ عزة الله ـ عز وجل ـ التامة وقدرته العظيمة في الانتقام من المكذبين.

﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ ۝ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ۝ سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ۝ بَلِ ٱلسَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَٱلسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ ۝﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعدما أخبر الله ـ عز وجل ـ عن عذابه وعقوباته للمكذبين من الأمم السابقة؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون، وإنجائه عز وجل لرسله وأنبيائه وأتباعهم وجه الخطاب للمشركين والكفار من هذه الأمة من أهل مكة وغيرهم تحذيرًا وتخويفًا لهم ووعيدًا وتهديدًا بأنه سيحل بهم مثل ما حل بالمكذبين والكافرين قبلهم.

قوله ﴿أَكُفَّارُكُمْ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، والخطاب لكفار مكة وغيرهم من كفار هذه الأمة.

والكفر لغة: الستر والتغطية. وشرعًا: إنكار وجود الله وجحود ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشريعته وهو ضد الإيمان.

﴿خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰٓئِكُمْ﴾ أي: خير من أولئكم الأقوام الذين عذبهم الله لما كذبوا رسله وكفروا به؛ قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وآل فرعون.

والجواب: ليس كفاركم خيراً من أولئكم الأقوام، بل أنتم وإياهم سواء في الكفر والتكذيب لرسل الله بل قد تكونون شرًا منهم، لأنكم كذبتم أفضل الرسل وسيد الخلق محمداً ﷺ، والذي جاء بأفضل الكتب وأعظم المعجزات القرآن الكريم.

﴿أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِي ٱلزُّبُرِ﴾ الاستفهام كسابقه، و«أم» هي المنقطعة، بمعنى «بل» التي هي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل ألكم براءة في الزبر من عذاب الله وعقابه، والزبر: هي كتب الله عز وجل التي أنزلها على رسله عليهم الصلاة والسلام.

والجواب: ليس لكم براءة في كتب الله المنزلة على رسله أن لا ينالكم عذاب الله وعقابه.

﴿أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ «أم» كسابقتها للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام، أي: بل أيقولون نحن جميع منتصر فهم يعلمون أنهم ليسوا خيرًا ممن كان قبلهم من المكذبين، وأنه ليس لهم براءة من العذاب في كتب الله، بل حقيقة أمرهم واعتقادهم ولسان حالهم ومقالهم أنهم يقولون ﴿نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ﴾ أي: نحن جماعة مجتمع أمرنا ﴿مُّنتَصِرٌ﴾ ممتنع لا نغلب.

أي: أننا بجمعنا الكثير ممتنعون، لا نغلب، وسينتصر بعضنا لبعض ويدفع بعضنا عن بعض من أرادنا بسوء، اغترارًا منهم بكثرتهم وقد قال الله عز وجل للمؤمنين

﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ﴾ أي: سيغلب هذا الجمع الذي يفتخرون به، ويعتقدون أنهم سينتصرون به.

﴿وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ أي: ويولون موقع المعركة أدبارهم فارين هاربين منهزمين على أعقابهم بعد قتل صناديدهم وكبرائهم، وهذا عذابهم الدنيوي، وقد وقع ذلك في يوم بدر، وفيما بعده من معارك الإسلام الفاصلة.

عن عكرمة قال: لما نزلت ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ قال عمر: «أي جمع يهزم؟ أي جمع يغلب؟ قال عمر: فلما كان يوم بدر رأيت رسول الله ﷺ ـ يثب في الدرع، وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ﴾ فعرفت تأويلها يومئذ[(١)]».

﴿بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، والساعة: القيامة لأنها آتية لا محالة، ومحددة الوقوع في ساعة من الزمن لا تتأخر عنها ولا تتقدم، أي: بل القيامة موعدهم للعذاب.

﴿وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾أي: والقيامة أعظم داهية ﴿وَأَمَرُّ﴾ أي: أشد مرارة، أي: أن عذاب الآخرة أشد وأعظم من عذاب الدنيا ـ عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال وهو في قبة له يوم بدر «أنشدك عهدك ووعدك، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبدًا» فأخذ أبو بكر رضي الله عنه بيده ـ وقال: حسبك يا رسول الله فقد ألححت على ربك، وهو في الدرع، فخرج وهو يقول: ﴿سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ ﴿٤٦﴾﴾»[(٢)].

فعذاب الدنيا مهما كان لا يقارن بعذاب الآخرة، كما قال عز وجل: ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى﴾ [طه: ١٢٧]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:٨٥]، وقال تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ [الرعد: ٣٤]، وقال تعالى ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١ ـ الأثر ١٨٧١٣ وليس فيه ذكر عمر، وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٥٧.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة «اقتربت الساعة» ٤٨٧٧.

يَعلَمُونَ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَأَتَىٰهُمُ ٱلۡعَذَابُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٢٥﴾ فَأَذَاقَهُمُ ٱللَّهُ ٱلۡخِزۡيَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَكۡبَرُۚ لَوۡ كَانُواْ يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٥ ، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ ﴿٢٣﴾ فَيُعَذِّبُهُ ٱللَّهُ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَكۡبَرَ﴾ [الغاشية: ٢٣-٢٤].

وعذاب الدنيا مهما عظم ومهما طال ينتهي بالموت، أما عذاب الآخرة فهو أعظم وأشد وأكبر ولا نهاية له، بل هو عذاب أبدي سرمدي، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَن يَخۡرُجُواْ مِنَ ٱلنَّارِ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنۡهَاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ﴾ [المائدة: ٣٧]، أي: دائم، وقال تعالى: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧]، وقال تعالى: ﴿لَا يُفَتَّرُ عَنۡهُمۡ وَهُمۡ فِيهِ مُبۡلِسُونَ﴾ [الزخرف: ٧٥]، أي: لا ينقطع عنهم فترة يرتاحون فيها، وهم فيه آيسون من الخروج منه.

وإذا كان عذاب الدنيا وأذاها لا يقارن بعذاب الآخرة بحال من الأحوال، فيجب أن يحذر مرضى القلوب وضعاف الإيمان، ممن يؤثرون السلامة، بل السلبية، فيتخلون عن القيام بأمر الله والدعوة إليه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى مع أخص الناس بهم وأقربهم إليهم من أهل وأولاد وأقارب وجيران وإخوان، وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الفوائد والعبر:

١ـ التحذير والتخويف والوعيد والتهديد للمكذبين من هذه الأمة أن يحل بهم ما حل بالمكذبين من الأمم السابقة.

٢ـ أن المكذبين من هذه الأمة ليسوا خيراً من المكذبين من قبلهم، بل هم في الكفر والتكذيب سواء، بل قد يكونون شراً ممن قبلهم؛ لأنهم كذبوا أفضل رسل الله محمداً ﷺ وخير كتبه القرآن الكريم.

٣ـ ليس لدى المكذبين للرسول ﷺ براءة أن لا ينالهم عذاب الله وعقابه.

٤ـ اغترار المكذبين بكثرتهم وجمعهم وانتصار بعضهم لبعض، فلم يغنهم ذلك؛ بل هزموا شر هزيمة في بدر، وولوا الأدبار.

٥ ـ الوعيد والتهديد للمكذبين بالعذاب الآجل يوم القيامة والذي هو أشد وأعظم.

﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَٰلٍ وَسُعُرٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِى ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا۟ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾ وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٥١﴾ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ ﴿٥٣﴾ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

توعد الله عز وجل في الآيات السابقة المشركين بالهزيمة في الدنيا، والعذاب في الآخرة، ثم أتبع ذلك بشيء من التفصيل في عذابهم، ثم أتبع ذلك ببيان مقام المتقين على طريقة القرآن الكريم في الجمع بين الترغيب والترهيب.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ «المجرمين» الذين ارتكبوا الجرائم من الكفر بالله وما دون ذلك من المعاصي والذنوب.

﴿فِى ضَلَٰلٍ﴾ الضلال: التيه والبعد عن قصد السبيل وطريق الحق، والضال: من لم يعرف الطريق الموصل إلى الغاية والنجاة، حسيًا كان هذا الطريق أو معنويًا فهذا حال المجرمين في الدنيا فهم تائهون ضائعون عن طريق الحق يتخبطون في ظلمات الجهل والكفر.

﴿وَسُعُرٍ﴾ جمع سعير، وهي النار المستعرة المشتعلة الموقدة وهذه حال المجرمين في الآخرة أنهم يُزَجُّون في النار المستعرة. فحيث تاهوا عن طريق الحق في الدنيا تاهوا عن طريق الجنة في الآخرة فصار مصيرهم إلى النار المستعرة، إذ ليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار، كما قيل:

الموت باب وكل الناس داخله ... يا ليت شعري بعد الموت ما الدار

الدار جنة عدن إن عملت بما ... يرضي الإله وإن فرطت فالنار

هما محلان ما للناس غيرهما ... فاختر لنفسك ماذا أنت تختار

وقيل (في سعر) أي: في جنون ونصب وعناء.

قال الطبري[1]: «﴿وَسُعُرٍ﴾ يقول في احتراق من شدة العناء والنصب في الباطل».

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/١٥٩.

وقال ابن كثير[1]: «﴿وَسُعُرٍ﴾ مما هم فيه من الشكوك والاضطراب في الآراء، وهذا يشمل كل من اتصف بذلك من كافر ومبتدع من سائر الفرق».

﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ أي: ذلك اليوم يوم القيامة الذي يسحبون فيه في النار أي: تسحبهم الملائكة على وجوههم إهانة لهم وتشديدًا في العذاب عليهم لأن أشد شيء في الإهانة أن تقع على موضع الكرامة من الإنسان وهو الوجه، وهو أشد شيء في العذاب، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾[الزمر: ٢٤]

﴿ذُوقُوا﴾ أي: يقال لهم تقريعًا وتوبيخًا وتبكيتا وتعنيفًا، ﴿ذُوقُوا﴾ أي: ذوقوا وتجرعوا ﴿مَسَّ سَقَرَ﴾ أي: مس النار وإصابتها وآلامها و﴿سَقَرَ﴾ اسم من أسماء النار أعاذنا الله منها.

وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ [الدخان: ٤٩].

وهذا من العذاب المعنوي لهم، المنصب على القلوب التي هي أصل مواضع الكفر والفساد منهم، فيجمع لهم بين العذاب الحسي وهو عذاب النار وسحبهم على وجوههم فيها ونحو ذلك، وبين العذاب المعنوي بالتوبيخ والتقريع لهم والتبكيت والتعنيف والإهانة والتحقير، ونحو ذلك.

والعذاب المعنوي لا يقل عن العذاب الحسي إن لم يكن أشد ـ كما يقول أهل العلم، ولهذا لو أن شخصين ارتكبا جرمًا فأحضرهما السلطان، فضرب أحدهما خمسين جلدة وأطلق سراحه، ثم أجلس الثاني عنده وأخذ يعاتبه ويوبخه، ويلحظه بعينيه بين فترة وأخرى، ويقول له: أنت أخطأت، وأنت أسأت، وأنت فعلت كذا وكذا؟ فيا ترى ما حال هذا الثاني؟ وماذا يدور في نفسه؟ لاشك أنه يتمنى أن لو ضرب مائة جلدة وأطلق سراحه مع صاحبه.

ولهذا استحب الفقهاء أن يختن الطفل في الشهور الأولى من ولادته لأن الطفل في هذه المرحلة إنما يشعر فقط بالألم الحسي فإذا سكن الألم نام، ولهذا يشفى سريعًا بإذن الله عز وجل، بخلاف الكبير فإن عنده مع الألم الحسي الألم المعنوي، وهو الخوف من بطء الشفاء، بأي سبب من الأسباب، والتفكير في ذلك، ولهذا يتأخر شفاؤه غالبًا.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٧.

﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «جاء مشركو قريش إلى النبي ﷺ يخاصمونه في القدر، فنزلت: ﴿يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي ٱلنَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾»[1].

قوله ﴿إِنَّا﴾ يتكلم عز وجل عن نفسه بضمير العظمة، وهو العظيم سبحانه وتعالى مبينًا عز وجل أن كل شيء خلقه سبحانه وتعالى وأوجده. ﴿بِقَدَرٍ﴾: أي: بتقدير سابق في الأزل، مقدرًا محكمًا، فكل شيء في هذا الكون العظيم هو من خلق الله عز وجل وإيجاده، وهو بقدر مقدر من عند الله عز وجل كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ﴾ [الأعلى: ٢-٣]، أي: الذي خلق كل مخلوق وسوى خلقته على أحسن حال والذي قدر مقادير كل شيء وهدى كل مخلوق لما قدر له.

عن زرارة عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ قال: «**نزلت في أناس من أمتي يكونون في آخر الزمان يكذبون بقدر الله**»[2].

وهذا إن صح لا ينافي ما سبق أنها نزلت بسبب إنكار المشركين للقدر، فتكون الآية نزلت في هؤلاء وهؤلاء.

وعن عطاء بن أبي رباح رحمه الله قال: «أتيت ابن عباس، وهو ينزع من زمزم، وقد ابتلت أسافل ثيابه، فقلت له: قد تُكُلِّمَ في القدر. فقال: أوفعلوها؟ قلت: نعم قال: فوالله ما نزلت هذه الآية إلا فيهم: ﴿ذُوقُواْ مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ أولئك شرار هذه الأمة، فلا تعودوا مرضاهم، ولا تصلوا على موتاهم، إن رأيت أحدًا منهم فقأت عينيه بأصبعي هتين»[3].

وفي رواية: «قيل لابن عباس: إن رجلاً قدم علينا يكذب بالقدر، فقال: دلوني عليه -وهو يومئذ قد عَميَ- قالوا: وما تصنع به يا ابن عباس؟ قال: والذي نفسي بيده لئن استمكنت منه لأعضّن أنفه حتى أقطعه، ولئن وقعت رقبته في يدي لأدقنها،

---

(١) اخرجه مسلم في القدر ـ باب كل شيء بقدر ٢٦٥٦، والترمذي في تفسير سورة القدر ٢١٥٧، وابن ماجه في المقدمة ـ باب في القدر ٨٣، وأحمد ٢/ ٤٤٤، ٤٧٦.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١ ـ الأثر ١٨٧١٤.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢١ ـ الأثر ١٨٧١٥.

فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كأني بنساء بني فهر يطفن بالخزرج، تصطك ألياتهن مشركات؛ هذا أول شرك هذه الأمة، والذي نفسي بيده لينتهين بهم سوء رأيهم حتى يخرجوا الله من أن يكون قدر خيرًا، كما أخرجوه من أن يكون قدر شرًا»[(١)].

قال ابن كثير[(٢)] في كلامه على هذه الآية ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾: «ولهذا يستدل بهذه الآية الكريمة أئمة السنة على إثبات قدر الله السابق لخلقه، وهو علمه الأشياء قبل كونها، وكتابته لها قبل برئها، وردوا بهذه الآية، وبما شاكلها من الآيات، وبما ورد في معناها من الأحاديث الثابتة على الفرقة القدرية الذين نبغوا في أواخر عهد الصحابة».

والأحاديث في إثبات القدر، وذم نفاته كثيرة، فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**لكل أمة مجوس، ومجوس هذه الأمة، الذين يقولون: لا قدر، من مات منهم فلا تشهدوا جنازته، ومن مرض منهم فلا تعودوهم، وهم شيعة الدجال، وحق على الله أن يلحقهم بالدجال**»[(٣)].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله كتب مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(٤)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «كل شيء بقدر، حتى العجز والكيس»[(٥)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «المؤمن القوى خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شئ فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل قدر الله وما شاء فعل، فإن «لو» تفتح عمل الشيطان»[(٦)].

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٣٣٠.
(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٥٧.
(٣) أخرجه أحمد ٢/ ٨٦، وأبو داود في السنة ٤٦٩٢.
(٤) أخرجه مسلم في القدر ـ حجاج آدم وموسى عليهما السلام، ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦.
(٥) أخرجه مسلم في القدر ـ كل شيء بقدر ٢٦٥٥، وأحمد ٢/ ١١٠.
(٦) أخرجه مسلم في القدر ـ الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ـ باب في القدر ٧٩.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: «ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ قلت: بلى يا رسول الله. قال: **احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم يكتبه الله لك لم ينفعوك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يكتبه الله عليك لم يضروك، جفت الأقلام وطويت الصحف**»[١].

وعن الوليد بن عبادة قال: دخلت على عبادة وهو مريض، أتخايل فيه الموت، فقلت يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني. فلما أجلسوه، قال: يا بني إنك لن تطعم طعم الإيمان، ولن تبلغ حقيقة العلم بالله ، حتى تؤمن بالقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه، وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك وما أصابك لم يكن ليخطئك يا بني: إني سمعت رسول الله يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له: اكتب فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة» يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلت النار»[٢].

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يؤمن عبد حتى يؤمن بأربع يشهد أن لا إله إلا الله، وأني رسول الله بعثني بالحق، ويؤمن بالموت، ويؤمن بالبعث بعد الموت، ويؤمن بالقدر خيره وشره»[٣].

قال ابن القيم[٤]: «والمخاصمون في القدر نوعان: أحدهما من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره كالذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا﴾ [النحل:٤٨][٥]، والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق[٦].

والطائفتان خصماء لله قال عوف: «من كذب بالقدر فقد كذب بالإسلام، إن الله تبارك وتعالى قدر أقدارًا، وخلق الخلق بقدر، وقسم الآجال بقدر، وقسم الأرزاق

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٧.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٣١٧، والترمذي في أبواب القدر ٢١٥٥، وفي التفسير ٣٣١٩ وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

(٣) أخرجه الترمذي في أبواب القدر ٢١٤٥، وابن ماجه في المقدمة ـ باب في القدر ٨١.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٦.

(٥) وهؤلاء هم الجبرية.

(٦) وهؤلاء هم القدرية.

بقدر، وقسم البلاء بقدر، وقسم العافية بقدر، وأمر ونهى» وقال الإمام أحمد: «القدر قدرة الله». قال ابن القيم: فإن إنكار القدر إنكار لقدرة الرب على خلق أعمال العباد وكتابتها وتقديرها، وسلف القدرية ينكرون علمه بها وهم الذين اتفق السلف على تكفيرهم. وفي تفسير على بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر:٢٨] قال: الذين يقولون إن الله على كل شيء قدير»[١].

فالقدر سر الله في خلقه، لم يطلع عليه ملك مقرب ولا نبي مرسل، فلا يمكن أن يحصل في الكون حركة ولا سكون إلا بتقدير الله ـ عز وجل ـ لذلك أزلاً كما دلت على ذلك هذه الآيات والأحاديث وغيرها من نصوص الكتاب والسنة.

فعن علي رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ في جنازة، فأخذ شيئًا، فجعل ينكت به الأرض فقال: «ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار، ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل؟ قال: «اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما من كان من أهل السعادة، فييسر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاء فييسر لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل]»[٢].

وقد حكى الشاعر هذا المعنى بقوله:

ولو كانت الأخلاق تحوي وراثة ... ولو كانت الآراء لا تتشعب

لأصبح كل الناس قد ضمهم هوى ... كما كان كل الناس قد ضمهم أب

ولكنها الأقدار كل ميسر ... لما هو مخلوق له ومقرب

فمن طلب الخير وبحث عنه وُفق إليه، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥-٧]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران:٣١].

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٣٢- وفيه «الذين يعلمون أن الله على كل شيء قدير».

(٢) أخرجه البخاري في التفسير ٤٩٤٩، ومسلم في القدر ٢٦٤٧، وأبو داود في السنة ٤٦٩٤، والترمذي في القدر ٣٣٤٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٨.

فاتبع الرسول الله ﷺ، وكن من المتقين المحسنين المقسطين الصابرين المتوكلين التوابين المتطهرين يحبك الله.

قال عز وجل في الحديث القدسي: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه»[(١)].

ومن أحبه الله عز وجل وفقه وهداه إلى كل خير، وحفظه ووقاه من كل شر فادخل أخي الكريم على ربك بكليتك وسلم أمرك له واعبده وتوكل عليه يكفك كل شيء.

ولا يجوز الاحتجاج بالقدر على فعل المعصية، كأن يترك الإنسان فعل الواجب، أو يرتكب المنهي ثم يحتج بالقدر وقد رُوي أن سارقًا سرق في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، فأمر عمر رضي الله عنه بقطع يده فقال السارق: يا أمير المؤمنين أنا سرقت بقضاء الله فقال عمر رضي الله: «وأنا أقطع يدك بقضاء الله» يعني: بقضاء الله الشرعي.

وأما ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «احتج آدم وموسى فقال له موسى: أنت آدم الذي أخرجتك خطيئتك من الجنة فقال له آدم: أنت موسى الذي اصطفاك برسالاته وبكلامه، ثم تلومني على أمر قد قدر عليّ قبل أن أخلق. فقال رسول الله ﷺ: «فحج آدم موسى مرتين»[(٢)].

وقد وجه ابن تيمية هذا «بأن ما حصل لآدم من الأكل من الشجرة هو مصيبة له ولذريته والاحتجاج في القدر جائز في المصائب والمعائب»[(٣)].

ووجه ابن القيم الحديث بقوله: «إن الاحتجاج بالقدر بعد فعل الذنب والتوبة منه سائغ لا إشكال فيه. أما الاحتجاج بالقدر حال فعل الذنب وقبل التوبة منه فلا يجوز»[(٤)].

﴿وَمَآ أَمۡرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ الواو: عاطفة، و﴿ما﴾ نافية أي: ما أمرنا إذا أردنا شيئًا إلا واحدة، أي: إلا أن نأمر به مرة واحدة، أو بكلمة واحدة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى:

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الأنبياء ٣٤٠٩، ومسلم في القدر ٢٦٥٢، وأبو داود في السنة ٤٧٠١، والترمذي في القدر ٢١٣٤، وابن ماجه في المقدمة ٨٠.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ٨/١٠٨.

(٤) انظر: «شفاء العليل» ص ١٣-١٩.

﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٥]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [غافر: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام:٧٣].

﴿كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ أي: أن سرعة أمرنا ونفوذه كلمحة بصر، كما قال عز وجل في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾﴾ [الآية: ٧٧].

قال ابن كثير[1] في كلامه على الآية ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾: «وهذا إخبار عن نفوذ مشيئته في خلقه، كما أخبر بنفوذ قدره فيهم، فقال: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ﴾ أي: إنما أمرنا بالشيء مرة واحدة، لا نحتاج إلى تأكيد ثانية، فيكون ذلك الذي نأمر به حاصلاً موجودًا كلمح البصر لا يتأخر طرفة عين».

وفي الآية إشارة إلى قدرة الله عز وجل التامة على البعث وقرب ذلك.

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ﴾ الواو: للاستئناف، واللام: للقسم، أي: والله لقد أهلكنا أشياعكم، أي: أهلكنا بالعذاب وأنواع العقوبات، أمثالكم وأشباهكم في الكفر، وأسلافكم من المكذبين للرسل.

﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ أي: فهل من متذكر ومتعظ ومعتبر بما حصل لأولئك الأقوام من العذاب والعقوبات، والاستفهام بمعنى الأمر، أي: اتعظوا واعتبروا بما حصل لهم واحذروا أن يصيبكم ما أصابهم، قال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ [سبأ: ٥٤].

﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: كل شيء فعلوه، وكذا كل قول قالوه هم ومن سبقهم أيًا كان فكل ذلك مكتوب عليهم ﴿فِى ٱلزُّبُرِ﴾ أي: في اللوح المحفوظ قبل أن يعملوه، وفي الصحف التي بأيدي الملائكة بعد أن عملوه للجزاء عليه.

﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾ أي: كل صغير وكبير من الأفعال والأقوال وغير ذلك مسطور مكتوب في تلك الصحف قال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ [الكهف : ٤٩].

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦١.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال لها: «يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب فإن لها من الله طالبًا»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: « لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[٢].

قال الشاعر:

خـل الـذنوب صـغيرها وكبيرهـا فهـو التـقى

كـن مثـل مـاش فـوق أر ض الشـوك يحـذر مـا يـرى

لا تحقـرن صـغيرة إن الجبـال مـن الحصـى[٣]

وقال الآخر:

لا تحقـرن مـن الـذنوب صـغيرها إن الصـغير غـدًا يعـود كـبيرا

إن الصـغير ولـو تقـادم عهـده عنـد الإلـه مسـطرٌ تسـطيرا

﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ﴾.

بعدما ذكر الله عز وجل ما أعده للمكذبين الضالين من العذاب الحسي والمعنوي في السعير والنار ذكر ما أعده للمتقين في الجنات من النعيم الحسي والمعنوي.

قوله ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ﴾ إخبار من الله عز وجل ووعد منه لا يتخلف أن المتقين الذين اتقوا ربهم بفعل أوامره واجتناب نواهيه في جنات و(جنات): جمع جنة، وهي جنات عدن التي أعدها عز وجل لأوليائه، وسميت جنات لكثرة ما فيها من الأشجار، وأنواع الثمار، فهي تجن، أي: تستر من بداخلها، لكثرة أشجارها وثمارها الملتفة.

﴿وَنَهَرٍ﴾ أي: أنهار، لأن أنهار الجنة متعددة ومتنوعة، قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد:١٥] والمعنى: أنهم يتنعمون بداخل هذه الجنات بألوان النعيم ويشربون من هذه الأنهار ويتمتعون برؤيتها، وغير ذلك.

﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في مكان ومجلس ومقام ﴿صِدْقٍ﴾، ليس فيه كذب لا في

---

(١) أخرجه أحمد ٦/ ١٥١، وابن ماجه في الزهد ـ ذكر الذنوب ٤٢٤٣.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٦/ ٦٥١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ٣/ ٩٣٤ـ الأثر ٥٢١٦.

(٣) الأبيات لابن المعتز انظر «ديوانه» ٢/ ٣٧٦ ـ تحقيق محمد بديع شريف ـ دار المعارف بمصر.

الخبر عنه، ولا في وصفه بل كله حق، مقام رضىً وكرامة وسرور، كما قال عز وجل ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [يونس:٢].

لا يسمعون فيه إلا ما يسرهم، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ۝ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ [الواقعة: ٢٦] وقال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا﴾ [النبأ: ٣٥].

قال ابن القيم[1]: «فسمى جنته مقعد مصدق لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها كما يقال: مودة صادقة، إذا كانت ثابتة تامة، وحلاوة صادقة، وحملة صادقة، ومنه الكلام الصدق، لحصول مقصوده منه، وموضع هذه اللفظة في كلامهم الصحة والكمال، ومنه الصدق في الحديث والصدق في العمل، والصدِّيق الذي يصدق قوله بالعمل، ومنه الصداقة لصفاء المودة والمخالة، ومنه قدم صدق، ولسان صدق[2]، ومدخل صدق، ومخرج صدق[3]، وذلك كله للحق الثابت الذي يرغب فيه بخلاف الكذب الباطل الذي لا شيء تحته».

وقال ابن كثير[4]: «وقوله ﴿فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ﴾ أي: في دار كرامة الله ورضوانه وفضله وامتنانه وجوده وإحسانه».

﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ أي: عند المليك العظيم المالك لكل شيء الخالق لكل شيء المدبر له، المقتدر على إعطاء أهل الجنة كل ما يريدون، وتحقيق كل ما يطلبون وعلى كل شيء سبحانه وتعالى، كما قال عز وجل: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ في مواضع كثيرة من القرآن الكريم.

وفي الآية ما يدل على أن المتقين ضيوف عنده عز وجل، وهو المليك العظيم ملك الملوك، الخالق المدبر، المقتدر على كل شيء، الكريم الجواد، من له خزائن السموات والأرض، فأكرم بها من ضيافة. نسأل الله تعالى أن يحشرنا في زمرة عباده المتقين إنه أكرم الأكرمين وأجود الأجودين.

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣١٧.

(٢) كما قال تعالى عن إبراهيم عليه السلام، أنه قال: ﴿وَٱجْعَل لِّى لِسَانَ صِدْقٍ فِى ٱلْءَاخِرِينَ﴾ [الشعراء:٨٤]، وقال تعالى: ﴿وَوَهَبْنَا لَهُم مِّن رَّحْمَتِنَا وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ [مريم:٥٠].

(٣) كما قال تعالى: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ﴾ [الإسراء:٨٠]، وكما قال تعالى: ﴿وَعْدَ ٱلصِّدْقِ ٱلَّذِى كَانُواْ يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ﴾ [يونس:٩٣].

(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٢.

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «المقسطون عند الله يوم القيامة على منابر من نور عن يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما ولوا»[١].

فيجمع لهم بين النعيم الحسي من مأكل ومشرب وملبس ومسكن وأزواج وغير ذلك، وبين النعيم المعنوي، نعيم القلب وأعظم ذلك كله النظر إلى وجهه الكريم كما قال عز وجل: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[يونس: ٢٦] وفسر النبي ﷺ «الحسنى» بالجنة، الزيادة بالنظر إلى وجه الله الكريم[٢] ـ نسأل الله تعالى من فضله.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن المجرمين في ضلال وتيه عن الحق في دنياهم ومآلهم إلى النار في أخراهم يسحبون فيها على وجوههم ويجمع لهم فيها بين العذاب الحسي والعذاب المعنوي.

٢ ـ إثبات قدر الله السابق، وأن الله ـ عز وجل ـ قدر مقادير كل شيء وهدى كل مخلوق لما قدر له.

٣ ـ كمال قدرة الله ـ عز وجل ـ وإرادته، فإذا أراد شيئاً قال له كن فيكون.

٤ ـ الإشارة إلى قدرة الله ـ عز وجل ـ على البعث وقرب ذلك.

٥ ـ التهديد والوعيد للمكذبين بتذكيرهم بإهلاك أمثالهم من المكذبين قبلهم ليتعظوا ولكن هيهات.

٦ ـ أن كل شيء من أفعال وأقوال الخلق وغير ذلك مكتوب في اللوح المحفوظ قبل أن يعملوه، ومكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة بعد أن عملوه للجزاء عليه.

٧ ـ التحذير من الذنوب كبيرها وصغيرها.

٨ ـ جمع القرآن بين الترغيب والترهيب.

٩ ـ الإشارة إلى عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ للمتقين من النعيم الحسي والمعنوي في الجنات والأنهار ومقعد الصدق جوار المليك المقتدر.

١٠ ـ الترغيب في تقوى الله ـ عز وجل ـ.

١١ ـ إثبات ملك الله ـ عز وجل ـ التام، وقدرته العظيمة.

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ـ فضل الإمام العادل ١٨٢٧، والنسائي في آداب القضاة ـ فضل الحاكم العادل في حكمه ٥٣٧٩، وأحمد ٢/ ١٦٠.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ١٢/ ١٥٨، ١٦١، ١٦٢ ـ من حديث أبي موسى، ومن حديث كعب بن عجرة، ومن حديث أبي بن كعب رضي الله عنهم. وانظر «تفسير ابن كثير» ٤/ ١٩٩.

تفسير سورة الرحمن

عن زر بن حبيش أن رجلاً قال لابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ: «كيف تعرف هذا الحرف ﴿مَّآءٍ غَيۡرِ ياسن﴾ أم (آسن)؟ فقال: كل القرآن قد قرأت. قال: إني لأقرأ المفصل أجمع في ركعة واحدة، فقال: أهذّ الشعر، لا أبالك؟ قد علمت قرائن رسول الله ـ ﷺ ـ التي كان يقرن قرينتين قرينتين من أول المفصل، وكان أول مفصّل ابن مسعود (الرحمن)»[1].

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ (٢) خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ (٣) عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ (٤) ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ (٥) وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ (٦) وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ (٧) أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ (٨) وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ (٩) وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ (١٠) فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ (١١) وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ (١٢) فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣)﴾.

قوله: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ (١) عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الرحمن: اسم من أسماء الله عز وجل، بل هو ثاني اسم من أسماء الله عز وجل وأفضله قال عز وجل: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدۡعُواْ ٱلرَّحۡمَٰنَۖ أَيّٗا مَّا تَدۡعُواْ فَلَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الإسراء: ١١٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله: عبد الله وعبد الرحمن»[2].

و«الرَّحْمَنُ» على وزن «فعلان» يدل على سعة رحمته عز وجل، وهو أبلغ من «الرحيم»؛ ولهذا قُدّم عليه في البسملة وفي الفاتحة، وفي قوله: ﴿هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ١٦٣، الحشر: ٢٢].

وبين «الرحمن» و«الرحيم» عموم وخصوص فـ«الرحمن» أخص من جهة إطلاقه فلا يطلق إلا على الله عز وجل، و«الرحيم» يطلق على غير الله، كما قال عز وجل في صفة الرسول ﷺ: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ

---

(١) اخرجه أحمد ١/ ٤١٢.
(٢) اخرجه مسلم في البّر والصّلة والآداب ٢١٣٢، وابو داود في الأدب ٤٩٤٩، والترمذي في الأدب ٢٨٣٣، ٢٨٣٤، وابن ماجه في الأدب ٣٧٢٨.

﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

و«الرحمن» و«الرحيم» إذا انفرد كل منهما عن الآخر دلَّ كل منهما على إثبات صفة الرحمة لله عز وجل صفة ذاتية ثابتة له سبحانه، وعلى إثبات صفة الرحمة الفعلية التي يوصلها عز وجل من شاء من خلقه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

كما يدل كل منهما في حال انفراده على إثبات صفة الرحمة العامة لله عز وجل بجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، ناطقهم وبهيمهم في الدنيا والآخرة، وعلى إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة، فرحمة الله لغير المؤمنين من الكفار والبهائم في الدنيا ما هم فيه من النعم، وفي الآخرة العدل في حسابهم حتى إنه ليقتص للشاة الجّماء من الشاة القرناء[1]، ورحمة الله الخاصة بالمؤمنين في الدنيا هدايتهم للطريق المستقيم مع سائر النعم، وفي الآخرة إدخالهم الجنة دار النعيم قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣].

أما إذا اجتمع «الرحمن» و«الرحيم» كما في البسملة والفاتحة وغير ذلك فإن «الرحمن» يدل على إثبات صفة الرحمة الذاتية الثابتة لله عز وجل، و«الرحيم» يدل على إثبات صفة الرحمة الفعلية لله عز وجل.

كما يدل «الرحمن» في حال اجتماعهما على إثبات صفة الرحمة العامة لجميع الخلق المؤمن والكافر، والناطق والبهيم في الدنيا والآخرة، ويدل: «الرحيم» على إثبات صفة الرحمة الخاصة بالمؤمنين في الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣].

وقد افتتح الله عز وجل هذه السورة باسمه «الرحمن»؛ لأن كل ما ذكر الله عز وجل فيها هو من نعم الله عز وجل، التي هي من آثار رحمته سبحانه وتعالى، بل كل ما خلق الله من النعم، وكل ما دفع من النقم هو من آثار رحمته عز وجل.

---

(١) كما في حديث أبي هريرة رضي الله تعالى عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٢، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٢٠.

﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ أي: علَّم سبحانه العباد القرآن، ألفاظه، ومعانيه، وأحكامه، وكيفية العمل به، كما قال عز وجل للرسول ﷺ: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ﴾ [القيامة: ١٦-١٩]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [الدخان: ٥٨].

وصدَّر ـ عز وجل ـ نعمه على الخلق بقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ لأن تعليم القرآن أعظم نعمة أنعم الله بها على الخلق إذ بسبب ذلك يعرف الإنسان الحق ويتبعه بإذن الله عز وجل فيكون ممن أنعم الله عليهم النعمة الكبرى، وهي أعظم رحمة رحم الله عز وجل بها الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فَعِلْمُ كتاب الله ـ عز وجل ـ هو أجل العلوم وأعظمها وأشملها، بل هو أصل العلوم كلها، وبه سعادة الإنسان في دينه ودنياه وآخرته.

ومع أن نعمة الخلق سابقة على نعمة تعليم القرآن، فإن نعمة تعليم القرآن لا يعادلها نعمة، بل هي أعظم وأكبر النعم، وهي النعمة الحقة، قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ [النساء: ٦٩]. وقال تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧].

فالنعمة الكبرى والمنة العظمى على العبد أن يوفق لمعرفة الحق والعمل به؛ للعلم النافع والعمل الصالح، فلا يضيره ما فقد من النعم سوى ذلك، ومن فقد هذه النعمة فلا ينفعه سواها من النعم ولو حيزت له الدنيا بحذافيرها فانتبه لهذا، وفقك الله.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ أي: أوجد الإنسان وأنشأه من العدم، كما قال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾ [الإنسان: ١]. أي: قد أتى عليه ﴿حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا﴾، بل كان عدمًا، وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٦٧].

وأصل الخلق التقدير، ثم الإيجاد والإنشاء والمراد بـ (الإنسان): جنس الإنسان، وذلك بخلق آدم وإيجاده من التراب والطين قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون: ١٢].

فمن أكبر نعم الله على الإنسان أن الله خلقه وأوجده من العدم، وجعل صورته على أحسن صورة كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار: ٦-٨].

وقدَّم ـ عز وجل ـ ذكر الإنسان، وخصه بالذكر هنا مع أنه عز وجل خلق جميع المخلوقات تذكيرًا له بنعم الله عز وجل عليه، لأنه هو المكلَّف.

﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ أي: علمه الإفصاح والإبانة عما في نفسه وقلبه بواسطة النطق باللسان، أو الكتابة باليد والبنان، وأيضا علمه تَبيُّن وفهم ما يقال له بما أعطاه الله من سمع وعقل وفهم، بخلاف سائر الحيوانات فإنها لا تفصح ولا تبين عما في نفسها؛ ولهذا سميت بهيمة كما قيل:

بهيمة مسكينة تشكو ولا تُبينُ
لسانها مقطوع ولا لها دموع

ولا شك بأن نعمة النطق من أعظم نعم الله عز وجل على الإنسان، ويعرف ذلك حقيقة المعرفة الأبكم الذي فقد هذه النعمة، فتراه يعمل كل وسيلة للتعبير عما في نفسه ولكن هيهات، وكما قيل: «الصحة تاج على رؤوس الأصحاء لا يراه إلا المرضى» فلله الحمد والمنة على هذه النعمة وعلى سائر النعم.

وقيل المراد بـ (البيان) في الآية: بيان الخير والشر، أي: بيان طريق الخير والشر، كما قال تعالى: ﴿وَهَدَيْنَٰهُ ٱلنَّجْدَيْنِ﴾ [البلد: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: ٣].

وقد حسَّن ابن كثير[(١)] القول الأول وقواه، وقال: «لأن السياق في تعليمه تعالى القرآن وهو أداء تلاوته، وإنما يكون ذلك بتيسير النطق على الخلق وتسهيل خروج الحروف من مواضعها من الحلق واللسان والشفتين، على اختلاف مخارجها وأنواعها».

وأيضًا فإنه لا تنافي بين القولين؛ لأن تعليم القرآن والإبانة بنطقه فيه بيان الخير والشر.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٤.

قال ابن القيم[1] في كلام له على قوله ـ تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ ۝﴾ قال: «دلت هذه الكلمات على إعطائه سبحانه مراتب الوجود بأسرها، فقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ إخبار عن الإيجاد الخارجي العيني، وقوله: ﴿عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ إخبار عن إعطاء الوجود العلمي الذهني، فإنما تعلم الإنسان القرآن بتعليمه، كما أنه صار إنسانًا بخلقه، فهو الذي خلقه وعلمه، ثم قال: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ والبيان هنا يتناول مراتب ثلاثاً كل منها يسمى بيانًا، أحدها: البيان الذهني الذي يميز فيه بين المعلومات. الثاني: البيان اللفظي الذي يعبر به عن تلك المعلومات، ويترجم عنها فيه لغيره. الثالث: البيان الرسمي الخطي، الذي يرسم به تلك الألفاظ، فيتبين للناظر معانيها، كما يتبين للسامع معاني الألفاظ. فهذا بيان للعين، وذاك بيان للسمع، والأول بيان للقلب، وكثيراً ما يجمع سبحانه بين هذه الثلاثة، كقوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝﴾ [النحل: ٧٨]. ويذم من عدم الانتفاع بها في اكتساب الهدى والعلم النافع، كقوله: ﴿صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ﴾ [البقرة: ١٨]، وقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧]».

﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ أي: أن من نعم الله عز وجل على الخلق أن خلق سبحانه الشمس والقمر وجعلهما يجريان متعاقبين ﴿بِحُسْبَانٍ﴾ أي: بحساب دقيق متقن مقدر مقنن لا يختلف ولا يضطرب، كما قال عز وجل: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦]، وقال عز وجل: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٤٠].

وإن المتأمل في بروج الشمس والقمر، وفي مطالعهما وفي مغاربهما وما هي عليه من الدقة العجيبة المتناهية التي تحير العقول والألباب يرجع من ذلك بالاعتراف والإقرار بعظمة الخالق سبحانه وتعالى وعظيم فضله ونعمه على العباد، لما في ذلك من

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢١ ـ ٣٢٢.

قيام مصالحهم، في أبدانهم ومواشيهم، وزروعهم وحروثهم، ومعرفتهم عدد السنين والحساب، وغير ذلك من المنافع التي لا تُحصى.

﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ﴾ الواو: عاطفة و«النجم»: جنس النجوم والكواكب التي في السماء، و«الشجر»: ما قام على ساق من النباتات كالنخيل وغيرها وقد يشمل سائر النباتات، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ١٨]، فذكر النجوم التي هي الكواكب، وعطف عليها الشجر وهذا يقوي أن المراد بالنجم في قوله: «والنجم» الذي في السماء.

وقد روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس أن المراد بالنجم: «ما انبسط على وجه الأرض من النبات»[1]، فيكون على هذا المراد بالنجم: ما انبسط على وجه الأرض من النبات مما ليس له ساق، والمراد بالشجر: ما له ساق وبه قال جمع من المفسرين.

والمراد بسجود النجم والشجر: ما يشمل انقيادهما لله عز وجل فيما خُلقا له من مصالح عباده وغير ذلك، ودلالتهما على وجوده وقدرته التامة، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وسجودهما سجوداً حقيقياً، وتسبيحهما بحمده وإن كنا لا نعقل كيفية ذلك، كما قال عز وجل: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: ٤٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلطَّيْرُ صَٰٓفَّٰتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ﴾ [النور: ٤١]، فكل المخلوقات تسجد لله ـ عز وجل ـ وتسبحه وتعبده؛ إنسها وجنها، ناطقها وبهيمها حتى الجمادات عدا كثير من الناس، كما قال عز وجل: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ وَٱلنُّجُومُ وَٱلْجِبَالُ وَٱلشَّجَرُ وَٱلدَّوَآبُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ ثم استثنى فقال: ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ ٱلْعَذَابُ﴾ [الحج: ١٨].

أي: وكثير من الناس حق عليه العذاب فلم يسجد لله سجود طاعة وإيمان.

فيا سبحان الله، جميع المخلوقات تسجد لخالقها حتى البهيم منها والجماد ـ مع أنها لم تكلف ولا عقل لها ولا إدراك ما عدا كثير من الناس، مع ما مَنَّ الله به عليهم

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٧٤.

من العقل والإدراك والتفضيل على سائر المخلوقات.

﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: والسماء رفعها فجعلها سقف المخلوقات الأرضية، كما قال عز وجل: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ [الرعد:٢]، فهي مرفوعة بغير عمد، وقيل: بعمد لا تُرى. وقال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧)﴾ [النازعات: ٢٧].

﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ الميزان في الأصل أداة الوزن والعدل الحسي، كما قال أبو طالب[1]:

بميزان عدل لا يُخيس شعيرة ... له شاهد من نفسه غير عائل

ومعنى قوله: ﴿وَوَضَعَ الْمِيزَانَ﴾ أي: أقام العدل وأوجبه بين العباد في الأقوال والأفعال وبسطه وأنزله، كما قال عز وجل: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ [الحديد: ٢٥].

﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ أي: لئلا تطغوا في الميزان، والطغيان: الزيادة وتجاوز الحد، أي: لئلا تزيدوا وتتجاوزوا الحق والعدل في الوزن.

﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ﴾ أي: أقيموا الوزن بالعدل، أي: اجعلوا الوزن بينكم قائمًا بالعدل بلا اعوجاج في ذلك حسب مقدرتكم وإمكانكم في الأمور الحسية والمعنوية، في الأقوال والأفعال فيما لكم وفيما عليكم.

فهو عز وجل وضع العدل وأنزله، وبه خلق السموات والأرض، وأقام عليه أمر الدنيا والآخرة، وأمر به وأوجب على الناس القيام به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾ [الأنعام:١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ [الشعراء: ١٨٢]، وقال تعالى: ﴿۞ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا

---

(١) في قصيدته اللامية المشهورة والتي أخبر فيها أشراف قومه وغيرهم أنه غير مُسلِّم رسول الله ﷺ، ولا تاركه لشيء أبدًا، حتى يهلك دونه والتي مطلعها:

ولما رأيت القوم لا ود فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل

انظر «جامع البيان» ٦/ ٣٧٧ ـ ٣٧٨، «السيرة النبوية» لابن هشام ١/ ٢٩١ ـ ٢٩٩.

تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ﴾ [المائدة: ٨].

﴿وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ﴾ أي: ولا تنقصوا الوزن وتبخسوا الميزان، فتجوروا وتظلموا، بل زنوا بالحق والقسط والعدل كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَبۡخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشۡيَآءَهُمۡ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ۝٨٥﴾ [هود: ٨٥].

وما أصعب العدل والإنصاف من النفس إلا على من وفقه الله عز وجل.

وكم من حقوق ضاعت؛ بسبب الظلم والخروج عن العدل، وبسبب المداهنة في قول الحق والشهادة به، وكم من مدعٍ للدين والتقوى والورع ممن يُهمهم بقوله بلسانه: يا الله التوبة ولكنه لا ينصف الناس من نفسه ولا يرضى بالعدل ولا يقبله على نفسه ولا على أقاربه وذويه ومن تربطه بهم علاقات مادية أو غيرها، وليس الدين بالتحلي، ولا بالتمني، ولا بالهمهمة، ولكنه ما وقر في القلوب وصدقته الأعمال، كما قال الحسن البصري ـ رحمه الله ـ : «ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل»[(١)].

ولقد وصل الحال بالكثيرين أن يعتبروا التحايل على الحقوق وترك العدل والإنصاف مهارة وحنكة ودهاء، فإذا ما رأوا إنسانًا يقول الحق وينصف الناس من نفسه انتقدوه ورموه بالمسكنة وخفة العقل.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ﴾ أي: أنزلها بالنسبة للسماء، ومهدها وفرشها وبسطها وذللها، وأرساها بالجبال الراسيات؛ لأجل الأنام وهم الخلائق ليعيشوا عليها ويستخرجوا من خيراتها ويسلكوا سبلها، كما قال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ۝١٥﴾ [الملك: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩-٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلۡأَرۡضَ فَرَشۡنَٰهَا فَنِعۡمَ ٱلۡمَٰهِدُونَ﴾ [الذاريات: ٤٨].

وهذا من أعظم نعم الله عز وجل على الخلق أن جعل الأرض بهذه المثابة موطأة

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

سهلة للجلوس والبناء والسير عليها وحرثها وزراعتها واستخراج خيراتها ومعادنها.

﴿فِيهَا فَٰكِهَةٞ﴾ أي: في الأرض فاكهة، أي جنس الفاكهة على اختلاف أنواعها وأشكالها وألوانها وطعومها وروائحها من العنب والتين والرمان والبرتقال والتفاح وغير ذلك.

والفاكهة: هي كل ما يتفكه به الناس، والتفكه: الإعجاب بالشيء والسرور والتلذذ به، وطيب النفس والبال، وما ينشأ عنه من المرح ونعيم القلب.

﴿وَٱلنَّخۡلُ﴾ أي: وفيها شجر النخل التي ثمرها من أطيب وأنفع الثمار، وخصه بالذكر مع أنه مما يتفكه به لكثرة فوائده ونفعه، رطبًا ويابسًا. ولهذا قال ﷺ: «إن من الشجر شجرة مثلها مثل المؤمن النخلة»(١).

﴿ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ﴾ الأكمام: جمع «كِمْ»، والمراد بها: أوعية الطلع، وهو ما يسمى بـ(الكفر) أو (الكافور)، يخرج الطلع أول ما يخرج بداخل هذا الوعاء، ثم ينشق هذا الوعاء عن الطلع ويلقح، ثم يأخذ بالنمو شيئًا فشيئًا فيكون بسرًا ثم رطبًا، ثم تمرًا يابسًا.

وقيل المراد (بالأكمام): الليف الذي على عنق النخلة، وحمله بعضهم على ذلك كله.

والتمر غذاء كامل فيه كل ما يحتاجه الجسم، وقد كان ﷺ يمر عليه الشهر والشهران والثلاثة، لا يوقد في بيته نار، فسئلت عائشة رضي الله عنها: ما طعامكم؟ فقالت: «الأسودان التمر والماء»(٢).

وعنها رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، يا عائشة بيت لا تمر فيه جياع أهله، أوجاع أهله، قالها مرتين أو ثلاثا»(٣).

﴿وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ﴾ الحب: جنس الحبوب، من القمح والشعير والذرة والأرز والدخن ونحو ذلك، وقرن الحب بالنخل؛ لأن كلاً من ثمر النخل والحبوب بأنواعها من أهم الأغذية وكل منها غذاء كامل بنفسه وقدَّم النخل ـ والله أعلم ـ لكثرة منافعه ولأن ثمره يؤكل مباشرة بلا كلفة، بخلاف الحب فيحتاج بعد استوائه

---

(١) سبق تخريجه.

(١) أخرجه البخاري في الهبة وفضلها ٢٥٦٧، ومسلم في الزهد والرقائق ٢٩٧٢، من حديث عائشة ـ رضي الله عنها.

(٣) أخرجه مسلم في الأشربة ٢٠٤٦، وأبو داود في الأطعمة ٣٨٣١، والترمذي في الأطعمة ١٨١٥، وابن ماجه في الأطعمة ٢٣٢٧.

وحصاده إلى دياس وتطييب وطحن وعجن وخبز ونحو ذلك.

والعصف: التبن الذي يتحصل من ورق الزرع وقشره وسيقانه بعد يبسه وحصاده، وبعد أن تطأه البهائم وتدوسه بأقدامها حتى ينعصف فيصير قطعاً صغيرة، أو بعد أن يعصف بالآلات الحديثة.

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف ﴿والريحانِ﴾ بالجر عطفًا على (العصف) وقرأ الباقون بالضم.

﴿وَالرَّيْحَانُ﴾ أي: النبات ذو الرائحة الطيبة الزكية، وقيل: هو خضر الزرع، وقيل: هو الرزق والطعام.

والذي يظهر من السياق ـ والله أعلم ـ أن المراد بـ (الريحان): هو النبت ذو الرائحة الطيبة، كما قال الحسن: «وهو ريحانكم هذا»[1].

ولما ذكر عز وجل جملة من نعمه التي تشاهد بالأبصار والبصائر، وكان الخطاب للثقلين الجن والإنس قررهما تعالى بنعمه فقال:

﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ الفاء: رابطة لجواب شرط مقدر، و«بأي»: استفهام معناه التحدي، و(آلاء) أي: نعم قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿فَاذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْاْ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ﴾ [النجم: ٥٥].

وقد دلت النصوص من الكتاب والسنة على أن الجن مكلفون كالإنس، كقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وعلى هذا أجمع أهل العلم[2]، لكن قال بعض أهل العلم: لا يلزم أن يكون الجن مكلفين بكل ما كلف به الإنس بالنسبة لفروع الشريعة.

﴿تُكَذِّبَانِ﴾ التكذيب: اعتقاد أن الشيء المذكور أو المقول خلاف الواقع، والتكذيب بالنعم بمعنى كفرها وعدم شكرها، ونسبتها إلى غير مسديها.

والمعنى: فبأي نعمة من نعم ربكما أيها الثقلان تكذبان، أي: لا تستطيعان

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٨٧.

(٢) وقد عقد البخاري في كتاب بدء الخلق من صحيحه باباً في ذكر الجن وثوابهم وعقابهم. انظر «فتح الباري» ٦/ ٣٩٥، وانظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٢، ٣٢٩ ـ ٣٣٧، «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٧٧.

التكذيب بنعمة من نعمه عز وجل عليكما، بنفي كونها من عنده سبحانه وتعالى، أي: أن نعمه عز وجل ظاهرة عليكم وأنتم مغمورون بها، ولا تستطيعون إنكارها ولا جحودها وصدق الله العظيم: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]. ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وعن عروة بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: «ذكرت الطيرة عند النبي ﷺ، فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلماً، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[1].

وعن جابر بن عبد الله ـ رضي الله عنه ـ قال: خرج رسول الله ﷺ على أصحابه، فقرأ عليهم سورة «الرحمن» من أولها إلى آخرها فسكتوا فقال: «لقد قرأتها على الجن ليلة الجن، فكانوا أحسن مردوداً منكم، كنت كلما أتيت على قوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣﴾ قالوا: لا بشيء من نعمك ربنا نكذب، فلك الحمد»[2].

وكان ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ يقول: «لا. بأيها يارب»[3] أي: لا نكذب بشيء منها.

قال ابن كثير [4]: «فنحن نقول كما قالت الجن المؤمنون: اللهم ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب فلك الحمد».

وقال السعدي [5]: «وهكذا ينبغي للعبد إذا تليت عليه نعم الله وآلاؤه أن يقر بها ويشكر ويحمد الله عليها».

ويذكّر ـ عز وجل ـ في هذه السورة العظيمة بالعديد من نعمه على الثقلين في الدنيا والآخرة، مردفاً ذلك بالتحدي بعدم إمكانية التكذيب بشيء من هذه النعم بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ وذلك تذكير للجن والإنس بنعمه عز وجل وامتنان بها عليهما، وحث لهما على شكره ـ عز وجل ـ على هذه النعم بنسبتها إليه وحده واستعمالها في

---

(١) أخرجه أبو داود في الطب ٣٩١٩.
(٢) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الرحمن ٣٢٩١، وأخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٩٠ من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ١٨٩ ـ ١٩١.
(٤) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٦.
(٥) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٤٨.

طاعته، والاستعانة بها على فعل أوامره وترك نواهيه، وتكريمها وعدم إهانتها.

وفي هذا التذكير من الله عز وجل للثقلين بنعمه ووجوب شكرها أعظم الفائدة لمن أنار الله بصيرته ووفقه في دينه وهدى قلبه فعظَّم ربه، وقدَّر نعمه، فرجع بالإكبار والتعظيم لربه ـ عز وجل ـ ولنعمه مردداً عند كل آية من هذه الآيات قوله: ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد.

وقد قال ﷺ: «إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة فيحمده عليها، ويشرب الشربة فيحمده عليها»[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الرحمن» وما تضمنه من إثبات صفة الرحمة الذاتية والفعلية لله ـ عز وجل ـ والرحمة العامة والرحمة الخاصة.

٢ ـ أن كل ما يتمتع به الخلق من النعم هو من آثار رحمة الله عز وجل.

٣ ـ أن أعظم نعمة أنعم الله بها على الخلق إنزال القرآن وتعليمه.

٤ ـ أن من أعظم نعم الله على الإنسان خلقه وتعليمه البيان والإفصاح عما في نفسه، وبيان طريق الحق له.

٥ ـ تمام قدرة الله ـ عز وجل ـ وعظيم نعمه على عباده في إيجاد الشمس والقمر، وجريانهما بحساب دقيق، وخلق النجوم والأشجار، ورفع السماء، وانقياد هذه المخلوقات لأمر الله ـ عز وجل ـ وما فيها من مصالح العباد.

٦ ـ وجوب العدل في الأقوال والأعمال، والوزن بالقسط، وتحريم الزيادة في ذلك والنقصان، لأن الله عز وجل أمر به وأقام عليه أمر السموات والأرض وأمر الدنيا والآخرة.

٧ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ على الخلق ببسط الأرض لهم وإخراج خيراتها لهم من الفواكه والنخل والحبوب والريحان وغير ذلك.

٨ ـ تقرير الثقلين الإنس والجن بنعم الله ـ عز وجل ـ العظيمة عليهما التي لا يستطيعان تكذيبها وإنكارها.

٩ـ أن الجن مخاطبون بالقرآن كالإنس.

١٠ ـ إثبات ربوبية الله العامة للثقلين.

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر ٢٧٣٤، والترمذي في الأطعمة ١٨١٦ من حديث أنس رضي الله عنه.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۝١٥ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٦ رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ ۝١٧ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٨ مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢١ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٢٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٣ وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ۝٢٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٢٥﴾.

قوله ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلْجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾.

أي: أن من نعمه عز وجل على الثقلين إيجادهما وإنشاؤهما من العدم، وذلك بإيجاد آدم أبي الإنس ﴿مِن صَلْصَٰلٍ﴾ أي: من طين مبلول قد أحكم بله وأتقن حتى جف فصار له صلصلة وصوت ﴿كَٱلْفَخَّارِ﴾ أي: يشبه صوت الفخار وهو الطين المشوي كما قال عز وجل ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات: ١١].

وإيجاد إبليس أبي الجن ﴿مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ﴾ أي: من لهب صاف لا دخان فيه. وفرقٌ ما بين عنصر الآدمي المخلوق من الطين والتراب الذي هو محل الرزانة والثقل والمنافع وبين عنصر الجان، وهو النار التي هي محل الخفة والطيش والشر والفساد.

عن عائشة رضي الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»[١].

ونعمة الخلق من أفضل وأعظم النعم، ولهذا قال بعد ذكرها ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ أي: فلا يمكن التكذيب بنعمة الخلق، وأن الخالق هو الله عز وجل وحده، ولا بغيرها من النعم قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥﴾ [الطور: ٣٥].

﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ ٱلْمَغْرِبَيْنِ﴾ «رب» بمعنى خالق ومالك ومدبر و (المشرقين والمغربين) هما مشرقا الشمس ومغرباها في الشتاء والصيف، ففي الشتاء تشرق الشمس من أقصى الجنوب وفي الصيف من أقصى الشمال. وأيضا مشرقا القمر والنجوم ومغرباهما.

قال ابن القيم[٢]: «وحيث ثنيا كان المراد مشرقي صعودها وهبوطها أو مغربيهما،

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد ـ باب في أحاديث متفرقة ٢٩٩٦، وأحمد ٦/ ١٦٨.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤.

فإنها تبتدئ صاعدة حتى تنتهي إلى غاية أوجها وارتفاعها، فهذا مشرق صعودها، وينشأ منه فصلا الخريف والشتاء. فجعل مشرق صعودها بجملته مشرقاً واحداً ومشرق هبوطها بجملته مشرقاً واحداً ويقابلهما مغرباها».

وجمع المشارق في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِرَبِّ ٱلۡمَشَٰرِقِ وَٱلۡمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ٤٠] باعتبار اختلاف مشارق الشمس ومغاربها وتنقلها كل يوم في هذه البروج وهي متعددة لأنها تشرق كل يوم وتغرب من غير المكان الذي أشرقت وغربت منه بالأمس.

وقال تعالى: ﴿رَّبُّ ٱلۡمَشۡرِقِ وَٱلۡمَغۡرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلٗا﴾ [المزمل: ٩]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُ﴾ [البقرة: ١١٥] والمراد هنا جهة وأفق المشرق والمغرب.

وجاء في هذه السورة سورة الرحمن بالتثنية ﴿رَبُّ ٱلۡمَشۡرِقَيۡنِ وَرَبُّ ٱلۡمَغۡرِبَيۡنِ﴾ لأن سياق هذه السورة سياق المثاني المزدوجات في كثير من آياتها كما في قوله ﴿ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ۝٥ وَٱلنَّجۡمُ وَٱلشَّجَرُ يَسۡجُدَانِ ۝٦ وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلۡمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطۡغَوۡاْ فِي ٱلۡمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُواْ ٱلۡوَزۡنَ بِٱلۡقِسۡطِ وَلَا تُخۡسِرُواْ ٱلۡمِيزَانَ ۝٩ وَٱلۡأَرۡضَ وَضَعَهَا لِلۡأَنَامِ ۝١٠ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَٱلنَّخۡلُ ذَاتُ ٱلۡأَكۡمَامِ ۝١١ وَٱلۡحَبُّ ذُو ٱلۡعَصۡفِ وَٱلرَّيۡحَانُ ۝١٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝١٣ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ ۝١٤ وَخَلَقَ ٱلۡجَآنَّ مِن مَّارِجٖ مِّن نَّارٖ ۝١٥﴾ إلى أن قال: ﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ يَلۡتَقِيَانِ ۝١٩﴾ إلى غير ذلك من ذكر الشيء وما يقابله في كثير من آيات هذه السورة إلى آخرها.

واختلاف المشارق والمغارب من أعظم نعم الله عز وجل وأكبرها لما يترتب على ذلك من اختلاف الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال، وما في ذلك من مصالح الخلق الجن والإنس والحيوان والنبات وغير ذلك ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي: أجراهما وأرسلهما في مجاريهما، وهما العذب الحلو كمياه الآبار والأنهار والعيون. والملح المر كمياه البحار والمحيطات، قال عز وجل: ﴿۞ وَهُوَ ٱلَّذِي مَرَجَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا﴾ [الفرقان: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَمَا يَسۡتَوِي ٱلۡبَحۡرَانِ هَٰذَا عَذۡبٞ فُرَاتٞ سَآئِغٞ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلۡحٌ أُجَاجٞ﴾ [فاطر: ١٢].

﴿يَلۡتَقِيَانِ﴾ أي: يلتقي أحدهما بالآخر، وقيل يتجاوران.

﴿بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٞ﴾ كقوله في سورة الفرقان ﴿وَجَعَلَ بَيۡنَهُمَا بَرۡزَخٗا وَحِجۡرٗا مَّحۡجُورٗا ۝٥٣﴾ [الآية: ٥٣].

والبرزخ: الحاجز، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾[النمل: ٦١]، وهو ما يفصل بين الشيئين، ومنه البرزخ بين الدنيا والآخرة.

والمعنى: بين هذين البحرين العذب والملح حاجز من اليابس من الأرض، أو حاجز من قدرة الله عز وجل غير مرئي للبشر، كما يوجد في بعض المواضع اختلاط العذب والملح في مجرى واحد، ولا يمتزج أحدهما بالآخر.

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله أن هذا محقق الوقوع في بعض البلاد، ومن المواضع التي هو واقع فيها محل اختلاط نهر السنغال بالمحيط الأطلسي بجانب مدينة سانلويس، فقد ذكر الشنقيطي أنه زار هذه المدينة سنة ١٣٦٦هـ وأن أحد المرافقين الثقات أخبره أنه جاء إلى محل اختلاطهما، وأنه جلس يغرف بإحدى يديه عذباً فراتاً، وبالأخرى ملحاً أجاجاً، والجميع في مجرى واحد، لا يختلط أحدهما بالآخر[١].

﴿لَّا يَبْغِيَانِ﴾ أي: لا يبغي أحدهما على الآخر، ولا يطغى عليه، فيزيل صفته المقصودة منه مع التقائهما، بل يبقى كل منهما على صفته وخاصيته ومنافعه. فالعذب منه يشرب الناس ويسقون أشجارهم وزروعهم وحروثهم، والملح به يطيب الهواء ويتولد الحوت والسمك، واللؤلؤ والمرجان، ويكون مستقراً مسخراً للسفن والمراكب.

فمع كثرة الماء في الأرض، وكون نسبة اليابس إلى الماء أقل من الربع، ومع كثرة المياه المالحة، وهي مياه البحار والمحيطات لا يطغى الماء على اليابس، ولا يطغى الملح على العذب، ولا يختلط العذب بالملح بما جعله الله عز وجل بينهما من هذا الحاجز، سواء كان من اليابس من الأرض، أو من قدرة الله عز وجل، والكل من قدرة الله عز وجل، ولهذا فإننا نشاهد اختلاف مياه الآبار مع استوائها في العمق وتقاربها بحيث لا يبعد بعضها عن بعض إلا بضعة أمتار وبعضها عذب، وبعضها ملح، فسبحان العليم القدير.

وفي إيجاد هذين البحرين العذب والملح، وتسخيرهما لجريان الفلك، وما يستخرج منهما من المياه والحيوان والحلية والمعادن وغير ذلك من المنافع، وعدم اختلاط أحدهما بالآخر، مع التقائهما، ليبقى كل منهما على خاصيته ومنافعه، كل ذلك فيه دلالة على عظم قدرة الله عز وجل، ومن أعظم نعمه عز وجل على الثقلين ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) انظر «أضواء البيان» ٦/ ٣٣٨ - ٣٣٩.

﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ قرأ بعض القراء (يُخرَج) بضم الياء وفتح الراء، وقرأ الباقون بفتح الياء وضم الراء.

﴿مِنْهُمَا﴾ أي: من البحرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [فاطر: ١٢].

وظاهر قوله ﴿مِنْهُمَا﴾ بالتثنية، وقوله في الآية الثانية ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ يدل على أن اللؤلؤ والمرجان والحلية تستخرج من البحرين العذب والمالح.

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن الحلية إنما تستخرج من المالح دون العذب.

قال ابن كثير[1]: «وقوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ أي من مجموعهما، فإذا وجد ذلك لأحدهما كفى كما قال تعالى ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل إنما كانوا في الإنس خاصة دون الجن، وقد صح هذا الإطلاق».

وهذا التعبير ـ وإن كان موجوداً في القرآن الكريم وفي لغة العرب ـ فإن الأولى حمل التثنية في الآيتين على ظاهرها وبخاصة إذا تحقق استخراج الحلية من العذب كما ذكر بعض أهل العلم.

قال الشنقيطي[2]: «اعلم أن جماعة من أهل العلم قالوا: إن المراد بقوله في هذه الآية ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ أي: من مجموعهما الصادق بالبحر الملح، وأن الآية من إطلاق المجموع وإرادة بعضه، وأن اللؤلؤ والمرجان يخرجان من البحر الملح وحده دون العذب وهذا القول الذي قالوه في هذه الآية مع كثرتهم وجلالتهم لاشك في بطلانه لأن الله صرح بنقيضه في سورة فاطر، ولا شك أن كل ما ناقض القرآن فهو باطل، وذلك في قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ [الآية: ١٢]، فالتنوين في قوله ﴿وَمِن كُلٍّ﴾ تنوين عوض، أي: من كل من العذب والملح ﴿تَأْكُلُونَ لَحْمًا

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٨.
(٢) في «أضواء البيان» ٧/ ٧٤٨، وانظر ٢/ ٢١١.

طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ وهي اللؤلؤ والمرجان وهذا مما لا نزاع فيه»[١].

وبهذا نعلم أن الجمهور رحمهم الله حملوا الآية على المعنى الذي اختاروه، لما ثبت عندهم واشتهر وعرف من أن الحلية إنما تستخرج من الملح دون العذب، فقالوا بما علموا، وحملوا الآية على تقدير وارد في القرآن وفي لغة العرب، لكن إن ثبت استخراج الحلية من العذب فإن الأولى حمل التثنية في الآيتين على ظاهرها.

وقد قيل: إن «من» في قوله ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا﴾ للسببية، أي: يخرج بسببهما اللؤلؤ والمرجان، وذلك أن الماء العذب كاللقاح للماء الملح في إخراج اللؤلؤ، كما يتولد الولد من الذكر والأنثى، ولهذا يوجد اللؤلؤ حيث مصبات الأنهار في البحار.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إذا أمطرت السماء، فتحت الأصداف في البحر أفواهها، فما وقع فيها من قطر فهو اللؤلؤ»[٢].

واللؤلؤ: الدر، والمرجان: الخرز الأحمر، وقال بعضهم: المرجان: صغار الدر، واللؤلؤ: كباره.

قال ابن كثير [٣]: «ولما كان اتخاذ هذه الحلية نعمة على أهل الأرض امتن الله بها عليهم فقال: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ﴾ أي: وله عز وجل السفن الجارية.

﴿ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ﴾ قرأ حمزة (المنشِآت) بكسر الشين، وقرأ الباقون بفتحها.

والمنشآت: جمع منشأة، وهي المرفوعات الشرع، التي أنشأها صانعوها وأصحابها لركوب البحر، والتي تنشأ وتجري في البحر وتمخر عبابه مقبلة ومدبرة، منتقلة في البحر من جانب إلى آخر ومن ساحل إلى آخر.

---

(١) وقد علق ابن الشنقيطي على كلام والده هذا بما يؤيده بما نقله عن دائرة المعارف المصرية في عددها ٧٣ صفحة ٥٣٧ ما نصه: «وأنواع المحار كلها قد تنتج اللؤلؤ، ولكنه يوجد غالباً في أنواع معينة منها، فلقد عثر مثلاً على لآلئ رائعة الجمال في محار المياه العذبة الذي يعيش في بريطانيا، وخاصة أنهار «ويلز»، و«اسكتلندا» وأشهر لؤلؤة منها عثر عليها في نهر «كونواي» في القرن السابع عشر، أهداها أحد نبلاء الإنجليز إلى الملكة «كاترين» زوجة «شارل الثاني». وما زالت محفوظة ضمن مجوهرات التاج البريطاني في برج لندن، ولا يزال الأهالي يقتنون المحار عند مصب هذا النهر.. »

انظر «أضواء البيان» ٧/ ٧٤٨ - ٧٤٩ الحاشية.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٠٨ - ٢٠٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٤ الأثران ١٨٧٣٣، ١٨٧٣٤، وقال ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩: «إسناده صحيح».

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

﴿كَٱلْأَعْلَٰمِ﴾ الأعلام: جمع علم، وهو الجبل، فالأعلام الجبال، قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به   كأنه علم في رأسه نار [١]

والمعنى: أن هذه السفن في كبرها وعظمتها كالجبال، وقيل كالقصور.

وهذا أمر يشاهده الناظر من بعد إلى هذه السفن الكبيرة، وهي تجري في البحر مقبلة أو مبحرة، أو راسية.

وفي جريان هذه السفن على ظهر البحر مع عظمها وكبرها، وما تحمله من الناس والحيوان والبضائع، مما فيه صلاح أحوال الناس ومعاشهم من النعم العظيمة ما لا يخفى كما قال تعالى ﴿وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى ٱلْبَحْرِ بِأَمْرِهِۦ﴾ [إبراهيم: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱلْفُلْكَ تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِنِعْمَتِ ٱللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ ءَايَٰتِهِۦٓ﴾ [لقمان: ٣١]، ولهذا قال هنا ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والعبر:

١ ـ تمام قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق الإنس والجن مع اختلاف عنصريهما، وتقريرهما بنعمة الله عليهما في ذلك.

٢ ـ إكرام الله ـ عز وجل ـ للإنس بجعل عنصر خلقهم وأصله من الطين والتراب الذي يفضل مارج النار الذي خلق منه الجن.

٣ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ للمشرقين والمغربين والإشارة لقدرة الله ـ عز وجل ـ ونعمه فيهما لما في اختلافهما من المنافع، وتقرير الثقلين بذلك.

٤ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ العظيمة في إيجاد البحرين العذب والمالح وتسخيرهما ومنع اختلاطهما، وما فيهما من المنافع وتقرير الثقلين بذلك.

٥ ـ نعمة الله ـ عز وجل ـ في إخراج اللؤلؤ والمرجان من البحار حلية للناس يلبسونها.

٦ ـ عظم قدرة الله ـ عز وجل ـ وتمام نعمته في جعل السفن الكبيرة تجري على ظهر الماء وما في ذلك من المنافع التي لا تحصى، وتقرير الثقلين بذلك.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) انظر «ديوان الخنساء» ص٤٠.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٨) يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠)﴾.

قوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ «من» اسم موصول، والضمير في «عليها»، يعود إلى الأرض، وقد سبق ذكرها في قوله ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ (١٠)﴾.

قال ابن القيم[1]: «ولم يقل «فيها» لأن عند الفناء ليس الحال حال القرار والتمكين».

والمعنى: كل الذي على الأرض وعلى وجه هذه البسيطة ﴿فَانٍ﴾ أي: هالك ميت ذاهب زائل من الإنس والجن، وسائر الدواب والمخلوقات، حتى السموات والأرض والجبال، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ﴾[إبراهيم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾[طه: ١٠٥ ـ ١٠٧].

قال ابن كثير[2]: «يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون أجمعون، وكذلك أهل السموات إلا من شاء الله».

كما قال تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، وقال تعالى مخاطباً الرسول ﷺ: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] وفي الحديث: «أتاني جبريل فقال: يا محمد عش ما شئت فإنك ميت، وأحبب من شئت فإنك مفارقه»[3].

قال لبيد[4]:

ألا كل شيء ما خلا الله باطل ... وكل نعيم لا محالة زائل

وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

وقال الآخر:

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٣) أخرجه من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه الشيرازي في «الألقاب»، والحاكم في المستدرك، والبيهقي في «شعب الإيمان» وأخرجه أيضاً البيهقي في الشعب عن جابر رضي الله عنه، وأخرجه أبو نعيم في الحلية عن علي رضي الله عنه. وصححه السيوطي، انظر «الجامع الصغير» ٨٩.

(٤) انظر «ديوانه» ص ٢٥٦.

تعز فلا شيء على الأرض باقيا ولا وزر مما قضى الله واقيا [(١)]

﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ أي: ويبقى وجه ربك يا محمد ورب جميع المخاطبين ورب جميع المخلوقات سبحانه وتعالى وهو الحي الذي لا يموت، كما قال عز وجل: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال عز وجل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣]، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٤، آل عمران: ٢]. وفي الدعاء: «ياذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم» [(٢)].

وفي الآية دليل على إثبات الوجه لله عز وجل كما يليق بجلاله وكماله، وعلى أن البقاء له عز وجل وحده، فالمراد ببقاء وجهه عز وجل بقاؤه سبحانه بذاته وجميع صفاته، وإنما يعبر بالوجه لشرفه.

قال الشعبي: «إذا قرأت: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ فلا تسكت حتى تقرأ: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾» [(٣)].

﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ «ذو» بمعنى: صاحب، و«الجلال» العظمة والكبرياء.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾: ذو العظمة والكبرياء» [(٤)].

وقد قال عز وجل في الحديث القدسي: «العظمة إزاري والكبرياء ردائي» [(٥)] قال ابن تيمية [(٦)]: «فجعل الكبرياء بمنزلة الرداء، وهو أعلى من الإزار».

﴿وَٱلْإِكْرَامِ﴾ الفضل التام والجود الواسع، والعطاء الجزيل، الخاص بأوليائه، والعام لجميع الخلق، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، وقال تعالى: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ

---

(١) البيت بلا نسبة في «أوضح المسالك» ١/ ٢٨٩، «شرح الأشموني» ١/ ٢٤٧.

(٢) أخرجه أبو داود في الصلاة ١٤٩٥، والنسائي في السهو ١٣٠٠، والترمذي في الدعوات ٣٥٤٤، وابن ماجه في الدعاء ٣٨٥٨ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٦٩.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٨.

(٥) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٦٢٠، وأبو داود في اللباس ٤٠٩٠، وابن ماجه في الزهد ٤١٧٤ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه وأخرجه مسلم أيضاً من حديث أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه.

(٦) في «مجموع الفتاوى» ٥/ ٥٦.

هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾ [الإسراء: ٢٠]. وهو عز وجل يُكرم ويجود ويتفضل، ويُكرَم بتعظيمه وطاعته، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَهْلُ ٱلتَّقْوَىٰ وَأَهْلُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾[المدثر: ٥٦] أي: أهل أن يُتقى وأهل أن يغفر.

قال ابن كثير[1]: «وقد نعت تعالى وجهه الكريم في هذه الآية الكريمة بأنه ﴿ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٢٧﴾﴾ أي: هو أهل أن يجل فلا يعصى، وأن يطاع فلا يخالف، كقوله: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: ٢٨]، وكقوله إخباراً عن المتصدقين: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]».

وفي تساوي أهل الأرض وغيرهم من المخلوقات بالفناء واختصاصه عز وجل بالبقاء والعظمة والكبرياء والجود وواسع العطاء نِعَمٌ من وجوه عدة، منها: المساواة بين الخلق بحيث لا يفلت أحد منهم من هذا الفناء، ولا يتميز أحد عن أحد في هذا، وهذا غاية العدل.

ومنها أن موت الكثيرين وفناءهم راحة لهم من شقاء الحياة وما فيها من المظالم وبخاصة المؤمنين وفي الأثر: «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر»[2].

ومنها: أن في فناء أهل الأرض ومصيرهم إلى الله والدار الآخرة نعمة عظيمة ليحكم فيهم ذو الجلال والإكرام بحكمه العدل ويجازي كلاً بما عمل كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨]. حتى إنه في ذلك اليوم ليقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء[3] وهذا من أعظم النعم أن ترد الحقوق إلى أصحابها ويقتص للمظلومين من الظالمين ويجازى المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته ولهذا قال هنا ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أي: يسأل الله عز وجل من في السموات والأرض من المخلوقات سؤال عبادة وتذلل، وسؤال حاجة وافتقار، وغير ذلك مما يدل على غناه عز وجل عن خلقه وحاجة كل الخلق وافتقارهم إليه سبحانه كما قال عز وجل ﴿وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

و«من» في قوله: ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ موصولة بمعنى «الذي» تفيد العموم، أي:

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٦٩.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقاق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سبق تخريجه.

يسأله عز وجل كل من في السموات والأرض من الملائكة كما قال تعالى عنهم: ﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[غافر: ٧]، ومن الإنس والجن حتى الكفار، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوۡجٞ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[لقمان: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُواْ فِي ٱلۡفُلۡكِ دَعَوُاْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾[العنكبوت: ٦٥]، ومن الحيوانات وسائر المخلوقات بلسان الحال، أو بلسان المقال، أو بهما جميعاً، كل حسب حاله وحسب ما أعطاه الله عز وجل من القدرة على السؤال وألهمه، كما قال عز وجل: ﴿ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]، وقال عز وجل في التسبيح: ﴿وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ﴾ [الإسراء: ٤٤].

﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾. الشأن: الأمر، أي: أنه عز وجل في تدبير ملكه العظيم كل يوم هو في شأن وأمر.

عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي ﷺ في قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ۝٢٩﴾ قال: «من شأنه: أن يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويرفع قوماً ويضع آخرين»[1].

فهو سبحانه وتعالى كل يوم هو في شأن، ولا يشغله سبحانه شأن عن شأن يغفر ذنباً ويفرج كرباً ويرفع قوماً ويضع آخرين ويجيب داعياً ويعطي سائلاً ويشفي مريضاً، ويغيث ملهوفاً ويفك أسيراً، ويطعم جائعاً، ويسقي ظمآن، ويهدي ضالاً، ويرحم ميتاً ويرد غائباً ويقبل تائباً، وينصر مظلوماً ويقهر ظالماً يعز من يشاء، ويذل من يشاء، كما قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

---

(١) أخرجه ابن ماجه في المقدمة باب فيما أنكرت الجهمية ٢٠٢. وأخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٥، الأثر ١٨٧٣٧، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢١٤ من حديث عبد الله بن منيب الأزدي عن أبيه. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٧٠ من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم، ونسب حديث أبي الدرداء لابن عساكر من طرق متعددة. وقد ذكره البخاري في تفسير سورة الرحمن معلقا بصيغة الجزم عن أبي الدرداء ورواه البزار مختصراً من حديث ابن عمر. انظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٧١، «فتح الباري» ٨/ ٦٢٠.

قال ابن القيم[1]: «يغفر ذنباً ويفرج كرباً، ويكشف غماً، وينصر مظلوماً، ويأخذ ظالماً ويفك عانياً، ويغني فقيراً، ويجبر كسيراً، ويشفي مريضاً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلاً، ويذل عزيزاً، ويعطي سائلاً، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقواماً ويضع آخرين، يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصى كتابه، وجرى به قلمه ونفذ فيه حكمه، وسبق به علمه، فهو المتصرف في الممالك كلها وحده، تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة فلا يخرج تصرفه عن ذلك».

وقال أيضاً: «يغفر ذنباً ويفرج هماً، ويكشف كرباً، ويجبر كسيراً، ويغني فقيراً، ويعلم جاهلاً، ويهدي ضالاً، ويرشد حيران، ويغيث لهفان، ويفك عانياً، ويشبع جائعاً، ويكسو عارياً، ويشفي مريضاً، ويعافي مُبتلى، ويقبل تائباً، ويجزي محسناً، وينصر مظلوماً، ويقصم جباراً، ويقيل عثرة، ويستر عورة، ويؤمن روعة، ويرفع أقواماً، ويضع آخرين، لا ينام ولا ينبغي له أن ينام يخفض القسط ويرفعه، يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل، حجابه النور، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه، ويمينه ملأى، لا تغيضها نفقة، سحّاء الليل والنهار، أرأيتم ماذا أنفق منذ خلق الخلق فإنه لم يغض ما في يمينه».

وتكفله ـ عز وجل ـ بحاجة جميع المخلوقات وإجابة أسئلتهم وقيامه على شؤونهم من أعظم النعم التي يستحق عليها الشكر والحمد، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والعبر:

١ ـ فناء كل من على وجه الأرض والبسيطة وجميع المخلوقات وبقاء الرب ـ عز وجل.

٢ ـ إثبات الوجه والذات لله ـ عز وجل ـ على ما يليق بجلاله وعظمته، وربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ.

٣ ـ اتصاف الله ـ عز وجل ـ بالعظمة والكبرياء والجود الواسع والفضل التام.

٤ ـ في المساواة بين الخلائق بالفناء وتفرده عز وجل بالبقاء والعظمة والكبرياء والجود وواسع العطاء نعمة على الثقلين لهذا قررهما فيها.

٥ ـ توجه جميع الخلق بالسؤال إلى الله ـ عز وجل ـ وتكفله بحوائجهم لا يشغله شأن عن شأن وتقرير الثقلين بذلك.

٦ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٢٤ ـ ٣٢٧.

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ ﴿٣١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٢﴾ يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٤﴾ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ ﴿٣٥﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٦﴾﴾.

قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف بالياء (سيفرغ لكم) وقرأ الباقون بالنون.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾ قال: «وعيد من الله للعباد، وليس بالله شغل، وهو فارغ»[1].

وقال البخاري[2]: «سنحاسبكم، لا يشغله شيء عن شيء، وهو معروف في كلام العرب، يقال: «لأتفرغن لك» وما به شغل، يقول: «لآخذنك على غرتك».

﴿أَيُّهَ الثَّقَلَانِ﴾: أي: يا أيها الثقلان.

و«الثقلان»: هما الجن والإنس، كما صرح بهما في قوله بعد ذلك ﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾.

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال في عذاب القبر «فيصيح صيحة يسمعها من يليه إلا الثقلين» وفي رواية: «إلا الإنس والجن»[3] وهما المخاطبان في قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

والمعنى: سنقصد لحسابكم أيها الثقلان، أي: أن حسابكما قد اقترب وسيجازى كل منكما بما عمل وهذا من أكبر النعم أن يجزى كل بما عمل، وينتصف للمظلوم من الظالم وترد الحقوق إلى أهلها، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

ويؤخذ من الآية أن الجن مأمورون منهيون محاسبون على أعمالهم.

﴿يَٰمَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ «يا» حرف نداء، و«المعشر» بمعنى: الجماعة والقوم والرهط و«الجن» هم نسل إبليس لعنه الله، والإنس: هم نسل آدم عليه السلام.

قوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمْ﴾ أي: إن كان باستطاعتكم وقدرتكم وإمكانكم ﴿أَن تَنفُذُوا مِنْ

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢١٦، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٥ – الأثر ١٨٧٣٨.

(٢) في صحيحه في تفسير سورة الرحمن انظر «فتح الباري» ٨/ ٦٢١.

(٣) أخرجه البخاري في الجنائز ـ الميت يسمع خفق النعال، وفي ما جاء في عذاب القبر ١٣٣٨، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٧٠، وأبو داود في الجنائز ٣٢٣١، والنسائي في الجنائز ٢٠٥١، وأحمد ٣/ ٤.

﴿أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ النفوذ من الشيء بمعنى اختراقه والخروج منه و ﴿أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ جوانبهما.

والمعنى: يا معشر الجن والإنس إن كان باستطاعتكم الخروج من أقطار السموات والأرض فراراً وهروباً من عذاب الله تعالى يوم القيامة فتعجزوه فلا يقدر على عذابكم فافعلوا، وهيهات لكم ذلك ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ وأنى لكم ذلك فما فوق سلطان الله سلطان.

وسياق الآيات ولحاقها يؤيد هذا القول وهو تحديهم أن يهربوا أو يفروا من عذاب الله في الآخرة، فقوله قبله ﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ ٱلثَّقَلَانِ﴾ أي: سنفرغ لحسابكم في الآخرة، وقوله بعده ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ﴾ فهذا في الآخرة وعموم الخطاب في قوله ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ ﴿٣٣﴾﴾ يدل على أن هذا إنما يكون إذا جمعهم الله بصعيد واحد يسمعهم الداعي وينفذهم البصر.

ويحتمل أن المعنى: إن استطعتم أن تخرجوا عن قهر الله ومحل حكمه وسلطانه ومملكته يعني في الدنيا فافعلوا وهيهات لكم ذلك فالخلق خلقه والملك ملكه والأمر أمره.

أو أن المعنى: إن استطعتم أن تهربوا من الموت فافعلوا وهيهات لكم ذلك فهو مدرككم كما قال تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

أو أن المعنى: إن استطعتم أن تنفذوا بعلمكم أقطار السموات والأرض فتعلموا ما فيهما فافعلوا وهيهات لكم ذلك.

والمعنى الأول أظهر وعليه يدل سياق الآيات وعليه أكثر المفسرين.

لكن من المعلوم أن المعاني الأخرى كلها ليست باستطاعتهم فهم لا يستطيعون الخروج والهروب عن ملك الله وسلطانه وحكمه الكوني والجزائي في الدنيا والآخرة وقضائه، ومن ذلك الموت، كما لا يستطيعون الاطلاع على ما في السموات والأرض لقصور علمهم.

﴿فَٱنفُذُوا۟﴾ أي: إن استطعتم ذلك، وليس ذلك بمقدوركم ولهذا قال: ﴿لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ «لا» نافية، أي: لا يمكن أن تنفذوا ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ و«إلا» أداة حصر أي: إلا بسلطان وقوة تمكنكم من ذلك، وأنى لكم ذلك، فالسلطان والقهر والملك والحكم لله

وحده.

قال ابن كثير[١]: «أي: لا تستطيعون هرباً من أمر الله وقدره، بل هو محيط بكم، لا تقدرون على التخلص من حكمه، ولا النفوذ عن حكمه فيكم أينما ذهبتم أحيط بكم، وهذا في مقام الحشر، الملائكة محدقة بالخلائق سبع صفوف من كل جانب فلا يقدر أحد على الذهاب ﴿إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ إلا بأمر الله».

وقال السعدي [٢]: «أي: لا تخرجون منه إلا بقوة، وتسلط منكم، وكمال قدرة، وأنى لهم ذلك وهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ولا موتاً ولا حياة، ولا نشوراً».

والمعنى: أنه لا مفر لهم ولا خلاص من عذاب الله تعالى، قال تعالى: ﴿فَإِذَا بَرِقَ ٱلْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۝٩ يَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا لَا وَزَرَ ۝١١ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ﴾ [القيامة: ٧-١٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَسَبُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ جَزَآءُ سَيِّئَةٍۭ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ۖ مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ ۖ﴾ [يونس: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ﴾ [هود: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ﴾ [الفجر: ١٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ﴾ [البقرة: ٢٨١]، وقال تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ۝٣٦﴾ [ق]، وقال تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا۟ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣].

فلا مفر ولا محيد ولا محيص من قدر الله وحكمه وجزائه، ولا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه، فالخلق خلقه، والملك ملكه، والتدبير كله بيده، ومرد الخلق كلهم إليه وكما قيل:

أين المفر والإله الطالب [٣] ....

وفي انقياد جميع الخلق لقدره عز وجل وحكمه الكوني والجزائي وهو سبحانه الحكم العدل نعمة من الله عز وجل على الخلق ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: يرسل عليكما أيها الثقلان،

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٢.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٢.

(٣) هذا صدر بيت لنفيل بن حبيب، وهو بتمامه:

أين المفر والإله الطالب والأشرم المغلوب ليس الغالب

انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٥٠٦.

الإنس والجن ﴿شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ﴾.

قرأ ابن كثير (شِواظ) بكسر الشين، وقرأ الباقون بضمها. والشواظ: لهب النار الذي يتقطع منها لا دخان فيه. ﴿وَنُحَاسٌ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو بكسر السين عطفا على «نار» وقرأ الباقون بضمها عطفاً على ﴿شُوَاظٌ﴾ والنحاس: الصفر المذاب، أو الدخان الذي لا لهب فيه قال النابغة الجعدي:

يضيء كضوء سراج السليـ ... ـط لم يجعل الله فيه نحاسا

أي: لم يجعل الله فيه دخانا[1].

﴿فَلَا تَنتَصِرَانِ﴾ أي: فلا تستطيعان الانتصار بأنفسكما، ولا بغيركما.

قال ابن كثير[2]: «والمعنى: لو ذهبتم هاربين يوم القيامة لردتكم الملائكة والزبانية بإرسال اللهب من النار والنحاس المذاب عليكم لترجعوا».

وفي هذا الوعيد بإرسال شواظ من نار ونحاس على من هو أهل لذلك من الثقلين، وهم المكذبون الظالمون إحقاق للحق وإبطال للباطل وانتصار للمظلومين من الظالمين، كما أن في ذلك ما يحمل على سلوك الطريق المستقيم لمن وفقه الله والبعد عن طريق أهل الجحيم، وفي هذا وذاك نعمة من الله عز وجل على الثقلين، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

الفوائد والعبر:

١ ـ الوعيد والتحذير للإنس والجن من قرب حسابهما ومجازاة كل منهما بما عمل وتقريرهما بذلك.

٢ ـ أن الجن مأمورون منهيون محاسبون على أعمالهم كالإنس.

٣ ـ تحدي الثقلين الجن والإنس أن يهربوا من عذاب الله وقضائه وحكمه الكوني، وضعفهما، وانقياد جميع الخلق لحكمه، وهو الحَكَم العدل.

٤ ـ الوعيد والتهديد للمكذبين من الثقلين بإرسال لهب النار والرصاص المذاب عليهما مما لا يستطيعان له دفعاً لا بأنفسهما ولا بغيرهما، وفي ذلك إحقاق للحق، وحمل على سلوك الطريق المستقيم، وهذا من نعم الله على الخلق لهذا قررهما فيها.

٥ ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) انظر «مجاز القرآن» ٢/ ٢٤٤، «لسان العرب» مادة «نحس».

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٣.

﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَٱلدِّهَانِ ﴿٣٧﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٣٨﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴿٣٩﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٠﴾ يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ ﴿٤١﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٢﴾ هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٤٣﴾ يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ ﴿٤٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٤٥﴾﴾.

قوله: ﴿فَإِذَا ٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ﴾ الفاء استئنافية، و«إذا» ظرفية بمعنى «حين» والمراد بالسماء سقف هذا الكون الأرضي الذي كان محفوظاً من ذي قبل كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا﴾ [الأنبياء: ٣٢] ومعنى انشقاق السماء: انفطارها وتصدعها يوم القيامة بعد أن كانت محبوكة سليمة، كما قال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْحُبُكِ﴾ [الذاريات: ٧]، وقال تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾﴾ أي: من شقوق أو صدوع في السموات.

لكن دوام الحال من المحال فالسموات وهي من أعظم المخلوقات يعتريها من أمر الله ـ عز وجل ـ ومن أهوال القيامة ما يعتريها، فتتشقق وتتصدع وتتفطر، قال عز وجل: ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ تَنزِيلًا﴾ [الفرقان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَٱنشَقَّتِ ٱلسَّمَآءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق:١]، وقال تعالى: ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الانفطار: ١].

﴿فَكَانَتْ وَرْدَةً﴾ الفاء عاطفة. أي: فكانت تشبه الوردة في الحمرة ﴿كَٱلدِّهَانِ﴾ كدهن الزيت في الذوبان، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ﴿٨﴾﴾ والمهل: دردي الزيت، أو الفضة المذابة.

قال ابن كثير [(١)]: «أي: تذوب كما يذوب الدردي والفضة في السبك، وتتلون كما تتلون الأصباغ التي يدهن بها فتارة حمراء وصفراء وزرقاء وخضراء، وذلك من شدة الأمر وهول يوم القيامة».

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «يبعث الناس يوم القيامة والسماء تطش عليهم»[(٢)].

وإذا كانت السماء وهي من أعظم المخلوقات يعتريها ما يعتريها من أهوال

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٣، ٤٧٤.

(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦ – ٢٦٧.

القيامة كغيرها من سائر المخلوقات فإن في هذا ظهور نعمة الله - عز وجل - من وجوه: منها تساوي جميع المخلوقات أمام قدرة الله عز وجل وعدم بقاء شيء منها على حال، وأن دوام الحال من المحال لأي مخلوق كان، كما أن في تذكير الله عز وجل للثقلين بهذا نعمة من الله عز وجل عليهم، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ الفاء: عاطفة، أي: فيوم وقوع تلك العلامات والأهوال وهو يوم القيامة ﴿لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي لا يسأل عن ذنوبه، فالمراد بذنبه جنس الذنوب، وفي إضافة الذنب إلى الإنس والجن دليل على أن الجن مكلفون كالإنس.

والمعنى: ففي ذلك اليوم وهو يوم القيامة لا يسأل أحد من الخلق من الإنس أو الجن سؤال استخبار واستعلام عن ذنوبه، وما ارتكبه من الآثام لعدم الحاجة إلى ذلك، لأن الله عز وجل لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد، وكل ذلك عنده مسطر مكتوب، كما قال عز وجل: ﴿وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا (٤٩)﴾ [الكهف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا (١٣) ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤)﴾ [الإسراء: ١٤].

فعلى هذا المعنى وفي هذه الحال لا يُسأل أحد عن ذنبه كما قال عز وجل: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ (٣٥) وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾ [المرسلات: ٣٥-٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾ [يس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ [القصص: ٧٨].

لكنهم يسألون في حال أخرى، وبمعنى آخر وهو تقريرهم بذنوبهم، كما قال عز وجل: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْـَٔلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٩٢) عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الحجر: ٩٢-٩٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْـَٔلَنَّ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الأعراف:٦]، وقال تعالى: ﴿تَٱللَّهِ لَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ [النحل: ٥٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [العنكبوت: ١٣].

فالسؤال المنفي سؤال الاستفهام والاستخبار، والسؤال المثبت هو سؤال التقرير

والتبكيت فهذا في حال وذاك في حال كما أن المجرمين لهم علامات تعرفهم بها ملائكة العذاب فلا تحتاج إلى السؤال عنهم كما قال بعد هذا ﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾.

وفي إحاطة علم الله عز وجل بأعمال الخلق وكتابتها وتسطيرها وعدم الحاجة إلى سؤالهم عن أعمالهم تمهيد لإحقاق الحق والعدل بينهم وإعطاء كل ذي حق حقه ومجازاة كل منهم بما عمل إذ لو وكل ذلك إلى سؤالهم وما يجيبون به لكانوا بين مكذِّبٍ أو ناسٍ أو متناسٍ كما قال تعالى: ﴿أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ﴾ [المجادلة: ٦] ولكون هذا من نعمة الله عز وجل أتبعه بقوله ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿يُعْرَفُ ٱلْمُجْرِمُونَ بِسِيمَٰهُمْ﴾ أي: بعلاماتهم القبيحة السيئة كاسوداد الوجوه وظلمتها وزرقة العيون. وذلك أن للمعاصي والذنوب والجرائم آثارها وعلاماتها السيئة على الوجوه والأبدان، كما أن للطاعات آثارها وهو بياض الأبدان والوجوه قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران ١٠٦].

﴿فَيُؤْخَذُ بِٱلنَّوَٰصِى وَٱلْأَقْدَامِ﴾ أي: فيؤخذ منهم بالنواصي والأقدام. والنواصي: جمع ناصية، وهي شعر مقدمة الرأس، أي: يجمع للواحد منهم بين ناصيته وقدميه، فتربط ناصيته بقدميه، ويلقى في النار.

وأخذ المجرم ومجازاته بما عمل من إحقاق الحق والعدل، والتذكير بذلك للخلق من نعم الله عز وجل ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أظهر في مقام الإضمار فقال (التي يكذب بها المجرمون) لوصفهم بهذا الوصف، وبيان أنه سبب دخولهم جهنم ويشمل هذا كل مجرم، أي: يقال للمجرمين حين يؤخذ بنواصيهم وأقدامهم ويلقون في النار تقريعاً وتوبيخاً لهم، وتبكيتاً وتصغيراً وتحقيراً: ﴿هَٰذِهِۦ جَهَنَّمُ ٱلَّتِى يُكَذِّبُ بِهَا ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ أمثالكم، أي يكذبون بوجودها، ها أنتم تصطلون بنارها، أو تشاهدونها عيانا كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧] وفي الحديث: «ليس الخبر كالمعاينة»[1].

﴿يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ يطوفون: أي: يدورون بين عذابها وعذاب ﴿حَمِيمٍ ءَانٍ﴾ أي: تارة يعذبون في جهنم وتارة يسقون من الحميم كما قال تعالى: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ

---

(١) أخرجه أحمد ١/ ٢١٥ من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

﴿حَمِيمٍ﴾ أي: ماء حار، ﴿ءَانٍ﴾ أي: قد بلغ الغاية في الحرارة، فلا يستطاع ولا يطاق من شدة حرارته كما قال تعالى: ﴿تُسۡقَىٰ مِنۡ عَيۡنٍ ءَانِيَةٍ﴾ [الغاشية: ٥]، أي شديدة الحرارة، وهو شراب كالنحاس المذاب يقطع الأمعاء والأحشاء.

قال ابن كثير[1]: «ولما كان معاقبة العصاة المجرمين وتنعيم المتقين من فضله ورحمته وعدله ولطفه بخلقه وكان إنذاره لهم عذابه وبأسه مما يزجرهم عما هم فيه من الشرك والمعاصي وغير ذلك قال ممتناً بذلك على بريته ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من أهوال القيامة انشقاق السماء وذوبانها وتبدلها وتغير حالها، وفي هذه دلالة على تساوي جميع المخلوقات أمام قدرة الله ـ عز وجل ـ في تبدلها وتغيرها، وفي هذا وفي التذكير به نعمة من الله على الثقلين لهذا قررهما فيها.

٢ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع وخبرته التامة بأعمال الثقلين، فلا أحد منهم يسأل عن ذنبه لأن كل ذلك معلوم لله مسطر مكتوب، وفي هذا تمهيد لإحقاق الحق والعدل وإعطاء كل ذي حق حقه، وهذه نعمة من الله تستوجب الشكر.

٣ ـ أن للمجرمين علامات وهي سواد الوجوه وظلمتها وزرقة العيون، بها تعرفهم الملائكة فتأخذ بنواصيهم وأقدامهم وتلقيهم في النار.

٤ ـ الوعيد والتهديد للمجرمين بجهنم التي كانوا يكذبون بها يدورون بين حر لظاها وبين حميم آن. وفي هذا وما قبله إحقاق للحق وتحذير للخلق فهو من نعم الله لهذا قررهم به.

٥ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٥ – ٤٧٦.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ۝٤٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٧ ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ ۝٤٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٤٩ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ ۝٥٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥١ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ ۝٥٢ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٣ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ ۝٥٤ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٥ فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ۝٥٦ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٧ كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝٥٨ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٥٩ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۝٦١﴾.

﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ الواو استئنافية، و«من» موصولة بمعنى الذي تفيد العموم أي: وللذي خاف من الإنس والجن قيامه بين يدي ربه جنتان، أي: لكل واحد منهم جنتان، وليس معناه لمجموع الخائفين جنتان.

قال ابن القيم[1]: «فإن إحدى الجنتين جزاء أداء الأوامر والثانية جزاء اجتناب المحارم».

والمعنى: وللذي خاف القيام بين يدي ربه، خالقه ومالكه ومدبر أمره، فاتقاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه واستقام على أمره وطاعته حتى لقى ربه، وهم المقربون، ومنهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي قيل إن الآية نزلت فيه[2]. وهذه الآية كقوله: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] وكقوله: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ [الأنعام: ٥١].

ويدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[البقرة: ٢٢٣]، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾[الانشقاق: ٦].

وقيل: إن قوله: ﴿مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾، معناه: خاف مقام الله واطلاعه عليه، ولا مانع من حمل الآية على المعنيين.

﴿جَنَّتَانِ﴾ مثنى «جنة» والجنة: مأخوذة من الاجتنان، وهو الستر، لأنها تجن أي: تستر من بداخلها بما فيها من الأشجار الملتفة والقصور وغير ذلك.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٩.

(٢) انظر «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٥ – ٢٤٩.

قال تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢].

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة، آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم عز وجل إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(١)].

وروى حماد بن سلمة عن ثابت البناني عن أبي بكر بن أبي موسى الأشعري عن أبيه رضي الله عنه ـ قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه ـ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ قال: «جنتان من ذهب للمقربين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»[(٢)].

وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قرأ يوماً هذه الآية: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق؟ فقال: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ فقلت: وإن زنى وإن سرق يا رسول الله؟ فقال: «وإن رغم أنف أبي ذر»[(٣)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة»[(٤)].

قال ابن كثير [(٥)]: «وهذه الآية عامة في الإنس والجن فهي من أدل دليل على أن الجن يدخلون الجنة إذا آمنوا واتقوا».

وفي مجازاة الله عز وجل لمن خاف مقام ربه بالجنتين تفضل من الله عز وجل وإنعام على عباده، إذ أن عمل العبد ليس عوضاً لدخول الجنة، وإنما هو مجرد سبب

---

(١) أخرجه البخاري في تفسير سورة الرحمن ٤٨٧٨، ومسلم في الإيمان ـ إثبات رؤية المؤمنين في الآخرة ربهم سبحانه وتعالى ١٨٠، والترمذي في صفة الجنة ـ ما جاء في صفة غرف الجنة ٢٦٤٨، وابن ماجه في المقدمة ـ باب فيما أنكرت الجهمية ١٨٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، والبيهقي في «البعث والنشور» ص ٢٤٢.

(٣) أخرجه البخاري في «التاريخ الكبير» ٤/ ٢٩٦، ٢٩٧، والنسائي في «السنن الكبرى» ١١٥٦٠، ١١٥٦١ والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٧ – ٢٣٨ وروي موقوفاً على أبي الدرداء رضي الله عنه أخرجه ابن المبارك في «الزهد» «٩٢٤» والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٣٨، وابن حبان في «الثقات» ٤/ ٣٣٥.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٥٠، وقال «حديث حسن غريب».

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٧.

فقط، ودخولها إنما هو برحمة أرحم الراحمين وفضله، كما قال ﷺ: «لن يدخل أحدَكم عملُهُ الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ولا أنا إلا أن يتغمدني الله برحمة منه وفضل»[1] ولهذا قال بعد هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ نعت ووصف للجنتين، فضمير التثنية في قوله ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ يعود إلى الجنتين، أي: صاحبتا أفنان. والأفنان: هي الأغصان ذات الألوان النضرة الجميلة الحسنة، وذات الثمار المتنوعة والمختلفة اللذيذة، وذات الأوصاف الجميلة والمزايا الحسنة والسعة وغير ذلك ولهذا قال بعد هذه الآية ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

وقال السعدي[2]: «﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾ أي: فيهما من ألوان النعيم المتنوعة، نعيم الظاهر والباطن، ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، أي: فيهما الأشجار الكثيرة الزاهرة ذوات الغصون الناعمة، التي فيها الثمار اليانعة الكثيرة اللذيذة».

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: في هتين الجنتين ﴿عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ﴾ أي: سارحتان يشربون منهما ويتمتعون برؤيتهما، وتسقيان ما في هتين الجنتين من الأشجار والأغصان فتثمر من جميع الألوان والثمار قال تعالى: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾ [الإنسان: ٦] وهتان الجنتان «إحداهما يقال لها «تسنيم»، والأخرى «سلسبيل» قال تعالى: ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ [المطففين: ٢٧-٢٨] وقال تعالى: ﴿عَيْنًا فِيهَا تُسَمَّىٰ سَلْسَبِيلًا﴾ [الإنسان: ١٨].

وهذا من فضل الله عز وجل ونعمه، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾ أي: في هتين الجنتين ﴿مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ﴾ والفاكهة ما يتفكه به ويستطاب أكله ويبعث على السرور والانبساط. وكل ما في الجنة يؤكل على صفة التفكه لا بسبب الجوع.

﴿زَوْجَانِ﴾ أي: صنفان، والمعنى فيهما من كل نوع من أنواع الفاكهة صنفان من حلو وحامض وأبيض وأحمر وغير ذلك وقيل: معروف وغريب، كل صنف له لذة

---

(١) أخرجه البخاري في المرضى ٥٦٧٣، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٥.

ولون ليس للنوع الآخر.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما في الدنيا ثمرة حلوة ولا مرة إلا وهي في الجنة حتى الحنظلة»[1].

واشتمال هتين الجنتين على صنفين من جميع أنواع الفواكه نعمة من الله على ساكنيهما، ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ متكئين: حال والمراد: أهل الجنتين. والاتكاء: الاضطجاع، أو الجلوس على صفة التربع، وجلوس التمكن والاستقرار والراحة.

﴿عَلَىٰ فُرُشٍۭ﴾ الفرش: جمع فراش، وهو ما يفرش للجلوس أو الاضطجاع عليه.

﴿بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍۚ﴾ البطائن: جمع بطانة، وهي داخل الفراش مما يلي الأرض سُميت بذلك لملاصقتها للفراش وعدم ظهورها، ومنه سُميت بطانة الحاكم لملاصقتهم له في مجالسه، وتفرده بالأمر ظاهرًا دونهم قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُۚ﴾.

أي: لا تتخذوا المنافقين خاصة لكم تفضون إليهم بأسراركم.

والإستبرق: هو غليظ الديباج، وهذا من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى؛ أي: إذا كانت بطائن هذه الفرش ودواخلها من إستبرق فكيف بظهائرها، أو فما بالك بظهائرها التي يباشرون؟! فهي أفضل بكثير وأعلى وأحسن من بطائنها - كما هي العادة؛ لأن بطائنها للأرض وظهائرها للجمال والزينة والمباشرة والجلوس عليها.

وفي هذا دلالة على نعومة هذه الفرش وحسنها وجمالها وعظمتها، وعلى علوها، وأن لها سمكاً وحشواً بين البطانة والظهارة، وأنه لا يعلم وصفها وحسنها وظهائرها على وجه الحقيقة إلا الله عز وجل.

﴿وَجَنَى ٱلْجَنَّتَيْنِ دَانٍ﴾ الجنى: ما يجنى من الأشجار من الثمار «دان»: قريب إليهم، أي: أن ثمر الجنتين قريب إليهم يتناولونه كيف شاؤوا قائمين أو قاعدين أو

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٧٨، وذكره السيوطي في «الدر المنثور» ٦/ ١٤٧. ونسبه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم.

مضطجعين، أو على أي حال كانوا، ومتى شاؤوا فلا يحتاج تناوله إلى كلفة منهم، ولا ينقطع عنهم في وقت من الأوقات ـ كما هو الحال في ثمار شجر الدنيا، قال تعالى: ﴿قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ﴾ [الحاقة: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

قال ابن كثير(١): «أي: لا تمتنع ممن تناولها، بل تنحط إليه من أغصانها».

وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما، إذ لم يذكر هذا فيهما.

وفي كون أهل هتين الجنتين متكئين على هذه الفرش الوثيرة الناعمة مع قرب ثمار الجنة إليهم فضل من الله عز وجل عليهم ونعمة؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ أي: في تلك الجنتين وما حوتاه من القصور والغرف والخيام، أو في تلك الفرش المذكورة في قوله: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ﴾.

﴿قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ أي: نساء قاصرات الطرف، قصرن طرفهن على أزواجهن، وغضضن الطرف عن غيرهم، والطرف: البصر والنظر، فهن لكمال محبتهن لأزواجهن وإعجابهن بهم لا يرين أحدًا أحسن ولا أجمل منهم فلا ينظرن لغيرهم ولا يبغين بهم بديلاً وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ﴾ [الصافات: ٤٨]، وقوله: ﴿۞ وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ أَتْرَابٌ﴾ [ص: ٥٢].

قال ابن كثير(١): «وقد ورد أن الواحدة منهن تقول لبعلها: والله ما أرى في الجنة شيئًا أحسن منك، ولا في الجنة شيء أحب إلي منك، فالحمد لله الذي جعلك لي وجعلني لك».

وبالمقابل فإن أزواجهن قصروا طرفهم عليهن؛ لكمال محبتهم لهن وإعجابهم بهن لا يرون أحدًا أحسن ولا أجمل منهن ولا يريدون غيرهن.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ قرأ الكسائي هنا وفي الموضع بعده «لم يطمُثهن» بضم الميم، وقرأ الباقون بكسرها أي: لم يطأهن و لم يجامعهن ولم يغشهن ولم يفتض بكارتهن قبلهم أحد من الإنس ولا من الجن، بل هن أبكار لم تفتض بكارتهن بعد.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٧٩.

قال ابن القيم[١]: «وهذا - والله أعلم - معناه: أنه لم يطمث نساء الإنس إنس قبلهم، ولا نساء الجن جن قبلهم».

ويحتمل أن هذه النساء من الحور العين اللاتي أنشئن في الجنة، أو من نساء الدنيا اللاتي متن أبكاراً، أو اللاتي أنشئن خلقًا آخر أبكاراً، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾ [الواقعة: ٣٥-٣٧].

قال ابن القيم[٢]: «ظاهر القرآن أن هؤلاء النسوة لسن من نساء الدنيا وإنما هن من الحور العين، أما نساء الدنيا فقد طمثهن الإنس، ونساء الجن قد طمثهن الجن، والآية تدل على ذلك».

قال أرطأة بن المنذر: «سُئل حمزة بن حبيب: هل يدخل الجن الجنة؟ قال: نعم، وينكحون، للجن الجنيات وللإنس الإنسيات، وذلك قوله: ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾»[٣].

وفي كون أزواج أهل هتين الجنتين قاصرات طرفهن على أزواجهن، لا ينظرن ولا يطمحن لغيرهم، وكونهن أبكارًا نعمة من الله عليهم، ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿كَأَنَّهُنَّ﴾ أي: كأن هذه النساء قاصرات الطرف في حسنهن وبياضهن وجمالهن ﴿ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، وهما من أفضل أنواع الجواهر أي: كأنهن في صفاء ألوانهن الياقوت في صفائه. وكأنهن في بياض أجسامهن المرجان في بياضه، فهن في غاية الجمال، بيض مشربات بالحمرة مع صفاء تام وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين بعدهما.

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن المرأة من نساء أهل الجنة ليرى بياض ساقها من وراء سبعين حلة حتى يرى مخها، وذلك بأن الله تعالى يقول: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾، فأما الياقوت فإنه حجر لو أدخلت فيه سلكًا ثم استصفيته لرأيته من ورائه»[٤].

وروي هذا موقوفًا على ابن مسعود رضي الله عنه قال الترمذي: «وهو أصح».

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣١.

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٦.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٤٨.

(٤) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة ـ ما جاء في صفة نساء أهل الجنة ٢٥٣٢.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوأ كوكب دُريّ في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

وفي رواية: «للرجل من أهل الجنة زوجتان من الحور العين، على كل واحدة سبعون حلة، يرى مخ ساقها من وراء الثياب»[1].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم، أو موضع قيده - يعني: سوطه - من الجنة خير من الدنيا وما فيها، ولو اطلعت امرأة من نساء أهل الجنة إلى الأرض لملأت ما بينهما ريحًا، ولطاب ما بينهما، ولنصيفها[2] على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[3].

وفي كون أزواج أهل هتين الجنتين على هذا الوصف من الحسن والبياض والجمال نعمة من الله عليهم؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ «هل»: حرف استفهام فيه معنى النفي، أي: ما جزاء الإحسان إلا الإحسان أي: ما جزاء من أحسن في الدنيا العمل، بالإحسان في عبادة الله عز وجل إخلاصًا لله ومتابعة للرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم، إلا الإحسان إليه في الدار الآخرة بالثواب الجزيل والأجر العظيم ورؤية الرب الجليل في الجنة، كما قال تعالى: ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس:٢٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قرأ رسول الله ﷺ: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾، ثم قال: «هل تدرون ما قال ربكم»؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «يقول: هل جزاء من أنعمت عليه بالتوحيد إلا الجنة»[4].

وذكر «الإحسان» في الموضعين بالتعريف يدل على أنهم من أهل الإحسان المطلق الكامل، وأن جزاءهم بالإحسان الكامل، وهذا مما فضلت به هتان الجنتان على اللتين

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق - ما جاء في صفة الجنة، وأنها مخلوقة ٣٢٤٥، ومسلم في الجنة، وصفة نعيمها - أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣، وأحمد ٢/ ٣٤٥.

(٢) أي: خمارها.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٧، وأحمد ٣/ ١٤١.

(٤) أخرجه البغوي في «معالم التنزيل» ٤/ ٢٧٦.

بعدهما. وفرق ما بين الإحسانين أن الإحسان من جهة العبد واجب، أما الإحسان من الله عز وجل على العبد، فهو تفضل منه سبحانه وتعالى أوجبه سبحانه على نفسه كما قال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، والإحسان أثر من آثار رحمته عز وجل، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

قال ابن كثير[1]: «ولما كان في الذي ذكر نعم عظيمة لا يقاومها عمل، بل مجرد تفضل وامتنان قال بعد ذلك: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾».

الفوائد والعبر:

١ ـ الحث على الخوف من الله والقيام بين يديه، وعلى مراقبته بذكر ما أعده للخائفين من الثواب العظيم.

٢ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لمن خاف مقامه.

٣ ـ أن الله ـ عز وجل ـ أعد لكل من خاف مقام ربه جنتين فيهما من ألوان وأنواع النعيم أفضلها وأكملها فضلاً منه عز وجل وامتنانا.

٤ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لمن خاف مقامه؛ فأفنان نضرة وثمار يانعة، وعيون جارية، وفواكه مختلفة متنوعة وفرش للجلوس وثيرة ناعمة جميلة، وثمار دانية، ونساء قصرن طرفهن عليهم لم تفتض بكارتهن، كأنهن الياقوت صفاء، والمرجان بياضاً ـ مع الثناء عليهم وتكريمهم معنوياً بوصفهم بالإحسان ـ وهذا وذاك من أعظم نعم الله عليهم ولهذا قرر الثقلين بذلك.

٥ ـ العدل في حساب الخلائق ومجازاتهم، وأن الجزاء من جنس العمل؛ فليس لمن أحسن إلا الإحسان.

٦ ـ وجوب الإحسان في عبادة الله بإخلاص العمل لله ومتابعة الرسول ﷺ، والإحسان إلى عباد الله بأداء حقوقهم.

٧ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ العامة للثقلين.

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٠.

﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٣﴾ مُدْهَآمَّتَانِ ﴿٦٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٥﴾ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ ﴿٦٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٧﴾ فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ ﴿٦٨﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٦٩﴾ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ﴿٧٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٣﴾ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٥﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ ﴿٧٦﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧٧﴾ تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ ﴿٧٨﴾﴾.

قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ أي: ومن دون الجنتين المذكورتين في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ ومعنى: ﴿وَمِن دُونِهِمَا﴾ أي: أقل منهما في المرتبة والفضيلة والمنزلة والدرجة ونوع النعيم، كما جاء في حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[١].

وفي رواية عن حماد بن سلمة، عن ثابت، عن أبي بكر بن أبي موسى عن أبيه ـ قال حماد: ولا أعلمه إلا قد رفعه ـ في قوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾، وفي قوله: ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ﴾ جنتان من ذهب للمقربين، أو قال: للسابقين، وجنتان من ورق لأصحاب اليمين»[٢].

قال ابن القيم[٣]:«ولما كان الخائفون على نوعين: مقربين وأصحاب يمين ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين».

وفي جعل أهل هذه الجنان ونعيمهم على مرتبتين ودرجتين في الفضيلة والمنزلة ونوع النعيم فضل من الله ونعمة حيث لم يساو الأعلى بمن هو دونه، ولم يحرم الأدنى؛ ولهذا قال بعده ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُدْهَآمَّتَانِ﴾ أي: سوداوان من شدة الخضرة والري.

وفي كون هتين الجنتين على هذا الوصف من شدة الخضرة نعمة من الله على أهل هتين الجنتين؛ لذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) سبق تخريجه.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٩.

لكن يظهر الفرق واضحًا بينهما وبين الجنتين السابقتين اللتين وصفهما بقوله: ﴿ذَوَاتَآ أَفْنَانٍ﴾، وهي الأغصان النضرة والثمار اللذيذة والسعة والحسن والجمال.

﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾ أي: في هتين الجنتين عينان فوارتان فيّاضتان بالماء لا تنقطعان، لكنهما لا تجريان كالأولين قال ابن عباس: «فياضتان»[1]، والجري أقوى من النضخ. ووجود هتين العينين الفياضتين بالماء بلا انقطاع في هتين الجنتين نعمة من الله؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ أي: في هتين الجنتين ﴿فَٰكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾.

قال ابن كثير[2]: «فاكهة: نكرة في سياق الإثبات لا تعم، ولهذا فُسِّر قوله: ﴿وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ﴾ من باب عطف الخاص على العام، كما قرره البخاري وغيره، وإنما أفرد النخل والرمان بالذكر لشرفهما على غيرهما».

وقال السعدي[3]: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ من جميع أصناف الفاكهة، وأخصها النخل والرمان اللذان فيهما من المنافع ما فيهما».

وشتان ما بين فاكهة الجنة ونخلها ورمانها مما لا يعلم حقيقة صفته إلا الله عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧] وبين ما في الدنيا قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما: «ليس في الجنة مما في الدنيا إلا الأسماء فقط»[4].

ويلحظ فرق ما بين الجنتين بمقارنة هذا بقوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾، فهذا يعم جميع أنواع الفاكهة وأن فيهما من كل نوع منها على كثرتها وتنوعها صنفان بخلاف قوله: ﴿فِيهِمَا فَٰكِهَةٌ﴾ فإن هذا وإن حمل على جميع أنواع الفواكه، كما قال السعدي ـ وليس ببعيد ـ لكنه لا يدل على أن من كل نوع صنفين كما دل على ذلك قوله: ﴿فِيهِمَا مِن كُلِّ فَٰكِهَةٍ زَوْجَانِ﴾.

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: جاء أناس من اليهود إلى رسول الله ﷺ ـ فقالوا: يا محمد، أفي الجنة فاكهة؟ قال: «نعم فيها فاكهة ونخل ورمان» قالوا:

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٥٩، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٧ـ الأثر ١٨٧٥٤.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢، وانظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٢٦٠-٢٦١.

(٣) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٨.

(٤) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة ـ رقم ١٢٤، وانظر مجموع الفتاوى، ٥/ ٢٥٧، ١١/ ٤٨٢.

أفيأكلون كما يأكلون في الدنيا؟ قال: «نعم، وأضعاف» قالوا: فيقضون الحوائج؟ قال: «لا، ولكنهم يعرقون ويرشحون، فيذهب الله ما في بطونهم من أذى»(١).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نخل الجنة سعفها كسوة لأهل الجنة، منها مقطعاتهم ومنها حللهم، وكَرَبها ذهب أحمر، وجذوعها زمرد أخضر، وثمرها أحلى من العسل، وألين من الزبد، وليس له عجم»(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نظرت إلى الجنة فإذا الرمانة من رمانها كمثل البعير المقتب»(٣).

ووجود الفاكهة والنخل والرمان بهتين الجنتين من نعم الله عز وجل على أهلهما؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ أي: في الجنتين، وعبَّر بضمير الجمع وهما اثنتان؛ لأن أقل الجمع اثنان كما في قوله تعالى عن داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، وقوله: ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا﴾ [التحريم: ٤]، وأيضًا فإن هتين الجنتين بما فيهما من ألوان الأشجار والثمار والمنازل المختلفة بمثابة جنان.

(خيرات) جمع «خيرة» مخففة من «خيّرة» بالتشديد أي: نساء خيرات الصفات والأخلاق والشيم وقرأ بعضهم «خيِّرات» بتشديد الياء.

(حسان) أي: جميلات الوجوه والأبدان، جمع الله لهن بين جمال الخَلق والخُلق، وجمال الظاهر والباطن، ورُويَ أن الحور العين يغنين:

نحن الخيرات الحسان ... خلقنا لأزواج كرام

وقيل المراد بـ«خيرات» أي: خيرات كثيرة حسان في الجنة، أي: فيهن من أنواع الخير الشيء الكثير الحسن كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «قال الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر»(٤).

---

(١) أخرجه عبد بن حميد فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٨، الأثر ١٨٧٥٨.

(٣) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٢

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

ومع أن هذا المعنى صحيح، وهو أيضًا أعم من الأول، لكن الأظهر والذي يدل عليه السياق وبخاصة ما بعد هذا وهو قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ يرجح أن المراد بقوله: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ﴾ النساء الصالحات حسان الأخلاق والوجوه والأبدان، وذلك من نعم الله عز وجل على أهل هذه الجنان؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَىِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ حور: جمع حوراء، والحَوَر: سعة العين مع شدة بياضها وسوادها، وهو غاية جمالها، أي: نساء بيض واسعات الأعين.

﴿مَّقْصُورَٰتٌ﴾ أي: مخدرات مخفرات ﴿فِى ٱلْخِيَامِ﴾ الخيام: جمع خيمة، والخيمة في الأصل بيت من بيوت العرب مستدير يبنى من عيدان الشجر، والمراد بالخيام، في الآية خيام اللؤلؤ، فهن مصونات مكنونات في هذه الخيام، كما قال تعالى: ﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٌ ۝ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٨-٤٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة، عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين يطوف عليهم المؤمنون، جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما، وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن»[(١)].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ قال: خيام اللؤلؤ، وفي الجنة خيمة واحدة من لؤلؤة، أربعة فراسخ في أربعة فراسخ، عليها أربعة آلاف مصراع من الذهب»[(٢)].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «إن لكل مسلم خيرة ولكل خيرة خيمة، ولكل خيمة أربعة أبواب يدخل عليها في كل يوم من كل باب تحفة وهدية وكرامة لم تكن قبل ذلك، لا مراحات ولا طماحات، ولا بخرات، ولا ذفرات، حور عين كأنهن بيض مكنون»[(٣)].

ورُوِيَ عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «الخيمة لؤلؤة واحدة فيها سبعون

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٢٨ـ الأثر ١٨٧٥٩ـ مختصرًا.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/٣٣٢٨ـ الأثر ١٨٧٦٣ـ والطبري مختصرًا، في «جامع البيان» ٢٢/٢٦٢، ٢٦٨.

بابًا من در»[١].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أدنى أهل الجنة منزلة الذي له ثمانون ألف خادم واثنتان وسبعون زوجة، وتنصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد وياقوت، كما بين الجابية وصنعاء»[٢].

ويظهر فرق ما بين الجنتين الأوليين وهتين الجنتين في هذا فهناك قال: ﴿فِيهِنَّ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ﴾ بينما قال هنا: ﴿فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴿٧٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٧١﴾ حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ﴾ فمن قصرن طرفهن على أزواجهن باختيارهن لا ينظرن لغيرهم ولا يبتغين بهم بدلاً أفضل وأكمل ممن قُصِرن بغيرهن وإن كن جميعًا فاضلات.

ومن نعم الله عز وجل على أهل هتين الجنتين ما لهم فيهما من هذه النساء الجميلات المصونات المخدرات؛ ولهذا قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾ الطمث: الجماع والمعنى: لم يجامعهن ولم يطأهن قبلهم أحد من الإنس أو الجن فيزيل بكارتهن. قال الطبري[٣]: «لم يمسسهن إنس قبلهم بنكاح فيدميهن ولا جان».

وهذا الوصف تشترك فيه نساء أهل هتين الجنتين، مع نساء أهل الجنتين قبلهما لكنه زاد في وصف نساء الجنتين الأوليين بقوله: ﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ﴾ ولما كان من نعم الله على أهل هذه الجنان أن أزواجهم أبكار قال بعده: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾.

﴿مُتَّكِـِٔينَ﴾: حال، أي: مضطجعين، أو جالسين على هيئة التربع والاتكاء.

﴿عَلَىٰ رَفْرَفٍ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: «الرفرف: المحابس»[٤] وهي جمع محبس وهو ما يبسط على وجه الفرش العالية للاضطجاع والجلوس عليه براحة، أو غير ذلك من الوسائد والمساند وغيرها مما يتخذ للجلوس والاضطجاع.

﴿خُضْرٍ﴾ لونها أخضر، وهو أنسب ما يكون من الألوان للنظر، وأبهجها للقلب.

﴿وَعَبْقَرِىٍّ حِسَانٍ﴾ العبقري في الأصل الجيد القوي من كل شيء حتى من الناس، كما في قوله ﷺ: «أُريت كأني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين، فنزع

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٣.

(٢) أخرجه الترمذي في أبواب صفة الجنة ـ ما جاء ما لأدنى أهل الجنة من الكرامة ٢٥٦٢.

(٣) في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٢.

(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٢٧٤.

نزعاً ضعيفاً، والله تبارك وتعالى يغفر له، ثم جاء عمر فاستقى، فاستحالت غرباً، فلم أرعبقريا من الناس يفري فريه، حتى روي الناس، وضربوا العطن»[1] ومعنى «يفري فريه» أي: ينزع مثل نزعه من قوته ـ رضي الله عنه.

والمراد بقوله (وعبقري حسان): البسط والزرابي الجياد المخملة، والديباج الرقيق وغير ذلك مما يرتفق به ويتكأ عليه.

وقال السعدى[2]: «العبقرية نسبة لكل منسوج نسجًا حسنًا فاخرًا؛ ولهذا وصفها بالحسن الشامل لحسن الصفة والمنظر، ونعومة الملمس».

قال ابن كثير[3]:«وعلى كل تقدير فصفة مرافق أهل الجنتين الأولين أرفع وأعلى من هذه الصفة فإنه قد قال هناك: ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ فُرُشٍۭ بَطَآئِنُهَا مِنۡ إِسۡتَبۡرَقٖۚ﴾ فنعت بطائن فرشهم وسكت عن ظهائرها، اكتفاء بما مدح به البطائن بطريق الأولى والأحرى».

وقد استنبط ابن القيم من الآيات تفضيل الجنتين الأولين على الجنتين الأخرين من عشرة أوجه[4] قال في التاسع منها: «أنه بدأ بوصف الجنتين الأولين وجعلهما جزاء لمن خاف مقامه، وهذا يدل على أنهما أعلى جزاء الخائف لمقامه فرتب الجزاء المذكور على الخوف ترتيب المسبب على سببه، ولما كان الخائفون على نوعين مقربين، وأصحاب يمين، ذكر جنتي المقربين ثم ذكر جنتي أصحاب اليمين».

وقال ابن كثير[5]بعد كلامه المتقدم: «وتمام الخاتمة أنه قال بعد الصفات المتقدمة: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ﴾ فوصف أهلها بالإحسان، وهو أعلى المراتب والنهايات فهذه وجوه عديدة في تفضيل الجنتين الأولين على هتين الأخرين، ونسأل الله الكريم الوهاب أن يجعلنا من أهل الأولين».

أقول: اللهم اجعل ابن كثير منهم واجزه عن الإسلام والمسلمين وعن خدمة كتابك خير الجزاء، واجعلنا منهم ووالدينا ووالديهم وأقاربنا وجيراننا وعلماءنا وجميع إخواننا المسلمين ـ اللهم آمين.

---

(١) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٣٣، ومسلم في فضائل الصحابة ـ فضائل عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ٢٣٩٣، والترمذي في الرؤيا ٢٢٨٩ ـ من حديث عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٥٩.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٣٧-٣٣٩.

(٥) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

﴿تَبَٰرَكَ ٱسۡمُ رَبِّكَ ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ تبارك أي: تعالى وتعاظم، وكثر خيره وإحسانه وإنعامه.

قال ابن كثير[1]: «أي: هو أهل أن يجل فلا يُعصى، وأن يكرم فيعبد، ويشكر فلا يكفر، وأن يذكر فلا ينسى».

﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾ قرأ ابن عامر (ذو الجلال) بالواو بعد الذال، وقرأ الباقون بالياء ﴿ذِى ٱلۡجَلَٰلِ﴾ و «ذي»: بمعنى صاحب. والجلال: العظمة والكبرياء، والإكرام: الفضل التام. أي: الذي يجب أن يُجلَّ ويُعظَّم ويُكرَم والذي يُكرم عباده.

عن ربيعة بن عامر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ألظّوا[2] بيا ذا الجلال والإكرام»[3].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا سلم لا يقعد إلا مقدار ما يقول: «اللهم أنت السلام ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام»[4].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من إجلال الله إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط»[5]. وعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أجلوا الله يغفر لكم»[6].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن من دون الجنتين الموصوفتين في الآيات السابقة جنتان أعدهما الله لمن كان دون أصحاب تلك الجنتين فالأوليان للسابقين المقربين وهتان لأصحاب اليمين.

٢ ـ أن الخائفين ينقسمون إلى قسمين سابقون مقربون وأصحاب يمين.

٣ ـ فضل الله ـ عز وجل ـ وعدله حيث لم يساو الأعلى بمن هو دونه ولم يحرم الأدنى وهذا من نعم الله ـ عز وجل ـ، ولهذا قرر بها الثقلين.

٤ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لأصحاب هتين الجنتين ـ وإن كانتا دون الأوليين ـ

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٥.

(٢) ألظّوا: أي: الزموا، يقال: ألظ بفلان، أي: لزمه.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ١٧٧، والحاكم في مستدركه ١/ ٤٩٨-٤٩٩ وصححه، ووافقه الذهبي، وأخرجه الترمذي من حديث أنس عن النبي ﷺ في الدعوات ٣٥٢٤، وقال: «هذا حديث غريب، وقد رُويَ هذا الحديث عن أنس من غير هذا الوجه».

(٤) أخرجه مسلم في المساجد ـ استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٢، وأبو داود في الوتر ـ ما يقول الرجل إذا سلّم ١٥١٢، والنسائي في السهو ـ الذكر بعد الاستغفار ١٣٣٨، والترمذي في الصلاة ـ ما يقول الرجل إذا سلّم ٢٩٨، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ ما يقال بعد التسليم ٩٢٤.

(٥) أخرجه أبو داود في الأدب ـ في تنزيل الناس منازلهم ٤٨٤٣.

(٦) أخرجه أحمد ٥/ ١٩٩.

فخضرة شديدة، وعينان فياضتان بالماء، وفاكهة ونخل ورمان، وخيرات حسان، وحور مقصورات في الخيام لم يفتض بكارتهن قبلهم إنس ولا جان، وبسط للجلوس والاتكاء رقاق حسان. وهذا من أعظم النعم والنعيم، ولهذا قرر الثقلين به.

٥ ـ ثناء الله ـ عز وجل ـ على نفسه بالعلو والعظمة وكثرة الخير والإحسان والإنعام. وإثبات ربوبيته الخاصة لنبيه ﷺ.

٦ ـ امتنان الله عز وجل على الثقلين بربوبيته العامة لهم، ونعمه الكثيرة عليهم وفضله العظيم وتذكيرهم بذلك في ثنايا ذكر هذه النعم في آيات هذه السورة بقوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾؛ ولهذا يشرع أن يقال بعد هذه الآية: «ولا بشيء من نعمك ربنا نكذب فلك الحمد»[1]. وصدق الله العظيم ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

وقد كررت هذه الآية: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ في هذه السورة إحدى وثلاثين مرة، ثمان منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وعظيم نعمه وبدائع صنعه، ثم سبع عقب آيات فيها الوعيد للمكذبين والتحدي لهم وتخويفهم بالأهوال والعذاب، ثم ثماني آيات في وصف الجنتين الأولين، وثمان أخرى في وصف الجنتين دون الأولين.

٧ ـ تفاوت درجات نعيم أهل الجنة وصفات ما هم فيه من الجنان فلكل واحد من المقربين جنتان وصفهما وما فيهما من ألوان النعيم في غاية التمام والكمال والحسن والجمال والفضل والإحسان، ولكل واحد من أصحاب اليمين جنتان فيهما من ألوان النعيم كذلك لكنهما دون الأولين في ذلك كله.

ومن أعظم النعيم أن أهل الجنة على تفاوت منازلهم واختلاف درجاتهم كل منهم في غاية الرضا والراحة والسرور والطمأنينة، لا يرى أن أحدًا أحسن حالاً منه. ولا أعلى نعيمًا مما هو فيه، وذلك أن الله عز وجل بفضله وكرمه أذهب عن أهلها الحزن كما قال عز وجل: ﴿وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذْهَبَ عَنَّا ٱلْحَزَنَ﴾ [فاطر: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾ [الأعراف: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]؛ ولهذا جاء الامتنان على أهل الجنتين الأولين، واللتين دونهما جميعًا بتكرار قوله: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ مع كل منهما ثماني مرات توكيدًا وتذكيرًا.

---

(١) سبق تخريجه.

تفسير سورة الواقعة

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال أبو بكر: يا رسول الله، قد شبت؟ قال: «شيبتني هود والواقعة والمرسلات، وعَمَّ يَتَسَاءلُونَ، وإذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ»[1].

وعن أبي ظبية قال: مرض عبد الله ـ يعني عبد الله بن مسعود ـ مرضه الذي توفي فيه، فعاده عثمان بن عفان فقال: ما تشتكي؟ قال: ذنوبي. قال: فما تشتهي؟ قال: رحمة ربي قال: ألا آمر لك بطبيب؟قال: الطبيب أمرضني قال: ألا آمر لك بعطاء؟ قال: لا حاجة لي فيه قال: يكون لبناتك من بعدك. قال: أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أمرت بناتي يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»[2].

وعن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي الصلوات نحواً من صلاتكم، وكان يؤخر العتمة بعد صلاتكم شيئًا، وكان يخفف الصلاة»[3].

وفي رواية: «وكان يقرأ في الفجر (الواقعة) ونحوها من السور»[4].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ ۝١ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ۝٢ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ۝٣ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦ وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ۝٧ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ۝٨ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ۝٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝١٠﴾.

قوله ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ إذا: ظرف متعلق بقوله: ﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا﴾ وقيل: بغير ذلك.

والواقعة: اسم من أسماء القيامة، كالحاقة والقارعة ونحو ذلك، أي: إذا قامت القيامة، كما قال تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الحاقة: ١٥] أي: قامت القيامة، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾[الحاقة: ١ ، ٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في تفسير سورة الواقعة ٣٢٩٧ وقال: «هذا حديث حسن غريب»

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٨٧ نقلا عن ابن عساكر، وأبي يعلى وذكره ابن الأثير في «أسد الغابة» ٣/ ٣٨٩-٣٩٠.

(٣) أخرجه مسلم في المساجد ٦٤٣، والنسائي في المواقيت ٥٣٣، وأحمد ٥/ ١٠٤.

(٤) جاء هذا في رواية أحمد.

وحُذف جواب الشرط ليذهب الذهن في تقديره كل مذهب، أي: إذا قامت القيامة يحصل من الأهوال العظيمة والأحوال الفظيعة ما لا يخطر على البال، وانقسم الناس إلى أصناف ثلاثة حسب أعمالهم وجزائهم.

وسميت القيامة بالواقعة لتحقق كونها ووقوعها ومجيئها.

﴿لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾ أي: ليس لوقعتها كذب، بل لابد أن تكون وأن تقع لا محالة، إذا أراد الله كونها كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٩﴾﴾ [الشورى: ٢٩].

وعند وقوعها لا صارف يصرفها ولا دافع يدفعها ولا مانع يمنعها، كما قال عز وجل: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ ۚ مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ ﴿٤٧﴾﴾ [الشورى: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴿١﴾ لِّلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ ﴿٢﴾﴾ [المعارج: ١، ٢]، وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ الْحَقُّ ۚ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ ۚ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ۚ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾﴾ [الأنعام: ٧٣].

وليس لها نفس تكذب في وقوعها آنذاك؛ لأنه ليس الخبر كالعيان كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ [التكاثر: ٧]، وقال ﷺ: «ليس الخبر كالمعاينة»[(١)].

﴿خَافِضَةٌ﴾. أي: خافضة واضعة لأقوام: خفضاً حسياً بخفض منازلهم في أسفل سافلين، وفي سجين في دركات الجحيم كما قال عز وجل: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ ﴿٥﴾﴾ [التين: ٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ ﴿٧﴾﴾ [المطففين: ٧].

وخفضًا معنويًا يذهب بعزهم ويذلهم، كما قال عز وجل: ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ ﴿٤٩﴾﴾ [الدخان: ٤٩]، وقال تعالى:﴿ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ﴾ [الحج:١٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿١٥١﴾﴾ [النساء: ٥١].

وفي الحديث: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر في صور الرجال يغشاهم الذل يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»[(٢)].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه الترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٢، وأحمد ٢/ ١٧٩ ـ من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده ـ رضي الله عنه وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح»

(رَّافِعَةٌ) أي: رافعة لأقوام؛ رفعًا حسياً برفع منازلهم في أعلى عليين، وفي الفردوس الأعلى في جنات النعيم كما قال عز وجل: ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ لَفِى عِلِّيِّينَ ۝١٨﴾ [المطففين: ١٨]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝١١﴾ [المؤمنون: ١١].

ورفعًا معنويًا فيه عزهم وكرامتهم ورفع قدرهم وشأنهم. كما قال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[المجادلة: ١١].

ففي وقوع القيامة خفض لأعداء الله حسًا ومعنى، ورفعة لأولياء الله عز وجل حسًا ومعنى، وذلك أن النعيم حسي ومعنوي، كما أن العذاب حسي ومعنوي.

﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ۝٤ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ۝٥ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ۝٦﴾.

هذه الآيات في ذكر بعض ما يحدث في القيامة من الأهوال.

قوله: ﴿إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا﴾ أي: إذا حركت واضطربت تحريكاً واضطرابًا شديدًا، وزلزلت زلزالاً عظيمًا. كما قال تعالى: ﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَىْءٌ عَظِيمٌ ۝١﴾ [الحج: ١]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ﴾ [المزمل: ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١]، أي: حركت تحريكها الشديد.

﴿وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا﴾ أي: فتّتت الجبال تفتيتًا، بأن صارت وتحولت إلى أكوام من الرمل بعد أن كانت صخرًا صلدًا كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَتِ ٱلْجِبَالُ كَثِيبًا مَّهِيلًا ۝١٤﴾ [المزمل: ١٤].

﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا﴾ الهباء، ما لا يمسك منه شيء مما يتطاير في الجو وتذروه الرياح من الغبار والأتربة وشرر النار ويابس الشجر، وغير ذلك، ومنه ما يرى في شعاع الشمس عندما يدخل في الكوة.

(منبثاً) أي: متفرقاً منتشراً، بسبب خفته وضآلته وضحالته، كما قال عز وجل: ﴿وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ ۝٥﴾ [القارعة: ٥]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَكُونُ ٱلسَّمَآءُ كَٱلْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ۝٩﴾ [المعارج: ٩]، وقال عز وجل: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ ۚ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ تَمُورُ ٱلسَّمَآءُ مَوْرًا ۝٩ وَتَسِيرُ ٱلْجِبَالُ سَيْرًا ۝١٠﴾ [الطور: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَابًا ۝٢٠﴾ [النبأ: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ سُيِّرَتْ ۝٣﴾ [التكوير: ٣]، وقال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا

﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا ﴿١٠٧﴾ [طه: ١٠٥- ١٠٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْجِبَالُ نُسِفَتْ ﴿١٠﴾﴾ [المرسلات:١٠].

وإذا كانت الجبال وهي هذه المخلوقات العظيمة يعتريها ما يعتريها من التغيّر والتبدل والخفة والحركة والتسيير والنسف والتفتت فكيف بابن آدم المخلوق الضعيف الذي يريد دوام الحال ودوام الحال من المحال.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً﴾ أي: وكنتم عندما تقع الواقعة وتقوم القيامة أصنافًا ثلاثة.

﴿فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ أي: أصحاب اليمين الذين يؤخذ بهم ذات اليمين، ويكونون عن ميمنة العرش أي: عن يمين العرش، ويأخذون كتبهم بأيمانهم، كما قال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾﴾ [الحاقة: ١٩]، وقال عز وجل: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ﴿٧﴾ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا ﴿٨﴾﴾ [الانشقاق: ٧، ٨].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾ تعظيم لحالهم وشأنهم، أي: ما أعظم حال وشأن أصحاب الميمنة.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ أي: أصحاب الشؤم الذين يؤخذ بهم ذات الشمال، ويكونون عن يسار العرش، ويأخذون كتبهم بشمائلهم، كما قال عز وجل: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ ﴿١٠﴾ فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا ﴿١١﴾ وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا ﴿١٢﴾﴾ [الانشقاق: ١٠- ١٢].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ﴾ تحقير لحالهم وشأنهم، وتهويل لعقابهم وعذابهم.

﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ﴾ أي: والمسارعون المبادرون إلى فعل الواجبات وترك المنهيات، وفعل أنواع الخيرات وإلى مرضاة الله عز وجل ومغفرته وجنته.

﴿ٱلسَّٰبِقُونَ﴾ تأكيد، أي: والسابقون السابقون حقًا، أو والسابقون هم السابقون حقا، أوهم هم لا من عداهم. وفي هذا التعبير ما فيه من الثناء عليهم والإشارة والتنبيه لاتصافهم بأفضل الصفات، وما لهم عند الله من عظيم المنازل وأعلى الدرجات، وأيضا السابقون في الدنيا بالأعمال الصالحات والخيرات هم السابقون في الآخرة إلى المغفرة والجنات، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [البقرة:١٤٨]، وقال عز وجل: ﴿سَابِقُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ

ٱلْعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾ [الحديد: ٢١]، وقال عز وجل ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣ ـ ١٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَفِى ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ ٱلْمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد ذكر الله عز وجل في آخر هذه السورة حالة هؤلاء الأصناف الثلاثة، عند احتضارهم، كما ذكرهم في قوله تعالى ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [فاطر:٣٢].

قال ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾ قال: «هي التي في سورة فاطر ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِٱلْخَيْرَٰتِ﴾ [الآية: ٣٢]»[١].

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «أتدرون من السابقون إلى ظل الله عز وجل يوم القيامة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم قال: الذين إذا أعطوا الحق قبلوه، وإذا سُئلوه بذلوه وحكموا للناس كحكمهم لأنفسهم»[٢].

قال ابن كثير[٣] في كلامه على الآية ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾﴾: «أي: ينقسم الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: قوم عن يمين العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيمن، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين. قال السدي: وهم جمهور أهل الجنة، وآخرون عن يسار العرش، وهم الذين خرجوا من شق آدم الأيسر ويؤتون كتبهم بشمائلهم، ويؤخذ بهم ذات الشمال، وهم عامة أهل النار ـ عياذًا بالله من صنيعهم ـ وطائفة سابقون بين يديه وهم أخص وأحظى وأقرب من أصحاب اليمين الذين هم سادتهم فيهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء، وهم أقل عددًا من أصحاب اليمين».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٢٩ ـ الأثر ١٨٧٧٢.

(٢) أخرجه أحمد ٦/ ٦٧، ٦٩.

(٣) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٩.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات القيامة وتحقق وقوعها وشدة أهوالها.

٢ ـ لا أحد يكذب بالقيامة بعد وقوعها لأنه ليس الخبر كالعيان.

٣ ـ انخفاض منازل أقوام في ذلك اليوم إلى دركات الجحيم وهم الكفرة والمكذبون، وارتفاع منازل أقوام إلى أعلى عليين وهم المؤمنون المتقون.

٤ ـ اضطراب الأرض وارتجاجها وتفتت الجبال وكونها هباء متفرقاً يتطاير في الهواء لشدة أهوال القيامة.

٥ ـ انقسام الناس يوم القيامة إلى ثلاثة أصناف: أصحاب اليمين، وأصحاب الشمال، والسابقون المقربون.

٦ ـ عظم شأن أصحاب اليمين، وعظم حقارة أصحاب الشمال.

٧ ـ علو مكانة السابقين المقربين والثناء عليهم، وأنهم هم السابقون حقاً والمقربون.

٨ ـ الحث على المسابقة والمسارعة في طاعة الله تعالى، وأن أهل السبق في الدنيا هم أهل السبق في الآخرة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْأٓخِرِينَ ﴿١٤﴾ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُؤِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾ الإشارة للسابقين، وأشار إليهم بإشارة البعيد تنبيهًا على فضلهم وعلو مكانتهم، أي: المقربون من الله عز وجل، منهم الرسل والأنبياء والصديقون والشهداء. وذكر منزلتهم قبل ذكر منزلهم لأن قربهم من الله ـ عز وجل ـ أفضل من كل شيء، ولهذا قالت آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ـ رحمها الله ـ: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي ٱلْجَنَّةِ﴾[التحريم: ١١] فاختارت الجار قبل الدار.

﴿فِي جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ متعلق بقوله (المقربون) أي: المقربون عند الله وبين يديه في «جنات النعيم» في الفردوس الأعلى من الجنة الذي فوقه عرش الرحمن.

والجنات: جمع جنة وهي في لغة البساتين، كما قال تعالى: ﴿۞وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾﴾ [الكهف: ٣٢].

والمراد بـ«جنات النعيم» تلك المنازل الرفيعة، والدور العالية ذات الأشجار الملتفة الكثيرة والثمار اليانعة القريبة مما لا يُقدِّر قدر صفته إلا الله عز وجل كما قال عز وجل ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وقال ﷺ: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر»(١).

وعن سهل بن سعد الساعدى رضي الله عنه قال: شهدت مع رسول الله ﷺ مجلسًا وصف فيه الجنة حتى انتهى، ثم قال ﷺ في آخر حديثه: «فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، ثم اقترأ هذه الآية ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾»(٢).

---

(١) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها ٢٨٢٤، والترمذي في التفسير ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٥.

و«النعيم»: ما فيها من ألوان التنعم والنعم الحسية والمعنوية ونعيم البدن والقلب، ولهذا أضافها إليه فقال: (في جنات النعيم).

فهؤلاء السابقون في الدنيا إلى الخيرات السابقون في الآخرة لدخول الجنات المقربون عند رب الأرض والسموات.

﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ (ثلة) أي: جماعة كثيرة ﴿مِّنَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة، كما قال ﷺ: «خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم، ثم يجيء أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته»[(١)].

﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ﴾ أي: من آخر هذه الأمة.

فالمعنى على هذا: أن السابقين المقربين كثير منهم من أول هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

وهذا يدل على فضل صدر هذه الأمة على متأخريها، كما قال ﷺ «لا تسبوا أصحابي فإن أحدكم لو أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه»[(٢)].

وعن الزبير بن عدي قال: شكونا إلى أنس بن مالك ما نلقى من الحجاج، فقال: «اصبروا، فإنه لا يأتي عليكم عام أو يوم إلا والذي بعده شر منه حتى تلقوا ربكم عز وجل سمعته من نبيكم ﷺ»[(٣)].

وقيل: المراد بالأولين الأمم الماضية، والمراد بالآخرين هذه الأمة، فيكون المعنى على هذا أن السابقين المقربين كثير منهم من الأمم الماضية، وقليل منهم من هذه الأمة وذلك باعتبار مجموع المقربين من الأمم السابقة إلى المقربين من هذه الأمة، وليس المعنى أن المقربين من كل أمة من الأمم السابقة أكثر من المقربين من هذه الأمة.

وهذا المعنى خلاف ما دلت عليه النصوص من الكتاب والسنة.

---

(١) أخرجه البخاري في الشهادات ٢٦٥٢، ومسلم في فضائل الصحابة ٢٥٣٣، والترمذي في المناقب ٣٨٥٩، وابن ماجه في الأحكام ـ كراهية الشهادة لمن لم يستشهد ٢٣٦٢، وأحمد ١/ ٣٧٨ ـ من حديث ابن مسعود ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في فضائل الصحابة ـ قول النبي ﷺ: «لو كنت متخذًا خليلا» ٣٦٧٣، ومسلم في فضائل الصحابة ـ تحريم سب الصحابة رضي الله عنهم ٢٥٤١، وأبو داود في السنة ـ النهي عن سب أصحاب رسول الله ﷺ ٤٦٥٨، والترمذي في المناقب ـ من سب أصحاب النبي ﷺ ٣٨٦١، وأحمد ٣/ ١١، ٥٤ من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في الفتن ٧٠٦٨، والترمذي في الفتن ٢٢٠٦.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران:١١٠]، وقال تعالى ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «نحن الآخرون السابقون يوم القيامة، بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذي فرض عليهم اختلفوا فيه، فهدانا الله فيه، فالناس لنافيه تبع، اليهود غدًا والنصارى بعد غد»(١).

وفي حديث الإسراء: «أن موسى عليه السلام بكى فقيل: ما يبكيك؟ فقال: أبكي لأن غلامًا يبعث بعدي، يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي»(٢).

فالظاهر الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة هو القول الأول وهو أن المعنى: جماعة كثيرة من المقربين من صدر هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لما نزلت: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝﴾ شق ذلك على المسلمين فنزلت ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ۝ وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ۝﴾ فقال النبي ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، ثلث أهل الجنة، بل أنتم نصف أهل الجنة، أو شطر أهل الجنة، وتقاسمونهم النصف الثاني»(٣).

وفي حديث أبي سعيد ـ رضي الله عنه ـ قال ﷺ: «وإني أرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: ثلث أهل الجنة، فكبرنا، ثم قال: شطر أهل الجنة، فكبرنا»(٤).

وفي حديث بريدة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف ثمانون منها من هذه الأمة وأربعون من سائر الأمم»(٥).

قال ابن كثير(٦) بعدما ذكر اختيار ابن جرير للقول بأن المراد بالأولين الأمم

---

(١) اخرجه البخاري في الجمعة ٨٧٦، ومسلم في الجمعة ٨٥٥، والنسائي في الجمعة ١٣٦٧.

(٢) اخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٠٧، ومسلم في الإيمان ١٦٤، والنسائي في الصلاة ٤٤٨ ـ من حديث أنس بن مالك عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.

(٣) اخرجه أحمد ٢/ ٣٩١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٠ – الأثر ١٨٧٧٥، وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٩٢.

(٤) أخرجه البخاري في التفسير ٤٧٤١، ومسلم في الإيمان ٢٢٢.

(٥) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٦، وابن ماجه في الزهد ٤٢٨٩ ـ وقال الترمذي «حديث حسن».

(٦) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٢.

الماضية وبالآخرين هذه الأمة: «وهذا الذي اختاره ابن جرير ههنا فيه نظر، بل هو قول ضعيف؛ لأن هذه الأمة هي خير الأمم بنص القرآن فيبعد أن يكون المقربون في غيرها أكثر منها، اللهم إلا أن يقابل مجموع الأمم بهذه الأمة، والظاهر أن المقربين من هؤلاء أكثر من سائر الأمم، فيكون المراد بقوله: ﴿ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ أي: من صدر هذه الأمة ﴿وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْآخِرِينَ﴾ أي: من هذه الأمة».

وقال ابن كثير أيضًا[1]: «ولاشك أن أول كل أمة خير من آخرها، فيحتمل أن يعم الأمر جميع الأمم كل أمة بحسبها».

ثم ذكر ابن كثير رحمه الله حديث عمار بن ياسر قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر، لا يدرى أوله خير أم آخره»[2]، ثم قال: «فهذا الحديث بعد الحكم بصحة إسناده محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم وكذلك الزرع الذي يحتاج إلى المطر الأول وإلى المطر الثاني، ولهذا قال عليه السلام: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم إلى قيام الساعة » وفي لفظ: « حتى يأتي أمر الله وهم كذلك»[3].

والغرض أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة، لشرف دينها وعظيم قدر نبيها، ولهذا ثبت بالتواتر عن رسول الله ﷺ أنه أخبر «أن في هذه الأمة سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب» وفي لفظ: «مع كل ألف سبعون ألفاً» وفي آخر: «مع كل واحد سبعون ألفاً»[4]، ثم ذكر ابن كثير حديث

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٣١٩. وأخرجه الترمذي في الأمثال ٢٨٦٩ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «مثل أمتي مثل المطر لا يدرى أوله خير أم آخره». وقال الترمذي: «حسن غريب من هذا الوجه».

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام ـ قول النبي ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي» ٧٣١١، ومسلم في الإمارة ١٩٢١ ـ من حديث المغيرة بن شعبة ـ رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الطب ٥٧٥٢، ومسلم في الإيمان ٢٢٠، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٤٦، من حديث ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ عن النبي ﷺ قال: «عرضت عليّ الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهط، والنبي ومعه الرجل والرجلان،، والنبي وليس معه أحد، إذ رفع لي سواد عظيم، فظننت أنهم أمتي، فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم، فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سواد عظيم، فقيل لي هذه امتك، ومعهم سبعون الفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب».

أبي مالك قال: قال رسول الله ﷺ: «أما والذي نفسي بيده ليبعثن منكم يوم القيامة مثل الليل الأسود زمرة جميعها يحيطون الأرض، تقول الملائكة: لَمَا جاء مع محمد ﷺ أكثر مما جاء مع الأنبياء عليهم السلام»[1].

﴿عَلَىٰ سُرُرٍ﴾ السرر: جمع سرير وهو موضع الاتكاء والجلوس والاضطجاع ﴿مَّوْضُونَةٍ﴾ أي: منسوجة بالذهب مصفوف بعضها إلى جانب بعض، ليس بعضها خلف بعض ولا بعيدًا من بعض.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا﴾ جالسين عليها معتمدين على أيديهم وظهورهم، جلوس المتكئ المرتاح المنبسط المطمئن المستقر.

﴿مُتَقَـٰبِلِينَ﴾ أي: يقابل بعضهم بعضًا بقلوبهم ووجوههم، لسعة المكان ولسلامة قلوبهم وصفاء مودتهم وحسن أدبهم، ليس أحد منهم وراء الآخر، ولا أحد منهم يدير قفاه إلى الآخر، بل يقبل بعضهم على بعض بوجهه وكليته والاستماع إلى كلامه، وهذا مما يزيد في الأنس والسرور والمحبة نسأل الله عز وجل من فضله لأن الله عز وجل أذهب عن أهل الجنة الغل. قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَـٰبِلِينَ﴾[الحجر: ٤٧].

وهكذا ينبغي أن يتأدب بهذا الأدب المؤمنون بعضهم مع بعض مادامو في دار العمل.

ولك أخي الكريم أن تتصور مدى كراهة من يدير قفاه إلى إخوانه غير مكترث بالآداب الشرعية والأحكام المرعية مما يولد الكراهية والغل والحقد والضغينة في نفوس الآخرين. ولهذا نهى ﷺ عن التدابر فقال ﷺ: «لا تباغضوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا وكونوا عباد الله إخوانا»[2].

﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: يدور عليهم لقضاء حوائجهم ﴿وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ﴾ (ولدان) جمع ولد، أو جمع وليد، وهم صغار الأسنان، قال تعالى ﴿وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ﴾ [النساء:٧٥] وهم في غاية الحسن والبهاء، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾﴾ [الطور: ٢٤].

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ٢/ ١٢٦. وانظر «تفسير ابن كثير» ٧/ ٤٩٣.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب ٦٠٦٥، ومسلم في البر والصلة ٢٥٥٩، وأبو داود في الأدب ٤٩١٠، والترمذي في البر والصلة ١٩٣٥ ـ من حديث أنس ـ رضي الله عنه.

﴿مُّخَلَّدُونَ﴾ أي: باقون على هيئتهم لا يكبرون ولا يشيبون ولا يتغيرون.

﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ﴾ متعلق بقوله ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ﴾ أي: يطوف عليهم هؤلاء الولدان بآنية شرابهم، والأكواب: جمع كوب، وهي: الكيزان والأقداح التي لا عرى لها ولا خراطيم.

والأباريق: جمع إبريق، وهي ما لها عرى وخراطيم.

(وكأس) الكأس: هو القدح والمراد به، كأس الخمر.

﴿مِّن مَّعِينٍ﴾ أي: من خمر معين، والمعين: هو الذي لا ينضب، كما قال عز وجل ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ۝٣٠﴾ [الملك: ٣٠].

والمعنى: وكأس من عين جارية من خمر لا تنضب أبدًا، في غاية اللذة والنشوة والطرب، كما قال عز وجل ﴿وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ﴾ [محمد: ١٥].

﴿لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ قرأ حمزة والكسائي وخلف وعاصم (ولا يُنزِفون) بكسر الزاي، وقرأ الباقون بفتحها أي: لا يحصل لهم صداع في رؤوسهم عند شربها، ولا نزيف في بطونهم، ولا في عقولهم يجعلهم يهذون بما لا يدرون، ويقولون ويفعلون ما لا يعقلون، كما هو الحال بالنسبة لخمر الدنيا.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «في الخمر أربع خصال: السكر، والصداع، والقيء، والبول، فذكر الله عز وجل خمر الجنة، ونزهها عن هذه الخصال»[(١)].

﴿وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ معطوف على ما قبله أي: ويطوف عليهم الولدان بفاكهة مما يتخيرون من أنواع الفواكه والثمار. للذتها وطيب طعمها ومذاقها، وزكاء رائحتها وحسن منظرها وغير ذلك.

قال ابن كثير[(٢)]: «وهذه الآية دليل على جواز أكل الفاكهة على صفة التخير لها ـ ثم استدل بحديث عكراش بن ذؤيب، وفيه: أن رسول الله ﷺ أخذ بيده، قال: «فانطلقنا إلى منزل أم سلمة، فقال: هل من طعام؟ قال: فأتينا بجفنة كثيرة الثريد والوذر[(٣)]، فجعل يأكل منها، فأقبلت بيدي في جوانبها، فقبض رسول الله ﷺ بيده

---

(١) ذكره ابن كثير في تفسيره» ٧/ ٤٩٥-٤٩٦.

(٢) في «تفسيره» ٧/ ٤٩٦.

(٣) الوذر: قطع من اللحم لا عظم فيها، واحدها وذرة. انظر «لسان العرب» مادة «وذر».

اليسرى على يدي اليمني، فقال: يا عكراش كل من موضع واحد، فإنه طعام واحد، ثم أتينا بطبق فيه تمر ـ أو رطب، فجعلت آكل من بين يدَيّ، وجالت يد رسول الله ﷺ في الطبق، وقال: يا عكراش، كل من حيث شئت، فإنه غير لون واحد...»[(١)].

فإذا كان الطعام متنوعًا ومختلفًا فللإنسان أن يمد يده إلى ما شاء منه، أما إذا كان الطعام واحدًا فينبغي أن يأكل مما يليه كما جاء في حديث عمر بن أبي سلمة رضي الله عنه قال: «كنت غلاماً في حجر النبي ﷺ، وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك»[(٢)].

على أن الآية (وفاكهة مما يتخيرون) قد تحمل أيضًا على أن المراد بها مما يتخيرون من أنواع الأشجار وصنوف الثمار فيقطفونها من شجرها.

﴿وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ﴾ معطوف على قوله ﴿وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ﴾ مما يدل على أن اللحم يؤكل بعد الفاكهة ـ خلاف ما عليه حال كثير من الناس اليوم. وقد دل الطب على أن تقديم الفاكهة أفضل وأنفع للجسم.

وقد قيل:

وقَدِّ مَنْ فاكهة في الأكل   قبل الطعام لحصول النفع

والمعنى: ولحم طير من الذي تشتهيه نفوسهم.

عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن طير الجنة كأمثال البخت يرعى في شجر الجنة» فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هذه لطير ناعمة. فقال: «أَكَلَتُها أنعم منها قالها ثلاثًا ـ وإني لأرجو أن تكون ممن يأكل منها يا أبا بكر»[(٣)].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكرت عند النبي ﷺ طوبى، فقال رسول الله ﷺ: «هل بلغك ما طوبى؟ قال: الله ورسوله أعلم. قال: طوبى شجرة في الجنة، ما يعلم طولها إلا الله، يسير الراكب تحت غصن من أغصانها سبعين خريفًا، ورقها

---

(١) أخرجه الترمذي في الأطعمة ـ ما جاء في التسمية على الطعام ١٨٤٨، وابن ماجه في الأطعمة ـ الأكل مما يليك ٣٢٧٤، وقال الترمذي «غريب».

(٢) أخرجه البخاري في الأطعمة ٥٣٧٦، ومسلم في الأشربة ٢٠٢٢، وأبو داود في الأطعمة ٣٧٧٧، وابن ماجه في الأطعمة ٣٢٦٧.

(٣) أخرجه أحمد ٣/ ٢٢١.

الحلل يقع عليها الطير كأمثال البخت. فقال أبو بكر: يا رسول الله، إن هناك لطيرًا ناعمًا؟ قال: أنعم منه من يأكله، وأنت منهم إن شاء الله»(١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله ﷺ ما الكوثر؟ قال: «ذاك نهر أعطانيه الله ـ يعني في الجنة ـ أشد بياضًا من اللبن، وأحلى من العسل فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر: إن هذه لناعمة، قال رسول الله ﷺ: أكلتها أحسن منها»(٢).

﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ قرأ أبو جعفر وحمزة والكسائي ﴿وحورٍ عينٍ﴾ بالجر، وقرأ الباقون بالرفع.

فمن قرأ بالجر عطفه على ما قبله، أي: ﴿يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ ۝ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِنْ مَعِينٍ ۝ وَفَاكِهَةٍ مِمَّا يَتَخَيَّرُونَ ۝ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ ۝ وحورٍ عينٍ ۝﴾ أي: ويطوفون عليهم بحور عين.

ويحتمل أن يكون (وحور) على قراءة الجر مجروراً على المجاورة والإتباع لما قبله، كما في قوله: ﴿وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ﴾ [المائدة:٦] على قراءة جر (وأرجلِكم) وكما في قوله ﴿عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُندُسٍ خضرٍ﴾ [الإنسان: ٢١] على قراءة جر (خضرٍ).

والأظهر القول الأول إذ لا إشكال في عطفها على ما قبلها، وكون الحور العين مما يطوف به عليهم خدمهم في الجنة، ولا حاجة للإعراب على الإتباع والمجاورة.

وعلى قراءة الرفع يكون قوله: (وحور) مرفوع على الابتداء، أو على أنه خبر والتقدير وحور عين لهم، أو ولهم حور عين.

ومعنى ﴿وَحُورٌ عِينٌ﴾ أي: ونساء جميلات واسعات الأعين مع شدة سواد العين وشدة بياضها وحسنها.

﴿كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ﴾ أي: كأشباه اللؤلؤ، أي: كأنهن اللؤلؤ الرطب الذي هو من أحسن الجواهر وأطيبها وأنفسها.

﴿الْمَكْنُونِ﴾ أي: المصون، في أصدافه في بياضه وصفائه، الذي لم تمسه الأيدى، كما قال

---

(١) اخرجه الحافظ الموصلي في كتابه «صفة الجنة» فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٧/ ٤٩٧.

(٢) اخرجه الترمذي في صفة الجنة ـ ما جاء في صفة طير الجنة ٢٥٤٢، وقال الترمذي «حديث حسن غريب».

تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ۝﴾ [الصافات: ٤٩]، وقال تعالى:﴿كَأَنَّهُنَّ ٱلْيَاقُوتُ وَٱلْمَرْجَانُ ۝﴾ [الرحمن: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿حُورٌ مَّقْصُورَٰتٌ فِى ٱلْخِيَامِ ۝﴾ [الرحمن: ٧٢].

﴿جَزَآءً﴾ أي: مجازاة لهم ﴿بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (ما) موصولة أو مصدرية أي: مجازاة لهم بالذي كانوا يعملونه، أو بعملهم، أي: هذا الجزاء العظيم والثواب الجزيل الذي أعده الله للسابقين المقربين مجازاة لهم بسبب عملهم الذي كانوا فيه من السابقين المبادرين المسارعين إلى الخير والمتنافسين فيه.

﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا﴾ أي: لا يسمعون في تلك الجنات جنات النعيم لغوًا من القول، أي: لا يسمعون كلامًا لاغيًا ساقطًا غثاءً خاليًا من المعنى عديم الفائدة، حقيرًا وضيعًا كما قال عز وجل:﴿ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝﴾ [النبأ: ٣٥]، وقال عز وجل ﴿لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَٰغِيَةً ۝﴾ [الغاشية: ١١] أي: لا تسمع فيها كلمة لاغية.

﴿وَلَا تَأْثِيمًا﴾ أي: ولا يسمعون فيها كلامًا قبيحًا محرمًا، يوجب الإثم على قائله، وسامعه، من كلمات الشرك والكفر والزندقة، والغيبة والنميمة والباطل والكذب وغير ذلك، كما قال عز وجل في سورة النبأ ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ۝﴾ [النبأ: ٣٥] وقال تعالى في خمر الجنة: ﴿يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لَّا لَغْوٌ فِيهَا وَلَا تَأْثِيمٌ ۝﴾ [الطور: ٢٣].

﴿إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ إلا: أداة استثناء، بمعنى «لكن» فالاستثناء منقطع أي: لا يسمعون فيها لغواً ولا تأثيما لكنهم يسمعون فيها السلام. والمعنى: أنهم لا يسمعون إلا السلام الذي هو ضد اللغو والتأثيم، فنفى سماعهم اللغو والتأثيم، وأثبت لهم سماع ضده وهو السلام.

وقوله ﴿سَلَٰمًا سَلَٰمًا﴾ أي: لا يسمعون إلا السلام المتكرر، كما قال تعالى: ﴿لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَٰمًا﴾ [مريم: ٦٢] أي: لا يسمعون إلا السلام من ربهم ومن الملائكة، ومن بعضهم على بعض ـ نسأل الله تعالى من فضله ـ قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ قَوْلًا مِّن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ۝﴾ [يس: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ﴾ [الأحزاب:٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝﴾ [الرعد: ٢٣، ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَٱدْخُلُوهَا خَٰلِدِينَ ۝﴾ [الزمر: ٧٣] وقال تعالى:﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ﴾ [يونس: ١٠]، وقال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ ۝﴾ [إبراهيم: ٢٣]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمُ﴾ [النحل: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾﴾ [الفرقان: ٧٥].

وهذا من النعيم المعنوي الذي لا يقل عن النعيم الحسي مما يشرح الصدور ويؤنس القلوب.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن السابقين هم المقربون عند الله تعالى في جنات النعيم.

٢ ـ أن السابقين المقربين أكثرهم من صدر هذه الأمة وقليل منهم من آخرها.

٣ ـ علو مرتبة السابقين المقربين عند الله، وعظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ لهم من النعيم كيفية وكمية فسرر مصفوفة منسوجة بالذهب، ومجالس متقابلة، وغلمان مخلدون يدورون عليهم بشرابهم وطعامهم وحوائجهم، وأقداح وأباريق، وكأس خمر من معين لا ينضب، لا صداع فيه ولا نزيف، وفواكه مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون ونساء حسان جميلات كاللؤلؤ المصون بياضاً وصفاء.

٤ ـ أن من أعظم نعيم السابقين المعنوي سلامة قلوبهم من الغل والحقد والحسد، وتنزيه أسماعهم في الجنة من سماع اللغو والتأثيم، وسماعهم السلام من ربهم ومن الملائكة ومن بعضهم البعض.

٥ ـ بيان أن ما أعده الله للسابقين المقربين من الفضل العظيم والثواب الجسيم بسبب سبقهم بالخيرات والأعمال الصالحة، وفي هذا ترغيب للمنافسة والمسابقة في ذلك. وأن العمل سبب لدخول الجنة والنعيم، وليس بعوض عن ذلك.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾ وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة حال ومآل السابقين المقربين وفصّل ما أعده لهم من ألوان وأنواع النعيم، ثم عطف عليهم بذكر حال ومآل أصحاب اليمين وتفصيل ما أعده لهم من ألوان وأنواع النعيم.

قوله: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ أصحاب اليمين: هم مَنْ منزلتهم دون المقربين.

قال ابن كثير[(١)]: «يكونون على يمين العرش، ويؤتون كتبهم بأيمانهم ويؤخذ بهم ذات اليمين، وهم الأبرار».

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ تعظيم لشأنهم، وحالهم ومآلهم.

﴿فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ﴾ السدر هو شجر النبق ظله بارد ومنشط (مخضود) موقر منضود بالثمر من أسفله إلى أعلاه قد قطع ونزع شوكه، بخلاف سدر الدنيا فهو كثير الشوك قليل الثمر.

عن سليم بن عامر ـ رضي الله عنه ـ قال: كان أصحاب رسول الله ﷺ ـ يقولون: إن الله لينفعنا بالأعراب ومسائلهم، قال: أقبل أعرابي يومًا فقال: يا رسول الله، ذكر الله في الجنة شجرة تؤذي صاحبها؟ فقال رسول الله ﷺ: وما هي؟ قال: السدر، فإن له شوكًا مؤذيًا فقال رسول الله ﷺ: «أليس الله يقول: (في سدر مخضود) خضد الله شوكه، فجعل مكان كل شوكة ثمرة، فإنها لتنبت ثمرًا تفتق الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونًا من طعام، ما فيها لون يشبه الآخر»[(٢)].

ولهذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: «ليس في الدنيا مما في الجنة إلا الأسماء»[(٣)].

﴿وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ﴾ الطلح شجر عظيم كثير الشوك معروف، ويطلق الطلح عند أهل اليمن

---

(١) في «تفسيره» ٧/ ٤٨٩، ٨/ ٣.

(٢) أخرجه ابن المبارك في «زيادات الزهد» ص ٧٤-٧٥، والحاكم ٢/ ٤٧٦ ـ من حديث سليم بن عامر عن أبي أمامة وصححه ووافقه الذهبي، وأخرجه البيهقي في «البعث والنشور» ص ١٨٧.

(٣) سبق تخريجه.

على شجر الموز، وهو المراد بالطلح في الآية عند كثير من المفسرين من الصحابة والتابعين منهم ابن عباس وأبو هريرة ومجاهد وقتادة وعكرمة والحسن وابن زيد وهو اختيار الطبري[١].

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما: «يشبه طلح الدنيا ولكن له ثمر أحلى من العسل»[٢].

قال ابن القيم[٣]: بعد أن ذكر قول أكثر المفسرين أنه الموز، وما قيل من أنه شجر ذو شوك نضيد مكان كل شوكة ثمرة، فثمره قد نضد بعضه إلى بعض فهو مثل الموز. قال ابن القيم: «وهذا القول أصح، ويكون من ذكر الموز من السلف أراد التمثيل لا التخصيص، والله أعلم».

وُروي عن علي رضي الله عنه قال: «هذا الحرف (طلح منضود) قال: طلع منضود»[٤]، وهكذا قال الجوهري في الصحاح[٥]: «والطلح: لغة في الطلع».

قال ابن كثير[٦]: «فعلى هذا يكون هذا من صفة السدر فكأنه وصفه بأنه مخضود، وهو الذي لا شوك له، وأن طلعه منضود، وهو كثرة ثمره والله أعلم».

وقوله (منضود) أي: متراكم الثمر مصفوفه، كما قال عز وجل: ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: ١٠] أي: منضود متراكم بعضه فوق بعض.

(وظل ممدود) أي: ظل ممتد دائم ليس فيه شمس ولا حر، كما قال تعالى: ﴿لَّهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا ﴿٥٧﴾﴾ [النساء: ٥٧]، وقال تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ﴾ [الرعد:٣٥]، وقال تعالى: ﴿هُمْ وَأَزْوَٰجُهُمْ فِى ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾﴾ [يس: ٥٦]، وقال تعالى:﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى ظِلَٰلٍ وَعُيُونٍ ﴿٤١﴾﴾ [المرسلات: ٤١]، وقال تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ﴿١٣﴾﴾ [الإنسان: ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها، اقرؤوا إن شئتم (وظل ممدود)»[٧]. وفي رواية

---

(١) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣١٠-٣١١، «تفسير ابن أبي حاتم» ١٠/ ٣٣٣٠.
(٢) انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٤.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٤٨.
(٤) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٤.
(٥) مادة «طلح» وانظر «لسان العرب» نفس المادة.
(٦) في «تفسيره» ٨/ ٤.
(٧) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة ٣٢٥٣، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ـ باب: إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها ٢٨٢٦، والترمذي في فضائل الجهاد ٢٥٢٢، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٥، وأحمد ٢/ ٤٥٢، ٤٨٢، والطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣١٤-٣١٦.

«إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها سبعين أو مائة سنة، هي شجرة الخلد»(١).

وعن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة لشجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»(٢).

وعن أبي سعيد وسهل بن سعد رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها»(٣).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «الجنة سَجْسَج(٤)، كما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس»(٥).

﴿وَمَآءٍ مَّسۡكُوبٍ﴾ أي: وماء مصبوب يجري في غير أخدود. كما قال ابن القيم رحمه الله في صفة أنهار الجنة :(٦)

أنهارها في غير أخدود جرت ... سبحان ممسكها عن الفيضان

﴿وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ﴾ أي: وعندهم فاكهة كثيرة من أنواع الفواكه المختلفة والمتنوعة في الطعوم والألوان كما قال تعالى: ﴿كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزۡقًا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٥﴾ [البقرة: ٢٥] أي: يشبه بعضها بعضًا في الشكل مع اختلاف الطعم.

وقال ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «انتهيت إلى السدرة ـ يعنى سدرة المنتهى ـ فإذا نبقها مثل الجرار، وإذا ورقها مثل آذان الفيلة، فلما غشيها من أمر الله ما غشيها تحولت ياقوتًا وزمردًا» (٧)، وفي رواية: «فإذا نبقها كأنه قلال هجر»(٨) وفي رواية «وإذا ثمرها كالقلال»(٩).

---

(١) أخرجها احمد ٢/ ٤٤٥.
(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥١.
(٣) أخرجه البخاري في الرقاق ـ صفة الجنه والنار ٦٥٥٣ ، ومسلم في صفة الجنه – إن في الجنة شجرة يسير الراكب، في ظلها مائة عام لا يقطعها ٢٨٥٢.
(٤) أي : ظلها معتدل لا حر ولا برد.
(٥) ذكره ابن كثير في (تفسيره) ٨/ ٧.
(٦) في النونية ص ٢٢٩.
(٧) أخرجه أحمد٣/ ١٢٨، ١٦٤.
(٨) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ باب ذكر الملائكة ٣٢٠٧، وأحمد ٤/ ٢٠٧، ٢٠٨ ـ من حديث أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رضي الله عنهما.
(٩) أخرجها مسلم في الإيمان ـ الإسراء برسول الله ﷺ إلى السموات وفرض الصلوات ١٦٢ ـ من حديث أنس =

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خسفت الشمس فصلى رسول الله ﷺ - والناس معه، فذكر الصلاة وفيه: قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئًا في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت. قال: «إني رأيت الجنة، فتناولت منها عنقودًا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[١].

وعن جابر رضي الله عنه قال: بينا نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا معه، ثم تناول شيئًا ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئًا ما كنت تصنعه؟ قال: «إنه عُرِضَتْ علي الجنة، وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه شيئًا»[٢].

﴿لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تنقطع عنهم في وقت من الأوقات كما هو الحال في ثمار الدنيا منها ما ينقطع في الصيف ومنها ما ينقطع في الشتاء.

﴿وَلَا مَمْنُوعَةٍ﴾ أي: لا تمنع عنهم أبدًا، ولا يحال بينهم وبين تناولها، بل هي سهلة المأخذ، قريبة المنال.

والمعنى: لا هي تنقطع، ولا مانع يمنعها عنهم، بل هي دائمة مستمرة، كما قال عز وجل ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ [الرعد: ٣٥].

﴿وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ﴾ أي: وفرش مرتفعة عالية عن الأرض على الأسرة، ومرتفعة في سمكها مما يجعلها وطيئة لينة ناعمة.

﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: نساء أهل الجنة، وأعاد الضمير في قوله: ﴿أَنشَأْنَٰهُنَّ﴾ على غير مذكور، لأنه سبق ما يدل عليهن وهي الفرش.

ومعنى قوله ﴿إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً﴾ أي: أنه عز وجل أنشأهن، أي أوجدهن وخلقهن ﴿إِنشَآءً﴾، أي: خلقًا جديدًا.

﴿فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا﴾ أي: في النشأة الآخرة جعلناهن أبكارًا بعد أن كن ثيبات.

=

رضي الله عنه.

(١) اخرجه البخاري في الأذان ٧٤٨، ومسلم في الكسوف ٩٠٧، والنسائي في الكسوف ١٤٩٣.

(٢) اخرجه أحمد ٣/ ٣٥٢-٣٥٣، ٥/ ١٣٧، وأبو يعلى فيما ذكر ابن كثير انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٧.

وقد يراد بذلك الحور العين فهن أبكار، أو الأبكار من نساء الدنيا اللاتي لم يتزوجن في الدنيا.

والبكر هي التي لم تفتض بكارتها بعد، كما قال تعالى:﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ ﴿٧٤﴾﴾ [الرحمن: ٥٦، ٧٤]. ونساء الجنة مهما جامعها زوجها عادت بكراً.

عن الحسن ـ رحمه الله ـ قال: أتت عجوز، فقالت: يا رسول الله، ادع الله أن يدخلني الجنة فقال: «يا أم فلان إن الجنة لا تدخلها عجوز» فولت تبكي، قال: أخبروها أنها لا تدخلها وهي عجوز، إن الله تعالى يقول:﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾﴾»[1].

﴿عُرُبًا﴾ قرأ حمزة وعاصم في رواية شعبة (عُرْبًا) بتسكين الراء، وقرأ الباقون بضمها، و (عربًا) جمع عروب، وهن المطيعات لأزواجهن المتعشقات لهم، والمتحببات إليهم بحسن العشرة، وحسن التبعل من اللطافة والرشاقة والظرافة والحلاوة والملاحة والتجمل والتغنج والتكسر والدلال والأدب وحسن الكلام ورقة الخطاب فجمع الله لهن بين حسن الصورة وحسن العشرة، بين حسن الخَلق، وحسن الخُلُق.

(أترابًا) أي: مستويات متماثلات في السن وهو ثلاث وثلاثون سنة، وفي الحسن، متواخيات بينهن مؤتلفات، لا تباغض بينهن ولا تحاسد.

عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله أخبرني عن قول الله ﴿ وَحُورٌ عِينٌ ﴾ قال: «حور: بيض، عين: ضخام العيون، شُفْر[2] الحوراء بمنزلة جناح النسر» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴾ قال: «صفاؤهن صفاء الدر الذي في الأصداف، الذي لم تمسسه الأيدي» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿ فِيهِنَّ خَيْرَٰتٌ حِسَانٌ ﴾ قال: «خيرات الأخلاق حسان الوجوه» قلت: أخبرني عن قوله: ﴿ كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ ﴾ قال: «رقتهن كرقة الجلد الذي رأيت في داخل البيضة مما يلي القشر، وهو الغِرْقئُ» قلت: يا رسول الله أخبرني عن قوله: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ قال: «هن اللواتي

(١) أخرجه الترمذي في الشمائل، وأخرجه البيهقي في «البعث والنشور» ٣٤٦، والبغوي في «معالم التنزيل» ١٩/٧ من طريق الترمذي. وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٩/٨، وقد أخرجه من حديث عائشة بمعناه ـ البيهقي في البعث والنشور ص٢١٦، وأبو نعيم في «تاريخ أصبهان» ١٠٧/٢، وفي «صفة الجنة» ٢٣١/٣، ونسبه الهيثمي في «مجمع الزوائد» ٤١٩/١٠، للطبراني في الأوسط.

(٢) الشفر: جفن العين الذي ينبت عليه الشعر، انظر: «لسان العرب» مادة «شفر».

قبضن في دار الدنيا عجائز رمصًا شمطًا، خلقهن الله بعد الكبر، فجعلهن عذارى عربًا متعشقات متحببات، أترابًا: على ميلاد واحد» قلت: يا رسول الله، نساء الدنيا أفضل أم الحور العين؟ قال: «بل نساء الدنيا أفضل من الحور العين، كفضل الظهارة على البطانة» قلت: يا رسول الله وبم ذاك؟ قال:« بصلاتهن وصيامهن وعبادتهن الله عز وجل، ألبس الله وجوههن النور، وأجسادهن الحرير، بيض الألوان، خضر الثياب، صفر الحلي، مجامرهن الدر، وأمشاطهن الذهب، يقلن نحن الخالدات فلا نموت أبدًا، ونحن الناعمات فلا نبأس أبدًا، ونحن المقيمات فلا نظعن أبدًا، ألا ونحن الراضيات فلا نسخط أبدًا، طوبى لمن كنا له وكان لنا» قلت: يا رسول الله المرأة منا تتزوج زوجين والثلاثة والأربعة، ثم تموت فتدخل الجنة ويدخلون معها، من يكون زوجها؟ قال: «يا أم سلمة إنها تُخَيَّر فتختار أحسنهم خلقًا، فتقول: يا رب، إن هذا كان أحسن خلقًا معي فزوجنيه، يا أم سلمة ذهب حسن الخلق بخير الدنيا والآخرة»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال لرسول الله ﷺ: أنطأ في الجنة؟ قال: «نعم، والذي نفسي بيده دَحْماً دَحْمًا، فإذا قام عنها رجعت مطهرة بكرًا»[٢].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن أهل الجنة إذا جامعوا نساءهم عدن أبكارًا»[٣].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا في النساء. قلت: يا رسول الله، ويطيق ذلك؟ قال: يعطى قوة مائة»[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قيل: يا رسول الله هل نصل إلى نسائنا في الجنة؟ قال: «إن الرجل ليصل في اليوم إلى مائة عذراء»[٥].

﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ «لأصحاب»: جار ومجرور، و«اليمين»: مضاف إليه، وهو

---

(١) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ١١٠، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٠.

(٢) ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١.

(٣) أخرجه الطبراني في «المعجم الصغير» ١/ ٩١، وذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١.

(٤) أخرجه الترمذي في صفة الجنة ـ ما جاء في صفة جماع أهل الجنة ٢٥٣٦ وقال: «صحيح غريب».

(٥) أخرجه الطبراني ـ فيما ذكر ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١١، وقال الحافظ أبو عبد الله المقدسي: «هذا الحديث عندي على شرط الصحيح».

متعلق بقوله: ﴿إِنَّآ أَنشَأۡنَٰهُنَّ إِنشَآءٗ ۝٣٥ فَجَعَلۡنَٰهُنَّ أَبۡكَارًا ۝٣٦ عُرُبًا أَتۡرَابٗا﴾ فكأنه قيل: لمن؟ فقال: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾.

أو متعلق بمحذوف تقديره: خلقنا أو أعددنا، أو ادخرنا ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ ما ذكر من النعيم النفسي والبدني، من قوله: ﴿فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾ إلى قوله: ﴿عُرُبًا أَتۡرَابٗا ۝٣٧﴾.

والأظهر الأول لقرب المتعلق، ولأن أصحاب اليمين أيضًا ذكروا أول الآيات في قوله: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ۝٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ۝٢٨﴾ الآيات.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر، لا يبصقون فيها، ولا يمتخطون، ولا يتغوطون، آنيتهم فيها الذهب، أمشاطهم من الذهب والفضة، ومجامرهم الأُلوة، ورشحهم المسك، ولكل واحد منهم زوجتان، يرى مخ ساقهما من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم، ولا تباغض، قلوبهم قلب واحد، يسبحون الله بكرة وعشيًا»[(1)].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يدخل أهل الجنة الجنة جردًا مردًا بيضًا جعادًا مكحلين، أبناء ثلاث وثلاثين، وهم على خلق آدم ستون ذراعًا في عرض سبعة أذرع»[(2)].

﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾ أي: جماعة كثيرة من أصحاب اليمين من أول هذه الأمة، وجماعة كثيرة من أصحاب اليمين من آخر هذه الأمة، أو جماعة كثيرة من أول كل أمة، وجماعة كثيرة من آخر كل أمة، وقيل جماعة كثيرة من الأمم السابقة، وجماعة كثيرة من هذه الأمة.

وفي حديث عمران بن حصين ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا. ثم قال: إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة. قال: فكبرنا، قال: إني لأرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة. قال: فكبرنا. ثم تلا رسول الله ﷺ هذه الآية ﴿ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ۝٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ﴾»[(3)].

---

(1) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٥، ومسلم في الهبات ١٦٢٥، وفي الجنة وصفة نعيمها ٢٨٣٤، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٣٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٣٣.

(2) أخرجه أحمد ٢/ ٢٩٥، ٣٤٣، والترمذي في صفة الجنة ٢٥٤٥ قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» ١٠/ ٣٩٩: «رواه الطبراني في الصغير والأوسط وإسناده حسن».

(3) أخرجه الطبرى في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٣١-٣٣٢، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٢-٣٣٣٣، الأثر =

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبيك وسعديك والخير في يديك، فيقول: أخرج بعث النار، قال: وما بعث النار؟ قال من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون، فعنده يشيب الصغير ﴿وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ۝﴾ [الحج: ٢] قالوا: يا رسول اله وأَيُّنا ذلك الواحد؟ قال: أبشروا فإن منكم رجلاً ومن يأجوج ومأجوج ألفاً، ثم قال: والذي نفسي بيده إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنة. فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنة، فكبرنا، فقال: أرجو أن تكونوا نصف أهل الجنة فكبرنا، فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثور أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[1].

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ﴾ ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ فقبض بيده قبضتين، فقال:«هذه للجنة ولا أبالي، وهذه للنار ولا أبالي»[2].

الفوائد والعبر:

١ ـ عظم شأن أصحاب اليمين.

٢ ـ عظم ما أعده الله من النعيم لأصحاب اليمين فسدر مخضود شوكه، وطلح منضود ثمره، وظل ممتد، وماء مصبوب يجري بغير أخدود، وفواكه كثيرة متنوعة مختلفة الطعوم، لا تنقطع ولا تمنع عنهم، وفرش سميكة مرتفعة، عليها نساء أبكار متحببات إلى أزواجهن متماثلات في سن ثلاث وثلاثين.

٣ ـ قدرة الله تعالى ونعمته في إنشاء نساء أهل الجنة وجعلهن أبكاراً حتى ولو كن من الثيبات في الدنيا، وجعلهن متحببات لأزواجهن متعشقات لهم على سن واحدة.

٤ ـ أن أصحاب اليمين منهم جماعة كثيرة من صدر هذه الأمة وجماعة كثيرة من آخرها.

=

١٨٧٩٤. قال ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ١٤: «وهذا الحديث له طرق كثيرة من غير هذا الوجه في الصحاح وغيرها» وأخرجه أحمد ٢/ ١٣٩١، وابن أبي حاتم في «تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٠- الأثر ١٨٧٧٥مختصرًا من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(١) أخرجه البخاري في أحاديث الأنبياء ٣٣٤٨، ومسلم في الإيمان ٢٢٢ وأخرجه مسلم ايضًا من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه ٢٢١.

(٢) أخرجه أحمد ٥/ ٢٣٩.

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ (٤١) فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ (٤٨) قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ (٥١) لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ (٥٣) فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ (٥٤) فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ (٥٥) هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ (٥٦)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة السابقين المقربين، وأصحاب اليمين الذين يؤتون كتبهم باليمين، وتفصيل حالهم ومآلهم، وما أعد لهم من النعيم المقيم ثم عطف عليهم بذكر الصنف الثالث، وهم أصحاب الشمال الذي يؤتون كتبهم بالشمال، وفصل حالهم ومآلهم وما أعد لهم من العذاب المقيم في الجحيم.

قوله ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أصحاب الشمال: هم الذين يُعطون كتبهم بشمائلهم بعد أن تلوى خلف ظهورهم، كما قال عز وجل ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ (٢٥) وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ (٢٦)﴾ [الحاقة: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ (١٠) فَسَوْفَ يَدْعُوا۟ ثُبُورًا (١١) وَيَصْلَىٰ سَعِيرًا (١٢)﴾ [الانشقاق: ١٠ـ ١٢].

﴿مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ﴾ أي: أيُّ شيء هم أصحاب الشمال، تحقيرًا لشأنهم وإشارة وتنبيها لسوء حالهم ومآلهم وما أعد لهم من صنوف العذاب في نار الجحيم، ثم فصّل ذلك بقوله ﴿فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ﴾ إلى قوله: ﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾.

قوله ﴿فِى سَمُومٍ﴾ أي: في ريح شديدة الحرارة، ﴿وَحَمِيمٍ﴾ ماء بالغ غاية الحرارة.

﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ﴾ أي: ظل الدخان الأسود، كما قال عز وجل:﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ (٣٠) لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ (٣١)﴾ [المرسلات: ٣٠، ٣١].

﴿لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ لا: نافية، وقوله ﴿لَّا بَارِدٍ﴾ لإثبات شدة حرارته؛ لأن الصفات المنفية يؤتى بها لإثبات كمال ضدها كما في قوله تعالى:﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: ٩٨] فقوله ﴿ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ لإثبات كمال حياته عز وجل.

ومعنى (لا بارد) أي: ليس بارداً يقيهم الحر ويستريحون فيه، كما هو الشأن في الظل، بل هو ظل حار محض خالص الحرارة.

(ولا كريم) أي: ولا حسن المنظر ينعمون به، فليس فيه شئ من الخير البتة، بل هو شر خالص محض، دخان كريه منظره، قبيح مظهره، حار داخله ومخبره، لا نفع فيه، ولا دفع من أذى الحر، ولا غيره.

﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾.

ذكر الله عز وجل في هذه الآيات الأسباب التي أدت بهؤلاء إلى كونهم من أصحاب الشمال وفي صنوف هذا العذاب.

قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ﴾ أي: من الأسباب التي أدت بهم إلى هذه الحال والمآل السيء (إنهم كانوا قبل ذلك) أي: في دار الدنيا التي هي محل العمل (مترفين) المترف: هو المتنعم المائل إلى الترف والنعيم ودَعة العيش وحظوظ النفس وشهواتها.

فالمترفون: هم المتنعمون المقبلون على الترف ولذات أنفسهم وأهوائهم الذين نظرتهم إلى الحياة نظرة بهيمية مادية فقط، تاركين الهدف الذي خلقوا من أجله وهو عبادة الله عز وجل وراءهم ظهريًا، وأنّى لمن كانت هذه نظرته إلى الحياة السعادة، فما أتعس عيشه، وما أعظم خسارته.

﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الإصرار على الشيء بمعنى الاستمرار والتصميم عليه من غير توبة، ﴿الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ الذنب العظيم، وهو الشرك أعظم الذنوب. قال تعالى فيما حكاه عن لقمان عليه السلام أنه قال لابنه: ﴿يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾﴾ [لقمان: ١٣]، وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢]، أي: بشرك.

وإنما كان الشرك أعظم الذنوب؛ لأن حق الله عز وجل هو أعظم الحقوق وأبينها وهو عبادته عز وجل وحده، فمن أشرك معه غيره فقد صرف حقه عز وجل لغيره.

فمعنى الآية ﴿وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ﴾ أي: وكانوا يصممون ويستمرون على الشرك ولا ينوون التوبة والرجوع عنه.

﴿وَكَانُوا يَقُولُونَ﴾ مستبعدين للبعث والحساب والجزاء على الأعمال بل مكذبين بذلك ومنكرين له ﴿أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا﴾ أي: أئذا متنا وصارت أجسامنا في القبور ترابًا وعظامًا رميمة بالية ﴿أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ أي: كيف نبعث، أو كيف يقال إنكم ستبعثون وقد صرنا إلى هذه الحال، ﴿أَوَآبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ﴾ الذين ماتوا قبلنا كيف

يبعثون وقد صارت أجسادهم ترابًا وعظامًا رميمية بالية، والاستفهام للإنكار، أي: لا يمكن أن نبعث ولا آباؤنا.

﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْآخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾.

هذا رد من الله عز وجل عليهم في استبعادهم وتكذيبهم للبعث وإنكارهم له.

(قل) أي: قل لهم يا محمد ﴿إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ من آبائكم وغيرهم، ﴿وَٱلْآخِرِينَ﴾ منكم ومن غيركم ﴿لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَـٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ﴾ اللام للتوكيد، أي: لمجموعون إلى وقت يوم محدد معلوم عند الله لا يتقدم ولا يتأخر ولا يزيد ولا ينقص وهو يوم القيامة، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّمَنْ خَافَ عَذَابَ ٱلْآخِرَةِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَّهُ ٱلنَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٠٣﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُۥٓ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٠٤﴾﴾ [هود: ١٠٣، ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [سبأ: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلرُّسُلُ أُقِّتَتْ ﴿١١﴾ لِأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ ﴿١٢﴾ لِيَوْمِ ٱلْفَصْلِ ﴿١٣﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ﴿١٤﴾﴾ [المرسلات: ١١- ١٤]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ مِيقَـٰتُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الدخان: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ يَوْمَ ٱلْفَصْلِ كَانَ مِيقَـٰتًا ﴿١٧﴾ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [النبأ: ١٧، ١٨]، وقال تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ ٱلْجَمْعِ ۖ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلتَّغَابُنِ ۗ﴾ [التغابن:٩]، وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَـٰهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران:٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾[الأعراف: ١٨٧]، **وقال تعالى**: ﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ﴾[الأحزاب: ٦٣]، **وقال تعالى**: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنتَ مِن ذِكْرَىٰهَآ ﴿٤٣﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ مُنتَهَىٰهَآ﴾[النازعات: ٤٢ ـ ٤٤].

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ﴿٥١﴾ لَءَاكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴿٥٢﴾ فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٥٣﴾ فَشَـٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ ﴿٥٤﴾ فَشَـٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ ﴿٥٥﴾ هَـٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٥٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل حقارة أصحاب الشمال، وما هم فيه من العذاب الشديد من السموم والحميم والظل الحار، وسبب كونهم من أصحاب الشمال واستحقاقهم العذاب، وهو ترفهم وشركهم وإنكارهم للبعث، ورد عليهم في ذلك،

ذكر ما أعد لهم من النزل من الزقوم والماء الحار وبئس النزل.

قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ وجه الخطاب إليهم مباشرة بعد أن كان الكلام قبله مع الغائب بقصد تشديد الوعيد والتهديد لهم، أي: ثم اعلموا أنكم أيها ﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ التائهون عن طريق الحق والصواب، البعيدون عنه كل البعد، ﴿ٱلْمُكَذِّبُونَ﴾ للرسل وللبعث والحساب ﴿لَأَكِلُونَ﴾ اللام للتوكيد. ﴿مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ﴾ هو شجر يخرج في أصل الجحيم من أقبح الأشجار وأخبثها وأنتنها ريحًا، وأبشعها منظرًا، قال تعالى: ﴿إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِىٓ أَصْلِ ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٤﴾ طَلْعُهَا كَأَنَّهُۥ رُءُوسُ ٱلشَّيَٰطِينِ ﴿٦٥﴾ فَإِنَّهُمْ لَأَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ ﴿٦٦﴾ ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْبًا مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٦٧﴾ ثُمَّ إِنَّ مَرْجِعَهُمْ لَإِلَى ٱلْجَحِيمِ ﴿٦٨﴾﴾ [الصافات: ٦٤ ـ ٦٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [الدخان: ٤٣ ـ ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ ٱلزَّقُّومِ ﴿٦٢﴾ إِنَّا جَعَلْنَٰهَا فِتْنَةً لِّلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٣﴾﴾ [الصافات: ٦٢، ٦٣].

وسمي الزقوم لأن الآكل منه يتزقمه تزقماً لخبثه وشدة بلعه كما قال تعالى: ﴿يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ﴾[إبراهيم: ١٧].

﴿فَمَالِـُٔونَ مِنْهَا ٱلْبُطُونَ﴾ وذلك لشدة جوعهم واضطرارهم إليه، وإلزام الملائكة لهم بذلك.

﴿فَشَٰرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْحَمِيمِ﴾ أي: فشاربون على هذا المأكل والمطعم الأثيم من الماء الحار شديد الحرارة.

﴿فَشَٰرِبُونَ شُرْبَ ٱلْهِيمِ﴾ قرأ عاصم ونافع وأبو جعفر وحمزة بضم الشين، «شُرْبَ» وقرأ الباقون بفتحها، والهيم: هي الإبل العطاش التي أصابها الهيام فلا تكاد تروى من شدة العطش والهيام، أي: أنهم لشدة عطشهم لا يكادون يروون.

﴿هَٰذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ أي: هذا العذاب وهو طعام الأثيم وهذا الشراب الحميم الحار هو ما أعد لنزولهم ولضيافتهم ولمجازاتهم يوم الدين، وهذا ما قدموه واختاروه لأنفسهم من الضيافة.

والنزل: ما يعد للضيف عند نزوله.

فبئس النزل نزلهم ريح سموم شديدة الحرارة، وظل حار من دخان النار الأسود، وطعام من الزقوم وشراب من الحميم في غاية الحرارة ـ نسأل الله السلامة والعافية ـ وشتان بين هؤلاء وبين من قال الله فيهم: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ

فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ [فصلت: ٣١]، وقال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي مَا ٱشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَٰلِدُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الأنبياء: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ ٱلْأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلْأَعْيُنُ وَأَنتُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٧١﴾﴾ [الزخرف: ٧١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾ [الكهف: ١٠٧، ١٠٨].

نسأل الله ـ تعالى ـ من فضله.

الفوائد والعبر:

١ ـ تحقير شأن أصحاب الشمال، وسوء حالهم ومآلهم.

٢ ـ شدة عذاب أصحاب الشمال في النار؛ فريح سموم، وماء حميم في غاية الحرارة، وظل من دخان النار الأسود لا برودة فيه، ولا خير فيه البتة.

٣ ـ أن سبب تعذيب أصحاب الشمال بما ذكر من ألوان العذاب ترفهم في الدنيا وإصرارهم على الشرك العظيم وإنكارهم البعث، مما يوجب الحذر من ذلك.

٤ ـ إثبات البعث والمعاد وأن الأولين والآخرين مجموعون إلى وقت يوم معلوم، وهو يوم القيامة.

٥ ـ خبث وقبح ما أعد للمكذبين من النزل والضيافة فمأكلهم الزقوم وشرابهم الحميم.

٦ ـ مجازاة كل بما عمل يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ (٥٧) أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل فيما سبق قول المكذبين بالبعث والحساب: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ﴾ ورد عليهم بعد ذلك بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠)﴾ ثم أتبع ذلك بذكر الأدلة على أحقية البعث والمعاد وقدرته عز وجل التامة على ذلك بذكر الخلق الأول والنشأة الأولى.

﴿نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ﴾ أي: نحن أوجدناكم وابتدأنا خلقكم من العدم بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا كما قال عز وجل: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا (٩)﴾ [مريم: ٩]، وقال عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى الْإِنسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئًا مَّذْكُورًا (١)﴾ [الإنسان: ١]، أي: قد أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا بل كان عدمًا محضًا، ثم أوجده الله وخلقه وقال تعالى: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا (٦٧)﴾ [مريم: ٦٧].

﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ الفاء عاطفة، و(لولا) للتحضيض، أي: فهلا تصدقون بالبعث، وأن من قدر على إيجادكم من العدم قادر على إعادتكم وبعثكم بعد الموت من باب أولى وأحرى، قال تعالى: ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [لقمان:٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (١٥)﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧].

ومعنى قوله: (فلولا تصدقون) أي: صدقوا.

(أفرأيتم ما تمنون) الهمزة للاستفهام الإنكاري و(ما) موصولة، أي: أفرأيتم الذي تمنون، أي: أخبروني عنه، والمني: هو الماء المهين الذي يصب ويقذف في الأرحام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقكُّم مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ (٢٠)﴾ [المرسلات: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿فَلْيَنظُرِ الْإِنسَانُ مِمَّ خُلِقَ (٥) خُلِقَ مِن مَّاءٍ دَافِقٍ (٦) يَخْرُجُ مِن بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ (٧) إِنَّهُ عَلَىٰ رَجْعِهِ لَقَادِرٌ (٨) يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ (٩) فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلَا نَاصِرٍ (١٠)﴾ [الطارق: ٥- ١٠].

﴿أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أأنتم تخلقون وتوجدون هذا

المني وتجعلونه ينتقل من طور إلى طور حتى يكون إنسانًا سويًا، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥)﴾ [الطور: ٣٥].

والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين تخلقونه.

﴿أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ (أم) هي المنقطعة التي بمعني (بل)، أي: بل نحن الخالقون حقيقة، لا أنتم، والاستفهام للتقرير.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣)﴾ [المؤمنون: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ قُلِ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣٤)﴾ [يونس: ٣٤].

﴿نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ﴾ قرأ ابن كثير بتخفيف الدال (قَدَرنا) وقرأ الباقون بتشديدها.

والمتكلم بضمير العظمة (نحن) هو الله عز وجل لأنه العظيم سبحانه والمعنى: نحن كتبنا عليكم الموت، كما قال عز وجل: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ٨٥، الأنبياء:٣٥، العنكبوت:٥٧]، وقال تعالى:﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٢٧)﴾ [الرحمن: ٢٦، ٢٧].

قال الشاعر:

كتب الموت على الخلق فكم ... فلّ من جمع وأفنى من دول[1]

وقال الآخر:

لا شيء مما ترى تبقى بشاشته ... يبقى الإله ويفنى المال والولد

وقال الآخر:

تعزّ فلا شيء على الأرض باقيا ... ولا وزر مما قضى الله واقيا

وأيضًا (قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ) أي: صرفناه بينكم، فمنكم من يموت في بطن أمه، ومنكم من يموت طفلاً صغيرًا، ومنكم من يموت كهلاً، ومنكم من يموت شيخًا كبيرًا، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ

---

(١) البيت لابن دريد.

عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٧٠﴾﴾ [النحل: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج:٥].

﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ أي: وما نحن بعاجزين ومغلوبين ﴿عَلَىٰٓ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَٰلَكُمْ﴾ أي: على أن نبدل أشباهكم وخلقكم بأن نخلقكم على غير هذه الصور التي أنتم عليها، ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِى مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ من الصور والصفات والأشكال والأحوال فلم نعجز عن خلقكم ابتداء على هذه الصور، ولم نعجز عن إماتتكم، ولن نعجز عن تبديل صوركم وأمثالكم، وإنشائكم فيما لا تعلمون من الصور والصفات والأشكال والأحوال كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ [الحج:٥]، وقال تعالى:﴿نَّحْنُ خَلَقْنَٰهُمْ وَشَدَدْنَآ أَسْرَهُمْ ۖ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَآ أَمْثَٰلَهُمْ تَبْدِيلًا ﴿٢٨﴾﴾ [الإنسان: ٢٨]، وقال تعالى:﴿ وَأَنَّهُۥ خَلَقَ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰ ﴿٤٥﴾ مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ ﴿٤٦﴾ وَأَنَّ عَلَيْهِ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُخْرَىٰ ﴿٤٧﴾﴾ [النجم: ٤٥ ـ ٤٧].

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ الواو استئنافية، واللام للقسم، وقد للتحقيق، أي: والله لقد علمتم النشأة الأولى أي: عرفتموها، وعلمتم وعرفتم أن الله أنشأكم النشأة الأولى من العدم، بعد أن لم تكونوا شيئًا مذكورًا.

﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الفاء: عاطفة، و(لولا) للتحضيض، أي: فهلا تتذكرون وتتعظون وتعرفون أن الذي قدر على هذه النشأة ـ وهي البداءة ـ قادر على النشأة الأخرى، وهي إعادتكم وبعثكم بعد الموت من باب أولى وأحرى، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالى:﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يس: ٧٧ـ ٨٠]، وقال تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ ۚ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ [ق: ١٥]، وقال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِىٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ ٱلزَّوْجَيْنِ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ

بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحۡـِۧيَ ٱلۡمَوۡتَىٰ ﴿٤٠﴾ [القيامة: ٣٦ ـ ٤٠].

قال ابن القيم[1]: «وهذا في القرآن كثير جدًا يقرن بين النشأتين مذكرًا للفطر والعقول بإحداهما على الأخرى».

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ هو الخالق العظيم.

٢ ـ وجوب التصديق بالبعث وبما جاء به الرسول ﷺ.

٣ ـ الاستدلال بالخلق الأول على الخلق الثاني.

٤ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة على إيجاد أصل خلق الإنسان وأطوار خلقه حتى استوائه.

٥ ـ تقدير الله ـ عز وجل ـ الموت وكتابته على الخلق كلهم.

٦ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قادر على تبديل الخلق بغيرهم، وعلى إنشائهم على ما شاء من الصور لأنه لا يعجزه شيء، وفي هذا تهديد للمكذبين.

٧ ـ الحث على التذكر والاتعاظ والاستدلال بالنشأة الأولى على البعث والنشأة الثانية.

---

(١) انظر «بدائع التفسير» ٤/٣٥٦.

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ﴿٦٤﴾ لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَٰهُ حُطَٰمًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴿٦٥﴾ إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ﴿٦٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٦٧﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾ ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٤﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة في معرض الرد على منكري البعث الدليل الأول على أحقية وقوع البعث، وهو الخلق الأول والنشأة الأولى بخلق آدم من التراب وتناسل ذريته من ماء الرجل والمرأة، ثم إماتتهم وإفنائهم، وهذا أقوى الأدلة وأظهرها على أن البعث بعد الموت حق، لأن من قدر على الخلق الأول فهو أقدر على الخلق الثاني من باب أولى وأحرى.

ثم أتبع عز وجل ذلك بذكر الدليل الثاني وهو إحياء النبات، ثم الدليل الثالث وهو إنزال المطر، ثم الدليل الرابع وهو إشعال النار وإيجادها[1].

قوله ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري، وهي كذلك في قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾﴾ وفي قوله ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى تُورُونَ ﴿٧١﴾﴾ و(ما) موصولة أي: أخبروني عن الحب والنبات الذي تحرثون، أي: تحرثون الأرض وتشقونها وتبذرونه وتلقونه فيها.

﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: أأنتم تنبتونه وتوجدون فيه الحياة النباتية، والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين تزرعونه.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ﴾ (أم) في هذا الموضع والمواضع التي بعده هي المنقطعة التي بمعنى (بل) أي: بل نحن الزارعون الذين أوجدنا فيه الحياة والنمو فنبت ونما وأثمر.

---

(١) ومن أعظم الأدلة التي يذكرها الله عز وجل على أحقية البعث خلق السموات والأرض قال تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر:٥٧]، وقال تعالى: ﴿۞ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء:٩٩]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾ [يس:٨١]، وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ [الأحقاف:٣٣].

والاستفهام للتقرير.

وقد روي أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقولن زرعتُ، ولكن قل حرثت» قال أبو هريرة: «ألم تسمع إلى قول الله:﴿ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ۝ ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ۝﴾»[1].

قال الشاعر:

انظر لتلك الشجرة ... ذات الغصون النضرة

من ذا الذي أنبتها ... وشق منها الثمرة

ذاك هو الله الذي ... أنعمه منهمرة

ذو حكمة بالغة ... وقدرة مقتدرة

﴿لَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَـٰهُ حُطَـٰمًا﴾ (لو) شرطية، وهي حرف امتناع لامتناع، أي امتناع الجواب لامتناع الشرط، أي: امتناع كون هذا الحرث حطامًا، لأن الله لم يشأ ذلك.

واقترن جواب (لو) باللام لأن هذا هو الأكثر في جوابها إذا كان مثبتًا أن يقترن باللام، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ﴾ [محمد:٣٠]، وقد لا يقترن كما في قوله تعالى:﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَـٰهُ أُجَاجًا﴾.

أما إذا كان جوابها منفيًا بـ«ما» فالأكثر، بل الأفصح ألا يقترن جوابها باللام تقول: لو جاء زيد ما كلمتك، وقد يقترن باللام أحيانًا فتقول لو جاء زيد لما كلمتك، ومنه قول الشاعر:

ولو نعطى الخيار لما افترقنا ... ولكن لا خيار مع الليالي[2]

ومعنى قوله (لو نشاء لجعلناه حطامًا) أي: لو نشاء لجعلنا هذا الحرث حطامًا، أي: هشيما يابسًا متكسرًا بعد إخراجه زرعاً وتعلق النفوس به، وهذا أشد حسرة من إهلاكه قبل نباته.

وفي هذا إشارة إلى قدرة الله عز وجل التامة على جعل هذا الحرث حطامًا، كما

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٣٤٨، والبزار في «مسنده» ١٢٨٩، وابن حبان في صحيحه ٥٧٢٣، والطبراني في الأوسط ٨٠٢٤، وأبو نعيم في الحلية ٨/ ٢٦٧، والبيهقي في «شعب الإيمان». ٥٢١٧، ٥٢١٨.

(٢) انظر «أوضح المسالك» ٤/ ٢٣١، «شرح شواهد المغني» ٢/ ٦٦٥ «مغنى اللبيب» ١/ ٢٧١، والبيت فيها بلا نسبة.

أن فيه تخويفًا للمخاطبين بعقوبتهم بإهلاك حروثهم.

﴿فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ﴾ أي: فتظلون بعد ذلك ﴿تَفَكَّهُونَ﴾ التفكه في الأصل من الأضداد فهو يأتي بمعنى التنعم ومنه سميت الفاكهة، ويأتي بمعنى الحزن والندم والعجب وتنويع المقال أي: فتظلون بعد كون حرثكم حطامًا تفكهون في المقالة، أي: تنوعون الكلام فيما حصل لحرثكم وسبب ذلك وتعجبون من سوء حاله ومصيره، وتتلاومون وتندمون قائلين تارة ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ﴾ أي: حملنا غرامة هذا الحرث وقيمته، وقيل لملقون في الشر، أو مولع بنا، أو معذبون ومهلكون. وتارة تقولون ﴿بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ «بل» للإضراب الانتقالي، أي: بل حرمنا الرزق وثمرة هذا الحرث.

فبسبب هلاك حرثهم تحملوا غرامة ذلك، وحرموا من ثمرة ذلك الحرث

وهذا كما ذكر الله عز وجل عن أصحاب الجنة من بني إسرائيل في سورة القلم أنهم قالوا لما رأوها قد احترقت: ﴿إِنَّا لَضَالُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾﴾ [القلم: ٢٦، ٢٧].

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ﴾: الاستفهام كسابقه للإنكار، أي: أخبروني عن الماء الذي تشربون منه أنتم ومواشيكم وحروثكم.

﴿ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، كقوله ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ﴾ أي: أأنتم أنزلتم هذا الماء العذب ﴿مِنَ ٱلْمُزْنِ﴾ وهو السحاب.

والجواب: لا، أي: لستم أنتم الذين أنزلتموه من المزن.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ «أم» بمعنى «بل»، أي: بل نحن المنزلون كما قال عز وجل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْـِۧىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾﴾ [الفرقان: ٤٨، ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: ٩، ١٠]، وقال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ۖ لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النحل: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ﴾ [الروم: ٢٤].

﴿لَوْ نَشَآءُ جَعَلْنَٰهُ أُجَاجًا﴾ أي: لو نشاء جعلناه مرًا ملحًا زعاقًا، لا يصلح للشرب، لا للإنسان، ولا للحيوان، ولا للحروث والزروع. ولم يقل «لو نشاء لم ننزله» ونحو ذلك لأن وجوده مع كونهم لا يستطيعون الانتفاع به أشد حسرة.

﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ الفاء: عاطفة و (لولا) بمعنى «هلا» للتحضيض، أي: فهلا تشكرون

الله عز وجل على ما أنعم به عليكم من هذا الماء العذب الزلال وغيره من النعم.

﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي تُورُونَ﴾ الاستفهام للإنكار، أي: أخبروني عن النار التي تقدحونها من الزناد وتشعلونها، أي تقدحون الزناد لاستخراجها.

﴿ءَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾ الاستفهام للإنكار والنفي، أي: لستم أنتم الذين ﴿أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَآ﴾.

﴿أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنشِـُٔونَ﴾ أي: بل نحن المنشئون لشجرتها ومادتها والاستفهام للتقرير.

قال ابن كثير[1]: « وللعرب شجرتان، إحداهما: المرخ، والأخرى: العفار، إذا أخذ منهما غصنان أخضران، فحك أحدهما بالآخر تناثر بينهما شرر النار».

﴿نَحْنُ جَعَلْنَٰهَا تَذْكِرَةً﴾ (جعل) هنا بمعنى (صير) تنصب مفعولين الأول الضمير (ها) والثاني «تذكرة» وهو من الجعل الكوني.

ومعنى «تذكرة» أي: مذكرة بالنار الكبرى في الآخرة، لأنها جزء منها كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم فقالوا: يا رسول الله، إن كانت لكافية فقال: إنها فضلت عليها بتسعة وستين جزء كلهن مثل حرها»[2].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: «إن ناركم هذه جزء من سبعين جزءًا من نار جهنم، ولو لا أنها أطفئت بالماء مرتين ما انتفعتم بها، وإنها لتدعو الله عز وجل أن لا يعيدها فيها»[3].

﴿وَمَتَٰعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ أي: يتمتعون بها فيطبخون عليها طعامهم، ويستدفئون بها من البرد ويستضيئون بنورها في منازلهم ومقامهم ويوقدونها على مرتفع ليهتدي بها الضال كما قالت الخنساء في أخيها صخر:

وإن صخراً لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار

إلى غير ذلك من منافعها.

---

(١) في «تفسيره»٨/ ١٨.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ـ صفة النار وعذابها ٣٢٦٥، ومسلم في صفة الجنة والنار ـ باب في شدة حر نار جهنم ٢٨٤٣، والترمذي في صفة جهنم ٢٥٨٩، وأحمد ٢/ ٢٤٤.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٣١٨.

و«المقوين» المسافرين وسمى المسافرون بهذا الاسم، لأن القَواء هو القفر الخالي البعيد من العمران، ومنه قولهم: «أقوت الدار إذا رحل أهلها» وقول عنترة بن شداد[١].

حُيِّيت من طلل تقادم عهده أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

والمراد بالآية عموم المتمتعين بالنار من المقيمين والمسافرين، وإنما خص المسافرون بالذكر ـ والله أعلم ـ لأن المقيمين قد يشعل أحدهم النار من جمر نار سابقة، أو من نار جاره، ونحو ذلك، ولهذا قال ﷺ: «الناس شركاء في ثلاث في الماء والنار والكلأ»[٢].

واشتراك الناس في النار إنما يتحقق غالبًا في حال الإقامة.

وهذا كله نعمة من الله عز وجل، لكن تظهر نعمة الله عز وجل أكثر على المسافر الذي لا يجد أحدًا يأخذ من ناره في كونه يستطيع أن يحمل في متاعه بلا مشقة زندًا أوعودين من هتين الشجرتين يوري منهما النار عند الحاجة، ولعل هذا من حكمة تخصيص المسافرين بالتمتع بها في الآية.

وقال ابن القيم[٣]: «وخص المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر ليسوا هم مقيمين، ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر».

أقول: رحمك الله يا ابن القيم وجزاك الله خيرًا على هذا الاستنباط، فالخلق كلهم مسافرون، والنار متعة لهم في هذه الدار الفانية.

وقال ابن كثير[٤] بعد أن ذكر القول بأن المراد بالمقوين: المسافرون والحاضرون، قال: «وهذا التفسير أعم من غيره فإن الحاضر والبادي من غني وفقير الكل محتاجون للطبخ والاصطلاء والإضاءة، وغير ذلك من المنافع، ثم من لطف الله تعالى أن

(١) انظر: «ديوانه» ص١٨٥.
(٢) أخرجه أبو داود في البيوع ـ باب في منع الماء ٣٤٧٣، وابن ماجه في الرهون ـ المسلمون شركاء في ثلاث ٢٤٧٣ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه، وأخرجه أبو داود ٣٤٧٧، وأحمد ٥/ ٣٦٤ ـ من حديث رجل من المهاجرين من أصحاب النبي ﷺ.
(٣) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٦.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ٢٠.

أودعها في الأحجار، وخالص الحديد بحيث يتمكن المسافر من حمـل ذلـك في متاعـه، وبين ثيابه فإذا احتاج إلى ذلك أخرج زنـده وأورى، وأوقـد نـاره، فـاطبخ واصـطلى، واشتوى واستأنس بها، وانتفع بها سائر الانتفاعات، فلهذا أفرد المسـافرون، وإن كـان ذلك عامًا في حق الناس كلهم».

﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾: التسبيح: تنزيه الله عن النقـائص والعيـوب وعـن مشابهة المخلوقين. والرب: هو الخالق المالك المدبر و «العظيم» صاحب العظمة التامة الذي لا أعظم منه ولا أكبر، كامـل الأسمـاء والصـفات، كـثير الإحسـان والخـيرات والمعنى: قل سبحان ربي العظيم، منزهًا ربك العظيم عن النقـائص والعيـوب، وعـن مشابهة المخلوقين، ومعلنًا أن كل كمال فالله أولى به، وأن له عز وجـل القـدرة التامـة على البعث والمعاد، كما أوجد الخلق من العدم وبعـث فـيهم الحيـاة، وأحيـا الحـرث والنبات، وأنزل الماء من السحاب وأوجد مادة النار مع ما في هذه المخلوقات العظيمة وغيرها من الاختلاف والتضاد، فسبحان الرب الخالق العظيم.

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ هو الزارع المنبت للنبات المحيي للأرض بعد موتها وفي ذلك دليل على قدرته التامة على إحياء الموتى.

٢ ـ بيان قدرة الله التامة على جعل الزرع هشيماً يابساً متكسراً قبل استوائه وفي هذا تخويف للعباد.

٣ ـ ضعف الخلق وضعف حولهم وقوتهم أمام قدرة الله ـ عز وجل ـ وحوله.

٤ ـ أن نظرة كثير من الخلق للمصائب في حروثهم وزروعهم وغيرها نظرة مادية فقط؛ يحزنون على ما أصابهم ويتعجبون، ويقرون بالغرامة والحرمان، لكنهم لا يتفكرون في سبب ذلك وهو المعاصي.

٥ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على الخلق بإنزال الماء من السحاب لشرب الناس ودوابهم وحروثهم ولو شاء لجعله ـ بقدرته مراً مالحاً لا يصلح لا للإنسان ولا للحيوان، ولا للنبات وفي هذا تقرير لنعمته ـ عز وجل ـ عليهم بذلك ليشكروه وتخويف لهم.

٦ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة ونعمته على الخلق بإيجاد عنصر النار يتمتعون بها وتذكرهم بنار الآخرة.

٧ ـ وجوب التسبيح باسم الرب العظيم ـ وبخاصة في الصلاة، وإثبات اسـم الله العظـيم، وربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ ولأتباعه.

﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ ﴿٨٢﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

بعد ما ذكر الله عز وجل الدلائل الكونية على أحقية البعث والمعاد من الخلق الأول وإحياء الحرث وإنزال الماء من السحاب وإيجاده مادة النار في الشجر ذكر الدليل الشرعي على ذلك وهو القرآن الكريم، وأقسم على أنه تنزيل من عنده عز وجل.

قوله ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ الفاء استئنافية و«لا» يؤتى بها في أول القسم إذا كان مقسمًا به على منفي، للتنبيه وتوكيد النفي، كقول عائشة رضي الله عنها: «لا والله ما مست يد رسول الله ﷺ يد امرأة قط» كما جاء في بعض روايات حديث مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة رضي الله عنهما[1].

وهكذا ههنا تقدير الكلام: لا أقسم بمواقع النجوم، أي: ليس الأمر كما زعمتم في القرآن أنه سحر أو كهانة، بل هو قرآن كريم، أو ليس الأمر كما تقولون، ثم استأنف القسم بعد فقال: أقسم.

وقيل إن «لا» صلة، والتقدير: أقسم بمواقع النجوم، وعلى هذه التقديرات فقوله (فلا أقسم بمواقع النجوم) قسم من الله عز وجل بمواقع النجوم، ولله عز وجل أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، لأن إقسامه بها دليل على عظمته هو، فكأنه يقول: أقسم بما خلقت.

وقيل معنى (فلا أقسم) نفي للقسم، أي: لا يحتاج الأمر إلى قسم، لكن هذا يرده قوله (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) ففي هذا إثبات للقسم.

قرأ حمزة والكسائي وخلف «بموقع» على الإفراد، وقرأ الباقون بالجمع (بمواقع).

وقوله (بمواقع النجوم) هذا هو المقسم به والنجوم: هي النجوم والأفلاك التي في السماء، ومواقعها: منازلها، ومشارقها ومغاربها، وانكدارها وانتثارها وسقوطها كما قال تعالى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم: ١]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِرَبِّ ٱلْمَشَٰرِقِ

---

(١) أخرجه البخاري في الشروط ٢٧١٣، وأبو داود في المناسك ١٧٥٤، والنسائي في مناسك الحج ٢٧٧١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٥.

وَٱلْمَغَٰرِبِ﴾ [المعارج: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ ۝ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلطَّارِقُ ۝ ٱلنَّجْمُ ٱلثَّاقِبُ ۝﴾ [الطارق: ١ ـ ٣]، وقال تعالى: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ۝ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ۝﴾ [التكوير: ١٥، ١٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِدْبَٰرَ ٱلنُّجُومِ ۝﴾ [الذاريات: ٤٩].

وإنما أقسم الله عز وجل بالنجوم ومواقعها لما فيها من الآيات العظيمة الدالة على ربوبية الله ـ عز وجل ـ وانفراده بالخلق والإبداع، مما يوجب صرف العبادة له وحده. ويحتمل أن المراد بـ(النجوم) نجوم تنزيل القرآن الكريم، أي: مواضع وأوقات نزوله المتفرقة خلال ثلاث وعشرين سنة.

﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ اعترض بهذه الجملة بين القسم وجوابه، كما اعترض بين الصفة والموصوف في هذه الجملة بقوله (لو تعلمون) فجاء هذا الاعتراض في ضمن هذا الاعتراض، وذلك كله بغرض التوكيد وتعظيم المقسم به والمقسم عليه.

والضمير في قوله ﴿وَإِنَّهُۥ﴾ يرجع إلى القسم في قوله ﴿۞ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾.

قوله ﴿لَقَسَمٌ﴾ اللام للتوكيد، ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ أي: وإن هذا القسم الذي أقسمت به لقسم عظيم، لو تعلمون عظمته لعظمتم المقسم عليه.

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ هذا هو جواب القسم، والضمير في قوله (إنه) يعود إلى ما أنزل الله ـ عز وجل ـ على رسوله ﷺ من وحيه عز وجل وكلامه القرآن العظيم.

وذكره بضمير الغائب «الهاء» ولم يقل إن هذا القرآن الكريم تعظيمًا وتفخيمًا لشأن القرآن الكريم، وإشارة إلى رفعة مكانته وعلو منزلته، كأنه قال: إنه القرآن الذي من شأنه كذا وكذا، ويشتمل على كذا وكذا ويهدي ويدل إلى كذا.. إلخ.

وعود الضمير على أمر لم يتقدم ذكره، وإنما لشهرته ووضوح المعنى عليه وارد في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ۝﴾ [ص: ٣٢]، أي: الشمس ولم يسبق لها ذكر.

والقرآن: هو كلام الله عز وجل المنزل على رسوله ﷺ المتعبد بتلاوته والعمل به المعجز بأقصر سورة منه.

ومعنى (كريم) أي: عظيم كثير الخير جمّ النفع لما اشتمل عليه من بيان الحق من الباطل والهدى من الضلال، والعلم والحكمة، والهداية لكل خير لمن تدبر ألفاظه ومعانيه وأحكامه، كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

وهو أيضًا كريم على الله عز وجل كرمه عز وجل وعظمه لأنه كلامه، وهو كريم في ثوابه، الحرف منه بحسنة والحسنة بعشر أمثالها كما قال ﷺ: «من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «الم» حرف، لكن ألف حرف ولام حرف، وميم حرف»[١].

ووجه الارتباط بين المقسم به والمقسم عليه واضح على القول بأن المراد بمواقع النجوم: مواقع نزول القرآن منجمًا في ثلاث وعشرين سنة فلعظمة القرآن وما فيه من الهداية والخير الكثير جاء تنجيمه طوال هذه الفترة.

أما على القول بأن المراد بالنجوم الأفلاك فوجه المناسبة بينهما ما ذكره ابن القيم[٢] بقوله: « المناسبة بين ذكر النجوم في القسم، وبين المقسم عليه، وهو القرآن الكريم من وجوه: أحدها: أن النجوم جعلها الله يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وآيات القرآن يهتدى بها في ظلمات الجهل والغي، فتلك هداية في الظلمات الحسية، وآيات القرآن في الظلمات المعنوية، فجمع بين الهدايتين، مع ما في النجوم من الرجوم للشياطين، وفي آيات القرآن من رجوم شياطين الإنس والجن، والنجوم آياته المشهودة المعاينة، والقرآن آياته المتلوة السمعية، مع ما في مواقعها عند الغروب من العبرة والدلالة على آياته القرآنية، ومواقعها عند النزول».

﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ أي: في كتاب مصون، معظم موقر، محفوظ بحفظ الله عز وجل كما قال عز وجل عن القرآن: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر:٩].

واختلف في المراد بالكتاب المكنون في الآية، فذهب جمهور المفسرين إلى أن المراد بالكتاب المكنون: اللوح المحفوظ، واختاره ابن تيمية وقال: «هو اللوح المحفوظ لا يمسه إلا المطهرون من الملائكة»[٣].

وقيل المراد به المصحف لا يمسه إلا المطهرون من الأحداث أو من الشرك.

وقيل المراد به الصحف التي بأيدي الملائكة، كما في قوله تعالى: ﴿ فِي صُحُفٖ مُّكَرَّمَةٖ

---

(١) أخرجه الترمذي في فضائل القرآن ٢٩١٠، والدارمي في فضائل القرآن ٣٣٠٨، ٣٣١٥ ـ من حديث عبدالله بن مسعود ـ رضي الله عنه. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٥٩.

(٣) انظر: «شرح العمدة» ص٣٨١-٣٨٥، «مجموع الفتاوي» ٢١/ ٢٦٥-٢٦٧.

﴿مَّرۡفُوعَةٖ مُّطَهَّرَةِۭ ١٤ بِأَيۡدِي سَفَرَةٖ ١٥ كِرَامِۭ بَرَرَةٖ ١٦﴾ [عبس: ١٣ـ ١٦].

وقد اختار هذا القول ابن القيم، وقال[١]: «ويدل على أنه الكتاب الذي بأيدي الملائكة قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ فهذا يدل على أنه في أيديهم يمسونه وهذا هو الصحيح في معنى الآية».

وقال السعدي[٢]: «(في كتاب مكنون) أي: مستور عن أعين الخلق، وهذا الكتاب المكنون هو اللوح المحفوظ أي: إن هذا القرآن مكتوب في اللوح المحفوظ، معظم عند الله، وعند ملائكته في الملأ الأعلى. ويحتمل أن المراد بالكتاب المكنون، هو الكتاب الذي بأيدي الملائكة، الذين ينزلهم الله لوحيه ورسالته، وأن المراد بذلك، أنه مستور عن الشياطين، لا قدرة لهم على تغييره، ولا الزيادة والنقص منه واستراقه».

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ (لا) نافية أي:لا يمس هذا الكتاب المكنون إلا المطهرون وهم الملائكة، الذين طهرهم الله من الأرجاس والأنجاس الحسية والمعنوية كما قال تعالى: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ ٦﴾ [التحريم: ٦].

واكتفى بذكر الصفة، وهي (المطهرون) عن ذكر الموصوف وهم الملائكة إشارة إلى كمال طهارتهم وسلامتهم من النجاسات كلها.

وقد رجح ابن القيم[٣] رحمه الله القول بأن المراد بالكتاب المكنون الصحف التي بأيدي الملائكة من عشرة وجوه، منها: أن الآية سيقت تنزيها للقرآن أن تنزل به الشياطين، وأن محله لا يصل إليه فيمسه إلا المطهرون، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتۡ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ٢١٠ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُمۡ وَمَا يَسۡتَطِيعُونَ ٢١١﴾ [الشعراء: ٢١٠، ٢١١].

ومنها: أن السورة مكية والاعتناء في السور المكية إنما هو بأصول الدين من تقرير التوحيد والمعادو النبوة، وأما تقرير الأحكام والشرائع فمظنة السور المدنية.

ومنها: أن القرآن لم يكن في مصحف عند نزول هذه الآية، ولا في حياة رسول الله ﷺ، وإنما جمع المصحف في خلافة أبي بكر. وهذا ـ وإن جاز أن يكون باعتبار ما يأتي

---

(١) انظر: «التبيان في أقسام القرآن» ص١٤٠-١٤٣.
(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٧٥-٢٧٦.
(٣) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٣-٣٦٥، ٣٧٦-٣٧٧.

ـ فالظاهر أنه إخبار بالواقع حال الإخبار يوضحه.

الوجه الرابع، وهو قوله: ﴿فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ والمكنون: المصون المستور عن الأعين الذي لا تناله أيدي البشر.

ومنها: أن وصفه بكونه مكنونًا نظير وصفه بكونه محفوظًا فقوله ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾﴾ كقوله:﴿ بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ﴿٢١﴾ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢١، ٢٢] يوضحه:

الوجه السادس: أن هذا أبلغ في الرد على المكذبين، وأبلغ في تعظيم القرآن من كون المصحف لا يمسه محدث.

الوجه السابع: قوله (لا يمسه إلا المطهرون) بالرفع فهذا خبر لفظًا ومعنى، ولو كان نهيًا لكان مفتوحًا، ومن حمل الآية على النهي احتاج إلى صرف الخبر عن ظاهره، إلى معنى النهي والأصل في الخبر والنهي حمل كل منهما على حقيقته وليس ههنا موجب يوجب صرف الكلام عن الخبر إلى النهي.

الوجه الثامن: أنه قال: (إلا المطهرون) ولم يقل إلا المتطهرون، ولو أراد به منع المحدث من مسه لقال: إلا المتطهرون كما قال تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلۡمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢٢٢] وفي الحديث: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين»[١] فالمتطهر فاعل التطهير، والمطهر الذي طهره غيره، فالمتوضئ متطهر، والملائكة مطهرون.

أما من قال: إن المراد بالكتاب في الآية المصحف الذي بأيدينا فقالوا إن قوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾ وإن كان جملة خبرية، فمعناه الطلب والنهي، أي: لا ينبغي أن يمس المصحف إلا المطهرون.

ومما استدل به على وجوب الطهارة لمس المصحف، ويعد من أقوى الأدلة ما جاء في كتاب الرسول ﷺ لعمرو بن حزم لما بعثه إلى اليمن: «وأن لا يمس القرآن إلا طاهرًا»[٢].

---

(١) أخرجه الترمذي في الطهارة ـ ما بعد الوضوء ٥٥ ـ من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه، وقال «في إسناده اضطراب».

(٢) أخرجه مالك في الموطأ ـ الأمر بالوضوء لمن مس القرآن « تنوير الحوالك» ١/ ١٥٧، «الموطأ» ١/ ١٩٩، وعبد الرزاق في «المصنف» ١/ ٣٤١، وأبو داود في «مراسيله» ١٢١ والحاكم في المستدرك ١/ ٣٩٥، وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه ابن حبان في صحيحه رقم ٨٩٣. قال الإمام أحمد: «أرجو أن يكون صحيحًا» وقال: «لا أشك أن النبي ﷺ كتبه» انظر:

=

قال ابن كثير[(١)]: «وروى أبو داود في المراسيل من حديث الزهري، قال: قرأت في صحيفة عند أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن رسول الله ﷺ قال: «ولا يمس القرآن إلا طاهر».

قال ابن كثير: «وهذه وجادة جيدة قد قرأها الزهري وغيره، ومثل هذا ينبغي الأخذ به، وقد أسنده الدارقطني عن عمرو بن حزم، وعبد الله بن عمر، وعثمان بن أبي العاصي، وفي إسناد كل منها نظر».

قال ابن عبد البر في «الاستذكار»[(٢)]: «وكتاب عمرو بن حزم هذا تلقاه العلماء بالقبول والعمل، وهو عندهم أشهر وأظهر من الإسناد الواحد المتصل، وأجمع فقهاء الأمصار، الذين تدور عليهم الفتوى وعلى أصحابهم بأن المصحف لا يمسه إلا طاهر».

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: «أن رسول الله ﷺ نهى أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو مخافة أن يناله العدو»[(٣)].

فمس المصحف لا يجوز إلا لمن كان طاهرًا طهارة معنوية من الشرك والكفر بأن يكون مسلمًا، وطهارة حسية من النجاسات والحدث الأكبر والأصغر، وهو قول الأئمة الأربعة، والفقهاء السبعة، وجمهور أهل العلم.

بل قد استدل بعض أهل العلم بقوله ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ وإن كان المراد به الصحف التي في السماء، استدل به على عدم جواز مس المصحف الذي بأيدينا إلا على طهارة.

قال ابن القيم[(٤)]: «وسمعت شيخ الإسلام يقرر الاستدلال بالآية على أن المصحف لا يمسه المحدث بوجه آخر، فقال: هذا من باب التنبيه والإشارة، إذا كانت الصحف التي في السماء لا يمسها إلا المطهرون، فكذلك الصحف التي بأيدينا من القرآن لا ينبغي أن يمسها إلا طاهر، والحديث مشتق من هذه الآية» يعني حديث «وأن

=

«تلخيص الحبير» ١/ ١٤١، «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٥-٣٦٦، «إرواء الغليل» ١/ ١٥٨.

(١) في «تفسيره» ٨/ ٢٢.

(٢) ٨/ ١١.

(٣) أخرجه البخاري في الجهاد ٢٩٩٠، ومسلم في الإمارة ١٨٦٩، وأبو داود في الجهاد ٢٦١٠، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٧٩.

(٤) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٥، ٣٧٧.

لا يمس القرآن إلا طاهرًا».

وقال ابن تيمية[١] أيضًا: «مذاهب الأئمة الأربعة أنه لا يمس القرآن إلا طاهر».

وهكذا قال ابن القيم[٢]: «الآية دالة بأحسن الدلالة على أنه لا يمس المصحف إلا طاهر».

وأما قراءة القرآن من غير المصحف، فلا يمنع منها إلا الجنب لما رُوي: «أنه ﷺ لم يكن يمنعه شيء من قراءة القرآن إلا الجنابة»[٣].

فللحائض قراءة القرآن من غير المصحف، وبخاصة إذا احتاجت إلى ذلك كأن تخاف ضياع حفظها ونحو ذلك كما أن لها عند الحاجة أن تقرأ بالمصحف وتمسكه من وراء حائل كأن تكون تدرس القرآن الكريم ونحو ذلك.

قال ابن القيم في كلامه على الآية ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾: «ودلت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة وحرام على القلب المتلوث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه، وأن يفهمه كما ينبغي. قال البخاري في صحيحه[٤] في هذه الآية: لا يجد طعمه إلا من آمن به».

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ أي: إن هذا القرآن الكريم منزل من رب العالمين، فهو كلام الله عز وجل منزل غير مخلوق، وليس بسحر ولا شعر، ولا كهانة، ولا تقوله الرسول ﷺ، كما يقول المبطلون، بل هو الحق الذي لا ريب فيه.

ويؤخذ من الآية أيضًا علو الله عز وجل على خلقه، لأن النزول والتنزيل هو نزول الشيء ووصوله من أعلى إلى أسفل.

ورب العالمين: خالقهم ومالكهم والمتصرف فيهم، ومن ربوبيته لهم ألا يتركهم هملاً بل أرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب بالأمر والنهي ليثيب المطيع منهم ويعاقب العاصي.

﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والتقريع.

والمراد بـ(الحديث) القرآن الكريم .

---

(١) في «الفتاوى الكبرى» ١/ ٥٦.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٥.

(٣) أخرجه أبو داود في الطهارة ٢٢٩، والنسائي في الطهارة ٢٦٥، والترمذي في الطهارة ١٤٦، وابن ماجه في الطهارة ٥٩٤ ـ من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

(٤) في كتاب التوحيد ـ باب قول الله تعالى ﴿فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ﴾ فتح الباري ١٣/ ٥١٧.

ومعنى (مدهنون) أي: متهاونون مكذبون، أو تريدون المداهنة والمـداراة والملاينـة في ذلك مع أنكم مكذبون له وغير مصدقين به.

قال الطبرى[١]: «أفبهذا القرآن أنتم تلينون القول للمكذبين به، ممـالأة مـنكم لهـم على التكذيب به والكفر».

وقال ابن القيم[٢]: «والمداهنة إنما تكون في باطل قوي لا يمكن إزالتـه، أو في حـق ضعيف لا يمكن إقامته فيحتاج المداهن إلى أنه يترك بعض الحق ويلتزم بعض الباطـل، فأما الحق الذي قام به كل حق فكيف يداهن به».

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «مطر الناس على عهد النبي ﷺ فقال النبي ﷺ «أصبح من الناس شاكر، ومنهم كافر» قالوا: هذه رحمة، وقال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا. فنزلت هذه الآية (فلا أقسم بمواقع النجوم) حتى بلغ (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون)»[٣].

و«تجعلون» هنا من جعل بمعنى «صيّر» تنصب مفعـولين الأول قولـه (رزقكـم) والثاني المصدر المؤول من قوله (أنكم تكذبون) أي: وتجعلون رزقكـم تكـذيبكم أي: حظكم منه التكذيب به.

و(الرزق) هو العطاء من المطر وغيره.

والمعنى هنا: وتجعلون سبب رزقكم أنكم تكذبون أي: تنسبون الـرزق مـن المطـر وغـيره إلى غـير الله مسـبب الأسـباب سـبحانه، وذلـك بنسـبتكم المطـر إلى الأنـواء، وقولكم: «مطرنا بنوء كذا وكذا».

أو تجعلون شكركم لله على هذا الرزق أنكم تكذبون فتنسبون النعمة والرزق من المطر وغيره إلى غير مسديها وهو الله عز وجل، فتُكذّبون بدل الشكر وقـد رُويَ عـن علي رضي الله عنه أنه قرأها: «وتجعلون شكركم أنكم تكذبون»[٤].

فهم نسـبوا النعمـة إلى غـير مسـديها، فنسـوا مسبب الأسـباب سـبحانه وتعـالى، وبـدل أن يشكروا هذه النعمة كفروها.

---

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٦٧.
(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٦٩.
(٣) أخرجه مسلم في الإيمان ٧٣، والواحدي في «أسباب النزول» ٢٧٠.
(٤) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧١.

عن زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه قال: صلى بنا رسول الله ﷺ ـ صلاة الصبح بالحديبية في أثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب. وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ما أنزل الله من السماء من بركة إلا أصبح فريق من الناس بها كافرين، ينزل الغيث، فيقولون: بكوكب كذا وكذا»(٢).

وعن أبي أمامة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «ما مُطر قوم من ليلة إلا أصبح قوم بها كافرين، ثم قال ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فيقول قائل: مطرنا بنجم كذا وكذا»(٣).

ورُويَ عن الحسن قال في معنى قوله ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾: «بئس ما أخذ قوم لأنفسهم، لم يرزقوا من كتاب الله إلا التكذيب به»(٣).

أي: وتجعلون حظكم ونصيبكم من كتاب الله أنكم تكذبون به(٤).

وهذا القول لا ينافي القول الأول، فإن الرزق نوعان: رزق به حياة القلوب وهو الإيمان، ورزق به حياة الأبدان وهو الطعام والشراب ولا شك أن نصيب كثير من الخلق مما جاءت به الرسل من الدعوة إلى الإيمان هو التكذيب كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام:١١٦]، وقال تعالى: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

كما أن كثيرًا من الناس ينسبون الرزق إلى الأسباب المادية فقط وينسون مسبب الأسباب ومسدي هذه الأرزاق وهو الله عز وجل. فالأولون إذا أصابهم المطر قالوا: مطرنا بنوء كذا وكذا بدل أن يقولوا: مطرنا بفضل الله ورحمته، والآخرون اليوم ينسبون المطر إلى المنخفضات الجوية.

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ٨٤٦، ومسلم في الإيمان ـ باب كفر من قال: مطرنا بالنوء ٧١، وأبو داود في الطب ـ باب في النجوم ٣٩٠٦، والنسائي في الاستسقاء ـ كراهية الاستمطار بالنجوم ١٥٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في الإيمان ٧٢، والنسائي في الاستسقاء ١٥٢٤.

(٣) أخرجهما الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧٢

(٤) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٢٤.

وهكذا إذا حصل لكثير منهم شيء من الخير، من مال أو تيسير عمل، أو شفاء من مرض ونحو ذلك ينسب هذا الفضل والخير للأسباب المادية فقط.

و لا شك أن هذا من كفر النعم وقد قال الله عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم:٣٤، النحل:١٨].

ولهذا ترى كثيراً من الناس عندما تكون له حاجة، كأن يتعسر عليه سبب الرزق والعمل، أو يصاب بمرض ونحو ذلك تراه يتجه رأسًا للأسباب المادية، ويغفل عن التوجه إلى مسبب الأسباب وهو الله عز وجل وقد قال الله عز وجل: ﴿وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾ [النساء:٣٢].

فالجأ أخي الكريم في كل حاجاتك الدينية والدنيوية إلى من بيده الخير والفضل كله وإلى مسدي جميع النعم ودافع النقم، وموجد الأسباب ومسبباتها، واسأله من فضله، وافعل الأسباب، وأبشر بالخير إن شاء الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ إقسام الله ـ عز وجل ـ بمواقع النجوم على عظمة القرآن، وأنه قرآن كريم فيه الهداية والخير كل الخير.

٢ ـ تعظيم الله ـ عز وجل ـ لمواقع غروب الكواكب وسقوطها ومواضع تنزلات القرآن وأوقاته لأنه ـ عز وجل ـ أقسم بها ـ وفي ذلك تعظيم لنفسه ـ عز وجل ـ.

٣ ـ عظم هذا القسم والمقسم به لأنه قسم من العظيم سبحانه وتعالى بآياته الكونية ومواضع وأوقات تنزلات آياته الشرعية على عظمة وحيه القرآن الكريم وكثرة خيره ونفعه ورفعة مكانته وعلو منزلته.

٤ ـ أن القرآن الكريم محفوظ بحفظ الله ـ عز وجل ـ باللوح المحفوظ وبالصحف التي بأيدي الملائكة، كما أن المصحف محفوظ بحفظه ـ عز وجل ـ.

٥ ـ أن هذا الكتاب المكنون لا يمسه في الملأ الأعلى إلا المطهرون وهم الملائكة الذين طهرهم الله حسياً ومعنوياً.

٦ ـ أن المصحف لا يجوز أن يمسه إلا من كان مسلماً متطهراً من الحدث الأكبر والأصغر.

٧ ـ أن القرآن كلام الله منزل غير مخلوق.

٨ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه وربوبيته العامة لهم جميعاً.

٩ ـ الإنكار على المشركين والمكذبين للقرآن الكريم في تكذيبهم بالقرآن ومداهنتهم به.

١٠ ـ إثبات أن المطر والرزق من الله عز وجل والإنكار على المشركين وغيرهم ممن ينسبون الرزق إلى غير الله ويكفرون بنعم الله ـ عز وجل.

﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في أول السورة انقسام الناس إلى ثلاثة أقسام السابقون المقربون، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال وأحوالهم وما أعده لكل منهم من الجزاء، ثم ختم السورة بذكر احتضار كل منهم وأحوالهم في ذلك.

قوله ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ الفاء: استئنافية و(لولا) حرف تحضيض، أي: فهلا إذا بلغت الحلقوم،

والمراد: إذا بلغت الروح الحلقوم، أي: صاعدة حال الانقطاع من الدنيا والإقبال على الآخرة، وذلك ساعة الاحتضار، والحلقوم: مجرى النفس، وذكر دون «المريء» مجرى الطعام، لأن بانقطاع النفس يموت الإنسان. كما قال عز وجل ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴿٢٦﴾ وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ ﴿٢٧﴾ وَظَنَّ أَنَّهُ ٱلْفِرَاقُ ﴿٢٨﴾ وَٱلْتَفَّتِ ٱلسَّاقُ بِٱلسَّاقِ ﴿٢٩﴾ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴿٣٠﴾﴾ [القيامة:٢٦-٣٠].

﴿وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ﴾ الواو حالية، أي: وأنتم في هذه الحال تنظرون إلى المحتضر، وما يكابده من سكرات الموت ولا تملكون من الأمر شيئاً.

﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ أي: إنه عز وجل أقرب إلى هذا المحتضر بملائكته وجنده.

وقوله (منكم) خطاب لأهل المحتضر، فهو عز وجل أقرب إليه بملائكته من أهله الذين هم أمامه وعن يمينه وشماله، قال تعالى:﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الأنعام: ٦١].

﴿وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ أي: ولكن لا ترون ملائكتنا.

قال الطبري[1]: «يقول: رسلنا الذين يقبضون روحه أقرب إليه منكم، ولكن لا تبصرونهم».

(١) في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٧٣.

وقال ابن تيمية [1]: «فالمراد قربه إليه بالملائكة، وهذا هو المعروف عن المفسرين المتقدمين من السلف، قالوا: ملك الموت أدنى إليه من أهله، ولكن لا تبصرون الملائكة».

وقال ابن القيم[2]: «ملائكة الرب تعالى أقرب إلى المحتضر من حاضريه من الإنس، ولكنهم لا يبصرون بهم»

وقال ابن كثير[3]: «ونحن أقرب إليه منكم بملائكتنا (ولكن لا تبصرون) أي: لا ترونهم».

﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ﴾ الفاء: استئنافية و(لولا) كسابقتها حرف تحضيض.

وقال السعدي [4]: «﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ﴾ بعلمنا وملائكتنا».

(غير مدنيين) أي: غير محاسبين ومجزيين بأعمالكم كما تزعمون، والدين: هو الجزاء على الأعمال ولهذا سمي يوم القيامة يوم الدين، قال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [الانفطار: ٩]، أي: بالجزاء على الأعمال، وقال تعالى: ﴿يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ ٱلدِّينِ ۝١٥ وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَآئِبِينَ ۝١٦ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٧ ثُمَّ مَآ أَدْرَىٰكَ مَا يَوْمُ ٱلدِّينِ ۝١٨ يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ ۝١٩﴾ [الانفطار: ١٥ ـ ١٩].

﴿تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ هذا هو جواب (لولا) الأولى والثانية. أي: ترجعون وتردون هذه الروح التي بلغت الحلقوم وخرجت أو كادت أن تخرج إلى مقرها من الجسد ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ في دعواكم في إنكار البعث، وأنكم لن تبعثوا، ولن تدانوا بأعمالكم.

وأنى لهم ذلك، وهم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

وفي هذا إلزام لهم بالإقرار والاعتراف بالعجز عن رد الروح إلى جسدها، وبالتالي إلزام لهم بالإقرار والاعتراف بأنهم مدينون بأعمالهم مربوبون مملوكون لرب قادر متصرف فيهم قاهر آمرناهٍ، وهذا يوجب عليهم القيام بحقه سبحانه وشكره وتعظيمه وإجلاله، وأن لا يشركوا معه أحدًا في عبادته، فليس بعد هذا الاستدلال إلا الإذعان والانقياد أو الكفر والعناد وهذا هو الحاصل منهم.

---

(١) في «شرح حديث النزول» ص١٢١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧١.

(٣) في «تفسيره». ٨/ ٢٥.

(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٧٨.

قال ابن القيم[1]: «فتضمنت الآيتان تقريرًا وتوبيخًا، واستدلالاً على أصول الإيمان من وجود الخالق سبحانه، وكمال قدرته، ونفوذ مشيئته، وربوبيته، وتصرفه في أرواح عباده، حيث لا يقدرون على التصرف فيها بشيء، وأن أرواحهم بيده، يذهب بها إذا شاء، ويردها إليهم إذا شاء وإثبات المعاد، وصدق رسوله فيما أخبر به عنه، وإثبات ملائكته وتقرير عبودية الخلق».

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ الفاء: عاطفة، و«أما» حرف شرط وتفصيل.

أي: «فأما» إن كان المحتضر من المقربين الذين وصفهم الله في أول السورة بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ۝ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۝﴾ [الآيتان: ١٠، ١١].

قال ابن كثير[2]: «وهم الذين فعلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات وبعض المباحات» أي: فضول المباحات.

﴿فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ﴾ الفاء رابطة لجواب الشرط، أي: فلهم (روح وريحان وجنة نعيم) تبشرهم بذلك ملائكة الرحمة تقول عند قبض روح المؤمن: «أبشري بروح وريحان ورب غير غضبان»[3].

قرأ يعقوب (فرُوح) بضم الراء وقرأ الباقون بفتحها، أي: ففرح وسرور وابتهاج ورحمة، وراحة ومستراح في الجنة من الدنيا وعنائها ونكدها وكبدها ونصبها، لأن الدنيا كما جاء في الحديث «سجن المؤمن وجنة الكافر»[4]، ولهذا تقول النفس الصالحة إذا حملها الرجال على أعناقهم: «قدموني قدموني»[5].

ومرت برسول الله ﷺ جنازة فقال: «مستريح ومستراح منه» فقالوا: يا رسول الله، ما المستريح والمستراح منه؟ قال: «العبد المؤمن يستريح من نصَب الدنيا وأذاها إلى رحمة الله، والعبد الفاجر يستريح منه العباد والبلاد والشجر والدواب»[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «أسرعوا بالجنازة فإن تك

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٦.

(٣) أخرجه ابن ماجه في الزهد ٤٢٦٢. من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٥٦، والترمذي في الزهد ٢٣٢٤، وابن ماجه في الزهد ٤١١٣- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥) أخرجه البخاري في الجنائز ١٣١٤، والنسائي في الجنائز ١٩٠٩ - من حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه.

(٦) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥١٢، ومسلم في الجنائز ٩٥٠، والنسائي في الجنائز ١٩٣٠ - من حديث أبي قتادة - رضي الله عنه.

صالحة فخير تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشر تضعونه عن رقابكم»[1].

(وريحان) رزق وعطاء ورخاء من المأكل والمشرب والملبس والفرش والأزواج وغير ذلك، ومنه ريحان عَرْف الجنة وطيبها الذي يوجد من مسيرة ألف عام.

(وجنة نعيم) أي: ومسكنهم جنة فيها جميع ألوان النعيم، وأصنافه مع السلامة من جميع المنغصات، وقد يكون هذا من عطف العام على الخاص. فجمع الله لهم بين «الروح» وهو النعيم المعنوي نعيم القلب، وبين «الريحان» وهو الرزق والعطاء، وهو النعيم الحسي نعيم البدن والمسكن الواسع الفسيح الذي فيه ألوان النعيم وهي الجنة.

قال ابن القيم[2]: «فالروح: الفرح والسرور، والابتهاج ولذة الروح، فهي كلمة جامعة لنعيم الروح ولذتها، وذلك قوتها وغذاؤها، والريحان: الرزق، وهو الأكل والشرب، والجنة: المسكن الجامع لذلك كله، فيعطون هذه الثلاث في البرزخ وفي المعاد الثاني».

وقال ابن كثير[3] بعدما ذكر هذه الأقوال في معنى قوله (فروح وريحان): «وكل هذه الأقوال متقاربة صحيحة، فإن من مات مقربًا حصل له جميع ذلك من الرحمة والراحة والاستراحة والفرح والسرور والرزق الحسن (وجنة نعيم)».

عن أم هانئ رضي الله عنها: أنها سألت رسول الله ﷺ أنتزاور إذا متنا، ويرى بعضنا بعضًا، فقال رسول الله ﷺ «تكون النَسَم[4] طيرًا يعلق بالشجر، حتى إذا كان يوم القيامة دخلت كل نفس في جسدها»[5].

وعن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «إنما نسمة المؤمن طائر يعلق في شجر الجنة، حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه»[6].

وعن عبد الله بن مُرَّة عن مسروق قال: سألنا عبد الله عن هذه الآية: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٦٩] قال: «أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ، فقال: «أرواحهم في جوف طير خضر لها

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٤١٥، ومسلم في الجنائز ٩٤٤، وأبو داود في الجنائز ٣١٨١، والنسائي في الجنائز ١٩١٠، والترمذي في الجنائز ١٠١٥، وابن ماجه في الجنائز ١٤٧٧.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٣.

(٣) في «تفسيره» ٨/ ٢٦.

(٤) النسم: الروح.

(٥) أخرجه أحمد ٦/ ٤٢٤-٤٢٥.

(٦) أخرجه أحمد ٣/ ٤٥٥.

قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئًا؟ قالوا: أي شئ نشتهي، ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا، قالوا: يا رب، نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا، حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»[(١)].

وعن عبد الرحمن بن أبي ليلى عمن سمع النبي ﷺ يقول: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره الله لقاءه» قال: فأكب الناس يبكون، فقال: ما يبكيكم؟ فقالوا: إنا نكره الموت. قال: ليس ذاك، ولكنه إذا حُضِر ﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ (٨٩)﴾ وإذا بشر بذلك أحب لقاء الله عز وجل، والله عز وجل للقائه أحب ﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣)﴾ فإذا بشر بذلك كره لقاء الله والله للقائه أكره»[(٢)]. ويشهد لهذا حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ومن كره لقاء الله، كره الله لقاءه» فقلت: يا نبي الله، أكراهية الموت؟ فكلنا نكره الموت فقال «ليس كذلك، ولكن المؤمن إذا بشر برحمة الله ورضوانه وجنته أحب لقاء الله، فأحب الله لقاءه، وإن الكافر إذا بشر بعذاب الله وسخطه كره لقاء الله، وكره الله لقاءه»[(٣)].

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الواو استئنافية، أي: وأما إن كان المحتضر ﴿مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ الذين قال الله عنهم في أول السورة ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ (٢٧)﴾.

قال السعدي[(٤)]: «وهم الذين أدوا الواجبات وتركوا المحرمات، وإن حصل منهم بعض التقصير في بعض الحقوق التي لا تخل بإيمانهم وتوحيدهم»

﴿فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ﴾ أي: فلك السلامة من عذاب الله ومن الشرور والآفات.

قال ابن القيم[(٥)]: «ولما كانوا دون المقربين في المرتبة جعل تحيتهم عند القدوم عليه

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ١٨٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٠١.
(٢) أخرجه أحمد ٤/ ٢٥٩-٢٦٠
(٣) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء والتوبة ٢٦٨. وأخرجه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه البخاري في الرقاق ٦٥٠٧، ومسلم في الذكر - من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه ٢٦٨٣، والنسائي في الجنائز ١٨٣٦، ١٨٣٧، والترمذي في الجنائز ١٠٦٦. وأخرجه مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه ٢٦٨٥، ومن حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه ٢٦٨٦.
(٤) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٠.
(٥) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٣.

السلامة من الآفات والشرور التي تحصل للمكذبين الضالين».

وقال أيضًا[1]: «فليس هذا سلام تحية، ولو كان تحية لقال: فسلام عليه كما قـال: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ۝١٠٩﴾ [الصـافات: ١٠٩]، ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٖ﴾ [الصـافات:٧٩]. ولكـن الآيـة تضمنت ذكر مراتب الناس، وأقسامهم عند القيامة الصغرى، حال القدوم على الله، فـذكر أنهم ثلاثة أقسام: مقرب له الروح والريحان وجنة النعيم، ومقتصد من أصحاب اليمين لـه السلامة فوعده بالسلامة، ووعد المقرب بالغنيمة والفوز، وإن كان كـل منهمـا سـالمًا غانمًـا، وظالم بتكذيبه وضلاله فأوعده بنُزل من حميم وتصلية جحيم، فلما لم يكن المقـام مقـام تحيـة وإنما هو مقام إخبار ذكر ما يحصل له من السلامة».

وقال ابن كثير[2]: «﴿فَسَلَٰمٞ لَّكَ مِنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡيَمِينِ﴾ أي: تبشرهم الملائكة بذلك تقول لأحدهم: سلام لك، أي: لا بأس عليك، أنت إلى سلامة أنت من أصحاب اليمين».

وقيل (فسلام لك) أي: فمسلم لك أنك من أصحاب اليمين.

﴿وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ أي: وأما إن كان المحتضر من المكذبين للحق، الضالين عن الهدى، وعن الطريق المستقيم، وهم أصحاب الشمال الذين قال الله عنهم في أول السورة: ﴿وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ۝٤١﴾ [الواقعة: ٤١].

﴿فَنُزُلٞ﴾ أي: فلهم نزل، أي: قِرى وضيافة، والنزل في الأصل: ما يعد للضيف لتكريمه، ولكن هؤلاء ليس لهم عند الله إلا الإهانة.

﴿مِّنۡ حَمِيمٖ﴾ أي: من مذاب في غاية الحرارة كما قال تعالى: ﴿يُصۡهَرُ بِهِۦ مَا فِي بُطُونِهِمۡ وَٱلۡجُلُودُ ۝٢٠﴾ [الحج: ٢٠].

﴿وَتَصۡلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ أي: وإدخاله في مستقره ووسط الجحيم تصلاه وتغمره من جميع جهاته.

والجحيم: اسم من أسماء النار سميت به لبعد قعرها وظلمتها وشدة تأججها وتوقدها وحرها.

﴿إِنَّ هَٰذَا﴾ أي: إن هذا الخبر وهو بعث الناس ومجازاة كل منهم بما عمل ﴿لَهُوَ حَقُّ ٱلۡيَقِينِ﴾ اللام للتوكيد، أي: لهو الحق المتيقن الذي لا مرية فيه كأنه رأي عين، ولا محيد عنه.

﴿فَسَبِّحۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلۡعَظِيمِ﴾ الفاء رابطة لجواب شرط مقدر، والبـاء للمصـاحبة، أي: سبح الله تسبيحاً مصحوباً باسمه. وقيل: إن الباء صلة، والمعنى: سبح اسم ربـك أي:

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٧٩.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٢٧.

قائلاً سبحان ربي العظيم، كما في قوله تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾[الأعلى: ١]

عن عقبة بن عامر الجهني قال: «لما نزلت على رسول الله ﷺ ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ قال: اجعلوها في ركوعكم، ولما نزلت ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝﴾ قال: رسول الله ﷺ: اجعلوها في سجودكم»[1].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم»[2].

الفوائد والعبر:

١ ـ أن الله ـ عز وجل ـ أقرب إلى المحتضر من أهله بعلمه وإحاطته وقدرته وملائكته ونفوذ مشيئته فيه.

٢ ـ تحدي الخلق وبخاصة المشركين المكذبين بالبعث بإرجاع الروح إلى البدن إن كانوا صادقين في زعمهم أن لا بعث ولا حساب ولا جزاء.

٣ ـ عظم ما أعده الله ـ عز وجل ـ من التكريم لمن كان من المقربين من الرزق والريحان، والنعيم الحسي والمعنوي والمسكن الفسيح.

٤ ـ البشارة لأصحاب اليمين بسلامتهم من العذاب، والسلام عليهم من الملائكة ومن بعضهم على بعض.

٥ ـ خبث وسوء ما أعد للمكذبين الضالين من النزل فشراب من الحميم، وتصلية جحيم.

٦ ـ أن بعث الناس ومجازاة كل منهم بما عمل حق يقيني وصدق لا مرية فيه.

٧ ـ مشروعية تسبيح الله ـ عز وجل ـ ووجوب ذلك في الصلاة.

٨ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ الخاصة لنبيه ﷺ ولأتباعه، واسمه «العظيم» والعظمة التامة له ـ عز وجل.

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٥٥، وأبو داود في الصلاة ـ ما يقول الرجل في ركوعه وسجوده ٨٦٩، وابن ماجه في إقامة الصلاة ـ التسبيح في الركوع والسجود ٨٨٧.

(٢) أخرجه البخاري في الدعوات ٦٤٠٦، ومسلم في الذكر ـ فضل التهليل والتسبيح والدعاء ٢٦٩٤، والترمذي في الدعوات ٣٤٦٧، وابن ماجه في الأدب ـ فضل التسبيح ٣٨٠٦.

تفسير سورة الحديد

هذه السورة هي أول المسبحات، أي: السور التي ابتدأت بقوله (سبح لله) (أو يسبح لله) وهي خمس سور: الحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن.

عن خالد بن معدان عن ابن أبي بلال عن العرباض بن سارية رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يقرأ المسبحات قبل أن يرقد، وقال: «إن فيهن آية أفضل من ألف آية»[1].

قال ابن كثير[2]: «والآية المشار إليها في الحديث، هي والله أعلم قوله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣﴾.

قوله: ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ التسبيح هو: تنزيه الله عن النقائص والعيوب، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[ق: ١٨]، وعن مشابهة المخلوقين، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١١﴾ [الشورى:١١]. وتمجيده وتعظيمه، وأن كل كمال فهو أولى به.

وهو التعبد لله والصلاة له، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾ [ق: ٤٠، الطور. ٤٩] أي: صل له، وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ۖ﴾ [طه: ١٣٠] أي: صل صلاة الفجر وصلاة العصر، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَانَآيِٕ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ ۝١٣٠﴾ [طه: ١٣٠]، أي: صل له في هذه الأوقات.

وهو الانقياد لله ـ عز وجل ـ والدلالة على وجوده، وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

وتسبيحه أيضاً بتسبيح لا نفقهه، كما قال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن

---

(١) أخرجه أحمد ٤/ ١٢٨، وأبو داود في الأدب ـ ما يقال عند النوم ٥٠٥٧، والترمذي في الدعوات ٣٤٠٦ وقال: «حسن غريب»، قال ابن كثير في «تفسيره » ٨/ ٣٠: « ورواه النسائي- عن خالد بن معدان قال: كان رسول الله ﷺ- فذكره مرسلاً، لم يذكر عبد الله بن أبي بلال، ولا العرباض بن سارية».

(٢) في: «تفسيره» ٨/ ٣٠.

فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾﴾ [الإسراء: ٤٤].

فجميع ما في السموات والأرض وكل شيء يسبحه عز وجل بلسان الحال والمقال إلا الكافر، فإنه يسبح الله بلسان الحال فقط لا بلسان المقال كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾[الحج: ١٨].

قال الطبري[1] «يعنى تعالى ذكره بقوله: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أن كل ما دونه من خلقه يسبحه تعظيماً له وإقراراً بربوبيته وإذعاناً لطاعته».

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ «العزيز» اسم من أسماء الله عز وجل مشتق من العزة يدل على أن له عز وجل كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة، يقال: عزَّ يَعَزُّ بفتح العين إذا قوي وصلب، وعَزَّ يَعِزُّ بكسر العين إذا امتنع، وعَزَّ يَعُزُّ بضمها إذا قهر وغلب، قال تعالى: ﴿فَإِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾ [النساء: ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾﴾ [الصافات: ١٨٠] وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الزمر: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَيْءٍ﴾ [الأنعام:٩١].

فهو عز وجل عزيز الامتناع فلا يمكن أن ينال جنابه سوء أو مكروه من الخلق، ولو اجتمعوا على ذلك، وهو ممتنع عن كل عيب ونقص.

وهو عزيز القهر والغلبة، الغالب، الذي خضع له كل شيء، الذي لا يدافع ، ولا يمانع، ولا يغالب ﴿سُبْحَانَهُ هُوَ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٤﴾﴾ [الزمر: ٤]، فلا يعجزه شيء، ولا يفوته هارب.

وهو عزيز القوة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الحج: ٤٠]،

---

(١) في «جامع البيان ٢٢/ ٣٨٤

وقال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝﴾ [المجادلة: ٢١].

قال ابن القيم[1]:

وهو العزيز فلن يرام جنابه	أنى يرام جناب ذي السلطان
وهو العزيز القاهر الغلاب لم	يغلبه شيء هذه صفتان
وهو العزيز بقوة هي وصفه	فالعز حينئذ ثلاث معان
وهي التي كملت له سبحانه	من كل وجه عادم النقصان

ولهذا لا ينبغي أن تلتمس العزة وتطلب إلا منه سبحانه، فمن التجأ إليه وتعلق به واعتصم بحبله أعزه، ومن طلب العزة من غيره أذله قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]. اللهم أعزنا بطاعتك ولا تذلنا بمعصيتك.

(الحكيم) اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل» مشتق من الحكم والحكمة يدل على أن له عز وجل الحكم التام بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني، والحكم الشرعي، والحكم الجزائي في الآخرة، وأن له الحكمة البالغة بقسميها: الحكمة الغائية، وهي الغاية من أحكامه كلها بأنواعها الثلاثة.

والحكمة الصورية، وهي الحكمة من مجيء كل حكم من أحكامه بأنواعها الثلاثة على صورة معينة، كالحكمة من مجيء الصلوات الخمس على هذه الصورة، الفجر ركعتان، والمغرب ثلاث ركعات، وبقية الصلوات أربع ركعات، والحكمة من مجيء أنصبة الزكاة على هذه الكيفية، وهكذا بقية الأحكام الشرعية.

والحكمة من مجيء كسوف الشمس على كيفية معينة ككسوف نصفها أو كلها، وحصول الزلازل في مكان بعينه وعلى صورة ودرجة معينة، وكذا غير ذلك من الأحكام الكونية كسقوط طائرة، وانقلاب قطار، واصطدام سيارتين وكون ذلك على صور وهيئات معينة إلى غير ذلك من الأحكام الكونية وحِكَمها.

وكذا الحكمة الصورية من مجيء مجازاة المطيعين لله الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وكذا مجازاة العاصين السيئة بمثلها وغير ذلك من أحكام الله تعالى الجزائية في الآخرة.

فهو عز وجل حاكم له الحكم التام النافذ حكماً كونياً وحكماً شرعياً وحكماً جزائياً، وهو

---

(١) في النونية، ص ١٤٧.

محكم متقن له الحكمة التامة البالغة في خلقه وأمره وشرعه، حكمة غائية وحكمة صورية [1].

وبالتأمل في هذا يدرك الموفق أن هذا الخلق وهذا الكون يسير بنظام دقيق متقن منضبط؛ لأنه من صنع الحكيم العليم.

ويدرك أيضا أن وراء ذلك حكمة وهدفاً وغاية أعظم وأهم، وهي عبادته سبحانه وتعالى والذل والخضوع له سبحانه.

﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ «له»: جار ومجرور خبر مقدم و «ملك» مبتدأ مؤخر، وقدم الخبر لإفادة الحصر، أي: أن ملك السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن لله وحده بلا شريك. يتصرف فيه كيف يشاء كما قال عز وجل: ﴿ قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾[سبأ: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧].

(يحيي) أي: يوجد الحياة في الإنسان والحيوان والنبات كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢].

والحياة والموت سر الله في خلقه لم يعرف الخلق كنه ذلك وحقيقته، إلا أن الحي يأكل ويشرب ويتحرك وينمو ويتنفس، فإذا مات انقطعت هذه الأشياء فسبحان الخالق البصير.

(ويميت) أي: يسلب الحياة من جميع الأحياء

فهو الذي يوجد الحياة ويسلبها وهذا من تمام ملكه، وخصه بالذكر لأن الإحياء والإماتة من أعظم الدلائل على قدرته عز وجل وكماله في ذاته وفي ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وعلى قدرته على البعث.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أي: فلا يخرج شيء عن قدرته أياً كان صغيراً كان أو كبيراً قليلاً كان أو كثيراً، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

و«قدير» على وزن «فعيل» يدل على سعة قدرته وعظمتها وأنه لا يقف أمام قدرته شيء، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن

---

(١) انظر «تفسير آيات الأحكام في سورة النساء» ١/ ٢٠٩-٢١٢.

تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [فاطر: ٤٤].

﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ أي: هو سبحانه الأول فليس قبله شيء، وهو الآخر فليس بعده شيء، وهو الظاهر فليس فوقه شيء، وهو الباطن فليس دونه شيء.

كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو عند النوم. **«اللهم رب السموات السبع ورب العرش العظيم ربنا ورب كل شيء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت، أعوذ بك من شر كل شيء أنت آخذ بناصيته، أنت الأول ليس قبلك شيء، وأنت الآخر ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر ليس فوقك شيء، وأنت الباطن ليس دونك شيء اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر»** [١]

فهو عز وجل الأول السابق على جميع الموجودات بلا بداية، والآخر بعد فنائها بلا نهاية، والظاهر فوق كل شيء، والباطن ليس دونه شيء، المطلع على كل شيء سبحانه وتعالى. فاشتمل الأول والآخر على عموم الزمان، واشتمل الظاهر والباطن على عموم المكان.

قال ابن القيم[٢]:

هو أول هو آخر هو ظاهر	هو باطن هي أربع بوزان
ما قبله شيء كذا ما بعده	شيء تعالى الله ذو السلطان

عن أبى زميل قال: سألت ابن عباس، فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال: ما هو؟ قلت: والله ما أتكلم به قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قال- وضحك- قال: ما نجا من ذلك أحد قال: حتى أنزل الله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس:٩٤]، قال: فقال لي: إذا وجدت في نفسك شيئاً فقل: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾[٣].

قال ابن القيم في كلامه على هذه الآية[٤]: «فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل

---

(١) أخرجه مسلم في الذكر والدعاء- ما يقول عند النوم، وأخذ المضجع ٣٧١٣، وأحمد ٢/ ٤٠٤ وقد رُوِيَ أيضا من حديث عائشة رضي الله عنها أخرجه أبو يعلى الموصلي في مسنده فيما ذكره ابن كثير في «تفسيره» ٨/ ٣١.

(٢) في «النونية» ص ١٤٦.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ـ رد الوسوسة ٥١١٠.

(٤) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٣-٣٨٤.

الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو الرب الخلاق، ولابد أن ينتهي الأمر إلى خالق غير مخلوق وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه، وكل شيء قائم به، موجود بذاته، وكل شيء موجود به، قديم لا أول له، وكل ما سواه فوجوده بعد عدمه، باق لذاته، وبقاء كل شيء به، فهو الأول الذي ليس قبله شيء والآخر الذي ليس بعده شيء، الظاهر الذي ليس فوقه شيء، الباطن الذي ليس دونه شيء».

الفوائد والعبر:

١ ـ أن كل ما في السموات والأرض يسبح الله ـ عز وجل ـ.

٢ ـ إثبات اسم الله «العزيز» وما يدل عليه من إثبات صفة العزة له ـ عز وجل، عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة، وعزة القوة.

٣ ـ إثبات اسم الله «الحكيم» وما يدل عليه من إثبات الحكم التام لله عز وجل بأقسامه الثلاثة: الحكم الكوني والحكم الشرعي، والحكم الجزائي، والحكمة الغائية والحكمة الصورية.

٤ ـ أن لله ـ عز وجل ـ ملك السموات والأرض وبيده الحياة والموت، وهو على كل شيء قدير.

٥ ـ إثبات أسماء الله عز وجل. «الأول، والآخر، والظاهر، والباطن» وأنه ـ عز وجل ـ هو الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية والظاهر فلا شيء فوقه والباطن فلا شيء دونه.

٦ ـ سعة علم الله ـ عز وجل ـ وإحاطته بكل شيء علماً.

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥﴾ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۚ وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٦﴾﴾.

قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ كقوله في سورة الأعراف ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [الآية: ٥٤].

أي: هو الذي أوجد هذه المخلوقات العظيمة، السموات السبع وما فيهن، والأرضين السبع وما فيهن وقدم ذكر السموات لأنها أشرف من الأرض وأعلى.

﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيام الدنيا لأن الله خاطب العرب بما يعرفون، وأول هذه الأيام يوم الأحد وآخرها يوم الجمعة.

وهو ـ عز وجل ـ قادر على خلقها في لمحة بصر أو أقل من ذلك كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَٰحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ ﴿٥٠﴾﴾ [القمر: ٥٠].

ومما قيل من الحكمة في خلقها في ستة أيام: أن هذه المخلوقات يترتب بعضها على بعض فرتب عز وجل بعضها على بعض حتى أكملها. وفيه أيضا تعليم عباده التؤدة والتأني في الأمور وأن الأهم إحكام الشيء وإتقانه لا الفراغ منه.

وقيل ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ كل يوم منها كألف سنة. والظاهر المتبادر للذهن القول بأنها من أيام الدنيا.

وهذه الأيام الستة هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، قال ابن كثير:[1] « فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت، وهو القطع».

قال ابن كثير[1]: «وأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد- ثم ذكر حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: «خلق الله التربة يوم السبت، وخلق الجبال فيها يوم الأحد، وخلق الشجر فيها يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق

---

(١) في «تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة آخر الخلق، في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر والليل»[١].

قال ابن كثير- بعد ذكر هذا الحديث من رواية أحمد قال: «فقد رواه مسلم بن الحجاج في صحيحه والنسائي من غير وجه عن حجاج- وهو ابن محمد الأعور- عن ابن جريج به، وفيه استيعاب الأيام السبعة، والله تعالى قد قال: ﴿فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ ولهذا تكلم البخاري وغير واحد من الحفاظ في هذا الحديث، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار، ليس مرفوعاً، والله أعلم».

وقد خلق الله عز وجل الأرض في يومين، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في تتمة أربعة أيام، وخلق السموات في يومين، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿١٢﴾﴾ [فصلت: ٩- ١٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ [البقرة:٢٩].

وقال تعالى في سورة النازعات: ﴿أَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ ﴿٣٣﴾﴾ [الآيات: ٢٧- ٣٣].

وعن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس: إني أجد في القرآن أشياء تختلف عليّ قال: ﴿فَلَا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾﴾، ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٢٧﴾﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا ﴿٤٢﴾﴾، ﴿وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾﴾ فقد كتموا في هذه الآية، وقال: ﴿أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾﴾ إلى قوله ﴿دَحَاهَا﴾ فذكر خلق السماء قبل خلق الأرض، ثم قال: ﴿أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ إلى قوله (طائعين) فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء؟ وقال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ ﴿عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ ﴿سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ **فكأنه كان ثم مضى.**

---

(١) أخرجه مسلم في صفة القيامة ٢٧٨٩.

فقال ابن عباس: «﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ﴾ في النفخة الأولى ثم ينفخ في الصور ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون، ثم في النفخة الآخرة ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾.

إلى أن قال: وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ فسواهن في يومين آخرين، ثم دحا الأرض، ودحوها: أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والجمال والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله (دحاها)، وقوله: ﴿خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ فجعلت الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلقت السموات في يومين». الحديث(١).

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ « ثم» للعطف أي: بعد خلق السموات والأرض استوى على العرش.

والعرش في اللغة عبارة عن سرير الملك، كما قال تعالى عن بلقيس ﴿وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾ [النمل: ٢٣]، وهو أكبر المخلوقات فعن أبي ذر ـ رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»**(٢)، وقد قال الله عز وجل في الكرسي:﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

ومعنى (استوى) أي علا وارتفع(٣).

قال عبد الله بن رواحة رضي الله عنه:

شهدت بأن وعد الله حق ... وأن النار مثوى الكافرينا

وأن العرش فوق الماء طافٍ ... وفوق العرش رب العالمينا

وتحمله ملائكة شداد ... ملائكة الإله مسومينا(٤)،

والمعنى: **استوى على العرش** استواء يليق بجلاله وعظمته من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل، كما قال مالك رضي الله عنه: «الاستواء معلوم، والكيف مجهول،

---

(١) ذكره البخاري معلقاً في تفسيره سورة «حم السجدة» انظر فتح الباري» ٨/ ٥٥٥-٥٥٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٤/ ٥٣٩، وقال ابن كثير في «البداية والنهاية» ١/ ١١ «أول الحديث مرسل، وعن أبي ذر منقطع وقد رُويَ عنه من طريق أخرى موصولاً» وانظر «فتح المجيد» ص ٦١٦.

(٣) انظر: صحيح البخاري مع الفتح ١٣/ ٤٠٣، «جامع البيان» ١٦/ ١٣٨، «شرح أصول الاعتقاد» للالكائي رقم ٦٦٢، «الرد على الجهمية» للدارمي ص ٢٣، «خلق أفعال العباد» للبخاري ص٨، «الرسالة الحموية» لابن تيمية ص٤١.

(٤) انظر « الرد على الجهيمة» ص٢٧، « شرح الطحاوية» تحقيق أحمد شاكر ص ٢٥٦، « سير أعلام النبلاء» ١/ ٢٣٨.

والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة»[١].

وقال ابن كثير[٢]: «وإنما يسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح: مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وغيرهم، من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً، وهو إمرارها، كما جاءت من غير تكييف، ولا تشبيه ولا تعطيل. والظاهر المتبادر إلى أذهان المشبهين منفي عن الله، فإن الله لا يشبهه شيء من خلقه و﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴿١١﴾﴾ [الشورى: ١١] بل الأمر كما قال الأئمة - منهم نعيم بن حماد الخزاعي شيخ البخارى: « من شبه الله بخلقه فقد كفر، ومن جحد ما وصف الله به نفسه فقد كفر». وليس فيما وصف الله به نفسه ولا رسوله تشبيه، فمن أثبت لله تعالى ما وردت به الآيات الصريحة والأخبار الصحيحة، على الوجه الذي يليق بجلال الله تعالى، ونفى عن الله تعالى النقائص فقد سلك سبيل الهدى».

﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

بعد ما أخبر عز وجل بسعة وعظم خلقه، وأنه خلق السموات والأرض، واستوائه بعد ذلك على عرشه أخبر بسعة علمه فقال ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ إلى قوله ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾.

قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا﴾ كقوله في سورة سبأ: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۚ وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الآية: ٢].

و «ما» في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ موصولة بمعنى «الذي» و «يلج» بمعنى: يدخل أي: يعلم سبحانه الذي يدخل في الأرض كنهه وكمه وكيفه من حب وقطر وحيوان وغير ذلك.

﴿وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا﴾ أي: ويعلم الذي يخرج منها من زروع ونبات وثمار ومياه، وحيوان وغير ذلك.

كما قال تعالى: ﴿۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ

---

(١) انظر «الأسماء والصفات» للبيهقي ص ٥١٦. «مجموع الفتاوى» ١٧/ ٣٧٣.

(٢) في « تفسيره» ٣/ ٤٢٢.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ۝٥٩﴾، [الأنعام: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿۞مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ ۝٥٥﴾ [طه: ٥٥].

﴿وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: ويعلم الذي ينزل من السماء من الأمطار والأرزاق والبرد والثلوج والصواعق والأقدار والأحكام والملائكة وغير ذلك.

﴿وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ﴾ أي: وما يصعد إليها، وجاء التعبير بـ «فيها» لأن الفعل «يعرج» ضمن معنى «يدخل» أي: ويعلم الذي يصعد إليها ويدخل فيها من الملائكة والأرواح والأدعية والأعمال وغير ذلك قال تعالى: ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ [المعارج: ٤]، وقال تعالى: ﴿يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ ثُمَّ يَعۡرُجُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥٓ أَلۡفَ سَنَةٖ مِّمَّا تَعُدُّونَ ۝٥﴾ [السجدة: ٥]، وقال تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾ [فاطر:١٠].

وقال ﷺ **«يرفع إليه عمل الليل قبل عمل النهار، وعمل النهار قبل عمل الليل»**(١).

﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ﴾ أي: وهو سبحانه معكم أيها الخلق جميعكم في أي مكان كنتم من بر أو بحر أو جو، في ظاهر الأرض أو في باطنها. وهذه هي المعية العامة التي بمعنى العلم والإحاطة، فهو سبحانه مع الخلق كلهم في علمه وإحاطته بهم في أي مكان كانوا، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم، كما قال تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجۡوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمۡ وَلَا خَمۡسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمۡ وَلَآ أَدۡنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمۡ أَيۡنَ مَا كَانُواۖ﴾ ا[المجادلة: ٧]. ولهذا قال في نهاية الآية هنا: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾. وفي الحديث: **«اللهم أنت الصاحب في السفر»**(٢)

وهناك القسم الثاني من أقسام المعية، وهي المعية الخاصة، وهي معية الله لأوليائه المتقين وحزبه المفلحين بالعون والنصر والتأييد والحفظ والتسديد كما في قوله ﷺ لأبي بكر رضي الله عنه: ﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾ [التوبة: ٤٠].

والعجب ممن لم يستفيدوا من مثل هذه النصوص إلا الابتداع والقول بالحلول والاتحاد، بدلاً من التأمل في سعة علم الله عز وجل وإحاطته بكل شيء مما يوجب مراقبته

---

(١) أخرجه البخاري في الوضوء ١٤٤، ومسلم في الإيمان ١٧٩، وابن ماجه في الطهارة وسننها ٣١٨- من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الحج ـ ما يقول إذا ركب ١٣٤٢، وأبو داود في الجهاد ٢٥٩٩، والترمذي في الدعوات ٣٤٤٧ ـ من حديث ابن عمر ـ رضي الله عنهما.

والخوف منه، والثقة بوعده ونصره وعونه وتأييده وصدق الله العظيم ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَـٰرُ وَلَـٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝﴾ [الحج: ٤٦].

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ «ما» موصولة، أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملونه بصير، أو: والله بعملكم بصير، و«بصير» على وزن «فعيل»، و«البصير» من أسمائه ـ عز وجل. أي: أنه عالم ومطلع وشاهد ورقيب على أعمالكم كلها دقيقها وجليلها، خفيها وجليها، سرها وعلانيتها، كما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ يَثْنُونَ صُدُورَهُمْ لِيَسْتَخْفُوا۟ مِنْهُ ۚ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ۝﴾ [هود: ٥].

وقال تعالى: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝﴾ [الرعد: ١٠].

وقال ﷺ: «حجابه النور لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره»[١]

وسأل جبريل النبي ﷺ عن الإحسان فقال: «**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[٢].

ولهذا كان الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذين البيتين[٣]:

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل   خلوت ولكن قل عليَّ رقيب

ولا تحسبن الله يغفل ساعة   ولا أن ما يُخفى لديه يغيب

﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾. أي: له وحده بلا شريك (ملك السموات والأرض)

وفي الآية الثانية من السورة قال: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾ فبين في هذه الآية أن من تمام ملكه أن بيده الإحياء والإماتة وأن قدرته نافذة في كل شيء.

---

(١) أخرجه مسلم في الإيمان ـ إثبات رؤية الله ـ سبحانه وتعالى ١٧٩ ـ من حديث أبي موسى ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه مسلم في الإيمان ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي في الإيمان ٤٩٩٠، والترمذي في الإيمان: ٢٦١٠ وأخرجه البخاري في الإيمان ٤٨، ومسلم في الإيمان ١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٠٥، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٥، وانظر ٦/ ٢٢٩.

وبيّن في قوله هنا ﴿لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ﴾ أن مرجع الأمور كلها الدينية والدنيوية والأخروية ومصيرها إليه في الحال والمآل من الأحكام والجزاء الأعمال والعمال وغير ذلك، وهذا من تمام ملكه فمنه البداية، كما أفادت الآية الأولى، وإليه النهاية والمرجع والمصير والمآب وإلى حكمه في الدنيا والآخرة كما أفادت هذه الآية، وكما قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ [الحج: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾ [الرعد: ٣٦].

وإذا كان عز وجل إليه مرجع الأمور ومصير الخلائق فسيحكم فيهم بعدله ويجازي كلاً منهم بما عمل، وفي هذا وعد لمن اتقى الله ووعيد لمن عصاه، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

فأفادت الآيتان أن له عز وجل ملك الدنيا والآخرة كما قال عز وجل: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْـَٔاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الليل: ١٣].

وهو المحمود على ذلك كله، كما قال عز وجل: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْـَٔاخِرَةِ﴾ [القصص: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١﴾﴾ [سبأ: ١].

﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ أي: يدخل الليل في النهار تدريجياً فيطول الليل ويقصر النهار، ويدخل النهار في الليل تدريجياً فيطول النهار ويقصر الليل، وتارة يجعلهما متساويين معتدلين، وذلك لمصالح العباد.

قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾﴾ [الحج: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ [لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ﴾ [فاطر: ١٣]

قال ابن كثير[1] «أي: هو المتصرف في الخلق يقلب الليل والنهار ويقدرهما بحكمته، كما يشاء، فتارة يطول الليل ويقصر النهار، وتارة بالعكس، وتارة يتركهما معتدلين، وتارة يكون

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٦.

الفصل شتاء ثم ربيعاً ثم قيظاً ثم خريفاً، وكل ذلك بحكمته وتقديره، لما يريده بخلقه».

وفي ذلك مراعاة مصالح الخلق ومواشيهم وحروثهم وأمور دينهم ودنياهم فإن في تعاقب الليل والنهار طولاً وقصراً واعتدالاً وفي تعاقب الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال مصالح عظيمة للخلق، إذ لو كان الحال على وتيرة واحدة من حيث الطول والقصر ومن حيث الحر والبرد والاعتدال لفاتت كثير من المصالح، ولحصل عند الإنسان الملل والسأم فإن كل طويل مملول.

ولهذا امتن الله عز وجل على عباده في أكثر من آية في هذا التقليب والتصريف للأيام والليالي والفصول.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ [الفرقان: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ [آل عمران: ٢٧]. وقال تعالى: ﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾﴾ [النور: ٤٤].

﴿وَهُوَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ «عليم» على وزن «فعيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة يدل على سعة علمه عز وجل و «العليم» اسم من أسمائه سبحانه وتعالى مشتق من العلم وهو إدراك الأشياء على ما هي عليه إدراكاً جازماً

و(ذات الصدور) أي: صاحبة الصدور، وهي القلوب، كما قال عز وجل: ﴿وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: ٤٦]، وقال عز وجل: ﴿أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِى صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [العنكبوت: ١٠].

والمعنى: وهو سبحانه وتعالى محيط علماً بالقلوب التي في الصدور وما تنطوي عليه من دقائق المضمرات وخفيات الأسرار من المعتقدات وغيرها.

وهذا مما يوجب على العبد مراقبة الله - عز وجل - في سره وعلانيته، في أقواله وأفعاله، والتفتيش في خبايا نفسه، وعما ينطوي عليه قلبه، مبتعداً عن الرياء والسمعة والشرك ومحبطات الأعمال، وعن الغل والحقد والحسد والعداوة والبغضاء متأملاً قول الله عز وجل: ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨]. سليم مخلص العبادة لله عز وجل، وسليم على عباد الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ التنبيه إلى تمام قدرة الله ـ عز وجل ـ في خلق السموات والأرض هذه المخلوقات العظيمة في ستة أيام، ولو شاء لخلقها بلمحة بصر.

٢ ـ إثبات استواء الله ـ عز وجل ـ على العرش، وأنه ـ عز وجل ـ عالٍ على خلقه بائن منهم.

٣ ـ علم الله ـ عز وجل ـ الواسع المحيط بكل شيء مما يدخل في الأرض وما يخرج منها، وما ينزل من السماء وما يصعد إليها وغير ذلك.

٤ ـ معية الله ـ عز وجل ـ العامة لجميع الخلق بإحاطته وعلمه ونفوذ قدره ومشيئته فيهم أينما كانوا.

٥ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «البصير» واطلاعه ـ عز وجل ـ وعلمه بجميع أعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن ووعيد لمن أساء.

٦ ـ أن لله ـ عز وجل ـ ملك السموات والأرض وإليه مرد الأمور ومصير جميع الخلائق وسيجازي كلاً بما عمل.

٧ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة، ونعمته العظيمة على الخلق في تعاقب الليل والنهار طولاً وقصراً واعتدالاً وفي تعاقب الفصول من حر إلى برد إلى اعتدال.

٨ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بما تنطوي عليه القلوب من الاعتقادات والمضمرات، وإذا كان كذلك فعلمه بما يظهر من باب أولى وأحرى مما يوجب مراقبة الله ـ تعالى ـ في السر والعلن، فهو العليم الخبير.

﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٩﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنۢ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله ـ عز وجل ـ في الآيات السابقة تسبيح جميع المخلوقات له، وعزته وحكمه وحكمته، وسعة ملكه، وكمال قدرته، وإحاطة علمه بكل شيء، واستواءه على عرشه ومعيته لخلقه، وبصره بما يعملون، ومرد الأمور إليه، وإدخاله الليل في النهار والعكس وعلمه بما تنطوي عليه القلوب، وكل ذلك يدل على كمال عظمته، ثم أتبع ذلك بالأمر بالإيمان به وبرسوله والإنفاق في سبيله.

قوله: ﴿ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا أمر من الله للمؤمنين بالإيمان به وبرسوله كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَالْكِتَابِ الَّذِيٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ﴾ [النساء: ١٣٦].

وليس هذا من تحصيل الحاصل، كما قد يفهمه من قصر علمه ومعرفته، وذلك أن المؤمن في حاجة في كل لحظة وفي كل حال إلى الإيمان وتجديده والثبات والاستمرار عليه والزيادة منه وتكميله؛ ولهذا يقول المؤمن وهو قائم يصلي بين يدي الله عز وجل في كل ركعة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾﴾ [الفاتحة: ٦]. أي: وفقنا له وثبتنا عليه وزدنا هداية.

والإيمان لغة: التصديق، كما قال تعالى عن إخوة يوسف أنهم قالوا: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا﴾ [يوسف: ١٧]، أي: بمصدق.

وهو شرعاً: قول باللسان واعتقاد بالجنان، وعمل بالأركان[١].

---

(١) راجع الكلام على قوله تعالى في مطلع سورة الحجرات ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الآية:١].

والإيمان بالله: الإيمان بوجوده وبربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وهو معنى شهادة أن لا إله إلا الله.

والإيمان بالرسول: هو طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يعبد الله إلا بما شرع، وهو معنى شهادة أن محمداً رسول الله.

﴿وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ الواو: عاطفة، وهذا يدل على أن الإيمان قول، واعتقاد، وعمل، لأن الإنفاق مما استخلفوا فيه عمل، وإنما خص ذلك- والله أعلم- لما للإنفاق والعبادات المالية من النفع العام والإحسان المتعدي إلى الخلق، وأحب الناس إلى الله عز وجل أنفعهم للناس، ولأن المال شريك الحياة فبذله من أعظم الشواهد والعلامات على قوة الإيمان.

وقوله: « مما» أي: من الذي و «من» للتبعيض أي: بعض الذي جعلكم مستخلفين فيه. وقد تكون للبيان فيجوز للإنسان أن ينفق أكثر ماله أو كله حسب الحاجة والمصلحة وحال المنفِق فقد تصدق أبو بكر الصديق بكل ماله، وتصدق عمر بنصف ماله ـ رضي الله عنهما[(١)] .

﴿جَعَلَكُم﴾ بمعنى: صيركم، تنصب مفعولين الأول: كاف الخطاب، والثاني قوله ﴿مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾. والأمر بالإنفاق هنا يشمل النفقات الواجبة والمستحبة.

والمعنى: وانفقوا من المال الذي جعلكم الله مستخلفين فيه، أي: خلفتم فيه من قبلكم، وسيخلفكم فيه من بعدكم، وهو بمنزلة الأمانة، أو العارية في أيديكم.

فالمال مال الله منّ به علينا واستخلفنا فيه، ومنّ علينا بشرعه لنا الإنفاق منه ليثيبنا على ذلك بالأجر الكبير المضاعف.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه قال: « أتيت النبي ﷺ، وهو يقرأ ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝﴾ [التكاثر: ١]. قال: « يقول ابن آدم: مالي مالي. قال: وهل لك يا ابن آدم من مالك إلا ما أكلت فأفنيت، أو لبست فأبليت، أو تصدقت فأمضيت، وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس»[(٢)] .

---

(١) أخرجه أبو داود في الزكاة ١٦٧٨، والترمذي في المناقب ٣٦٧٥ ـ من حديث عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٥٢٥٨، والنسائي في الوصايا ٣٦١٣، والترمذي في الزهد ٢٣٤٢، وأحمد ٤/ ٢٤.

قال ابن كثير[١]: «وقوله ﴿مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ فيه إشارة إلى أنه سيكون مخلفاً عنك فلعل وارثك أن يطيع الله فيه، فيكون أسعد بما أنعم الله به عليك منك. أو يعصي الله فيه، فتكون قد سعيت في معاونته على الإثم والعدوان».

﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أمر الله عز وجل في أول هذه الآية بالإيمان به وبرسوله والإنفاق مما جعلهم مستخلفين فيه، ثم رغبهم في الإيمان والإنفاق بذكر ما رتب عليه من الثواب فقال: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: فالذين آمنوا منكم بالله ورسوله وأنفقوا مما استخلفهم الله فيه ﴿لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أي: لهم جزاء وثواب كبير وعظيم من حيث كنهه وكيفيته وكميته، وهو ما أعده الله من السعادة في الدنيا والآخرة والنعيم المقيم في جنات النعيم والخلف العظيم للمنفقين قال تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة ٢٤٥]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [التغابن: ١٧].

وسُمي ثواب إيمانهم وإنفاقهم أجراً تحقيقا للوفاء لهم بذلك؛ لأن الله عز وجل لا يخلف الميعاد، وقد أوجب الله عز وجل على نفسه إثابة المطيعين ورحمة عباده المؤمنين، قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٥٤)﴾ [الأنعام: ٥٤].

وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦)﴾ [الأعراف: ١٥٦].

ولهذا سمى عز وجل ثواب المؤمنين المنفقين أجراً لأنه سبحانه تكفل به وأوجبه على نفسه تفضلاً منه وكرما، فكان أشبه بأجر الأجير الذي قال فيه الرسول ﷺ: «أعطوا الأجير أجره قبل أن يجف عرقه»[٢].

﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾.

الواو استئنافية و «ما» اسم استفهام يفيد التحضيض في محل رفع مبتدأ، «لكم» متعلق بمحذوف خبر المبتدأ. و«لا» نافية.

أي: أي شيء يمنعكم من الإيمان بالله؟

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٣٦
(٢) أخرجه ابن ماجه في الأحكام ٢٤٤٣ من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

﴿وَٱلرَّسُولُ يَدۡعُوكُمۡ لِتُؤۡمِنُواْ بِرَبِّكُمۡ﴾ الواو: للحال، أي: والحال أن الرسول بين أظهركم يدعوكم لتؤمنوا بربكم، ويبين لكم الحجج والبراهين على صحة ما جاءكم به، أي: أنه لا عذر لكم إن لم تؤمنوا بالله.

عن أبي جمعة الأنصاري رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ، ومعنا معاذ ابن جبل عاشر عشرة، فقلنا يا رسول الله، هل من قوم أعظم أجراً منا؟ آمنا بك واتبعناك . قال: « ما يمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحي من السماء، بل قوم من بعدكم يأتيهم كتاب بين لوحين، يؤمنون به ويعملون بما فيه، أولئك أعظم أجراً منكم مرتين»[1].

قال ابن كثير[2] بعد سياقه لهذا الحديث: «مدحهم على ذلك، وذكر أنهم أعظم من هذه الحيثية لا مطلقاً».

ومع أن أول من يدخل في الخطاب في الآية الصحابة الذين كان الرسول ﷺ بين أظهرهم إلا أن غيرهم من المؤمنين مخاطبون فيها، فهم وإن لم يكن الرسول ﷺ بين أظهرهم فسنته باقية بين أظهرهم إلى قيام الساعة فيها دعوتهم إلى الإيمان بالله.

﴿وَقَدۡ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمۡ﴾ قرأ أبو عمرو بضم الهمزة وكسر الخاء (أُخِذ) و (ميثاقُكم) بالرفع، وقرأ الباقون بفتح الهمزة والخاء (أَخَذ) ونصب (ميثاقَكم) والواو: واو الحال، و«قد» حرف تحقيق والميثاق: هو العهد المؤكد، أي: والحال أن الله قد أخذ ميثاقكم، أي: عهدكم، بدخولكم في الإيمان، أو والحال أن الرسول ﷺ قد أخذ ميثاقكم، وذلك بمبايعتهم له على السمع والطاعة، كما قال تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ﴾ [المائدة: ٧].

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا وعلى ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله عليه برهان، وأن نقول الحق أينما كنا وحيثما كنا لا

---

(١) أخرجه ابن مردويه، ورُوِيَ نحوه من حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، ومن حديث عمر، ومن حديث أنس، انظر تفسير ابن كثير ١/ ٦٤.
(٢) في «تفسيره» ١/ ٦٤.

نخاف في الله لومة لائم»[1].

وعلى هذا المعنى فإن كل من دخل في دين الله وآمن به وبرسوله ﷺ سواء كان ذلك بالمبايعة له ﷺ في حياته أو بالدخول في دينه، سواء كان ذلك في حياته، أو بعد وفاته ﷺ، فهذا عهد وميثاق منه بالإيمان بالله ورسوله ﷺ، يوجب عليه القيام بحق هذا الإيمان.

وقد ذهب بعض المفسرين منهم مجاهد إلى أن المراد بالميثاق في قوله ﴿وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ﴾ هو الذي أخذه الله على بني آدم لما أخرجهم من صلب أبيهم آدم. كما في قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ ۖ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ [الأعراف: ١٧٢ـ ١٧٣][2].

والصحيح القول الأول.

﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ «إن» شرطية (كنتم) فعل الشرط (مؤمنين) أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم فآمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه، أي: إن من شرط صحة وصدق إيمانكم الإيمان بالله ورسوله وتجديد ذلك والثبات والاستمرار عليه والزيادة منه، والإنفاق مما استخلفتم فيه من المال والرزق، والوفاء بالميثاق الذي أخذتموه على أنفسكم لله ورسوله، فكل ذلك من شرط صحة الإيمان.

فعلامة صدق الإيمان وصحته وقوته وكماله الإقبال على الله عز وجل بفعل كل ما يقوي الإيمان ويجدده ويثبته من ترك للمنهيات وفعل للمأمورات، ومن ذلك الإنفاق من المال في وجوه البر والخير، الواجب منها والمندوب.

والإنفاق من أعظم العلامات على الإيمان وهو محزّ عظيم فإن من الناس من تظهر عليه آثار الصلاح والتقى والزهد، وتراه يهمهم ويحوقل، فتحسبه من أعظم الزهاد والأتقياء ولكن إذا سبرت أحواله في الإنفاق والتعامل بالدرهم والدينار تمنيت أنك لم تطلع على حاله في هذا الجانب.

---

(١) أخرجه البخاري في الإيمان ١٨، ومسلم في الإمارة ١٧٠٩، والنسائي في البيعة ٤١٤٩، وابن ماجه في الحدود ٢٨٦٦.

(٢) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٠.

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين سأل عن رجل فقال: «من يعرف فلاناً فقام رجل فقال: أنا أعرفه يا أمير المؤمنين. فقال له عمر رضي الله عنه: «هل عاملته بالدرهم والدينار؟ قال: لا. قال: هل سافرت معه؟ قال: لا. قال: هل جاورته؟ قال: لا. فقال عمر رضي الله عنه: إذاً أنت لا تعرفه». رضي الله عنك يا عمر لقد عرفت الحزّ حقاً.

وقد قيل:

والدعاوى إذا لم يقيموا عليها ... بيّنات أصحابها أدعياء

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِۦٓ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ﴾

(هو) أي: الله عز وجل الذي أمركم بالإيمان به وبرسوله والإنفاق مما استخلفكم فيه من المال، والذي أخذ عليكم الميثاق.

(هو الذي ينزل على عبده) محمد ﷺ آيات بيّنات وهذا من لطفه عز وجل بكم لم يكتف بمجرد دعوة الرسول والذي هو أشرف الخلق، بل أيده بالمعجزة الكبرى وهي الآيات البينات، وفي هذا تنبيه لعظيم فضله عليهم، وتنويه بأعظم نعمة أنعم بها عليهم.

والآيات هي العلامات وهي تنقسم إلى قسمين آيات شرعية، وهي آيات القرآن الكريم وآيات كونية، وهي كل آياته المنتشرة في الكون وفي خلقه.

والمراد بالآيات هنا: الآيات الشرعية، آيات القرآن الكريم، المشتملة على الهدى والنور، كما قال عز وجل :﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾﴾ [المائدة: ١٥].

وسميت الآيات الشرعية بالآيات لما فيها من الدلالة على صدق من جاء بها وأنها من عند الله، ولما فيها من التشريع الصالح لكل زمان ولكل مكان ولكل أمة، ولما فيها من الدلالة على كماله عز وجل في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

(بيّنات) أي: بينات واضحات مفصلات؛ لأن الله عز وجل بينهن وفصلهن، كما قال عز وجل: ﴿قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾﴾ [البقرة: ١١٨]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ [القيامة: ١٧-١٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ [الأنعام: ٩٧]، وفي الآية: (٩٨) ﴿لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾﴾ وفي الآية: (١٢٦) ﴿لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٢٦﴾﴾.

أي: آيات بينات مفصلات فيهن بيان للواجب وغيره، وللحلال والحرام، ولكل ما

تحتاجه الأمة في أمور دينها ودنياها، كما قال عز وجل: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٧)﴾ [يونس: ٣٧]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)﴾ [يوسف: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا (١٢)﴾ [الإسراء: ١٢] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا﴾ [الأنعام: ١١٤].

ويؤخذ من قوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ علو الله على خلقه، لأن الإنزال يكون من علو إلى أسفل. وأن القرآن منزل غير مخلوق، كما هو مذهب أهل السنة والجماعة.

﴿لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ اللام لام التعليل، أي: لأجل أن يخرجكم من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان والهدى. والضمير في قوله (ليخرجكم) يعود إلى الله ـ عز وجل وقد يعود إلى الرسول ﷺ لأنه سبب الإخراج كما قال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[إبراهيم: ١].

وجمع الظلمات ووحد النور، لأن سبل الشر كثيرة متفرقة وسبيل الخير واحد كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

ويا لها من ظلمات ومسالك وعرة ومفاوز ومهالك، وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ (٤٠)﴾ [النور: ٤٠]، وقال عز وجل: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٢)﴾ [الزمر: ٢٢].

فما أعظمها من منة، وما أكبرها من نعمة، وعنه ﷺ قال: **«كيف أصبحت يا حارثة؟ قال: أصبحت مؤمناً حقاً قال انظر ما تقول فإن لكل قول حقيقة. قال أصبحت كأني انظر إلى عرش الرحمن بارزًا وإلى أهل الجنة في الجنة ينعمون وإلى أهل النار في النار يتعاوون. قال: عبد نوَّر الله قلبه فالزم»**[1].

---

(١) سيأتي تخريجه في الكلام على قوله تعالى ((ويجعل لكم نوراً تمشون به)) [الآية: ٢٨] من هذه السورة.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ الواو: عاطفة، و الخطاب للمؤمنين و«الرؤوف» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعول» يدل على سعة رأفته عز وجل بخلقه، وبخاصة المؤمنين.

كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج ٦٥] وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ﴾ [البقرة: ٢٠٧، آل عمران: ٣٠].

و«الرحيم» كذلك اسم من أسماء الله عز وجل على وزن « فعيل» يدل على إثبات صفة الرحمة الواسعة لله عز وجل رحمة ذاتية ثابتة لله عز وجل كما قال تعالى: ﴿فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ﴾ [الكهف:٥٨]، ورحمة فعلية يوصلها من شاء من عباده، كما قال عز وجل: ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

ورحمة عامة لجميع الخلق كما قال عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٤٣، الحج: ٦٥]. ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣] فهو عز وجل أرحم بعباده من الوالدة بولدها.

والرأفة: أرق وأخص من الرحمة.

وهذان الاسمان « الرؤوف، والرحيم» يجوز تسمية غير الله بهما؛ ولهذا وصف الله نبيه ﷺ بهما فقال: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [التوبة: ١٢٨].

ومن عظيم رأفته عز وجل ورحمته بالخلق إنزال القرآن الكريم وما فيه من الآيات البينات على رسوله محمد ﷺ لإخراج الناس من الظلمات إلى النور، كما قال تعالى: ﴿الٓر كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ [إبراهيم: ١].

﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كقوله ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ﴾، الواو: استئنافية، و «ما» اسم استفهام فيه معنى التحضيض ﴿أَلَّا تُنفِقُوا۟﴾ «ألا» أن حرف مصدري و « لا» نافية، أي: وما لكم لا تنفقون في سبيل الله، أي: أي شيءيمنعكم من الإنفاق في سبيل الله؟ أي: أنفقوا.

وقوله ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي: لإعلاء كلمة الله في الجهاد وقتال الكفار.

والجهاد بالمال من أعظم أنواع الجهاد، وذلك لأن المجاهد بنفسه لا يستطيع الجهاد إلا

بوجود المال ليتزود به في جهاده، ويحصل به على المركب الذي يركبه والسلاح الذي يقاتل به وغير ذلك، ولهذا فإن أهمية الجهاد بالمال لا تقل عن أهمية الجهاد بالنفس إن لم تزد عليها، بل إن الجهاد بالنفس لا يمكن أن يتحقق دون الجهاد بالمال، ولهذا قدم الله عز وجل الجهاد بالمال على الجهاد بالنفس في أكثر المواضع في القرآن الكريم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ﴾ [الصف: ١١]، وقال تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤١]، إلى غير ذلك من الآيات.

ولهذا قال ﷺ: «من جهز غازياً فقد غزا»[١].

كما يدخل في الإنفاق في سبيل الله عموم الإنفاق ابتغاء وجه الله من النفقات الواجبة والمستحبة من الزكاة والنفقات على الأهل والأولاد والصدقات والبذل في وجوه البر كلها كالحج وبناء المساجد وتعليم القرآن الكريم ومساعدة المحتاجين والإنفاق في تهيئة الخدمات العامة كبناء المدارس والمستشفيات وفتح الطرق وتعبيدها وحفر الآبار وغير ذلك. قال ﷺ لسعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه: «واعلم أنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها»[٢].

﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: حالية أي: أي شيء يمنعكم من الإنفاق في سبيل الله والحال أنه ليس لكم شيء، بل لله عز وجل ملك السموات والأرض فهو سبحانه المالك الوارث لذلك كله خلقاً وابتداء وتصرفاً وانتهاء.

قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ [المائدة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ [المائدة: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [مريم: ٤٠].

وفي قوله ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ بعد قوله ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنفِقُواْ فِي سَبِيلِ

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٤٣، ومسلم في الإمارة ١٨٩٥، وأبو داود في الجهاد ٢٥٠٩، والنسائي في الجهاد ٣١٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٢٨، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٩ - من حديث زيد بن خالد - رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الجنائز - رثاء النبي ﷺ سعد بن خولة ١٢٩٥، ومسلم في الوصية - الوصية بالثلث ١٦٢٨.

﴿ٱللَّهِ﴾ إشارة وتنبيه إلى أن للمنفق في سبيل الله الخلف العظيم العاجل من الله عز وجل مع الأجر الكريم الآجل، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ما نقصت صدقة من مال»[١].

وعنه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قال الله عز وجل: أنفق أنفق عليك»[٢].

وقال ﷺ لأسماء رضي الله عنها: «أنفقي، ولا تحصي فيحصي الله عليك، ولا توعي، فيوعي الله عليك»[٣].

وقال ﷺ: « ما من يوم، يصبح العباد فيه، إلا وملكان ينزلان، فيقول أحدهما: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً»[٤].

فعلى المؤمن أن ينفق مما استخلفه الله فيه من المال ويثق بالخلف من الله عز وجل ويتوكل على الله ويعتمد عليه، ويكون أوثق بما عند الله مما في يده قال عز وجل: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ ۖ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ ۗ﴾ [النحل: ٩٦].

كما أن في الآية إشارة وتنبيهاً إلى أن المال كله لله عز وجل، وما في أيدي الناس إنما هو مجرد عارية ووديعة في أيديهم، سترد إلى الله عز وجل، كما سيردون هم بأنفسهم إليه عز وجل، قال تعالى: ﴿أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ ﴿٥٣﴾﴾ [الشورى: ٥٣]، وقال تعالى: ﴿وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ [التوبة: ١٠٥].

وقد قيل:

وما المال والأهلون إلا ودائع ... ولابد يوماً أن ترد الودائع

وقال الآخر:

المال كالماء إن تحبس سواقيه ... يأسن وإن يجر يعذب منه سلسال

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩.

(٢) أخرجه البخاري في تفسير سورة هود ٤٦٨٤، ومسلم في الزكاة ٩٩٣.

(٣) أخرجه البخاري في الهبة ٢٥٩١، ومسلم في الزكاة ١٠٢٩، وأبو داود في الزكاة ١٦٩٩، والنسائي في الزكاة ٢٥٥١، والترمذي في البر والصلة ١٩٦٠ من حديث أسماء رضي الله عنها.

(٤) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤٤٢، ومسلم في الزكاة ١٠١٠ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

فـالله أعطـاك فابـذل مـن عطيتـه ... فالمـال عاريـة والعمـر رحـال

وقال الآخر:

أصـون عرضـي بمـالي لا أدنسـه ... لا بـارك الله بعـد العـرض بالمـال

أحتـال للمـال إن أودى فأجمعـه ... ولسـت للعـرض إن أودى بمحتـال

فما أحرى من كان المال عارية ووديعة عنده ألا يبخل بشيء منه، وألا يمنع حقاً من حقوق صاحب هذا المال ومالكه وهو الله عز وجل، الذي له ملك السموات والأرض.

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ﴾ أي: لا يستوى منكم أيها المؤمنون من أنفق من قبل فتح مكة وقاتل، ومن لم ينفق ولم يقاتل قبل هذا الفتح.

وذلك أنه قبل الفتح كانت الحاجة إلى الإنفاق والقتال شديدة، وذلك لضعف المسلمين وقلتهم، أما بعد فتح مكة فقد قويت شوكة الإسلام، وكثر المسلمون، ودخل الناس في دين الله أفواجا، كما قال عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ ٱلنَّاسَ يَدْخُلُونَ فِى دِينِ ٱللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ [النصر: ١ـ ٣].

فالإنفاق قبل الفتح الحاجة إليه أشد وأعظم، وكذا القتال قبل الفتح، ولهذا يتحمل المنفق والمقاتل في هذه الحال أشد مما يتحمله من أنفق من بعد الفتح وقاتل وذلك لكثرة المنفقين والمقاتلين وفي الحديث: «سبق درهم مائة ألف درهم»[1].

والجمهور على أن المراد بالفتح «فتح مكة» كما تقدم، واختاره الواحدي وابن الجوزي وابن كثير وغيرهم[2].

وقد ذهب الشعبي وغيره إلى أن المراد بالفتح هنا: «صلح الحديبية»[3] واختاره الطبري والنحاس، والكيا الهراسي، وابن تيمية، والسعدي وغيرهم[4].

---

(١) أخرجه النسائي في الزكاة- باب جهد المقل ٢٥٢٧.

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٢-٣٩٣، «الوسيط» ٤/ ٣٤٥، «زاد المسير» ٧/ ٣٠١.

(٣) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٣-٣٩٤.

(٤) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٥، «الناسخ والمنسوخ» للنحاس ٣/ ١٨، «أحكام القرآن» للهراسي ٤/ ٤٠١، «مجموع الفتاوى» ١١/ ٥٦، ٢٢٢، ٣٥/ ٦٠، «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٨٧.

وذكر ابن كثير[١] أنه قد يستدل لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن أنس رضي الله عنه في المشاجرة التي جرت بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما حيث قال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا بها؟ فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: « دعوا لي أصحابي فو الذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد- أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم»[٢].

وكان إسلام خالد بن الوليد بين صلح الحديبية وفتح مكة. وكان سبب المشاجرة بينهما أن رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد بعد الفتح إلى بني جذيمة فجعلوا يقولون: «صبأنا، صبأنا» فلم يحسنوا أن يقولوا: « أسلمنا» فأمر خالد بقتلهم وقتل من أسر منهم، فخالفه عبد الرحمن بن عوف وعبد الله بن عمر وغيرهما، فاختصم خالد وعبد الرحمن بسبب ذلك[٣].

كما ذكر ابن كثير في معرض ذكر ما قد يستدل به لهذا القول ما رواه ابن جرير وابن أبي حاتم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: خرج علينا رسول لله ﷺ عام الحديبية حتى إذا كنا بعسفان قال رسول الله ﷺ: « يوشك أن يأتي قوم تحقرون أعمالكم مع أعمالهم» فقلنا من هم يا رسول الله؟ أقريش؟ قال: « لا، ولكن أهل اليمن، هم أرق أفئدة وألين قلوباً» فقلنا هم خير منا يا رسول الله؟ قال: « لو كان لأحدهم جبل من ذهب فأنفقه، ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه، إلا أن هذا فضل ما بيننا وبين الناس، ﴿ لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٠﴾ ﴾»[٤].

---

(١) في « تفسيره» ٨/ ٣٧-٣٨.
(٢) أخرجه أحمد ٣/ ٢٦٦.
(٣) أخرجه البخاري في المغازي ٤٣٣٩، والنسائي في آداب القضاة ٥٤٠٥- من حديث ابن عمر رضي الله عنهما- وليس فيه ذكر عبد الرحمن بن عوف وانظر « تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨.
(٤) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٣٩٤-٣٩٥ وابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٦- الأثر ١٨٨١٦ وقال ابن كثير بعد سياقه من رواية ابن جرير وابن أبي حاتم: « وهذا الحديث غريب بهذا السياق. والذي في الصحيحين من رواية جماعة عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد- ذكر الخوارج- تحقرون صلاتكم مع صلاتهم وصيامكم مع صيامهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية» الحديث أخرجه البخاري في المناقب ٣٦١٠، ومسلم في الزكاة ـ باب ذكر الخوارج ١٠٦٤، وأبو داود في السنة ٤٧٦٤، والنسائي في الزكاة ٢٥٧٨.

ومما يؤيد أن المراد بالفتح هنا صلح الحديبية وأنه هو المراد بقوله في سورة الفتح ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ [الفتح: ١]. على القول الصحيح ما حصل بعد هذا الصلح من دخول الناس في دين الله أفواجاً فكان أعظم عز ونصر للإسلام والمسلمين.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾ الإشارة لقوله ﴿ مَنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَۚ﴾ أي: إلى الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا، أي: أولئك الذين أنفقوا من قبل الفتح وقاتلوا أعظم درجة عند الله في الجنة من الذين أنفقوا من بعد الفتح وقاتلوا وذلك لأن الحاجة إلى الإنفاق والقتال قبل الفتح كانت أشد منها بعد الفتح كما سبق بيانه، والأجر على قدر الإيمان والإخلاص والمشقة، ولهذا قال ﷺ لأصحابه: «يأتي على الناس زمان القابض على دينه كالقابض على الجمر، للعامل فيه أجر خمسين منكم»[1].

﴿ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ ﴾ الواو: عاطفة قرأ ابن عامر برفع اللام «وكلٌّ» على الابتداء وقرأ الباقون بنصبها «وكلاً» مفعول به أول لـ«وعد» و«الحسنى» مفعول به ثان.

أي: وكلا من الفريقين المنفق والمقاتل قبل الفتح، والمنفق والمقاتل بعد الفتح، وعدهم الله الحسنى أي: المثوبة الحسنة والجنة كما قال تعالى ﴿۞ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُواْ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾ [يونس: ٢٦] وقال تعالى: ﴿وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾ [النجم: ٣١].

وفي قوله: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ احتراز، لأنه لما بين أنه لا يستوى المنفق والمقاتل قبل الفتح مع المنفق والمقاتل بعده، وأن المنفقين والمقاتلين قبل الفتح أعظم درجة احترز فقال: ﴿وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ﴾ لئلا يظن أنه ليس للمنفق والمقاتل بعد الفتح أجر، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةًۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ۝٩٥﴾ [النساء: ٩٥]، وكما في قوله

=

ثم ذكر ابن كثير رواية ابن جرير، لهذا الحديث من وجه آخر ليس فيه ذكر الحديبية- وعلى هذا فلا دلالة فيه على أن المراد بالفتح صلح الحديبية. قال ابن كثير: «فإن كان ذاك محفوظاً- يعنى الرواية الأولى- فيحتمل أنه أنزل قبل الفتح إخباراً عما بعده» انظر: «تفسير ابن كثير» ٨/ ٣٨-٣٩.

(١) أخرجه أبو داود في الملاحم ٤٣٤١، والترمذي في التفسير ٣٠٥٨، وابن ماجه في الفتن ٤٠١٤ ـ من حديث أبي ثعلبة الخشني ـ رضي الله عنه.

ﷺ « المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير»[(١)].

ومن فضله عز وجل العظيم الواسع أنه لما ضاعف الأجر لمن كان عمله أفضل لم يحرم من كان عمله دونه، ولهذا قسّم عز وجل أهل الجنة إلى سابقين مقربين، وإلى أهل يمين دونهم، وجعل ثوابهم على درجتين، فقال تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ [الرحمن: ٤٦]، ثم ذكر صفاتهما في أعلى الصفات، ثم قال ﴿وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ ﴿٦٢﴾﴾ [الرحمن: ٦٢] وذكر صفاتهما دون اللتين قبلهما

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ «ما» موصولة أو مصدرية، أي: والله بالذي تعملونه خبير، أو والله بعملكم خبير.

و«الخبير» اسم من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، يدل على سعة خبرته عز وجل.

ومعنى «الخبير» المطلع على بواطن الأمور ودقائقها وخفياتها، وإذا كان عز وجل مطلعاً على بواطنها ودقائقها وخفياتها فاطلاعه على ظواهرها وجلائلها وجلياتها من باب أولى وأحرى.

وفي هذا وعد للمنفقين المتقين، ووعيد للممسكين المخالفين.

ومن عظيم خبرته عز وجل أن علم مدى الفرق بين من أنفق وقاتل قبل الفتح ومن أنفق وقاتل بعده، ومدى ما تحمله كل منهما من المشقة، ومدى الحاجة إلى الإنفاق والقتال في الحالين، ولهذا فاوت عز وجل بين ثواب كل منهما.

قال ابن كثير[(٢)] «ولا شك عند أهل الإيمان أن الصديق أبا بكر رضي الله عنه، له الحظ الأوفر من هذه الآية، فإنه سيد من عمل بها من سائر أمم الأنبياء فإنه أنفق ماله كله، ابتغاء وجه الله عز وجل، ولم يكن لأحد عنده نعمة يجزيه بها».

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

توكيد وحث على الإنفاق في سبيل الله، والذي من أعظم وجوهه الجهاد في سبيل الله، لأن الجهاد متوقف على الإنفاق وبذل المال وهذه الآية كقوله في البقرة ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى

---

(١) أخرجه مسلم في القدر- الأمر بالقوة وترك العجز ٢٦٦٤، وابن ماجه في المقدمة ٧٩، وأحمد ٢/ ٣٦٦-٣٦٧- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) في « تفسيره» ٨/ ٣٩.

يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ [البقرة: ٢٤٥]، وقوله ﴿وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المزمل: ٢٠].

قوله ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ .

«من» اسم استفهام وهو متضمن للطلب بألطف أنواع الخطاب، وهو أبلغ من الطلب بصيغة الأمر.

و«ذا» اسم إشارة و«الذي» اسم موصول يعم كل مقرض في أي وجه من وجوه القرض.

و«يقرض» بمعنى: يسلف. والقرض لغة: القطع. واصطلاحاً: دفع مال لمن ينتفع به ويرد بدله.

والمراد به هنا ما يعطيه الإنسان ليجازيه الله ـ تعالى ـ عليه أي: من ذا الذي يقرض الله بالإنفاق في سبيله في وجوه البر كلها، من الزكوات والصدقات، والإنفاق على الأهل والأولاد، وعلى المحتاجين من الأقارب واليتامى، والمساكين وغيرهم، وفي الجهاد في سبيل الله، وبناء المساجد، وتعليم القرآن، وغير ذلك من مصالح المسلمين.

قال ابن كثير[1]: « فكل من أنفق في سبيل الله بنية خالصة وعزيمة صادقة دخل في عموم هذه الآية».

(قرضاً حسناً) أي: قرضا طيبا جميلا، من طيب ماله، وبطيب نفس منه، ابتغاء مرضاة الله عز وجل، وهذا بينه وبين الله عز وجل، وبلا منٍّ على المقرض ولا أذية له.

كما قال عز وجل: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا ﴿٩﴾﴾ [الإنسان: ٨، ٩].

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾ ۞ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًى ۗ وَٱللَّهُ غَنِىٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ﴾ [البقرة: ٢٦٢ـ ٢٦٤].

وسُمي الإنفاق قرضاً حسناً لله عز وجل- مع أن المال ماله، والملك ملكه، والخلق عبيده- حثاً عليه وترغيباً فيه، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَأْخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ﴾[التوبة: ١٠٤]

---

(١) في « تفسيره» ٨/ ٤٠.

قال ابن القيم[1]: « وحيث جاء هذا القرض في القرآن قيده بكونه حسناً، وذلك يجمع أموراً ثلاثة: أحدها: أن يكون من طيب ماله، لا من رديئه وخبيثه. الثاني: أن يخرجه طيبة به نفسه ثابتة عند بذله ابتغاء مرضاة الله. الثالث: أن لا يمن به ولا يؤذي. فالأول يتعلق بالمال، والثاني يتعلق بالمنفق بينه وبين الله، والثالث بينه وبين الآخذ».

فإن كان القرض لهدف مادي دنيوي- كما هو حال الكثيرين، أو من رديء المال، أو لم تطب فيه النفس، وإنما مجاملة فقط فليس هذا من القرض الحسن الذي رتب الله عليه المضاعفة والأجر.

﴿فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ﴾ أي: فيضاعفه له خلفاً في الدنيا، كما قال عز وجل: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [سبأ: ٣٩].

ويضاعفه له في المجازاة، بمضاعفة الحسنة بعشر أمثالها، إلى سبعمائة ضعف، إلى أضعاف كثيرة، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾ [البقرة: ٢٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٦٥﴾﴾ [البقرة: ٢٦٥].

﴿وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ أي: وله ثواب ثابت عظيم كثير خيره، وهو الجنة، وما فيها من ألوان النعيم- نسأل الله عز وجل من فضله- كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾﴾ [البقرة: ٢٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [المائدة: ١٢]، وقال تعالى: ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

وسُمي ثواب المقرض أجراً مع أن الله لا يجب عليه شيء لخلقه- لأن الله عز وجل تكفل

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٤-٣٨٥.

بهذا الأجر وأوجبه على نفسه، تفضلاً منه وكرماً، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَـٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ قال أبو الدحداح الأنصارى: يا رسول الله، وإن الله ليريد منا القرض؟ قال: «نعم، يا أبا الدحداح» قال: أرني يدك يا رسول الله، قال: فناوله يده، قال: فإني أقرضت ربي حائطي- وله حائط فيه ستمائة نخلة، وأم الدحداح فيه وعيالها- قال فجاء أبو الدحداح، فناداها: يا أم الدحداح. قالت: لبيك فقال: اخرجي، فقد أقرضته ربي - عز وجل- وفي رواية أنها قالت له: ربح بيعك يا أبا الدحداح. ونقلت منه متاعها وصبيانها، وأن رسول الله ﷺ قال: «كم من عذق رداح[1] في الجنة لأبي الدحداح» وفي لفظ « رب نخلة مدلاة، عروقها در وياقوت لأبي الدحداح في الجنة»[2].

قال ابن القيم رحمه الله[3] في كلامه على هذه الآية: «فصدر سبحانه الآية بألطف أنواع الخطاب، وهو الاستفهام المتضمن لمعنى الطلب، وهو أبلغ في الطلب من صيغة الأمر، والمعنى: هل أحد يبذل هذا القرض الحسن فيجازى عليه أضعافاً مضاعفة؟ وسمى ذلك الإنفاق قرضاً حسناً، حثاً للنفوس وبعثاً لها على البذل، لأن الباذل متى علم أن المستقرض مليء وفيّ محسن كان أبلغ في طيب قلبه وسماحة نفسه، فإن علم أن عين ماله يعود إليه ولابد طوعت له نفسه بذله، وسهل عليه إخراجه، فإن علم أن المستقرض يتجر له بما اقترضه وينميه له ويثمره حتى يصير أضعاف ما بذله كان بالقرض أسمح وأسمح، فإن علم أنه مع ذلك كله يزيده من فضله وعطائه أجراً آخر من غير جنس القرض، وأن ذلك الأجر حظ عظيم وعطاء كريم فإنه لا يتخلف عن قرضه إلا لآفة في نفسه من البخل والشح أو عدم الثقة بالضمان وذلك من ضعف إيمانه ولهذا كانت الصدقة برهاناً لصاحبها، وهذه الأمور كلها تحت هذه الألفاظ التي تضمنتها الآية. فإنه سماه قرضاً وأخبر أنه هو المقترض، لا قرض حاجة، ولكن قرض إحسان إلى المقترض واستدعاء لمعاملته، وليعرف مقدار الربح فهو الذي أعطاه ماله، واستدعى منه معاملته به، ثم أخبر عما يرجع إليه بالقرض، وهو الأضعاف المضاعفة، ثم أخبر عما يعطيه فوق ذلك من الزيادة وهو الأجر الكريم».

---

(١) العذق الرداح: هو العذق العظيم الثقيل.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٨-٣٣٣٩- الأثر ١٨٨٢٨، وأخرجه مسلم مختصراً من حديث جابر بن سمرة ـ رضي الله عنه ـ في الجنائز ٩٦٥.

(٣) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٤.

وقد ذُكر أن رجلاً جاء إلى العلامة عبد الرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله فسأله أيهما أفضل الصدقة- حال الحياة- أو الوصية؟ فقال له: أيهما أفضل أن يكون أمامك سراج واحد، أو أن يكون خلفك سراجان.

فقال الرجل: بل الأفضل أن يكون أمامي سراج واحد. فقال إذن فتصدق وأنت حي.

ومراد العلامة السعدي رحمه الله في هذا المثل إيضاح الفرق الواسع والبون الشاسع في الفضل بين الصدقة والوصية، وأن الصدقة حال الحياة والصحة أفضل، كما أن السراج الذي أمام الإنسان أقوى نوراً وأنفع للإنسان من سراجين خلفه أو أكثر.

وذُكر أيضا أن سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد ـ رحمه الله ـ جاءه رجل فسأله أيهما أفضل الوقف والصدقة أو الوصية. فقال له رحمه الله: أيهما أفضل إذا أردت أن تسافر أن تحمل زادك معك، أو تقول لأولادك اتبعوني بالزاد؟ قال: بل الأفضل أن أحمله معي. فقال: إذن فالوقف والصدقة في الحياة أفضل.

ومراد سماحة الشيخ عبد الله رحمه الله إيضاح أفضلية الوقف والصدقة حال حياة الإنسان على الوصية، وأن مقدم الصدقة والوقف يطمئن ويثق من أخذ صدقته مجراها حال حياته بخلاف الوصية فما يدري هل تنفذ أو لا تنفذ؟.

وفي تمثيل الشيخين رحمهما الله إشارة إلى قوله ﷺ في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أي: الصدقة أعظم أجراً؟ قال: **«أن تصدق وأنت صحيح شحيح، تخشى الفقر، وتأمل الغنى، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلت لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان»**[1].

الفوائد والعبر:

١ ـ وجوب الإيمان بالله ورسوله وتجديده والثبات عليه والزيادة منه وتكميله.

٢ ـ أن الإيمان بالله يستلزم الإيمان بالرسول ﷺ، كما أن الإيمان بالرسول يستلزم الإيمان بالله.

٣ ـ مشروعية الإنفاق وإخراج ما في المال من حقوق واجبة أو مستحبة.

٤ ـ أن الإنسان مستخلف في المال انتقل إليه من غيره بفضل الله. وسينقل عنه إلى غيره والكل ملك لله ـ عز وجل.

٥ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين المنفقين بالأجر الكبير والجزاء العظيم والتزامه لهم بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في الزكاة ١٤١٩، ومسلم في الزكاة ١٠٣٢، وأبو داود في الوصايا ٢٨٦٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٤٢.

٦ ـ التحضيض على الإيمان بالله وتجديده وتكميله والثبات عليه لانقطاع العذر وقيام الحجة بوجود الرسول ﷺ بين أظهر المؤمنين يدعوهم إلى الإيمان بالله وأخذه الميثاق عليهم وأن ذلك شرط لصحة الإيمان.

٧ ـ أن الإيمان بالله عهد وعقد بين المؤمنين وربهم يوجب عليهم القيام بحقوق هذا الإيمان.

٨ ـ امتنان الله ـ عز وجل ـ على العباد بإنزال القرآن الكريم على محمد ﷺ، وهو النعمة الكبرى.

٩ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه وربوبيته لهم.

١٠ ـ أن القرآن الكريم منزل غير مخلوق.

١١ ـ أن العبودية لله أفضل وأشرف ما يوصف به البشر ولهذا وصف الله ـ عز وجل ـ بها نبيه محمداً ﷺ في حال إنزال الآيات عليه.

١٢ ـ بيان آيات القرآن الكريم، وتبيينها لما تحتاجه الأمة في دينها ودنياها.

١٣ ـ أن الحكمة من إرسال الرسل وإنزال الكتب إخراج الناس من ظلمات الجهل والكفر والضلال إلى نور العلم والإيمان والهدى.

١٤ ـ أن طرق الباطل متعددة متشعبة وطريق الحق واحد، ولهذا جمع الظلمات وأفرد النور.

١٥ ـ رأفة الله ـ عز وجل ـ ورحمته بالعباد، لهذا أرسل محمداً ﷺ وأنزل عليه القرآن.

١٦ ـ إثبات اسمين من أسمائه ـ عز وجل ـ وهما «الرؤوف» و «الرحيم» وصفتي الرأفة والرحمة ـ التامتين له ـ عز وجل.

١٧ ـ الحض على الإنفاق في سبيل الله ما دام المال في اليد لأنه عارية سترد إلى الله ـ عز وجل ـ وعنده الخلف العاجل والآجل.

١٨ ـ أن لله ـ عز وجل ـ ملك وميراث السموات والأرض.

١٩ ـ أن من أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة ممن أنفق وقاتل بعد الفتح.

٢٠ ـ أن الأجر والثواب على قدر الإيمان والإخلاص والمشقة.

٢١ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ لكل من أنفق وقاتل قبل الفتح أو بعده بالمثوبة الحسنة والجنة، وإن كانا لا يستويان فمن أنفق وقاتل قبل الفتح أعظم درجة.

٢٢ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الخبير»، وعلم الله ـ عز وجل ـ وخبرته التامة بأعمال العباد، وفي هذا وعد لمن أحسن العمل، ووعيد لمن أساء.

٢٣ ـ تأكيد الحث والتحضيض على الإنفاق في سبيل الله وتسميته قرضا لله ـ ترغيباً فيه والوعد عليه بالمضاعفة والأجر الكريم.

٢٤ ـ في تسمية الإنفاق قرضاً لله ـ عز وجل ـ وتسمية جزائه أجراً إشارة لتكفل الله ـ عز وجل ـ وضمانه رد هذا القرض ومضاعفته والمجازاة عليه بالثواب العظيم.

٢٥ ـ ينبغي أن يكون الإنفاق في سبيل الله خالصاً لله، ومن مال طيب، وبطيب نفس، وبلا من على المنفَق عليه ولا أذية له.

﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ هِىَ مَوْلَىٰكُمْ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة ما أعده للمؤمنين المنفقين من الأجر الكريم، ثم ذكر مالهم في عرصات القيامة من النور والبشرى بالجنات والفوز العظيم.

ثم قارن ذلك بحال المنافقين وما ينتظرهم في تلك العرصات من الظلمات والتبكيت والنار وبئس المصير.

قوله ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾ كما قال تعالى في سورة التحريم: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾﴾ [الآية: ٨].

(يوم) ظرف زمان منصوب على الظرفية، أو مفعول لفعل محذوف، تقديره: اذكر.

(ترى) الخطاب للنبي ﷺ ولكل من يصلح له.

وعطف عز وجل «المؤمنات» على المؤمنين، وأفردهن بالذكر، ولم يغلب الذكور على الإناث ـ كما هو الأكثر في القرآن الكريم ـ إشارة إلى مكانة المرأة المؤمنة، وما أعده الله لها وأنها تجازى على عملها الصالح كما يجازى الرجل، كما قال عز وجل: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾. [آل عمران: ١٩٥].

فتضاعف الحسنات دون السيئات للرجال والنساء، ولكل منهم ثواب عمله، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ﴿٧﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ﴿٨﴾﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم﴾

أي: يسير نورهم أمامهم يقتدون به ويضيء لهم الطريق، وعن أيمانهم، تكريماً لها في عرصات القيامة، وعلى الصراط حسب قوة إيمانهم، وعلى قدر أعمالهم.

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله ﴿يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ قال: «على قدر

أعمالهم يمرون على الصراط، منهم من نوره مثل الجبل، ومنهم من نوره مثل النخلة، ومنهم من نوره مثل الرجل القائم، وأدناهم نورًا من نوره في إبهامه يتقد مرة ويطفأ مرة»[1].

وفي قوله: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَـٰنِهِم﴾ تنويه وتعظيم لشأن المؤمنين والمؤمنات، وحالهم وقالهم، وما لهم في عرصات القيامة من النور، وحض على الإيمان وترغيب فيه.

﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾.

أي: يقال لهم: ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿جَنَّـٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ والبشرى والبشارة: الإعلام برجاء، والخبر السار مأخوذ من البشرة، لأن الإنسان إذا أخبر بما يسر اتسعت وامتدت بشرته، وظهرت عليه آثار السرور، وبالعكس إذا حزن فإن بشرته تنقبض وتظهر عليه آثار الحزن، ويسودّ وجهه، أي: أنهم يُبشرون في ذلك اليوم بالجنات، يبشرهم ربهم كما قال عز وجل ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّـٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلَّذِى يُبَشِّرُ ٱللَّهُ عِبَادَهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الشورى: ٢٣].

ويبشرهم النبي ﷺ قال تعالى: ﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ﴿٢﴾ مَّـٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾﴾ [الكهف: ٢، ٣].

وتلك والله أعظم البشارة وأغلاها وأحلاها على القلوب، وألذها على النفوس.

وفي قوله ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ ولم يقل: (بشراكم اليوم بجنات) مع حذف الفاعل ما يدل على قرب حصول المبشر به، بل ما يدل على حصول البشارة والمبشربه في آن واحد.

و«جنات» جمع جنة، والجنة في الأصل: البستان، وسمى البستان جنة لأنه يجن من بداخله، أي: يستره لكثرة أشجاره والتفافها. قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ﴿٩﴾ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ﴿١٠﴾﴾ [ق: ٩، ١٠].

والمراد بالجنات في قوله ﴿بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّـٰتٌ﴾ ما أعده الله لأوليائه المؤمنين وحزبه المفلحين من المساكن في دار كرامته في جنات عدن، وما فيها من ألوان النعيم.

﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: تجري من تحت أشجارها وغرفها الأنهار بلا أخدود،

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/٣٩٨.

قال ابن القيم رحمه الله[1]:

أنهارها في غير أخدود جرت   سبحان ممسكها عن الفيضان

وأنهارها أنواع، كما قال الله عز وجل: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى ۖ﴾ [محمد: ١٥].

فيشربون من هذه الأنهار ويتمتعون برؤية جريانها تحت تلك الجنان.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ﴾ «خالدين» حال، أي: حال كونهم خالدين فيها، أي: مقيمين في هذه الجنات إقامة أبدية لا تحول ولا تزول، كما قال تعالى: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۖ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ﴾ [المائدة: ١١٩، البينة: ٨].

﴿ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ الإشارة إلى ما للمؤمنين من النور في تلك العرصات ودخول الجنات والخلود فيها والتمتع بما فيها من الخيرات والأنهار وألوان النعيم- نسأل الله تعالى من فضله.

وأشار إليه بإشارة البعيد تعظيماً له، وتنويهاً بشأنه.

و«الفوز» هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب، النجاة من النار ودخول الجنة دار الأبرار، ويا له من فوز، كما قال عز وجل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ ۗ﴾ [آل عمران: ١٨].

﴿ٱلْعَظِيمُ﴾ أي: الذي لا فوز أعظم منه، وإذا كان الله وصف هذا الفوز بأنه عظيم، فلا يقدر قدر عظمته إلا العظيم سبحانه وتعالى.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ الآيات.

لما ذكر أن المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم أمامهم وبأيمانهم، أتبع ذلك بذكر حال المنافقين والمنافقات وهم يتخبطون في الظلمات ويطلبون الاقتباس من نور المؤمنين وهيهات أن يحصل لهم ذلك.

قوله ﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾.

«يوم» بدل من «يوم» في قوله ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾

و﴿ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ﴾ هم الذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر، وسُمي المنافق منافقاً أخذاً من نافقاء اليربوع، وذلك لأن اليربوع ـ وهو دابة صغيرة أكبر من الفأرة ـ يحفر

---

(١) انظر: «النونية» ص ٢٢٩.

في الأرض جحراً، ويجعل له باباً، ويجعل في آخره نافقاء، أي: مخرجاً: للطوارئ، لكنه لا يجعله ظاهراً بل يترك فوقه قشرة رقيقة من الأرض، فإذا داهمه عدو من باب جحره ضرب هذه النافقاء برأسه وخرج.

وهكذا حال المنافق يظهر الإيمان ويبطن الكفر، يأتي إلى المؤمنين بوجه وإلى الكفار بوجه آخر كما قال الله عز وجل عن المنافقين. ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾﴾ [البقرة: ١٤].

وذكَر المنافقات هنا مع المنافقين ولم يغلب الذكور على الإناث كما هو الغالب في القرآن الكريم لمزيد البسط والإيضاح، وأن كلاً من الذكور والإناث يجازى بعمله.

﴿ٱنظُرُونَا﴾ قرأ حمزة بقطع الهمزة مفتوحة وكسر الظاء (أَنظِرونا) بمعنى: أمهلونا، وقرأ الباقون بوصل الهمزة ، وضم الظاء (انظُرونا) أي: انتظرونا.

﴿نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ﴾ أي: نستضيء به

﴿قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي: يقال لهم: تبكيتا وتوبيخاً وتقريعاً (ارجعوا وراءكم) أي: خلفكم (فالتمسوا نورا) أي: اطلبوا نوراً، وهذا القول لا يقل وقعه على قلوبهم عن العذاب الحسي لما فيه من الإهانة لهم والتقريع والتوبيخ والتبكيت

والمعنى: أنه عندما يرى المنافقون والمنافقات المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم يطلبون منهم الانتظار لهم ليستضيئوا من نورهم فيقال ﴿ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا﴾ أي: ارجعوا من حيث جئتم فاطلبوا لأنفسكم نوراً. وفيه إشارة إلى أن محل أخذ النور إنما هو في الحياة الدنيا بالإيمان والعمل الصالح وهيهات ذلك.

وأبهم القائل لهم ذلك إشارة إلى افتضاح أمرهم وحيرتهم بين الخلق، فكأن كلا يقول لهم هذا القول. وفي هذا توبيخ وتقريع وتبكيت لهم، ومخادعة لهم واستهزاء بهم كما كانوا في الدنيا يخادعون ويستهزئون قال تعالى: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾﴾ [البقرة: ٩]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾ [البقرة: ١٤، ١٥].

وأنى لهم النور ولم يسلكوا طريقه في الدنيا قال تعالى عن أعمالهم وحالهم ومآلهم ﴿أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ

بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور: ٤٠].

ولا أشد ظلمة من ظهور النور ثم انطفائه، ولا أشد حسرة من وجود بصيص أمل في النجاة ثم انقطاعه.

قال ابن القيم[1] : « وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاء أن يفتح للعبد طريق النجاة والفلاح حتى إذا ظن أنه ناج، ورأى منازل السعداء اقتطع عنهم وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله من غضبه وعقابه».

﴿فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ﴾

أي: فضرب بين المنافقين وبين المؤمنين، وحيل بينهم (بسور) أي: حاجز بين الجنة والنار، (له باب)، فلم يمكنهم اللحاق بالمؤمنين والاقتباس من نورهم، ولا الرجوع والتماس النور، بل بقوا في الظلمات وهو المذكور في قوله ﴿وَبَيۡنَهُمَا حِجَابٞۚ﴾ [الأعراف: ٤٦].

﴿بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ﴾ أي: باطنه من جهة المؤمنين (فيه الرحمة) وهي الجنة وما فيها من النعيم، كما قال تعالى في الحديث القدسي للجنة: « أنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»[1].

﴿وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ أي: وظاهره من جهة المنافقين الكافرين (من قبله) أي من جهته (العذاب) وهو النار وما فيها من الجحيم، كما قال تعالى في الحديث القدسي للنار: « إنما أنت عذابي أعذب بك من أشاء من عبادي»[2].

قال ابن كثير[3]: «المراد بذلك سور يضرب يوم القيامة ليحجز بين المؤمنين والمنافقين فإذا انتهى إليه المؤمنون دخلوه من بابه، فإذا استكملوا دخولهم أغلق الباب وبقي المنافقون من ورائه في الحيرة والظلمة والعذاب كما كانوا في الدار الدنيا في كفر وجهل وشك وحيرة».

﴿يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ أي: ينادي المنافقون المؤمنين قائلين لهم: ﴿أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ﴾ الهمزة للاستفهام ومعناه التقرير والتعجب.

أي: ألم نكن معكم في دار الدنيا نصلي ونزكي ونصوم ونحج ونجاهد؟ ، ﴿قَالُواْ بَلَىٰ﴾ «بلى» حرف جواب لإثبات الإيجاب، أي: قال المؤمنون بلى لقد كنتم معنا في دار الدنيا في الظاهر، وذلك أن المنافقين يعيشون بين ظهراني المؤمنين، لأنهم يتظاهرون بالإسلام

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٥.

(٢) اخرجه البخاري في التفسير ٤٨٥٠، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٤٦ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٣) في « تفسيره» ٨/ ٤٤.

ويبطنون الكفر، ولهذا كانوا أشد خطراً على المسلمين، وأشد جرماً وأشد عقوبة من جميع طوائف الكفر.

﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾.

الواو: عاطفة، و « لكن» حرف استدراك(فتنتم أنفسكم) بالكفر والنفاق والمعاصي واتباع الشهوات والملذات.

﴿وَتَرَبَّصْتُمْ﴾ أي: انتظرتم واستمررتم على الكفر والنفاق، وأخّرتم التوبة، وانتظرتم الشر بالحق وأهله.

﴿وَارْتَبْتُمْ﴾ أي: شككتم بما جاءكم من الحق، وبمن جاء كم به، وهو الرسول ﷺ، وبالبعث بعد الموت والجزاء على الأعمال.

﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ أي: وخدعتكم الأماني الباطلة من حب الدنيا والشهوات والملذات، وتمني حظوظ الدنيا الفانية، وتمني أنكم ستكونون أحسن الناس، وأنه سيغفر لكم، وغير ذلك من الأماني الخادعة الباطلة التي لا يصحبها صدق وعمل فيما ينفع المرء في دينه ودنياه، والتي هي مدعاة للكسل، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبُوا ۖ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا اكْتَسَبْنَ ۚ وَاسْأَلُوا اللَّهَ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٣٢].

وفي الحديث: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني»[١].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وتزينوا للعرض الأكبر، وإنما يخف الحساب يوم القيامة على من حاسب نفسه في الدنيا»[٢].

﴿حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾ أي: حتى جاءكم الموت، وأنتم على هذه الحال، كما قال عز وجل ﴿أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝﴾ [التكاثر: ١، ٢].

﴿وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ أي: خدعكم بالله وعظمته وعظيم حقه عليكم، وعظيم عقابه. «الغرور» أي: الخدوع وهو الشيطان.

---

(١) أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠- من حديث شداد بن أوس رضي الله عنه. وقال الترمذي «حديث حسن».

(٢) ذكره الترمذي في الموضع السابق.

قال قتادة: « كانوا على خدعة من الشيطان، والله مازالوا عليها حتى قذفهم الله في النار»[1].

ولهذا تجد الكفرة من المنافقين وغيرهم في موقف آخر يقرون بسبب ما آلوا إليه كما قال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ (٣٨) إِلَّآ أَصْحَٰبَ ٱلْيَمِينِ (٣٩) فِى جَنَّٰتٍ يَتَسَآءَلُونَ (٤٠) عَنِ ٱلْمُجْرِمِينَ (٤١) مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ (٤٢) قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ (٤٣) وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ (٤٤) وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ (٤٥) وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ (٤٦) حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ (٤٧) فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر: ٣٨ـ ٤٨].

ولا تنافي بين قول المؤمنين لهم هنا ﴿وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ﴾ الآية وبين سؤالهم لهم في قوله تعالى: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِى سَقَرَ﴾ لأن السؤال هنا ليس لقصد الاستعلام والاستفهام الحقيقي، وإنما لقصد التقريع والتوبيخ لهم والتبكيت.

﴿فَٱلْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قرأ أبو جعفر وابن عامر ويعقوب (لا تؤخذ) بالتاء، وقرأ الباقون بالياء.

أي: فاليوم، أي يوم القيامة (لا يؤخذ منكم فدية) أي: لا يقبل منكم فدية.

والفدية: مال أو عرض يدفع نظير ومقابل الخلاص، كما قال تعالى: ﴿فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لِيَفْتَدُوا۟ بِهِۦ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٣٦)﴾ [المائدة: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى ٱلْأَرْضِ لَٱفْتَدَتْ بِهِۦٓ﴾ [يونس: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ [الرعد: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦ﴾ [الزمر: ٤٧]، وقال تعالى: ﴿يَوَدُّ ٱلْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِى مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍۭ بِبَنِيهِ (١١) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ ٱلَّتِى تُـْٔوِيهِ (١٣) وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنجِيهِ (١٤)﴾ [المعارج: ١١ـ ١٤].

﴿وَلَا مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: ولا يؤخذ فدية من الذين كفروا، فلا فدية تقبل من المنافقين ولا من الذين كفروا، كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ (٤٨)﴾ [المدثر: ٤٨].

﴿مَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ أي: مصيركم الذي ستنتهون وتصيرون إليه وتستقرون فيه النار،

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٠٦.

فهي منزلكم الذي لا مصير ولا منزل لكم سواه.

﴿هِيَ مَوْلَىٰكُمْ﴾ أي: هي التي تتولاكم وتضمكم إليها وهي أولى المنازل بكم، تتولاكم بحرها وعذابها، كما توليتموها بعملكم عمل أهلها، بنفاقكم وكفركم. كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٧ـ ٣٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ ﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا هِيَهْ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةٌۢ ﴿١١﴾﴾ [القارعة: ٨ ـ ١١].

﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ «بئس» بمعنى: قبح وساء، وهي من أفعال الذم والمخصوص بالذم محذوف تقديره: وبئس المصير هي، أي: النار. أو وبئس المصير مصير من صار إلى النار و«المصير» المرجع والمآل والمنقلب.

الفوائد والعبر:

١ ـ تعظيم شأن المؤمنين والمؤمنات وحالهم وقالهم وما لهم في عرصات القيامة من النور والبشارة بالجنات وما فيها من الأنهار، والخلود فيها والفوز العظيم.

٢ ـ عظم مكانة المرأة في الإسلام وما أعده الله لها، وأنها تجازى على عملها الصالح كما يجازى الرجل.

٣ ـ أن الجزاء من جنس العمل فكما استنار المؤمنون في الدنيا بنور الله وهديه منحهم النور والهدى في عرصات القيامة.

٤ ـ تخبط المنافقين في الظلمات في عرصات القيامة وطلبهم الاقتباس من نور المؤمنين ولكن هيهات، فكما تخبطوا في دينهم وتذبذبوا وشكوا جوزوا بالتخبط في الظلمات في تلك العرصات جزاءً وفاقاً.

٥ ـ الاستهزاء والسخرية بالمنافقين في ذلك اليوم كما استهزؤوا وسخروا بالإيمان وأهله في الدنيا، وهذا من عذابهم المعنوي.

٦ ـ الفصل بين المنافقين وبين المؤمنين بحاجز بين الجنة والنار بحيث لا يمكنهم اللحاق بالمؤمنين، فيه الرحمة من جهة المؤمنين والعذاب من جهة المنافقين.

٧ ـ نداء المنافقين للمؤمنين للدخول معهم كما كانوا معهم في الدنيا في الظاهر وتوبيخ المؤمنين لهم بأنهم فتنوا أنفسهم بالكفر باطناً وانتظروا الشر بالمؤمنين وشكوا وغرتهم الأماني الباطلة والشيطان الرجيم، وهذا عذاب معنوي لهم، ويوجب العبد عن صفاتهم.

٨ ـ الوعيد الشديد للمنافقين والكافرين بالنار، وأنه لا سبيل لهم للخلاص من النار لا بفدية ولا بغيرها هي مولاهم ومصيرهم وبئس المصير.

﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

لما ذكر عز وجل حال المؤمنين والمؤمنات والمنافقين والمنافقات في الدار الآخرة، وذلك مما يدعو القلوب إلى الخشوع لله عز وجل والخضوع لعظمته، عاتب المؤمنين على عدم المبادرة إلى ذلك، فقال: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال: «إن الله استبطأ قلوب المهاجرين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن، فقال: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾»[1].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، قال: « ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بهذه الآية: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ إلا أربع سنين»[2].

قوله: ﴿۞أَلَمْ يَأْنِ﴾ الاستفهام للتوبيخ والعتاب، أي: ألم يحن بعد ﴿لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾.

أي: ألم يأت الوقت الذي فيه تخشع قلوبهم. وأن والفعل بعدها في تأويل مصدر في محل رفع فاعل، أي: أما آن خشوع قلوبهم.

﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ قرأ نافع وحفص عن عاصم بالتخفيف في قوله (وما نزل) وقرأ الباقون، بالتشديد (وما نزّل).

ومعنى ﴿أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: أن تلين وترق وتخضع قلوبهم لذكر الله والمراد عموم ذكر الله عز وجل، ولهذا عطف عليه قوله ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ من عطف الخاص على العام، أي: والذي نزل من الحق، وهو القرآن الكريم، وهو أشرف الذكر.

قال تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٧، ٢٢، ٣٢، ٤٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٦﴾﴾ [الإسراء: ٤٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في « تفسيره» ١٠/ ٣٣٣٨-الأثر ١٨٨٢٥.

(٢) أخرجه مسلم في التفسير- باب قول الله تعالى: (ألم يأن للذين آمنوا) الآية الحديث ٣٠٢٧.

وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد: ٣٨]، وهذا في ذكر الله عموماً كما قال تعالى: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾﴾ [النور: ٣٧].

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾﴾ [الزمر: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾ [الزخرف: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿ٱسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَأَنسَىٰهُمْ ذِكْرَ ٱللَّهِ ۚ﴾ [المجادلة: ١٩]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩﴾﴾ [المنافقون: ٩].

وإذا كان هذا العتاب لصحابة رسول الله ﷺ وهم أبر الناس قلوباً وأصدقهم ألسناً وأقواهم إيماناً وأعظمهم تقوى، وأشدهم إخلاصاً واتباعاً، وأكثرهم ذكراً وعبادة وخشوعاً ومجاهدة، فكيف بحال من بعدهم بأربعة عشر قرناً، ومن هو أقل منهم بذلك كله. اللهم غفراً.

وهذا مما يوجب على المسلم أن يتأمل حاله، ويتدبر في أمره، فأين نحن من حال المعاتبين بهذا الخطاب، على العبد أن يراجع نفسه وحاله من الخشوع لذكر الله وآياته ومدى خضوعه وانقياده لأحكام الله تعالى، ولا يغتر، فإن الناقد بصير والحساب عسير إلا على من يسره الله عليه.

﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين واستبطأ خضوع قلوبهم للإيمان في أول هذه الآية ثم نهاهم في آخرها عن التشبه بأهل الكتاب بقسوة قلوبهم وفسقهم.

قوله ﴿وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ﴾ الواو: عاطفة، و « لا » نافية، والفعل (يكونوا) منصوب عطفًا على «تخشع»، أو «لا» ناهية، والفعل مجزوم بها، أي: ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبلهم، وهم اليهود والنصارى.

﴿فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ﴾ أي: فطال عليهم الأجل والزمان، وبعد العهد بينهم وبين عهد الرسالات وامتد بهم الوقت.

﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ أي: غلظت قلوبهم واشتدت فلم تلن لذكر الله، وما أنزله عليهم في كتبه فهي غلف لا تقبل موعظة، ولا يؤثر فيها وعد ولا وعيد، كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ قَسَتْ

قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلۡحِجَارَةِ أَوۡ أَشَدُّ قَسۡوَةٗۚ﴾ [البقرة:٧٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِن قَسَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [الأنعام: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥﴾﴾ [الجمعة: ٥].

وكان من غلظة قلوبهم وشدة قسوتها أن كذبوا بآيات الله ونبذوها وراء ظهورهم، وحرَّفوها وبدَّلوها واشتروا بها ثمناً قليلاً، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله، قال تعالى: ﴿۞أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿٧٥﴾﴾ [البقرة: ٧٥].

وقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَٰقَهُمۡ لَعَنَّٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٖ مِّنۡهُمۡ﴾ [المائدة: ١٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ نَبَذَ فَرِيقٞ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ كَأَنَّهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾ [البقرة: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وقال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾ [التوبة: ٣١].

وقال تعالى: ﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۗ﴾ [الآية: ٣٤].

وهذا مما يدل على أن القلوب تحتاج دائماً إلى مراقبة وتذكير بما أنزل الله عز وجل لأنها تغفل وتقسو وتصدأ، وأعظم ما يلينها ويزيل صدأها ذكر الله عز وجل.

﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ الفسق: هو الخروج عن طاعة الله وما حده، أي: وكثير منهم خارجون عن طاعة الله تعالى مخالفون لأمره مرتكبون لنهيه، فقلوبهم قاسية وأعمالهم باطلة.

﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾.

عاتب الله عز وجل المؤمنين في الآية السابقة واستبطأ خشوع قلوبهم لذكر الله ووحيه ونهاهم عن مشابهة أهل الكتاب الذين طال عليهم الأمد فقست قلوبهم وخرج كثير منهم

عن طاعة الله. ثم أتبع عز وجل هذا العتاب وهذا النهي بما يبشر بالخير، وبما يشبه الفأل الحسن، وبما يذهب القنوط واليأس عن القلوب وأن الله عز وجل القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على تليين القلوب بعد قسوتها ويا له من تشبيه عجيب، فما أشبه القلب القاسي بالأرض الميتة، وما أهون تليين القلب القاسي على من قدر على إحياء الأرض بعد موتها.

قال ابن كثير[1] رحمه الله: «فيه إشارة إلى أنه تعالى يلين القلوب بعد قسوتها ويهدي الحيارى بعد ضلتها، ويفرج الكروب بعد شدتها، فكما يحيي الأرض الميتة المجدبة الهامدة بالغيث الهتّان، كذلك يهدى القلوب القاسية ببراهين القرآن، والدلائل، ويولج إليها النور بعد ما كانت مقفلة لا يصل إليها الواصل، فسبحان الهادي لمن شاء بعد الإضلال، والمضل لمن أراد بعد الكمال، الذي هو لما يشاء فعَّال وهو الحكم العدل في جميع الفعال، اللطيف الخبير الكبير المتعال».

قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟﴾ الأمر للمؤمنين المخاطبين بقوله ﴿۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ ولجميع الناس.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ﴾ وذلك بإنزال المطر عليها، كما قال عز وجل ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلْأَرْضُ ٱلْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَٰهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [يس: ٣٣].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنَّكَ تَرَى ٱلْأَرْضَ خَٰشِعَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ ۚ﴾ [فصلت: ٣٩].

وكما أن في الآية إشارة إلى أن الله يلين القلوب بعد قسوتها ففيها دلالة أيضا على أن الله يحيي الخلق بعد موتهم ويبعثهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِىٓ أَحْيَاهَا لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰٓ ۚ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [فصلت: ٣٩].

﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ «قد» للتحقيق، و«بينا» وضحنا وفصلنا، و(الآيات) جمع آية، والآية هي العلامة الدالة على وجود الله عز وجل ووحدانيته وكما له في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته

وتنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وهي آيات القرآن الكريم، وقد بينها الله عز وجل أعظم بيان قال تعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾ [النساء: ٨٢].

---

(١) في «تفسيره» ٨/ ٤٧.

والقسم الثاني: آيات كونية منتشرة في هذا الكون، فكل مخلوق في هذا الكون هو آية يدل بخلقه ووجوده وأحواله، على وجود الخالق العظيم، وكماله في ذاته وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمۡسُ تَجۡرِي لِمُسۡتَقَرّٖ لَّهَاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلۡقَمَرَ قَدَّرۡنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلۡعُرۡجُونِ ٱلۡقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ [يس: ٣٧ـ ٤٠].

وقد أحسن القائل:

فوا عجباً كيف يعصي الإله ... أم كيف يجحده الجاحد

وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال الآخر:

تأمل سطور الكائنات فإنها ... من الملك الأعلى إليك رسائل

وقد خط فيها ـ لو تأملت خطها ـ ... ألا كل شيء ما خلا الله باطل

﴿لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ﴾ أي: لأجل، أو رجاء أن تعقلوا عن الله عز وجل أمره ونهيه، وتستعملوا عقولكم فيما خلقتم له وفيما يفيدكم في أمر دينكم ودنياكم.

فإن العقل الحقيقي هو الذي يهدي صاحبه إلى ما فيه سعادته في الدنيا والآخرة ويستنير بنور الله عز وجل، وهذا العقل هو مناط المدح والذم.

أما العقل الذي هو مناط التكليف فهو ما يميز به العاقل من المجنون المعتوه، وهذا العقل وإن كان موجوداً عند الكثيرين فإنه لم ينفعهم لأنهم لم يستفيدوا منه في معرفة الحق والعمل به، ولهذا قال الله عز وجل عن الكفار ﴿لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩].

بل قالوا عن أنفسهم فيما حكى الله عنهم: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ [الملك: ١٠، ١١].

فبين الله عز وجل الآيات الشرعية والآيات الكونية ووضحها وفصلها أتم تفصيل؛ لأجل أن يتأملها الناس بعقولهم، ويهتدوا بها إلى معرفة الخالق العظيم، وإلى

معرفة الحق، ولهذا أرسل عز وجل الرسل، وأنزل الكتب، وبذلك أقام الحجة على الخلق، كما قال عز وجل ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي الآية دلالة على أنه لا عقل لمن لم يهتد بآيات الله ولم ينقد لشرع الله.

الفوائد والعبر:

١ ـ عتاب الله ـ عز وجل ـ للمؤمنين واستبطاؤه خشوع قلوبهم لذكره وما نزل من الحق.

٢ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ بذاته وصفاته، وأن القرآن الكريم منزل من عنده ـ عز وجل ـ.

٣ ـ نهي المؤمنين وتحذيرهم أن يكونوا مثل اليهود والنصارى في قسوة قلوبهم وفسق كثير منهم.

٤ ـ في عتاب الله ـ عز وجل ـ للصحابة ونهيهم عن مشابهة أهل الكتاب بقسوة القلوب والفسق عتاب ونهي لكل من جاء بعدهم من باب أولى، مما يوجب تعاهد القلوب بذكر الله.

٥ـ أن أول الأمة خير من آخرها، وأنه كلما بعد عهد الرسالة كلما كثر الشر وقل الخير.

٦ ـ عدم الاغترار بما عليه الكثرة من الخلق.

٧ ـ بعث الأمل والرجاء بتليين قلوب المؤمنين، لأن الله ـ عز وجل ـ هو القادر على إحياء الأرض بعد موتها قادر على تليين القلوب بعد قساوتها وبعث الأجساد بعد موتها.

٨ ـ ضرب الأمثال في القرآن الكريم لتقريب الأمور المعنوية.

٩ ـ تبيين الله ـ عز وجل ـ للآيات الشرعية والكونية للناس ليعقلوا عن الله ـ عز وجل ـ أمره ونهيه، وينقادوا لشرعه.

١٠ ـ أن العاقل حقاً من هداه عقله إلى الاستنارة بنور الله عز وجل فسعد في دنياه وأخراه.

﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١٨﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴿١٩﴾﴾.

صلة الآيتين بما قبلهما:

أمر الله عز وجل فيما سبق من السورة بالإيمان بالله ورسوله والإنفاق في سبيله وحض على ذلك ووعد عليه بالأجر العظيم، وفي هتين الآيتين شيء من تفصيل ذلك الأجر.

قوله: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَٰتِ﴾ قرأ ابن كثير وأبو بكر عن عاصم بتخفيف الصاد وتشديد الدال في (المصَدّقين والمصَدّقات) وقرأ الباقون (المصَّدّقين والمصَّدّقات) بتشديد الصاد والدال، أي: المكثرين من الصدقات.

وأصل المصَّدّقين والمصَّدّقات المتصدقين والمتصدقات، فأدغمت التاء في الصاد، أي: إن المتصدقين والمتصدقات بأموالهم على ذوي الحاجة من اليتامي والفقراء والمساكين وفي غير ذلك من وجوه البر كبناء المساجد وتعليم كتاب الله والجهاد في سبيله وغير ذلك.

وقدم عز وجل المتصدقين والمتصدقات في الذكر على الصديقين والشهداء- والله أعلم- لظهور أثر الصدقة والبر والإحسان وتعديه إلى الخلق.

﴿وَأَقْرَضُواْ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ الواو: عاطفة، وعطف هذه الجملة على قوله (إن المصدقين والمصدقات) ترغيبا في الصدقة وأنها إقراض لله عز وجل تكفل سبحانه وتعالى بوفائه والإثابة عليه، ومضاعفة أجره، كما قال عز وجل: ﴿يُضَٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾.

والآية تشمل القرض بمعناه الخاص، وما هو أعم منه، وهو الصدقة والنفقة عموماً في سبيل الله.

وقد جعل الله عز وجل الصدقة كالقرض الذي يجب على المقترض رده وهو سبحانه الغني عن خلقه، ولا يجب عليه شيء لخلقه، وإنما أوجب سبحانه وتعالى على نفسه الرحمة وإثابة المطيع تفضلاً منه وكرماً، كما قال عز وجل: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤].

ومعنى (قرضاً حسناً) أي: جميلاً طيباً، وذلك بكون الصدقة من مال طيب، وبطيب نفس، وبنية خالصة ابتغاء وجه الله عز وجل، لا يريدون بذلك جزاء

ولا شكوراً ممن تصدقوا عليه، ولا يتبعها مَنٌ ولا أذى.

﴿يُضَٰعَفُ لَهُمۡ﴾ أي: يضاعف الله لهم هذا القرض وثوابه فيجازيهم على ذلك الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة.

﴿وَلَهُمۡ أَجۡرٞ كَرِيمٞ﴾ أي: ولهم على هذه الصدقة والقرض جزاء وثواب (كريم) وسُمي جزاؤهم أجراً إشارة إلى أن الله عز وجل قد تكفل به لهم.

ومعنى (كريم) أي: حسن طيب كثير خيره كمية، وعظيم خيره كيفية، وهو الجنة وما فيها من ألوان النعيم.

ففي هذه الآية أثنى الله عز وجل على المتصدقين والمتصدقات وسمى عز وجل الصدقة إقراضاً له وهو الغني الحميد سبحانه وتعالى، وذلك ترغيباً في الصدقة، ووعد على ذلك بالمضاعفة والأجر الكريم. حضاً على المتاجرة الرابحة مع الله عز وجل، والتي لا تتطرق إليها الخسارة بحال، بل أرباحها مضمونة ومضاعفة.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ «**ينزل الله إلى السماء الدنيا لشطر الليل أو لثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، أو يسألني فأعطيه، ثم يقول: من يقرض غير معدم ولا ظلوم**».

وفي رواية: « ثم يبسط يديه تبارك وتعالى، يقول: من يقرض غير عدوم ولا ظلوم»[1].

فيا خسارة من حرم المتاجرة مع الله عز وجل قال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمد: ٣٨].

ومن العجيب أن كثيراً من الناس يتبارون في المتاجرة مع الغني من الخلق، ولو طلب منهم قرضاً لتسابقوا إلى إقراضه، ولسان حال كل منهم يقول: كم تريد يا أبا فلان، وكل منهم يريد أن يكون هو السابق إلى إقراضه.

بينما إذا طُلب منهم التصدق والإنفاق في سبيل الله، وهو إقراض للغني الحميد، أكرم الأكرمين وأجود الأجودين، ومن بيده خزائن السموات والأرض - رأيت الكثير منهم يقدم رجلاً ويؤخر أخرى، ورأيت منهم بروداً وتباطؤاً، في المسابقة في هذا المضمار فأين المتأمل المنصف والعاقل اللبيب فشتان ما بين المتاجرتين

---

(١) أخرجه مسلم في صلاة المسافرين – الترغيب في الدعاء والذكر ٧٥٨.

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[١].

فتأمل هذا يا أخي بارك الله فيك، وتفهم الحكمة من تسميته عز وجل الصدقة والإنفاق في سبيله عز وجل قرضاً، يعظم في نفسك من تقرض، ويهن عليك ما تقرض.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ أي: والذين صدقوا بالله ورسله بقلوبهم وألسنتهم وانقادوا بجوارحهم إلى ما جاءهم عن الله عز وجل، وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام.

﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾» الإشارة للذين آمنوا بالله ورسله وصفهم الله بأنهم هم الصديقون، وأكد اتصافهم بهذا الوصف بضمير الفصل «هم» وكون الجملة اسمية معرفة الطرفين.

و «الصِّدِّيقون» جمع صدِّيق على وزن «فِعِّيل» صفة مشبهة أو صيغة مبالغة، أي: الذين بلغوا منزلة عظيمة ودرجة رفيعة في تصديق ما جاءهم عن الله عز وجل وعلى ألسنة رسله عليهم الصلاة والسلام وفي الإيمان بذلك، وفي الصدق بأقوالهم وأفعالهم.

فجمعوا بين صدق النية وصدق القول والعمل، بين العلم النافع والعمل الصالح واليقين الصادق.

قال الحسن: « ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني ولكن ما وقر في القلب، وصدقه العمل»[٢].

ومن هؤلاء الصديقين مريم عليها السلام، كما قال تعالى: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة:٧٥]. ومنهم الخليفة الراشد أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ الواو: استئنافية، فهذا ابتداء كلام فيكون الكلام مكوناً من جملتين الأولى قوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ﴾ والجملة الثانية ﴿وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾.

وقيل: الكلام جملة واحدة، فقوله ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ﴾ مبتدأ، وخبره ما بعده إلى قوله (لهم أجرهم ونورهم).

والراجح: أن الكلام جملتان، ويرجح هذا أنه ليس كل مؤمن صديق يكون شهيداً؛

---

(١) البيت لابن القيم انظر «النونية» ص ١١.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ١٨٤.

لأن الشهيد من قتل في سبيل الله، اللهم إلا أن يراد بـ« الشهداء» في الآية الذين يشهدون على الناس يوم القيامة- كما قال بعضهم- وهذا مرجوح- والراجح أن المراد بـ (الشهداء) الذين قتلوا في سبيل الله، فقوله (والشهداء) مبتدأ وخبره قوله (لهم أجرهم ونورهم).

وعلى اعتبار أن الكلام جملة واحدة فالصديقون صنف، والشهداء صنف آخر فذكر الله عز وجل هنا صنفين من أصناف السعداء الأربعة المذكورين في سورة النساء قال تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ﴾ [النساء: ٦٩]. فالصديقون، والشهداء صنفان.

قال ابن القيم[١]: «ومرتبة الصديقين فوق مرتبة الشهداء، ولهذا قدمهم عليهم في الآيتين هنا، وفي سورة النساء، وهكذا جاء ذكرهم مقدماً على الشهداء في كلام النبي ﷺ في قوله: « اثبت أحد فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان»[٢] ولهذا كان نعت الصديقية وصفاً لأفضل الخلق بعد الأنبياء والمرسلين أبي بكر الصديق، ولو كان بعد النبوة درجة أفضل من الصديقية لكانت نعتاً له رضي الله عنه».

وقال ابن كثير[٣]: «ولا شك أن الصديق أعلى مقاماً من الشهيد» ثم استدل بما رواه أبو سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من فوقهم كما تراءون الكوكب الدري الغابر في الأفق من المشرق أو المغرب لتفاضل ما بينهم» قالوا: يا رسول الله، تلك منازل الأنبياء لا يبلغها غيرهم؟ قال: «بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين»[٤].

(عند ربهم) أي: في جواره في جنات النعيم، وقدم قوله (عند ربهم)، على قوله (لهم أجرهم ونورهم) لأن جواره عز وجل ورؤيته أعظم النعيم كما قال عز وجل: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾ [يونس: ٢٦] أي: لهم (الحسنى)، وهي الجنة (وزيادة) وهي النظر إلى وجهه الكريم سبحانه.

ومثل هذا في تقديم قربه عز وجل وجواره قول آسية بنت مزاحم امرأة فرعون ﴿رَبِّ

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٥-٣٨٨.

(٢) أخرجه البخاري في المناقب ٣٦٧٥، وأبو داود في السنة ٤٦٥١، والترمذي في المناقب ٣٦٩٧ من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) في « تفسيره» ٨/ ٤٨.

(٤) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٥٦، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٣٠.

﴿ٱبۡنِ لِي عِندَكَ بَيۡتٗا فِي ٱلۡجَنَّةِ﴾ [التحريم: ١١] فاختارت الجار قبل الدار رضي الله عنها.

وأضاف العندية إلى الرب سبحانه إشارة إلى عظم ماهم عنده من الكرامة لأن معنى الرب الخالق المالك المدبر المربي للخلق بسائر نعمه سبحانه وتعالى، فكأنه يقول (والشهداء عند ربهم) فلا تسأل عن حالهم، ثم فصل شيئاً من ذلك فقال (لهم أجرهم ونورهم). أي: لهم ثوابهم ونورهم المتميز عن غيرهم كماً وكيفاً ونوعاً.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ١٦٩ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٧٠ ۞ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٧١﴾ [آل عمران: ١٦٩: ١٧١].

وقال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلۡتُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوۡ مُتُّمۡ لَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحۡمَةٌ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ١٥٧﴾ [آل عمران: ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُقَٰتِلۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقۡتَلۡ أَوۡ يَغۡلِبۡ فَسَوۡفَ نُؤۡتِيهِ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٧٤﴾ [النساء: ٧٤]، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقۡتُلُونَ وَيُقۡتَلُونَۖ وَعۡدًا عَلَيۡهِ حَقّٗا فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ وَٱلۡقُرۡءَانِۚ وَمَنۡ أَوۡفَىٰ بِعَهۡدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِۚ فَٱسۡتَبۡشِرُواْ بِبَيۡعِكُمُ ٱلَّذِي بَايَعۡتُم بِهِۦۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ١١١﴾ [التوبة: ١١١]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ٤ سَيَهۡدِيهِمۡ وَيُصۡلِحُ بَالَهُمۡ ٥ وَيُدۡخِلُهُمُ ٱلۡجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمۡ ٦﴾ [محمد: ٤ـ ٦].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل فاطلع عليهم ربهم اطلاعة، فقال: ماذا تريدون؟ فقالوا: نحب أن تردنا إلى الدار الدنيا، فنقاتل فيك، فنقتل، كما قتلنا أول مرة فقال: إني قضيت أنهم إليها لا يرجعون»[(١)].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من عبد يموت له عند الله خير يسره أن يرجع إلى الدنيا وأن له الدنيا وما فيها إلا الشهيد، لما يرى من فضل**

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة- بيان أن أرواح الشهداء في الجنة ١٨٨٧، والترمذي في التفسير ٣٠١١، وابن ماجه في الجهاد ٢٨٠١.

الشهادة، وفي رواية: «لما يرى من الكرامة»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض»[٢].

قال ابن كثير[٣]: « وهم في ذلك – يعني الشهداء- يتفاوتون بحسب ما كانوا في الدار الدنيا من الأعمال. ثم ذكر ما رواه الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت النبي ﷺ يقول: «الشهداء أربعة، رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله فقتل، فذلك الذي ينظر الناس إليه هكذا- ورفع رأسه حتى سقطت قلنسوة رسول الله ﷺ، أو قلنسوة عمر- والثاني مؤمن لقي العدو فكأنما يضرب ظهره بشوك الطلح جاءه سهم غرب[٤] فقتله، فذاك في الدرجة الثانية، والثالث رجل مؤمن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً حتى لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الثالثة. والرابع رجل مؤمن أسرف على نفسه إسرافاً كثيراً لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذاك في الدرجة الرابعة»[٥].

قال ابن القيم[٦]: ﴿إِنَّ ٱلْمُصَّدِّقِينَ وَٱلْمُصَّدِّقَـٰتِ وَأَقْرَضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَـٰعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ فهؤلاء، أصحاب الأجر والثواب، ثم قال ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصِّدِّيقُونَ ۖ وَٱلشُّهَدَآءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ﴾ فهؤلاء أصحاب المرتبة والمنزلة والقرب فالعمّال عملوا على الأجور والعارفون عملوا على المراتب والمنزلة والزلفى عند الله، وأعمال هؤلاء القلبية أكثر من أعمال أولئك، وأعمال أولئك البدنية قد تكون أكثر من أعمال هؤلاء».

﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَآ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾

ذكر الله عز وجل المؤمنين ومراتبهم وهم المتصدقون، والصديقون، والشهداء[٧]،

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد ٢٧٩٥، ومسلم في الإمارة، ١٨٧٧، والنسائي في الجهاد ٣١٦٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٦١.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٠.

(٣) في « تفسيره» ٨/ ٤٩.

(٤) أي: لا يعرف راميه.

(٥) أخرجه أحمد ١/ ٢٣، والترمذي في فضائل الجهاد- ما جاء في فضل الشهداء عند الله ١٦٤٤، وقال: «حديث حسن غريب».

(٦) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٧-٣٨٨.

(٧) وهناك قسم رابع وهم المقتصدون، الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات مع بعض التخليط والتقصير في شيء من حقوق الله وحقوق الخلق انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٧/ ٣٨٨.

وما أعده لهم من عظيم الأجر والثواب، ثم أتبع ذلك بذكر الكافرين المكذبين وما أعد لهم من العذاب الأليم والجحيم، على طريقة القرآن في الجمع بين الرجاء والخوف والترغيب والترهيب.

وعطف التكذيب على الكفر وهو منه، من عطف الخاص على العام إشارة لشدة كفرهم.

والمعنى: والذين جحدوا آياتنا وكذبوا بها وأنكروها، من الآيات الشرعية المنزلة من عند الله عز وجل والتي فيها الأوامر والنواهي والأحكام والأخبار والمواعظ والوعد والوعيد وغير ذلك.

ومن الآيات الكونية المنتشرة في الكون الدالة على وجود الله وعظمته في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وأنه المستحق للعبادة وحده دون ما سواه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ أي: ساكنوها وملازموها ملازمة الصاحب لصاحبه.

وشتان بين من هو في أعلى عليين في جنات النعيم نسأل الله تعالى من فضله، وبين من هو في أسفل سافلين في دركات الجحيم. نسأل الله العافية والسلامة.

الفوائد والعبر:

١ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للمتصدقين والمتصدقات المقرضين الله قرضاً حسنا بالمضاعفة والأجر الكريم والجزاء الكثير.

٢ ـ في تسمية الصدقة والإنفاق في سبيل الله قرضاً لله ـ عز وجل ـ ترغيب في ذلك.

٣ ـ ينبغي أن تكون الصدقة والقرض خالصاً لله ـ عز وجل ـ، من مال طيب، وبنفس طيبة، بلا من ولا أذى.

٤ ـ أن من لازم الإيمان بالله: الإيمان برسلـه، كما أن من لازم الإيمان بالرسل الإيمان بالله ـ عز وجل.

٥ ـ الثناء على الذين آمنوا بالله ورسله وأنهم هم الصديقون الذين جمعوا بين العلم النافع والعمل الصالح واليقين الصادق، وأنهم أفضل من الشهداء.

٦ ـ فضل الشهداء وقربهم عند ربهم في الجنة وما لهم عنده من الأجر العظيم والنور التام وربوبيته ـ عز وجل ـ الخاصة لهم.

٧ ـ الوعيد والتهديد للكفرة المكذبين بآيات الله بدخول النار وملازمة الجحيم.

٨ ـ جمع القرآن الكريم بين الترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ ۖ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا ۖ وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ ۚ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿٢٠﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

لما بين عز وجل في الآيتين السابقتين ما أعده للمتصدقين وللمؤمنين الصديقين وللشهداء عنده في الجنة من الأجر العظيم، وأن الكفرة المكذبين هم أصحاب الجحيم، أتبع ذلك ببيان حقارة الدنيا وأنها متاع غرور، والتأكيد على الاستعداد للآخرة للنجاة من عذابها الشديد، والفوز بمغفرة الله ـ عز وجل ـ ورضوانه.

قوله: ﴿ٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ الأمر في قوله (اعلموا) يحتمل أن يكون للمؤمنين، وأن يكون لعموم الناس، أي: اعلموا أيها المؤمنون، أو أيها الناس.

(أنما) كافة ومكفوفة، وهي أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا مجرد لعب ولهو وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد، أي: ما هي إلا هذا الشيء لا غيره.

و«الحياة الدنيا» هي هذه الدار التي نحن فيها، وسميت دنيا لأنها قبل الآخرة في الزمن، ولأنها دنيئة حقيرة لا قيمة لها بالنسبة للآخرة قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧].

وقال ﷺ: **«ولو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافراً منها شربة ماء»**[1].

﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾.

حصر الله عز وجل الدنيا بهذه الأوصاف وهي كونها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد وهذا هو سبب دناءتها وحقارتها.

قوله ﴿لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ لعب بالأبدان والجوارح، ولهو وغفلة بالقلوب، وهذا أشد، وكل ذلك مما لا فائدة فيه تعود على الإنسان.

﴿وَزِينَةٌ﴾ أي: تزيُّن في اللباس والطعام والشراب والمراكب والدور والقصور والجاه

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٢٠، وابن ماجه في الزهد ٤١١٠ من حديث سهل بن سعد رضي الله عنه، وقال الترمذي « صحيح غريب».

وغير ذلك، تأخذ بالعيون وتعجب النفوس بزينتها الظاهرة كما قال تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾ [آل عمران: ١٤].

﴿وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ﴾ بالأحساب والأنساب والعلم والجاه والمناصب وغير ذلك

قال ابن القيم[1]: «فأخبر سبحانه عن حقيقة الدنيا بما جعله مشاهداً لأولي البصائر وأنها لعب ولهو تلهو بها النفوس، وتلعب بها الأبدان واللعب واللهو لا حقيقة لهما، وأنهما مشغلة للنفس مضيعة للوقت يقطع بها الجاهلون العمر، فيذهب ضائعاً في غير شيء، ثم أخبر أنها زينة زينت للعيون وللنفوس فأخذت بالعيون والنفوس استحساناً ومحبة، ولو باشرت القلوب معرفة حقيقتها ومآلها ومصيرها لأبغضتها ولآثرت عليها الآخرة، ولما آثرتها على الآجل الدائم الذي هو خير وأبقى».

﴿وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ أي: مكاثرة بينكم في الأموال والأولاد ومباهاة بالعدد والعُدد، فيتعالى البعض على الآخرين بكثرة ماله، ويسعى جاهداً حثيثاً بأن يكون الأكثر مالاً حتى ولو سلك طرقاً ملتوية وغير مشروعة في جمع المال.

كما يتعالى البعض على الآخرين بكثرة أولاده، ويسعى بأن يكون الأكثر أولاداً.

ورضي الله عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب حين قال: «إذا رأيت الرجل ينافسك في الدنيا فنافسه في الآخرة».

وإذا كان المولى عز وجل نعى الدنيا وبين حقارتها وهوانها، لأنها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر، وتكاثر في الأموال والأولاد فإن على العاقل اللبيب والحصيف الأريب أن يعبرها ولا يعمرها عمارة مقيم، وأن يستعد للسفر الطويل، وأن يجعلها مطية للآخرة بالعلم النافع والعمل الصالح والإخلاص لله عز وجل ومتابعة رسوله ﷺ، جاعلاً نصب عينيه الهدف الذي خلق من أجله، والذي خلقت الدنيا والكون كله من أجله وهو عبادة الله عز وجل، وأن يعلم أن سوق المتاجرة والمرابحة مع الله عز وجل إنما هو في الدنيا فهي فرصة العمر، لياليها وأيامها خزائن للأعمال الصالحة، والكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[2].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٨.

(٢) كما جاء في الحديث وقد سبق تخريجه.

وإنما وصف الله عز وجل الدنيا بهذه الصفات الذميمة ـ مع أنها محل للأعمال الصالحة لمن وفقه الله عز وجل لأن هذا واقع كثير من الناس.

فكم من أناس همهم في هذه الحياة اللعب واللهو والغفلات وتزجية الأوقات في الأسفار والنزه والملاهي والمقاهي ومجالس القيل والقال، والتفنن في المأكولات والمشروبات وما هذه حال من عرف ما خلق لأجله، ولا حال من عرف الهدف من الحياة.

وكم من أناس همهم في هذه الحياة التزين بالمساكن، والمراكب والملابس وغير ذلك متناسين هادم اللذات وما أمامهم من الأهوال والعقبات.

وكم من أناس همهم التفاخر بالأحساب والأنساب والمناصب والجاه وغير ذلك متناسين أن أكرم الخلق عند الله أتقاهم لله.

وكم من أناس همهم التكاثر بالأموال يلهثون وراء جمع المال، وربما لجأ بعضهم بسبب الحرص على ذلك إلى الكسب من الطرق المحرمة، ومنع حقوق الله في المال. فهؤلاء يصدق عليهم قوله ﷺ: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»[(١)].

وكم من أناس همهم أن يكونوا أكثر من غيرهم أولاداً وقبيلاً يتزوج الواحد منهم العديد من الزوجات ويطلق هذه ويتزوج هذه، بقصد أن يكون من أكثر الناس أولاداً.

فما أشقى من قصر طرفه عند هذه النظرة الضيقة القاصرة وفاتته المعاني السامية للنكاح، وتعدد الزوجات، فربما صار هؤلاء الأولاد والزوجات وبالاً عليه في دينه ودنياه.

ولا شك أن هناك أناساً ممن وفقهم الله عز وجل عرفوا قدر هذه الحياة وشغلوها بما يقربهم إلى الله عز وجل، وبما ينفعهم في دينهم ودنياهم وآخرتهم.

فأخذوا من اللهو المباح ما لا يشغلهم عما خلقوا له، وتوسطوا في المأكل والمشرب والملبس والمركب وعلموا أن الفخر بتقوى الله عز وجل، وطلبوا المال من الطرق الحلال لإعفاف أنفسهم وأهليهم من مذلة السؤال، مع أداء ما لله عليهم من حقوق هذا المال، ولم يشغلهم عن طاعة الله تعالى، قال ﷺ لعمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ: « نعم المال الصالح للمرء الصالح»[(٢)].

وقال الشاعر:

ما أحسن الدين والدنيا إذا اجتمعا ... وأقبح الكفر والإفلاس في الرجل

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨٨٧، والترمذي في الزهد ٢٣٧٥، وابن ماجه في الزهد ٤١٣٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٤/ ١٩٧، ٢٠٢.

وهناك من تزوجوا، بل وعددوا الزوجات وأكثروا الأولاد إعفافاً لأنفسهم وزوجاتهم، وتكثيراً لسواد الأمة مع العناية بحقوق زوجاتهم وأولادهم وتوجيههم وتربيتهم التربية الإسلامية الصحيحة لينفعوا أنفسهم ووالديهم وأمتهم، ومثل هؤلاء ـ وهم قليل ـ أنعم وأكرم بتعدادهم الزوجات وتكثيرهم الأولاد، وهم الذين استجابوا لقوله ﷺ: «**تزوجوا الودود الولود، فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة**»[1].

﴿كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: إنما الحياة الدنيا وعمر الإنسان فيها (كمثل غيث أعجب الكفار نباته) والغيث: هو المطر الذي يأتي بعد قنوط الناس، كما قال تعالى: ﴿وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ﴾ [لقمان: ٣٤]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ مِنۢ بَعْدِ مَا قَنَطُوا۟﴾ [الشورى: ٢٨].

﴿أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ﴾ أي: أعجب الزراع وراقهم نباته. وسمي الزارع كافراً؛ لأنه يستر البذر ويغطيه في الأرض، أخذاً من معنى الكفر لغة: وهو الستر والتغطية.

وقيل: المراد الكفار بالله، لأنهم هم الذين يعجبون بالدنيا، لأن قلوبهم متعلقة بها.

قال ابن كثير[2]: «أي كذلك تعجب الحياة الدنيا الكفار، فإنهم أحرص الناس عليها وأميل الناس إليها».

﴿ثُمَّ يَهِيجُ﴾ أي: ذلك الزرع إلى غايته ومنتهاه وييبس ﴿فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا﴾ بعد ما كان خضراً نضراً تراه مصفراً وذلك علامة موته ويبسه.

﴿ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا﴾ أي: يابساً متحطماً متكسراً فتاتاً تذوره الرياح يمنة ويسرة.

وهكذا الحياة الدنيا تكون أولا شابة، ثم تكتهل، ثم تكون عجوزاً شوهاء، والإنسان كذلك يكون في أول عمره وعنفوان شبابه غضاً طرياً لين الأطراف، بهي المنظر، ثم إنه يشرع في الكهولة فتتغير طباعه، وتضعف بعض قواه، ثم يكبر فيصير شيخاً كبيراً ضعيف القوى قليل الحركة، يعجزه الشيء اليسير، كما قال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا

---

(١) أخرجه أبو داود في النكاح ٢٠٥٤، والنسائي في النكاح ٣٢٢٧، ـ من حديث معقل بن يسار رضي الله عنه، وأخرجه أحمد ٣/ ١٥٨، ٢٤٥ - من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وابن حبان في صحيحه ١٢٢٨، والبيهقي في سننه ٧/ ٨١. قال الحافظ ابن حجر في الفتح: «هذه الأحاديث، وإن كان الكثير منها ضعيفاً، فمجموعها يدل على أن لما يحصل به المقصود من الترغيب أصلاً، لكن في حق من يتأتى منه النسل».

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٠ .

وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾﴾ [الروم: ٥٤]».

ثم ينتهي به الأمر إلى الفناء والموت، كما قال تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾[الرحمن: ٢٦ ، ٢٧]، وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥].

وقد أحسن القائل:

لا طيب للعيش ما دامت منغصة ... لذاته بادكار الموت والهرم[1]

﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾.

لما بين أن الحياة الدنيا إنما هي مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر وتكاثر في الأموال والأولاد، وأنها في سرعة زوالها واضمحلالها كالنبات الذي سقاه الغيث فنما واخضر وأعجب الزراع ثم استوى واصفر، ثم يبس وتحطم وتكسر وذرته الرياح هنا وهناك، وفي هذا دلالة واضحة على هوان الدنيا وحقارتها. أتبع ذلك ببيان قيمة الآخرة، وأنها هي الدار حقاً، مما يوجب العمل للآخرة، وعدم الاغترار بالدنيا.

وبين في هذه الآية أن الناس في تلك الدار: إما متقلب في العذاب الشديد نسأل الله السلامة، أو منعم بالمغفرة والرضوان نسأل الله تعالى من فضله وكرمه.

وهذا على طريقة القرآن في جمعه بين الترغيب والترهيب ليجمع المؤمن في طريقه إلى الله عز وجل بين الخوف والرجاء.

قوله ﴿وَفِي ٱلْأَخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: وفي الدار الآخرة للكفار والعصاة في مواقف القيامة وعرصاتها، وفي النار (عذاب شديد) وسميت الآخرة لأنها متأخرة من حيث الزمن عن الدنيا وإلا فهي الدار حقاً وهي الحيوان، كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْأَخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ [العنكبوت: ٦٤].

﴿عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ أي: عذاب شديد، حسياً تعذب به الأبدان، ومعنوياً تعذب به القلوب من التبكيت والتوبيخ والتقريع.

﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: لأهل الإيمان، وأضاف المغفرة والرضوان إلى الله عز وجل بينما لم يضف العذاب الشديد إليه. وإن كان الكل بتقديره عز وجل على

---

(١) البيت من شواهد ابن عقيل في باب «كان وأخواتها» ولا يعرف له قائل.

معنى قوله ﷺ «والشر ليس إليك»[1].

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة قوله عز وجل: «أنا سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم»[1].

﴿وَرِضْوَٰنٌ﴾ أي: رضاه عز وجل عنهم كما قال تعالى: ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ﴾ [المائدة: ١١٩، المجادلة: ٢٢، البينة: ٨].

ورضوان الله غاية مطلب أهل الجنة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥]، وقال تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ وَجَنَّٰتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [التوبة: ٢١].

وقال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّٰتِ عَدْنٍ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿٧٢﴾﴾ [التوبة: ٧٢].

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ﴾ هذا كقوله: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾﴾ [آل عمران: ١٨٥].

الواو: استئنافية، و «ما» نافية «إلا» أداة حصر، أي: ما الحياة الدنيا إلا هذا الشيء فقط، وهو متاع الغرور، أي: ما هي إلا مجرد متاع يغتر به أصحاب العقول الضعيفة الذين غرهم بالله الغرور، فتعجبهم الدنيا ويركنون إليها مع أنها ظل زائل، لا قيمة لها قال تعالى: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ [لقمان: ٣٣، فاطر: ٥] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾ [النساء: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾﴾ [التوبة: ٣٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الرعد: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ وَإِنَّ ٱلْءَاخِرَةَ هِىَ دَارُ ٱلْقَرَارِ ﴿٣٩﴾﴾ [غافر: ٣٩].

قال ابن كثير[2]: «أي: هي متاع فان غارّ لمن ركن إليه، فإنه يغتر بها وتعجبه حتى يعتقد أنه لا دار سواها ولامعاد وراءها، وهي حقيرة قليلة بالنسبة للدار الآخرة».

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٠.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «الدنيا دار من لا دار له، ومال من لا مال له، ولها يجمع من لا عقل له»[١].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لروحة في سبيل الله أو غدوة خير من الدنيا وما فيها، ولقاب قوس أحدكم أو موضع يده في الجنة، خير من الدنيا وما فيها، ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطلعت إلى أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحا، ولنصيفها على رأسها خير من الدنيا وما فيها»[٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: نام رسول الله ﷺ على حصير، فقام وقد أثر في جنبه، فقلنا يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاءً فقال: «ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[٣].

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «أخذ رسول الله ﷺ بمنكبي فقال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل». وكان ابن عمر رضي الله عنهما يقول: إذا أمسيت فلا تنتظر الصباح وإذا أصبحت فلا تنتظر المساء، وخذ من صحتك لمرضك ومن حياتك لموتك» الحديث[٤].

وقد قيل:

وإيـــاك والـــدنيا الدنيـــة إنهـــا ... هـــي الســـحر في تخييلـــه وافترائـــه

متـــاع غـــرور لا يـــدوم ســـرورها ... وأضـــغاث حلـــم خـــادع ببهائـــه

فمـــن أكرمـــت يومـــاً أهانـــت لـــه غـــداً ... ومـــن أضـــحكت قـــد آذنـــت ببكائـــه

ألا إنهـــا للمـــرء مـــن أكـــبر العـــدا ... ويحســـبها المغـــرور مـــن أصـــدقائه

وكـــم في كتـــاب الله مـــن ذكـــر ذمهـــا ... وكـــم ذمهـــا الأخيـــار مـــن أصـــفيائه

فـــدعها فـــإن الزهـــد فيهـــا محـــتم ... وإن لم يقـــم جـــل الـــورى بأدائـــه

ومـــن لم يـــدعها زاهـــداً في حياتـــه ... ســـتزهد فيـــه النـــاس بعـــد فنائـــه

وتســـكنه بعـــد الشـــواهق حفـــرة ... تضـــيق بـــه بعـــد اتســـاع فضـــائه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٧٩٢، ومسلم في الإمارة ١٨٨٠، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٥١، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٥٧.

(٣) أخرجه الترمذي في الزهد ٢٢٩٩، وابن ماجه في الزهد ٤٠٩٩. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٤١٦، والترمذي في الزهد ٢٣٣٣، وابن ماجه في الزهد ٤١١٤.

وينساه أهلوه المفدى لديهم وتكسوه ثوب الرخص بعد غلائه
وينتهب الورّاث أمواله التي على جمعها قاسى عظيم شقائه[1]

وقال الآخر:

قد نادت الدنيا على نفسها لو كان في العالم من يسمع
كم واثق في العمر أفنيته وجامع بددت ما يجمع

وقال الآخر:

هي الدنيا تقول بملء فيها حذارِ حذارِ من بطشي وفتكي
فلا يغرركم مني ابتسام فقولي مضحك والفعل مبكِي

وقال الآخر:

هي الحياة فلا يغررك ما فيها من الزخارف واحذر من دواهيها
واجنب سلوكك فيها كل شائنة إن كنت حراً فإن النذل يدنوها

وقال الآخر:

ومن يأمن الدنيا يكن مثل قابض على الماء خانته فروج الأصابع

الفوائد والعبر:

١ ـ حقارة الحياة الدنيا، وأنها مجرد لعب ولهو وزينة وتفاخر بين الناس وتكاثر في الأموال والأولاد.
٢ ـ أن مثل الحياة الدنيا في سرعة فنائها، وعمر الإنسان فيها كالنبات يسقيه الغيث فينمو ويخضر ويعجب الزارع، ثم يستوي ويصفر وييبس ويتحطم.
٣ ـ عظم مكانة الآخرة لأن فيها مجازاة الخلق بأعمالهم إما بالمغفرة والرضوان نسأل الله تعالى من فضله، وإما بالعذاب الشديد ـ نسأل الله تعالى ـ السلامة.
٤ ـ تأكيد حقارة الدنيا وأنها متاع غرور يجب الحذر من الاغترار بها.

(١) هذه الأبيات من قصيدة للشاعر ابن مشرّف انظر «ديوانه» ص٣٧.

﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ﴿٢١﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

بعدما بين الله ـ عز وجل ـ حقارة الدنيا ومكانة الآخرة أتبع ذلك بالأمر بالمسابقة إلى مغفرة الله ـ عز وجل ـ وجنته وفضله.

قوله ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾.

المسابقة شدة العدو والسير، والمعنى: بادروا وسارعوا إلى مغفرة من ربكم، كما قال عز وجل: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [آل عمران: ١٣٣]، وقال عز وجل: ﴿فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ﴾ [البقرة: ١٤٨، المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾﴾ [الواقعة: ١٠، ١١] ، وقال تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [المطففين: ٢٦].

وقد أحسن القائل:

إذا غامرت في شرف مروم فلا تقنع بما دون النجوم[(١)]

أي: سابقوا إلى فعل أسباب المغفرة من التوبة النصوح والاستغفار، والبعد عما نهى الله عنه، والمبادرة والمسارعة إلى فعل الخيرات والأعمال الصالحات، والمنافسة فيها كما قال تعالى: ﴿ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ [الحج: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ﴾ إلى قوله: ﴿ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [الأحزاب: ٣٥].

وقال ﷺ: «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»[(٢)].

والمغفرة: هي ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة، كما في حديث ابن عمر في المناجاة أن رسول الله ﷺ قال: «**إن الله عز وجل يدني المؤمن يوم القيامة حتى يضع عليه**

---

(١) البيت للمتنبي.

(٢) أخرجه مسلم في الطهارة ٢٣٣، والترمذي في الصلاة ٢١٤، وابن ماجه في إقامة الصلاة ١٠٨٦ ـ من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه.

كنفه ـ أي: ستره ورحمته- فيقرره بذنوبه، فيقول: أتذكر ذنب كذا وكذا؟ فيقول: نعم، يا رب. فيقول الله عز وجل: **أنا سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم**»[1].

ومنه سُمي « المغفر» وهو البيضة التي توضع على الرأس تستره وتقيه السهام.

وأضاف ـ عز وجل ـ المغفرة إليه باسم الربوبية الذي معناه المالك الخالق المدبر المربي للخلق المنعم عليهم بسائر النعم الدينية والدنيوية والأخروية.

﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ الواو: عاطفة، أي: وسارعوا إلى جنة عرضها كعرض السماء والأرض. والجنة: هي الدار التي أعدها الله لأوليائه، لا يقدر عظم نعيمها إلا العظيم سبحانه، كما قال تعالى: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءَۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾ [السجدة: ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ قال الله: «**أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرؤوا إن شئتم**» ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِىَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾»[2].

وقوله: ﴿عَرْضُهَا كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ كقوله عز وجل: في سورة آل عمران: ﴿عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ [الآية: ١٣٣].

وإذا كان عرضها السموات والأرض فما بالك بطولها، وما مدى مقدار سعتها مما يدل على سعة منازل أهلها نسأل الله العظيم من فضله.

وقد روي أن أحد الزنادقة جاء إلى الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى فقال له: الله يقول: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَـٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ﴾ أو ﴿كَعَرْضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ فأين تكون النار، فأجابه أبو حنيفة على الفور: تكون النار إن شاء الله في عينك»

وذلك أن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا، ولهذا فالمعذب في قبره يصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين وفي رواية إلا الإنس والجن[3] مع أن صوت

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٤٤، ومسلم في الجنة وصفة نعيمها وأهلها ٢٨٢٤، والترمذي في تفسير القرآن ٣١٩٧، وابن ماجه في الزهد ٤٣٢٨.

(٣) أخرجه أحمد ٤/ ٢٩٦- من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه. وأخرجه من حديث أنس رضي الله عنه البخاري في الجنائز- الميت يسمع خفق النعال، وفي ما جاء في عذاب القبر ١٣٣٨، ومسلم في صفة الجنة ٢٨٧٠، وأبو داود في الجنائز ٣١ ٣٢، والنسائي في الجنائز ٢٠٥١، وأحمد ٣/ ٤.

الإنسان لو جمعت له أعظم مكبرات الصوت لا يسمع إلا من مسافة قريبة محدودة.

وكذلك المعذب في النار قال الله عنه ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿١٣﴾﴾ [الأعلى: ١٣] مع أن النار تذيب الجبال، فسبحان الخالق البصير العليم القدير الحكيم الخبير.

﴿أُعِدَّتْ﴾: بمعنى هيئت وجهزت، فهي الآن مخلوقة موجودة فيها ألوان النعيم، وهي في السماء السابعة، وسقفها عرش الرحمن، ولهذا قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ [الأعراف: ٤٠].

﴿لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ أي: للذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم بوجود الله وربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته، وصدقوا رسله وما جاؤوا به من عند الله، وبأنهم رسل الله حقاً، وانقادوا بجوارحهم لما جاءهم عن الله عز وجل وعلى ألسنة رسله، وهم المتقون، كما قال عز وجل: في الآية الثانية: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي: الذين اتقوا الله بفعل أوامره واجتناب نواهيه، وهم الذين آمنوا بالله ورسله.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإشارة ترجع إلى ما أعده الله عز وجل لمن آمن بالله ورسله من المغفرة والجنة التي عرضها السماء والأرض.

ويحتمل أن يعود إلى هذا وإلى سببه وهو الإيمان بالله ورسله، أي: التوفيق للإيمان بالله ورسله، وما أعده الله للمؤمنين بالله ورسله.

وأشار إليه بإشارة البعيد « ذلك» تعظيماً لشأنه.

﴿فَضْلُ اللَّهِ﴾ الفضل: بمعنى الزيادة، أي: أن هذا كله تفضل من الله عز وجل وزيادة منه، إذ لا يجب عليه عز وجل شيء لخلقه أصلاً، وإنما هذا فضل منه عز وجل عليهم خلقهم ورزقهم ووفق من شاء منهم فهداهم للإيمان وجازاهم على ذلك بالمغفرة والجنة، والتزم لهم بذلك كرماً منه سبحانه فقال تعالى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾﴾ [الأعراف: ١٥٦].

﴿يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ أي: يعطي هذا الفضل الذي يشاء من عباده تكرماً منه وامتناناً عليهم، وإحساناً إليهم، كما قال تعالى: ﴿ وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ ﴾ [هود: ٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «أن فقراء المهاجرين أتوا رسول الله ﷺ، فقالوا: ذهب أهل الدثور بالدرجات العلى والنعيم المقيم. فقال: وما ذاك؟ قالوا: يصلون كما

نصلي ويصومون كما نصوم ويتصدقون ولا نتصدق، ويعتقون ولا نعتق فقال رسول الله ﷺ: «أفلا أعلمكم شيئاً تدركون به من سبقكم وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحد أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم؟ قالوا: بلى يا رسول الله قال: «تسبحون وتكبرون وتحمدون دبر كل صلاة ثلاثا وثلاثين مرة» فرجع فقراء المهاجرين إلى رسول الله ﷺ فقالوا: سمع إخواننا أهل الأموال بما فعلنا، ففعلوا مثله، فقال رسول الله ﷺ: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء»[1].

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ «ذو» بمعنى صاحب، أي: والله صاحب الفضل العظيم، الذي لا يحصي أحد ثناءً عليه، بل هو سبحانه كما أثنى على نفسه.

فهو سبحانه العظيم الذي لا أعظم منه، والكبير الذي لا أكبر منه، الذي منه الفضل كله، وبيده الخير كله، ومنه النعم كلها، كما قال عز وجل ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]، وقال عز وجل ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤، النحل: ١٨].

ومن الغريب والعجيب أن نرى بعض الناس إذا أسدى إليه أحد الخلق معروفاً ولو قليلاً تراه يذكره ولا ينساه بلسان حاله ومقاله، وربما قال له: يا فلان والله ما أنسى معروفك حتى أوارى في قبري، وربما تمنى أن يكون لصاحبه حاجة إليه فيرد هذا المعروف، وهذا لا شك من رد الجميل وقد قال ﷺ فيما رواه ابن عمر رضي الله عنهما: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سألكم بالله فأعطوه، ومن استجار بكم فأجيروه، ومن صنع إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه»[2].

لكن ينبغي أن يعلم أن صاحب المعروف الأول، بل صاحب المعروف كله هو الله عز وجل حتى ما حصل على يد بعض المخلوقين هو من الله عز وجل، ومن هنا كان الواجب الأعظم على الخلق شكر الخالق سبحانه وتعالى بطاعته وأداء حقوقه والبعد عن نواهيه، ولا شك أن من طاعته عز وجل شكر صاحب المعروف من الناس وفي الحديث: «من لا يشكر الناس لا يشكر الله»[3].

---

(١) أخرجه البخاري في الأذان ـ الذكر بعد الصلاة ٨٤٣، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ـ استحباب الذكر بعد الصلاة وبيان صفته ٥٩٥، وأبو داود في الصلاة ١٥٠٤.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٤٤٥، والنسائي في الزكاة ٢٥٢٠.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٨١١، والترمذي في البر والصلة ١٩٥٤- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وبالمقارنة بين هذه الآية والآيات في سورة آل عمران نجد أن الله عز وجل قال هنا ﴿سَابِقُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا كَعَرۡضِ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ [الحديد: ٢١] وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿۞ وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسۡتَغۡفَرُواْ لِذُنُوبِهِمۡ وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمۡ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الآيات: ١٣٣ ـ ١٣٦].

ففي هذه الآيات في سورة آل عمران شيء من التفسير لقوله في سورة الحديد ﴿أُعِدَّتۡ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ الآية، والتفصيل لأعمال وصفات هؤلاء المؤمنين وجزائهم، فمن أعمالهم وصفاتهم تقوى الله لقوله ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾.

و«المتقون»: الذين جعلوا بينهم وبين عذاب الله وقاية، بفعل أوامره واجتناب نواهيه، فاتقوا الله بقلوبهم وألسنتهم وسمعهم وأبصارهم وفروجهم وأيديهم وأرجلهم وجميع جوارحهم.

ومن أعمالهم وصفاتهم الإنفاق في السراء والضراء لقوله ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ وفرق ما بين الإنفاقين كما قال عز وجل ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم مَّنۡ أَنفَقَ مِن قَبۡلِ ٱلۡفَتۡحِ وَقَٰتَلَۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعۡظَمُ دَرَجَةٗ مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلّٗا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ [الحديد: ١٠].

وبعض الناس يهون عليه الإنفاق في السراء لكنه يمسك في الضراء. وإنما تعظم النفقة وتظهر الرحمة بأعظم صورها في حالة الضراء والحاجة، «وإنما يرحم الله من عباده الرحماء»[(١)] «ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء»[(٢)].

ومن صفاتهم كظم الغيظ لقوله ﴿وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ﴾ أي: الذين إذا غضبوا حبسوا الغضب وأمسكوا زمام النفس عن قول أو فعل ما لا يجوز.

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ليس الشديد بالصرعة إنما

---

(١) أخرجه البخاري في الجنائز ١٢٠٤، ومسلم في الجنائز ١٥٣١، وأبو داود في الجنائز ٢٧١٨، والنسائي في الجنائز ١٨٤٥ من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في الأدب ٤٢٩٠، والترمذي في البر والصلة ١٨٤٧ من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وقال «حديث حسن صحيح».

الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب»[١].

وعن سليمان بن صرد رضي الله عنه قال: استب رجلان عند النبي ﷺ فجعل أحدهما تحمرّ عَيناه، وتنتفخ أوداجه فقال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف كلمة لو قالها لذهب عنه ما يجد، لو قال: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» فقيل للرجل، فقال: لست بمجنون»[٢].

ومما يعين على كظم الغيظ، وإذهاب حدة الغضب الوضوء والجلوس إن كان قائماً والاضطجاع إن كان جالساً. فكم أدى الغضب إلى إزهاق أرواح، وطلاق وتشتيت أُسر، وعداوة وبغضاء. وكم عض صاحبه على أصبع الندم ولكن هيهات، وكم أودع أناس السجون وسيقوا إلى القصاص بسببه، وكم أصيب أناس بارتفاع ضغط الدم والسكري والجلطات بسببه.

ومن صفاتهم العفو عن الناس لقوله: ﴿وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ﴾ أي: يعفون عمّن أساء إليهم وعمّالهم من حقوق لدى غيرهم من قريب وبعيد ومؤمن وكافر، فترقّوا من كظم الغيظ، وحبس الغضب إلى العفو عمن أساء إليهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ [الشورى: ٣٧] فما أجمل هذا، نسأل الله تعالى التوفيق ـ قال تعالى: ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ ۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [النحل: ١٢٦]، وقال تعالى: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ [الشورى: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى: ٤٣].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزا»[٣].

وفي الأثر: «العلم بالتعلم والحلم بالتحلم»[٤] قال الشافعي[٥]:

لما عفوت ولم أحقد على أحد ... أرحت نفسي من هم العداوات

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب ٦١١٤، ومسلم في البر والصلة ٢٦٠٩.

(٢) أخرجه البخاري في بدء الخلق ٣٢٨٢، ومسلم في البر والصلة والآداب ٢٦١٠، وأبو داود في الأدب ٤٧٨١.

(٣) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٨٨، والترمذي في البر والصلة ٢٠٢٩.

(٤) أخرج البخاري معلقاً، قال: قال النبي ﷺ «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، وإنما العلم بالتعلم» كتاب العلم ـ باب العلم قبل القول والعمل. انظر «فتح الباري» ١/ ١٥٩.

(٥) انظر «ديوانه» ص٣٧.

وقال الآخر:

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال الرضا من طبعه الغضب[(١)]

ونعوذ بالله من الخذلان والحرمان ومن نزغات الشيطان: فبون شاسع وفرق واسع، بين إنسان عفو متسامح، وبين إنسان حرج دائماً، فالأول سعيد مطمئن، والثاني قلق مضطرب، هذا في الحياة أما في الآخرة وعند لقاء الله عز وجل فلا تسأل عن الفرق بينهما، وهل يقدر الفرق بين من يرد ليتقاضى من الخلق المساكين، وبين من يرد على الجواد الكريم:

شتان بين الحالتين فإن ترد جمعاً فما الضدان يجتمعان[(٢)]

فما أحسن العفو، وما أجمل الخلق الطيب عموماً، فهو أثقل شيء في ميزان العبد يوم القيامة، وأقرب الناس مجلساً من النبي ﷺ أحاسنهم أخلاقاً كما جاء في حديث أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**ما من شيء أثقل في ميزان المؤمن يوم القيامة من خلق حسن، وإن الله ليبغض الفاحش البذيء**»[(٣)].

وعن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة، أحاسنكم أخلاقاً**»[(٤)].

فالخلق الطيب الحسن معين لا ينضب، وليس فيه كلفة ولا غرامة، ولا تعب ولا مشقة، والموفق من وفقه الله عز وجل.

ومن صفاتهم الإحسان لوصف الله لهم بذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ الذين أحسنوا في عبادة الله عز وجل، وأحسنوا إلى عباد الله، أحسنوا في عبادة الله؛ إخلاصاً لله عز وجل، ومتابعة للرسول ﷺ وأحسنوا إلى عباد الله بأداء حقوقهم والتفضل عليهم، من الوالدين والأزواج والأولاد والأقارب والجيران وغيرهم، وبالقيام بما عليهم من مسؤوليات للمسلمين. وكفى المحسنين أن الله عز وجل يحبهم دون من سواهم.

وفي قوله ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ بعد قوله ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ

---

(١) البيت لعنترة بن شداد، انظر ديوانه ص٨٤.

(٢) البيت لابن القيم انظر: « النونية» ص ١١.

(٣) أخرجه أبو داود في الأدب ٤١٦٦، والترمذي في البر والصلة ١٩٢٥، وقال: « حديث حسن صحيح».

(٤) أخرجه الترمذي في البر والصلة ١٩٤١، وقال: « حديث حسن غريب».

﴿ٱلنَّاسِۗ﴾ إشارة إلى أنهم- نسأل الله التوفيق - ترقوا في مدارج الكمال فانتقلوا من كظم الغيظ إلى العفو عمن ظلمهم ثم إلى الإحسان إليه وتلك أعظم المنازل قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥].

ومن صفاتهم أنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً﴾ الفاحشة: ما يستفحش في الشرع وعرف المسلمين كالزنا ونحوه.

﴿أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ﴾ بفعل شيء من المعاصي، التي هي أعظم الظلم للنفس توردها موارد الهلاك والبوار. والنفس وديعة عند الإنسان يجب عليه أن ينأى بها عن كل ما فيه ضررها في دينها ودنياها.

﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾.

أي: أنهم بعد ملابستهم شيئاً مما ذكر يتذكرون عظمة الله عز وجل، ويرجعون إلى ذكره عز وجل وسؤاله المغفرة لما وقع منهم من الذنوب، مبادرين بالتوبة من ذلك من غير إصرار على المعصية، وهم يعلمون أنها معصية ويعلمون سوء عاقبتها وشؤمها مما يجعلهم محلاً للمغفرة والتوبة.

قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»[1].

ثم ختم الآيات بوعدهم بتحقيق ما سارعوا إليه من المغفرة والجنة تأكيداً لذلك فقال: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾.

أي: أولئك المسارعون إلى المغفرة والجنة، جزاؤهم تحقيق المغفرة لهم من ربهم، ودخولهم جنات تجري من تحت أشجارها ومساكنها وغرفها الأنهار قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنْهَٰرٌ مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾ [محمد: ١٥].

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ أي: مقيمين فيها إقامة أبدية لا تحول ولا تزول نسأل الله تعالى من

---

(١) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٦/ ٦٥١.

فضله ﴿وَنِعْمَ﴾ أي: ونعم هذا الجزاء من الله لهم بالمغفرة والخلود في الجنة ﴿أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ﴾ بطاعة الله ـ عز وجل ـ وهم الموصوفون بهذه الصفات في الآية، وهم الذين آمنوا بالله ورسله كما ذكرهم في سورة الحديد.

فتأمل أخي الكريم ـ وفقك الله ـ أوصاف المسارعين المسابقين وما أعد الله لهم من المغفرة والجنة، وخذ من المسارعة والمسابقة ومن صفات المسارعين والمسابقين أعظم نصيب لتنال ما وعدهم الله به ما دامت الفرصة متاحة والسوق رابحة وخذ نصيبك من ربك- كما قال ابن القيم رحمه الله، إذ لا عذر لمتخلف، فإن الله قد فتح أبوابه للطالبين وخزائنه ملأى ويده سحاء الليل والنهار. فالكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأماني[1].

قال الشاعر:

من فاته الـزرع في وقـت البـذار فمـا تــراه يحصـــد إلا الهــم والنـــدما

وقال الآخر:

ولم أجــد الإنســان إلا ابــن ســعيه فمن كان أسعى كـان بالمجد أجدرا

فلـــم يتـــأخر مـــن أراد تقـــدما ولم يتقـــدم مـــن أراد تـــأخرا[2]

واعلم أخي أن الأمر جد، وقد أحسن القائل:

قـــدرشـــحوك لأمـــر لـــو فطـــنت لــــه فاربأ بنفسك أن ترعى مـع الهمـل

وقال الآخر

الأمـــــر جـــــد وهـــــو غـــــير مـــــزاح فاعمل لنفسك صـالحاً يـا صـاح

وقال الآخر:

ســـوف تـــرى إذا انجلـــى الغبـــار أفـــرس تحتـــك أم حمـــار

إذا حضر واجب لله وحق من حقوقه من صلاة أو زكاة أو صيام أو حج أو بر والدين

---

(١) كما جاء في حديث شداد بن أوس ـ رضي الله عنه ـ أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع ٢٤٥٩، وابن ماجه في الزهد ٤٢٦٠ ـ وقال الترمذي «حديث حسن».

(٢) البيتان لابن هاني انظر: « ديوانه» ص ١٤٠.

أو صلة رحم، أو أمر بالمعروف، أو نهي عن المنكر، فانهض على قدمك الطولى مسرعاً مسابقاً منافساً وافرح بذلك واستبشر، وقل بلسان حالك ومقالك إذا سمعت حيّ على الصلاة حيّ على الفلاح: نادى منادي العظيم نادى منادي المنعم، وقل: هيا يا أولادي ويا أهلي إلى إجابة داعي الله، هيا إلى إجابة داعي المنعم العظيم، هيا إلى الصلاة، واحذر من البرود والتبلد في هذا واحذر كل الحذر من القواطع، التي تحول بينك وبين ذلك، أو تؤخرك عنه، من مشاغل الدنيا من بيع أو شراء، أو شرب قهوة، أو إصلاح حاجة، أو تكليم شخص في جلسة أو في طريق، مقابلة أو مهاتفة، وإذا حضر حق الله فلا تلتفت إلى غيره، واعلم أن الظبي أشد وأسرع من الكلب، ولكنه إذا أحّس به التفت إليه فيضعف سعيه فيدركه الكلب فيأخذه وهكذا فإن الشيطان يدرك الإنسان إذا التفت إلى هذه القواطع.

الفوائد والعبر:

١ ـ الأمر والترغيب في المسابقة إلى مغفرة الله ـ عز وجل ـ وجنته بالمسابقة والمسارعة والمنافسة بالأعمال الصالحة.

٢ ـ رحمة الله ـ عز وجل ـ بالعباد وشفقته عليهم حيث حثهم ورغبهم في المسابقة إلى مغفرته وجنته.

٣ـ إثبات ربوبية الله ـ عز وجل ـ لخلقه، ربوبية خاصة، وعامة.

٤ ـ عظم سعة الجنة ومساكنها وغرفها وبساتينها لأنه إذا كان عرضها كعرض السماء والأرض فما بالك في طولها.

٥ ـ وعد الله ـ عز وجل ـ للذين آمنوا بالله ورسله بهذه الجنة الواسعة، وأنها موجودة الآن مهيأة لأهلها.

٦ـ تلازم الإيمان بالله والإيمان بالرسل.

٧ ـ الإشارة لعظم فضل الله ـ عز وجل ـ على الذين آمنوا به وبرسله بمغفرته لهم وإدخالهم فسيح جناته وما فيها من ألوان النعيم.

٨ ـ إثبات المشيئة لله ـ عز وجل ـ، وأنه عز وجل ـ يؤتي الفضل من يشاء بفضله ويمنعه عمّن يشاء بعدله.

٩ ـ أن الله ـ عز وجل ـ صاحب الفضل العظيم والخير العميم على جميع خلقه وهو الجواد الكريم.

﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ﴿٢٢﴾ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ ﴿٢٤﴾﴾.

في هذه الآيات يبين الله عز وجل أن جميع ما يحصل في هذا الكون من مصائب، إنما هو بقدر الله السابق قبل خلق الخليقة.

قوله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ «ما» نافية أي: ما أصاب من مصيبة في الأرض من قحط وجدب وزلازل وبراكين وغير ذلك.

﴿وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ﴾ من مرض وجراح وقتل وموت وفقر وغير ذلك.

﴿إِلَّا فِي كِتَٰبٖ﴾ أي: إلا مقدر مكتوب عند الله عز وجل في اللوح المحفوظ الذي فيه مقادير كل شيء قال السعدي[(١)]: «وهذا شامل لعموم المصائب التي تصيب الخلق من خير وشر، فكلها قد كتب في اللوح المحفوظ صغيرها وكبيرها».

﴿مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي: من قبل أن نخلق الخليقة ونبرأ النسمة ومن قبل خلق السموات والأرض، ومن قبل خلق هذا الكون كما في حديث عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله قدر مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء»[(٢)].

قال الحسن البصري: «كل مصيبة بين السماء والأرض ففي كتاب الله من قبل أن تبرأ النسمة»[(٣)].

وقال ابن كثير[(٤)]: « وهذه الآية الكريمة من أدل دليل على القدرية نفاة العلم السابق ـ قبحهم الله».

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ الإشارة ترجع إلى معنى ومضمون قوله ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾ أي: أن علمه عز وجل بالأشياء قبل كونها وتقديره وكتابته لمقادير كل شيء، مما يحصل في الأرض وفي

---

(١) في « تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٢٩٩.
(٢) أخرجه مسلم في القدر- باب حجاج آدم وموسى ٢٦٥٣، والترمذي في القدر ٢١٥٦، وأحمد ٢/ ١٦٩.
(٣) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤١٩.
(٤) في «تفسيره» ٨/ ٥٢.

الأنفس، وفي هذا الكون كله من أحداث ومصائب وغير ذلك، وحدوث ذلك كما قدره الله، كل ذلك يسير سهل على الله عز وجل، لأن الخلق خلقه والأمر أمره كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ [الملك: ١٤].

فهو سبحانه وتعالى يعلم ما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، وكل ما في هذا الكون جار بتقديره عز وجل كما قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ﴿٤٩﴾﴾ [القمر: ٤٩].

﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾.

اللام للتعليل، والمصدر المؤول «كيلا تأسوا..» في محل جر باللام متعلق بفعل محذوف تقديره: قدرنا مقادير كل شيء وأخبرناكم بذلك وبيناه لكم ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ و «لا» في المواضع الثلاثة: نافية.

(تأسوا) الأسى بمعنى: الأسف والحزن على أمر فات ومضى، ولهذا قال هنا ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾. أي: مما فات ومضى ولا يمكن استدراكه، من أمور الدنيا من مال أو ولد أو صحة، أو منصب أو جاه، أو غير ذلك. وذلك لأن الله يختار لعبده ما يختار، وما اختاره الله لعبده خير مما يختاره العبد لنفسه وفي الحديث: «من عبادي من لا يصلح له إلا الفقر فلو أغنيته لأفسدت عليه دينه، ومن عبادي من لا يصلح له إلا الغنى فلو أفقرته لأفسدت عليه دينه ومن عبادي من لا يصلح له إلا الصحة فلو أسقمته لأفسدت عليه دينه»[١].

وهذا مما يوجب على العبد الرضا والقناعة بما آتاه الله فعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «قد أفلح من أسلم، ورزق كفافاً وقنعه الله بما آتاه»[٢].

وقد قيل: «القناعة كنز لا يفنى».

والله عز وجل يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، وقد يمنعها عمن يحب وعمن لا يحب.

---

(١) رواه الطبراني وغيره ـ فيما ذكره ابن رجب في «جامع العلوم والحكم» ٢/ ٣٣٣. وضعفه ابن رجب، وذكره القرطبي عند تفسير قوله تعالى في سورة الشورى ((وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ) [الشورى: ٢٧] ١٦/ ٢٨، وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية في «تفسيره» ٧/ ١٩٤ وقال سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله في تعليقه على تفسير ابن كثير في هذا الموضع: «هذا من الآثار التي لا يعلم لها سند، ومعناه صحيح».

(٢) أخرجه مسلم في الزكاة ١٧٤٦، والترمذي في الزهد ٢٢٧١، وابن ماجه في الزهد ٤١٢٨.

ويبتلي بالسراء كما يبتلي بالضراء، كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ۝١٥ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦﴾ [الفجر: ١٥، ١٦].

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله إذا أحب قوماً ابتلاهم، فمن رضي فله الرضا، ومن سخط فله السخط**»[1].

وقد قيل:

قد ينعم الله بالبلوى وإن عظمت ... ويبتلي الله بعض القوم بالنعم

﴿وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ﴾ قرأ أبو عمرو بقصر الهمزة (أتاكم) بلا مد، بمعنى: جاءكم وقرأ الباقون (آتاكم) بالمد، بمعنى: أعطاكم، وهما متلازمتان أي: ولا تفرحوا بالذي جاءكم والذي أعطاكم الله من نعم الدنيا فرح بطر واختيال وتكبر وافتخار على من دونكم، كأنكم حصلتم على ذلك بحولكم وقوتكم وسعيكم أو باستحقاقكم لذلك، كما ذكر الله عن قارون قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ۝٧٦ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ۝٧٧ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِۦ مِنَ ٱلْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا ۚ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٧٨ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ۝٧٩ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ۝٨٠ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ۝٨١﴾ [القصص: ٧٦ ـ ٨١].

أما الفرح الطبيعي الذي ليس فيه أشر ولا بطر ولا تكبر ولا اختيال مع الاعتراف بنعمة الله وشكره فلا بأس به.

---

(١) اخرجه الترمذي في الزهد ٢٣٩٦، وابن ماجه في الفتن ٤٠٣١.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ليس أحد إلا يحزن ويفرح، ولكن من أصابته مصيبة فجعلها صبراً ومن أصابه خير، فجعله شكراً»[١]

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾ المختال: المتكبر في مشيته وهيئته، والفخور: المفتخر المتعالي على الناس بقوله: أنا كذا، وأنا كذا، كما قال أحدهم:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآتٍ بما لم تستطعه الأوائل[٢]

وإذا كان الله عز وجل لا يحب من هذه صفته فهو يبغضه ويحب من كان متواضعاً في مشيته وهيئته ومقاله.

قال ابن كثير[٣] في كلامه على الآية ﴿لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ﴾.

«أي: أعلمناكم بتقدم علمنا وسبق كتابتنا للأشياء قبل كونها، وتقديرنا للكائنات قبل وجودها، لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم، فإنه لو قدر شيء لكان (ولا تفرحوا بما آتاكم)».

وقال ابن القيم:[٤] «ولما كانت المصيبة تتضمن فوات محبوب أو خوف فواته أو حصول مكروه أو خوف حصوله نبه بالأسى على الفائت على مفارقة المحبوب بعد حصوله وعلى فوته حيث لم يحصل ونبه بعدم الفرح به إذا وجد على توطين النفس لمفارقته قبل وقوعها، وعلى الصبر على مراراتها بعد الوقوع، وهذه هي أنواع المصائب فإذا تيقن العبد أنها مكتوبة مقدرة، وأن ما أصابه منها لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه هانت عليه وخف حملها، وأنزلها منزلة الحر والبرد».

فحمداً لك اللهم على أن جعلت للمسلم هذا السياج، فلا يأسى ويقنط ويحزن عند المصيبة على ما فاته، ولا يبطر ويتكبر ويغتر عند النعمة وصدق المصطفى ﷺ حيث قال: «عجباً لأمر المؤمن إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر

---

(١) أخرجه الطبري في «جامع البيان» ٢٢/ ٤٢١.
(٢) البيت لأبي العلاء المعري.
(٣) في « تفسيره» ٨/ ٥٢.
(٤) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٩-٣٩٠.

فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له»[(١)] فلك الحمد ربنا. اللهم ثبتنا على القول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

قال ابن القيم[(٢)]: «وحكمته البالغة التي منها أن لا يحزن عباده على ما فاتهم إذا علموا أن المصيبة فيه بقدره وكتابته ولابد، قد كتبت قبل خلقهم هان عليهم الفائت، فلم يأسوا عليه، ولم يفرحوا بالحاصل لعلمهم أن المصيبة مقدرة على كل ما على الأرض، فكيف يفرح بشيء قد قدرت المصيبة فيه قبل خلقه».

وإن المتأمل في أحوال الناس يجد أنه ينطبق على الكثير منهم قول الشاعر:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

فاجعل أخي الكريم وفقني الله وإياك وجميع المسلمين من الإيمان بالله عز وجل وقدره والرضا بما قدره الله سياجاً منيعًا ووقاية تقيك بإذن الله عز وجل من هذه الوساوس والخواطر السيئة وحصن قلبك من هذه الواردات بالاستقامة على طاعة الله وتعظيمه عز وجل وتعظيم أمره وذكره وشكره والاعتصام به وحده تجد بإذن الله عز وجل حلاوة الإيمان، وتشعر بالسعادة وانشراح الصدر، وتستغن بذلك بإذن الله عن كل فائت وتشكر الله عند كل نعمة.

﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِۗ﴾ كقوله في سورة النساء ﴿ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ وَيَأۡمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلۡبُخۡلِ وَيَكۡتُمُونَ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۗ﴾ [الآية: ٣٧].

والبخل في الأصل: منع الحقوق الواجبة في المال، وهو ضد الكرم قال تعالى: ﴿وَلَا يَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبۡخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ هُوَ خَيۡرٗا لَّهُمۖ بَلۡ هُوَ شَرّٞ لَّهُمۡۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُواْ بِهِۦ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ﴾ [آل عمران: ١٨٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبۡخَلۡ فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُۚ﴾ [محمد:٣٨].

والمراد بالبخل في الآية هنا- والله أعلم- ما يشمل منع الحقوق الواجبة مطلقا في المال وغيره، كقوله ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل: ٨ ـ ١٠].

---

(١) أخرجه مسلم في الزهد والرقائق ٢٩٩٩ ـ من حديث صهيب ـ رضي الله عنه.

(٢) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٨٩.

وكما جاء في الحديث: « أبخل الناس الذي يبخل بالسلام»[1] وقال ﷺ: «البخيل من إذا ذكرت عنده لم يصل علي»[2].

فهم يبخلون بإخراج الحق وقوله وفعله من مال وجاه وعلم وعمل، ويأمرون الناس بالبخل بذلك، يفعلون المنكر، ويأمرون الناس بفعله.

فجمعوا بين خصلتين ذميمتين البخل في أداء الحقوق، وأمر الناس بذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ۝٣﴾ [الماعون: ٣٤]، لأنه إذا كان لا يحث على طعام المسكين، فهو من باب أولى لا يطعم المسكين.

﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾ أي: ومن يعرض عن أمر الله وطاعته وعن الإنفاق في سبيله.

﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ قرأ نافع وأبو جعفر وابن عامر بغير «هو»، وقرأ الباقون بإثباتها. وقوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ كقول موسى عليه السلام ﴿إِن تَكْفُرُوٓا۟ أَنتُمْ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ ٱللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ ۝٨﴾ [إبراهيم: ٨] وكقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝٦٤﴾ [الحج: ٦٤] وقال تعالى: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥﴾ [فاطر: ١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨].

أي: ومن يعرض عن أمر الله وطاعته وعن الإنفاق في سبيله فإن الله هو الغني الذي غناه من لوازم ذاته، الذي له ملك السموات والأرض وخزائن السموات والأرض كلها بيده، كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [المنافقون: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ۝٢١﴾ [الحجر: ٢١].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط ٦/ ٤٠ حديث ٥٥٩١، والبيهقي في الشعب ٦/ ٤٢٩- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه وأخرجه ابن حبان في صحيحه ١٠/ ٣٤٩- حديث ٤٤٩٨ موقوفاً على أبي هريرة رضي الله عنه. وصحح الحافظ ابن حجر سند الموقوف عند شرحه حديث ٥٥٤١ في «فتح الباري»، وأخرجه أحمد ٣/ ٣٢٨ من حديث جابر رضي الله عنه أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال: إن لفلان في حائطي عذقاً، وإنه قد آذاني وشق عليَّ مكان عذقه، فأرسل إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «بعني عذقك الذي في حائط فلان»، قال: لا. قال: «فهبه لي» قال: لا. قال: «فبعنيه بعذق في الجنة» قال: لا. فقال النبي ﷺ «ما رأيت الذي هو أبخل منك إلا الذي يبخل بالسلام».

(٢) أخرجه الترمذي في الدعوات ٣٥٤٦ـ من حديث علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه. وقال: «حديث حسن صحيح غريب».

فخزائنه عز وجل ملأى، لا تغيضها كثرة الإنفاق، وليس بحاجة إلى خلقه، لا تنفعه طاعة المطيعين، ولا تضره معصية العاصين، كما قال عز وجل ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ ۗ﴾ [الزمر:٧] وكما قال عز وجل في الحديث القدسي: «يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل واحد منهم مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر»[1].

(الحميد) اسم من أسماء الله عز وجل، مشتق من الحمد على وزن «فعيل» يدل على أن له عز وجل الحمد كله، وهو وصف المحمود بصفات الكمال مع المحبة والتعظيم. قال عز وجل ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [الفاتحة: ٢]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ﴾ [الأنعام: ١]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الكهف:١]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ﴾ [القصص:٧٠]، وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ﴾ [سبأ:١].

فهو عز وجل الغني المحمود على غناه لواسع عطائه وجوده فله عز وجل الحمد على غناه، وعلى خلق السموات والأرض، وعلى ملك السموات والأرض، وعلى إنزال الكتاب وله الحمد في الدنيا والآخرة، وهو المحمود على كل حال سبحانه. وهو عز وجل الحميد لمن يستحق الحمد.

وهو الشكور سبحانه كما قال عز وجل: ﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾﴾ [فاطر: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [التغابن: ١٧].

---

(١) أخرجه مسلم في البر والصلة والآداب ٢٥٧٧، والترمذي في صفة القيامة ٢٤٩٥، وابن ماجه في الزهد ٤٢٥٧- من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

الفوائد والعبر:

١ ـ إثبات قدر الله ـ عز وجل ـ السابق، وأن ما يقع من مصائب في الأرض والأنفس، وما يجري في الكون من حركة أو سكون كل ذلك بتقدير سابق في الأزل قبل خلق الخليقة.

٢ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة حيث قدر مقادير كل شيء وجاءت وفق ما قدر، وذلك عليه يسير لأنه لا يعجزه شيء.

٣ ـ أن الله ـ عز وجل ـ قدر مقادير كل شيء وأخبرنا بذلك لئلا يحزن الإنسان على ما فاته ولا يفرح فرح بطر واختيال بما أعطي، وليعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه.

٤ ـ سمو مبادئ الدين الإسلامي وحفظه أتباعه من الأسى والفرح المفرطين حفاظاً على الاعتدال النفسي.

٥ ـ نفي محبة الله لمن كان مختالاً فخوراً وإثبات محبته لمن كان مؤمناً متواضعاً.

٦ ـ ذم البخل وأهله الذين يمنعون الحقوق الواجبة عليهم في المال وغيره ويحضون الناس على ذلك.

٧ ـ التعريض بذم من تولى عن طاعة الله والإنفاق في سبيله والوعيد له.

٨ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الغني» وأنه عز وجل غني عمن أعرض عن عبادته وطاعته وعن جميع خلقه.

٩ ـ إثبات اسم الله ـ عز وجل ـ «الحميد» وصفة الحمد والكمال له عز وجل وأنه المحمود في كل حال وعلى كل حال.

١٠ ـ في اقتران اسمه عز وجل «الغني» و«الحميد» زيادة كماله عز وجل إلى كمال، لأن «الغني» ذو الغنى التام، المحمود على غناه لجوده وكرمه وعظيم فضله وواسع إحسانه.

﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾.

صلة الآية بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآية السابقة أنه الغني الحميد عمن تولى وأعرض، ثم ذكر في هذه الآية أنه عز وجل أقام الحجة على الخلق بإرسال الرسل بالبينات وإنزال الكتاب والميزان.

قوله ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾ اللام: للقسم و« قد» حرف تحقيق أي: والله لقد أرسلنا رسلنا بالبينات، وفي إضافة الرسل إلى نفسه ـ عز وجل ـ بقوله (رسلنا) تشريف وتكريم لهم.

والإرسال بعث الشخص برسالة إلى آخرين و (رسلنا) جمع رسول والرسول من عند الله عز وجل هو من أوحى الله إليه بشرع وأمره بتبليغه. وعدد الرسل ثلاثمائة وثلاثة عشر جماً غفيراً، ذكر في القرآن الكريم منهم خمسة وعشرون رسولا، منهم ثمانية عشر رسولاً ذكروا في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنعام: ٨٣ ـ ٨٦].

ومنهم إدريس وذو الكفل عليهما السلام قال تعالى: ﴿وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِّنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥] وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾﴾ [مريم: ٥٦].

ومنهم هود عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٥٠] ومنهم صالح عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٦١]

ومنهم شعيب عليه السلام، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ﴾ [هود: ٨٤].

ومنهم وأولهم آدم عليه السلام،

ومنهم آخرهم وخاتمهم وأفضلهم محمد ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال الناظم:

في تلك حجتنا منهم ثمانية من بعد عشر ويبقى سبعة وهمو

إدريس هود شعيب صالح وكذا ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

عن أبي ذر رضي الله عنه قال قلت يا رسول الله كم الأنبياء؟ قال: «مائة ألف وأربعة وعشرون ألفا. قلت: يا رسول الله كم الرسل منهم؟ قال ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير. قلت: يا رسول الله من كان أولهم؟ قال: آدم. قلت: يا رسول الله نبي مرسل؟ قال: نعم خلقه الله بيده، ونفخ فيه من روحه، ثم سواه قبلاً ثم قال: يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث، ونوح، وخنوخ، وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، وأربعة من العرب: هود، وصالح وشعيب، ونبيك يا أبا ذر، وأول نبي من أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول النبيين آدم وآخرهم نبيك»[1].

(بالبينات) أي: بالآيات الكونية الواضحات، والمعجزات والحجج الباهرات والدلائل القاطعات.

كما قال تعالى فيما حكاه عن موسى وفرعون ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٠٥﴾ قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٠٦﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿١٠٧﴾ وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِيَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [الأعراف: ١٠٥ ـ ١٠٨].

﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ كقوله في سورة الشورى ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ﴾ [الشورى: ١٧].

وقوله (وأنزلنا) يدل على علو الله عز وجل على خلقه، لأن الإنزال يكون من أعلى إلى أسفل. كما يدل على أن كتب الله عز وجل منزلة و «ال» – في «الكتاب» للجنس، أي: جنس الكتب، والكتاب مصدر على وزن « فعال» بمعنى « مفعول» أي: مكتوب. والمراد بذلك الكتب السماوية وما فيها من البينات والآيات الشرعية.

(والميزان) أي: والعدل والحق كقوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ ﴿٧﴾﴾ [الرحمن: ٧]

أي: وأنزلنا معهم العدل والحق الذي أمر الله به كما قال عز وجل ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] والذي قامت به السموات والأرض، العدل في الأقوال

---

(١) ذكره ابن كثير في «تفسيره » ٢/ ٤٢٢-٤٢٦- من رواية ابن مردويه، ومن رواية الأجري، وأخرجه احمد ٥/ ٢٦٥-٢٦٦- بنحوه من حديث طويل عن أبي أمامة ـ رضي الله عنه ـ، وفيه: عدد الرسل ثلاثمائة وخمسة عشر جماً غفيراً.

والأفعال والمنهج والسلوك، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ [الانعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿۞إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

قال ابن كثير[١]: (والميزان) وهو العدل قاله مجاهد وقتادة وغيرهما، وهو الحق الذي تشهد به العقول الصحيحة المستقيمة المخالفة للآراء السقيمة، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ [هود: ١٧]، وقال تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]».

وقال السعدي[٢]: «(والميزان) وهو العدل في الأقوال والأفعال. والدين الذي جاءت به الرسل كله عدل وقسط في الأوامر والنواهي، وفي معاملات الخلق، وفي الجنايات والقصاص والحدود والمواريث وغير ذلك».

﴿لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ اللام لام التعليل، أي: أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان لأجل أن يقوم الناس بالقسط، أي: بالحق والعدل في الأقوال والأفعال والمنهج والسلوك وذلك مضمون ما جاءت به الرسل ونزلت به الكتب. قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقاً في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٤٣].

القسط والعدل في حق الله، كما قال ﷺ لمعاذ: «أتدري ما حق الله على العباد وما حق العباد على الله؟ قال الله ورسوله أعلم. قال: حق الله على العباد أن لا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً»[٣].

ولهذا قال ابن القيم[٤]: «ومن أعظم القسط التوحيد، وهو رأس العدل وقوامه، وإن الشرك لظلم عظيم، فالشرك أظلم الظلم، والتوحيد أعدل العدل فما كان أشد منافاة لهذا المقصود فهو أكبر الكبائر، وتفاوتها في درجاتها بحسب منافاتها له، وما كان

---

(١) في: «تفسيره» ٨/ ٥٣.

(٢) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠١.

(٣) أخرجه البخاري في التوحيد ـ ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى التوحيد ٧٣٧٣، ومسلم في الإيمان ـ الدليل على ان من مات على الإيمان دخل الجنة قطعاً ٣٠، والترمذي في الإيمان ٢٦٤٣، وابن ماجه في الزهد ٤٢٩٦ ـ من حديث معاذ ـ رضي الله عنه.

(٤) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٠.

أشد موافقة لهذا المقصود فهو أوجب الواجبات وأفرض الطاعات».

والقسط في حق العباد كما قال ﷺ: «من أحب أن يزحزح عن النار ويدخل الجنة فلتأته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه»[١].

قوله ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ﴾. أي: وأوجدنا الحديد وأودعنا مادته في الأرض.

﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ البأس: الشدة والقوة قال تعالى: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ [الفتح: ١٦]، أي: أولي شدة وقوة. وقال تعالى: ﴿وَحِينَ الْبَأْسِ﴾ [البقرة: ١٧٧] أي: وحين الشدة. فالحديد فيه شدة وقوة شديدة حيث يصنع منه السلاح بشتى أشكاله وأنواعه كالسيوف والبنادق والسنان والنصال والدروع، وغير ذلك من وسائل الحرب، وأدوات القتال، كالطائرات والسفن الحربية والمدرعات وحاملات الجنود، والصواريخ والقنابل وغير ذلك.

﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ أي: وفيه منافع للناس دينية إذا استغل لنصرة الحق وردع من خالفه وعانده وضاده قال ﷺ: «**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري ومن تشبه بقوم فهو منهم**»[٢].

أما إذا استغل الحديد وما فيه من البأس الشديد ضد الحق فإنه من أعظم وسائل الهدم والتخريب وما شقيت الإنسانية إلا حين استغل الحديد وما فيه من البأس لتدمير الإنسانية فصنعت منه الأسلحة الفتاكة التي تقضي على الأخضر واليابس وتهلك الحرث والنسل وتدع الديار بلاقع في غيبة من دين السلام والرحمة دين الإسلام الحنيف، بل وفي غيبة من الضمير الإنساني فأصبحت الدول تتبارى وتفتخر بامتلاك وسائل التدمير ـ والله المستعان.

وفيه منافع دنيوية كثيرة للناس، فمنه القدور التي يطبخون بها والأواني التي يشربون بها والأدوات التي يستعملونها في منازلهم وحراثاتهم من الفأس والقدوم

---

(١) أخرجه مسلم في الإمارة ـ وجوب الوفاء ببيعة الأول فالأول ١٨٤٤، وأبو داود في الفتن والملاحم ٤٢٤٨، والنسائي في البيعة ٤١٩١، وابن ماجه في الفتن ٣٩٥٦ـ من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد ٢/ ٥٠، ٩٢، وذكره البخاري مختصرًا في الجهاد والسير ـ باب ما قيل في الرماح قال: ويذكر عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري». انظر «فتح الباري» ٦/ ٩٨.

والمنشار والإزميل وغيرها وآلات التبريد والتدفئة والآلات التي يركبونها ويسافرون عليها وينقلون عليها بضائعهم جواً وبراً وبحراً من الطائرات والسيارات والبواخر وغير ذلك.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ الواو: عاطفة واللام: للتعليل والجملة متعلقة بـ (أنزلنا) أو بما قبله و «من» موصولة بمعنى الذي أي: وليعلم الله الذي ينصره ورسله بالغيب. علم ظهور يترتب عليه الثواب والعقاب، أما علم كونه فهو معلوم له ـ عز وجل ـ قبل خلق السموات والأرض، وعطف (رسله) على ضميره ـ عز وجل ـ وأضافهم إليه تشريفاً وتكريماً لهم.

وقوله (بالغيب) جار ومجرور متعلق بقوله (ينصره) أي: أنه عز وجل أرسل الرسل بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، وأنزل الحديد فيه بأس شديد ليعلم الذي ينصره ورسله بالغيب، أي: الذي في نيته في عمله وقتاله وحمله للسلاح إرادة نصرة دين الله ورسله ـ حتى وإن غاب عن أعين الناس ـ ممّن لم يكن كذلك كما في حديث أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابيا جاء إلى النبي ﷺ فسأله عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل ليرى مكانه، أيُّ ذلك في سبيل الله؟ فقال ﷺ: **«من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله»**[1].

فهو عز وجل لا تخفى عليه خافية، والسر عنده علانية، كما قال عز وجل ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [هود: ١٢٣].

وأيضاً: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ أي: وإن لم يره، كما قال تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ﴾ [المائدة: ٩٤] وفي الحديث: «الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[2].

﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾.

ذكر الله عز وجل أنه أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس، وأنه عز وجل يعلم

---

(١) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٢٨١٠، وفي التوحيد ٧٤٥٨، ومسلم في الإمارة ١٩٠٤، وأبو داود في الجهاد ٢٥١٧، والنسائي في الجهاد ٣١٣٦، والترمذي في فضائل الجهاد ١٦٤٦، وابن ماجه في الجهاد ٢٧٨٣.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٥٠، ومسلم في الإيمان ٩، ١٠، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٤٩٩١، وابن ماجه في المقدمة ٦٤- من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ، وأخرجه مسلم ٨، وأبو داود في السنة ٤٦٩٥، والنسائي ٤٩٩٠، وابن ماجه في المقدمة ٦٣ من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

من ينصره ورسله بالغيب، ثم ختم الآية ببيان أنه عز وجل هو القوى العزيز فلا قوة فوق قوته، ولا عزة فوق عزته. وإنما شرع الجهاد لنصرة دينه للابتلاء، كما قال عز وجل: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤].

فالحديد وما فيه من بأس شديد وقوة ليس بشيء عند قوته وعزته عز وجل، فإن سُخر هذا الحديد لنصرة الله ورسله فصاحبه هو المنصور بقوة الله عز وجل وعزته، وإن سُخر هذا الحديد للحرب على الله ورسله فصاحبه المهزوم المغلوب بقوة القوي العزيز سبحانه.

ومن حمل السلاح وقاتل بنية صالحة لتكون كلمة الله هي العليا فهو المنصور بقوة القوي العزيز سبحانه، ومن حمل السلاح وقاتل لغير ذلك فالله غني عنه وعن قتاله لأنه عز وجل القوى العزيز.

و«القوي» و«العزيز» من أسماء الله عز وجل على وزن «فعيل»، «القوي» مشتق من القوة يدل على كمال قوته عز وجل، وأنه ذو القوة الشديدة كما قال ـ عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ۝٥٨﴾ [الذاريات: ٥٨] أي: ذو القوة والقهر والغلبة الذي لايغالب، و « المتين» شديد القوة.

و«العزيز» مشتق من العزة يدل على كمال عزته ـ عز وجل، وأن له عز وجل كمال العزة بأنواعها الثلاثة: عزة الامتناع، وعزة القهر، وعزة القوة[١].

وحيث قرن ـ عز وجل ـ بين اسميه « القوي»، و«العزيز» فالأولى أن يحمل معنى «العزيز» هنا على المعنيين الأوليين، وهما: عزة الامتناع، وعزة القهر والغلبة ويؤخذ معنى القوة من اسمه «القوي» لئلا يقال بالترادف أو التكرار.

فله ـ عز وجل ـ القوة والعزة بكمالهما، ومن قوته وعزته أنه أنزل الحديد الذي فيه البأس الشديد، وأنه قادر على الانتصار من أعدائه، لكنه يبتلي أولياءه بأعدائه ليعلم من ينصره بالغيب.

وقرن ـ عز وجل ـ بين الكتاب والحديد لأن بهذين الأمرين ينصر الله دينه ويعلي كلمته وبهما يقوم القسط والعدل، ففي الكتاب القوة المعنوية والحجة والبرهان، وفي الحديد القوة المادية قوة السيف والسنان.

---

(١) راجع الكلام على قوله في أول السورة: (وهو العزيز الحكيم).

الفوئد والعبر:

١ ـ إقامة الحجة على الناس بإرسال الرسل بالآيات البينات الكونية وإنزال الكتب والآيات الشرعية والعدل والإقسام على ذلك وتأكيده والامتنان به على الخلق.

٢ ـ تشريف الله ـ عز وجل ـ رسله بإضافتهم إلى نفسه بقوله (رسلنا) وبقوله (ورسله).

٣ ـ إثبات علو الله ـ عز وجل ـ على خلقه لقوله (وأنزلنا) والإنزال إنما يكون من علو إلى أسفل وتعظيمه ـ عز وجل لنفسه.

٤ ـ أن القرآن الكريم منزل من عند الله ـ عز وجل ـ وليس بمخلوق كما تقول المعتزلة، وكذا غيره من كتب الله ـ عز جل.

٥ ـ وجوب القيام بالعدل والقسط في الأقوال والأعمال والأحكام لأن الله ـ عز وجل ـ أنزله وأمر به وأقام عليه الدين وأمر السموات والأرض.

٦ ـ قدرة الله ـ عز وجل ـ التامة ونعمته على الخلق في إيجاد مادة الحديد في الأرض لما فيه من قوة في الحرب ومنافع للناس لا تحصى.

٧ لابد لإقامة الدين والعدل والقسط من قوة معنوية من الإيمان والحجة والبرهان، وقوة مادية من الحديد والسيف والسنان.

٨ ـ الإشارة إلى أن الحديد قد يكون مصدر قلق وخوف وتخريب وإفساد إذا لم يحسن استخدامه لما فيه من البأس الشديد.

٩ ـ علم الله ـ عز وجل ـ بمن ينصره ورسله بالغيب وإن لم يره، وإن غاب عن أعين الناس.

١٠ ـ إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ وهما «القوي» و «العزيز» وأنه عز وجل القوي الذي لا يغالب له عزة الامتناع، وعزة القهر، وعزة القوة.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَـَٔاتَيْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٢٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٨﴾ لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾.

صلة الآيات بما قبلها:

ذكر الله عز وجل في الآيات السابقة أنه أرسل رسله بالبينات وأنزل معهم الكتاب والميزان، ثم ذكر هنا أن ممن أرسلهم نوحاً وإبراهيم وأنه جعل في ذريتهما النبوة والكتاب وأنه قفى على آثارهم برسله، وقفى على آثار رسله بعيسى بن مريم عليه وعليهم الصلاة والسلام.

قوله ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَٰهِيمَ﴾ الواو للاستئناف، واللام للقسم و«قد» للتحقيق، أي: والله لقد أرسلنا نوحاً وإبراهيم.

و«نوح» هو أول الرسل وهو نوح بن لامَكَ بن متُوشلخَ بن خنوخَ ـ وهو إدريس[1].

و«إبراهيم» هو خليل الرحمن أبو الأنبياء عليه وعليهم أفضل الصلاة والسلام وهو إبراهيمُ بنُ تارخَ بن ناحورَ بن ساروغَ ـ ينتهي نسبه إلى سام بن نوح ـ عليهما السلام[2].

﴿وَجَعَلْنَا فِى ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ الواو: عاطفة، و « جعلنا» بمعنى: «صيرنا فتنصب مفعولين، الأول هنا قوله (النبوة)»، والثاني: قوله «في ذريتهما» و«الكتاب» معطوف على النبوة و«ال» في الكتاب للجنس، أي: جنس الكتب السماوية أي: جعلنا كوناً وشرعاً في ذريتهما الأنبياء والكتب السماوية، فكل من جاء بعد نوح من الأنبياء والرسل هم من ذرية نوح عليه السلام بما فيهم إبراهيم عليه السلام، وكل من جاء بعد إبراهيم من الأنبياء والرسل فهم من ذريته وآخرهم وخاتمهم نبينا محمد عليه وعليهم الصلاة والسلام، كما قال

(١) انظر «البداية والنهاية» ١/ ٢٣٧. وإدريس المذكور في نسب نوح ليس بنبي كما بين ذلك ابن تيمية ـ رحمه الله ـ وعلى هذا فأول الرسل نوح ـ عليه السلام .

(٢) انظر «البداية والنهاية» ١/ ٣٢٤

تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ﴾ [العنكبوت: ٢٧]».

﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ﴾ أي: فمن ذريتهما وقومهما وممن أرسلنا إليهم الرسل وأنزلنا عليهم الكتب من هو (مهتد) إلى الصراط المستقيم، عرف الحق واتبعه.

﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ﴾ أي: وكثير منهم خارجون عن طاعة الله عز وجل.

فالكثرة الكاثرة من الخلق ليسوا على الحق، بل خارجون عن الحق وعن طاعة الله عز وجل لهذا يجب عدم الاغترار بما عليه الأكثرون قال الله عز وجل: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يوسف: ١٠٣]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾﴾ [الأنعام: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ [ص: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾﴾ [سبأ: ١٣].

وقد أمر الله عز وجل آدم بإخراج بعث النار من ذريته من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعين إلى النار وواحداً إلى الجنة[١].

وقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لا تغتر بالباطل لكثرة الهالكين ولا تستوحش من الحق لقلة السالكين».

وقال الشاعر:

والناس ألف منهم كواحد   وواحد كالألف إن أمر عنا[٢]

فالعبرة بالكيف، لا بالكم، وإن أكثر أهل النار الإمَّعة الذي يقول: رأيت الناس يقولون شيئاً فقلته.

﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا﴾. الضمير في قوله ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم﴾ يعود إلى نوح وإبراهيم والأنبياء من ذريتهما أو يعود على نوح وإبراهيم، وجمع الضمير العائد إليهما لأن أقل الجمع اثنان، ومثل هذا قوله تعالى بعد أن ذكر حكم داود وسليمان: ﴿وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [الأنبياء: ٧٨].

والمعنى: ثم أتبعناهم برسلنا وجعلناهم يقفون آثارهم مأخوذ من القفا، أي:

---

(١) أخرجه البخاري في التفسير ٤٣٧٢، ومسلم في الإيمان ٣٢٧- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) البيت لابن دريد ضمن مقصورته.

يأتون بعدهم.

﴿وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ﴾ أي: وقفينا على رسل بني إسرائيل بعيسى بن مريم وجعلناه يقفوهم ويتبعهم ويأتي بعدهم، ويكون آخرهم، وهو الذي بشر بمحمد ﷺ بعده، كما قال تعالى عنه أنه قال: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

قال السعدي[1] «خص الله عيسى عليه السلام، لأن السياق مع النصارى الذين يزعمون اتباع عيسى عليه السلام».

ونسب عيسى عليه السلام لأمه لأنه ليس له أب، وإنما نفخ الله عز وجل فيها من روحه، ولبيان كمال قدرة الله عز وجل حيث خلقه من أنثى بلا ذكر، ولهذا نجد في القرآن الكريم التصريح باسم عيسى منسوباً إلى أمه، بينما لم ينسب غيره من الأنبياء ولا لآبائهم.

﴿وَءَاتَيْنَـٰهُ ٱلْإِنجِيلَ﴾ أي: وأعطيناه الإنجيل، وهو الكتاب الذي أنزله الله على عيسى بن مريم وأوحاه إليه.

﴿وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ﴾ وهم الحواريون، كما قال تعالى: ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [الصف: ١٤].

﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ أي: رقة وخشية ولينا وشفقة والرأفة أرق وألطف وأخص من الرحمة، كما قال تعالى: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَـٰرَىٰ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [المائدة: ٨٢].

قال السعدي[1]: «ولهذا كان النصارى ألين من غيرهم قلوباً، حين كانوا على شريعة عيسى عليه السلام».

أما الآن فلا ينبغي أن نخدع بأخلاقهم، فإنهم وإن ظهر منهم شيء من اللين وحسن الخلق، فهو كما يقال أخلاق تجارية، يريدون بذلك الدعوة للنصرانية وتحبيبها للناس ببذل الخُلق والمال وغير ذلك، وحملاتهم وحروبهم الصليبية وتمالؤهم مع اليهود ضد الإسلام والمسلمين منذ القدم إلى يومنا هذا تبين حقيقة عداوتهم للإسلام والمسلمين.

---

(١) في «تيسير الكريم الرحمن» ٧/٣٠٣.

ومما يؤسف له أنه في حين نجد من بعض النصارى اللين والخلق الحسن ـ ولو تصنعاً وتكلفاً ـ لكسب قلوب الناس نجد من كثير من المسلمين الغلظة والجفاء والفظاظة مما ينفر الآخرين، بل وصل الحال ببعض المنتسبين إلى الإسلام إلى الخروج عن حكم الإسلام بالتكفير والتفجير واستحلال دماء المعصومين من المسلمين وغيرهم وأموالهم فشوهوا صورة الإسلام. وليس أحد أولى من المسلمين باللين والرحمة وحسن الخلق قال تعالى لنبيه ﷺ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. وقال تعالى له: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا﴾ «رهبانية» منصوب على الاشتغال بفعل محذوف يفسره «ابتدعوها» أي: استحدثوها من تلقاء أنفسهم، وهي الانقطاع للعبادة والانفراد في الأديرة والسياحة في الأرض، والمبالغة في التقشف.

﴿مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ أي: ما فرضناها وما أوجبناها عليهم، وما شرعناها لهم، وإنما هم التزموها من تلقاء أنفسهم.

﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ «إلا» للحصر أي: إنما كتبنا وفرضنا عليهم وشرعنا لهم أن يبتغوا بأعمالهم رضوان الله عز وجل، لا أن يشددوا على أنفسهم بما لم يشرعه الله عز وجل.

ويحتمل أن معنى: ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ أنهم إنما ابتدعوا هذه الرهبانية التي لم يفرضها الله عليهم ولم يشرعها لهم قاصدين بذلك ابتغاء رضوان الله، وما كل مريد للحق يوفق إليه: كما قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه. وقد قال ابن القيم رحمه الله [١] «إن الشيطان قد يأمر بسبعين باباً من أبواب الخير، إما ليتوصل بها إلى باب واحد من الشر، وإما ليفوت بها خيراً أعظم من تلك السبعين باباً وأجل وأفضل».

وعلى هذا يكون قوله ﴿إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ﴾ منصوباً على الاستثناء المنقطع، وصوب هذا ابن القيم وقال[٢]: «أي: لم يفعلوها ولم يبتدعوها إلا لطلب رضوان الله، ودل

---

(١) انظر: «التفسير القيم» ص ٦١٣.
(٢) انظر «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩١ ـ ٣٩٢.

على هذا قوله (ابتدعوها) ثم ذكر الحامل لهم والباعث على ابتداع هذه الرهبانية وأنه هو طلب رضوان الله».

﴿فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ أي: فما قاموا بما التزموه حق القيام، ولم يعطوه حقه من الرعاية والاهتمام والعناية. وهكذا فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى.

قال ابن القيم[١]: «ثم ذمهم بترك رعايتها إذ من التزم لله شيئاً لم يلزمه الله إياه من أنواع القرب لزمه رعايته وإتمامه حتى ألزم كثير من الفقهاء من شرع في طاعة مستحبة بإتمامها وجعلوا التزامها بالشروع فيها كالتزامها بالنذر، كما قال أبو حنيفة ومالك وأحمد في إحدى الروايتين عنه، وهو إجماع- أو كالإجماع- في أحد النسكين. قالوا الالتزام بالشروع أقوى من الالتزام بالقول، فكما يجب عليه رعاية ما التزمه بالنذر وفاءً، يجب عليه رعاية ما التزمه بالفعل إتماماً.. والقصد أن الله سبحانه وتعالى ذم من لم يرع قربة ابتدعها لله تعالى حق رعايتها. فكيف بمن لم يرع قربة شرعها الله لعباده وأذن بها وحث عليها».

وقال ابن كثير[٢]: «وهذا ذم لهم من وجهين، أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثاني: في عدم قيامهم بما التزموه، مما زعموا أنه قربة يقربهم إلى الله عز وجل»

ويؤخذ من هذا تحريم الابتداع في الدين، وأن الزيادة في الدين كالنقص منه، بل أشد، وحرمة التشديد على النفس، بما لم يأمر به الله، وأن النصارى في هذا سلكوا مسلك اليهود، الذين شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم، ووضعت عليهم الآصار والأغلال، كما في قصة القتيل في سورة البقرة، وكما في تحريمهم الحلال، وغير ذلك.

وقد سلك أناس من هذه الأمة مسلك التشديد على أنفسهم مصداقاً لقوله ﷺ «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه. قالوا يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن؟»[٣] يعني هم اليهود والنصارى حتى إن هذا الأمر وجد في عهد النبوة ـ وما بالعهد من قدم- فحرم أناس على أنفسهم

---

(١) انظر: « بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٢.

(٢) في «تفسيره» ٨/ ٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في الاعتصام بالكتاب والسنة ٧٣٢٠، ومسلم في العلم ٢٦٦٩- من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

النوم والإفطار وتزوج النساءِ فجاء إليهم النبي ﷺ: فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الدين يسر ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا، وقاربوا وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة»(٢).

وقال ﷺ: « هلك المتنطعون، قالها ثلاثاً»(٣).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: كنت أصوم الدهر، وأقرأ القرآن كل ليلة، فإما ذكرت للنبي ﷺ، وإما أرسل إليّ، فأتيته فقال لي: «ألم أخبر أنك تصوم الدهر وتقرأ القرآن كل ليلة؟» فقلت: بلى يا نبي الله، ولم أرد بذلك إلا الخير. قال: «فإن بحسبك أن تصوم من كل شهر ثلاثة أيام» قلت: يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً. قال: فصم صوم داود نبي الله ﷺ، فإنه كان أعبد الناس» قال: قلت، يا نبي الله وما صوم داود؟ قال: «كان يصوم يوماً ويفطر يوماً. قال: واقرأ القرآن في كل شهر» قال: قلت، يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك: قال: « فاقرأه في كل عشرين» قال: قلت، يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك قال: « فاقرأه في كل عشر» قال: قلت يا نبي الله إني أطيق أفضل من ذلك. قال: «فاقرأه في كل سبعٍ ولا تزد على ذلك، فإن لزوجك عليك حقاً، ولزورك عليك حقاً، ولجسدك عليك حقاً، قال: فشدّدت فشدّد عليَّ. قال: وقال لي النبي ﷺ: «**إنك لا تدري لعلك يطول بك عمر**» قال: فصرت إلى الذي قال لي النبي ﷺ، فلما كبرت وددت أني كنت قبلت رخصة نبي الله ﷺ»(٤).

ورُويَ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه دخل المسجد فإذا شباب جالسون فيه،

---

(١) أخرجه البخاري في النكاح ٥٠٦٣، ومسلم في النكاح ١٤٠١، والنسائي في النكاح ٣٢١٧- من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في الإيمان ٣٩، ومسلم في صفة القيامة ٢٨١٦، والنسائي في الإيمان وشرائعه ٥٠٣٤، وابن ماجه في الزهد ٤٢٠١.

(٣) أخرجه مسلم في العلم ٢٦٧٠، وأبو داود في السنة ٤٦٠٨- من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤) أخرجه البخاري في الجمعة ١١٣١، ومسلم في الصيام ١١٥٩، وأبو داود في الصلاة ١٣٨٩، والنسائي في قيام الليل وتطوع النهار ١٦٣٠، والترمذي في الصوم ٧٧٠، وابن ماجه في الصيام ١٧١٢.

فقال: «من ينفق عليكم؟ فقالوا جيراننا أو نحو ذلك فقال: انتظروا حتى آتيكم، فجاء بالدرة رضي الله عنه وأخرجهم من المسجد، وقال: اخرجوا فإن السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة».

فالدين الإسلامي دين ودنيا، عبادة وعمل، لا رهبانية فيه ولا تصوف، ولا مكان فيه للتنطع والتكلف، وفي الأثر «لا رهبانية في الإسلام».

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً جاءه فقال: أوصني: فقال: «سألت عما سألت عنه رسول الله ﷺ من قبلك أوصيك بتقوى الله، فإنه رأس كل شيء، وعليك بالجهاد فإنه رهبانية الإسلام، وعليك بذكر الله، وتلاوة القرآن، فإنه روحك في السماء، وذكرك في الأرض»[1].

﴿فَـَٔاتَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنۡهُمۡ﴾ أي: من أتباع عيسى بن مريم عليه السلام من النصارى وهم الحواريون.

﴿أَجۡرَهُمۡۖ﴾ أي: ثواب عملهم على إيمانهم واتّباعهم لعيسى بن مريم عليه السلام، وما فيهم من الرأفة والرحمة.

وآتينا الذين آمنوا منهم أيضًا بمحمد ﷺ ممن أدركوا بعثته ﷺ أجرهم على ذلك قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران، وعبد مملوك أدى حق الله وحق مواليه، فله أجران، ورجل أدب أمته فأحسن تأديبها، ثم أعتقها وتزوجها فله أجران**»[2].

﴿وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ﴾ أي: خارجون عن طاعة الله عز وجل مكذبون بعيسى وبمحمد عليهما الصلاة والسلام. وهذا يدل على شؤم الابتداع في الدين، وأنه سبب

---

(١) اخرجه احمد ٣/ ٨٢.

(٢) أخرجه البخاري في الجهاد والسير ٣٠١١، ومسلم في الإيمان ١٥٤، وأبو داود في النكاح ٢٠٥٣، والنسائي في النكاح ٣٣٤٤، والترمذي في النكاح ١١١٦، وابن ماجه في النكاح ٢٩٥٦.

للخروج عن الطاعة والضلال.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «يا» حرف نداء، و « أي» منادى مبني على الضم في محل نصب و «ها» للتنبيه و « الذين» صفة لـ «أي» أو بدل و «آمنوا» صلة الموصول، أي: يا أيها الذين صدقوا بقلوبهم وألسنتهم.

﴿ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ﴾ بجوارحكم، أي: اجعلوا بينكم وبين عذاب الله وقاية بفعل أوامره واجتناب نواهيه.

وأصل «تقوى»: «وقوى» فقلبت الواو تاء لعلة تصريفية، وهي مأخوذة من الوقاية، ومن ذلك أخذ الوقاية من البرد ومن الحر ومن الشوك، وأهمها وأعظمها ورأسها أخذ الوقاية من عذاب الله عز وجل.

قال الشاعر:

خـــل الـــذنوب كبيرهـــا وصـــغيرها ذاك التقـــى

كـــن مثـــل مـــاش فـــوق أر ض الشـــوك يحـــذر مـــا يـــرى

لا تحقـــرن صـــغيرة إن الجبـــال مـــن الحصـــى

﴿وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ﴾ أي: وصدقوا برسوله محمد ﷺ وذلك بشهادة أن محمداً رسول الله وطاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر واجتناب ما نهى عنه وزجر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فأمر أولاً بتقوى الله بشهادة أن لا إله إلا الله وأداء مقتضياتها بفعل ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه، ثم عطف على ذلك الأمر بالإيمان بالرسول ﷺ وذلك بشهادة أن محمداً رسول الله ﷺ وأداء مقتضاها.

﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ الكفل النصيب، أي: يعطكم نصيبين من رحمته، ويضاعف أجركم.

وقد حمل بعض أهل العلم الآية على مؤمني أهل الكتاب منهم ابن عباس رضي الله عنهما[1] واختار هذا ابن جرير الطبري وكثير من المفسرين[2].

---

(١) أخرجه النسائي في آداب القضاة- تأويل قول الله عز وجل: (ومن لم يحكم بما أنزل الله فاولئك هو الكافرون) ٨/ ٢٣١-٢٣٣، والطبري في « جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٥

(٢) انظر: «جامع البيان» ٢٢/ ٤٣٥-٤٤١ « الوسيط» ٤/ ٢٥٦، « زاد المسير» ٧/ ٣١٢، « الجامع لأحكام القرآن» ١٧/ ١٧٢.

ويؤيد هذا قوله تعالى في سورة القصص: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِهِۦ هُم بِهِۦ يُؤْمِنُونَ ۝ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟﴾ [الآيات: ٥٢-٥٤]

وحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « **ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بي فله أجران**» الحديث[١].

وقال بعض أهل العلم إن الآية في المؤمنين من هذه الأمة.

قال سعيد بن جبير رحمه الله: «لما افتخر أهل الكتاب بأنهم يؤتون أجرهم مرتين أنزل الله هذه الآية في حق هذه الأمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾» أي: ضعفين، وزادهم ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ يعني: هدى يتبصر به من العمى والجهالة، ﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾، ففضلهم بالنور والمغفرة»[٢].

وهكذا رُويَ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن الآية في المؤمنين من هذه الأمة[٣].

قال ابن كثير[٤]: « وهذه ا لآية كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾ [الأنفال: ٢٩].

وقال أيضاً: «ومما يؤيد هذا القول ـ حديث ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مثلكم ومثل اليهود والنصارى كمثل رجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي من صلاة الصبح إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ ألا فعملت اليهود. ثم قال: من يعمل لي من نصف النهار إلى صلاة العصر على قيراط؟ ألا فعملت النصارى. ثم قال: من يعمل لي من صلاة العصر إلى غروب الشمس على قيراطين قيراطين؟ ألا فأنتم الذين عملتم. فغضبت النصارى واليهود، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاء، قال: هل ظلمتم من أجركم شيئاً؟ قالوا: لا . قال: فإنما هو فضلي أوتيه من**

---

(١) سبق ذكر الحديث بتمامه وتخريجه قريباً.
(٢) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/٤٣٦.
(٣) أخرجه الطبري في « جامع البيان» ٢٢/٤٣٨.
(٤) في « تفسيره» ٨/٥٨.

أشاء»[١].

ومثل هذا ما جاء في حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: «**مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر قوماً يعملون له عملا إلى الليل فعملوا إلى نصف النهار، فقالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك، فاستأجر آخرين، فقال: أكملوا بقية يومكم، ولكم الذي شرطت، فعملوا حتى حين صلاة العصر، قالوا: لك ما عملنا فاستأجر قوماً، فعملوا بقية يومهم حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين**»[٢].

ولا شك أن ظاهر الآية أنها في المؤمنين من هذه الأمة وعلى هذا يدل قوله في الآية بعدها ﴿لِئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ الآية.

ومن آمن من أهل الكتاب بمحمد ﷺ وما بعثه الله به من الوحي فهو داخل ضمن مؤمني هذه الأمة فعمله مضاعف لكونه من مؤمني هذه الأمة، ولكونه آمن برسوله وآمن بمحمد ﷺ كما دل على ذلك حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

أما ما جاء في حديث ابن عمر، وما في معناه[٣] فالمراد باليهود والنصارى فيه من مات منهم على دينه قبل أن ينسخ أو قبل بعثة محمد ﷺ إذ لا خلاف في أن من أدرك منهم الإسلام ودخل فيه فهو من المؤمنين من هذه الأمة، بل إن من أهل الكتاب من كان له قدم راسخ في الإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وغيره. وعلى هذا فيدخل تحت الأمر في الآية من آمن بمحمد ﷺ من أهل الكتاب وغيرهم.

﴿مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ المراد هنا من رحمته المخلوقة التي منها الجنة والمطر كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «وأنت الجنة رحمتي أرحم بك من أشاء»[٤].

وقال تعالى عن المطر: ﴿فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [الروم: ٥٠].

﴿وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ أي: ويجعل لكم نوراً معنوياً وحسياً (تمشون به) مشياً معنوياً وحسياً في الدنيا والآخرة في الحياة، وبعد الممات في البرزخ وفي عرصات القيامة نوراً في قلوبهم وعلماً وهدى يهتدون به إلى معرفة الحق والعمل به، وإلى ما

---

(١) أخرجه البخاري في الإجارة- الإجارة إلى نصف النهار، ٢٢٦٩، والترمذي في الأمثال ٢٨٧١، وأحمد ٢/ ٦، ١١.

(٢) أخرجه البخاري في مواقيت الصلاة ٥٥٨.

(٣) كحديث أبي موسى المذكور بعده.

(٤) سبق تخريجه.

فيه خير دينهم ودنياهم وآخرتهم، ويسلمون به من الجهل والشك والحيرة والتذبذب، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ [الأنفال: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ۝﴾ [النور: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ۝﴾ [النور: ٣٥].

نور يقوى عند من وفقه الله حتى يكون كما قال عز وجل في الحديث القدسي: «ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه»[1].

فما بالك بمن كان الله سمعه وبصره ويده ورجله وأعطاه ما سأل وأعاذه مما استعاذ منه، هل يضيره شيء هل يخاف من أحد؟! كلا والله- نسأل الله التوفيق.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: « كيف أصبحت يا حارثة؟» قال: أصبحت مؤمناً حقاً. قال: «فما حقيقته إيمانك؟ فإن لكل قول حقيقة» قال: عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي، وأظمأت نهاري، وكأني أرى عرش الرحمن بارزاً، وكأني أرى أهل الجنة في الجنة يُنعمون، وأهل النار فيها يتعاوون. فقال النبي ﷺ: « عبد نور الله قلبه فالزم»[2].

وقد أحسن القائل:

سأعيش رغم الداء والأعداء ... كالنسر فوق القمة الشماء

النور في جنبي وبين جوانحي ... فعلام أخشى السير في الظلماء

وأيضاً ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ بعد الممات، يكون معكم في قبوركم في البرزخ يؤنسكم فيها وتهتدون به في الإجابة على أسئلة الملكين. ونوراً بعد البعث من

---

(١) أخرجه البخاري في الرقاق ٦٥٠٢- من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير: ١٠/ ٢٠٢، وعبد بن حميد في مسنده ١/ ١٦٥، وابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ١٧٠. وأخرجه عبد الرازق في «المصنف» وفي « التفسير» وابن المبارك في الزهد، وابن منده، والبيهقي في الشعب، وغيرهم انظر « الإصابة» ١/ ٥٩٧ ترجمة الحارث بن مالك الأنصاري.

القبور في عرصات القيامة ومواقفها الشديدة عند الصراط والميزان وعند تطاير الصحف وغير ذلك من المواقف التي يشيب من هولها الوليد قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَرَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِم بُشْرَىٰكُمُ ٱلْيَوْمَ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الحديد: ١٢].

وقال تعالى: ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ [التحريم: ٨].

قال ابن القيم[(١)]: وفي قوله: (تمشون به) نكتة بديعة، وهي أنهم يمشون على الصراط بأنوارهم، كما يمشون بها بين الناس في الدنيا ومن لا نور له فإنه لا يستطيع أن ينقل قدماً عن قدم على الصراط، فلا يستطيع المشي أحوج ما يكون إليه».

وشتان بين من يمشي بنور الله وبين من يتخبط فى الظلمات فى الدارين قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ أي: ويغفر لكم ذنوبكم بأن يتجاوز عن عقوبتها، ويسترها عن الخلق، لأن معنى المغفرة ستر الذنب عن الخلق والتجاوز عن العقوبة عليه كما جاء في حديث ابن عمر في المناجاة.

﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ «الغفور» و«الرحيم» اسمان من أسماء الله عز وجل «الغفور» على وزن «فعول» و « الرحيم» على وزن «فعيل» يدل « الغفور» على أن من صفته عز وجل المغفرة الواسعة، كما قال عز وجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ [الرعد: ٦]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ﴾ [النجم: ٣٢].

ويدل «الرحيم» على أن من صفته عز وجل الرحمة الواسعة التي عمت كل شيء وشملت كل حي كما قال عز وجل ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ۝١٤٧﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال تعالى: ﴿وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦]

ورحمته عز وجل قسمان رحمة هي صفة ذاتية ثابتة له عز وجل، ورحمة فعلية يوصلها إلى من شاء من خلقه، كما قال عز وجل ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَآءُ﴾ [العنكبوت: ٢١].

---

(١) انظر: «بدائع التفسير» ٤/ ٣٩٢.

وهي قسمان رحمة عامة لجميع الخلق كما قال عز وجل ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣ ، الحج: ٦٥].

ورحمة خاصة بالمؤمنين كما قال عز وجل ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾﴾ [الأحزاب: ٤٣]

ولمغفرته عز وجل ورحمته الواسعتين وعد من اتقاه وآمن برسوله بمضاعفة الأجر والثواب وإعطائهم نوراً يمشون به في الدنيا والآخرة.

﴿لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ ٱللَّهِ﴾ أي: بينا لكم فضلنا وإحساننا لمن اتقى الله وآمن برسوله وأن الله يعطيهم كفلين من رحمته ويجعل لهم نوراً يمشون به ويغفر لهم لأجل أن (يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله)، أي: لا يقدرون على حجز شيء من فضل الله ورده ممن أعطاه الله إياه، ولا على إعطائه لمن منعه الله عنه كما قال عز وجل عنهم ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [البقرة: ١١١، ١١٢].

قال السعدي[1]: «فأخبر الله تعالى المؤمنين برسوله محمد ﷺ المتقين لله أن لهم كفلين من رحمته، ونوراً ومغفرة، رغماً على أنوف أهل الكتاب».

وقد سبقت الإشارة إلى أن هذه الآية تقوي قول من قال إن الوعد بقوله ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ﴾ للمؤمنين من هذه الأمة. فإن في الآية هنا ما يشعر بالتوبيخ لأهل الكتاب مما يفهم منه أنهم كانوا يفتخرون على المؤمنين قبل نزول الآية بأنهم يؤتون أجرهم مرتين دون المؤمنين من هذه الأمة.

﴿وَأَنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ أي: وأن الفضل والزيادة والعطاء والخير كله بيد الله عز وجل يعطيه من يشاء من عباده بفضله، ويمنعه عمن يشاء بعدله.

﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ أي: والله صاحب الزيادة والإنعام العظيم وهو الجواد الكريم.

الفوائد والعبر:

١- إثبات رسالة نوح وإبراهيم عليهما السلام وأنهما من أفضل الرسل وجعل

---

(١) في: «تيسير الكريم الرحمن» ٧/ ٣٠٦.

النبوة والكتاب في ذريتهما والامتنان عليهما وعلى الخلق بذلك.

٢- أن من ذرية نوح وإبراهيم وقومهما وأقوام الرسل بعدهما عيسى بن مريم ومن قبله من هو مهتد وكثير منهم فاسقون.

٣- لا ينبغي الاغترار بما عليه الأكثرون.

٤- تتابع الرسل عليهم السلام بعد نوح وإبراهيم ـ عليهما السلام ـ.

٥- ختم رسل بني إسرائيل والرسل قبل محمد ﷺ بعيسى بن مريم عليه السلام وكتابه الإنجيل.

٦- رقة قلوب الحواريين أتباع عيسى عليه السلام ولينها.

٧- ابتداع أتباع عيسى الرهبانية وإلزامهم أنفسهم بما لم يفرضه الله عليهم طلباً منهم لرضوان الله، ومع ذلك لم يقوموا بما التزموا به حق القيام.

٨- أن من أحدث في دين الله وابتدع وشدد على نفسه فمصيره الانقطاع والترك، بل والخروج عن الحق والضلال، وفي الاتباع الخير والبركة واليسر.

٩- أن الله ـ عز وجل ـ لم يكتب على النصارى ولا غيرهم إلا ما يطيقون مما يبتغى به وجه الله ـ عز وجل ـ.

١٠- إيتاء الله ـ عز وجل ـ الذين آمنوا من أتباع عيسى عليه السلام أجرهم.

١١- تصدير الخطاب بالنداء للتنبيه والعناية والاهتمام.

١٢-نداء المؤمنين بوصف الإيمان تشريف وتكريم لهم وحث على الاتصاف بهذا الوصف وترغيب في امتثال ما ذكر بعده وأن امتثاله من مقتضيات الإيمان وعدمه يعد نقصاً في الإيمان.

١٣-وجوب تقوى الله والإيمان برسوله محمد ﷺ.

١٤-وعد الله ـ عز وجل ـ لمن اتقوه وآمنوا برسوله بإعطائهم نصيبين من رحمته ومضاعفة أجورهم ومنحهم نوراً معنوياً وحسيا يمشون به في الدنيا والآخرة ومغفرة ذنوبهم.

١٥- إثبات اسمين من أسماء الله ـ عز وجل ـ، وهما «الغفور» و«الرحيم» وصفة المغفرة الواسعة، والرحمة التامة له ـ عز وجل ـ الذاتية والفعلية الخاصة والعامة.

١٦-فضل الله ـ عز وجل ـ على المتقين المؤمنين من هذه الأمة بمضاعفة أجورهم ومنحهم النور ومغفرة ذنوبهم رغم أنوف الحاسدين من أهل الكتاب.

١٧-أن الفضل كله بيد الله يعطيه من يشاء وهو سبحانه ذو الفضل العظيم والجود والخير العميم.

فهرس موضوعات المجلد الأول

تفسير سورة الحجرات إلى نهاية تفسير سورة الحديد

الموضـــــوع الصفحة